





# الحياة العملية

تصنيف

الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي  
المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

ويزيد كتاب

المعنى عن حمل الأسفار في الأسفار

في تحرير ما في الإحياء من الأخبار

للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي  
المتوفى في سنة ٨٠٥ هـ

وتلما للشفع المجمعنا بالكتاب في آخره ثلاثة كتب:

الأول: تعريف الأحياء بفضائل الإحياء للعلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله  
ابن شيخ بن عبد الله العيدوس باعلوي.

الثاني: الإلهام عن إشكالات الإحياء للإمام الغزالي، وقد به اعتراضات  
أوردتها بعض المصنفين له على بعض مواضع من الإحياء.

الثالث: عوارف المعارف، المعارف بالله تعالى للإمام الشهروردي.

## المجلد الثالث

بطلب من

المكتبة التجارية الكبرى

بصرم. ب ٥٧٨

# بسم الله الرحمن الرحيم

## كتاب شرح عجائب القلب

وهو الكتاب الأول من ربيع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تمجيد دون إدراك جلاله القلوب والخواطر، وتدهش في مبادئ إشراق أنواره الأحداق والنواظر، المطلع على خفيات السرائر، العالم بمكنونات الضمائر، المستغنى في تدبير ملكته عن المشاور والموازر، مقرب القلوب وغفار الذنوب، وسائر الميوس، ومفرج الكرب.

والصلاة على سيد المرسلين، وجامع شمل الدين، وقاطع ذابر الملحدين. وعلى آله الطيبين الطاهرين، وسلم كثيرًا.

أما بعد : فشرَّف الإنسان وقضيله التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستمداده لمعرفة الله سبحانه ، التي هي في الدنيا جماله وكأله وفخره ، وفي الآخرة عدته وذخره ، وإنما استعد لمعرفة بقلبه لا بمجارحه من جوارحه ؛ فالقلب هو العالم بالله ، وهو المتقرب إلى الله ، وهو العامل لله ، وهو الساعي إلى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه ، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات ، يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الراعي للرعية والصانع للآلة ؛ فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله ، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقا بغير الله ، وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعانف وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيفعل إذا زكاه ، وهو الذي يحيب ويشقى إذا دنسه ودسأه ، وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى ، وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره ، هو العاصي المتمرد على الله تعالى وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره ، وإظلامه واستنارته تظهر بحسن الظواهر ومساويه ، إذ كل إناء يتضح بما فيه ؛ وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه ، وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه ، وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه ، ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل ، إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم ، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم ، فإن الله يحول بين المرء وقلبه . وحيلولة بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته وكيفية تعلقه بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأنه كيف يهوى مرة إلى أسفل السافلين وينخفض إلى أفق الشياطين ، وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ويرتفع إلى عالم الملائكة المقربين . ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويرتعد لما يلوح من خزائن المكشوت عليه وفيه ، فهو بمن قال الله تعالى فيه ﴿ نسا الله فأنسام أنقسم أولئك هم الفاسقون ﴾ فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طريق السالكين .

وإذا فرغنا من الشطر الأول من هذا الكتاب من النظر فيما يجرى على الجوارح من العبادات والمعادات - وهو العلم الظاهر ، ووعدها أن نشرح في الشطر الثاني ما يجرى على القلب من الصفات الملهكات والنتيجات - وهو العلم الباطن فلا بد أن تقدم عليه كتابين : كتابا في شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه ، وكتابا في كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه . ثم نندفع بعد ذلك في تفصيل الملهكات والنتيجات .

فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال ما يقرب من الأفهام ؛ فإن التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة في جملة عالم المملوكات مما يكل عن دونه أكثر الأفهام .

### بيان معنى النفس ، والروح ، والقلب ، والعقل ، وما هو المراد بهذه الأسماء

اعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل في هذه الأبواب . ويقال في لحوال العلماء من يحيط بهذه الأسماء واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها ، وأكثر الأغاليط من شأنها الجمل بمعنى هذه الأسماء واشترائها بين مسميات مختلفة . ونحن نشرح في معنى هذه الأسماء ما يتعلق بمرغنا :

اللفظ الأول : لفظ القلب ، وهو يطلق لمعنيين ( أحدهما ) اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم غصوص ، وفي باطنه تجويف ، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه ، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته ، إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية . وهذا القلب موجود للبهائم ، بل هو موجود للبشر . ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به ذلك ؛ فإنه قطعة لحم لا قدر له ، وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن آدميين . ( والمعنى الثاني ) هو لطيفة بائية روحانية لها هذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك للعالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمغائب والمطالب ، ولها علاقة مع القلب الجسماني ، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجعل علاقته ، فإن تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصفات ، أو تعلق المستعمل للألة بالآلة ، أو تعلق المتمكن بالممكن ، وشرح ذلك بما تروقه لمعنيين ( أحدهما ) أنه متعلق بعلوم المكشوفة ، وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة ( والثاني ) أن تحقيقه يستدعي إفساء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) فليس لغيره أن يتكلم فيه ، والمقصود أن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردناه به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها في ذاتها وعلم المعاملة يقتصر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يقتصر إلى ذكر حقيقتها .

اللفظ الثاني : الروح ، وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين : ( أحدهما ) جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني ، فينشر بواسطة العروق الضوآرب إلى سائر أجزاء البدن وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم متاعل أعضائها ، يضاهي فيضان الثور من السراج الذي يدار في زوايا البيت ؛ فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا ويستثير به ، والحياة مثالها الثور الحاصل في الحيطان ، والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه ، والأطباء إذا أطلقوا لفظ

(١) حديث : أنه ﷺ يتكلم في الروح . متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح . وفيه : فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم ، فقلت أنه يوحى إليه ... وقد تقدم .

الروح أرادوا به هذا المعنى : وهو بخار لطيف أنفضت حرارة القلب ، وليس شرحه من غرضنا ، إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان ، فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينفذوا إلى جوهر رب العالمين ، فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا . ( المعنى الثاني ) هو اللطيفة العالة المدركة من الإنسان ، وهو الذى شرحناه فى أحد معانى القلب ، وهو الذى أراد الله تعالى بقوله ( قل الروح من أمر ربي ) وهو أمر عجيب ربانى تعجز أكثر العقول والأفهام عن إدراك حقيقته .

اللفظ الثالث : النفس ، وهو أيضا مشترك بين معان ، ويتعلق بفرضانته معنيان : ( أحدهما ) أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان على ماسياتى شرحه ، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف ؛ لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ؛ فيقولون : لا بد من مجاهدة النفس وكسرها ؛ وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « أعدى عدوك نفسك التى بين جنيتك » (١) . ( المعنى الثاني ) هو اللطيفة التى ذكرناها التى هى الإنسان بالحقيقة ، وهى نفس الإنسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ؛ فإذا سكنت تحت الأمر وذابها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة . وقال الله تعالى فى مثلها ( يا أيها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ) والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى ؛ فإنها مبعدة عن الله . وهى من حزب الشيطان . وإذا لم يتم سكوتها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعارضة عليها سميت النفس الواهمة ، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه . قال الله تعالى ( ولا أقسم بالنفس الواهمة ) وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان سميت النفس الآداة بالسوء . قال الله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام وأمرأة العزيز ( وما أبصر نفسى إن النفس لآمرة بالسوء ) وقد يجوز أن يقال : المراد بالآمرة بالسوء : هى النفس بالمعنى الأول ، فإن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم ، وبالمعنى الثانى محمودة لأنها نفس الإنسان أى ذاته وحقيقته العالة بالله تعالى وسائر المعلومات .

اللفظ الرابع : العقل ، وهو أيضا مشترك لمعان مختلفة ذكرناها فى كتاب العلم ، والمتعلق بفرضنا من جعلها معنيان : ( أحدهما ) أنه قد يطلق ويراد به العلم بمقتضى الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذى يحل القلب ( والثانى ) أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعنى تلك اللطيفة . ونحن نعلم أن كل عالم فله فى نفسه وجوده أصل قائم بنفسه ، والعلم صفة حافظة ، والصفة غير الموصوف ، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعنى المدرك ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « أول ما خلق الله العقل » (٢) ، فإن العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق ، بل لا بد وأن يكون المحل مخلوقا قبله أو معه ، ولأنه لا يمكن الخطاب منه . وفى الخبر : أنه قال له تعالى أقبل فأقبل ، ثم قال له أدير فأدير ... الحديث .

فإن قد انكشف لك أن معانى هذه الأسماء موجودة : وهى القلب الجسدى ، والروح الجسدى ، والنفس الشهوانية ، والعلوم . فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ، ومعنى خامس : وهى اللطيفة العالة المدركة من الإنسان . والألفاظ الأربعة يحملتها تواردها عليها ، فالعالماتى خمسة ، والألفاظ أربعة ، وكل لفظ أطلق المعنيين ،

(١) حديث « أعدى عدوك نفسك التى بين جنيتك » أخرجه البيهقى فى كتاب الزهد من حديث ابن عباس ، وفى عهد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضائعين .

(٢) حديث : « أول ما خلق الله العقل » وفى الخبر « أنه قال له : أقبل فأقبل وقال أدير فأدير ... » تقدم فى العلم .

وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردتها ؛ فترام يتكلمون في الحواطر ويقولون : هذا خاطر العقل ، وهذا خاطر الروح ، وهذا خاطر القلب . وهذا خاطر النفس ، وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الأسماء ، ولأجل كلف النطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الأسامي ، وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب ؛ فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء ، وقد يكتفى عنه القلب الذي في الصدر ؛ لأن بين تلك الطيفه وبين جسم القلب علاقة خاصة ، فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب ، فتعطيها الأول بالقلب وكأته عليها وعلقتها ومالها ومطيتها ، ولذلك شبه سهل التسرى القلب بالعرش ، والصدر بالكرسي فقال : القلب هو العرش والصدر هو الكرسي ، ولا يظن به أنه عرش الله وكرسيه فإن ذلك محال ، بل أراد به أنه ملكوته والمجرى الأول لتدبيره وتصرفه ، فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسي بالنسبة إلى الله تعالى ، ولا يستقيم هذا التشبيه أيضاً إلا من بعض الوجوه ، وشرح ذلك أيضاً لا يليق بفرضنا فلتجاوزوه .

### بيان جنود القلب

قال الله تعالى ( وما يعلم جنود ربك إلا هو ) فقه سبحانه في القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجتدة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو . ونحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب فهو الذي يتعلق بفرضنا . وله جندتان : جند يرى بالابصار ، وجند لا يرى إلا بالبصائر ، وهو في حكم الملك ، والجنود في حكم الخدم والأعوان ؛ فهذا معنى الجند .

فأما جنده المشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة ، فإن جميعها خادمة للقلب ومسخرة له ، فهو المتصرف فيها والمرد لها ، وقد خلقت بمجولة على طاعته لا تستطيع له خلافاً ولا عليه تمرداً ؛ فإذا أمر العين بالافتتاح افتتحت ، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت ، وإذا أمر اللسان بالكلام وكجزم الحكم به تكلم ، وكذا سائر الأعضاء .

وتسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى ، فإنهم مجبولون على الطاعة لا يستطيعون له خلافاً ، بل لا يصونون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وإنما يفرقان في شيء : وهو أن الملائكة عليهم السلام عالة بطاعته وامثالها ، والأجفان تطيع القلب في الافتتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعته للقلب ، وإنما افتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والزاد لسفره الذي لأجله خلق ، وهو السفر إلى الله سبحانه وقطع المنازل إلى لقائه ، فلا جله خلقت القلوب . قال الله تعالى ( وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ) وإنما مركبه البدن وزاده العلم . وإنما الأسباب التي توصله إلى الزاد وتمكنه من الزود منه هو العمل الصالح ، وليس يمكن العبد أن يصل إلى الله سبحانه مالم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا ؛ فإن المنزل الأدنى لا بد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى ، فالدنيا مدرعة الآخرة ، وهي منزل من منازل الهدى ؛ وإنما سميت دنيا ؛ لأنها أدنى المنزلين ، فاضطر إلى أن يزود من هذا العالم ؛ فالبدن مركبه الذي يصل به إلى هذا العالم ، فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه ، وإنما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره ، وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك ، فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جنتين : باطن ، وهو الشهوة . وظاهر ، وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء ، فخلق في القلب من الشهوات ما احتاج إليه ، وخلقت الأعضاء التي هي آلات الشهوات ، فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جنتين . باطن ، وهو الغضب الذي به يدفع المهلكات ويتقنم من الأعداء وظاهر ، وهو اليد والرجل الذي بهما يعمل بمقتضى الغضب ، وكل ذلك بأمور خارجة ؛ فالجوارح من البدن كالأسلحة

وغيرها ؛ ثم المحتاج إلى الغذاء ما لم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وإلغى ، فافتقر للبرعة إلى جنتين : باطن ، وهو إدراك السمع والبصر والشم واللمس والنوق ، وظاهر ، وهو العين والأذن والأنف وغيرها . وتفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول ولا تحويه مجلدات كثيرة . وقد أشرنا إلى طرف يسير منها في كتاب الفكر فليقتنع به .

الجملة جنود القلب تحضرها ثلاثة أصناف : صنف باعث ومستحث : إما إلى جلب النافع الموافق كالشهوة ، وإما إلى دفع الضار المنافي كالغضب ، وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة .  
والثاني : هو المحرك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد ، ويعبر عن هذا الثاني بالقدرة : وهي جنود مبثوثة في سائر الأعضاء لسيا العضلات منها والأوتار .

والثالث : هو المدرك المتعرف للأشياء كالجواسيس : وهي قوة البصر والسمع والشم والنوق واللمس ، وهي مبثوثة في أعضاء معينة ، ويعبر عن هذا بالعلم والإدراك ، ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة هي الأعضاء المركبة من الشحم والدم والمصّب والدم والعظم التي أعدت آلات لهذه الجنود ، فإن قوة البطش إنما هي بالأصابع ، وقوة البصر إنما هي بالعين ، وكذا سائر القوى .

ولسنا نكمل في الجنود الظاهرة أفعى الأعضاء فإنها من عالم الملك والشهادة ، وإنما نكمل الآن فيما أيدت به من جنود لم تروها . وهذا الصنف الثالث وهو المدرك من هذه الجملة ينقسم إلى ما قد أسكن المنازل الظاهرة وهي الحواس الخمس : أفعى السمع والبصر والشم والنوق واللمس ، وإلى ما أسكن منازل باطنة : وهي تحاويف النعاس ، وهي أيضاً خمسة ، فإن الإنسان بعد رؤية الشيء يغمض عينه فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال ، ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الجند الحافظ ، ثم يفكر فيما حفظه فركب بعض ذلك إلى البعض ، ثم يذكر ما قد نسيه ويعود إليه ، ثم يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالشم المشترك بين المحسوسات ، ففي الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ ، ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخيل لكان الدماغ مخلوقاً عنه كما تخلو اليد والرجل عنه ، فذلك القوي أيضاً جنود باطنة وأما كتبها أيضاً باطنة ، فهذه هي أقسام جنود القلب ، وشرح ذلك بحيث يدرك فهم الضعفاء بضرب الأمثلة يطول .

ومقصود مثل هذا الكتاب أن يتفنع به الأفوياء والفحول من العلماء ، ولكنا نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم .

### بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة

اعلم أن جندي الغضب والشهوة قد يتقادان للقلب اقتياداً تاماً ، فبعينه ذلك على طريقه الذي يسلكه وتحسن مراقبتهما في السفر الذي هو بصده ، وقد يستصيان عليه استعصاء بنى وتمرد حتى يملكاه ويستعبده ، وفيه هلاكة وانقطاعه عن سفره الذي به وصوله إلى سعادة الأبد ، والقلب جند آخر : وهو العلم والحكمة والتفكير ، كما سيأتي شرحه ، وحقه أن يستعين بهذا الجند فإنه حزب الله تعالى على الجنديين الآخرين ، فانها قد يلتحقان بحزب الشيطان ، فإن ترك الاستعانة وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقيتنا وخسر خراباً ميبئاً . وذلك حالاً أكثر الخلق ، فإن عقولهم صارت تسخرة لشهواتهم في استتياط الحيل لقضاء الشهوة ، وكان ينبغي أن تكون الشهوة مسخرة لعقولهم فها يفتر العقل إليه ، ونحن نقرب ذلك إلى فهمك بثلاثة أمثلة :

المثال الأول : أن نقول : مثل نفس الإنسان في بدنه أفعى بالنفس الطيفة المذكورة كمثل ملك في مدينته وملكته

فإن البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها وجوارحها وقراها بمنزلة الصناعات والعملة والقوة العقلية المنكسرة له، كالشمير الناصع والوزير العاقل . والشهوة له كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة وال غضب والحمية له كما حب الشرط والعبد الجالب لليرة كذاب مكار خداع خبيث يمثل بصورة الناصع وتحت فصحة الشر المائل والهم القاتل وديته وعادته منازعة الوزير الناصع في آرائه وتديرته حتى إنه لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة ، كما أن الوالي في مملكته إذا كان مستغنيا في تديرته بوزيره ومستشاره له ومعرضا عن إشارة هذا العبد الخبيث ، مستدلا بإشارته في أن الصواب في تقيض رأييه ، أدبه صاحب شرطته وسامه لوزيريه وجهه مؤتمرا له مسلطا من جهة على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأخصاره ، حتى يكون العبد مسوسا لاسائسا ، ومأمورا بمدبره لا أمرا مدبرا ، استقام أمر بسلطه وانظم العدل بسببه ؟ فكذا النفس متى استعانت بالعقل ، وادبت بحمية الغضب ، وسلطتها على الشهوة ، واستعانت بإحداهما على الأخرى نأرت بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوته بمخالفة الشهوة واستدراجها ، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقييع مقتضياتها ، اعتدلت قواما وحسنت أخلاقها ، ومن عدل عن هذه الطريقة كان كن قال الله تعالى فيه ﴿ أفأريت من اتخذ لله وأهله الله على علم ﴾ وقال تعالى ﴿ واتبع هواه فثله كمثل السكب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ وقال عز وجل فيمن نهى النفس عن الهوى ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المساوى ﴾ وسيأتى كيفية مجاهدة هذه الجنود وتسليط بعضها على بعض في كتاب رياضة النفس إن شاء الله تعالى .

المثال الثانى : اعلم أن البدن كالمدنية والعقل - أعنى المدرك - من الإنسان كمالك مدبر لها ، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأهوائه ، وأعضاؤه كرعته ، والنفس الأماره بالسوء التى هي الشهوة والغضب كعدو يتنازع في مملكته ويسعى في إهلاك رعيته . فصار بدنه كرباط ونثر ، ونفسه كقيم فيه مرابط ، فإن هوجاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يجب حمد أثره إذا عاد إلى الحضرة كما قال الله تعالى ﴿ والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة ﴾ وإن ضيع نفره وأهمل رعيته ذم أثره فانتقم منه عند الله تعالى فيقال له يوم القيامة : ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضالة ولم تحجر الكسير اليوم أنتقم منك (١) كما ورد في الخبر ، وإلى هذه المجاهدة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « رجسنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر (٢) » .

المثال الثالث : مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه كسكبه ، ففى كان الفارس حاذقا وفرسه مرضوا وكلبه مؤدبا معلما كان جديرا بالتجاع . ومتى كان هو نفسه أخرق وكان الفرس جوحا والسكب عقورا فلا فرسه يبعث تحته متقادا ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعا فهو خليق بأن يطب فضلا عن أن ينال ما طلب . وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان وقلة حكمته وكلال بصيرته ، وجماع الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصا شهوة البطن والفرج ، وعقر السكب مثل غلبة الغضب واستيلائه ، نسأل الله حسن التوفيق بطلفه .

### بيان خاصية قلب الإنسان

اعلم أن جملة ما ذكرناه قد أتم الله به على سائر الحيوانات سوى الأدنى : إذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس

(١) حديث : يقال يوم القيامة ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة .. الخبر ، لم أجده أصلا

(٢) « رجسنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » أخرجه البيهقي من حديث جابر وقال : هذا إسناد فيه ضعف .

الظاهرة والباطنة أيضا ، حتى إن الشاة ترى الذئب يمينها تقلم عداوته بقلبها فتهرب منه ، فذلك هو الإدراك الباطن .

فلنذكر ما يختص به قلب الإنسان ، ولأجله عظم شره واستأهل القرب من الله تعالى ، وهو راجع إلى علم وإرادة :

أما العلم فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية فإن هذه أمور وراء المحسوسات ولا يشاركها فيها الحيوانات ، بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل إذ يحكم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالة واحدة ، وهذا حكم منه على كل شخص . ومعلوما أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأشخاص شككه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه الحس ، وإذا فهمت هذا في العلم الظاهر الضروري فهو في سائر النظريات أظهر .

وأما الإرادة فإنه أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه انبعت من ذاته شوق إلى جهة المصلحة وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها ، وذلك غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة . فإن الشهوة تنفر عن الفقد والحجامة ، والعقل يريد بها ويطلبها وينذل المال فيها . والشهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة في حين المرض والمافل يجد في نفسه زاجر أعنها ، وليس ذلك زاجر الشهوة ، ولو خلق الله العقل المعروف بعواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعا على التحقيق .

فإن قلب الإنسان اخصص بعلم وإرادة ينفك عنها سائر الحيوان بل ينفك عنها الصبي في أول الفطرة وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ ، وأما الشهوة والغضب والخواس الظاهرة والباطنة فإنها موجودة في حق الصبي .

ثم الصبي في حصول هذه العلوم فيه له درجتان ؛ إحداهما : أن يشتمل قلبه على سائر العلوم الضرورية الأولية : كالمعنى باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة فتكون العلوم النظرية فيها غير حاصلة إلا أنها صارت ممكنة قريبة الإمكان والحصول ، ويكون حاله بالإضافة إلى العلوم كحال الكاتب الذي لا يعرف من الكتابة إلا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فإنه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد .

الثانية : أن تحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر فتكون كالتخزوة عنده ، فإذا شاء رجع إليها وحاله حال الحائق بالكتابة إذ يقال له كاتب وإن لم يكن مباشرا للكتابة بقدرته عليها ، وهذه هي غاية درجة الإنسانية ولكن في هذه الدرجة مراتب لأخصى يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقتها وبشرط المعلومات وخسبها وبطريق تحصيلها ؛ إذ تحصل لبعض القلوب بإلهام إلى على سبيل المبادأة والمكاشفة ، ولبعضهم يتعلم واكتساب ، وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطيء الحصول ، وفي هذا المقام يتباين منازل العلماء والحكماء والأنبياء والأولياء ، فدرجات الترقى فيه غير محصورة إذ معلومات الله سبحانه لا نهاية لها ، وأقصى الرتب وتبة التي الذي تكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف ، بل يكشف إلى في أسرع وقت ، وهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى قريبا بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكان والمسافة ومراق هذه الدرجات هي منازل السائرين إلى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل ، وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه في سلوكه فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنزل . فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به إيمانا بغير ، كما أننا تؤمن بالنبوة والتي ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي ، وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ، ولا الطفل حال المميز وما يفتح له من



العلوم الضرورية، ولا المميز حال المائل وما اكتسب من العلوم النظرية فكذلك لا يعرف المائل ما افتتح الله على أوليائه وأنبياؤه من مزايا لطفه ورحمته (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا يسلك لها) وهذه الرحمة مبدولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضمون بها على أحد ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم «إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فترضوا لها» (١). والعرض لها بظهير القلب وتركيبه من الحب والكفورة الخاصة من الأخلاق المدخومة — كما سيأتي بيانه — وإلى هذا الجود الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من داع فأستجيب له؟» ويقول عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه عز وجل «لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً» (٢). ويقول تعالى «من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعاً» (٣)، كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم — تعالى عن البخل والمنع علواً كبيراً — ولكن حجب لجح وكندورقوشغل من جهة القلوب فإن القلوب كالآواني فادامت تمتلئ بالماء لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى. وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء» (٤). ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان العلم والحكمة.

وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فيه كمال الإنسان وفي كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال. فالإنسان مركب للنفس، والنفس على العلم، والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التي لأجلها خلق. وكما أن الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ويختص عنه بخاصية الكر والفرو حسن الهيئة فيكون الفرس مخوفاً لأجل تلك الخاصية، فإن تعطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار. وكذلك الإنسان يشارك الحمار والفرو في أمور ويفارقهما في أمور هي خاصية تلك الخاصية من صفات الملائكة المقربين من رب العالمين. والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة، فإن الإنسان من حيث يتفنى ويفسل فنبات، ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار جبان، ومن حيث صورته وقامته فكما للصورة المنقوشة على الحائط، وإما خاصيته معرفة حقائق الأشياء.

ومن استعمل جميع أعضائه وغواه على وجه الاستماتة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة؛ فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكاً وربانياً كما أخبر الله تعالى عن صوابات يوسف عليه السلام بقوله (ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم).

ومن صرف همه إلى اتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحط إلى حضيض أفق البهائم فيصير إما غمراً كثوراً، وإما شرها كخنزير. وإما ضرباً ككلب أو سنور، أو حقوداً كجمل. أو متكبراً كنمر. أو ذاروغان كعنكب، أو يجمع ذلك كله كشیطان مرید.

وما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستماتة به على طريق الوصول إلى الله تعالى — كما سيأتي بيان طرف منه في كتاب الشكر — فن استعمله فيه فقد فاز، ومن عدل عنه فقد خسر وخاب. ووجه السعادة في ذلك أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده، والدار الآخرة مستقره، والدنيا منزله، والبدن مركبه، والأعضاء

(١) «إن لربكم في أيام دهركم لنفحات...» متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وقد تقدم.

(٢) «يقول الله عز وجل لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي...» لم أجده أصلاً إلا أن صاحب الفردوس

أخرجه من حديث أبي العبداء ولم يذكر له وقته في مسند الفردوس إسناده.

(٣) «يقول الله من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعاً» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٤) «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم...» أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه وقد تقدم في الصيام.

خدمه . فيستقر هو — أعنى المدرك من الإنسان — في القلب الذى هو وسط ملكته كالملك ، ويجرى القوة الحياتية المودعة في مقدم الدماغ بجري صاحب يريده إذ تجتمع أخبار الحسوسات عنده ويجرى القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ بجري غايته ، ويجرى السان بجري ترجماته ، ويجرى الأحشاء المتحركة بجري كتابه ، ويجرى الحواس الخمس بجري جواسيه فيوكل كل واحد منها بأخبار صقع من الأصقاع ؛ فيوكل العين بعالم الألوان ، والسمع بدلم الأصوات ، والشم بعالم الروائح . وكذلك سائر ما فيها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم ويؤدونها إلى القوة الحياتية التي هي كصاحب البريد ، ويسلها صاحب البريد إلى الخازن وهي الحافظة ، ويرضها الخازن على الملك فيقتبس منها ما يحتاج إليه في تدبير ملكته وإتمام سفره الذى هو بصدده ، وقع عدوه الذى هو مبتلى به . ودفع قواطع الطريق عليه فإذا فعل ذلك كان موقفا سعيدا شاكرًا نعمة الله وإذا عطل هذه الجلة أو استعملها لكن في مراعاة أعدائه وهي الشهوة والغضب وسائر المحظوظ المأجلة ، أو في عمارة طريقه دون منزله إذ الدنيا طريقته التي عليها عبوره ، ووطنه ومستقره الآخرة ؛ كان مخذولا شقيًا كافرًا بنعمة الله تعالى مضيعًا لجنوده الله تعالى ناصرًا الأعداء الله مخذلا لحزب الله فيستحق العقاب والإبعاد في المنقلب والمعاد . نموذج باقه من ذلك .

وإلى المثال الذى ضربناه ، أشار كعب الأخبار حيث قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت : الإنسان عيناها هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحاه ووجلاه بريد والقلب منه ملك (١) فإذا طالب الملك طابت جنوده ، فقالت : هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقول . وقال على رضي الله عنه في تمثيل القلوب : إن الله تعالى في أرضه آتية وهي القلوب فأحبها إليه تعالى أرقبا وأصفها وأصلها . ثم فسره فقال : أصلها في الدين وأصفها في اليقين وأرقها على الإخوان ، وهو إشارة إلى قوله تعالى ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ قال أبو بن كعب رضي الله عنه : معناه مثل نور المؤمن وقلبه وقوله تعالى ﴿ أو كظلمات في بحر لجي ﴾ مثل قلب المنافق . وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى ﴿ في لوح محفوظ ﴾ وهو قلب المؤمن . وقال سهل : مثل القلب والصدر مثل العرش والكبرى هذه أمثلة القلب .

### بيان مجاميع أوصاف القلب وأمثله

أعلم أن الإنسان قد امططح في خلقته وتركيبه أربع شوائب . فذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهي : الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية . فهو من حيث سبط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العدوان والبغضاء والتهمج على الناس بالضرب والقتل . ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره . ومن حيث إنه في نفسه أمر رباني كما قال الله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ فإنه يدعى لنفسه الربوبية ، ويجب الاستيلاء ، والاستعلاء ، والتخصص ، والاستبداد بالأمور كلها ، والتفرد بالرياسة ، والانسلال عن رتبة العبودية والتواضع ، ويشتهى الاطلاع على العلوم كلها ؛ بل يدعى لنفسه العلم ، والمعرفة ، والإحاطة بحقائق الأمور ، ويفرح إذا نسب إلى العلم ، ويمزج إذا نسب إلى الجهل . والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقدرة على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية ، وفي الإنسان حرص على ذلك . ومن حيث يختص من البهائم بالتمييز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرا يستعمل التمييز في

(١) حديث عائشة: «الإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ... الحديث». أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي والطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة نحوه وله ولأحمد من حديث أبي ذر : وأما الأذن فقمع وأما العين فقرة لما يوعى القلب ولا يصح منها شيء .

استنباط وجه الشر ، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع ، ويظهر الشر في مرض الخير ، وهذه أخلاق الشياطين .

وكل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة — أعنى الربانية والشرطانية والسبعية والبهيمية — وكل ذلك مجموع في القلب . فكان المجموع في إهاب الإنسان : خزين وكلب وشيطان وحكيم .

فالخنزير هو الشهوة فإنه لم يكن الخنزير مذموماً لونه وشكله وصورته بل لجشعه وكلبه وحرصه . والكلب هو الغضب فإن السبع العناري والكلب المقور ليس كبا وسبما باعتبار الصورة واللون والشكل ، بل روح معنى السبعية من الضراوة والعنوان والعقر ، وفي باطن الإنسان ضراوة السبع وغضب وحرص الخنزير وشبهه فالخنزير يدعو بالشره إلى الفحشاء والمنكر والسبع يدعو بالغضب إلى الظلم والإيذاء .

والشيطان لا يزال بهيج شهوة الخنزير ويغضب السبع ويفرغ أحدهما بالآخر ويمسح لها ماها مجبولان عليه . والحكيم الذي هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره بأن يكشف عن تليسه يصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح ، وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويحصل الكلب مقهوراً تحت سياسته ، فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر العدل في ملكة البدن وجرى السك على الصراط المستقيم ، وإن عجز عن تهرها تهره واستخدموه ، فلا يزال في استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشيع الخنزير ويرضى الكلب فيكون دائماً في عبادة كلب وخنزير .

وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همهم البطن والفرج ومنافسة الأصدقاء ، والمحب من أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم الحجارة ، ولو كشف النطاء عنه وكشف بحقيقة حاله ومثل له حقيقة حاله كما يمثل للساكنين إما في النوم أو في اليقظة لراى نفسه مائلاً بين بنى خنزير ساجداً له مرة وراكماً أخرى ومنتظراً لإشارته وأمره . فهما حاج الخنزير لطلب شيء من شهوراته انبعث على الفور في خدمته وإحسان شهورته ، أو رأى نفسه مائلاً بين بنى كلب مقور عابداً له طيعاً سامعاً لما يقتضيه ويتسعه مدققاً بالفكر في حيل الوصول إلى طاعته وهو بذلك ساع في مسرة شيطانه فإنه الذى بهيج الخنزير ويثير الكلب ويجمعهما على استخدامه فهومن هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده ، ولينظر بعين البصيرة فلا يرى إن أنصف نفسه إلا ساعياً طول النهار في عبادة هؤلاء ، وهذا غاية الظلم إذ جعل المالك مملوكاً والرب مريوباً والسيد عبداً والقاهر مقهوراً ، إذ العقل هو المستحق للسيادة والتعبر والاستيلاء وقد سخره هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر إلى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تراكم عليه حتى يصير طاعباً ودينياً مهلكاً القلب وميتاً له .

أما طاعة خنزير الشهوة تصدر منها صفة الرقاعة والخبث والتبذير والتفتير والرياء والمتكدة والمجانة والعجب والحرص والجشع والملق والحسد والمقد والتشاة وغيرها .

وأما طاعة كلب الغضب تنتشر منها إلى القلب صفة التهور والبذاءة والبنخ والصف والاستشاعة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستغفاف وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها .

وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والعماء والجراة والتلبيس والتضريب والغش والخب والتناؤ وأمثالها . ولوعكس الأمر ونهر الجميع تحت سياسة الصفات الاربعة : لاستقر في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة اليقين والإحاطة بحقائق الأشياء ومعركة الأمور على ما هي عليه ، والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة ، واستحقاق التقدم على الخلق لكل العالم وجلاله ، ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ، ولاانتشار إليه

من ضبط خنزير الشهوة وردة إلى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والمهذب والرهذ والورع والتقوى والانضباط وحسن الهيئة والحياء والطرف والمساعدة وأمثالها . ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وأهملها وردما إلى حد الراجب صفة الشجاعة والكرم والتجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتجال والعفو والتبات والتبيل والشهامة والوقار وغيرها .

فالقلب في حكم مرة قد اكتسفت هذه الأمور المؤثرة فيه ، وهذه الآثار على التواصل وأصلة إلى القلب . أما الآثار المحصورة التي ذكرناها فلها تزايد مرة القلب جلاء وإشراقاً وتوراد وضياء حتى يتلألأ فيه جملة الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين ، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بعبيده خيراً جعل له واعظاً من قلبه <sup>(١)</sup> » ويقول صلى الله عليه وسلم « من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ <sup>(٢)</sup> » وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر قال الله تعالى ( ألا يذكر الله تلمنن القلوب ) .

وأما الآثار المذمومة فلها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرة القلب ولا يزال يترام عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوباً عن الله تعالى ، وهو الطبع وهو الرين قال الله تعالى ( كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ) وقان عز وجل ( أن لو شاء أصيناهم بذنوبهم فطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ) فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب كإربط السماع بالتقوى فقال تعالى ( واتقوا الله واسمعوا ... واتقوا الله ويعلمكم الله ) .

وهما تراكت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يسمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستعين بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور الملم عليها . فإذا قرع مسمه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن دخرج من أذن ولم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك ( أولئك يتأسوا من الآخرة كما يتأس الكفار من أصحاب القبور ) وهذا هو معنى أسود القلب بالذنوب كما فلق به القرآن والسنة .

قال ميمون بن مهران : إذا أذهب المبد ذنباً نكتة في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع وتاب صقل ، وإن عا د زيد فيها حتى يطوق قلبه فهو الران وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهو وقلب الكافر أسود منكوس <sup>(٣)</sup> » فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب ، ومعاصيه مسودات له فمن أقبل على المعاصي أسود قلبه ، ومن اتبع السيئة الحسنة وعما أنزها لم يظلم قلبه ، ولكن يتقص نوره كالمرآة التي يتنفس فيها ثم يمسح ويتنفس ثم تمسح ، فلها لا تخلو عن كدورة . وقد قال صلى الله عليه وسلم « القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهو فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصغف فيه إيمان ونفاق <sup>(٤)</sup> » فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدحها الماء الطيب . ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدحها الصقيع والصديد فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها ؟ وفي رواية : ذهبت به ، قال الله تعالى ( إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ) فأخبر أن جلاء القلب وإحصاره يحصل بالذكر وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا . فالتقوى باب الذكر ، والذكر باب الكشف ، والكشف باب الفوز الأكبر ، وهو الفوز بإتمام الله تعالى .

(١) حديث : « إذا أراد الله بعبيده خيراً جعل له واعظاً من قلبه » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة وإسناده جيد .

(٢) حديث : « من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ » . لم أجده أصلاً .

(٣) حديث : « قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهو ... الحديث » . أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وهو معنى الحديث الذي يليه .

(٤) « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهو ... » أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد الخدري . وقد تقدم .

## بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة

اعلم أن محل العلم هو القلب ؛ أعني اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح وهي المطاعة الخدومة من جميع الأعضاء ، وهي بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمزاة بالإضافة إلى صور المتلونات ؛ فكان للتلون صورة ومثال تلك الصورة ينطبق في المرأة ويحصل بها ، كذلك لكل معلوم حقيقة وتلك الحقيقة صورة تنطبق في مرآة القلب وتضع فيها ، وكأن المرأة غير وصور الأشخاص غير وحصول مثالها في المرأة غير في ثلاثة أمور . فكذلك هنا ثلاثة أمور القلب ، وحقائق الأشياء ، وحصول نفس الحقائق في القلب وحضورها فيه .

فالعلم عبارة عن القلب الذي فيه يحمل مثال حقائق الأشياء ، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء . والعلم عبارة عن حصول المثال في المرأة .

وكأن القبض مثلا يستدعي (قبضا) كاليد (مقبوضا) كالسيف ، ووصلا بين السيف واليد . بحصول السيف في اليد . ويسمى (قبضا) فكذلك وصول مثال المعلوم إلى القلب يسمى علما ، وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجودا ولم يكن العلم حاصلًا ، لأن العلم عبارة عن وصول الحقيقة إلى القلب ، كأن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلًا لعدم وقوع السيف في اليد ، نعم القبض عبارة عن حصول السيف بعينه في اليد والمعلوم بعينه لا يحصل في القلب ، فن علم النار لم تحصل عين النار في قلبه ، ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها ، فتشبه بالمرآة أولًا لأن عين الإنسان لا تحصل في المرأة وإنما يحصل مثال مطابق له ، وكذلك حصول مثال مطابق للحقيقة العلوم في القلب يسمى علما .

وكأن المرأة لا تتكشف فيها الصورة خمسة أمور : (أحدها) نقصان صورتها كجهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل . (والثاني) خبثه وصدته وكذوره ؛ وإن كان تام الشكل . (والثالث) لسكونه معدولا به عن جهة الصورة إلى غيرها كالإذ كانت الصورة وراء المرأة . (والرابع) لحجاب مرسل بين المرأة والصورة . (والخامس) للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعد بسببه أن يحاذيها شطر الصورة وجهها .

فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن يعجل فيها حقيقة الحق في الأمور كلها ، وإنما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها هذه الأسباب الخمسة (أولها) نقصان في ذاته كقلب الصبي فإنه لا يعجل له المعلومات لتقصاه . (والثاني) لسكونه المعاصي والخبث الذي يترام على وجه القلب من كثرة الشهوات فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجماله فيفتح ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبداً » (١) أي حصل في قلبه كدورة لا يروا أثرها إذ غابته أن يقيه بحسنة يمحوه بها ، فلما جاء بالحسنة لم تقدم السببة لازداد لعمالة إشراق القلب ، فلما تقدمت السببة سقطت قائمة الحسنات لكن عاد القلب بها إلى ما كان قبل السببة ولم يزد بها نوراً . فهذا خسران مبين ، ونقصان لاجل أنه فليست المرأة التي تتدنس ثم تسمح بالمصقة كالتي تسمح بالمصقة لزيادة جلالها من غير دنس سابق ؟ فالإقبال على طاعة الله والإعراض عن مقتضى الشهوات هو الذي يعجل القلب ويصفيه ولذلك قال الله تعالى (والذين مجاهدوا فلنا نهديهم سبلنا) وقال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » (٢) .

(١) « من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبداً » لم أره أصلا .

(٢) « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وقد تقدم في العلم .

الثالث : أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة فإن قلب الطليح الصالح وإن كان صافيا فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق لأنه ليس يطلب الحق وليس عازيا بمرآته شطر المطلوب . بل ربما يكون مستوعب المم بتفصيل الطاعات البدنية أو تهئية أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية ، فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال ونفائيا عيوب النفس إن كان متفكرا فيها ، أو مصالح المعيشة إن كان متفكرا فيها . وإذا كان تقييدا لهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعا عن انكشاف جلية الحق فاذا كان فيمن صرف المم إلى الشبوات الدنيوية ولذاتها وعلاقتها فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي ؟ .

الرابع : الحجاب فإن الطليح القاهر لشبواته المتجرد الفكر في حقيقة الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن ، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد ، وهذا أيضا حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتصعين للذاهب ، بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجابا بينهم وبين ذك الحقائق .

الخامس : الجهل بالجهة التي يقع منها الشعور على المطلوب فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مظهره حتى إذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيبا مخصوصا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار فقد ذلك يكون قد صر على جهة المطلوب فتجلى حقيقة المطلوب لقلبه ، فإن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتصر إلا بشبكة العلوم الحاصلة ، بل كل علم لا يحصل إلا عن علمين سابقين أو تلقان ويدرجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفعل والشيء . ثم كما أن من أراد أن يستنتج رمكة لم يمكنه ذلك من حار وبعير وإنسان بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والأنثى ، وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص فكذلك كل علم هو إعلان مخصوصان وبينهما طريق في الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب ، فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم . ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها ، بل مثاله أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلا بالمرآة فإنه إذا رفع المرآة بإزاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا ، وإن رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة من عينه فلا يرى المرأة ولا صورة القفا فيها فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا ، وهذه في مقابلتها بحيث يبصرها ويرى مناسبة بين وضع المرآتين حتى تنطبق صورة القفا في المرآة المحاذية للقفا ، ثم تنطبق صورة هذه المرآة في المرآة الأخرى التي في مقابلة العين ثم تدرك العين صورة القفا ، فكذلك في اقتصاص العلوم طرق عجيبة فيها ازدوارات وتحريفات أعجب مما ذكرناه في المرآة يمر على بسيط الأرض من يتبدى إلى كيفية الخيلة في تلك الازدوارات . فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور . وإلا فكل قلب هو بالقطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر داني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والترف . وإليه الإشارة بقوله عز وجل ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ﴾ إشارة إلى أن له خاصية يمتاز بها عن السموات والأرض والجبال بها صار مطبقا لحل أمانة الله تعالى . وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد . وقلب كل آدمي مستعد لحل الأمانة ومطبق لها في الأصل ولكن يبطئه عن النهوض بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التي ذكرناها . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » (١) وقول رسول الله

(١) « كل مولود يولد على الفطرة ... » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

ﷺ «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء» (١) إشارة إلى بعض هذه الأسباب التي هي الحجاب بين القلب وبين الملكوت .

والإشارة بما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قيل لرسول الله : يا رسول الله أين الله ؟ في الأرض أو في السماء ؟ قال : « في قلوب عباده المؤمنين » وفي الخبر « قال الله تعالى : لم يسئ أرضي ولا سماءي ووسعتي قلب عبدي المؤمن الذين الودع » (٢) وفي الخبر أنه قيل : يا رسول الله من خير الناس فقال « كل مؤمن مخوم القلب » فقل وما مخوم القلب ؟ فقال « هو التقي التي الذي لا غش فيه ولا بغي ولا غدر ولا غل ولا حسد » (٣) ولذلك قال عمر رضي الله عنه : رأي قلبي ربي . إذا كان قد رفع الحجاب بالحق ، ومن أرفع الحجاب بينه وبين الله تعالى صورة الملك والملكوت في قلبه فيرى جنة عرض بعضها السموات والأرض ، أما جعلها فأكثر سعة من السموات والأرض لأن السموات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة وهو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكنايف فهو متناه على الجملة ، وأما عالم الملكوت وهي الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصائر فلا نهاية له . نعم الذي يلوح للقلب منه مقدار متناه ولكنه في نفسه وبالإشارة إلى علم الله لانهاية له وبجمله عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لأن الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله . وملكته وعبيده من أفعاله ، فما يتجلى من ذلك القلب هي الجنة بينما عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق . ويكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما يتجلى له من أفعاله وصفاته وأفعاله ، وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيت وجماله ( قد أطلع من زكاهما ) ومراد تزكيت حصول أنوار الإيمان فيه أعني إشراق نور المعرفة وهو المراد بقوله تعالى ( فن يرده الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ) وبقوله ( أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ) .

نعم هذا التجلي وهذا الإيمان له ثلاث مراتب ( المرتبة الأولى ) إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض ( والثانية ) إيمان المتكلمين وهو مزوج بنوع استدلال ، ودرجة قريبة من درجة إيمان العوام ( والثالثة ) إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين .

ونبين لك هذه المراتب بمثال : وهو أن تصديقك بكون زيد مثلاً في النار له ثلاث درجات : الأولى : أن يخبرك من جربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب ولا اتهمته في القول ، فإن قلبك يسكن إليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع ، وهذا هو الإيمان بمجرد التقليد ، وهو مثل إيمان العوام فإنهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وإرادته وقدرته وسائر صفاته وبشئ الرسل وصدقهم وما جاءوا به ، وكان سمعوا به بقلوبهم وثبوا عليه وأطمأنوا إليه ، ولم يحظر بياهم خلاف ما قالوه لهم لحسن ظنهم بآبائهم وأمهاتهم ومعلمهم ، وهذا الإيمان سبب النجاة في الآخرة وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين وليسوا من المقربين لأنه ليس فيه كشف وبصيرة والتمسح صدر بنور اليقين ، إذ الخطأ يمكن فيما سمع من الأحاديث بل من الاعتداد فيما يعلق

(١) حديث : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم ... » تقدم .

(٢) حديث ابن عمر : « إن الله قال في قلوب عباده المؤمنين . لم أجده هذا اللفظ ، والطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني يرضه إلى النبي ﷺ قال « إن الله آتية من أهل الأرض وآتية ربيكم قلوب عباده الصالحين ... » فيه بنية ابن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحدث

(٣) « قال الله ما وسعني أرضي ولا سماءي ووسعني قلب عبدي المؤمن الذين الودع » لم أره أصلاً وفي حديث أبي عتبة قبله عند الطبراني بغير قوله « وآتية ربيكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألقها » .

(٤) حديث : قيل من خير الناس ؟ قال « كل مؤمن مخوم القلب ... » أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله ابن عمر بإسناد صحيح .

بالاعتقادات ، فقلوب اليهود والنصارى أيضا مطمئنة بما يسمعون من آياتهم وأمهاتهم إلا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوه خطأ لأنهم آثروا إلههم الخطأ ، والمسلمون اعتقدوا الحق لا لاطلاعهم عليه ولكن آثروا إلههم كلمة الحق .

الرتبة الثانية : أن تسمع كلام زيد وصلاته من داخل الدار ولكن من وراء جدار فستدلل به على كونه في الدار فيكون إيمانك ونصديقك وقيمتك بكونه في الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع ، فأنت إذا قيل لك إنه في الدار ثم سمعت صوته ازدادت به يقينا لأن الأصوات تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت في حال مشاهدة الصورة ، فيحكم قلبه بأن هذا صوت ذلك الشخص ، وهذا إيمان مزوج بدليل ، والخطأ أيضا ممكن أن يتطرق إليه ، إذ الصوت ، قد يشبه الصوت وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع لأنه ليس يعمل للهمة موضعا ولا يقدر في هذا التلبس والمحاكاة غرضا .

الرتبة الثالثة : أن تدخل الدار فتشتر إليه بعينك وتراه ، وهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية وهي تشبه معرفة المقربين والصديقين لأنهم يؤمنون من مشاهدة فينتطو في إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين ، ويتميزون بمزية بيئة يستحيل معها إمكان الخطأ ، نعم وهم أيضا يتفاوتون بمقادير العلوم ودرجات الكشف .

أما درجات الكشف فتأه أن يبصر زيدا في الدار عن قرب وفي صحن الدار في وقت إشراق الشمس فيكمل له إدراكه والآخر يدركه في بيت أو من بعد أو في وقت عشية فيتمثل له في صورته ما يستيقن منه أنه هو ، ولكن لا يتمثل في نفسه الدقائق والحقايق من صورته ، ومثل هذا متصور في تفاوتات المشاهدة للأمور الإلهية .

وأما مقادير العلوم فهو بأن يرى في الدار زيدا وعمرا وبكرا غير ذلك وآخر لا يرى إلا زيدا لمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لأحالة . فهذا حال القلب بالإضافة إلى العلوم والله تعالى أعلم بالصواب .

### بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والأخرية

أعلم أن القلب بفرزته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق ولكن العلوم التي تحمل فيه تنقسم إلى عقلية وإلى شرعية . والعقلية تنقسم إلى ضرورية ومكتسبة ، والمكتسبة إلى دنيوية وأخرية .

أما العقلية : فنحن بها ماتفق بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسمع ، وهي تنقسم إلى ضرورية ولا يدري من أين حصلت وكيف حصلت ؟ كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين والشئ الواحد لا يكون حادثا قدما وموجودا معنوما معا ، فإن هذه علوم يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مقطوعا عليها ولا بدري متى حصل له هذا العلم ولا من أين حصل له ؟ أعني أنه لا يدري له سببا قريبا ، وإلا فليس يخفى عليه أن الله هو الذي خلقه وهده . وإلى علوم مكتسبة : وهي المستفادة بالتعلم والاستدلال ، وكلا القسمين يسمى عقلا .

قال علي رضي الله عنه : رأيت العقل عتقن فطوبوع وسموع

ولا ينفسح مسموع إذا لم يك مطبوع

كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلي «ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل» (١) والثاني هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه «إذا تقرب الناس إلى الله تعالى بأشياء البر تقرب أنت بعقلك» (٢)

(١) «ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل» أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول بإسناد ضعيف وقد تقدم في العلم (٢) «إذا تقرب الناس إلى الله بأشياء البر تقرب أنت بعقلك» أخرجه أبو نعيم من حديث علي بإسناد ضعيف



إذ لا يمكن القرب بالبريزة القطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالمكتسبة ، ولكن مثل على رضى الله عنه هو الذى يقدر على القرب باستعمال العقل في اقتباس العلوم التي بها ينال القرب من رب العالمين ، فالقلب جبار مجرى العين وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر في العين . وقوة الإبصار لطيفة تفقد في العمى وتوجد في البصر وإن كان قد غضى عينيه أو جن عليه الليل ، والعلم الحاصل منه في القلب جبار مجرى قوة إدراك البصر في العين ورؤيته لأعيان الأشياء .

وتأخر العلوم عن حين العقل في مدة السبا إلى أوان التمييز أو البلوغ يضاهى تأخر الرؤية عن البصر إلى أوان إشراف وقيضان نورها على المبصرات ، والقلم الذى سطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجرى مجرى قرص الشمس . وإنما لم يحصل العلم في قلب العمى قبل التمييز لأن لوح قلبه لم يتبيناً بعد لقبول نفس العلم .

والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى جعله سبباً لحصول نقش العلوم في قلوب البشر قال الله تعالى ( الذى علم بالقلم على الإنسان ما لم يعلم ) وقلم الله تعالى لا يشبه قلم خلقه كما لا يشبه وصفه وصف خلقه ، فليس قلبه من قصب ولا خشب كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض ، فالوفاة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه إلا أنه لا مناسبة بينهما في الشرف ، فإن البصيرة الباطنة عين النفس التي هي الطيف المدركة ، وهي كالقارص والبدن كالفرس ، وعين القارص أضر على القارص من عي الفرس بل لانسبة لأحد الضررين إلى الآخر ، ولوفاة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر سماه الله تعالى باسمه فقال ( ما كذب القواد ما رأى ) سعى إدراك القواد وهو كذلك قوله تعالى ( وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ) وما أراد به الرؤية الظاهرة فإن ذلك غير مخصوص إبراهيم عليه السلام حتى يمرض في معرض الامتحان ، ولذلك سعى عند إدراكه عي فقال تعالى ( فإنها لانعى الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور ) وقال تعالى ( ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ) فهذا بيان العلم العقلي .

أما العلوم الدينية : فهي المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، وذلك يحصل بالقلم لكتاب الله تعالى وستة رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيها بعد السماع . وبه كال صفة القلب وسلامته من الأدواء والأمراض ، فالعلوم العقلية غير كافية في سلامة القلب وإن كان محتاجاً إليها ، كما أن العقل غير كاف في استدامة صحة أسباب البدن بل يحتاج إلى معرفة خواص الأدوية والمقاهير بطريق التعلم من الأطباء ، إذ مجرد العقل لا يهتدى إليه ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل ، فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل . فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالسلكية جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مفروء ، فإياك أن تكون من أحد الفريقين وكل جامعا بين الأصلين ، فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية والشخص المريض يستضر بالفناء متى فاته الدواء فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة وهي وظائف العبادات والأعمال التي ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب ، فمن لا يداوى قلبه المريض بمعالجات السادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضر بها كما يستضر المريض بالفناء ، وظن من يظن أن العلوم العقلية متناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عي في عين البصيرة نموذجاً لله منه ، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما . فيظن أنه في الدين ، فيتعجز به فينسل من الدين انسلال الشجرة من العجين ، وإنما ذلك لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقصان الدين وهما ، وإنما مثاله مثال الأعمى الذى دخل دار قوم فتعثر فيها بأواني الدار فقال لهم : ما بال هذه الأواني تركت على الطريق ، لم لارد إلى مواضعها ؟ فقالوا له : تلك الأواني في مواضعها ؛ وإنما أنت لست تهتدى للطريق

لعلك فالحسب منك أنك لا تحصل شئاً على عماك وإنما تحمليها على تقصير غيرك ؟ فهذه نسبة العلوم الدينية إلى العلوم العقلية .

والعلوم العقلية تنقسم إلى دينية وأخرى : فالدينية : كعلم الطب والحساب والمهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات ، والأخرى : كعلم أحوال القلب وأفات الأعمال والعلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله . كما فصلناه في كتاب العلوم وما علمان متافيان - أعني أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصره عن الآخر على الأكثر - ولذلك ضرب على رضى الله عنه الدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة فقال : هما ككفتي الميزان ، وكلشرق والمغرب وكالضرتين إذا أرضيت إحداها أسخطت الأخرى .

ولذلك ترى الأكياس في أمور الدنيا وفي علم الطب والحساب والمهندسة والفلسفة جهالاً في أمور الآخرة . والأكياس في دقائق علوم الآخرة جهالاً في أكثر علوم الدنيا ؛ لأن قوة العقل لا تنفي بالأسر من جميعاً في الغالب فيكون أحدهما مانعاً من الكمال في الثاني قال صلى الله عليه وسلم « إن أكثر أهل الجنة البه (١) » أى البه في أمور الدنيا .

وقال الحسن في بعض مواضعه : لقد أدركنا أقواماً لو رأيتهم لقلتم بجانين ولو أدرككم لقالوا شياطين ، فيها سميت أمراً غريباً من أموة الدين جمعه أهل الكياسة في سائر العلوم ، فلا يفرقك جودهم عن قبوله إذ من المحال أن يظهر سالك طريق المشرق بما يوجد في المغرب ، فكذلك يجري أمر الدنيا والآخرة ، ولذلك قال تعالى ( إن الدين لا يرجو لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا وأطمأنوا بها ) الآية وقال تعالى ( يطوفون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ) وقال عز وجل ( فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ) فالجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدنيا والدين لا يكاد يتيسر إلا لمن رسخه الله لتدبير عباده في معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس المستدون من القوة الإلهية التي تنسج لجميع الأمور ولا تضيق عنها ، فبما سائر الخلق فإنها إذا استقلت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة وقصرت عن الاستكمال فيها .

### بيان الفرق بين الإلهام والتعلم ، والفرق بين طريق الصوفية

في استكشاف الحق وطريق النظر

اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية - وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال - تختلف الحال في حصولها فتارة تهجم على القلب كأنه التي فيه من حيث لا يدري ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم ، فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاماً ، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً . ثم الواقع في القلب ينير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل ؛ وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الحق في القلب ، والأول : يسمى إلهاماً وتفتاق الروح والثاني : يسمى وحياً ويختص به الأنبياء ، والأول يختص به الأولياء والأصفياء ، والذي قبله وهو المكتسب بطريق الاستدلال - يختص به العلماء وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لأن تتجلى فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها .

(١) « أكثر أهل الجنة البه » أخرجه البزار من حديث أنس وضعفه وصححه القرطبي في التذكرة وليس كذلك فقد قال ابن عدي إنه منكر .

وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة — التي سبق ذكرها — فهي كالحجاب المسدل الحائل بين امرأة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو مثقوش بجميع ماضى الله به إلى يوم القيامة . وتجلى حقائق العلوم من امرأة اللوح في امرأة القلب بضامى اضطلاع صورة من امرأة في امرأة تعالها ، والحجاب بين المرأتين تارة يزال باليد وأخرى يؤول بهبوب الرياح تحركه . وكذلك قد تهب رياح الألفاظ وتنكشف الحجب عن أعين القلوب فيجلى فيها بعض ماهر مسطور في اللوح المحفوظ . ويكون ذلك تارة عند المنام فيعمل به ما يكون في المستقبل .

وتمام ارتفاع الحجاب بالموت فيه ينكشف الغطاء ، وينكشف أيضا في اليقظة حتى يرتفع الحجاب بطف خفي من الله تعالى ، فيلعب في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف ، وأخرى على التوالي إلى حد ما . ودوامه في غاية التنوير فلم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم ولا في محله ولا في سببه ولكن يفارق من جهة زوال الحجاب ، فإن ذلك ليس باختيار العبد ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم ، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة اللاتسك ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي ما يشاء ﴾ .

فلذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية . لذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ماصنفة المصنفون والبحث عن الآثار والأدلة المذكورة ، بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وطمع العلائق كلها والإقبال بكثرة الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله هو التوكل قلب عبده المتكفل له بتزويده بأنوار العلم ، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت ، واقتنع عن وجه القلب حجاب النيرة بطف الرحمة وتلاطت فيه حقائق الأمور الإلهية فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعشش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتح الله تعالى من الرحمة .

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وقاض على صدورهم النور لا بالعلم والدراسة والكتابة بالكتب ، بل بالوحد في الدنيا والتبرى من علائقها وتفرغ القلب من شواغلها والإقبال بكثرة الهمة على الله تعالى . فمن كان له كان الله له .

وزعموا أن الطريق في ذلك أولا باقتطاع علائق الدنيا بالكلية وتفرغ القلب منها ويقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه ، ثم يظفر بنفسه في زاوية مع الاقتصار على القرائن والرواتب ، ويجلس فارغ القلب بمجموع العلم ، ولا يفرق فكره بقرأة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره ، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى ، فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلا بلسانه : الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ، ثم يصير عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظبا على الذكر ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجردا في قلبه سائرا فيه كأنه لازم لا يفارقه وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس ، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى ، بل هو بما فعله صار متعرضا لنفحات رحمة الله فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق ، وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همة وحسنت مواظبه فلم تجاذبه شهواته لم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلج لواع الحق في قلبه ، ولا يكون في ابتدائه

كالبروق الخاطف لا يثبت ، ثم يعود وقد يتأخر ، وإن عاد فقد يثبت وقد يكون عصفافا ، وإن ثبت قد يطول ثباته وقد يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فن واحد . ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تنحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم ، وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير بعض من جانبك وتصفية وجلاء ، ثم استعداد وانظار فقط .

وأما النظار وذو الاعتبار فلم يشكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضائه إلى هذا المقصد على التدور فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء ، ولكن استوعروا هذا الطريق واستقبلوا ثمرته واستبعدوا اجتماع شروطه ، وزعموا أن سر العلاق إلى ذلك الحد كالتعمد وإن حصل في حال ثباته أبعد منه ، إذ أدنى وسواس وغاطر يشوش القلب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن أشد ثقلًا من القدر في غليانها » (١) وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » (٢) وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن ، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة تملطن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول ويتفنى العمر قبل النجاح فيها ، فكم من صوفى سلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة ولو كان قد أقرن العلم من قبل لا تفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال ، فالاشتغال بطريق التعلم أوقت وأقرب إلى الغرض . وزعموا أن ذلك يضاهى ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه . وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك وصار قتيبا بالوحى والإلهام من غير تكرير وتعليق وأنا أيضا ربما انتهيت في الرياضة والمواظبة إليه ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره ، بل هو كمن يترك طريق السكب والحراثة وجاء العثور على كثر من السكون ، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جدا ؛ فكذلك هذا . وقالوا : لا بد أولا من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فمصاه يشكف بعد ذلك بالمجاهدة .

### بيان الفرق بين المقامين مثال محسوس

اعلم أن عجائب القلب غارجة عن مدركات الحواس ، لأن القلب أيضا خارج عن إدراك الحس وما ليس مدركا بالحواس فتضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس . ونحن نقرب ذلك إلى الأفهام الضعيفة بمثالين : أحدهما : أنه لو فرضنا حوضا محفورا في الأرض احتمل أن يساق إليه الماء من فوقه بأنهار فتفتح فيه ، ويحمل أن يحضر أسفل الحوض ويرقع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافي ، فينفجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر . فذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الحس مثال الأنهار . وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يعلو علما ، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغطى البصر ويسمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله .

فإن قلت : فكيف يتفجر العلم من ذات القلب هو حال عنه ؟ فأعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ولا يسمح بذكره في علم العامة بل القدر الذي يمكن أن حقائق الأشياء مسطورة في الوجد المحفوظ بل في قلوب الملائكة المقربين . فكأن المهندس يسور أبنية الدار في يياض ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة فكذلك فاطر

(١) « قلب المؤمن أشد ثقلًا من القدر في غليانها » أخرجه أحمد والحاكم من حديث للقداد بن الأسود .

(٢) « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمر .

السماوات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره في اللوح المحفوظ ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة ، والعالم الذي خرج إلى الوجود بصورة تتأدى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال ، فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم يفيض بصره يرى صوراً للسموات والأرض في خياله حتى كأنه ينظر إليها ، ولو انعمت السماء والأرض وبقي هو في نفسه لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدهما وينظر إليهما ، ثم يتأذى من خياله أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء التي دخلت في الحس والخيال . والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه خارجاً من خيال الإنسان وقلبه . والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في اللوح المحفوظ .

فكان للعالم أربع درجات في الوجود : وجود في اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الحسائي ، ويتبعه وجوده الحقيقي ، ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي . أعني وجود صورته في الخيال . ويتبع وجوده الخيالي وجوده العقلي . أعني وجود صورته في القلب .

وبعض هذه الوجودات روحانية وبعضها جسمانية . والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض ، وهذا اللطف من الحكمة الألفية ، إذ جعل حدائق كل صنف جسماني بحيث تنطبع صورة العالم والسموات والأرض على اتساع إمكاناتها فيها ، ثم يسرى من وجودها في الحس وجود إلى الخيال ، ثم منه وجود في القلب فأنتك أبداً لا تترك إلا ما هو وأصل إليك ، فلم يحصل للعالم كله مثالا في ذلك لما كان لك خبر مما يباين ذاتك ، فسيحان من دبر هذه العجائب في القلوب والأبصار ثم أعنى من دوركما القلوب والأبصار ، حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وبعبائنها .

ولترجع إلى الغرض المقصود فنقول : القلب قد يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته تارة من الحواس وتارة من اللوح المحفوظ ، كأن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر إليها وتارة من النظر إلى الماء الذي يقابل الشمس ويحكي صورتها . فبها ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ رأى الأشياء فيه وتغفر إليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس ، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض . ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللوح المحفوظ كما إن الماء إذا اجتمع في الأنهار منع ذلك من التفجر في الأرض ، وكأن من نظر إلى الماء الذي يحكي صورة الشمس لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس ؛ فإذا نزل القلب بابان : باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملكة ، وباب مفتوح إلى الحواس الخمس المتسكة بعالم الملكة والشهادة . وعالم الشهادة والملك أيضاً يحاكي عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة . فأما افتتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك . وأما افتتاح باب الداخل إلى عالم الملكوت ومطالعة الروح المحفوظ فتعلمه علماً يقيناً باتساع من عجائب الرؤيا وإطلاخ القلب في الثوم على ماسيكوف في المستقبل أو كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواس . وإنما يفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم «سبق الفردون» قيل ومن هم الفردون يا رسول الله ؟ قال «المتزهدون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً» ثم قال في وصفهم إخباراً عن الله تعالى قال «ثم أقبل بوجهي عليهم أترى من واجهه بوجهي يعلم أحداً شئ» أريد أن أعليه ؟ ثم قال تعالى : أول ما أعطيتهم أن أقف الثور في قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم (١) . ومدخل

(١) «سبق الفردون» قبل ومن هم ؟ قال «المتزهدون بذكر الله ...» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مقتصراً على أول الحديث وقال فيه : وما للفردون ؟ قال «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» ورواه الحاكم بالفظ «قال الذين =

هذه الأجبار هو الباب الباطن فإذا الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء هذا هو أن علومهم تأتي من داخل القلب من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت ، وعلم الحكمة يأتي من أبواب الخواص المفتوحة إلى عالم الملك ، وعجائب عالم القلب وتردده بين عالمي الشهادة والغيب لا يمكن أن يستقيم في علم العامة . فهذا مثال يملك الفرق بين مدخل العالمين .

المثال الثاني يعرفه الفرق بين العاملين ، أعني عمل العلماء وعمل الأولياء : فإن العلماء يعملون في اكتساب نفس العلوم واجتلابها إلى القلب ، وأولياء الصوفية يعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها وتصقيها فقط ، فمدحكي أن أهل الصين وأهل الروم نباحوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور فاستقر رأي الملك على أن يسلم إليهم صفة لينقش أهل الصين منها جانباً وأهل الروم جانباً ويرعى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ففعل ذلك ، فجمع أهل الروم من الأصباغ الغريبة مالا يتحصر ودخل أهل الصين من غير صبغ وأقبلوا يحملون جانبهم ويصقلونه ، فلما فرغ أهل الروم إحدى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضاً فحجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ ؟ قيل : وكيف فرغتم من غير صبغ ؟ فقالوا : ما عليكم أرفضوا الحجاب افرغوا وإذا بجانبهم يتلأأ منه عجائب الصنائع الرومية من زيادة إشراق وبريق ، إذ كان قد صار كالرآء المحلوة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بزيد التصقيل ؛ فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجماله وتوحيته وصفاته حتى يتلأأ فيه جليلة الحق بنهاية الإشراق ففعل أهل الصين ، وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل نقشها في القلب ففعل أهل الروم ، فكيما كان الأمر قلب المؤمن لا يموت وعلمه عند الموت لا يمحى وصفاه لا يتسكدر وإليه أشار الحسن رحمه الله عليه بقوله : القرب لا يأكل عل الإيمان بل يكون وسيلة وقرية إلى الله تعالى .

وأما ما حصله من نفس العلم وما حصله من الصفاء الاستعداد لقبول نفس العلم فلا غنى به عنه ولا مساعدة لأحد إلا بالعلم والمعرفة ، وبعض السعادات أشرف من بعض كما أنه لا غنى إلا بالمال ، فصاحب الدرهم غنى وصاحب الجزائن المثرة غنى ، وتفاوت درجات السعادات بحسب تفاوت المعرفة والإيمان كما تفاوتت درجات الأفضياء بحسب قلة المال وكثرته ، فالعارف أنوار ولا يسمى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم قال الله تعالى (يُسمى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) وقد روي في الخبر (إن بعضهم يعطى نورا مثل الجبل وبعضهم أصغر حتى يكون آخرهم رجلاً يعطى نورا على إيمانهم قسمه فيضيء مرة ويظلم مرة أخرى فإذا أضاء قدم قدمه فشي وإذا ظلم قام ، ومرورهم على الصراط على قدر نورهم فبهم من يمر كهلل العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كالتضامن السكوا كبومنهم من يمر كالفرس إذا اشتد في ميدانه ، والذي أعطى نورا على إيمانهم قدمه يحبو حبواً على وجهه ويديه ورجليه يمر بدأ ويمتلأ أخرى ويصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص (١) الحديث فهذا يظهر تفاوت الناس في الإيمان ولو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين سوى التبيين والمرسلين لرجح . فهذا أيضاً يضاهي قول القائل : لو وزن نور الشمس بنور السرج كلها كالرجح ؛ فإيمان آحاد العوام نور مثل نور السراج وبعضهم نوره كنور الشمع ، وإيمان الصديقين نوره كنور القمر والنجوم ، وإيمان الأنبياء كالشمس . وكما يكشف في نور الشمس صورة الآفاق مع

== يستهترون بذكر الله وقال صحيح على شرط الشيخين وزاد فيه البيهقي في الشعب «ضع الله كبرهم أمثالهم ويأتون القيامة خفافاً» ورواه هكذا الطبراني في المعجم الكبير من حديث أبي الدرداء دون الزيادة التي ذكرها المصنف في آخره وكلاماً ضعيفاً .

(١) «إن بعضهم يعطى نورا مثل الجبل حتى يكون أصغرهم رجل يعطى نوره على إيمانهم قدمه ...» أخرجه الطبراني والحاكم من حديث ابن مسعود قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .

انواع أقطارها ولا يتكشف في نور الراج إلا زاوية ضيقة من البيت فكنذلك تفاوت انشراح الصدر بالمعارف وانكشاف سعة الملكوت لقلوب المارفين . ولذلك جاء في الخبر « أنه يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرة <sup>(١)</sup> » كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الإيمان وأن هذه المقادير من الإيمان لا تمنع دخول النار ، وفي مفهومه أن من إيمانه يزيد على مثقال فإنه لا يدخل النار ، إذ لو دخل لأمر بإخراجه أولا وأن من في قلبه مثقال ذرة لا يستحق الخلود في النار وإن دخلها . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « ليس شيء خيرا من ألف مثقال الإنسان المؤمن <sup>(٢)</sup> » إشارة إلى تفصيل قلب المعارف بالله تعالى الموقن فإنه خير من ألف قلب من الموم . وقد قال تعالى « وأتمم الأملون إن كنتم مؤمنين » تفضيلا للمؤمنين على المسلمين وللمرابية المؤمن المعارف دون المقلد . وقال عز وجل « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات <sup>(٣)</sup> » فأراد هنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم ويميزهم عن الذين أوتوا العلم . وبذلك على أن اسم المؤمن يقع على المقلد وإن لم يكن تصديقه عن بصيرة وكشف .

وفسر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى « والذين أوتوا العلم درجات » فقال يرفع الله العالم فوق المؤمن بسبب ما في درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البه والعليون لنوري الألباب <sup>(٤)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي <sup>(٥)</sup> » وفي رواية « كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » فهذه الشواهد توضح لك تفاوت درجات أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم ، ولهذا كان يوم القيامة يوم التفاضل إذ المحروم من رحمة الله عظيم الثمن والخرمان ، والمحروم يرى فوق درجته درجات عظيمة فيكون نظره إليها كمنظر النفي الذي يملك عشرة دراهم إلى النفي الذي يملك الأرض من المشرق إلى المغرب وكل واحد منهما غني ولكن ما أعظم الفرق بينهما وما أعظم الثمن على من ينحصر حظه من ذلك <sup>(٦)</sup> . ولا أخوة أكبر درجات وأكبر تفضيلا .

## بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب

المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد

اعلم أن من انكشف له شيء ولو الشيء البسيط بطريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يدري فقد صار عارفا بصحة الطريق ، ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فيليني أن يؤمن به ، فإنه درجة المعرفة فيه عزيزة جدا ، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات :

أما الشواهد : فقوله تعالى « والذين جاءوا فينا لهديهم سبلنا » فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فمر بطريق الكشف والإلهام . وقال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووقفه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار <sup>(٧)</sup> » وقال الله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجا <sup>(٨)</sup> » من الإشكالات والشبه « ويرزقه من حيث لا يحتسب » يعلمه

(١) « يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من كان في قلبه ربع مثقال من إيمان ... » متفق عليه من حديث أبي سعيد وليس فيه قوله « ربع مثقال » (٢) « ليس شيء خيرا من ألف مثقال إلا الإنسان أو المؤمن » أخرجه الطبراني من حديث سلمان بلقط « الإنسان » ولأحمد من حديث ابن عمر « لا تعلم شيئا خيرا من مائة مثقال إلا الرجل المؤمن » وإسنادهما حسن . (٣) « أكثر أهل الجنة البه والعليون لقوى الألباب » تقدم دون هذه الزيادة ولم أجد لهذا الزيادة أصلا . (٤) « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وصححه وقد تقدم في العلم وكذلك الرواية الثانية . (٥) « من عمل بما علم ... » تقدم في العلم دون قوله « ووقفه فيما يعمل » فلم أرها

علما من غير تعلم ويفقه من غير تجربة . وقال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ قبل نورا يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الضلالت ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يذكر في دعائه من سؤال النور فقال عليه الصلاة والسلام « اللهم أعطني نورا وزدني نورا واجعل لي في قلبي نورا وفي قبري نورا وفي سمعي نورا وفي بصري نورا حتى قال في شمري وفي بشري وفي قلبي وفي دمي وعظامي » (١) وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى ﴿ أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ ما هذا الشرح ؟ فقال « هو التوسعة إن النور إذا فقه به في القلب اتسع له الصدر وانشرح » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس « اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل » (٣) وقال علي رضي الله عنه : ما عندنا شيء أسمره النبي ﷺ إلينا إلا لأن يؤتي الله تعالى عبدا فيافي كتابه وليس هذا بالعلم ؛ (٤) وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ﴾ إنه اللهم في كتاب الله تعالى وقال تعالى ﴿ فنهضناهم سليمان ﴾ خص ما انكشف باسم اللهم . وكان أبو الدرداء يقول : المؤمن من ينظر بنور الله من وراء سر رقيق والله إنه للحق يقفده الله في قلوبهم ويجريه على ألسنتهم . وقال بعض السلف : ظن المؤمن كناية .

وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى » (٥) وإليه يشير قوله تعالى ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ وقوله تعالى ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ وروى الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال « العلم علمان فعلم باطن في القلب فذلك هو العلم النافع » (٦) وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ماهو ؟ فقال : هو سر من أسرار الله تعالى يقفده الله تعالى في قلوب أحبائه لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن من أمي محدثين ومعلمين ومكلمين وإن عمر منهم » (٧) وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ولا نبي ولا نبي » يعني الصديقين والمحدث هو الملمهم ، والملمهم هو الذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل لأمن جهة المحسوسات الخارجة .

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف ، وذلك علم من تعلم . وقال الله تعالى ﴿ وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ خصصها بهم وقال تعالى ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ وكان أبو زيد وغيره يقول : ليس العالم الذي يحفظ من كتاب فإذا نسي ما حفظه صار جهلا ، وإنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء ؟ بلا حفظ ولا درس . وهذا هو العلم الرباني وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وعلمناه من من لدنا علما ﴾ مع أن كل علم من لدته ولكن بعضها بوسائط تعلم الخلق فلا يسمى ذلك علما لدنيا بل الدني الذي ينتفع في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج فله شواهد النقل ولو جمع كل ماورد فيه من الآيات والأخبار والآثار خرج عن الحصر .

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضا خارج عن الحصر وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما ثقة رضي الله عنها عند موته : إنما هما أخراك وأختك ، وكانت زوجته

(١) « اللهم أعطني نورا وزدني نورا ... » متفق عليه من حديث ابن عباس (٣) حديث : سئل عن قوله تعالى أفن شرح له صدره للإسلام ... وفي المستدرک من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم . (٣) « اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل » قاله لابن عباس متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله « وعلمه التأويل » فأخرجه بهذه الزيادة أحمد وابن حبان والحاكم وصححه وقد تقدم في العلم . (٤) حديث علي : ما عندنا شيء أسمره إلينا رسول الله ﷺ إلا أن يؤتي الله عبدا فيافي كتابه . تقدم في آداب تلاوة القرآن . (٥) « اتقوا فراسة المؤمن ... » أخرجه الترمذي عن حديث أبي سعيد وقد تقدم . (٦) « العلم علان ... » تقدم في العلم . (٧) « إن من أمي محدثين ومكلمين وإن عمر منهم » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة « لقد كان فيا قبلكم من الأم محدثون فلن يك في أمي أحد فانه عمر » ورواه مسلم من حديث عائشة .



حاملًا فوعلت بنتا فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت ، وقال عمر رضي الله عنه في أثناء خطبته : يا سارية الجبل الجبل ! إذ انكشف له أن المدعو قد أشرف عليه لغيره لمعرفة ذلك ، ثم بلغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه لما دخلت على عثمان رضي الله عنه وكنت قد لقيت امرأة في طريق فقظرت إليها شورا وتأملت محاسنها فقال عثمان رضي الله عنه لما دخلت لا يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه أما علمت أن زنا العينين النظر ؟ لتوبن أو لأعزرك فقالت : أوصي بعد النبي ؟ فقال : لا ، ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة .

وعن أبي سعيد الخدري قال : دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيرا عليه خرقان ؛ فقلت في نفسي : هذا وأشباهه كل على الناس ، فتأداني وقال ( والله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ) فاستغفرت الله في سرى فتأداني وقال ( وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ) ثم غاب عني ولم أره .

وقال زكريا بن داود : دخل أبو العباس بن مسروق على أبي الفضل الهاشمي - وهو حليل وكان ذا عيال ولم يعرف له سبب يعيش به - قال : فلما قمت قلت في نفسي من أين يأكل هذا الرجل ؟ قال : فصاح بي أبا العباس رد هذه المهمة الدينية فإن الله تعالى ألقاها خفية .

وقال أحمد النقيب : دخلت على الثعلبي فقال مفتونا : يا أحد فقلت : ما الخبر ؟ قال : كنت جالسا فجرى بخاطري أنك مجيل ، فقلت : ما أنا بمجيل ، فعادني خاطري وقال : بل أنت مجيل ، فقلت : ما فتح الله اليوم على بني - إلا دفعته إلى أول فقير يلتقي ، قال : فما استمر الخاطر حتى دخل على صاحب المؤنس الخادم ومعه خمسون دينارا فقال : اجعلها في مصالحك ، قال : وقت فأخذتها وخرجت وإذا بفقير مكفوف بين يدي يحلق رأسه فتقدمت إليه وناولته الدنانير ، فقال : أصحبا الزين . فقلت : إن جعلتها كذا وكذا ، قال : أو ليس قد قلنا لك أنك مجيل ؟ قال : فتناولها الزين فقال الزين : قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجرا ، قال : فرميت بها في دجلة وقلت : ما أعرك أحد إلا أله الله عز وجل .

وقال حمزة بن عبد الله الملوي : دخلت على أبي الخير التيناني واعتقدت في نفسي أن أسلم ولا أكل في داره طعاما فلما خرجت من عنده إذا به لحقتي وقد حمل طبقا فيه طعام وقال : يا فتى كل فقد خرجت الساعة من اعتقادك ، وكان أبو الخير التيناني هذا مشهورا بالكرامات ، وقال إبراهيم الرقي : قصده مسلما عليه فحضر صلاة المغرب فلم يكديقرأ القاعة مستويا فقلت في نفسي : ضاعت سفرتي ! فلما سلم خرجت إلى الطهارة فقصصني سبع فمدت إلى أبي الخير وقلت : فقصصني سبع ، فخرج وصاح به وقال : ألم أقل لك لا تعرض لضيفائي ؟ فتعشى الأسد فظهرت فلما رجعت قال لي : اشتغلت بتقوم الظاهر تخفتم الأسد واشتغلنا بتقوم البواطن فغافنا الأسد .

وما حكى من تقرر المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضالهم يخرج عن الحصر بل ما حكى عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام والسؤال منه ، ومن سماع صوت الملائكة ، ومن قنوت الكرامات خارج عن الحصر والحكاية لا تنفع المجاهد ما لم يشاهد ذلك من نفسه ، ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل والدليل القاطع الذي لا يقدر أحد على جبهه أمران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة فإنه يكشف بها الغيب وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضا في اليقظة فم يفارق النوم اليقظة إلا فيركد الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات فكمن مستيقظا غاص لاسمع ولا يبصر لا يشغاله بنفسه .

والثاني : لإخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيب وأمور في المستقبل كما اشتمل عليه القرآن وإذا جاز

ذلك النبي صلى الله عليه وسلم جاز لغيره إذ التي عبارة عن شخص كوشف بمحقق الأمور وشغل بإصلاح فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكشوف بالحقائق ولا يشغل بإصلاح الخلق، وهذا لا يسمى نبيا بل يسمى وليا .  
فن آمن بالإنبياء وصدق بالرقيا الصحيحة لئلا نعالج أن يقر بأن القلب له بابان : باب إلى خارج وهو الحواس، وباب إلى المسكوت من داخل القلب وهو باب الإلهام والتفت في الروح والوحى ، فإذا أقر بهما جميعا لم يمكن أن يحصر العلوم في التلم ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلا إليه فهذا ما ينبغي على حقيقة ما ذكرناه من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم المسكوت .

وأما السبب في انكشاف الأمر في المنام بالثال المحجوج إلى التعبير وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء الأولياء بصور مختلفة فذلك أيضا من أسرار عجائب القلب ، ولا يليق ذلك إلا بلم المكشوفة فلنقتصر على ما ذكرناه فإنه كاف للاستدحاث على المجاهدة وطلب الكشف منها ، فقد قال بعض المكشوفين ظهر لي الملك فسألني أن أمد يدي عليه شيئا من ذكرى الحق عن مشاهدتي من التوحيد وقال : ما نكتب لك عملا ونحن نحب أن نصدق لك بعمل تتقرب به إلى الله عز وجل فقلت ألسنا نكتبنا الفرائض ؟ قال : بلى ، قلت : فيكفيك ذلك . وهذه إشارة إلى أن السكرام الكائنين لا يطمعون على أسرار القلب وإنما يطمعون على الأعمال الظاهرة ، وقال بعض العارفين : سألت بعض الأبدال عن مسألة من مشاهدة اليقين فالتفت إلى شماته فقال : ما تقول رحمة الله ؟ ثم التفت إلى يمينه فقال : ما تقول رحمة الله ؟ ثم أطرق إلى صدره قال : ما تقول رحمة الله ؟ ثم أجاب بأعرب جواب فسأته عن التفاته فقال : لم يكن عندي في المسألة جواب عتيق ، فسألت صاحب الشمال فقال لا أدري ، فسألت صاحب اليمين وهو أعلم منه فقال لا أدري ، فتظرت إلى قلبي وسأته فحدثني بما أجبتك فإذا هو أعلم منهما . وكان هذا هو معنى قوله عليه السلام « إن في أمي عشرين وإن عمر منهم » .

وفي الآخر : إن الله تعالى يقول : يا أيها عبد اطمئن على قلبه فرايت الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته وكنت جليسه وعياده وأمينه .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله عليه : القلب بمنزلة القبة المضروبة حولها أبواب مغلقة فأبى باب فتح له عمل فيه ؟ فقد ظهر افتتاح باب من أبواب القلب إلى جهة المسكوت والملا الأعلى ، ويفتح ذلك الباب بالمجاهدة والورع والأعراض عن شهوات الدنيا ، ولذلك كتب عمر رضي الله عنه إلى أسراء الأجناد : احفظوا ما تمسكون من المطمين فإنهم يتجلى لهم أمور صادقة ، وقال بعض العلماء : يد الله على أفواه الحكماء لا ينطقون إلا بما هيأ الله لهم من الحق ، وقال آخر : لو شئت لقلت إن الله تعالى يطلع الخاشعين على بعض سره .

### بيان تسلط الشيطان على القلب بالوساوس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها

اعلم أن القلب كما ذكرناه مثال قبة مضروبة لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب ، ومثاله أيضا مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب ، أو هو مثال امرأة منصوبة تحتاز عليها أمتاف الصور المختلفة فترأى فيها صورة بعد صورة ولا تحجز عنها ، أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه ، وإنما مداخيل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال : أما من الظاهر فالحواس الخمس ، وأما من الباطن فالخيال والشهوات والضمير والأفكار المركبة من مزاج الإنسان ، فإنه إذا أدرك بالحواس شيئا حصل منه أثر في القلب ، وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلا بسبب كثرة الأكل وبسبب قوة في المزاج حصل منها في القلب أثر وإن كف عن الإحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينقل الخيال من شيء إلى شيء ، وبسبب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر . والمقصود أن القلب في التغير والتأثر دائما من هذه الأسباب . وأخص الآثار الحاصلة في القلب هو الخواطر ، وأعني بالخواطر ما يحصل فيه من الأفكار ، والأذكار ، وأعني به إدراكه علوما إما على سبيل التجرد وإما على سبيل التذكر فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها ، والخواطر هي المحركات للإرادات

فإن الثبة والعزم والارادة وإنما تكون بعد خطور المنوى بالبال لاحتاجه ، فمبدأ الأفعال الخواطر ، ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك الثبة ، والثبة تحرك الأعضاء والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر أعني إلى ما يضر في العاقبة . وإلى ما يدعو إلى الخير أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة . فهما خاطران مختلفان فافترقا إلى اسمين مختلفين ، فالخاطر المحمود يسمى إلهاما ، والباطل المذموم أعني الداعي إلى الشر يسمى وسواسا ، ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث . ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب . فهما استدارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه وأسود بالبخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة .

وكذلك لأتوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكا ، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطانا ، والقلب الذي يتأهب للقلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقا ، والذي به تهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلانا ، فإن المعاني المختلفة تقتدر إلى أسامي مختلفة . والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إغاضة الخير وإفادة السلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف ، وقد خلقه وسخره لذلك .

والشيطان عبارة عن خلق شأنه عند ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء والتخويف عند الهلم بالفقر . فالوسوسة في مقابلة الإلهام ، والشيطان في مقابلة الملك ، والتوفيق في مقابلة الخذلان . وإليه الإشارة بقوله تعالى ( ومن كل شيء خلقنا زوجين ) فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه فرد لا مقابل له بل هو الواحد الحق الحاقق للأزواج كلها . فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك . وقد قال صلى الله عليه وسلم « في القلب ثناتان لمة من الملك إيماد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ، وله من العلو إيماد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير فمن وجد ذلك فليستد بالله من الشيطان الرجيم - ثم تلا قوله تعالى ( الشيطان يمدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ) (١) الآية . وقال الحسن إنما هما حمان يجولان في القلب هم من الله تعالى وهم من العدو ، فرحم الله عبدا وقف عندهم فاكان من الله تعالى أمضاء وما كان من عدوه جاحده .

ولتجاذب القلب بين هذين السلطين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » (٢) قاله تعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم وعظم ودم وعصب منقسمة بالأنامل ولكن روح الأصبع سرعة القلب والقدرة على التحريك والتغيير ، فإنك لا تريد أصبعك لشخصه بل لقوته في التقلب والترديد كما أنك تتماهى بالأفعال بأصابعك . والله تعالى يفعل ما يفعل باستسخرار الملك والشيطان وهما مسخران بقدرته في قلب القلب ، كأن أصابعك مسخرة لك في قلب الأجسام مثلا . والقلب بأصل القطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحا متساويا ليس يرجح أحدهما على الآخر ، وإنما يرجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها ، فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان ومعدنه لأن الهوى هو مرمى الشيطان وممرته ، وإن جاهد الشهوات ولم يسلفها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومبسطهم ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرم وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المشبعة عن الهوى لا يجرم لم يخلو قلب عن أن يكون الشيطان فيه جولان بالوسوسة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ما منكم

(١) « في القلب ثناتان لمة من الملك إيماد بالخير ... » أخرجه الترمذى وحسنه والنسائي في الكبرى من حديث

ابن مسعود .

(٢) « للمؤمن بين أصبعين ... الحديث » تقدم

من أحد أوله شيطان» قالوا وأنت يا رسول الله ؟ قال «وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير»<sup>(١)</sup> وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يصرف إلا بواسطة الشهوة فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لا تتبسط إلا حيث يبنى وإلى الحد الذي يبنى فشهوته لا تدعو إلى الشر فالشيطان المتدبر بها لا يأمر إلا بالخير .

ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالا فوسوس . ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألم . والتطارد بين جنتي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم إلى أن يفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن ، ويكون اجتياز الثاني اختلاسا .

وأكثر القلوب قد فتحها جنود الشياطين وتملكتها فامتلت بالوسوس الداعية إلى إثارة العاجلة وإطراح الآخرة ومبدأ استيلائها أنباغ الشهوات والهوى . ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخليتها عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وعمارته بذكر الله تعالى الذي هو مطرح أثر الملائكة .

وقال جابر بن عبيدة المدني : شكوت إلى العلامة بن زياد ما أجيد من صدى من الوسوسة فقال : إنما مثل ذلك البيت الذي يمر به الضوضاء فإن كان فيه شيء عاجله وإلا مضوا وتركوه .

يعني أن القلب الخالي من الهوى لا يدخله الشيطان . ولذلك قال الله تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) فكل من انبج الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك سلط الله عليه الشيطان . وقال تعالى (أفرأيتم من اتخذ إلهه هواه) وهو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله . ولذلك قال عمرو بن الماص للنبى ﷺ : يا رسول الله حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي فقال « ذلك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا » قال : ففعلت ذلك فأذهب الله عني<sup>(٢)</sup> .

وفي الخبر « إن الوضوء شيطانا يقال له الوهمان فاستميناوا بالله منه<sup>(٣)</sup> » ولا يحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ماسوى ما يوسوس به ، لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انضم منه ما كان فيه من قبل ، ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به فيجوز أن يكون مجالا للشيطان ، وذكره الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس الشيطان فيه مجال : ولا يبالغ الشيء إلا بهنده وعند جميع وسوس الشيطان ذكر الله الاستعاذة والتبري عن الحول والقوة ، وهو معنى قولك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الغائب عليهم ذكر الله تعالى ، وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة . قال الله تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) وقال مجاهد في معنى قول الله تعالى (من شر الوسوس الخناس) قال : هو متبسط على القلب : فإذا ذكر الله تعالى خنس واتجسس ، وإذا غفل انتبسط على قلبه . فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام وبين الليل والنهار ، ولتصادمها قال الله تعالى (استعوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله) وقال أنس : قال رسول صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان واضح خرطومه على قلب ابن آدم فإن هو ذكر الله تعالى خنس وإن نسي الله تعالى انتم قلبه<sup>(٤)</sup> » وقال ابن وضاح في حديث ذكره : إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يقب مسح الشيطان وجهه بيده

(١) « ما منكم من أحد إلا وله شيطان ... » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث ابن أبي الماص : إن الشيطان حال بيني وبين صلاتي ... الحديث أخرجه مسلم من حديث ابن أبي الماص .

(٣) حديث : إن للوضوء شيطانا يقال له الوهمان ... ابن ماجه من حديث أبي بن كعب وقال غريب وليس إسناده بالقوى عند أهل الحديث .

(٤) حديث أنس « إن الشيطان وانزع خطمه على قلب ابن آدم ... » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب مكاييد الشيطان وأبو يعلى الوصلى وابن عدى في الكامل ومضعه .

وقال : بأى وجه من لا يفلح <sup>(١)</sup> .

وكما أن الشبهات بمنزلة بلمس ابن آدم فسلطنة الشيطان أيضا سارية في لحه ودمه ومحيطه بالقلب من جوانبه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا بجماريه بالجوع <sup>(٢)</sup> » وذلك لأن الجوع يكسر الشهوة ويجرى الشيطان الشهوات . ولاجل اكتشاف الشهوات لقلب من جوانبه قال الله تعالى اخبارا عن إبليس ( لا تمدن لهم مراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أعانهم وعن شمائلهم ) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قد لاين آدم بطرق فعمله بطريق الإسلام فقال : أسلم وترك دينك ودين آبائك ؟ فصاه وأسلم ثم قد له بطريق الهجرة فقال : أتأجر ؟ أتدع أرضك وسمائك ؟ فصاه وهاجر ، ثم قد له بطريق الجهاد فقال : أتجاهد وهو تلف النفس والمال فتقاتل فتقتل فتصكح نسائك ويقسم مالك فصاه وجاهد <sup>(٣)</sup> » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فمن فعل ذلك فأت كان حقا على الله أن يدخله الجنة » فنصكر رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الوسوسة وهى هذه الخواطر التى تغتر للجهاد أنه يقتل وتتصكح نسائه وغير ذلك مما يصرفه عن الجهاد وهذه الخواطر معلومة . فإذا الوسواس معلوم بالمشاهدة وكل خاطر قلبه سبب ويفتر إلى اسم يعرفه فاسم سببه الشيطان ولا يصور أن يتفك عنه آدمى وإنما يختلفون بمصيانته ومتابعته ، ولذلك قال عليه السلام « ما من أحد إلا وله شيطان <sup>(٤)</sup> » .

فقد اتضح بهذا النوع من الاستيعار معنى الوسوسة والإلغام والملك والشيطان والتوفيق والخذلان فيبعد هذا نظرا من ينظر في ذات الشيطان أنه جسم لطيف أوليس بجسم ، وإن كان جسما فكيف يدخل بدن الإنسان وهو جسم ؟ فهذا الآن غير محتاج إليه في علم العامة . بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت في ثيابها حية وهو محتاج إلى إزالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها وطولها وعرضها وذلك حين الجهل . فصاحه الخواطر الباغية على الشر قد حلت ودل ذلك على أنه عن سبب لاحتاح ، وعلم أن الداعي إلى الشر المخدور في المستقبل عدو فقد عرف العدو لاحتاح ، فينبغي أن يشتغل بجهادته وقد عرف الله سبحانه عدوته في مواضع كثيرة من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى ( إن الشيطان لكم عدو فاتخضوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السميز ) وقال تعالى ( ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ) فينبغي للعدو أن يشتغل بدفع العدو عن نفسه لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه ، نعم ينبغي أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه وسلاح الشيطان الهوى والشهوات وذلك كاف للعالمين . فأما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته — نمود بالله منه — وحقيقته اللاتسكة فذلك ميدان العارفين المتغلبين في علوم المكاشفات فلا يحتاج في علم العامة إلى معرفه ، نعم ينبغي أن يعلم أن الخواطر تنقسم إلى ما يعلم قطعا أنه داع إلى الشر فلا ينبغي كونه وسوسة ، وإلى ما يعلم أنه داع إلى الخير فلا يشك في كونه إلها ، وإلى ما يردد فيه فلا يدري أنه من لة الملك أو من لة الشيطان ؟ فإن من مكايده الشيطان أن يعرض الشر في معرض الخير ، والتبين في ذلك غامض وأكثر العباد به يهلكون ، فإن الشيطان لا يقدر على دعائهم إلى الشر الصريح فيصور الشر بصورة الخير ، كما يقول للعالم بطريق الوظ : أما تنتظر إلى الخلق وهم موتى من الجهل هلكن من الفتنة قد أشرفوا على النار ؟

- (١) حديث ابن وضاح « إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يقب مسح الشيطان يده وجهه قال : بأى وجه من لا يفلح »
- (٢) « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » تقدم
- (٣) « إن الشيطان قد لاين آدم بأطرافه ... » أخرجه النسائي من حديث سبرة بن أبي فاكه بإسناد صحيح .
- (٤) « ما من أحد إلا له شيطان ... » تقدم

أما لك رحمة على عباد الله فتقدم من المعاطب بنصحك ووعظك وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذكي ولحجة مقبولة ؛ فكيف تكفر بنعمة الله تعالى وتعرض لسخطه وتسكت عن إشاعة العلم ودعوة الخلق إلى الصراط المستقيم ولا يزال يقرر ذلك في نفسه ويستجره بلطيف الحيل إلى أن يشتغل بوعظ الناس ، ثم يدعوهم بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنع تحسين اللفظ وإظهار الخير ويقول له : إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم ولم يتدبروا إلى الحق ، ولا يزال يقرر ذلك عنده وهو في أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء وقبول الخلق ولاة الجاه والتعزز بكثرة الاتباع والعلم والنظر إلى الخلق بين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك ، فيستكمل وهو يظن أن قصده الخير وإنما قصده الجاه والقبول ، فهلك بسببه وهو يظن أنه عند الله بمكان وهو من الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله ليؤيد هذا الدين يقوم لأخلاق لم <sup>(١)</sup> » ، و « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر <sup>(٢)</sup> » ولذلك روى أن إبليس لعنه الله تمثل لعيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم فقال لا إله إلا الله ، فقال : كلة حتى ولا أولها بقورك ، لأن له أيضا تحت الخير تليسات ، وتليسات الشيطان من هذا الجنس لا تنتهي وبها يهلك العلماء والنباد والإهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الخلق يمكن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي للكشفة .

وستذكر جملة من مكاييد الشيطان في كتاب التروير في آخر هذا الربع ، ولعلنا إن أمهل الزمان صفتنا فيه كتابا على الخصوص نسمة ( تليس إبليس ) فإنه قد انتشر الآن تليسه في البلاد والعباد لاسيا في المذاهب والاعتقادات ، حتى لم يبق من الخيرات إلا رسمها كل ذلك إذعانا لتليسات الشيطان ومكايده .

نحز على العبد أن يقف عند كل م يحظر له ليعلم أنه من لمة الملك أو لمة الشيطان وأن يحسن النظر فيه بعين البصيرة لايهوى من الطبع ، ولا يطلع عليه إلا ب نور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى ( إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ) أي رجعوا إلى نور العلم ( فاذا هم مبصرون ) أي ينكشف لهم الإشكال فأما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإذعان بتليسه بتأبئة الموى فيكثر فيه غلظه ويتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر ، وفي مثلهم قال سبحانه وتعالى ( وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ) قيل هي أعمال ظنوها حسنات فاذا هي سيئات ، وأغصم أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكاييد الشيطان وذلك فرض عين على كل عبد وقد أمهله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجر إليهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان وتسببهم عداوته وطريق الاحتراز عنه ، ولا ينجي من كثرة الوسواس إلا سد أبواب الخواطر وبوابها الحواس الحس ، وأبوابها من داخل الشهوات وعلاقت الدنيا ، والحلوة بيت مظلم تسد باب الحواس ، والتجرد عن الأهل والمسال يقلل مداخل الوسواس من الباطن ويبقى مع ذلك مداهنه باطنه في التخييلات المجارية في القلب وذلك لا يدفع إلا بشغل القلب بذكر الله تعالى ، ثم إنه لا يزال يجاذب القلب ويتنازع ويلبسه عن ذكر الله تعالى فلا بد من مجاهدته ، وهذه مجاهدة لا آخر لها إلا الموت إذ لا يتخلص أحد من الشيطان مادام حيا . نعم قد قوى بحيث لا يتنازع له ويدفع عن نفسه شره بالمجاهد ، ولكن لا يستغنى قط عن الجهاد والمداخمة مادام الدم يجري في بدنه . فانه مادام حيا فأبواب الشيطان مفتوحة إلى قلبه لا تنغلق وهي الشهوة والغضب والحسد والطمع والشر وغيرها — كما سيأتي شرحها — وبهما كان الباب مفتوحا والمدعو غير غافل لم يدفع إلا بالحراسة والمجاهدة .

(١) « إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » أخرجه النسائي من حديث أنس بإسناد جيد .

(٢) « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم .

قال رجل الحسن يا أبا سعيد أينما الشيطان ؟ تبسم وقال : لو نام لاسترحنا . فإني لاخلص للمؤمن منه . نعم له سبيل إلى دفعه وتضعيف قوته ، قال عليه السلام « إن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره في سفره »<sup>(١)</sup> وقال ابن مسعود شيطان المؤمن مهزول . وقال قيس بن الحجاج : قال لي شيطاني ، دخلت فيك وأنا مثل الجزور وأنا الآن مثل المصفور ، قلت : ولم ذلك ؟ قال : تدينني بذكر الله تعالى . فأهل التقوى لا يتعدون عنهم سد أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة . أعني الأبواب الظاهرة والطرق الجلية التي تنضى إلى المعاصي الظاهرة ، وإنما يتعمرون في طرقه الخفية فأنهم لا يتعدون إليها فيحسبون أنها كأشرفنا إليه في غرور العلماء والعواطف والمشاكل أن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة وباب الملائكة باب واحد ، وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة فالعبد فيها كالمسافر الذي يبقى في بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك في ليل مظلمة فلا يكاد يعلم الطريق إلا بيمين بصيرة وطلوع شمس مشرقة : واليمين البصيرة هنا هي القلب المعنى بالتقوى . والشمس المشرقة هو العلم التزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسترة رسوله عليه السلام مما يهدي إلى غوامض طرقه ، وإلا فطرقه كثيرة وغامضة . قال عبادة بن مسعود رضي الله عنه خط لنا رسول الله عليه السلام يوما خطا وقال « هذا سبيل الله » ثم خط خطوطا عن يمين الخط وعن شماله ثم قال « هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » ثم تلا « وإن هذا صراطي مستقيما فأتبعوه ولا تتبعوا السبل » تلك الخطوط<sup>(٢)</sup> فين عليه السلام كثرة طرقه .

وقد ذكرنا مثالا للطريق الناصب من طرقه وهو الذي يتخذ به العلماء والعباد المالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصي الظاهرة ، فلنذكر مثالا للطريق الواضح الذي لا يخفى إلا أن يصطبر الآدي إلى سلوكه . وذلك كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « كان إيهاب في بني إسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية تخفيها وألقى في قلوب أهلها أن دواها عند الرهاب ، فاتوا بها إليه فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها ، فلما كانت عنده ليأجلها أتاه الشيطان فزين له مقاربتها ولم يزل به حتى واقمها فغلبت منه ، فوسوس إليه وقال : الآن تنفض يأتبك أهلها فاقبلها فإن سألك فقل ماتت ، فقبلها ودفعها ، فألقى الشيطان أهلها فوسوس إليهم وألقى في قلوبهم أنه أحبلها ثم قبلها ودفعها فاتاه أهلها فسألوه عنها فقال : ماتت ، فأخفوه ليقتلوه بها فاتاه الشيطان فقال أنا الذي خفيها وأنا الذي ألقيتها في قلوب أهلها فأطعن تنجح وأخلصك منهم قال : بماذا ؟ قال : أجد لي مجديين ؛ فسجد له سجدتين فقال له الشيطان : إني برىء منك . فهو الذي قال تعالى فيه « كل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني برىء منك »<sup>(٣)</sup> فأنظر الآن إلى حيله واضطراره الرهاب إلى هذه الكبت ، وكل ذلك لطاعته له في قبول الجارية للمعالجة وهو أمر ديني وربما يظن صاحبه أنه خير وحسن فيحسن ذلك في قلبه يخفى الهوى فيقدم عليه كل راض في الغير فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره ويجهز البعض إلى البعض بحيث لا يجد محيصا ؛ فعمود باقهم تنضيع أوائل الأمور وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « من حلم حول الحى يوشك أن يقع فيه »<sup>(٤)</sup> .

- (١) « إن المؤمن ينضى شيطانه ... » أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة وفيه ابن لبيعة  
(٢) حديث ابن مسعود : خط لنا رسول الله عليه السلام خطا فقال « هذا سبيل الله ... » أخرجه النسائي في الكبرى والحاكم وقال صحيح الإسناد . (٣) « كان رهاب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جارية تخفيها وألقى في قلوب أهلها أن دواها عند الرهاب ... » بطوله في قوله تعالى « كل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر » ابن أبي الدنيا في مكابد الشيطان وابن مردويه في تفسيره في حديث عبيد بن أبي رفاعة مرسله للحاكم نحوه موقوفا على علي بن أبي طالب وقال صحيح الإسناد ووصله في مسنده من حديث علي . (٤) « من حلم حول الحى يوشك أن يقع فيه » متفق عليه من حديث النعمان بن بشير « من رجع حول الحى يوشك أن يواقه » لفظ البخاري .

## بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب

اعلم أن مثال القلب مثال حصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولى عليه ، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلته ، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه ، لحاجة القلب عن وسواس الشيطان واجبة وهو فرض عين على كل عبد مكلف ، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضا واجب ، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله فصار معرفة مداخله واجبة . ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة ، ولكننا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية بجرى الدروب التي لا تضيق من كثرة جتود الشيطان .

فمن أبوابه العظيمة : الغضب والشهوة ، فإن الغضب هو غول العقل وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان . ومبها غضب الإنسان لمب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة . فقد روى أن موسى عليه السلام لقيه إبليس فقال له : يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالة وملكك تسليما وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لي إلى ربك أن يتوب علي ، فقال موسى : نعم ؛ فلما صعد موسى الجبل وكلم به ربه عز وجل وأراد النزول قال له ربه : أد الأمانة ، فقال موسى : يارب عبدك إبليس يريد أن يتوب عليه ، فأوحى الله تعالى إلى موسى : يا موسى قد قضيت حاجتك مره أن يسجد لقبول آدم حتى يناب عليه ، فلقى موسى إبليس فقال له : قد قضيت حاجتك امرت أن تسجد لقبول آدم حتى يناب عليك ؛ فغضب واستكبر وقال : لم أسجد له حيا أسجد له ميتا ؛ ثم قال له : يا موسى إن لك علي حقا بما شئت لي إلى ربك فاذا كرتي عند ثلاث لأهلكك فبين : اذكرني حين تغضب فإن روعي في قلبك وعيني في عينك وأجرى منك بجرى الهمة ؛ اذكرني إذا غضبت فإنه إذا غضب الإنسان تنحنت في أنفه فما يدري ما يصنع ، واذا كرتي حين تلقى الزحف فإنني آتي ابن آدم حين يلقي الزحف فاذا ذكره زوجته وولده وأمله حتى يولي ، وإياك أن تجلس إلى امرأة ليست بذات عرم فأتى رسولنا إليك ورسولك إليها فلا أزال حتى أقتلك بها وأفتها بك . فقد أشار بهذا إلى الشهوة والغضب والحرص فإن القمار من أوحش حرص على الدنيا ، وامتناعه من السجود لأدم ميتا هو الحسد وهو أعظم مداخله . وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس : أرني كيف تغضب ابن آدم ؟ فقال : أخذه عند الغضب وعند الهوى ، فقد حكى أن إبليس ظهر لأراهب فقال له الأراهب : أي أخلاق بني آدم أعون لك ؟ قال : الحدة فإن العبد إذا كان حديدا فنباه كما يقبل الصبيان الكرة . وقيل : إن الشيطان يقول كيف يفتلي بن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون في قلبه وإذا غضب طرحت حتى أكون في رأسه ؟

ومن أبوابه العظيمة الحسد والحرص فهما كان العبد حريصا على كل شيء أعماه حرصه وأعمى ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « حبك الشيء يعمي ويصم »<sup>(١)</sup> ونور البصيرة هو الذي يعرف مداخل الشيطان فإذا غلاه الحسد والحرص لم يبصر حينئذ جند الشيطان فرمة فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكرا وفاحشا . فقد روى أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى ، فرأى في السفينة شيخا لم يعرفه فقال له نوح : ما أدخلك ؟ فقال : دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك ، فقال له نوح أخرج منها يا عبد الله فانك لعين ، فقال له إبليس : خمس أهلك بين الناس وسأحدثك منهن ثلاث ولا أحدثك باثنين ؛ فأوحى الله تعالى إلى نوح : أنه لا حاجة لك بالثلاث فليحدثك بالاثنتين ، فقال له نوح :

(١) « حبك الشيء يعمي ويصم » أخرجه أبو دوداد من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف .



ما الاثنان ؟ فقال : هما الثمان لا تكذباني هما الثمان لا تخلفاني هما أهلك الناس ؛ الحرص والحسد ، فبالحسد لعنت وجعلت شيطاناً رجياً ، وأما الحرص فإنه أبيع لأدم الجنة كلها إلا الشجرة فأصبت حاجتي منه بالحرص .

ومن أبوابه العظيمة : الشيع من الطعام وإن كان حلالاً صافياً ، فإن الشيع يقرى الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان . فقد روى أن إبليس ظهر ليعي بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شيء فقال له : يا إبليس ما هذه المعاليق ؟ قال : هذه الشهوات التي أصعب بها ابن آدم فقال : فهل فيها من شيء ؟ قال : ربما شيعت فقتلتك عن الصلاة وعن الذكر ، قال : فهل غير ذلك ؟ قال : لا ، قال لله على أن لا أملا بطنى من الطعام أبداً ، فقال له إبليس : والله على أن لا أنصح مسلماً أبداً . ويقال في كثرة الأكل ست خصال منومة ؛ أولها : أن ينهب خوف الله من قلبه . الثاني : أن ينهب رحمة الخلق من قلبه لأنه يظن أنهم كلهم شياح . والثالث : أنه يتقل عن الطاعة . والرابع : أنه إذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة . والخامس : أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع في قلوب الناس . والسادس : أن يهيج فيه الأمراض .

ومن أبوابه : حب التزين من الأثاث والثياب والدار ؛ فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب الإنسان باض فيه وفرخ ؛ فلا يزال يدعو إلى عمارة الدار وتزيين سقفها وحيطاتها وتوسيع أبينتها ويدعو إلى التزين بالثياب والدواب ويستسخره فيها طول عمره ، وإذا أوقفه في ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية ، فإن بعض ذلك يجره إلى البعض فلا يزال يؤدبه من شيء إلى شيء إلى أن يساق إليه أجله فيموت وهو في سبيل الشيطان واتباع الهوى ويغشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر نعوذ بالله منه .

ومن أبوابه العظيمة : الطمع في الناس ؛ لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزال الشيطان يحجب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتليس حتى يصير المظموح فيه كأنه معبود فلا يزال يتفكر في حيلة التودد والتعجب إليه وينخل كل مدخل للوصول إلى ذلك . وأقل أحواله التناء عليه بما ليس فيه والمداومة له بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقد روى صفوان بن سليم أن إبليس يمثل لمبداقه بن حنظلة فقال له : يا ابن حنظلة احفظ حتى شيئاً عليك به ، فقال : لا حاجة لي به . قال : انظر فإن كان خيراً أخذت وإن كان شراً رددت ؛ يا ابن حنظلة لا تسأل أحداً غير الله سؤال رغبة ، وانظر كيف تكون إذا غضبت ، فإن أملكك إذا غضبت .

ومن أبوابه للعظيمة : العجلة وترك الثبوت في الأمور ؛ وقال عليه السلام : « العجلة من الشيطان والتأني من الله تعالى » (١) وقال عز وجل (خلق الإنسان من عجل) وقال تعالى (وكان الإنسان عجولاً) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ولا تسجل بالقرآن من قبل أن يفتحن إليك وحبه » وهذا لأن الأعمال يبنى أن تكون بعد البصيرة والمعرفة ، والبصيرة تحتاج إلى تأمل وتمهل ، والعجلة تمنع من ذلك ، وعند الاستحجال يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري . فقد روى أنه لما ولد عيسى بن مريم عليه السلام أتته الشياطين إبليس فقالوا : أصبحت الأصنام قد تكسرت وسها فقال هذا حدث قد حدث ؛ مكانكم أفسار حتى أتى خافق الأرض فلم يجده شيئاً ، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد وإذا الملائكة حافين به ، فرجع إليهم فقال : إن نبياً قد ولد الباردة ما حملت أثق قط ولا وضعت إلا وأنا حاضرها إلا هذا ، فأيسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن اتوا بني آدم من قبل العجلة والخفة .

ومن أبوابه العظيمة : الدرام والدنا غير وسائل أصناف الأموال من العروض والدواب والعتار ؛ فإن كل ما يزيد

(١) « العجلة من الشيطان والتأني من الله » أخرجه من حديث سهل بن سعد بلفظ الأئمة وقال حسن .

على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان ، فإن من معه قوة فهو فارغ القلب ، فلو وجد مائة دينار مثلا على طريق انبت من قلبه عشر شهور تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج إلى تسعة أخرى ، وقد كان قبل وجود المائة مستثنياً ، فلأن ما وجد مائة ظن أنه صار بها غنيا وقد صار محتاجا إلى تسعة ليعتري داراً يعمرها ويشترى جارية وليشترى أثاث البيت ويشترى الثياب الفاخرة وكل شيء من ذلك يستدعي شيئاً آخر يليق به . ولذلك لا آخر له فيقع في هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر لها سواء . قال ثابت البناني لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إبليس لشياطينه : لقد حدث أمر فافظروا ما هو فافظلقوا حتى أعيوا ثم جاءوا وقالوا ما ندري ؟ قال : أنا أتيتكم بالخبر فذهب ثم جاء وقال : قد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم قال : لجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فينصرفون عاتبين ويقولون : ما سمعنا قوما قط مثل هؤلاء نصيب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحي ذلك ، فقال لهم إبليس : رويداً بهم صلى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا (١) .

وروي أن عيسى عليه السلام توسد يوم أحجرا فر بإبليس فقال : يا عيسى رغبت في الدنيا ؟ فأخذه عيسى صلى الله عليه وسلم فرى به من تحت رأسه وقال : هذا السمع الدنيا وعلى الحقيقة من ملك حجر يتوسد به عند النوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون صدة الشيطان عليه . فإن القائم بالليل مثلا الصلاة مهما كان بالقرب منه حجر ، يمكن أن يتوسد فلا يزال يدعو إلى النوم وإلى أن يتوسده ، ولولم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك بهال ولا تحرك رغبته إلى النوم . هذا في حجر فكيف بمن ملك الخداد الميرة والفرش الوطية والمتنزهات الطيبة في ينشط لعبادة الله تعالى ؟ .

ومن أبواب العظيمة : البخل وخوف الفقر ؟ فإن ذلك هو الذي يمنع من الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الادخار والكثرة والمذاب الآليم وهو الموعود للكافرين كما نطق به القرآن العزيز . قال عيشة بن عبد الرحمن : إن الشيطان يقول : يا مغلبى ابن آدم غلبة قلن يتلقى على ثلاث : أن أمره أن يأخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه في غير حقه ، ومنه من حقه . وقال سفيان : ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر فإذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء .

ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال . والأسواق هي معش الشياطين . وقال أبو أمامة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال : يارب أنزلني إلى الأرض وجعلني رجلاً فأجعل لي بيتاً قال الحمام ، قال : اجعل لي مجلساً قال الأسواق وجميع الطرق ، قال : اجعل لي طعاماً قال طعامك ما لم يذكر اسم الله عليه ، قال : اجعل لي شرباً قال كل مسكر ، قال : اجعل لي مؤذناً قال المزمار ، قال : اجعل لي قرآناً قال الشعر ، قال : اجعل لي كتاباً قال الوشم ، قال : اجعل لي حديثاً قال الكذب قال : اجعل لي مصاد قال النساء (٢) » .

ومن أبواب العظيمة التوصل : التصبب للذاهب والآهواء والمقصد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار ؛ وذلك عما يملك العباد والفساق جميعاً فإن الطعن في الناس والاشتغال بذلك يرقصهم صفة مجبولة في

(١) حديث ثابت : لما بعث صلى الله عليه وسلم قال إبليس لشياطينه : لقد حدث أمر ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في مكابد الشيطان هكذا مرسل .

(٢) حديث أبي أمامة « إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال يارب أنزلني إلى الأرض وجعلني رجلاً فأجعل لي بيتاً قال الحمام ... » أخرجه الطبراني في الكبير وإسناده ضعيف جداً ورواه بنحوه من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف أيضاً .

الطبع من الصفات السجعية ، فإذا غلب إليه الشيطان أن ذلك هو الحق وكان موافقا لطبيعته غلبت حالته على قلبه فاشتغل به بكل همه ، وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسعى في الدين وهو ساع في اتباع الشياطين ، قرى الواحد منهم يتمصب لأبي بكر الصديق رضى الله عنه وهو آكل الحرام ومطلق اللسان بالفضول والكذب ومتعاطي لأنواع الفساد ولو رآه أبو بكر لكان أول عدوه إذ موالى أبي بكر من أخذ سيده وسار بسيرته وحفظ ما بين لحييه ، وكان من سيرته رضى الله عنه أن يضع حصاة في فمه ليكف لسانه عن الكلام فيا لا يمتيه فأثنى لهذا الفضول أن يدعى ولاده وحبه ولا يسير بسيرته ؟

وترى فضوليا آخر يتمصب لملى رضى الله عنه وكان من زهد على وسيرته أنه لبس في خلافته ثوبا اشتراه بثلاثة دراهم وقطع رأس الكمين إلى الرسخ ، ورى الفاسق لابس الثياب الحرير ومتجسلا بأموال اكتسبها من حرام وهو يتعاطى حب على رضى الله عنه ويدعيه وهو أول خصائمه يوم القيامة ، وليت شرى من أخذ ولدا عن رآ لإنسان هو قرعة عينه وحياة قلبه فأخذ يضربه ويعزقه ويتف شمره ويقطعه بالقرصان وهو مع ذلك يدعى حب أبيه وولاده فكيف يكون حاله عنده ؟ ومعلوم أن الدين والشرع كانا أحب إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة رضى الله عنهم ، من الأهل والولد بل من أنفسهم والمتحشون لمعاصي الشرع هم الذين يزنون الشرع ويقطعون به بمقاييس الشهوات ويتوددون به إلى عدو الله إبليس وعدو أوليائه قرى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أوليائه الله تعالى ؟ لا بل لو كشف النطاء وعرف هؤلاء ماتبه الصحابة في أمة رسول الله ﷺ لاستحبوا أن يجرؤوا على اللسان ذكرهم مع فبع أفعالهم ثم إن الشيطان يخيل إليهم أن من مات عبدا لأبي بكر وعمر فالتار لائحوم حوله ، ويخيل إلى الآخر أنه إذا مات عبدا لملى لم يكن عليه خوف وهذا رسول الله ﷺ يقول لفاطمة رضى الله عنها وهي بضعة منه (١) « اعملى فأنى لا أغنى عنك من الله شيئا (٢) » وهذا مثال اوردها من جملة الأهواء .

وهكذا حكم المتحصين للشافى وأبى حنيفة وماك وأحمد وغيرهم من الأئمة فكل من ادعى مذهب إمام وهو ليس بسير بسيرته فذلك الإمام هو خصمه يوم القيامة إذ يقول له : كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان وكان الحديث باللسان لأجل العمل لا لأجل الحديث ؛ فابالك خالفتى في العمل والسيرة التي هي مذهبي ومسلكى الذى سلكته وذعبت فيه إلى الله تعالى ثم ادعيت مذهبي كاذبا وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم . وقد سلبت المدارس لأقوام قل من اخفقهم وضعفت في الدين بهيرتهم وقويت في الدنيا رغبتهم واشتد على الاستتباع حرصهم ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتحصب ، لحبوا ذلك في صدورهم ولم ينهزم على مكاييد الشيطان فيه ، بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته فاستمر الناس عليه ونسوا أمهات دينهم فقد هلكوا وأهلكوا فآله تعالى يوب علينا وعلمهم ، وقال الحسن : بلغنا أن إبليس قال : سولت لامة محمد ﷺ المعاصي فقصوا ظهري بالاستغفار فسولت لهم ذنوبيا لا يستغفرون الله تعالى منها وهي الأهواء . وقد صدق الملعون فإنهم لا يعلمون أن ذلك من الأسباب التي تجر إلى المعاصي فكيف يستغفرون منها ؟

ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات قال عبد الله بن مسعود : جلس قوم يذكرون الله تعالى فأتاهم الشيطان ليقيمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع ، فأثنى رفقة أخرى يتحدثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم قساموا يقتلون - وليس إمام يريد - فقام الذين يذكرون الله تعالى

(١) « فاطمة بضعة منى » متفق عليه من حديث السور بن عرفة .

(٢) « إني لا أغنى عنك من الله شيئا » قاله لفاطمة متفق عليه من حديث أبي هريرة .

فاشتغلوا بهم بفصلون بينهم ففارقوا عن مجلسهم ، وذلك مراد الشيطان منهم .

ومن أبوابه حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكير في ذات الله تعالى وصفاته في أمور لا يلائمها حد عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين ، أو يخيل إليهم في الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها يصيرها كافرين أو مبتدعا وهو به فرح مسرور متهيج بما وقع في صدره ، يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله فأشد الناس حماة أقوام اعتقادا في عقل نفسه وأثبت الناس عقلا أشد هم اتهامها لنفسه وأكثرم سؤالا من العلماء . قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ « إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك ؟ فيقول الله تبارك وتعالى فيقول من خلق الله ؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه <sup>(١)</sup> » والنبي ﷺ لم يأمر بالبحث في علاج هذا الوسواس فإن هذا وسواس يحمده عوام الناس دون العلماء وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويشغلوا بعبادتهم ومعاشهم ويتركوا العلم للعلماء . فالعالم لو يذني ويسرق كان خيرا له من أن يتكلم في العلم فإنه من تكلم في الله وفي دينه من غير إيمان العلم وقع في الكفر من حيث لا يدري ، كن ركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة . ومكابد الشيطان فيما يتعلق بالعقائد والمذاهب لاحتصر ، وإنما أردنا بما آوردناه المثال .

ومن أبوابه سوء الظن بالمسلمين قال الله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن اثم ) فمن يحكم بشر على غيره بالظن بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالنية فيهلك أو يقتصر في القيام بحقوقه أو يتواني في إكرامه وينظر إليه بين الاحترار ويرى نفسه خيرا منه . وكل ذلك من المهلكات ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض للظن فقال ﷺ « اتقوا مواضع التهم <sup>(٢)</sup> » حتى احترذ هو ﷺ من ذلك .

روى عن علي بن حسين أن صفية بنت حيي بن أخطب أخبرته أن النبي ﷺ كان متكئا في المسجد قالت : فأتته فتحدثت عنده فلما سميت انصرفت قائم يمشي معي فمر به رجلان من الأنصار فسلبا ثم انصرفا قتاداهما وقال « إنها صفية بنت حيي » فقالا يا رسول الله ما ظن بك إلا خيرا ، فقال « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد وإني خشيت أن يدخل عليك <sup>(٣)</sup> » فانظر كيف أشفق ﷺ على دينهما خرهما ؟ وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله ؟ فيقول : مثل لا يظن به إلا الخير إجماعا منه بنفسه ، فإن أوردع الناس وأقام وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة ، بل بعين الرضا بعضهم وبعين السخط بعضهم ولذلك قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كلية ولكن عين السخط تبدي المساويا

فيجب الاحتراز من ظن السوء وعن تهمة الأشرار فإن الأشرار لا يظنون بالإناس كلهم إلا الشر . فمهما رأيت إنسانا يسيء الظن بالإناس طالبا للميوب فاعلم أنه خبيث في الباطن وإن ذلك خبيث يترشح منه ، وإنما رأى غيره من حيث هو فإن المؤمن يطلب المعاذير والمناقض يطلب الميوب ، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق . فنهى بعض مدخل الشيطان إلى القلب ولو أردت استقصاء جميع ما أقدر عليه وفي هذا التقدر ما يهين على غيره فليس في الآدي صفة

(١) حديث عائشة « إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك ؟ فيقول الله ... الحديث » أخرجه أحمد والبراز وأبو يعلى في مسانيدهم ورجاله ثقات وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) « اتقوا مواضع التهم » لم أجده له أصلا .

(٣) حديث صفية بنت حيي : أن النبي ﷺ كان متكئا فأتته فتحدثت عنده ... الحديث . وفيه « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » متفق عليه .

مدمومة إلا وهي سلاح الشيطان ومدخل من مداخله .

فإن قلت : فما العلاج في دفع الشيطان وهل يكفي في ذلك الله تعالى وقرول الإنسان لاجل ولا قوة إلا بالله فاعلم أن علاج القلب في ذلك سد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المدمومة وذلك بما يطول ذكره . وغرضنا في هذا الرّبع من الكتاب بيان علاج الصفات الملصقات وتحتاج كل صفة إلى كتاب منفرد على ما سبقنا شرحه . نعم إذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان الشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار ويمتعه من الاجتياز ذكر الله تعالى لأن حقيقة الذكر لا تمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المدمومة ، وإلا فيسكون الذكر حديث نفس لاسطغانه على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان . ولذلك قال الله تعالى ( إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ) خصص بذلك المتقي فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك فإن لم يكن بين يديك خبز أو لحم فإنه ينجرب بأن تقول له : اغضأ ، فجرد الصوت يدفعه . فإن كان بين يديك لحم وهو جائع فإنه يهجم على اللحم ولا يتدفع بمجرد الكلام ، فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر ، فاما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشي القلب فلم يتمكن من سويده فيستقر الشيطان في سويده القلب . وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المدمومة فإنه يطهرها الشيطان لا للشهوات بل لخلوها بالفتنة عن الذكر ، فإذا عاد إلى الذكر خفس الشيطان ودليل ذلك قوله تعالى ( فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ) وسائر الآيات الواردة في الذكر .

قال أبو هريرة : أتني شيطان المؤمن وشيطان الكافر فإذا شيطان الكافر دهن ممين كاس وشيطان المؤمن مهزول أشمت أغبر صار ، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن : مالك مهزول؟ قال : أنا مع رجل إلى كل سمي الله فأظلم جاثماً وإذا شرب سمي الله فأظلم مغلثاً ، وإذا لبس سمي الله فأظلم غريباً ، وإذا ادهن سمي الله فأظلم شعثاً ، فقال : لكنني مع رجل لا يفعل شيئاً من ذلك فأنا أشارك في طعامه وشرابه ولباسه .

وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح : اللهم إنك سلطت علينا عدواً بصيراً بصيرنا برانا هو وقيل من حيث لا نراهم اللهم ما يسه منا كما يسه من حمتك وقطعتنا كما قطعت من عفوك وباعدتنا وبينه كما باعدت بينه وبين وحمتك إنك على كل شيء قدير . قال : تمثّل له إبليس يوماً في طريق المسجد فقال له : يا ابن واسع هل تعرفني؟ قال : ومن أنت؟ قال : أنا إبليس ، فقال : وما تريد؟ قال : أريد أن لا تملّ أحداً هذه الاستعاذة ولا تعرض لك ، قال : واه لا أمتنع ما شئت .

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : كان شيطان يأتي النبي ﷺ بيده شملة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلي فيقرأ ويتعوذ فلا ينهب ، فأناء جبرائيل عليه السلام فقال له : قل أموذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يليج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يرجع فيها ومن قن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طوارقاً يغير يارحمن . فقال ذلك ففعلت شملتة وخر على وجهه (١) وقال الحسن : نبئت أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال : إن غفرتنا من الجن يكيدك فإذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي (٢) قال ﷺ ولقد أتاني الشيطان فنازعني ثم نازعني فأخنت

(١) حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى : كان الشيطان يأتي النبي ﷺ بيده شملة من نار ... أخرجه ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان هكذا مرسلًا ومالك بن النوفلي نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلًا ورواه ابن عبد البر في التمهيد من رواية يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عياض الشامي عن ابن مسعود ورواه أحمد والبخاري من حديث عبد الرحمن بن حبيب وقيل له : كيف صنع النبي ﷺ ليلة كاذته الشياطين ؟ - فذكر نحوه .

(٢) حديث الحسن : نبئت أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال : إن غفرتنا من الجن يكيدك ... أخرجه ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان هكذا مرسلًا .

بحلقه فوالذي يمشي بالحق ما أرسلته حتى وجدت برد ماء لسانه على يدي ولولا دعوة أخى سليمان عليه السلام لأصبح طريحاً في المسجد<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « ماسلك عمر بن الخطاب سلك الشيطان لما غير الذي سلكه عمر<sup>(٢)</sup> » وهذا لأن القلوب كانت مطهرة عن مرمى الشيطان وقوته وهي الشهوات فهما طمعت في أن يتدفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضي الله عنه كان محالاً ، وكنت كمن يطعم أن يشرب دواء قبل الاحتيا . والمعدة مشغولة بلفظ الأطعمة ، ويطعم أن يتفقه كما قنع الذي شربه بعد الاحتيا وتخلي المعدة ، والذكر الدواء والثقوى احتيا وهي تملأ القلب عن الشهوات . فإذا نزل الذكر قلباً قارعا عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع الملة بنزول الدواء في المعدة الخالية عن الأطعمة . قال الله تعالى ( إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ) وقال تعالى ( كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ) ومن ساعد الشيطان بعمله فهو موابه وإن ذكر الله بلسانه . وإن كنت تقول الحديث قد ورد مطلقاً بأن الذكر يطرد الشيطان<sup>(٣)</sup> ولم تفهم أن أكثر عومات الشرع مخصوصة بشروط قلها علماء الدين فافترقوا ففسدوا ، فليس الخبر كالبيان ، وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة : فراق قلبك إذا كنت في صلاتك كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساب المالمين وجواب الماندين وكيف يربك في أودية الدنيا ومها لكها حتى إنك لا تذكر ما قد نسيت من فضول الدنيا إلا في صلاتك ولا يردحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت أفاصلة عنك القلوب فيها تظهر محاسنها ومساوئها ، فأفصلة لا تقبل من القلوب المشغولة بشهوات الدنيا فلا جرم لا يطرد عنك الشيطان بل ربما يريد عليك الوسواس ، كما أن الدواء قبل الاحتيا ربما يريد عليك الضرر ، فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتيا بالثقوى ثم أردفه بدواء الذي يفر الشيطان منك كما فر من عمر رضي الله عنه . ولذلك قال وهب بن منبه : اتق الله ولا تسب الشيطان في الملاينة وأنت صدقة في السر ؛ أي أنت مطيعه . قال بعضهم : يا عبيد لمن يعصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ويطيع العين بعد معرفته بطغيانه . وكما أن الله تعالى قال ( ادعوني أستجب لكم ) وأنت تدعوه ولا يستجيب لك فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكر والدعاء .

قيل لأبراهيم بن آدم : ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا وقد قال تعالى ( ادعوني أستجب لكم ) ؟ قال : لأن قلوبكم ميتة ، قيل وما الذي أماتها ؟ قال : ثمان خصال ؛ عرفتم حتى اتقوا لم تقوموا بحقه ، وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحجوده ، وقلمت نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعملوا بسنته ، وقلمت نخشى الموت ولم تستمدوا له ، وقال تعالى ( إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ) فواعتصموا على المعاصي ، وقلمت نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها ، وقلمت نحب الجنة ولم تعملوها ، وإذا قمتم من فرشكم رميم عيوبكم وراء ظهوركم واقرشتم عيوب الناس أمامكم فأحفظتم ربكم ، فكيف يستجيب لكم ؟

لئن قلت : فالداعي إلى المعاصي المختلفة شيطان واحد أو شياعين مختلفون ؟ فاعلم أنه لا حاجة لك إلى معرفة ذلك في العامة فاشغل بدفع العدو ولا تسأل عن صفته . كل البقل من حيث يؤق ولا تسأل عن المبقلة ، ولكن الذي

(١) « أتاني شيطان فنازعني ثم نازعني فأخذت بحلقه ... » أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية الشعبي مرسل هكذا وللبخاري من حديث أبي هريرة « أن عفرتنا من الجن خلت على البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع على صلاتي فأمكنني الله منه ... » والنسائي في الكبرى من حديث عائشة : كان يصلي فأفاته الشيطان فأخذته فصرعه فحققه قال حتى وجدت برد لسانه على يدي ... » وإسناده جيد .

(٢) « ماسلك عمر بن الخطاب سلك الشيطان لما غير منه » متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ « يا ابن الخطاب مالتيك الشيطان ماسلكاً ... » .

(٣) الحديث الوارد بأن الذكر يطرد عمر يطرد الشيطان . تقدم .

يتضح بنور الاستبصار في شواهد الأخبار : أنهم جنود مجتدة وأن لكل نوع من الما صي شيطانا مخصوصا يدور إليه فأما طريق الاستبصار فذكره بطول ويكتفيك القدر الذي ذكرناه وهو أن اختلاف المسييات يدل على اختلاف الأسباب كما ذكرناه في نور الثار وسواد الدخان .

وأما الأخبار فقد قال مجاهد : لإبليس خمسة من الأولاد قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره : ثير والأعور ، وبسوط وداسم وزلتبور . فأما ثير : فهو صاحب المصائب الذي يأمله بالثبور وشق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية . وأما الأعور : فإنه صاحب الزنا يأمر به ويربته ، وأما بسوط : فهو صاحب الكذب . وأما داسم : فإنه يدخل مع الرجل إلى أهله يرميهم بالمعيب عنده وينصبه عليهم . وأما زلتبور . فهو صاحب السوق فيسببه لالزائون متظللين . وشيطان الصلاة يسمى خنزب<sup>(١)</sup> وشيطان الوضوء يسمى الولمان<sup>(٢)</sup> وقد ورد في ذلك أخبار كثيرة .

وكان الشياطين فيهم كثرة فكذلك في الملائكة كثرة . وقد ذكرنا في كتاب العكر السر في كثرة الملائكة واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به ، وقد قال أبو أمامة الباهلي قال رسول الله ﷺ « وكل بالؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه مائة بقدر عليه من ذلك ؛ البصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب الذباب عن قصعة العسل في اليوم الصائف ، وما لو بدالكم رأيته على كل سهل وجبل كل باسط يده فاجر فاه ، ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لا خطلت الشياطين<sup>(٣)</sup> .

وقال أيوب بن يونس بن يزيد : بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ثم ينشئون معهم ، وروى جابر ابن عبد الله : أن آدم عليه السلام لما أهب إلى الأرض قال يارب هذا الذي جعلت بيني وبينه خداعة إن لم تنق عليه لا أقوى عليه ، قال : لا يولد لك ولد إلا وكل به ملك ، قال : يارب زدني ، قال : أجرى بالسيئة سيقو بالחסنة عشرا إلى ما أريد ، قال : رب زدني ، قال : باب التوبة مفتوح مادام في الجسد الروح ، قال إبليس : يارب هذا العبد الذي كرمته على إن لا تنق عليه لا أقوى عليه ؟ قال : لا يولد له ولد إلا وكل له ملك : قال : يارب زدني ، قال : تجري منهم مجرى الدم وتختلون صدورهم بيوتا ، قال : رب زدني ، قال : اجلب عليهم بغيك ورجلك إلى قوله غرورا ، وعن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلق الله الجن ثلاثة أصناف : صنف حيات وعقارب وشعشاش الأرض ، وصنف كالريح في الهواء ، وصنف عليهم الثواب والعقاب . وخلق الله تعالى تعالى الإنس ثلاثة أصناف : كالبهايم كما قال تعالى ( لهم قلوب لا يفقهون بها ولم أعين لا يبصرون بها ولم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ) وصنف أجسامهم أجسام بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين ، وصنف في ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله<sup>(٤)</sup> » وقال وهيب بن الورد : بلغنا أن إبليس تمثل ليحيى بن زكريا عليهما السلام وقال : إني أريد أن أضحك ، قال : لا حاجتي في ضحكك ولكن أخبرني عن بني آدم قال : هم عندنا ثلاثة أصناف : أما صنف منهم وهم أشد الأصناف علينا فقبل على أحدهم حتى تقتته وتمكن منه

(١) « إن شيطان الصلاة يسمى خنزب » أخرجه مسلم من حديث عثمان بن الماص وقد تقدم أول الحديث .

(٢) « إن شيطان الوضوء يسمى الولمان » تقدم وهو عند ابن عمر من حديث أبي .

(٣) حديث أبي أمامة « وكل بالؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه ... » أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان والطبراني في المعجم الكبير بإسناد ضعيف .

(٤) حديث أبي الدرداء « خلق الله الجن ثلاثة أصناف : صنف حيات وعقارب ... » أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وابن جبان في الضعفاء في ترجمة يزيد ابن سنان وضعفوا لما كنعوه مختصرا : في الجن قط ثلاثة أصناف . من حديث أبي ثعلبة الحنفي وقال صحيح الإسناد .

فيفزع إلى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شيء. أدركنا منه ثم نعود إليه فيعود فلا نحن نياس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا فمن منه في عناه. وأما الصنف الآخر فهم في أبدننا بمنزلة الكرة في أيدي صديانكم تقلبهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم. وأما الصنف الثالث فهم مثلك معصومون لا تقدر منهم على شيء.

فإن قلت: فكيف يمثل الشيطان لبعض الناس دون البعض، وإذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يمثل له؟ فإن كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة؟ وكيف يرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين؟

فاعلم أن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتها ولا تدرك حقيقة صورتها بالمشاهدة إلا بأورار النبوة فأرأى النبي صلى الله عليه وسلم جبرائيل عليه السلام في صورته إلا مرتين<sup>(١)</sup> وذلك أنه سأله أن يريد نفسه فوعده بالبيع وظهر له بحراء فسد الأتق من المشرق إلى المغرب ورآه مرة أخرى على صورته ليلة المعراج عند سلمة المنتهى وإنما كان يرافقه صورة الأدمي غالباً<sup>(٢)</sup> فكان يراه في صورة دحية الكلبي<sup>(٣)</sup> وكان رجلاً حسن الوجه.

والأكثر أنه يكشف أهل المكاشفة من أبواب القلوب بمثل صورته فيتمثل الشيطان له في البقطة، فيراه بينه ويسمع كلامه بأذنه فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما ينكشف في المنام لأكثر الصالحين، وإنما المكاشف في البقطة هو الذي انتهى إلى رتبة لا يمنه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التي تكون في المنام فيرى في البقطة ما يراه غيره في المنام، كما روى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلاً سأله أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم، فرأى في النوم جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه ورأى الشيطان في صورة صنفذ قاعد على منكب الأيسر بين منكب وأذنه. له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكب الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه، فإذا ذكر الله تعالى خفس.

ومثل هذا قد يشاهده بعض المكشفين صورة في كلب جامح على جيفة يدمو الناس إليها، وكانت الجيفة مثال الدنيا، وهذا يجري مجرى مشاهدة صورته الحقيقية، فإن القلب لابد وأن تظهر فيه حقيقة من الوجه الذي يقابل عالم الملكوت وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذي يقابل عالم الملك والشهادة لأن أحدهما متصل بالآخر، وقد يتنا أن القلب له وجهان: وجه إلى عالم النيب وهو مدخل الإلهام والوحي، ووجه إلى عالم الشهادة. فالذي يظهر منه في الوجه الذي يلي جانب عالم الشهادة لا يكون إلا صورة متخيلة لأن عالم الشهادة كله متخيلات، إلا أن الخيال تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحس فيجوز أن لا تكون الصورة على وفق المعنى، حتى يرى شخصاً جميل الصورة وهو خبيث الباطن فيسبب السر لأن عالم الشهادة عالم كثر التليس.

أما الصورة فتصل في الخيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب فلا تكون إلا بماكية الصفة وموافقة لما لأن الصورة في عالم الملكوت تابعة للصفوة وموافقة لها، فلا جرم لا يرى المعنى التبيح إلا بصورة قبيحة، فيرى الشيطان في صورة كلب وصنفذ وخنزير وغيرها ويرى الملك في صورة جميلة فتكون تلك الصورة عنوان المعاني وماكية لها بالصدق. ولذلك يدل الفرد والخنزير في النوم على إنسان خبيث، وتدل الشاة على إنسان سليم الصدور وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعبير. وهذه أسرار عجيبوها من أسرار عجايب القلب ولا يليق ذكرها بعم المأتملة. وإنما المقصود أن تصدق

(١) حديث: أنه ﷺ رأى جبريل في صورته إلا مرتين أخرجه الشيخان من حديث عائشة: وسئلت هل رأى محمد ربه؟ وفيه: ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين.

(٢) حديث أنه كان يرى جبريل في صورة الآدمي غالباً أخرجه الشيخان من حديث عائشة وسئلت: فأين قوله فدنا فتدلى قالت ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل ...

(٣) حديث أنه كان يرى جبريل في صورته دحية الكلبي أخرجه الشيخان من حديث أسامة بن زيد: أن جبريل أتى النبي ﷺ وعنده أم سلمة فجعل يحدث ثم قام فقال النبي ﷺ: «لأم سلمة» من هذا؟ قالت: دحية ... الحديث



بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب وكذلك الملك ، تارة بطريق التثليل والمحاكاة كما يكون ذلك في النوم ، وتارة بطريق الحقيقة ، والأكثر هو التثليل بصورة محاكية للبني - هو مثال المعنى لآعين المعنى - إلا أنه يشاهد بالعين مشاهدة محقة وينفرد بمشاهدته المكشفت دون من حوله كالثالث .

بيان ما يؤخذ به العبد من وساوس القلوب وهما وخواطرهما

وقصودها وما يعني عنه ولا يؤخذ به

اعلم أن هذا أمر نامض ، وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها إلا على سماعرة العلماء بالشرع . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « عني عن أمي ما حدثت به نفوسها ما لم تكلم به أو تعمل به »<sup>(١)</sup> وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم « إن الله تعالى يقول الحفظة : إذا هم عبدي بسيرة فلا تكتبوها فإن عملها فآكتبوها سيرة وإذا هم بحسنة لم يعملها فآكتبوها حسنة فإن عملها فآكتبوها عشرا »<sup>(٢)</sup> وقد خرجه البخاري ومسلم في الصحيحين وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمه بالسيرة . وفي لفظ آخر « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعلمها كتبت له إلى سبعة ضعف ومن هم بسيرة فلم يعملها لم تكتب عليه وإن عملها كتبت » وفي لفظ آخر « وإذا تحدث بأن يعمل سيرة فأنا أغفرها له ما لم يعملها ، وكل ذلك يدل على العفو ؛ فأما ما يدل على المؤاخاة فقول سبطه . ( إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ) وقوله تعالى ( ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ) يدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعني عنه وقوله تعالى ( ولا تكتبوا الشهادة ومن يكتبها فإيه آثم قلبه ) وقوله تعالى ( لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ) والحق عندنا في هذه المسألة لا يوقف عليه ما لم تقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح .

فتقول : أول ما يرد على القلب الخاطر ، كما لو خطر له مثلا صورة امرأة وأنها وراء ظهره في الطريق لو ألتفت إليها رآها .

( والثاني ) هيجان الرغبة إلى النظر وهو حركة الشهوة التي في الطبع وهذا يتولد من الخاطر الأول ونسميه ميل الطبع ويسمى الأول حديث النفس .

( والثالث ) حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل أي ينبغي أن ينظر إليها فإن الطبع إذا مال لم تنبذ الهمة والثبة ما لم تندفع الصوارف ، فإنه قد يمنعه حياء أو خوف من الالفتات ، وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل وهو على كل حال حكم من جهة العقل ، ويسمى هذا اعتقادا وهو يتبع الخاطر والميل .

( الرابع ) تصحيح العزم على الالفتات وجزم الثبة فيه وهذا نسيجهما بالفعل ونية وقصدا ، وهذا ألم قد يكون له مبدأ ضعيف ولكن إذا أصنى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته لنفسه تأكد هذا ألم وصار إرادة مجرومة فإذا انجزمت الإرادة فرما يتم بعد الجزم فيترك العمل وربما يغفل بإراض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه وربما يوفقه عائق فيعتذر عليه العمل .

فهنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة : الخاطر وهو حديث النفس ، ثم الميل ، ثم الاعتقاد ، ثم ألم . فتقول : أما الخاطر فلا يؤخذ به لأنه لا يدخل تحت الاختيار وكذلك الميل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان .

(١) « عني لأمتي عما حدثت به نفوسها » متفق عليه من حديث أبي هريرة « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها... » .

(٢) حديث أبي هريرة « يقول الله إذا هم عبدي بسيرة فلا تكتبوها عليه... » قال للصف أخرجه مسلم والبخاري في الصحيحين قلت هو كما قال فلنذا والله أعلم بقمه في الله كر .

أيضا تحت الاختيار، وهما المرادان بقوله صلى الله عليه وسلم «عني عن أمي ما حدثت به نفوسها» لحديث النفس عبارة عن الخواطر التي نهجس في النفس ولا يتبعها عزم على الفعل، فأما الهم والعزم فلا يسمى حديث النفس، بل حديث النفس كما روى عن عثمان بن مظعون حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا رسول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة»، قال «مهل إن من سقني النكاح» قال: نفسي تحدثني أن أحب نفسي، قال «مهل خصاء أمي دؤب الصيام» قال: نفسي تحدثني أن أترهب، قال «مهل رهبانية أمي الجهاد والحج» قال: نفسي تحدثني أن أترك اللحم، قال «مهل فإني أحبه ولو أسيه لا أكلته ولو سألت الله لأطعمنيه<sup>(١)</sup>» فهذه الخواطر التي ليس معها عزم على الفعل هي حديث النفس، ولذلك شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن معه عزم وهم بالفعل.

وأما الثالث: وهو الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل فهذا تردد بين أن يكون اضطرابا أو اختيارا. والأحوال تختلف فيه فلاختياري منه يؤخذ به والاضطرابي لا يؤخذ به.

وأما الرابع: وهو الهم بالفعل؛ فإنه مؤاخذ به إلا أنه إن لم يفعل نظر فإن كان قد تركه خوفا من الله تعالى وتذمرا على همه كتب له حسنة لأن همه سيئة واستناعه ومجاهدته نفسه حسنة، والهم على وفق الطبع مما يدل على تمام الغفلة من الله تعالى، والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوة عظيمة يجده في مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى والعمل لله تعالى أشد من جده في موافقة الشيطان بموافقة الطبع فسكتب له حسنة لأنه رجع بجده في الامتناع ومعه به على همه بالفعل، وإن تبوق الفعل بما تقى أو تركه بعذر لا خوفا من الله تعالى كتبت عليه سيئة. فإن همه فعل من القلب اختياري.

والدليل على هذا التفصيل ما روى في الصحيح مفصلا في لفظ الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قلت للأنبياء عليهم السلام رب ذلك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أجبر به فقال: أرقبوه، فإن هو عملها فاكثبوا له بعثها وإن تركها فاكثبوا له حسنة إنما تركها من جرائ<sup>(٢)</sup>» وحيث قال: فإن لم يعملها: أراد به تركها لله، فأما إذا عزم فاحسه فتعدت عليه بسبب أو غفلة فكيف تكتب له حسنة؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم «إنما يحشر الناس على نياتهم<sup>(٣)</sup>» ونحن نعلم أن من عزم ليلا على أن يصبح ليقول مسلما أو بنى بامرأة فأتى ذلك

(١) حديث: إن عثمان بن مظعون قال يا رسول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة قال «مهل إن من سقني النكاح...» أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية أبي بن زيد عن سعيد بن المسيب مرسل نحوه وفيه القاسم بن عبيد الله العمري كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وللدراي حديث من سعد بن أبي وقاص: لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء بث إليه النبي ﷺ قال «يا عثمان إنني لم أؤمر بالرهبانية...» وفيه «من رغب عن سقني فليس مني» وهو عندكم بلفظ: رد النبي ﷺ على عثمان بن مظعون التبت ولو أذن له لأخصنا. والقبول والطبراني في معجمي الصحابة بإسناد حسن من حديث عثمان بن مظعون: أنه قال يا رسول الله إنني رجل تشق على هذه الزوجة في المغازي فتأذن لي يا رسول الله في الخصاء فأخسى قال «ولا، ولكن عليك بالإن مظعون بالصيام فإنه عفيرة» ولأحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو «خصاء أمي الصيام والقيام» وله من حديث سعيد بن الداس بإسناد فيه ضعف: إن عثمان بن مظعون قال: يا رسول الله أئذن لي في الاختصاص، فقال له النبي ﷺ «إن الله قد أبدلنا بالرهبانية الخيفة السمحة على كل شرف...» وابن ماجه بسند ضعف من حديث عائشة «النكاح من سقني» والأحمد وأبو يعلى من حديث أنس «لكل نبي» وقال أبو يعلى «لكل أمه رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل سياحة الله» وفيه زيد العمي وهو ضعف ولأبي داود من حديث أبي أمامة «إن سياحة أمي الجهاد في سبيل الله» وإسناده جيد.

(٢) حديث: قالت للأنبياء رب ذلك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أجبر... الحديث قال المصنف إنه في الصحيح وهو كما قال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة (٣) «إنما يحشر الناس على نياتهم» أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة دون قوله «إنما» وله من حديث أبي هريرة «إنما يحشر الناس على نياتهم» وإسنادهما حسن ومسلم من حديث جابر «يسمى الله على نياتهم» وله من حديث عائشة «يسمى الله على نياتهم».

الليلة مات مصراً ويحشر على نيته وقد هم بسبته ولم يعملها .

والدليل القاطع فيه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » فقيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال « لأنه أراد قتل صاحبه »<sup>(١)</sup> وهذا نص في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار مع أنه قتل مظلوما فكيف يظن أن الله لا يؤاخذ بالنية واللم ؟ بل كل من دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به إلا أن يكفره بخسنة ، وقضى العزم بالندم حسنة فلذلك كتبت له حسنة ، فأما فوت المراد بما في غير محسنة ، وأما الحواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار فالؤاخذة به تكليف مالا يطاق ولذلك لما نزل قوله تعالى « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : كلفنا ما لا نطيع إن أحدا ليحدث نفسه بما لا يجب أن يثبت في قلبه ثم يحاسب بذلك فقال صلى الله عليه وسلم : « لمحكم تقولون كما قالت اليهود سمعنا وعصينا قولوا سمعنا وأطعنا فقالوا سمعنا وأطعنا »<sup>(٢)</sup> فأ نزل الله الفرج بعد ستة بقوله « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » فظهر به أن كل ما لا يدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذي لا يؤاخذ به . فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس ، وكل من يظن أن كل ما يجري على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة فلا بد وأن يفلط وكيف لا يؤاخذ بأعمال القلب من السكر والعجب والرياء والنفاق والحدس وجملة الخبايا من أعمال القلب ؟ بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ؟ أي ما يدخل تحت الاختيار ، فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذي حرم لم يؤاخذ به فإن أنبها نظرة ثانية كان مؤاخذاً به لأنه مختار فكذلك خواطر القلب تجري هذا الجري بل القلب أولى بمؤاخذته لأنه الأصل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « التقوى ههنا وأشار إلى القلب »<sup>(٣)</sup> وقال الله تعالى « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » وقال صلى الله عليه وسلم « الإثم حوازي القلوب »<sup>(٤)</sup> وقال « البر ما أطمأن إليه القلب وإن أتوك وأتوك »<sup>(٥)</sup> حتى إذا تقول إذا حكم القلب الحق بإيجاب شيء . وكان منقطعا فيه صار مثابا عليه بل من قد ظن أنه ظهر فعله أن يصل فإن صلى ثم تذكر أنه لم يتوأمأ كان له ثواب بفعله ، فإن تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه ، ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته لم يصب بوطئها وإن كانت أجنبية . فإن ظن أنها أجنبية ثم وطئها ، عصي بوطئها وإن كانت زوجته ، وكل ذلك نظر إلى القلب دون الجوارح .

بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا ؟

أعلم أن العلماء المراتين القلوب الناظرين في صفاتها وجماعاتها اختلفوا في هذه المسألة على خمس فرق : فقالت فرقة الوسوسة تنقطع بذكر الله عز وجل لأنه عليه السلام قال « فإذا ذكر الله خنس »<sup>(٦)</sup> والخنس هو السكوت فكانه يسكت .

- (١) « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » الحديث متفق عليه من حديث أبي بكرة .
- (٢) حديث : لما نزل قوله تعالى « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله ﷺ فقالوا كلفنا ما لا نطيع ... الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وابن عباس نحوه .
- (٣) « التقوى ههنا - وأشار إلى القلب » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة - وقال - إلى صدره - .
- (٤) « الإثم حوازي القلوب » تقدم في العلم - .
- (٥) « البر ما أطمأن إليه القلب وإن أتوك وأتوك » أخرجه الطبراني من حديث أبي ثعلبة ولأحمد نحوه من حديث وإبنة وفيه « وإن أتاك الناس وأتوك » وقد تقدم .
- (٦) « وإذا ذكر الله خنس » أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عدي من حديث أنس في أثناء حديث « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ... » وقد تقدم قريبا .

وقالت فرقة : لا يعلم أصله ولكن يجري في القلب ولا يكون له أثر لأن القلب إذا صار مستوعبا بالذكر كان محبوسا عن التأثير بالوسوسة ، كالشغل بهم ، فإنه قد يتكلم ولا يفهم ، وإن كان الصوت يمر على سمعه .

وقالت فرقة : لا تسقط الوسوسة ولا أثرها أيضا ولكن تسقط غلبتها للقلب ، فكأنه يوسوس من بعد وعلى ضعف .

وقالت فرقة : يعلم عند الذكر في لحظة ويعلم عند الذكر في لحظة ، ويتعاقبان في أزمنة متقاربة يظن لتقاربها أنها متساوية وهي كالكرة التي عليها نقط متفرقة فإنك إذا أدركتها بسرعة تواسلها بالحركة ، واستبدل هؤلاء الخفس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر ولا وجه له إلا هذا .

وقالت فرقة : الوسوسة والذكر يتساوآن في الدوام على القلب تساوا لا ينقطع ، وكما أن الإنسان قد يرى بعينه شيتين في حالة واحدة فكذلك القلب قد يكون يجري لفيتين فقد قال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد إلا وله أربعة أعين : عينان في رأسه يصر بهما أمر دنياه . وعينان في قلبه يصر بهما أمر دينه » (١) وإلى هذا ذهب المحاسبي . والمصحيح عندنا أن كل هذه المذاهب صحيحة ولكن كلها قاصرة عن الإحاطة بأصناف الوسواس . وإنما نظر لكل واحد منهم إلى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه .

والوسواس أصناف : الأول : أن يكون من جهة التلبس بالحق ، فإن الشيطان قد يلبس بالحق فيقول للإنسان ترك التمتع بالذات فإن العمر طويل والصبر من الشهوات طول العمر لله عظيم ، فمضى هذا إذا ذكر العبد عظيم حتى الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه وقال لنفسه : الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النار أشد منه ، ولا بد من أحدهما فإذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعده وجد إيمانه وبقينه خفس الشيطان وهرب ؛ إذ لا يستطيع أن يقول له النار أيسر من الصبر على المعاصي ولا يمكنه أن يقول للمصيبة لا تنفضي إلى النار ، فإن إيمانه بكتاب الله عز وجل يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه . وكذلك يوسوس إليه بالسبب بعمله فيقول : أي عبد يعرف الله كما نعرفه وعبده كما عبده ؟ فما أعظم مكانك عند الله تعالى ! فيتذكر العبد حينئذ أن معرفته وقلبه وأعضائه التي بها عمله وعليه كل ذلك من خلق الله تعالى فمن أين يسبب به ؟ فيخفس الشيطان إذ لا يمكنه أن يقول ليس هذا من الله ، فإن المعرفة والإيمان يدفعه . فهذا نوع من الوسواس ينقطع بالكيفية عن المارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة .

الصنف الثاني : أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيجانها ، وهذا ينقسم إلى ما يملأ العبد يقيناً أنه معصية وإلى ما يملأه بغالب الظن . فإن عليه يقيناً خفس الشيطان عن تهيج يؤثر في تحريك الشهوة ولم يخفس عن التهيج وإن كان مظلوماً ، فربما يبق مؤثراً بحيث يحتاج إلى مجاهدة في دفعه فتكون الوسوسة موجودة ولكنها مدفوعة غير غالبة . الصنف الثالث : أن تكون وسوسة بمجرد الخواطر وتذكر الأحوال الغالبة والتفكير في غير الصلاة مثلاً ، فإذا أقبل على الذكر تصور أن ينقطع ساعة ويعود ، ويندفع ويعود ، فيتعاقب الذكر والوسوسة ويتصور أن يتساوقا جميعاً حتى يكون الفهم مشتتاً على فهم معنى القراءة وعلى تلك الخواطر كأنها في موضعين من القلب . وبعد جداً أن يندفع هذا الخفس بالكيفية بحيث لا ينظر ، ولكنه ليس محالاً إذ قال عليه السلام « من صلى ركعتين لم يحدث فيهما

(١) « مامن عبد إلا وله أربعة أعين عينان في رأسه يصر بهما أمر دنياه وعينان في قلبه يصر بهما أمر دينه » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل « الآخرة » مكان « دينه » وفيه الحسين بن أحمد ابن محمد الهروي الساجي الحافظ كذبه الحاكم والآفة منه .

نفسه بشيء من أمر الدنيا فاضر له ما تهمن ذنبه (١) « فلو لا أنه متصور لما ذكره ؛ إلا أنه لا يتصور ذلك إلا في قلب استولى عليه الحب حتى صار كالشتر ، فإذا قدرى المستوجب القلب يبدو تأذى به قد يتفكر بمقدار ركنين وركعتين بمجادة عدوه بحيث لا يخطر بباله غير حديث عدوه ، وكذلك المستغرق في الحب قد يتفكر في مجادة محبوه بقلبه ويغوص في فكره بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوه ، ولو كله غيره لم يسمع ولو اجتاز بين يديه أحد لكان كأنه لا يراه . وإذا تصور هذا في خوف من عدو وعند الحرس على مال وجهه فكيف لا يتصور من خوف النار والحرس على الجنة ؟ ولكن ذلك عزير لضعف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر ، وإذا تأملت جملة هذه الأقسام وأصناف الوسواس علمت أن لكل منذهب من المذاهب وجهاً ولكن في عمل مخصوص .

وبالجملة فالخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد . ولكن الخلاص منه عمراً طويلاً بعيد جداً ، ومعال في الوجود ولو تخلص أحسن وسواس الشيطان بالحواطر وتيسير الرغبة لتخلص رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد روى : أنه نظر إلى علم ثوبه في الصلاة قلما سلم رعى بذلك الثوب وقال « شغلني عن الصلاة » وقال « اذهبوا به إلى أبي جهنم واتموني بأن يجانيته » (٢) وكان في يده خاتم من ذهب ففطر إليه وهو على المنبر ثم رعى به وقال « نظرة إليه ونظرة إليكم » (٣) وكان ذلك لوسوسة الشيطان بتحويلك لذة النظر إلى خاتم الذهب وعلم الثوب . وكان ذلك قبل تحريم الذهب فلذلك لبسه ثم رعى به فلا تنقطع وسوسة عروض الدنيا وتقدمها إلا بالرى والمفارقة ، فما دام يملك شيئاً وراء حاجته ولو ديناراً واحداً لا يدعه الشيطان في صلته من الوسوسة في التفكير في ديناره ، وأنه كيف يحفظه ؟ وفلماذا ينفقه ؟ وكيف يخفيه حتى لا يعلم به أحد وكيف يظهره حتى يتباهى به ؟ إلى غير ذلك من الوسواس . فمن أنقب مخالبه في الدنيا وطمع في أن يتخلص من الشيطان كان كمن انغمس في السسل وظن أن الذباب لا يتبع عليه فهو محال . قاله نيا باب عظيم لوسوسة الشيطان . وليس له باب واحد بل أبواب كثيرة . قال حكيم من الحكماء : الشيطان يأتي ابن آدم من قبل المعاصي ، فإن امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه في بدعة ، فإن أبى أمره بالتحرج والشدة حتى يحرم ما ليس بحرام ، فإن أبى شككه في وضوئهم وصلاته حتى يخرجهم عن العلم ، فإن أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابراً أضعفاً فيتميل قلوبهم إليه فيعجب بنفسه وبه يهلكه ، وعند ذلك تشتد الحاجة فإنها آخر درجة ويعلم أنه لو جاوزها أقلت منه إلى الجنة .

### بيان سرعة تقلب القلب واتقسام القلوب في التغير والثبات

واعلم أن القلب كما ذكرناه تكتنفه الصفات التي ذكرناها وتصب إليه الآثام والأحوال من الأبواب التي وصفناها ؛ فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب ، فإذا أصابه شيء يثار به أصابه من جانب آخر ما يزيده تغير صفته . فإن نزل به الشيطان فدعه إلى الهوى نزل به الملك وصره عنه ، وإن جذب شيطان إلى شر جذب به شيطان آخر إلى غيره ، وإن جذب به ملك إلى خير جذب به آخر إلى غيره . فارة يكون متازماً وبين ملكين ، وتارة بين شيطانين ، وتارة بين ملك وشيطان . لا يكون قط مهملًا . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وتقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ ولا اطلاع رسول الله صلى الله عليه وسلم على عجيب صنع الله تعالى في مجائب القلب وتقلبه كان يحلف

(١) « من صلى ركعتين لم يحدث فيها نفسه شيء من الدنيا ... » تقدم في الصلاة .

(٢) حديث أنه صلى الله عليه وسلم نظر إلى علم في ثوبه في الصلاة ... تقدم .

(٣) حديث : كان في يده خاتم من ذهب ففطر إليه على المنبر فرماه فقال « نظرة إليه ونظرة إليكم » أخرجه النسائي

من حديث ابن عباس وتقدم في الصلاة .

به فيقول « لا ، ومقلب القلوب <sup>(١)</sup> » وكان كثير أماً يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قالوا : أو تخاف يا رسول الله ؟ قال « وما يؤمنني والقلب بين أصميين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء <sup>(٢)</sup> » وفي لفظ آخر « إن شاء إن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه » .

وضرب له صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثلة : فقال « مثل القلب مثل الصنفور يقلب في كل ساعة <sup>(٣)</sup> » وقال عليه السلام « مثل القلب في قلبه كالقندر إذا استجمعت غليانا <sup>(٤)</sup> » وقال « مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن <sup>(٥)</sup> » وهذه التقلبات وعجائب صنع الله تعالى في قلبها من حيث لا تهدي إليه المعرفة لا يراها إلا المراقبون والمراعون لأحوالهم مع الله تعالى .

والقلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ؛ ثلاثة : قلب عمر بالتقوى وذكا بالرياسة وطهر عن خبايا الأخلاق تنفتح فيه خواطر الخير من خزانة القلب ومداخل المسكوت ، فينصرف العقل إلى التفكير فيما خطر له ليصرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فرائد فيكشف له بنور البصيرة وجهه ، فيحكم بأنه لا بد من فعله فيستحث عليه ويدعوه إلى العمل به ، وينظر الملك إلى القلب فيجده طيباً في جوهره طاهراً بتقواه مستثيراً بضيء العقل معموراً بأنوار المعرفة فيراه صالحاً لأن يكون له مستقراً ومهيئاً . فمئذ ذلك يمدد بمجنون لا يرى ويهديه إلى خيرات أخرى حتى ينجر الخير إلى الخير وكذلك على الدوام ، ولا يتأخر إمداده بالترغيب بالخير وتيسير الأمر عليه . وإليه الإشارة بقوله تعالى « فإما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » وفي مثل هذا القلب يشرق نور الصباح من مشكاة الربوبية حتى لا يخفى فيه الشرك الخفى الذي هو أخفى من ديب النملة السوداء في الليلة الظلماء [على الصخرة الصماء] ، فلا يخفى على هذا النور خافية ولا يروج عليه شيء من مكاييد الشيطان ، بل يقف الشيطان ويوحى زخرف القول غروراً فلا يلتفت إليه . وهذا القلب بعد طهارته من الملهكات يصير على القرب معموراً بالمنجات - التي سئد كرها - من الفكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهو والمحبة والرضا والشوق والتوكل والفكر والمحاسبة وغير ذلك . وهو القلب الذي أقبل الله عز وجل بوجهه عليه ، وهو القلب الملمع المراد بقوله تعالى « ألا بدكر الله طمأن القلب » .

القلب الثاني : القلب الخفول المشحون بالهوى ، المندس بالأخلاق المذمومة والخبائث ، المفتوح فيه أبواب الشياطين ، المسدود عنه أبواب الملائكة . ومبدأ الشر فيه أن يتفتح فيه خاطر من الهوى ويهيج فيه فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفي منه ويستكشف وجه الصواب فيه ، فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به واستمر على استنباط الحيل له وعلى مساعدة الهوى ، فتستول النفس وتساعد عليه فيشرح الصدر بالهوى وتنبسط فيه

(١) « لا ومقلب القلوب » أخرجه البخاري من حديث ابن عمر . (٢) « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ... » أخرجه الترمذي من حديث أنس وحسنه الحاكم من حديث جابر وقال ابن أبي الدنيا صحيح على شرط مسلم ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » والنسائي في الكبرى وابن ماجه والحاكم وصححه على شرط البخاري ومسلم من حديث النواس بن سمعان « مامن قلب إلا بين أصميين من أصابع الرحمن لإنشاء أقاموا وإن شاء أزاغته » النسائي في الكبرى بإسناد جيد نحوه من حديث عائشة (٣) « مثل القلب كمثل الصنفور يقلب في كل ساعة » أخرجه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط مسلم والبيهقي في الشعب من حديث أبي عبيدة ابن الجراح . قلت روى البغوي في مجبه من حديث أبي عبيد غير منسوب وقال لا أدري له صحة أم لا . (٤) « مثل القلب في قلبه كالقندر إذا استجمعت غليانا » أخرجه أحمد وقال صحيح على شرط البخاري من حديث القناد بن الأسود

ظلمته لاحتياص جند العقل من مدافعه . فيقوى سلطان الشيطان لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالترين والفرور والأمان ، ويوحى بذلك زخرفاً من القول غروراً فيضنف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد ، ويغزو نور اليقين لحرف الآخرة إذ تصاعدن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتى تنطفئ أنواره ، فيصير العقل كالعين التي ملأ الدخان أجفانها فلا يقدر على أن ينظر ، وهكذا تقفل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبقى للقلب إمكان التوقف والاستبصار ، ولو بصره واعظ وأسمعه ما هو الحق فيه عمن عن الفهم ، وصم عن السمع ، وماجت الشهوة فيه ، وسطا الشيطان ، وتحركت الجوارح على وفق الهوى فظهرت المحصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره .

وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى ( أرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن لم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ) وبقوله عز وجل ( لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ) وبقوله تعالى ( سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذهم لا يؤمنون ) ورب قلب هذا حاله بالإضافة إلى بعض الشهوات كالذي يتورع عن بعض الأشياء ولكنه إذا رأى وجهاً حسناً لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه ، أو كالذي لا يملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر ، ولا يبقى معه مسكة للثب عند ظهور أسبابه ، أو كالذي لا يملك نفسه عند الغضب مهما استحق وذك عيب من عيوبه ، أو كالذي لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهاكك عليه تهالك الراه المستهتر فينسى فيه المروءة والتقوى ، فكل ذلك تصاعد دخان الهوى إلى القلب حتى يظلم وتنطفئ منه أنواره فينطفئ نور الحياة والمروءة والإيمان ويسمى في تحصيل مراد الشيطان ،

القلب الثالث : قلب تدبوه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر فيلحظه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير ، فتنبعث النفس يشبهونها إلى نصرة خاطر الشر فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتمتع ، فينبعث العقل إلى خاطر الخير ويدفع في وجه الشهوة ويقبح فعلها وينسبها إلى الجهل ويشبهها بالهيمتو السبع في تهجم على الشر وقله أكثراتها بالعواقب فتميل النفس إلى نصح العقل فيميل الشيطان حيلة على العقل فيقوى داعي الهوى ويقول ماهذا الصرح البادر ولم تتمتع عن هواك فتؤذي نفسك ؟ وهل ترى أحداً من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك عرضه ؟ أفترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجر على نفسك حتى تبقى محروماً شقيفاً متعباً يصنحك عليك أهل الزمان ؟ أفترى أن يريد منصبك على فلان وفلان وقد فعلوا مثل ما اشتبهت ولم يمتنعوا ؟ أما ترى العالم الفلاني ليس يخر من مثل ذلك ولو كان ذلك شراً لا تمتنع منه ؟ فتميل النفس إلى الشيطان وتقلب إليه ؟ فيحمل الملك حيلة على الشيطان ويقول هل لك إلا من اتبع لذة الحال ونسى العاقبة ؟ أفنقض بركة يسرة وترك لذة المجتو نعيمها أبد الآباد ؟ أم تستقل ألم العبر من شؤنك ولا تستقل ألم النار ؟ أفترى بفضلة الناس عن أنفسهم واتباعهم هوام ومساعدتهم الشيطان مع أن عذاب النار لا تخففه عنك محبة غيرك ؟ أرايت لو كنت في يوم صاقت شديد الحروق وقف الناس كلهم في الشمس وكان لك بيت بارد أ كنت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص ؟ فكيف تخالف الناس خوفاً من حر الشمس ولا تخافهم خوفاً من حر النار ؟ فمتد ذلك تمثل النفس إلى قول الملك فلا يزال يردد بين المجددين متجادبين الحريين إلى أن يلب على القلب ما هو أولى به فإن كانت الصفات التي في القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التي ذكرناها غلب الشيطان ومال القلب إلى جنسه من أحزاب الشيطان معرضاً عن حزب الله تعالى وأوليائه ، ومساعداً لحزب الشيطان وأعدائه ، وجرى على جوارحه ساقى القدر ما هو سبب بعده عن الله تعالى . وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان وتحريضه إياه على العاجلة وتهويله أمر الآخرة ، بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء على جوارحه ، فقلب المؤمن بين أصح من أصابع الرحمن - أي بين متجادبين المجددين وهو الغالب - أعني التقلب والاضطلال من حزب إلى حزب ، أما الثبات على النوام مع حزب الملائكة أو مع حزب الشيطان فتأثر من الجانبين ، وهذه الطاعات والمهامي تظهر من خزائن الغيب إلى عالم الشهادة بواسطة خزنة القلب فإنه من خزائن المسكوت ،

وهي أيضا إذا ظهرت علامات تعرف أرباب القلوب سابق القضاء . فن خلق الجنة يسرت له أسباب الطاعات ومن خلق النار يسرت له أسباب المعاصي وسلط عليه أقران السوء وألقى في قلبه حكم الشيطان ، فإنه بأنواع الحكم يفر الحق بقوله : إن الله رحيم فلا تبال ، وإن الناس كلهم ما يخافون الله فلا تخافهم ، وإن العمر طويل فاصبر حتى توب غدا ( يعدم ويمتهم وما يعدم الشيطان إلا غرورا ) يعدم التوبة ويمتهم المغفرة فبهلكم باذن الله تعالى بهذه الحيل وما يجري مجراها ، فيوسع قلبه لقبول التورود ويضيقه عن قبول الحق ، وكل ذلك بقضاء من الله وقدر ( فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء - إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ) فهو الهادي والمضل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لأراد الحكمة ولا مقتب لقضاءه . خلق الجنة وخلق لها أهلا فاستعملهم بالطاعة ، وخلق النار وخلق لها أهلا فاستعملهم بالمعاصي . وعرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النار فقال ( إن الأبرار لني نعيم وإن الفجار لني جحيم ) ثم قال تعالى فيما روى عن نبيه ﷺ «هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي»<sup>(١)</sup> فتعالى الله الملك الحق لا يستل عما يفعل وهم يسئلون .

ولنقص على هذا القدر البسير من ذكر عجائب القلب فإن استقصاءه لا يليق بلم المعاملة ، وإنما ذكرنا منه ما يحتاج إليه لمرقة أغوار علوم المعاملة وأسرارها ليتنفع بها من لا يقتنع بالظواهر ولا يجري بالقشر عن اللباب بل يتشوق إلى معرفة دقائق حقائق الأسباب . وفيما ذكرناه كفاية له ومقتنع إن شاء الله تعالى والله ولي التوفيق .

ثم كتاب عجائب القلب وقه الحد والمئة ، ويتوله كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، والحمد لله وحده وصلى الله على كل عبد مصطفى .

## كتاب رياضة النفس

وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب

وهو الكتاب الثاني من ربح المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي صرف الأمور بتدبيره ، وعمل تركيب الخلق فأحسن في تصويره ، وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره ، وحرصه من الزيادة والتقصان في شكله ومقاديره وفوض تحسين الأخلاق إلى اجتهد العبد وتشهيره واستحسه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره ، وسهل على خواص عبادته تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره ، وأمنت عليهم

(١) «قال عز وجل هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي» أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن قتادة السلمي وقال عبد البر في الاستيعاب إنه مضطرب الإسناد .



بتسبيل صميه وعيسره ، والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه وحبيبه وصفيه ويشيره وتذيره ، الذى كان يلوح أوتار النبوة من بين أساريره ، ويستترف حقيقة الحق من غنايه وتباشيره ، وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجه الأرض من ظلمة الكفر وديابيره ، وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره .

أما بعد : فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة مجاهدة المؤمنين برياضة المتعبدين . والأخلاق السيئة هى السموم القاتلة والمهلكات الدائمة والمخازى القاضية والزنازل الواضحة والخبائث المبهدة عن جوار رب العالمين ، المنخرطة بصاحبها فى سلك الشياطين ، وهى الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التى تطلع على الأفتدة ، كما أن الأخلاق الجلية هى الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن ، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد ، وابن منه المرض الذى لا يفوت إلا حياة الجسد ؟ ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوائم العلاج للأبدان وليس فى مرضها إلا فوت الحياة الفانية ، فالعناية بضبط قوائم العلاج لأمراض القلوب وفى مرضها فوت حياة باقية أولى ، وهذا النوع من الطب واجب ثقله على كل شئ لب إذ لا يحظر قلب من القلوب عن أسقام لو أعملت تراكت وترادفت العمل وتظاهرت ، فيحتاج البعد إلى تأتى فى معرفة عللها وأسبابها ثم إلى تشخيص فى علاجها وإصلاحها ، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى ﴿ قد أفلح من ذكها ﴾ وإصلاحها هو المراد بقوله ﴿ وقد غاب من دسها ﴾ ونحن نفسير فى هذا الكتاب إلى جعل من أمراض القلوب وكيفية القول فى معالجتها على الجملة من غير تفصيل للعلاج خصوص الأمراض ، فإن ذلك يأتى فى بقية الكتب من هذا الزم وعرضنا الآن النظر السكلى فى تهذيب الأخلاق وتعميد منهاجها . ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالا له ليقرب من الأفهام دونه ويضع ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق ، ثم بيان حقيقة حسن الخلق ، ثم بيان قبول الأخلاق للتغيير بالرياضة ، ثم بيان السبب الذى به نال حسن الخلق ، ثم بيان الطرق التى بها يعرف تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس ، ثم بيان العلامات التى بها يعرف مرض القلب ثم بيان الطرق التى بها يعرف الإنسان عيوب نفسه ، ثم بيان شواهد النقل على أن طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لا غير ، ثم بيان علامات حسن الخلق ، ثم بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول النشور ، ثم بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة فهى أحد عشر فصلا يجمع مقاصدها هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

### بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنيا عليه ومظهرا نعمته عليه ﴿ ولأنك لملى خلق عظيم ﴾ وقالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن <sup>(١)</sup> وسأله رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق فقال قوله تعالى ﴿ خذ الفؤ وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين ﴾ ثم قال صلى الله عليه وسلم « وهو أن تصلى من قطعتك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك » <sup>(٢)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » <sup>(٣)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل ما يوضع فى الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق » <sup>(٤)</sup> وجاء رجل إلى رسول الله

#### كتاب رياضة النفس

- (١) حديث عائشة : كان خلقه القرآن . وتقدم وهو عند مسلم .
- (٢) « تأويل قوله تعالى ﴿ خذ الفؤ وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين ﴾ » أخرجه ابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عباد وأنس بأسانيد حسنة .
- (٣) « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » أخرجه أحمد والحاكم والبيهقى من حديث أبى هريرة وتقدم فى آداب الصعبة .
- (٤) « أفضل ما يوضع فى الميزان خلق حسن » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه من حديث أبى الدرداء .

صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال « حسن الخلق » فأثاه من قبل يمينه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال « حسن الخلق » ثم أثاه من قبل شماله فقال : ما الدين ؟ فقال « حسن الخلق » ثم أثاه من ورائه فقال يا رسول الله ما الدين ؟ فالتفت إليه وقال « أما تفقه ؟ هو أن لاتنضب <sup>(١)</sup> » وقيل يا رسول الله ما الشؤم ؟ قال « سوء الخلق <sup>(٢)</sup> » وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وعلى حبه وسلم : أوصني فقال « اتق الله حيثما كنت » قال زدني قال « أتبع السيئة الحسنة تمحى » وقال زدني قال « خالق الناس خلق حسن <sup>(٣)</sup> » وسئل عليه السلام : أى الأعمال أفضل ؟ قال « خلق حسن » وقال صلى الله عليه وسلم « ما حسن الله خلق عبد وخلقته فيطعمه النار <sup>(٤)</sup> » وقال الفضيل قيل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : إن فلاة تصوم النهار وتقوم الليل وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها قال « لا خير فيها من أهل النار » وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول « أول ما يوضع فى الميزان حسن الخلق والسخاء ولما خلق الله الإيمان قال اللهم قوئى فقواء بحسن الخلق والسخاء ، ولما خلق الله الكفر قال اللهم قوئى فقواء بالبخل وسوء الخلق <sup>(٥)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق ألا فريئود دينكم بهما <sup>(٦)</sup> » وقال عليه السلام « حسن الخلق خلق الله الأعظم <sup>(٧)</sup> » وقيل : يا رسول الله أى المؤمنين أفضل إيماناً ؟ قال « أحسنهم خلقاً <sup>(٨)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم بسط الوجه وحسن الخلق <sup>(٩)</sup> » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل <sup>(١٠)</sup> » وعن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنك امرؤ قد حسن الله خلقك لحسن خلقك <sup>(١١)</sup> » وعن البراء بن عازب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً <sup>(١٢)</sup> » وعن أبي مسعود البدرى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه « اللهم حسنت خلقى حسن خلقى <sup>(١٣)</sup> » .

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الدعاء فيقول « اللهم إني أسألك

- (١) حديث : جاء رجل إلى النبي ﷺ من بين يديه فقال : ما الدين ؟ قال « حسن الخلق ... » أخرجه محمد بن نصر اللروزي فى كتاب تنظيم قدر الصلاة من رواية أبي العلاء بن الخير مرملاً (٢) حديث : ما الشؤم ؟ قال « سوء الخلق » أخرجه أحمد من حديث عائشة « الشؤم سوء الخلق » ولأبي داود من حديث رافع بن مكش « سوء الخلق شؤم » وكلاهما لأصح . (٣) حديث قال رجل أوصني قال اتق الله حيثما كنت ... » أخرجه الترمذى من حديث أبى ذر وقال حسن صحيح . (٤) « ما حسن الله خلق امرئ وخلقته فيطعمه النار » تقدم فى آداب الصبغة . (٥) حديث أبى الدرداء « أول ما يوضع فى الميزان حسن الخلق ... » لم أقف له على أصل هكذا ولأبى داود والترمذى من حديث أبى الدرداء « ما من شيء فى الميزان أثقل من حسن الخلق » وقال غريب وقال فى بعض طرقه حسن صحيح (٦) « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ... » أخرجه الحارثى فى كتاب الاستجداد ، والحارثى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى سعيد الخدرى بإسناد فيه لين (٧) « حسن الخلق خلق الله الأعظم » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث عمار ابن ياسر بسند ضعيف (٨) حديث : قيل يا رسول الله أى المؤمنين أحسنهم إيماناً ؟ قال « أحسنهم خلقاً » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى والحاكم من حديث أبى هريرة وتقدم فى التسكاح بلفظ أكل للمؤمنين ، وللطبرانى من حديث أبى أمامة « أفضلكم إيماناً أحسنكم خلقاً » (٩) « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم بسط الوجه وحسن الخلق » أخرجه البزار وأبو يعلى والطبرانى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى هريرة وبعض طرق البزار رجاله ثقات (١٠) « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل » أخرجه ابن جبان فى الضعفاء من حديث أبى هريرة والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس وأبى هريرة أيضاً وضمفهما ابن جرير (١١) « إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك » أخرجه الحارثى فى مكارم الأخلاق وأبو العباس الدغولى فى كتاب الآداب وفيه ضعف (١٢) حديث البراء : كان النبي ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً أخرجه الحارثى فى مكارم الأخلاق بسند حسن (١٣) حديث أبى مسعود البدرى « اللهم كما أحسنت خلقى حسن خلقى » أخرجه الحارثى فى مكارم الأخلاق هكذا من رواية عبد الله بن أبى الهزبل عن أبى مسعود البدرى وإما هو ابن مسعود أى عبد الله هكذا رواه ابن جبان فى صحيحه ورواه أحمد من حديث عائشة .

الصحة والعافية وحسن الخلق<sup>(١)</sup> » وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كرم المؤمن دينه ، وحسنه وحسن خلقه ، ومروءته عقله »<sup>(٢)</sup> وعن أسامة بن شريك قال : شهدت الأعاريب يسألون النبي صلى الله عليه وسلم يقولون ماخير ما أعطى العبد ؟ قال « خلق حسن »<sup>(٣)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحبك إلى وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا »<sup>(٤)</sup> وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تمتوا بشئ من عمله : تقوى تحجزه عن معاصي الله أو سلم يكف به السفه أو خلق يعيش به بين الناس »<sup>(٥)</sup> « كان من دعائه صلى الله عليه وسلم في افتتاح الصلاة اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت »<sup>(٦)</sup> . وقال أنس : بينا نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما إذ قال « إن حسن الخلق لينبئ الخطيئة كما تنبئ الذهب الشمس الجليد »<sup>(٧)</sup> وقال عليه السلام « من سعادة المرء حسن الخلق »<sup>(٨)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « الذين حسن الخلق »<sup>(٩)</sup> وقال عليه السلام لأبي ذر « يا أبا ذر لا عقل كالتيدير ولا حسب كحسن الخلق »<sup>(١٠)</sup> وعن أنس قال : قالت أم حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرايت المرأة يكون لها زوجان في الدنيا تموت ويموتان ويدخلون الجنة لأحبا هي تكون ؟ قال « لأحسنهما خلقا كان عندها في الدنيا ، يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بحجري الدنيا والآخرة »<sup>(١١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم مرتبه »<sup>(١٢)</sup> وفي رواية « درجة الطاهر في المواجه » وقال عبد الرحمن بن سمرة : كنا عند صلى الله عليه وسلم فقال « إني رأيت البارة عجبا رأيت رجلا من أمي جاثي على ركبتيه ويديه وبين الله حجاب فجاء حسن خلقه فأدخله على الله تعالى »<sup>(١٣)</sup> وقال أنس : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف في العبادة »<sup>(١٤)</sup> وروى « أن عمر رضي الله عنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده

(١) حديث عبد الله بن عمرو « اللهم إني أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق بإسناد فيه لين (٢) حديث أبي هريرة « كرم للمرء دينه ومروءته عقله وحسن خلقه » أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم والبيهقي . قلت فيه مسلم بن خالد الزنجي وقد تكلم فيه ، قال البيهقي وروى من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موقوفا على عمرو قال بإسناد صحيح (٣) حديث أسامة بن شريك : شهدت الأعاريب يسألون رسول الله ﷺ ماخير ما أعطى العبد ؟ قال « خلق حسن » أخرجه ابن ماجه وتقدم في آداب الصحة . (٤) « إن أحبك إلى وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا » أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة « إن أحبك إلى الله أحسنكم أخلاقا » وللطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر « إن أقربكم مني مجلسا أحسنكم أخلاقا » وقد تقدم الحديثان في آداب الصحة (٥) حديث ابن عباس « ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهن فلا يمتد بشئ من عمله ... » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف ورواه الطبراني في الكبير وفي مكارم الأخلاق من حديث أم سلمة (٦) « اللهم اهدني لأحسن الأخلاق ... » أخرجه مسلم من حديث علي (٧) حديث أنس : إن حسن الخلق لينبئ الخطيئة كما تنبئ الشمس الجليد » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف ورواه الطبراني والطائفي والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وضعفه وكذا رواه من حديث أبي هريرة وضعفه أيضا (٨) « من سعادة المرء حسن الخلق » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب من حديث جابر بإسناد ضعيف (٩) « الذين حسن الخلق » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق من حديث علي بإسناد ضعيف (١٠) « يا أبا ذر لا عقل كالتيدير ولا حسب كحسن الخلق » أخرجه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي ذر (١١) حديث أنس : قالت أم حبيبة يا رسول الله أرايت المرأة يكون لها زوجان ... أخرجه البزار والطبراني في الكبير والحارثي في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف . (١٢) « إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه ... » أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بالرواية الأولى ومن حديث أبي هريرة بالرواية الثانية وفيها ابن لحيمة (١٣) حديث عبد الرحمن بن سمرة « إني رأيت البارة عجبا ... » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف (١٤) « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ... » أخرجه الطبراني والحارثي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في كتاب طبقات الأصفيين من حديث أنس بإسناد جيد .

نساء على نساء قريش يكلمنه ويستكرهه عالية أصواتهم على صوته فلما استأذن عمر رضى الله عنه بتأدين الحجاب فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضطج فقال عمر رضى الله عنه : مم تضطج يا بني أنت وأمرى يا رسول الله؟ فقال : «صجبت هؤلاء اللاتي كن عندي لما سمعن صوتك يتأديرن الحجاب» فقال عمر : أنت كنت أحتق أن يهتك يا رسول الله ، ثم أقبل عليهن عمر فقال : يا دعوات أقفسن أنفسى ولا تبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلن : نعم أنت أغلظوا أفق من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : «لها يا ابن الخطاب والذي نفسى بيده ما فتيك الشيطان قط سالكا ظا إلا سلاك لجا غير ذلك» (١) وقال صلى الله عليه وسلم : «سوء الخلق ذنب لا ينضر وسوء الظن خطيئة تفوح» (٢) وقال عليه السلام : «إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم» (٣) .

الآثار : قال ابن تيمية الحكيم لآية : يا أبت أى الحاصل من الإنسان خير ؟ قال : الدين ، قال : فإذا كانت انتبين ؟ قال : الدين والمال ، قال : فإذا كانت ثلاثا ؟ قال : الدين والمال والحياة ، قال : فإذا كانت عاربا ؟ قال : الدين والمال والحياة وحسن الخلق ، قال : فإذا كانت خمساً ؟ قال : الدين والمال والحياة وحسن الخلق والسخاء ، قال : فإذا كانت ستا ؟ قال : يا بني إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو تقى لله ولقوى ومن الشيطان برى ، وقال الحسن من سوء خلقه عذب نفسه . وقال أنس بن مالك : «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد . وقال يحيى بن معاذ : في سمة الأخلاق كنوز الأرزاق . وقال وهب ابن منبه : مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا ترفع ولا تعادلتها . وقال الفضيل : «لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحب إلي من أن يصحبنى عابد سيء الخلق . وصحب ابن المبارك رجلا سيء الخلق في سفر فسكان يحتمل منه ويداربه فلما فارقه بكى فضيل له في ذلك فقال : بكى رحمة له ؛ فارقه خلقه معه لم يفارقه . وقال الجنيد : أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه ؛ الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كال الإيمان . وقال الكنتاني التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف . وقال عمر رضى الله عنه : غايلوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال . وقال يحيى بن معاذ : سوء الخلق سبب لا تنفع معها كثرة الحسنات ، وحسن الخلق حسنة لا تنفع معها كثرة السيئات . وسئل ابن عباس : مالكرم ؟ فقال : هو ما بين الله في كتابه العزيز (إن أكرمكم عند الله أتقاه) قيل فيما الجيب ؟ قال : أحسنكم خلقا أفضلكم حبا . وقال : لسلك بنيان أساس وأساس الإسلام حسن الخلق . وقال عطاء . ما ترفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن ، ولم ينل أحد كماله إلا للمصطفى ﷺ ، فأقرب الخلق إلى الله عز وجل السالكون آثاره بحسن الخلق .

### بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق

أعلم أن الناس قد تكلموا في حقيقة حسن الخلق وأنه ماهو ، ومانعروا الحقيقة وإنما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته ، بل ذكروا كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضرا له في ذهنه ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب ، وذلك كقول الحسن : حسن الخلق بسط الوجه

(١) حديث : إن عمر استأذن على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكرهه ... الحديث . متفق عليه . (٢) حديث سوء الخلق ذنب لا ينضر ... الحديث . أخرجه الطبراني في الصغير من حديث عائشة : مامن شيء ، إلا له توبة إلا صاحب سوء الخلق فإنه لا يتوب من ذنب إلا عاد في شر منه . وإسناده ضعيف .. (٣) «إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل من درك جهنم» أخرجه الطبراني والحرابي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في طبقات الأسماعين من حديث أنس بإسناد جيد وهو بعض الحديث الذى قبله بحديثين .

وبذل التدى وكف الأذى ، وقال الواسطى : هو أن لا يتخاصم ولا يتخاصم من شدة معرفته بأفقه تعالى ، وقال الكرماني : هو كف الأذى واحتفال المؤمن ، وقال بعضهم : هو أن يكون من الناس قريبا وفيما بينهم غريبا ، وقال الواسطى مرة : هو إرضاء الخلق في السراء والضراء ، وقال أبو عثمان : هو الرضا عن الله تعالى . وسئل سهل التستري عن حسن الخلق فقال : أدناه الاحتمال وترك المكافأة والرحمة الظالم والاستغفار له والشفقة عليه ، وقال مرة : أن لا يتم الخلق في الرزق ويثوبه ويسكن إلى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يهضمه في جميع الأمور فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس ، وقال علي رضي الله عنه : حسن الخلق في ثلاث خصال اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسعة على العيال . وقال الحسين بن منصور : هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك الحق . وقال أبو سعيد الخرازي : هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى ، فهذا وأمثاله كثير ، وهو تعرض لثلاث حسن الخلق لال نفسه ، ثم ليس هو محيط بجميع الآراء أيضاً ، وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من قتل الأقاويل المختلفة .

فقول : الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معا ، يقال : فلان حسن الخلق والخلق أى حسن الباطن والظاهر . فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ، ويراد بالخلق الصورة الباطنة ، وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصر ، ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما حقيقة وإما جملة ، فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر ، ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى (إني خالق بشرًا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقموا له ساجدين) فيه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين .

والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد ؛ فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً ، وإذنا قلنا إنها هيئة راسخة ؛ لأن من يصدر منه بذل المال على التدور الحاجة طارئة لا يقال خلقه السخاء مالم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ ، وإذنا اشتربنا أن تصدر عنه الأفعال بسهولة لمن غير روية لأن من تسكف بذل المال أو السكوت عند الغضب يجهل روية لا يقال خلقه السخاء والخلق .

فهنا أربعة أمور ، أحدهما : فعل الجميل والتقيح . والثاني : القدرة عليهما ، والثالث : المعرفة بهما ، والرابع : هيئة النفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين ، إما الحسن وإما القبيح .

وليس الخلق عبارة عن الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إياها فقد المال أو المانع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إياها لباحث أو لرباه وليس هو عبارة عن القوة ، لأن نسبة القوة إلى الإساءة والإعطاء بل إلى الضدين واحد ، وكل إنسان خلق بالقطرة قادر على الإعطاء والإساءة ، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجوه واحد ، بل هو عبارة عن الملحق الرابع وهو الهيئة التي بها تستمد النفس لأن يصدر منها الإساءة أو البذل ، فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة ، وكما أن حسن الصورة الظاهرة معلناً لا يتم بحسن العيتين دون الآف والفهم والحد بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق ، فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتساوت حصل حسن الخلق وهو : قوة العلم ، وقوة الغضب وقوة الشهوة ، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث :

أما قوة العلم لغناها وصلاحيها في أن تظهر بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقيبح في الأفعال فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة، وهي التي قال الله فيها ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ .

وأما قوة الغضب : لغناها في أن يصير اقتباسها وانسياقها على حد ما تقتضيه الحكمة ، وكذلك الشهوة حسنها وصلاحيها في أن تكون تحت إشارة الحكمة ، أعني إشارة العقل والشرع .  
وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع .

فالعدل مثاله مثال الناصح المشير ، وقوة العدل هي القدرة ، ومثاله مثال المنفذ المعنى لإشارة العقل ، والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارة ، ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا يحسب هيجان شهوة النفس ، والشهوة مثاله مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد فإنه تارة يكون مروحاً مؤدباً وتارة يكون جوحاً ، فن استوت فيه هذه الحصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقاً ، ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة ، وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفّة .  
فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهوراً ، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبناً وخوراً . وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرها ، وإن مالت إلى النقصان تسمى جهوداً .

والمحمودة هو الوسط وهو الغضبية ، والطرفان رذيلتان مذمومتان ، والعدل إذا فاق فليس له طرفاً يزداد نقصان بل له ضد واحد ومقابل وهو الجور .

وأما الحكمة فيسمى إفراطها اعتدالاً استمال في الأغراض الفاسدة خبثاً وجريزة ، ويسمى تعريطها بلأى ، والوسط هو الذي يختص بأسم الحكمة :

فإن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة ، والشجاعة ، والعفّة ، والعدل ، ونعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية ؛ ونعني بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتنضبطهما في الاسترسال والاقتباس على حسب مقتضاها ، ونعني بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها ، ونعني بالعفّة تأديب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع .  
فن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها .

لذا من اعتدال قوة العقل : يحصل حسن التدبير وسجدة الذهن وقنابة الرأي وإصابة الظن والتمتعن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس . ومن إفراطها : تصدر الجريزة والمكر والجداع والبهائم ، ومن تعريطها : يصدر البله والغفارة والحق والجنون — . وأعني بالتهارة قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل فقد يكون الإنسان غمراً في شيء دون شيء والفرق بين الحق والجنون : أن الأحق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له روية صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض ، وأما المجنون فإنه يختار مالا ينبغي أن يختار فيكون أصل اختياره وإشارته فاسداً .

وأما خلق الشجاعة : فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم النفيظ والوقار والتورّد وأمثالها وهي أخلاق محمودة . وأما إفراطها وهو التهور : فيصدر منه الصلف والبذخ

والاستقامة والتكبر والعجب . وأما قريظها : فيصدر منه المباهة والذلة والمجزع والحساسة وصغر النفس والانتباض عن تناول الحق الواجب .

وأما خلق العفة : فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمساعدة والقناعة والورع والطاعة والمساعدة والظرف وقلة الطمع . وأما ميلها إلى الإقراط أو التفريط : فيحصل منه الحرص والشره والوقافة والحجب والتبذير والرياء والمتكبر والمجانة والبعث والملق والحسد والشائنة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك . فأما ما عاين من الأخلاق هذه الفضائل الأربعة : وهي الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل . والباقي فروعها .

ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه . فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قرب من مرسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من جمع هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطلقا يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال . ومن انقلع عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد فإنه قد قرب من الشيطان اللعين اللبید ، فينبغي أن يبعد ، كما أن الأول قريب من الملك المقرب فينبغي أن يقتدى به ويقترب إليه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلا لیتمم مكارم الأخلاق كما قال (١) .

وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب قوة اليقين وهو ثمرة العقل . ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة . والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال . وقد وصف الله تعالى الصحابة فقال ﴿ أَشِدَاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءَ بَيْنَهُمْ ﴾ إشارة إلى أن الشدة موضعا والرحمة موضعا وصف الكمال في الشدة بكل حال ولا في الرحمة بكل حال . فهذا يسان معنى الخلق وحسنه وقبحه ويبيان أركانه وثمراته وفروعه .

### بيان قبول الأخلاق للتخفيف بطريق الرياضة

أعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استغفل المجاهدة والرياضة والاستغفال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لتصوره وتقصه وخبت دخلته فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تغير .

واستدل فيه بأمرين ؛ أحدهما : أن الخلق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر . فالخلق الظاهر لا يقدر على تغييرها فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ولا القبيح يقدر على تحسين صورته ، فكذلك القبيح الباطن يجري هذا المجرى . والثاني : أنهم قالوا حسن الخلق يقطع الشهوة والغضب ، وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزج والطبع فإنه قط لا ينقطع عن الآدى فاشتغاله به تضعف زمان بنير فائدة . فإن المطلوب هو قطع الثغرات القلب إلى الحظوظ المأجلة وذلك محال وجوده . فنقول : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الرضايا والمواظبات والتأديبات ، ولما قال رسول الله صلى الله

(١) « بشت يتعم مكارم الأخلاق » قدم في آداب الصحة .

وسم «حسنوا أخلاقكم» (١) وكيف ينكر هذا في حق الأدنى وتغيير خلق الهميمة محسّن إذ ينقل البسازى من الاستيحاء إلى الأنا، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخيلة، والغرس من الجاح إلى السلامة والالتقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق.

والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن قول: للوجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتقسيمه كالسباع والكواكب، بل أعضاء البدن داخلا وخارجا، وسائر أجزاء الحيوانات. وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكاله وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه. وشرطه قد يرتبط باختيار المبدأ بأن التوبة ليست بتفاح ولا تفحيل إلا أنها خلقت خلقه يمكن أن تصير نغلة إذا انضاف التربية إليها، ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية، فإذا صارت التوبة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قسمهما وقهرهما بالكلية حتى لا تبقى لها أثر لم تقدر عليه أصلاً، ولو أردنا سلاستها وقودها بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه. وقد أمرنا بذلك صراحة ذلك سبب نجاحنا ووصولنا إلى الله تعالى. نعم الجملات مختلفة بعضها مرسومة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافها سيان:

أحدها: قوة القرينة في أصل الجسدية وامتداد مدة الوجود فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان، ولكن أصعبها أمراً وأصعبها على التغير قوة الشهوة، فإنها أقدم وجوداً، إذ الصبي في مبدأ الفطرة تخلق له الشهوة، ثم بعد سبع سنين ربما يخلف له الغضب، وبعد ذلك يخلف له قوة التمييز. والسبب الثاني: أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاده كونه حسناً ومرغباً والناس فيه على أربع مراتب:

(الاول) وهو الإنسان الفضل الذي لا يميز بين الحق والباطل والجمل والتبجح بل يتي كما فعل عليه غالباً عن جميع الاعتقادات ولم تستمر شهرته أيضاً بتابع الذات، فهذا سريع القبول للعلاج جداً فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد، وإلى باحث من نفسه يعمل على المجاهدة فيصن خلقه في أقرب زمان.

(الثانية) أن يكون قد عرف قبح التبجح، ولكنه لم يعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه انتقاداً لشهوته وإعراضاً عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه، ولكنه علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول، إذ قد تعاضفت الوظيفة عليه، إذ عليه قلع مارسخ في نفسه أولاً من كثرة الاعتقاد للفساد، والآخر أن يفرس في نفسه صفة الاعتقاد للصالح ولكنه بالجملة عمل قابل للرياضة إن انتبه لها بعد وتشمير وحزم.

(الثالثة) أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجبيل وترتب عليها، فهذا يكاد تنتفع معالجته ولا يرجي صلاحه إلا على التهور، وذلك لضاعف أسباب الضلال:

(الرابعة) أن يكون مع نفسه على الرأي الفاسد وترتيبه على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ويأبى به ويظن أن ذلك يرفع قدره، وهذا هو أصعب المراتب. وفي مثله قيل: ومن العناء رياضة المحرم، ومن التعذيب تهذيب الذيب. والأول من هؤلاء جاهل فقط، والثاني جاهل وضال. والثالث جاهل وضال وفاسق، والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير.

لما الحيات الآخر الذي استلوا به: وهو فوهم إن الأدنى ما دام حياً فلا تقطع عنه الشهوة والغضب وحسب الدنيا وسائر هذه الأخلاق، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من قبح هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيات فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلية، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت

(١) «حسنوا أخلاقكم» أخرجه أبو بكر ابن لائق مكارم الأخلاق من حديث معاذ «يامعاذ حسن خلقك للناس» منقطع ورجله تمام.



شهوة الرقاق لا تنقطع النفس ، ولو اندمغ غضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يملكه ولهك . ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لإحاطة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال . وليس المطلوب إماعة ذلك بالكلية بل المطلوب ردعا إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط . والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يحل عن التهور وعن الجبن جميعاً .

وبالجدة أن يكون في نفسه قويا ومعرفته متقاداً للعقل . ولذلك قال الله تعالى ( أشداء على الكفار رحماء بينهم ) وصغهم بالشدّة وإنما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد . وكيف يقصد قمع الشهوة والغضب بالكلية والأنياب عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك ؟ إذ قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر (١) » .

وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقا فكان عليه السلام لا يخرج غضبه عن الحق (٢) وقال تعالى ( والكاظمين الغيظ ) والماضين عن الناس ( ) ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يفتقر واحد منهما للعقل ولا يفتقره ، بل يكون العقل هو الضابط لهما والقالب عليهما معاً ، وهو المراد بتغيير الخلق فإنه ربما تستول الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها على الانسحاب إلى الفواش . وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال فدل أن ذلك ممكن ، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها . والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا ، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير .

وقد أتى الله عليه فقال ( والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ) وقال تعالى ( ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ) وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود قال الله تعالى ( وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ) وقال في الغضب ( أشداء على الكفار رحماء بينهم ) وقال صلى الله عليه وسلم « خير الأمور أوسطها (٣) » وهذا له سر وتحقيق وهو أن السعادة متوالة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم . قال الله تعالى ( إلا من أتى الله بقلب سليم ) والبخل من عوارض الدنيا ، والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا ، وشرط القلب أن يكون سليماً منهما أي لا يكون ملتفتاً إلى المال ولا يكون حريصاً على إنفاقه ولا على إمساكه ، فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك ، فكان كمال القلب أن يصفوع عن الوصفين جميعاً . وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط ، فإن الفائر للاحار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكانه خال عن الوصفين ، فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير . والشجاعة بين الجبن والتهور . والعفة بين الشره والجمود . وكذلك سائر الأخلاق فكلها طرق الأمور دميم ؛ وهذا هو المطلوب وهو ممكن . نعم يجب على الشيخ المرشد التريث أن يتبع عنده الغضب رأساً ، ويمن إمساك المال رأساً ، ولا يرخص له في شيء منه لأنه لو رخص له في أدنى شيء اتخذ ذلك عزوا في استبقائه بخله وغضبه وظن أنه القدر المرخص فيه . فإذا قصد قطع الأصل وبالحق فيه وله يتيسر إلا كسر

(١) « إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر » أخرجه مسلم من حديث أنس وله من حديث أبي هريرة « إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر » .

(٢) حديث : أنه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقا فكان الغضب لا يخرج عن الحق . أخرجه الشيخان من حديث : عبد الله بن الزبير في قصة شراح الحرة فقال لأن كان ابن عمك ؟ فنلون وجه رسول الله ﷺ ولها من حديث أبي سعيد الخدري : وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه . ولها من حديث عائشة : وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله . ولمسلم : ما إننا منه شيء قط فينتقم من صاحبه ... الحديث .

(٣) « خير الأمور أوسطها » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية مطرف بن عبد الله مضطرا .

سورته بحيث يعود إلى الاعتدال فالصواب له أن يقصد قلع الأصل حتى يتيسر له التقدير المقصود . فلا يكشف هذا السر للريد فإنه موضع غرور الحقى إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وأن إيسا له بحق .

### بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق على الجملة

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى الاعتدال قوة العقل وكمال الحكمة ، وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة ، وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضا . وهذا اعتدال يحصل على وجهين :

أحدهما : يعود إلى وكمال فطرى بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفى سلطان الشهوة والغضب بل خلقنا معتدلين متقادين العقل والشرع فيصير طالما يغير تعليم ومؤدبا يغير تأديب كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وكذا سائر الأنبياء صلوات الله أجمعين . ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتمال قرب صبي خلق صادق للهجة سخيا جريا ، وربما يخلق بخلافه ، فيحصل ذلك فيه بالاعتدال ومخالفة المتخلفين بهذه الأخلاق ، وربما يحصل بالعلم .

والوجه الثانى : اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياسة وأعطى به حل النفس على الأعمال التى يقتضها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعامله قبل الجود وهو بذل المال ، فلا يزال يطالب نفسه ويوالب عليه تكلفاً مجاهداً . نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جواداً ، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواطىء على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً فيتيسر عليه . وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق ، وغايته أن يصير الفعل الصادر من لذيذاً فالسعى هو الذى يستد بذل المال الذى يبدله دون الذى يبدله عن كراهة . والمتواضع هو الذى يستد التواضع ، ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس ، مالم تعود النفس جميع العادات الحسنة ولم تترك جميع الأعمال السيئة ، ومالم تواطىء عليه مواظبة من يشاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها ، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها ، كقوله **«وَجَعَلْتُ قُرَةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»** (١) «ومها كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستتفال فهو التفتان ولا ينال كمال السعادة به .

نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير ولكن بالإضافة إلى تركها لا بالإضافة إلى فعلها عن طوع وإن شاء الله تعالى (وإنما لكثرة إلا على الخاشعين) وقال صلى الله عليه وسلم «اعبداه في الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير» (٢) «ثم لا يكفي في قيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استئذان الطاعة واستكراه المصيبة في زمان دون زمان ، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر . وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل وذلك لما سئل صلى الله عليه وسلم عن السعادة فقال «طول العمر في طاعة الله تعالى» (٣) ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت فإن الدنيا مزرعة الآخرة . وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل والنفس أذكى وأطهر والأخلاق أقوى وأرسخ ، وإنما مقصود العبادات تأخيرها في القلب ، وإنما يتأكد تأخيرها بكثرة المواظبة على العبادات . وغاية هذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون

(١) «وجعلت قره عيني في الصلاة» أخرجه النسائي من حديث أنس وقد تقدم .

(٢) «اعبد الله في الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير» أخرجه الطبراني .

(٣) حديث : سئل عن السعادة فقال «طول العمر في عبادة الله» ورواه القضاة في مسند الشهاب وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف وللترمذي من حديث أبي بكره وصححه : أي الناس خير قال «من طال عمره وحسن عمله» .

شيء أحب إليهم لقاء الله تعالى عز وجل ، فلا يستعمل جميع ماله إلا على الوجه الذي يوصله إليه وغضبه وشهوته من السخرات له فلا يستعملهما إلا على الوجه الذي يوصله إلى الله تعالى ، وذلك بأن يكون موزوناً بميزان الشرع والمعلل ، ثم يكون بعد ذلك فرحاً به مستلذاً له ، ولا ينبغي أن يستبعد مصدر الصلاة إلى حد تصير هي قرة العين .

ومصدر العبادات لادنية فإن العادة تقتضي في النفس عجايب أغرب من ذلك ، فإن نادى نرى الملوك والمتعدين في أحزان دائمة ، وترى المقامر المغلس قد يظلب عليهم الفرح واللذة ببقاره وما هو فيه ما يستقل معه فرح الناس بغير قار ، مع أن القمار ربما سلبه ماله 'وعرب يته وتركه مفلساً ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به ، وذلك لطول إلفه له وصرف نفسه إليه مدة . وكذلك اللاعب بالخم قد يقف طول النهار في بحر الشمع قائماً على رجله وهو لا يصح بألمها لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها وتحليقها في جو السماء ، بل ترى التاجر الميار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع والصبر على السياط وعلى أن يتقدم به الصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وقوته في الصبر على ذلك ، حتى يرى ذلك غفراً لنفسه ، ويقطع الواحد منهم إرباً إرباً على أن يقر بما تعاطاه أو تعاطاه غيره فيصير على الإنكار ولا ينال بالمقوبات فرحاً بما يمتدحه كالأشجاعة ورجولية ، فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرة عينه وسبب اقتخاره ، بل لأحالة أخس وأقبح من حال الخنثى في تشبهه بالإناث في تنف الشعر ووشم الوجه وعاطلة النساء ترى الخنثى في فرح بحاله واقتخار بكاله في تخنثه يتباهى به مع الخنثيين ، حتى يجرى بين الحجامين والكناسين التفاجر والمباهات كما يجري بين الملوك والعلماء . فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على تعلم واحد على الدوام مدة مديدة مشاهدة ذلك في المخاطبين والمعارف .

فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى المفاجئ فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة والزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهي الميل إلى أكل الطين فقد يظلب على بعض الناس ذلك بالعادة ؟ فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفة وعبادته فهو كالليل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر رباني ، وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه ، وإنما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجل ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المرض بالمدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سيان لحياتها ، فكل قلب مال إلى حب شيء سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله ، إلا إذا كان أحب ذلك الشيء لكونه معيناً له على حب الله تعالى وعلى دينه ، فعنده ذلك لا يدل ذلك على المرض .

فإذا ندعرت بهذا قطعاً أن هذه الأخلاق الجنية يمكن اكتسابها بالرياسة وهي تكلف الأنفال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء ، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح - أثنى النفس والبدن - فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لاحتالة ، وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر القلب ، والأمر فيه دور ، ويعرف ذلك بمثال : وهو أن من أراد أن يصير الخلق في الكتابة له صفة نصية - حتى يصير كاتباً بالطبع - فلا طريق له إلا أن يتماطى بمجاراته ما يتعاطاه الكاتب الخائف ويواظب عليه مدة طويلة بما كى الخط الحسن ، فإن فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب تكلفاً ، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه ، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعاً كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفاً فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً ، ولكن الأول يتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب ثم انخفض من القلب إلى الجوارح فصار يكتب الخط الحسن بالطبع .

وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء ، وهو التكرار للفقهاء حتى تمتدح منه على قلبه صفة الفقه فيصير فقيه النفس .

وكذلك من أراد أن يصير سخيًا عفيف النفس حليم متواضعًا فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفًا حتى فيصير ذلك طبعًا له ، فلا علاج له إلا ذلك . وكان طالب لفقه النفس لا يباين من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بتكرار ليلة ؛ فكذلك طالب تزكية النفس وتكليفها وتحليلها بالأعمال الحسنة لا ينالها بمبادأة يوم ولا يحرم عنها بصيان يوم . وهو معنى قولنا إن الكسيرة الواحدة لاوجب الشقاء المؤبد ولكن العطلة في يوم واحد تدعو إلى مثلها ، ثم تتداس قليلًا قليلًا حتى تأتس النفس بالكسل وتهجر التحصيل رأسًا فيفوتها فنية الفقه .

وكذلك صفات المعاصي يجبر بعضها إلى بعض حتى يفوت أصل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة . وكان أن تكرر ليلة لا يحس تأثيره في فقه النفس بل يظهر فقه النفس شيئًا فشيئًا على التدرج . مثل توالي نوارق القامعة فكذلك الطاعة الواحدة لا يحس تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال ، ولكن لا ينبغي أن يستأنس بقليل الطاعة فإن الجملة السكينة منها مؤثرة ، وإنما اجتمعت الجملة من الأحاد ، فكل واحد منها تأثير ، فما من طاعة إلا ولها اثر وإن خفي ، فله ثواب لا محالة . فإن الثواب بازاء الأثر وكذلك المعصية .

وكم من فقيه يستين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالي يسوف نفسه يوما فيوما إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه . فكذلك من يستين صفات المعاصي ويسوف نفسه بالتوبة على التوالي إلى أن يختطفه الموت بته أو تراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتمنر عليه التوبة ؛ إذ التقليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقيدًا بسلاسل شهوات لا يمكن تخليصه من محالها . وهو المعنى بأنداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا ﴾ الآية ، ولذلك قال على رضي الله عنه : إن الإيمان ليبدو في القلب نكتة بيضاء ، كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البيضاء فإذا استكمل العبد الإيمان ابيض القلب كله وإن النفاق ليبدو في القلب نكتة سوداء وكلما ازداد النفاق ازداد ذلك السوداء فإذا استكمل النفاق اسود القلب كله .

فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة ، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة ، وتارة بمشاهدة أرباب الأعمال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح ، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعا . فنظاهرت في حقها الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعًا واعتيادًا وتعلما فهو غاية الفضيلة ، ومن كان ردلا بالطبع واتفق له قرناء السوء فعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادوا فهو في غاية البعد من الله عز وجل ، وبين الرتبتين فيه من هذه الجهات ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صورته وحالته ﴿ فن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

### بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت من قبل أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس ، والميل عن الاعتدال السقم ومرض فيها . كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له ، والميل عن الاعتدال مرض فيه . فلتتخذ البدن مثالا . فنقول : مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها ؛ مثال البدن في علاجها بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه . وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعمرى المدة المضرة بموارض الأغذية والأهوية والأحوال ؛ فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ،

وإنما أمره يهودانه أو يمجسانه - أى بالاعتقاد والتعليم تكتسب الرذائل - وكان أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء ؛ فكذا تلك النفس تحلق ناقصة قابله للكمال ، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالملم .

وكان أن البدن إن كان صحيحاً فأن الطبيب تمديد القانون الحافظ للصحة وإن كان مريضاً فأنه جلب الصحة إليه فكذا تلك النفس مثلك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفاتها ، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها .

وكان أن العلة المخيرة لاعتدال البدن الموجبة للرض لا تعالج إلا بضدها فإن كانت من حرارة فبالبرودة ، وإن كانت من برودة فبالحرارة ، فكذا تلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها . فبعلاج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخي ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشهى تسكفاً .

وكان أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتبهات لعلاج الأبدان المريضة فكذا لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى ، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الأباد .

وكان أن كل مبرد لا يصلح لعله سبباً للحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص - ويختلف ذلك بالشدة والضعف والبرام وعدمه وبالكثرة والقلّة ، ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه فإنه مقدار النافع منه فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد - فكذا تلك التفاضل التي يعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار .

وكان أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج مالم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أمدى ضعيفة أم قوية ؛ فإذا عرف ذلك انتفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسنة وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها .

فكذا ذلك الشيخ الذي يطلب نقوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمرانهم .

وكان أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قل أكره فكذا ذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكتهم وأمات قلوبهم ، بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه وما تمتلئه بنيتهم من الرياضة وينبغي على ذلك رياسته ، فإن كان المريد مبتدئاً جاهلاً بسجود الشرع فيقبله أولاً بالطهارة والصلوات وظواهر العبادات، وإن كان مشغولاً بالمال حرام أو مقارفاً لمصيبة فيأمره أولاً بتركها ، فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصي الفاضحة جوارحه نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليستفطن لأخلاقه وأمراض قلبه ؛ فإن رأى مالم لا فاضلاً عن قدر ضرورته أخذ منه وصرفه إلى الخيرات وفرغ قلبه حتى لا يلتفت إليه ، وإن رأى الرعونتين والكبر وعز النفس غالباً عليه فيأمر أن يخرج إلى الأسواق للكدية والسؤال ، فإن عزه النفس والرياسة لا تنكسر إلا بالندل ولا ذل أعظم من ذل السؤال فيكلفه المراقبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعز نفسه ، فإن الكبر من الأمراض المهلكة وكذا الرعونته ، وإن رأى الغالب عليه النظافة في البدن والثياب ورأى قلبه مائلاً إلى ذلك فرسا به ملتفتاً إليه استخدمه في تعهد بيت الماء وتنظيفه وكفن المواضع القنطرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تنشوش عليه رعونته في النظافة ، فإن الذين ينظفون ثيابهم ويؤثنونها ويطلبون المرقعات النظيفة والسجادات الملوثة لا فرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار ، فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنفاً فيما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله ، ومن راعى في توبه شيئاً سوى كونه سحلاً وطاهراً مراعاة يلتفت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه

ومن لطائف الرياضة إذا كان المريد لا يستحو بترك الرعونة رأساً أو بترك صفة أخرى ولم يسمع بضبطها دفعة، فينبغي أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه، كالذي ينسل الدم بالبول، ثم ينسل البول بالماء إذا كان الماء لا يزال الدم، كما يرغب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبه، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب، ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياضة وطلب الجاه، ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة، فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة فليقل إلى جاه أخف منه، وكذلك سائر الصفات، وكذلك إذا رأى شره الطعام غالباً عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام، ثم يكلف أن يهيئ الأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو عاجز عن الطول فيأمره بالصوم، وربما لا تسكن شهوته بذلك فيأمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز، وليلة على الخبز دون الماء، ويمنعه اللحم والأدم رأساً حتى تنل نفسه وتتسكّر شهوته. فلا علاج في مبدأ الإرادة أضع من الجوع، وإن رأى الغضب غالباً ألزمه الحلم والسكوت وسلط عليه من يصحبه عن فيه سوء خلق، وبإزمه خدمة من ساء خلقه حتى يعرن نفسه على الاحتال منه.

كما حكي عن بعضهم أنه كان يعود نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب، فكان يستأجر من يشتبه على ملا من الناس ويكلف نفسه العسر، ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل، وبعضهم كان يستعمر في نفسه الجبن وضعف القلب فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج. وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نصب واحدة، وبعض الشيوخ في ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليعلم بالقيام على الرجل عن طوع، وطالع بعضهم حب المال بأن يبيع جميع ماله وروى به في البحر، إذ خاف من تفرقه على الناس وعونة الجود والرياء بالبلد.

فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب، وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض — فإن ذلك سيأتي في بقية الكتب — وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق السلكي فيمسلك مسلك المضاد لكل ما نهوا النفس وتميل إليه وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز في كلمة واحدة فقال تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) والأصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فإن عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختياراً. فينبغي أن يصبر ويستمر، فإن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت وإذا انفق منه تقص عزم فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه — كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتاب المحاسبة والمراقبة — وإذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة ففسد بها الرياضة بالسلكية.

### بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة

اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به، وإنما مرضه أن يتعدى عليه فعله الذي خلق له حتى لا يصدر منه أصلاً أو يصدر منه مع توج الاضطراب. فرض اليد أن يتعدى عليها البطش، ومرض العين أن يتعدى عليها الإبصار، كذلك مرض القلب أن يتعدى عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله وهو العلم والحكمة والمعرفة وحسب الله تعالى وعبادته والتلذذ بذكره وإثارة ذلك على كل شهوة سواء والاستمانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه قال الله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فكل عضو فائتة القلب الحكمة والمعرفة وخاصة

النفس التي لا تدى : ما يتميز بها عن البهائم ، فإنه لم يتميز عنها بالقوة على الأكل والوقاع والإبصار وغيرها ، بل بعمرة الأشياء على ما هي عليه ، وأصل الأشياء وموجدها ومخترعها هو الله عز وجل الذي جعلها أشياء ، فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله عز وجل فكأنه لم يعرف شيئاً ، وعلامة المعرفة المحبة من عرف الله تعالى أجبر علامة المحبة إن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم أزواجكم ﴾ إلى قوله ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فمبصرون ﴾ حتى يأتي الله بأمره ﴿ فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه موسى . كان كل معدة صار الطين أحب إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة . فهذه علامات المرض وهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله إلا أن من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها ، ومرض القلب بما لا يعرفه صاحبه ، فذلك ينفل عنه ، وإن عرفة صعب عليه الصبر مرارة دوائه فإن دوائه مخالفة الصوات وهو نزع الروح .

فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه ، فإن الأطباء هم العلماء وقد استولوا عليهم المرض ، فالطبيب الرخيص فلما يلتفت إلى علاجه ، فلماذا صار الداء عضالاً والمرض ممتناً واندرس هذا العلم ، وأنكر بالكلية طب القلوب وأنكر مرضها ، وأقبل الخلق على حب الدنيا ، وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراءات . فهذه علامات أصول الأمراض .

وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها ، فإن كان يعالج داء البغل فهو المهلك المجد عن الله عز وجل وإنما علاجه يبدل المال والنفقة ، ولكنه ينزل المال إلى حد يصير به مبدراً فيكون التبدير أيضاً داء ؛ فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضاً داء ، بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة .

وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبدير والتخثير حتى يكون على الوسط وفي غاية من البعد عن الطرفين ، فإن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذي يوجب الخلق المختور : فإن كان أسهل عليك وأدنى من الذي يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه أدنى عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقة فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل فرد في المواظبة على البذل ، فإن صار البذل على غير المستحق أدنى عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبدير فارجع إلى المواظبة على الإمساك ، فلا تزال تراغب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأنفال وتضيقها حتى تقطع علاقتك بقلبك عن الاقتات إلى المال فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه ، بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكاً لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج ، ولا ترجع عندك ليدل على الإمساك بكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سلباً عن هذا المقام خاصة ، ويجب أن يكون سلباً عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا ، حتى ترتحل النفس عن الدنيا متقطعة العلاقات منها غير ملتفة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها ، فمعد ذلك ترجع إلى ربها ورجوع النفس الطمئنة راضية مرضية داخلية في زمرة عباد الله المفرقين من التبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض بل هو أدنى من الشعر وأجدر من السيف فلا جرم ، ومن استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا ، جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة ، ولما بنفسك المبدع من سبل عن الصراط المستقيم - أعنى الوسط - حتى لا تميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه متملئاً بالجانب الذي مال إليه .

وإنك لا ينفك عن عذاب ما واجتياز على النار وإن كان مثل العرق قال الله تعالى ( وإن منكم إلا واردة كان على ربك حتما مقضيا ، ثم تنجي الذين اتقوا ) أي الذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه ، ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله ( إهدنا الصراط المستقيم ) إذ وجب قراءة فاتحة في كل ركعة .

فقد روي أن بعضهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال : قد قلت يا رسول الله شيئين هود ، فلم قلت ذلك ؟ فقال عليه السلام لقوله تعالى ( فاستقم كما أمرت ) فالاستقامة على سواء السبيل في غاية الغموض ، ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها ، فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح ، ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة فليستغفد كل عبد صفاته وأخلاقه . وليعدها وليشتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب ، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المثقين .

### بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه

اعلم أن الله عز وجل إذا أراد بمبد خيرا يصبره بميوب نفسه ، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه ، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن أكثر الخلق جلهلون بميوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذخ في عين نفسه ، فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق :

الأول : أن يجلس بين يدي شيخ يصبر بميوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه في نفسه ويقيح إشارته في مجاهدته . وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه ، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه . وهذا قد عز في الزمان وجوده .

الثاني : أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيقا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه وأفعاله وصوبه الباطنة والظاهرة ينبه عليه ، فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين .

كان عمر رضي الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلى عيوني ، وكان يسأل سلمان عن عيوبه فلما قدم عليه قال له : ما الذي يهلك عني مما تكرهه ؟ فاستعني فأخ عليه فقال : بلغني أنك جمعت بين إدامين على مائدة ، وأن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل ؟ قال : وهل يهلك غير هذا ؟ قال : لا ، فقال : أما هذان فقد كفيتهما . وكان يسأل حذيفة ويقول له : أنت صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين ، فهل ترى على شيئا من آثار النفاق ؟ فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمة لنفسه ورضى الله عنه .

فكل من كان أوفر عقلا وأعلى منصباً كان أقل إعجاباً وأعظم انهماكاً لنفسه ، إلا أن هذا أيضا قد عز فقل في الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالمعيب ، أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب ، فلا تخف في أصدقاتك عن حسود أو صاحب غرض يرى ما ليس يبعث عيبا ، أو عن مداهن يخفى عنك بعض عيوبك .

ولهذا كان داود الطائي قد احتزل الناس فقيل له : لم لا تحاطل الناس ؟ فقال : وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوني ؟ فكانت شهوة ذوى الدين أن يتنبهوا لمعيوبهم بتنبية غيرهم ، وقد آل الأمر أمثالا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحننا ويبرفنا عيوبنا ، وبكذلك هذا أن يكون مفسحا عن ضعف الإيمان فإن الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداغة ، فلو نهينا منبه على أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه مئة وفرحنا به واشتغلنا بإزالة المقرب وإبعاده وقتلها ، وإنما نكأيتها على البدن وبدوم ألها يوما فادونه ، ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن ندوم



بعد الموت أبداً أو آلاف من السنين . ثم إننا لا نقرح بمن يتبنا عليها ولا نفعل بإزالتها بل نشغل بمقاومة الناصح بمثل مقافته فقول له : وأنت أيضاً تصنع كيث وكبت وتغفلنا العداوة ممنوع الانتفاع بنصحه ، ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب . وأصل كل ذلك ضعف الإيمان . فنسال الله عز وجل أن يلبسنا رشداً ويصيرنا بعيوبنا ويفعلنا بدواتنا ويرفقنا بقيام بشكر من يطعمنا على مساوينا بمنه وفعله .

الطريق الثالث : أن يستفيد معرفة صيوب نفسه من السنة أعداءه فإن عين السخط تبدى المساويا . ولعل ارتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يفتي عليه ويمدح ويغني عنه عيوبه ، إلا أن الطبع يجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد ، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فإن مساويه لا بد وأن تنشر على المستهم .

الطريق الرابع : أن يحافظ الناس فكل ما رآه مذموماً فبما بين الحق فليطالب نفسه به وينسبها إليه ، فإن المؤمن مرآة المؤمن ، فيرى من عيوب غيره صيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى ، فأ يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه فليصدق نفسه ويظهرها من كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديبا ، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهون من غيرهم لاستغنوا عن المؤوب .

فيل لمبى عليه السلام : من أدبك ؟ قال : ما أدبني أحد ؟ رأيت جهل الجاهل شيناً فاجتبت . وهذا كله حيل من قد شيناً عارفاً ذكياً بصيراً بعيوب النفس مشفقاً ناهياً عن الدين فارغاً من تهذيب نفسه مشغولاً بتهديب عباد الله تعالى ناهياً لهم ، فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذي يخلصه من مرضه وينجي من الهلاك الذي هو يصده .

بيان شواهد النقل من أبواب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلب

ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات

اعلم أن ما ذكرناه إن تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشفت لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين ، فإن عجزت عن ذلك فلا ينبغي أن يفتنك التصديق والإيمان على سبيل التقليد والتقليد لمن يستحق التقليد ، فإن للإيمان درجة كما أن للعلم درجة ، والعلم يحصل بعد الإيمان وهو ورائه قال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فمن صدق بأن مخالفة الشهوات هي الطريق إلى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا ، وإذا اطلع على ما ذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم وكلا وعد الله الحسنى .

والذي يقتضيه الإيمان بهذا الأمر في القرآن والسنة وأقوال العلماء أكثر من أن يحصر . قال الله تعالى : ﴿ ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي للمأوى ﴾ وقال تعالى ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ قيل زوج منها محبة الشهوات . وقال ﷺ ﴿ المؤمن بين خمس شئ : مؤمن بحسبه ومناقض يفضله وكافر يقاتله وشيطان يضلّه ونفس تنازعه ﴾ (١) فبين أن النفس عدو منازع يجب عليه مجاهدتها .

ويرى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يأدود حذر وأندر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب

(١) « المؤمن بين خمس شئ : مؤمن بحسبه ومناقض يفضله . . . الحديث » أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف .

المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عن محبة . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لم يعود غائب لم يره وقال نبينا صلى الله عليه وسلم لقوم قدموا من الجهاد « مرحبا بكم قسم من الجهاد الأصفر إلى الجهاد الأكبر » قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر ؟ قال جهاد النفس (١) « وقال صلى الله عليه وسلم « المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « كف أذاك عن نفسك ولا تابع هواها في معصية الله تعالى إذن تخاصمك يوم القيامة فليمن بعضك بعضا إلا أن يغفر الله تعالى ويستر (٣) » وقال سفيان الثوري : ما جالبت شيئا أشد على من نفسي مرة في عمره على وكان أبو العباس الموصلي يقول لنفسه : يا نفس لا في الدنيا مع أبناء الملوك تنعمين ولا في طلب الآخرة مع العباد تجهدين كأي بك بين الجنة والنار تحبين يا نفس ألا تستحين أوقال الحسن : ما الدابة الجوج بأجوج إلى الهجام الشديد من نفسك .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : جلد نفسك بأسيايف الرياضة . والرياضة على أربعة أوجه : القوت من الطعام ، والنمض من المنام ، والحاجة من الكلام ، وحمل الأذى من جميع الأنام ؛ فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ، ومن قلة المنام صفو الإرادات ، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ، ومن احتيال الأذى البلوغ إلى الغايات . وليس على العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الأذى ، وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والأنام وهاجت منها حلالة فضول الكلام جردت عليها سيوف قلة الطعام من غند التجرد وقلة المنام ، وضربتها بأيدي الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام ، فأمن من بوائقها من بين سائر الأنام وتصفها من ظلة شهواتها فتنبج من غوائل آفاتهما ، فتصير عند ذلك فليقة ونورية خفيفة روحانية تهوّل في ميدان الخيرات وتسهر في مسالك الطاعات كالفرس الفاروق الميدان وكلملك المتزه في البستان . وقال أيضا : أعداء الإنسان ثلاثة : دنياه وشيطانه ونفسه ، فأحرص من الدنيا بالزهد فيها ، ومن الشيطان بمنالته ، ومن النفس بترك الشهوات .

قال بعض الحكماء : من استولت عليه النفس صار أسيرا في حب شهواتها ، محصورا في بين هواها ، مقهورا مغلولاً زمامه في زحمة تهره حيث شئت فتضع قلبه من القوائد . وقال جعفر بن حميد : اجتمع العلماء والحكماء على أن التميم لا يترك إلا بترك التميم . وقال أبو يحيى الوراق : من أرحى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات . وقال وهيب بن الورد : ما زاد على الخبز فهو شهوة . وقال أيضا من أحب شهوات الدنيا فليتيئلا للذل .

وروي أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام - بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على راية الطريق في يوم موكة وكان يركب في زهاء اثني عشر الفامن عظام ملكك - سبحان من جعل الملوك عبيدا بالمعصية وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم له ، إن الحرس والشهوة صيرا الملوك عبيدا وذلك جزاء المفسدين ، وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكا . فقال يوسف - كما أخبر الله تعالى عنه ﴿ إنا من بين وبيصر فإن الله لا يضيغ أجر المحسنين ﴾ .

وقال الجنيد : أرققت ليلتي فقممت إلى وردى فلم أجد الحلالة التي كنت أجد لها فأردت أن أنام فلم أقدر ، فجلست فلم أطق الطلوس ، فخرجت فإذا رجل ملف في عباءة مطروح على الطريق ، فلما اخس بي قال : يا أبا القاسم إلى الساعة قتلت : ياسيدي من غير موحد ؟ قال : بلى سألت الله عز وجل أن يحرك لي قلبك ، فقلت : قد فعل فما حاجتك ؟ قال : فني يصير دواء النفس دواءها ؟ فقلت : إذا عالجك النفس هواها ، فأقبل على قسه فقال : اسمي قد

- (١) حديث «محباً بكم قدمتم من الجهاد إلى الجهاد الأكبر» أخرجه البيهقي في الزهد وقد تقدم في شرح عجائب القلب
- (٢) حديث «المجاهد من جاهد نفسه» أخرجه الترمذي في أثناء حديث وصححه وابن ماجه من حديث فضالة بن عبيد
- (٣) حديث «كف أذاك عن نفسك ولا تابع هواها في معصية الله ... الحديث» لم أجده بهذا السياق .

اجبتك هذا سبع مرات فأبيت ان تسمعني إلا من الجنيدها قد سمعته ، ثم انصرف وامرته . وقال يزيد الرقائبي :  
 إليكم عن الماء البارد في الدنيا لعل لا حرمة في الآخرة . وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : متى أتكلم ؟  
 قال : إذا اشتيت الصمت ، قال : متى أصمت ؟ قال : إذا اشتيت الكلام . وقال علي رضي الله عنه : من اشتاق إلى  
 الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا . وكان مالك بن دينار يطوف في السوق فإذا رأى الشيء يشتهي قال لنفسه : اصبري  
 فوالله ما أمتك إلا من كرامتك على .

فإن قد اتفق العلماء والحكماء على ان لا طريق إلى سعادة الآخرة إلا بتبني النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات  
 فالإيمان بهذا واجب . وأما علم تفصيل ما يترك من الشهوات وما لا يترك إلا بما قدمناه . وحاصل الرياضة  
 وسرها ان لا تمتنع النفس بشيء مما لا يوجد في القبر إلا بقدر الضرورة ، فيكون مقتصرأ من الأكل والشكاح  
 والملابس والسكن وكل ما هو مظفر إليه على قدر الحاجة والضرورة ، فانه لو تمتع بشيء منه أنس به والله ، فإذا  
 مات تمى الرجوع إلى الدنيا بسببه ولا يتمى الرجوع إلى الدنيا إلا من لاحظ له في الآخرة بحال ، ولا خلاص منه  
 إلا بأن يكون القلب مشغولاً بجمرة الله وحبه والتفكير فيه والاتطلاع إليه ، ولا قوة على ذلك إلا بالله ، وبقتصر  
 من الدنيا على ما يدفع عائق الذكر والتفكير فقط . فن لم يقدر على حقيقة ذلك فليقرب منه ؛ والناس فيه أربعة :

الأول : رجل مستغرق قلبه بذكر الله فلا يلتفت إلى الدنيا إلا في ضرورات المعيشة فهو من الصديقين . ولا يتنبهى  
 إلى هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة والصبر على الشهوات مدة مديدة .

الثاني : رجل استغرق قلبه ولم يبق لله تعالى ذكر في قلبه إلا من حيث حديث النفس ، حيث يذكره  
 باللسان لا بالقلب فهذا من المالكين .

والثالث : رجل اشتغل بالدنيا والدين ولكن الغالب على قلبه هو الدين ، فهذا لا بد له من ورود النار إلا أنه  
 يخرج منها سريعاً بقدر غلبة ذكر الله تعالى على قلبه .

والرابع : رجل اشتغل بهما جميعاً لكن الدنيا أغلب على قلبه فهذا يطول مقامه في النار لكن يخرج منها ليعالها  
 لقوة ذكر الله تعالى في قلبه وتمسكه من حميم فؤاده ، وإن كان ذكر الدنيا أغلب على قلبه . اللهم إنا نعوذ بك من  
 غزيك فإنيك انت المهاد .

وربما يقول القائل إن التتم بالمباح فكيف يكون التتم بسبب البعد من الله عز وجل ؟ وهذا خيال ضعيف  
 بل حب الدنيا رأس كل خطيئة وسبب إحباط كل حسنة . والمباح الخارج عن قدر الحاجة أيضاً من الدنيا وهو  
 سبب البعد . وسيأتي ذلك في كتاب ذم الدنيا . وقد قال إبراهيم الخواص كنت مرة في جبل السكام فرأيت رماناً  
 فاشتيتته فأخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فضيت وتركتها ، فرأيت رجلاً مطروحاً وقد اجتمعت عليه  
 الزناير فقلت : السلام عليك . فقال : وعليك السلام يا إبراهيم ، فقلت : كيف عرفتني ؟ فقال : من عرف الله عز  
 وجل لم يخف عليه شيء . فقلت : أرى لك حالاً مع الله عز وجل فلو سألته أن يحميك من الزناير ؟ فقال :  
 وأرى لك حالاً مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك من شهوة الرمان فإن لدغ الرمان يحد الإنسان أله في الآخرة  
 ولدغ الزناير يحد أله في الدنيا ، فكرت ومضيت . قال السري : أنا منذ أربعين سنة تطالبني نفسي أن أغمس خبزة  
 في ديبس فما أطمعها .

فإن لا يمكن إصلاح القلب لسوء طريق الآخرة ما لم تمتنع نفسه عن التتم بالمباح ، فان النفس إذا لم تمتنع

بعض المباحات طمعت في المحظورات . فن أراد حفظ لسانه عن الغيبة والفضول لحقه أن يلزمه السكوت ، إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات في الدين ، حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحق فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة . ومهما اعتادت العين رمي البصر إلى كل شيء جميل لم تحفظ عن النظر إلى ما لا يميل ، وكذلك سائر الشهوات ، لأن الذي يشتهي به الحلال هو بعينه الذي يشتهي الحرام ، فالشهوة واحدة وقد وجب على العبد منعها من الحرام فإن لم يجرعها الاقتصار على قدر الضرورة من الشهوات غلبته . فهذه إحدى آفات المباحات ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه ، وهو أن النفس تنفرح بالتمتع في الدنيا وتركز إليها وتطمئن إليها أشراً وبطراً حتى تصير ثمة كالسكران الذي لا يفيق من سكره . وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل يسرى في العروق فيخرج من القلب الخوف والحنن وذكر الموت وأحوال يوم القيامة وهذا هو موت القلب . قال الله تعالى ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴾ وقال تعالى ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ وقال تعالى ﴿ اعلوها أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينهم يتكاثروا في الأموال والأولاد ﴾ الآية وكل ذلك ذم لما فسد الله السلامة .

فأولوا الحزم من أرباب القلوب جربوا غلورهم في حال الفرح بمؤاتاة الدنيا فوجدوها قاسية قفرة بعيدة التأثير عن ذكر الله واليوم الآخر ، وجربوها في حالة الحزن فوجدوها ليثة رقيقة صافية قابلة للأثر المذكور . فملوا أن النجاة في الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر ، فقطعوها عن ملائعها وعودوها الصبر عن شهواتها - حلالها وحرامها - وعلوا أن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابها عتاب وهو نوع عذاب ، فن نوقش الحساب في عرصات القيامة فقد عذب . غلصوا أنفسهم من طلبها وتوصلوا إلى الحرية والملك الدائم في الدنيا والآخرة بالخلاص من أسر الشهوات ورفقها والانس بذكر الله عز وجل والاشتغال بطاعته . وفعلوها ما يفعل بالبارز إذا قصد تأديبه وقتله من التوب والاستيحاء إلى الانقياد والتأديب ، فإنه يحبس أولاً في بيت مظلم وتخط عيناه حتى يحصل به القطام عن الطيران في جو الهواء ، وينسى ما قد كان أفقه من طبع الاسترسال ثم يرفق بالبحم حتى يأنس بصاحبه ويأفقه إنفاً إذا داه أجابه ، ومهما سمع صوته رجع إليه . فكذلك النفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره إلا إذا قطعت عن حاجتها بالخلة والعزلة أولاً ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات ، ثم عودت الثناء والذكر والثناء ثانياً في الخلة حتى ينقلب عليها الانس بذكر الله عز وجل عوضاً عن الانس بالدنيا وسائر الشهوات وذلك ينقل على المريد في البداية ثم يتعمق به في النهاية ، كالصبي يقطع عن الثدي وهو شديد عليه إذ كان لا يصبر عنه ساعة فلذلك يشتد بكؤه وجوعه عند القطام ، ويشد تقوده عن الطعام الذي يقدم إليه بدلاً عن اللبن ، ولكنه إذا منع اللبن رأساً يوماً فوما وعظم تعب في الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكلفاً ، ثم يصبر له طبعاً . فلورد بعد ذلك إلى الثدي لم يرجع إليه ، فيهرج الثدي ويصاف اللبن ويألف الطعام . وكذلك الدابة في الابتداء تنفر عن السرج والجام والركوب فتحمل على ذلك قهراً ، وتمنع عن السرج الذي ألفته باللاس والقيود أولاً ، ثم تأنس به بحيث ترك في موضعها فتقف فيه من غير قيد . فكذلك تودب النفس كما تودب الطير والذئب ، وتأديبها بأن تمنع من النظر والانس والفرح بتعمق الدنيا بل بكل ما يزيها بالموت ، إذ قيل له احبب ما احببت فإنك مفارقة . فإذا علم أنه من احب شيئاً يلزمه فراقه ويشق لاحالة لقراءته شغل قلبه يحب ما لا يفارقه وهو ذكر الله تعالى ، فإن ذلك يصعب في القبر ولا يفارقه . وكل ذلك يتم بالصبر أولاً إياها فلا تل فإن العمر قليل بالإضافة إلى مدة حياة الآخرة . وما من عاقل إلا وهو راض باحتمال المشقة في سفر وتعلم صناعة وغيره ما شهراً ليتعم به سنة أودعها . وكل

العمر بالإحاطة إلى الأبد أقل من الشهر بالإحاطة إلى عمر الدنيا ، فلا بد من الصبر والمجاهدة ، فعند الصباح محمد التوم السرى وتذهب عنهم صمايات الكرى كما قاله على رضى الله عنه .

وطريق المجاهدة والريضة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله ، والأصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحه من أسباب الدنيا ، فالذى يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول في الوضوء أو بالمر في القضاء والولاية أو بكثرة الاتباع في التدريس والإفادة فينبغي أن يترك أولا ما به فرحه ، فإنه إن منع عن شيء من ذلك وقيل له توابك في الآخرة لم ينقص بالمتع فكره ذلك وتألم به فهو بمن فرح بالحياة الدنيا وأطمأن بها ، وذلك مهلك في حقه . ثم إذا ترك أسباب الفرح فليبتزل الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل إلا بذكر الله تعالى والتفكير فيه ، وليتصد لما يبدو في نفسه من شهوة ووسواس حتى يقمع مادته مهما ظهر ، فإن لكل وسوسة سبيل ولا يزول إلا بقطع ذلك السبب والعلاحة . وليلزم ذلك بقية العمر فليس للجهد آخر إلا بالموت .

### بيان علامات حسن الخلق

اعلم ان كل إنسان جاهل بعبود نفسه ، فإذا جهاد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي وبما يظن بنفسه انه هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة ؛ فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق ، فإن حسن الخلق هو الإيمان ، وسوء الخلق هو النفاق ، وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمناققين في كتابه وهي بمجمليها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق ، فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق ، قال الله تعالى ﴿ قد افلق المؤمنون الذين هم في صلاتهم عاشقون والذين هم عن الفتن معرضون ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم الواردون ﴾ وقال عز وجل ﴿ التائبون العابدون الحامدون ﴾ إلا قوله ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ وقال عز وجل ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ وقال تعالى ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ إلى آخر السورة . فن اشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بتحصيل ما فقد وحفظ ما وجدته ، وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة وإشار بجميعها إلى ع الحسن الأخلاق فقال « المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه <sup>(١)</sup> » وقال عليه السلام « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه <sup>(٢)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره <sup>(٣)</sup> » وقال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت <sup>(٤)</sup> » وذكر ان صفات المؤمنين هي حسن الخلق فقال صلى الله عليه وسلم « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا <sup>(٥)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم المؤمن سمعوا وقورا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة <sup>(٦)</sup> » وقال « من سرته حسنة

(١) « المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه » أخرجه الشيخان من حديث أنس « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »

(٢) « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي ومن حديث أبي هريرة

(٣) « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » متفق عليه من حديثها وهو بعض الحديث الذى قبله

(٤) « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » متفق عليه أيضا من حديثها وهو بعض الحديث الذى قبله

(٥) « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا » تقدم غير مرة .

(٦) « إذا رأيتم المؤمن سمعوا وقورا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي خلاد بلفظ

« إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا في الدنيا وقلة منطق فاقربوا منه فإنه يلقن الحكمة » .

وسأته سيئته فهو مؤمن <sup>(١)</sup> » وقال « لا يحمل المؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه <sup>(٢)</sup> » وقال عليه السلام « لا يحمل المسلم أن يروع مسلماً <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إنما يتجالس التجالسان بأمانة الله عز وجل فلا يحمل أحدهما أن يفتنى على أخيه ما يكرهه <sup>(٤)</sup> » .

وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال : هو أن يكون كثير الحياء قليل الآثي كثير الصلاح صدوق اللسان ، قليل الكلام كثير العمل قليل الزلل قليل الفضول ، برا وصولاً وقوراً صبوراً شكوراً راضياً حليماً رقيقاً عفيفاً شفيقاً ، لالماً لا يلا سباً ولا متاباً ولا عجزاً ولا حقوداً ولا بخيلاً ولا حسوداً ، بشاشاً هشاشاً يحب في الله ويغضب في الله ويرضى في الله ويغضب في الله فهذا هو حسن الخلق .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة المؤمن والمنافق فقال « إن المؤمن همه في الصلاة والصيام والعبادة ، والمنافق همه في الطعام والشراب كالهيمة <sup>(٥)</sup> » وقال حاتم الأصم : المؤمن مشغول بالسكر والعبر ، والمنافق مشغول بالحرص والأمل ، والمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله ، والمنافق راجع كل أحد إلا الله ، والمؤمن آمن من كل أحد إلا من الله ، والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله ، والمؤمن يقدم ماله دون دينه ، والمنافق يقدم دينه دون ماله ، والمؤمن يحسن ويكي ، والمنافق يسيء ويضحك ، والمؤمن يحب الخلة والوحدة ، والمنافق يحب الخلقة والملا ، والمؤمن يروع ويخشى الفساد ، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد ، والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح ، والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد .

وأول ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الآثي واحتفال الجفاء ، ومن شك من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء خلقه ، فإن حسن الخلق احتمال الآثي ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوماً يمشي ومعه أنس فأدركه أعرابي فجذبا شديداً وكان عليه برد نحراني غليظ الحاشية ، قال أنس رضي الله عنه : حتى نظرت إلى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه ، فقال : يا معتمد لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ، ثم أمر بأخطائه <sup>(٦)</sup> » ولما اكثرت قریش إيذاه وضربه قال « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون <sup>(٧)</sup> » قيل إن هذا يوم أحد فذلك أنزل الله تعالى فيه ﴿ وَإِنَّكَ لَمَلِكٌ خَلَقْتَ عَظِيمٌ ﴾ ويحكى أن إبراهيم بن آدم خرج يوماً إلى بعض البراري فاستقبله رجل جندى فقال : أنت عبد ؟ قال : نعم ، فقال له : أين الممران ؟ فأشار إلى المقبرة ، فقال الجندى : إنما أردت الممران ؟ فقال هو المقبرة ، فضاظ ذلك فضرب رأسه بالسوط ففججه وردده إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا ما الخبر ؟ فأخبرهم الجندى ما قال له فقالوا : هذا إبراهيم بن آدم ، فنزل الجندى عن فرسه وقبل يديه وجعل يعتنر إليه ، فقيل بعد ذلك له : لم قلت له أنا عبد ؟ فقال : إنه لم يسألني : عبد من أنت بل قال : أنت عبد ؟ فقلت : نعم ، لأنني عبد الله ، فلما ضرب راسي سألت

(١) حديث « من سرتته حسنته وسأته سيئته فهو مؤمن » أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي موسى ورواه الطبراني والحاكم وصححه على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة .

(٢) حديث « لا يحمل المسلم أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه » أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق وفي البر والصلة مقرئاً وقد تقدم

(٣) حديث « لا يحمل المسلم أن يروع مسلماً » أخرجه الطبراني والطائلي من حديث الثعالب بن بشر والبراز من حديث ابن عمر وإسناده ضيف .

(٤) حديث « إنما يتجالس التجالسان بأمانة الله ... الحديث » تقدم في آداب الصجبة .

(٥) حديث : سئل عن علامة المؤمن والمنافق فقال « إن المؤمن همه في الصلاة والصيام ... الحديث » لم أجده له أصلاً

(٦) حديث : كان يمشي فأدركه أعرابي فجذبه جذبا شديداً وكان عليه برد نحراني غليظ الحاشية ... الحديث . متفق عليه من حديث أنس .

(٧) حديث « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » أخرجه ابن حبان والبيهقي في دلائل النبوة من حديث سهل بن سعد وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود أنه حكاه <sup>(٨)</sup> عن نبي من الأنبياء ضربه قومه .

الله له الجنة قيل كيف وقد ظلك ؟ فقال : علمت أني أوجر على ما تالني منه فلم أرد أن يكون نصيبي منه الخير ونصيبه مني الشر ، وحسب أبو عثمان الحميري إلى دعوة — وكان الداعي قد أراد تجربته — فلما بلغ منزله قال له : ليس لي وجه ، فرجع أبو عثمان فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانيا فقال له : يا أستاذ أرجع فرجع أبو عثمان فقال له مثل مقالته الأولى فرجع . ثم دعاه الثالثة وقال : أرجع على ماوجب الوقت فرجع ، فلما بلغ الباب قال له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمان ، ثم دعاه الرابعة فردده حتى علمه بذلك مرات وأبو عثمان لا يتغير من ذلك ، فأكب على رجليه وقال : يا أستاذ إنما أردت أن أختبرك فأحسن خلقك ، فقال : إن الذي رأيت مني هو خلق الكلب ، إن الكلب إذا دعى أجاب وإذا زجر انزجر . وروى عنه أيضا أنه اجتاز روما في مكة فطرحت عليه إجابة رماد فزول عن دابته فسيط بجمدة الشكر ثم جعل يفض الرماد عن ثيابه ولم يقل شيئا فقبل الأثر بهم فقال لمن استحق النار فصالح على الرماد لم يجر له أن يغضب .

وروى أن علي بن موسى الرضا رآه عليه كان لونه يميل إلى السواد — إذ كانت أمه سوداء — وكان بنيسابور حمام على باب داره ، وكان إذا أراد دخول الحمام فرغه له الحمامي ، فدخل ذات يوم فألقى الحمامي الباب ومضى في بعض حوائجه . فقدم رجل رستاق إلى باب الحمام ففتحته ودخل فزح ثيابه ودخل فرأى على بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدام الحمام ، فقال له : قم واحمل إلى الماء فقام علي بن موسى وامتل جميع ما كان يأمره به ، فرجع الحمامي فرأى ثياب الرستاق وسمع كلامه مع علي بن موسى الرضا فخاف وهرب وخلاها ، فلما خرج علي بن موسى سأل عن الحمامي فقيل له : إنه خاف ما جرى فهرب قال : لا ينبغي له أن يهرب إنما الذنب لمن وضع ماله عند أمة سوداء .

وروى أن أبا عبد الله الخياط كان يجلس على دكانه ، وكان له حريف مجوسي يستعمله في الخياطة فكان إذا خاط له شيئا حمل إليه دراهم زائفة ، فكان أبو عبد الله يأخذها منه ولا يخبره بذلك ولا يردها عليه ، فاتفق يوما أن أبا عبد الله قام لبعض حاجته ، فأتى المجوسي فلم يجد دفعه إلى تلميذه الأجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهما زائفا ، فلما نظر إليه التلميذ عرف أنه زائف فردده عليه ، فلما عاد أبو عبد الله أخبره بذلك فقال : بئس ما عملت هذا المجوسي يماثلني بهذه المعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وأخذ الدراهم منه والقها في البئر لئلا يغير بها مسلما .

وقال يوسف بن أسباط : علامة حسن الخلق عشر خصال : قلّة الخلاف ، وحسن الإنصاف ، وترك طلب العورات وتحسين ما يبدو من السيئات ، واتقاس المعذرة واحتفال الأدنى ، والرجوع باللامة على النفس ، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره ، وطلاقة الوجه الصغير والكبير ، ولطف الكلام لمن دونه ولن فوقه . وسئل سهل عن حسن الخلق فقال : أدناه احتفال الأدنى وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه . وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم ؟ فقال : من قيس بن عاصم ، قيل وما بلغ من حلمه ؟ قال : بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فقات ، فدمعت الجارية فقال لها : لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى .

وقيل إن أريسا القرني كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم : يا اخوتاه إن كان ولابد فارموني بالصغار حتى لا تندموا سائقا تتمعنوني عن الصلاة .

وشتم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يثبته ، فلما قرب من الحي وقف وقال : إن كان قد بقي في نفسك شيء فقله كي لا يسلمك بعض سفهاء الحي فيؤذوك . وروى أن عليا كرم الله وجهه دعاه غلاما فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه ، فقام إليه فقرأ مضطجعا فقال : أما نسمع يا غلام ؟ قال : بلى ، قال : فما حلك على ترك إجابتي ؟ قال : أنت عقوبتك فتكلمت ، فقال : امض فأنت حر لوجه الله تعالى . وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله :

يامرائى ، فقال : يا هنده وجدت اسمى الذى أحله أهل البصرة . وكان ليحيى بن زياد الحارثى غلام سوء فقيل له : لم تمسكه ؟ فقال : لأنكم ألجم عليه .

فهذه نفوس قد ذلت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها ، وفتحت من الغش والغفل والحقده براحتها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو متبهى حسن الخلق . فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه ؛ فهو لاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرنا . فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغي أن يفتن بنفسه فيظن بها حسن الخلق ، بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق فإنها درجة رفيعة لا يتألفها إلا القريون والصديقون .

## بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوم

### وجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأركانها ، والصبي أمانة عند والده ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة عالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش وما مل إلى كل ما يمال به إليه ، فإن عود الخير وصلبه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر وأمل إهمال البهائم شق وهلك وكان الورى في رقة القسم عليه والوالى له . وقد قال الله عز وجل ( يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ) ومما كان الأب يصونه عن نار الدنيا بأن يصونه عن نار الآخرة أولى ، وصيانه بأن يؤدبه ويهذب ويملئ بحسن الأخلاق ويحفظه من القراءات السوء ولا يعودوه التمتع ، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فهلك هلاك الأبد ، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في سخافته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدبنة تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا يركه فيه ، فإذا وقع عليه نشو الصبي انجذبت طبيعته من الخبث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبثات . ومما رأى فيه غوائل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، فانه إذا كان يحشتم ويستقى ويرك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الأشياء قبيحا وغائفاً لبعض فصار يستحي من شئ . دون شئ ؛ وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكل العقل عند البلوغ فالصبي المستحى لا ينبغي أن يحمل بل يستعان على تأديبه بحياته أو تمييزه ، وأول ما يطلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه مثل أن لا يأخذ الطعام إلا يمينته ، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه ، وأن يأكل ما يليه وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره ، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل ، وأن لا يسرع في الأكل ، وأن يحيد المضغ ، وأن لا يراوى بين القمم ، ولا يطلع يده ولا ثوبه ، وأن يعود التحيز للفقار في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتماً ، ويتحيز عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم ، وأن ينم بين يديه الصبي الذى يكثر الأكل ويبدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل ، وأن يحجب إليه الإتيار بالطعام وقلة المبالاة به والتفتاة بالطعام الحشن أى طعام كان ، وأن يحجب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبرسم يقرر عنده أن ذلك شأن النساء والخشيين وأن الرجال يستنكفون منه ويكره ذلك عليه ، ومما رأى على صبي ثوباً من الإبرسم أو ملون فينبغي أن يستكره ويمنه ، ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التمتع والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة ، وعن غفلة كل من يسمعه ما يرغب فيه فان الصبي مهما أعمل في ابتداء نشوه خرج في الأغلب ردى . الأخلاق كذايا حسوداً مسروقاً تماماً لحواها فاقولوا وضحك وكيداً ومجاة ، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ،



ثم يشغل في المكتبة فيتم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم ليتفرس في نفسه حب الصالحين ، ويحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأمله ، ويحفظ من غائلة الأدباء الذين يرمعون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فإن ذلك يفرس في قلوب الصبيان بذر الفساد .

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وقيل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويمجى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس ، فإن عاقل ذلك في بعض الأحوال مرقحة واحدة فينبغي أن يتأقلم عنه ولا يهتك ستره ولا يكشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ، ولا سباً إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه ؛ فإن إظهار ذلك عليه وربما يفسده جسارته حتى لا يبالي بالمكاشفة ، فعند ذلك إن عاد ثانياً فينبغي أن يعاقب سرا ويعظم الأمر فيه ويقال له : إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس ، ولا تذكر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملازمة وروكوب القباح ويسقط وقع الكلام من قلبه ، وليسكن الأب حافظاً هيبه الكلام معه فلا يوجهه إلا أحياناً ، والأم تخوفه بالأبوتزجره عن القباح ، وينبغي أن يمنع عن النوم نهاراً فإنه يورث الكسل ولا يمنعه ليلاً . ولكن يمنع القرش الوطنية حتى تصلب أعضاؤه ولا يسهن بدنه فلا يصبر عن التمتع ، بل يعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم ، وينبغي أن يمنع من كل ما يقفله خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح ، فإذا ترك تعود فعل القبيح ، ويعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يقبل عليه الكسل ، ويعود أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع المشي ، ولا يرشى يديه بل يضمهما إلى صدره ، ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والده أو بشيء من مطاعهم ولا يسه أو لرحه ودوائه ، بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم ، ويمنع من يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له حشمة إن كان من أولاد المحتشمين ، بل يعلم أن الرفعة في الإطعام لا في الأخذ وأن الأخذ يؤم وخسة ودنائة ، وإن كان من أولاد الفقراء فيعلم أن الطمع والأخذ مهابة وذلة وأن ذلك من دأب الكلب فإنه يصعب في انتظار لقمة والطمع فيها .

وبالجمل يقيح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب ، فإن آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السوم على الصبيان بل على الأكابر أيضاً وينبغي أن يعود أن لا يصق في مجلسه ولا يمتخط ولا يتثائب بحضرة غيره ولا يستدير غيره ولا يضع رجلاً على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يعمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل . ويعلم كيفية الجلوس ويمنع كثرة الكلام ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللثام ، ويمنع العيين رأساً - صادقاً كان أو كاذباً - حتى لا يتماد ذلك في الصغر ، ويمنع أن يتدنى بالكلام ، ويعود أن لا يتكلم إلا جواباً ويقدّر السؤال ، وإن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سناً ، وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ، ويمنع من اخو الكلام وخشعة ، ومن الهن والسب . ومن غائلة من يجرى على لسانه شيء من ذلك يسرى لا محالة من القراءات السوء ، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء . وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يكسر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال ، وإن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان وينبغي أن يؤذنه بعد الانصراف من الكتائبان يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتسب بحيث لا يتعب في اللعب ، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التمل دائماً يعبت قلبه ويطل ذكائه وينقص عليه العيش ، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً .

وينبغي أن يعلم طاعة والده ومعلّمه ومؤدبه ومن هو أكثر منه سناً من قريب وأجنبي ؛ وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم ، وأن يترك اللعب بين أيديهم . ومهما بلغ سن التمييز ، فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة ( ١٠ - إحياء علوم الدين ٤ )

والصلاة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ، ويحنب لبس الديباج والحرير والنهب ويسلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع .

ويخوف من السرقة وأكل الحرام ومن الحياة والكذب والفتش ، وكل ما ينبذ على الصبيان ، فإذا وقع نشوه كنتك في الصبا فيها قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور ؛ فيذكر له أن الأطلعة أدوية وإنما المقصود منها أن يقرى الإنسان بها على طاعة الله عز وجل ، وأن الدنيا كلها أصل لما إذا لبقها لها ، وأن الموت يقطع نسيما ، وأنها دارمر لا دار مقر ، وأن الآخرة دارمقر لا دار ممر ، وأن الموت منتظر في كل ساعة ، وأن الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى ويتسع نعيمه في الجنان ، فإذا كان النشوة سالما كان هذا الكلام عند البلوغ واقعا مؤثرا ناجما يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر . وإن وقع النشوة بخلاف ذلك حتى أفسد الصبي السب والفتش والواقعة وشربه الطعام واللباس والزينة والتفاخر بقلبه عن قبول الحق نبوة الحافظ عن التراب اليابس . فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى ، فإن الصبي بمجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وإنما أبواه يملكان به إلى أحد الجانبين . قال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » (١) قال سهل بن عبد الله التستري : كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة عال محمد بن سوار فقال لي يوما : ألا تذكر الله الذي خلقك فقلت : كيف أذكره ؟ قال قل بقلبك عند قلبك في نياك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك ؛ الله معي الله ناظر إلى الله شاهدي ، فقلت ذلك ليالي ثم أعلته فقال : قل في كل ليلة سبع مرات ، فقلت ذلك ثم أعلته فقال : قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مرة ، فقلته فوقع في قلبي حللته . فلما كان بعد ستة قال لي عالى : احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة ، فلم أدل على ذلك ستين فوجدت لذلك حلالة في سرى ، ثم قال لي عالى يوما : يسهل من كان الله معه وناظر إليه وشاهده أبصه ؛ إياك والمصيبة ، فكنت أدخل بنفسى فيبشرونى إلى المكتب فقلت : إني لأخشى أن يفرق على هي ولكن شارطوا المعلم أني أذهب إليه ساعة فأعلم ثم أرجع ، فضيت إلى الكتاب فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين ، وكنت أصوم الدهر وقرئ من خبز الشعير اثني عشرة سنة ، فوقع لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فسألت اهل ان يمشونى إلى اهل البصرة لأسأل عنها ، فأقيت البصرة فسألت علماءها فلم يشف أحد عني شيئا فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبى حبيب حمزة بن أبى عبد الله العباداني فسأله عنها فأجابني ، فأقمت عنده مدة أتعج بكلامه وأتأدب بأدابه ، ثم رجعت إلى تسر لمجملتي فوق اقتصادا على أن يشتري لي بدم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز ، فأفطر عند السحر على أوقية كل ليلة بمنا من غير ملح ولا أدم ، فكان يكفيني ذلك الدوم سنة ، ثم عزمت على أن أطوى ثلاث ليال ثم أفطر ليلة ، ثم خمسا ، ثم سبعا ، ثم ثمانية عشر ليلة ، فكنت على ذلك حصري سنة ، ثم خرجت أسبح في الأرض ستين ، ثم رجعت إلى تسر وكنت أقوم الليل كله ماشاء الله تعالى . قال احمد : فما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى .

### بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدرج المريد في سلوك سبيل الرياضة

واعلم ان من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريدا حرت الآخرة مشتاقا إليها سالكا سبيلها مستهيئا بنعم الدنيا ولذاتها ، فإن من كانت عنده خربة فرأى جوهره تقيسة لم يبق له رغبة في الحرز وقويت إرادته

(١) حديث « كل مولود يولد على الفطرة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

في بيما بالجوهرة ، ومن ليس مريدا حرث الآخرة ولا طالبا لقاء الله تعالى فهو لعنم إيمانه بالله واليوم الآخر — ولست أحن بالإيمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتي الشهادة من غير صدق وإخلاص ، فإن ذلك يضاهي قول من صدق بأن الجوهرة خير من الخرزة إلا أنه لا يدري من الجوهرة إلا لفظها ، وأما حقيقتها فلا ، ومثل هذا المصدق إذا ألف الخرزة لا يتركها ولا يعظم اشتياقه إلى الجوهرة ، فإن المانع من الوصول عدم السلوك والمانع من السلوك عدم الإرادة والمانع من الإرادة عدم الإيمان ، وسبب عدم الإيمان عدم الهداة والمذكّرين والعلماء بالله تعالى المهادين إلى طريقه والمنتهيين على حقارة الدنيا واقترانها وعظم أمر الآخرة ودوامها — فالخلق غافلون قد انهمكوا في شهواتهم وغاصوا في رقدهتهم وليس في علماء الدين من بينهم ، فإن تقيهم منهم متنبه عجز عن سلوك الطريق لجهله . فإن طلب الطريق من العلماء وجددهم ماثلين إلى الهوى غافلين عن نهج الطريق ، فصار ضعف الإرادة والجهل بالطريق ونفق العلماء بالهوى سببا لخلو طريق الله تعالى عن السالكين فيه . وبما كان المطلوب عسويا والدليل مفقودا والهوى غالبا والطالب غافلا امتنع الوصول وتططلت الطرق لاعماله ، فإن تقيهم منهم من نفسه أو من تقيهم غيره انبشث له إرادة في حرث الآخرة وتجارتها فينبغي أن يعلم أن له شروطا لابد من تقديمها في بداية الإرادة وله معصم لابد من التمسك به ، وله حصن لابد من التحصن به ليأمن من الأعداء التقطاع لطريقه ، وعليه وظائف لابد من ملازمتها في وقت سلوك الطريق.

أما الشروط التي لابد من تقديمها في الإرادة فهي رفع السد والحجاب الذي بينه وبين الحق ، فإن حرمان الخلق عن الحق سيئه تراكم الحجب ووقوع السد على الطريق قال الله تعالى ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ .

والسد بين المرید وبين الحق أربعة : المال : البهائم ، والتقليد ، والمصيبة ، وإنما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه حتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة ، فإدام يبقى له درهم يلتفت إليه قلبه فهو مقيد به محجوب عن الله عز وجل ، وإنما يرفع حجاب البهائم بالبعد عن موضع البهائم بالتواضع وإثارة الخوف والحرب من أسباب الذكر وتعاظم أعمال تنفر قلوب الخلق عنه ، وإنما يرفع حجاب التقليد بأن يترك التصب للذاهبون أن يصدق بمقتضاه **« لا إله إلا الله محمد رسول الله »** تصديق إيمان ويحرص في تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى — وأعظم معبود له الهوى — حتى إذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر في معنى اعتقاده الذي تلقفه تقليدا فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لا من المجاداة ، فإن غلب عليه التصب لمعتد ولم يبق في نفسه متسع لنفسيه صار ذلك قيداً له وحجاباً إذ ليس من شرط المرید الانتهاء إلى مذهب معين أصلاً وأما المصيبة فهي حجاب ولا يرفعها إلا التوبة والخروج من المظالم وتصميم العزم على ترك العودة وتحقيق التندم على ماضي ورد المظالم وإرضاء الخصوم ، فإن من لم يصحح التوبة ولم يهجر المعاصي الظاهرة وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو بدم لم يتعلم لغة العرب ، فإن ترجمة عربية القرآن لابد من تقديمها أولاً ثم الترقى منها إلى أسرار معانيه ، فكذلك لابد من تصحيح ظاهر الشريعة أولاً وآخرها ثم الترقى إلى أغوارها وأسرارها .

فإذا قدم هذه الشروط الأربعية وتجرد عن المال والبهائم كان كمن ظهر وتوضاً ورفع الحدث وصار صالحاً للصلاة فيحتاج إلى إمام يقتدى به ؛ فكذلك المرید يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لاعماله لهدى إلى سواء السبيل فإن سبيل الدين غامض وسبيل الشيطان كثيرة ظاهرة ، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لاعماله ، فمن

سلك سيل البوادي المملكة بنير خفيّر قد خاطر بنفسه وأهلكها ، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تثبت بنفسها فانها تجف على القرب ، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر ، فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيئيه فليتمسك به تمسك الأعشى على شاطئ النهر بالقائد بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ، ولا يخالفه في ورده ولا صدره ولا يبقى في متابته شيئاً ولا يدر ، ولعلم أن نفعه في خطأ شيئيه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب فإذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه أن يحميه ويصممه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطرق وهو أربعة أمور : الخلوة ، والصمت ، والجوع ، والسهر ، وهذا تحصن من القواطع فإن مقصود المريد إصلاح قلبه ليُشاهد به ربه ويصلح لقربه .

أما الجوع فإنه ينقص دم القلب ويبينه وفي يابضه نوره ، ويذيب شحم الفؤاد وفي ذوبانه رفته ، وورقه مفتاح المكاشفة كما أن قساوته سبب الحجاب . ومهما نقص دم القلب ضائق مسلك العدو فإن مجاربه المروق الممتلئة بالشبوات . وقال عيسى عليه السلام : يامشر الحوارين جوعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم ، وقال سهل بن عبد الله التستري : ما سار الأبدال أبداً إلا بأربع خصال : باخماس البطون ، والسهر ، والصمت ، والاعتزال عن الناس ، فمائدة الجوع في تزوير القلب أمر ظاهر تشهد له التجربة ، وسيأتي بيان وجه التدرج فيه في كتاب كسر الشهوتين .

وأما السهر فإنه يجلو القلب ويصفيه وينوره ، فيضاف ذلك إلى الصفاء الذي حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب البري والمرأة المجلوة فيلوح فيه جمال الحق ، ويشاهد فيه رفيع الدرجات في الآخرة وحقارة الدنيا وأقناتها ، فتم بذلك رغبته عن الدنيا وإقباله على الآخرة . والسهر أيضاً نتيجة الجوع فإن السهر مع الشبع غير ممكن ، والنور يقبى القلب ويميته إلا إذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشفة لأسرار الغيب . فقد قبل في صفة الأبدال إن أكلهم قاعة وتوهمهم غلبة وكلامهم ضرورة . وقال إبراهيم الخواص رحمة الله : أجمع رأى سبعين صديقاً على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء .

وأما الصمت فإنه تسهله للزعة ، ولكن المعتزل لا يتجول عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرايه وتدير أمره ، فيلبيخ أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة فإن الكلام يشغل القلب وشربه القلوب إلى الكلام عظيم ، فإنه يستروح إليه ويستقل التجرد لذلك والفكر فيسترجم إليه . فالصمت يلحق العقل ويجلب الورع ويعلم التقوى .

وأما الخلوة فمادتتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر فانهما دهلير القلب ، والقلب في حكم حوض تنصب إليه مياه كربة كدرة قدرة من أنهار الحواس ، ومقصود الرياضة تفرغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء النظيف الطاهر ، وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض والأنهار مفتوحة إليه فيتجدد في كل حال أكثر مما ينقص ؟ فلا بد من ضبط الحواس إلا عن قدر الضرورة ، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم . وإن لم يكن له مكان مظلم فليطف راسه في جيبه أو يتدثر بكساءه أو إزاره ، ففي هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية . أما ترى أن نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بانه وهو على مثل هذه الصفة له « يا أيها المزمّل — يا أيها المدثر (١) » .

(١) حديث : بدء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مدثر قليل له « يا أيها المزمّل — يا أيها المدثر » متفق عليه من حديث جابر « جاورت بجرا فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يميني ... الحديث » وفيه « فأثبت خديجة قتلت : دثوني وصبوا على ماء بارداً » قال فزلت « يا أيها المدثر » وفي رواية قتلت « زملوني زملوني » ولما من حديث عائشة قتلت « زملوني زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الورع .

فهذه الأربعة جنة وحسن بها تنفع عنه القواطع وتمنع العوارض القاطعة الطريق، فإذا فعل ذلك اشتغل بعده بساكن الطريق، وإنما سلوكه يقطع المقبات ولا عقبه على طريق الله تعالى إلا صفات القلب التي سببها الانفتاح إلى الدنيا وبعض تلك المقبات أعظم من بعض: والترتيب في قطعها أن يشتغل بالأسهل فالأيسر، وهي تلك الصفات؛ أعني أسرار الملائكة التي قطعها في أول الإرادة، وآثارها؛ أعني المال والجاه وحجب الدنيا والانفتاح إلى الخلق والتشوق إلى المعاصي. فلا بد أن يغلب الباطن عن آثارها كما أغلب الظاهر عن أسبابها الظاهرة، وفيه تطول المجاهدة ويختلف ذلك باختلاف الأحوال؛ فرب شخص قد كفى أكثر الصفات فلا تطول عليه المجاهدة، وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة للشهوات ومخالفة للموى في كل صفة غالبة على نفس المريد — كما سبق ذكره — فإذا كفى ذلك أو ضعف بالمجاهدة ولم يبق في قلبه علاقة؛ شغل بذلك يذكر يلزم قلبه على اللوام ويمنع من تكثير الأوراد الظاهرة بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده ورواداً واحداً، وهو لباب الأوراد وممرها؛ أعني ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلوص من ذكر غيره ولا يشغله به مادام ملتصقاً إلى علاقته. قال الشيخ المصري: إن كان يحضر بقلبك من الجملة التي تأتي فيها إلى الجملة الأخرى شيء غير الله تعالى فغرام عليك أن تأتي.

وهذا التجرد لا يحصل إلا مع صدق الإرادة واستيلاء حب الله تعالى على القلب حتى يكون في صورة العاشق المستتر الذي ليس له إلام واحد. فإن كان كذلك ألزمه الشيخ زاوية ينفر بها ويوكل به من يقوم له بقديرير من القوات الحلال. فإن أصل طريق الدين القوات الحلال، وعند ذلك يلقته ذكراً من الأذكار حتى يشغل به لسانه وقلبه ليحس ويقول مثلاً: الله. أو: سبحان الله سبحان الله، أو ما يرام للشيخ من الكلمات فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جلوية على اللسان من غير تحريك، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر من اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب. ثم لا يزال كذلك حتى يمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالباً عليه قد فرغ من كل ما سواه، لأن القلب إذا شغل بشيء خلا عن غيره — أي شيء كان — فإذا اشتغل بذكر الله تعالى وهو المقصود خلا لاجلها عن غيره، وعند ذلك يلزمه أن يراقب وسواس القلب والتخاطر التي تتعلق بالدنيا وما يتذكر فيه مما قد مضى من أحواله وأحوال غيره، فإنه مهما اشتغل بشيء منه ولو في لحظة خلا قلبه عن الذكر في تلك اللحظة وكان أيضاً تقصصاً. فليجتهد في دفع ذلك.

ومهما دفع الوسواس كلها ورد النفس إلى هذه الكلمة جاءته الوسواس من هذه الكلمة، وأنها: ماهي؟ وما معنى قولنا: الله؟ ولأى معنى كان لها وكان معبوداً؟ ويعتربه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر وربما يرد عليه من وسواس الشيطان ما هو كفر وبدعة، ومهما كان كارهاً لتلك ومتشرباً لإمادته عن القلب لم يضره ذلك.

وهي منقسمة إلى ما يعلم قطعاً أن الله تعالى منزّه عنه ولكن الشيطان يلقي ذلك في قلبه ويجريه على خاطره، فشرطه أن يبالي به ويفرح إلى ذكر الله تعالى ينتهي إليه ليدفعه عنه كما قال تعالى ﴿وَمَا يَزِيدُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكُّرُوا فَإِذَا هُمْ مَبْصُرُونَ﴾ وإلى ما يشك فيه فينبغي أن يمرض ذلك على شيخه، بل كل ما يجد في قلبه من الأحوال من فترة أو نشاط أو التفات إلى علقه أو صدق في إرادة فينبغي أن يظهر ذلك لشيخه، وإن يستره عن غيره فلا يطلع عليه احداً، ثم إن شيخه ينظر في حاله ويتأمل في ذكائه وكياسته: فلو علم أنه تركه وأمره بالفكر تبه من نفسه على حقيقة الحق فينبغي أن يحيله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقف في قلبه من النور ما يكشف له حقيقته، وإن علم

أن ذلك مما لا يقوى عليه مثله رده إلى الاعتقاد القاطع بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه ، وينبغي أن يأتي الشيخ ويتلفظ به فإن هذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها ، فكم من مرید اشتغل بالريضة فغلب عليه خيال فاسد لم يقو على كشفه فاقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الإباحة ؟ وذلك هو الهلاك العظيم . ومن يجرّد لذكر ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه ليخل عن أمثال هذه الأفكار فإنه قد ركب سفينة الخطر ، فإن سلم كان من ملوك الدين وإن أخطأ كان من أهل الكين . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بدین العجائز (١) » وهو تلقى أصل الإيمان وظاهر الاعتقاد بطريق رقيق التقليد والاشتغال بأعمال الخير . فإن الخطر في المدلول عن ذلك كثير . ولذلك قيل يجب على الشيخ أن يفرس في المرید فإن لم يكن ذكياً فقلنا متمكناً من اعتقاد الظاهر لم يشغله بالذكر والفكر ، بل يرده إلى الأعمال الظاهرة والأوراد المتواترة ، أو يشغله بخدمة المتجربين للفكر لتفصله بركتهم فإن الماجز عن المجاهد في صف القتال ينبغي أن يسقى القوم ويصعد دواجم ليحشر يوم القيامة في ذميرهم وقمعه بركتهم ، وإن كان لا يبلغ درجتهم ، ثم المرید المتجرّد لذكر والفكر قد يقطع قواطع كثيرة من العجب والرياء والفرح بما ينكشف له من الأحوال وما يبدو من أوائل الكرامات . ومهما انفتحت إلى شيء من ذلك وشغلت به نفسه كان ذلك قورا في طريقه ووقفاً ، بل ينبغي أن يلازم حاله جملة عمره ملازمة العطفان الذي لا ترويه البحار ولو أقيضت عليه وبدوم على ذلك ، ورأس ماله الانقطاع عن الخلق إلى الحق والخلق .

قال بعض السياحين : قلت لبعض الأبدال المتقطعين عن الخلق كيف الطريق إلى التحقيق ؟ فقال أن تكون في الدنيا كأنتك طارطريق . وقال مرة : قلت له داني على عمل أجد قلبي فيه مع الله تعالى على الدوام فقال لي : لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلة ، قلت : لا بد لي من ذلك ، قال : فلا تسبح كلامهم فإن كلامهم قسوة ، قلت : لا بد لي من ذلك ، قال : فلا تاملهم فإن ماملتهم وحشة ، قلت : أنا بين أظهرهم لا بد لي من ماملتهم ، قال فلا تسكن إليهم فإن السكن إليهم هلوسة ، قلت : هذا لمة ، قال : يا هذا أنتظر إلى الغافلين وتسبح كلامهم الجاهلين وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام ؟ هذا ما لا يكون أبداً .

فإذا انتهى الريضة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره ولا يخلو عن غيره إلا بطول المجاهدة ، فإذا حصل قلبه مع الله تعالى انكشف له جلال الحضرة الربوبية ويحلى له الحق ويظهر له من لطائف الله تعالى ما لا يجوز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلاً ، وإذا انكشف للمرید شيء من ذلك فأعظم القواطع عليه أن يتكلم بدعوى ونصحا ويتصدى لذكر فتجد النفس فيه لذة ليس ورامها لذة ، فتدعو تلك اللذة إلى أن يتفكر في كيفية إيراد تلك اللذة وتحسين الألفاظ المعبرة عنها وترتيب ذكرها وتزيينها بالحكايات وشواهد القرآن والأخبار وتحسين صنعة الكلام لتبيل إليه القلوب والاسماع ، فربما يخيل الشيطان أن هذا إحياء منك لقلوب الموق الغافلين عن الله تعالى ، وإنما أنت واسطة بين الله تعالى وبين الخلق تدعو عباده إليه ومالك فيه نصيب ولا لنفسك فيه لذة ، ويضع كيد الشيطان بأن يظهر في أقرانه من يكون أحسن كلاماً منه واجزل لفظاً وأقدر على استجلاب قلوب العوام ، فإنه يتحرك في باطنه عقرب الحسد لأعماله إن كان محركه كيد القبول وإن

(١) حديث «عليكم بدین العجائز» قال ابن طاهر في كتاب التذكرة هذا التلقف تداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة حتى رأيت حديثاً لمحمد بن عبد الرحمن بن السلمي عن ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم «إذا كان في آخر الزمان واختلف الأهواء فليكن بدين أهل البداية» والنسائي وابن السلمي له عن أبيه عن ابن عمر نسخة كان يهتم بوضعها انتهى وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه ابن حبان في الضعفاء في ترجمة ابن السلمي والله أعلم

كان محرکه هو الحق حرصا على دعوة عباد الله تعالى إلى صراطه المستقيم فيعظم به فرحه ويقول : الحمد لله الذى عضدنى وأيدنى بمن وأزددنى على إصلاح عباده . كالتى وجب عليه مثلا أن يحمل ميتا ليدفنه إذ وجدته ضائعا وتعين عليه ذلك شرما لجاء من أعانه عليه فإنه يفرح به ولا يحسد من يمينه ، والعاقلون موتى القلوب ، والوعاظ هم المنهون والمحيون لهم ففي كثرتهم استرواح وتناصر فينبغي أن يعظم الفرح بذلك ، وهذا عزير على الوجود جدا فينبغي أن يكون المريد على حذر منه فإنه أعظم جائل الشيطان في قطع الطريق على من اقتضت له أوائل الطريق ، فإن لإيثار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان ولذلك قال الله تعالى ( بل تَوَرَّثُونَ الحياة الدنيا ) ثم بين أن الشر قديم في الطباع وأن ذلك مذكور في الكتب السابقة فقال ( إن هذا لى الصصف الأولى صحف إبراهيم وموسى ) فهذا محتاج رياضة المريد وتربيته في التدرج إلى لقاء الله تعالى . فأما تفصيل الرياضة في كل صفة فسيأتى فإن أغلب الصفات على الإنسان بعته وفرجه ولسانه - أحنى به الشهوات المتعلقة بها - ثم الغضب الذى هو كالجند لحماية الشهوات ثم مهما أحب الإنسان شهوة البطن والفرج وأنفسهما أحب الدنيا ، ولم يتمكن منها إلا بالمال والجاه ، وإذا طلب المال والجاه حدث فيه الكبر والعجب والرياسة ، وإذا ظهر ذلك لم تسمح نفسه بترك الدنيا رأسا وتحسك من الدين بما فيه الرياضة وغلب عليه الغرور .

فلذا وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين أن نتكلم ريع المهلكات بثمانية كتب إن شاء الله تعالى : كتاب في كسر شهوة البطن والفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب في كسر الغضب والحقد والحسد ، وكتاب في ذم الدنيا وتفصيل خدعها ، وكتاب في كسر حب المال وذم البخل ، وكتاب في ذم الرياء وحب الجاه ، وكتاب في ذم الكبر والعجب ، وكتاب في مواقع الغرور . ويدكر هذه المهلكات وتعلم طرق المعالجة فيها يتم غرضنا من ريع المهلكات إن شاء الله تعالى فإن ما ذكرناه في الكتاب الأول هو شرح لصفات القلب الذى هو معدن المهلكات والمنتجات ، وما ذكرناه في الكتاب الثانى هو إشارة كلية إلى طريق تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلوب ، أما تفصيلها فإنه يأتى في هذه الكتب إن شاء الله تعالى . ثم كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

## كتاب كسر الشهوتين

وهو الكتاب الثالث من ريع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بالجلال في كبرياته وتعالى ، المستحق للحميد والتقدس والتسبيح والتزبيح ، القائم بالعدل فيما يرمه ويقتضيه ، المتطول بالفضل فيما ينعم به ويسديه ، المتكفل بحفظ عبده في جميع مواردته ومجاريه ، المنعم عليه بما يزيد على مهمات مقاصده بل بما يتجاوز ما يمانيه ، فهو الذى يرشده ويهديه ، وهو الذى يميته ويحييه ، وإذا مرض فهو يشفيه ، وإذا ضحك فهو يقيوه ، وهو الذى يوققه للطاعة ويرتضيه ، وهو الذى يطمعه ويسقيه ، ويحفظه من الهلاك ويحميه ، ويحرسه بالطعام والشراب عما يملكه ويرديه ، ويمكنه من القناعة بقليل القوت ويقره حتى تضيق به مجارى الشيطان الذى بناؤه ، ويكسر به شهوة النفس التى تعاديه فيدفع شرما ثم يعبد ربه ويقتضيه ، هذا

بعد أن يوسع عليه ما يلتذ به ، ويشتهيه ، ويكثر عليه ما يبيع بواضه ويؤكد دواعيه ، كل ذلك يمتحنه به ويبتليه ، فينظر كيف يؤثر على ما يهواه ويتحبه وكيف يحفظ أوامرہ ويتهى عن نواهيہ ، ويواظب على طاعته وينزجر عن معاصيہ ، والصلاة على عبد عبد النبي ، ورسوله الوجيہ ، صلاة تلتفه وتحطيه ، وترفع منزلته وتعليه ، وعلى الأبرار من عثرته وأقربيه ، والأخيار من صحابته وتابعيه .

أما بعد : فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن ، فها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار النذل والافتقار ، إذ نهبوا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلتا منها فبنت لهما سواتهما . والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات ، إذ يقبها شهوة الفرج وشدة الشبق إلى المنكوحات ، ثم تنبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في الجماء والمال الذين هما وسيلة إلى التوسع في المنكوحات والمطعومات ، ثم يتبع استكثار المال والجماء أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسبات ، ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغاللة التفاخر والتكاثر والكبرياء . ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء ، ثم يفضى ذلك بصاحبه إلى احتكام البغى والمنكر والفحشاء وكل ذلك ثمرة إعمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء ، ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجارى الشيطان لأذعن طاعة الله عز وجل ولم تسلك سبيل البطر والعطيان ، ولم تنجر به ذلك إلى الانهماك في الدنيا وإثارة المعالجة على المعنى ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا ، وإذا عظمت آفة شهوة البطن إلى هذا الحد وجب شرح غوائلها وآفاتنا تحذيراً منها ، ووجب إضاح طريق المجاهدة لها والتنبيه على فضلها ترغيباً فيها ، وكذلك شرح شهوة الفرج فإنها تامة لها . ونحن نوضح ذلك بعون الله تعالى في فصول يجمعها بيان فضيلة الجوع ثم فوائد ثم طريق الرياضة في كسر شهوة البطن بالتقليل من الطعام والتأخير ، ثم بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس ، ثم بيان الرياضة في ترك الشهوة ، ثم القول في شهوة الفرج ، ثم بيان ما على المريد في ترك التزويج وقضه ، ثم بيان فضيلة من يخالف شهوة البطن والفرج والعين .

### بيان فضيلة الجوع وذم الشبع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله وإنه ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش» (١) وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا يدخل ملكوت السماء من لم يأب طبعه» (٢) وقيل يارسل الله أى الناس أفضل ؟ قال «من قل مطعمه وضحكه ورضى بما يستره عورته» (٣) وقال النبي صلى الله عليه وسلم «سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف» (٤) وقال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «البسوا وكلاوا واشربوا في أنصاف البطون فإنه جزء من النبوة» (٥) وقال الحسن : قال النبي صلى الله عليه وسلم «التفكر نصف العبادة وقلة الطعام هى العبادة» (٦) وقال الحسن أيضاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفضلكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعاً وتفكيراً فى الله سبحانه ، وأبفضكم

#### كتاب كسر الشهوتين

- (١) حديث «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش» لم أجده أصلاً (٢) حديث ابن عباس «لا يدخل ملكوت السموات من لم يأب طبعه» لم أجده أيضاً (٣) حديث : أى الناس أفضل قال «من قل مطعمه وضحكه ورضى بما يستر عورته» بآى الكلام عليه وعلى ما به من الأحاديث (٤) حديث «سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف» (٥) حديث أبي الخدرى «البسوا وكلاوا واشربوا في أنصاف البطون» (٦) حديث «التفكر هى نصف العبادة وقلة الطعام هى العبادة» .



عند الله عز وجل يوم القيامة كل ثوم أكل شروب<sup>(١)</sup> وفي الخبر: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجوع من غير عوز<sup>(٢)</sup> أي اختار ذلك وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى يباهي ملائكته بمن قل مطعمه ومشربه في الدنيا يقول الله تعالى انظروا إلى عبدي ابتلي بالطعام والشراب في الدنيا صبر وتركهما اشهدوا باملائكتي ما من أكلة يدعيها إلا أبدلته بها ودخلت في الجنة<sup>(٣)</sup>» وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يمتلئ القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزورج يموت إذا كثرت عليه المياه<sup>(٤)</sup>» وقال صلى الله عليه وسلم: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وإن كان لا بد فاعلا فلك طعامه وتلك لشرابه وتلك لنفسه<sup>(٥)</sup>» وفي حديث أسامة بن زيد وحديث أبي هريرة الطويل ذكر فضيلة الجوع إذ قال فيه: «إن أقرب الناس من الله عز وجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا، الأخفاء الأتقياء الذين إن شهدوا لم يعرفوا وإن غابوا لم يفتقدوا، ثم فهم بقاع الأرض وتحف بهم ملائكة السماء نعم الناس بالدنيا ونصوا بطاعة الله عز وجل. افترش الناس الفرش الوثيرة وافرشوا الجباه والركب، ضيع الناس فعل التبيين وأخلاقهم وحفظوهم، تكي الأرض إذا فقدتهم ويسخط الجبار على كل بلدة ليس فيها منهم أحداً يتكالبوا على الدنيا تكالب الكلاب على الجيف أكلوا الباق ولبسوا الحرق شعماً غيراً يرام الناس فيظنون أن بهم داء وما بهم داء، ويقال قد خولطوا ذهبت عقولهم وما ذهبت عقولهم ولكن نظر القوم بقولهم إلى امرأته الذي أذهب عنهم الدنيا، فهم عند أهل الدنيا عيسون بلا عقول عطلوا حين ذهبت عقول الناس، لهم الشرف في الآخرة، يا أسامة إذا رأيته في بلدة قاعل انهم أمان لأهل تلك البلدة ولا يملأ الله قوماً فهم. الأرض بهم فرحة والجبار عنهم راض. اتخذهم لنفسك إخوة عسى أن تجوهم. وإن استعلمت أن يأتيك الموت ويهلكك جائع وكبدك ظمان قاعل. فانك تدرك بذلك شرف المنازل وتحمل مع التبيين. وتفرح بتقدم روسك الملائكة ويصلي عليك الجبار<sup>(٦)</sup>».

روى الحسن عن أبي هريرة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «البسوا الصوف وشمروا وكفوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء<sup>(٧)</sup>» وقال عيسى عليه السلام: يامعشر الجوارين أجمعوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل<sup>(٨)</sup>. وروى ذلك أيضاً عن نبيتنا صلى الله عليه وسلم رواء طاوس. وقيل مكتوب في التوراة: إن الله لينفض العير السمين لأن السمن يدل على الغفلة وكثرة الأكل وذلك فيبيع خصوصاً بالبحر. ولأجل ذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الله تعالى يفيض القاري السمين وفي خبر مرسل «إن

- (١) حديث الحسن «أفضلكم عند الله أطولكم جوعاً وتشكيراً... الحديث» لم أجده لهذه الأحاديث التقديمية أصلاً  
(٢) حديث: كان يجوع من غير عوز - أي اختار لذلك - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث عائشة: قالت لو شئنا أن ننجع لشعبنا ولكن محمدًا ﷺ كان يؤثر على نفسه. وإسناده مضطرب. (٣) حديث «إن الله يباهي الملائكة بمن قل مطعمه في الدنيا... الحديث» أخرجه ابن عدي في الكامل وقد تقدم في الصيام. (٤) حديث «لا يمتلئ القلوب بكثرة الطعام والشراب... الحديث» لم أقف له على أصل. (٥) حديث «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث للقدماء وقد تقدم. (٦) حديث أسامة بن زيد وأبي هريرة «أقرب الناس من الله يوم القيامة من طال جوعه وعطشه... الحديث» بطوله أخرجه الخطيب في الزهد من حديث سعيد بن زيد قال: سمعت النبي ﷺ وأقبل على أسامة بن زيد فذكره مع تقديم وتأخير، ومن طريقه رواه ابن الجوزي في الموضوعات وفي حباب بن عبد الله بن جيلة أحد الكذابين وفيه من لا يعرف وهو منقطع أيضاً ورواه ابن الحارث بن أبي أسامة من هذا الوجه. (٨) حديث الحسن عن أبي هريرة «البسوا الصوف وشمروا وكفوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف  
(٨) حديث طاوس مرسل «أجمعوا أكبادكم... الحديث» لم أجده أيضاً.

الشیطان لیجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش (١) « وفي الخبر » إن الأكل على الشبع يورث البرص (٢) « وقال صلى الله عليه وسلم » المؤمن يأكل في موى واحد والمتفق يأكل في سبعة أمعاء (٣) « أى يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن أو تكون شهوة سبعة أضعاف شهوته . وذكر المصنف كتابه عن الشهوة لأن الشهوة هي التي تقبل الطعام وتأخذها كما يأخذ الموى . وليس المعنى زيادة عدد موى المتفق على موى المؤمن . وروى الحسن عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أدبوا قريع باب الجنة يفتح لكم » قلت كيف ندبهم قريع باب الجنة ؟ قال « بالجوع والعطش » (٤) « وروى « أنا أبا جحيفة نجشأ في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له « أقصر من جشاعتك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدنيا » (٥) « وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعاً وربما بكيت راحة بما أرى بمن الجوع فأصبح يلهى يمينى وأقول : نفسى لك القداء لو تلبغت من الدنيا بقدر ما يقويك ويمتلك من الجوع » فيقول « يا عائشة إخوانى من أبولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فاضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مأهم وأجزل ثوابهم فأجذبى أستجى إن ترهت في معيشى أن يقصر في غداً دونهم فالصبر أياً ما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظى غداً في الآخرة وما من شيء أحب إلى من اللزوق بأصحابى وإخوانى » قالت عائشة : فو الله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله إليه (٦) « وعن أنس قال : جاءت فاطمة رضوان الله عليها بكسرة خبز إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ماهذه الكسرة » قالت : قرص خبزته ولم تطلب نفسى حتى أتيتك منه هذه الكسرة » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما إنه أول طعام دخل فم أهلك منذ ثلاثة أيام » (٧) « وقال أبو هريرة : ما أشبع النبي ﷺ أهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا (٨) « وقال ﷺ « إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة وإن أبغض الناس إلى الله المتخمون للملأى وما ترك عبد أكلة يشبهها إلا كانت له درجة في الجنة » (٩) .

وأما الآثار : فقد قال عمر رضى الله عنه : إياكم والبطنة فإنها تمهل في الحياة تن في المات . وقال شقيق البليلى : العبادة حرة حانونها الحلة وأتتها الجماعة . وقال لقمان لابنه : يا بني إذا ملأت المعدة نامت الفسكرة وخرست الحكمة وقملت الأعضاء عن العبادة . وكانت الفضيل بن عياض يقول لنفسه : أى شيء تخافين ؟ تخافين أن تقوصي ؟ لا تخافين ذلك ؟ أنت أهون على الله من ذلك إنما يجوع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وكان كهمس يقول لى

- (١) حديث « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم .. الحديث » تقدم في الصيام دون الزيادة التي في آخره وذكر للصف هنا أنه مرسل وللرسل رواه ابن أبي الدنيا في مكابيد الشيطان من حديث علي ابن الحسين دون الزيادة أيضاً (٢) حديث « إن الأكل على الشبع يورث البرص » لم أجده أصلاً . (٣) حديث « المؤمن يأكل في موى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء » متفق عليه من حديث عمرو وحديث أبي هريرة . (٤) حديث الحسن عن عائشة « أدبوا قريع باب الجنة ... الحديث » لم أجده أيضاً . (٥) حديث : « إن أبا جحيفة نجشأ في مجلس النبي ﷺ فقال « أقصر من جشاعتك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدنيا » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي جحيفة وأصله عند الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر : نجشأ رجل ... الحديث لم يذكر أبا جحيفة . (٦) حديث عائشة : أنه ﷺ لم يمتلئ قط شبعاً وربما بكيت راحة لما أرى به من الجوع ... الحديث أخرجه أبو موسى للنسائي مطولاً في كتاب استئجار الموت وأورد منه عياض في الشفاء . (٧) حديث أنس : جاءت فاطمة بكسرة خبز لرسول الله ﷺ ... الحديث . أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده بسند ضعيف . (٨) حديث أبي هريرة : ما شبع النبي ﷺ ثلاثة أيام من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا ... أخرجه مسلم وقد تقدم . (٩) « إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة » أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف .

أجمعتي وأعريتني وفي ظلم الليالي بلا مصباح أجلسيتي قباي وسيلة بلعتي ؟ وكان فتح الموصل إذا اشتد مرضه وجوعه يقول : إلمى ابتليتني بالمرض والجوع وكذلك تفعل بأوليائك قباي عمل أودى شكر ما أنعمت به علي ؟ وقال مالك ابن دينار : قلت لمحمد بن واسع يا أبا عبد الله طوي لمن كانت له غليظة تقوته وتفتيه عن الناس فقال لي : يا أبا يحيى طوي لمن أسمى وأصبح جائعا وهو عن الله واضح .

وكان الفضيل بن عياض يقول : إلمى أجمعتي وأجمعت عيالي وتركني في ظلم الليالي بلا مصباح وإنما تفعل ذلك بأوليائك قباي منزلة نلت هذا منك ؟ وقال يحيى بن معاذ : جوع الراغبين منبهة وجوع الثابتين تجربة وجوع المجتهدين كرامة وجوع الصائرين سياسة وجوع الزاهدين حكمة . وفي التوراة اتق الله وإذا شبعتم فاذكروا الجوع .

وقال أبو سليمان : لأن أترك لقمة من عشاي أحب لي من قيام ليلة إلى الصبح . وقال أيضاً : الجوع عند الله في غزائته لا يعطيه إلا من أحبه . وكان سهل بن عبد الله التستري يطوى نيفا وعشرين يوماً لا يأكل ، وكان يكفيه الطعام في السنة درهم ، وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال : لا يوافي القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في أكله . وقال : لم ير الأكياس شيئاً أضع من الجوع للدين والدنيا وقال : لا أعلم شيئاً أضر على طلاب الآخرة من الأكل . وقال : وضعت الحكمة والعلم في الجوع وضعت المعصية والجهل في الشبع . وقال : ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى في ترك الحلال . وقد جاء في الحديث « نلت الطعام فن زاد عليه قائماً يأكل من حسنة » (١) وسئل عن الزيادة فقال : لا يجد الزيادة حتى يكون الترك أحب إليه من الأكل ، ويكون إذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليئين ، فإذا كان ذلك وجد الزيادة . وقال ما صار الأبدال أبدالاً إلى باخماس البطون والسر والسمت والحلوة . وقال : رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع ورأس كل جور بينهما الشبع . وقال : من جوع نفسه انقطعت عنه الوسوس . وقال : إقبال الله عز وجل على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء الله . وقال : اعلوا أن هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسر والجهل . وقال : ما مر علي وجه الأرض أحد شرب من هذا الماء حتى روى فسلم من المعصية سوان شكر الله تعالى - فكيف الشبع من الطعام ؟

وسئل حكيم : بأي قيد أقيد نفسي ؟ قال : قيدها بالجوع والعطش ، وذلكها باخمال الذكر وترك العز ، وصرفها بوضعتها تحت أرجل أبناء الآخرة ، وأكرها بترك زى الثراء عن ظاهرها ، وانج من آفاتهما بدوام سوء الظن بها واصحبها بخلاف هواها . وكان عبد الواحد بن زيد يقسم بالله تعالى إن الله تعالى ما صافى أحداً إلا بالجوع ولا مشوا على الماء إلا به ، ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع ، ولا تولاهم الله تعالى إلا بالجوع ، وقال أبو طالب المسكي : مثل البطن مثل المزهر وهو العود المجوف ذو الأوتار - إنما حسن صوته لحفته ورقته ولأنه أجوف غير ممتلئ ، وكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للنائم . وقال أبو بكر بن عبد الله المزني : ثلاثة يحبهم الله تعالى ؛ رجل قليل النوم قليل الأكل قليل الراحة .

وروي أن عيسى عليه السلام مكث يتأجر بمسكين صباحاً لم يأكل لخطر ياله الخبز فاقتطع عن المناجاة فاذا رغب موضوع بين يديه ، فجلس يبكي على فقد المناجاة وإذا شيخ قد أظله فقال له عيسى : بارك الله فيك يا أول الله ادع الله تعالى لي فاني كنت في حالة لخطر يالي الخبز فاقتطعت عني ، فقال الشيخ : اللهم إن كنت تعلم أن الخبز خطر يالي منذر فلك فلا تنفري ، بل كان

إذا حضرتي شيء أكلته من غير فكر وغاطر . وروى أن موسى عليه السلام لما قربته الله عز وجل نجما كان قد ترك الأكل أربعين يوما - ثلاثين ثم حضرا - على ما ورد به القرآن ، لأنه أسكب بخير تبديت يوما فزيد عشرة لأجل ذلك .

### بيان فوائد الجوع وآثار الشبع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر في ذلك » وملك تقول : هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو ؟ وما سببه ؟ وليس فيه إلا إيلام المعدة ومقاساة الأذى ؟ فإن سكان كذلك فينبغي أن يعظم الأجر في كل ما يأتى به الإنسان من ضرر به لنفسه وقطعه للحمه وتناول الأكل المشكوك وما يجرى مجراه ؟ فاعلم أن هذا يضاهي قول من شرب دواء فانتفع به ووطن أن منفعته لكرامة الدواء وممراته ، فأخذ يتناول كل ما يكره من المذاق وهو غلط ، بل قطع في خاصية في الدواء وليس لكونه مرا ، وإنما يقف على تلك الخاصية الأطباء ، فكذلك لا يقف على علة نفع الجوع إلا ممارسة العلماء ، ومن جوع نفسه مصداقا لما جاء في الشرع من مدح الجوع انتفع به وإن لم يعرف علة المنفعة ، كما أن من شرب الدواء انتفع به وإن لم يعلم وجه كونه نافعا .

ولسنا نشرح لك إن أردت أن ترتقي من درجة الإيمان إلى درجة العلم قال الله تعالى ( يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات ) فتقول : في الجوع عشر فوائد :

الفائدة الأولى : صفاء القلب وإيقاد الفريجة وإيقاد البصيرة ، فإن الشبع يورث البلاهة ويعمي القلب ، ويكسر البخار في الدماغ شبه السكر حتى يحوى على معادن السكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك ، بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه وقصد ذهنه وصار بطيء الفهم والإدراك . وقال أبو سليمان الداراني : عليك بالجوع فإنه منة لنفس ورة القلب وهو يورث العلم السليم . قال صلى الله عليه وسلم « أحبوا قلوبكم بقلة الضحك وقلة الشبع وطهورها بالجوع تصفو وترقى »<sup>(١)</sup> ويقال : مثل الجوع مثل الرعد ، ومثل القنطرة مثل السحاب ، والحكمة كاللطر . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من أجاع بطنه عظمت فكرته وطفن قلبه »<sup>(٢)</sup> وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم « من شبع ونام قسا قلبه » ثم قال « لكل شيء زكاة وزكاة البدن الجوع »<sup>(٣)</sup> وقال النزيل : ما جئت لله يوما إلا رأيت في قلبي بابا مفتوحا من الحكمة والعبرة ما رأته قط . وليس يعني أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بمحقق الحق ، والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه ، والمعرفة باب من أبواب الجنة فبالحرى أن تكون ملازمة الجوع فرعا لباب الجنة . ولهذا قال لقمان لابنه : يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وغرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة . وقال أبو يزيد البسطامي : الجوع سحب فإذا جامع البعد أملأ القلب الحكمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « نور الحكمة الجوع ، والتباعد من الله عز وجل الشبع ، والقربة إلى الله عز وجل حب المساكين والدنؤ منهم . لا تشبعوا

(١) « أحبوا قلوبكم بقلة الضحك وطهورها بالجوع تصفو وترقى » لم أجده أصلا .

(٢) « من أجاع بطنه عظمت فكرته وطفن قلبه » كذلك لم أجده أصلا .

(٣) « من شبع ونام قسا قلبه » ثم قال « إن لكل شيء زكاة وإن زكاة الجسد الجوع » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة « لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم » وإسناده ضعيف .

تقتطروا نور الحكمة من قلوبكم ومن بات في خفة من الطعام بات المحور حوله حتى يصبح (١) .

الفائدة الثانية : رقة القلب وصفائه الذي به يتبأ لإدراك لذة المتأثرة والتأثر بالذكر ، فكم من ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كان بينه وبينه حجاباً من قسوة القلب ، وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة ، وخطو الملعقة هو السبب الأظهر فيه . وقال أبو سليمان الداراني : أحلى ما تكون إلى العبادة إذا التصق ظهري ببطني ، وقال الجنيد : يعمل أحدم بينه وبين صدره غلالة من الطعام ويريد أن يجد حلالة المناجاة . وقال أبو سليمان : إذا جاع القلب وعطش صبا ورق ، وإذا شبع عوى وغلط ، فإذا تأثر القلب بلذة المناجاة أمر وراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة فهي فائدة ثانية .

الفائدة الثالثة : الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأثر الذي هو مبدأ العطفان والنفقة عن الله تعالى ، فلا تنكسر النفس ولا تذلل بشيء كما تذلل بالجوع فعنده تسكن لربها وتخضع له وتقف على مجراها وذلك إذا ضعف منها وضائق حيلتها بلقيمة طعام فأبتها ، وأظلت عليها الدنيا لشربه ماء تأخرت عنها ، ومالم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاه ولا فخره ، وإنما سعادته في أن يكون دائماً مشاهداً نفسه بين الدل والعجز ومولاه بين العز والقدرة والثر ، فليكن دائماً جائعاً مضطراً إلى مولاه مشاهداً للاضطراب بالنوق ، ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبي صلى الله عليه وسلم قال لا بل أجوع يوماً وأشبع يوماً فإذا جمعت صبرت وتضرعت وإذا شبعت شكرت (٢) ، أو كما قال . قال بلطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع ، والذل والانكسار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع ، ومن أغلق باباً من أبواب النار فقد فتح باباً من أبواب الجنة بالضرورة لأنهما متقابلان كالشرق والغرب ، فالتقرب من أحدهما يبعد الآخر .

الفائدة الرابعة : أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ، ولا ينسى أهل البلاء فإن الشبان ينسى الجائع ، وينسى الجوع ، والعبد القطن لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويذكر بلاء الآخرة ، فيذكر من عطشه عطش الخائف من حرصات القيامة ، ومن جوعه جوع أهل النار ، حتى إنهم ليجوعون فيطعمون الضريع الزقوم ويسقون الفساق والمهل ، فلا ينبغي أن ينسب عن العبد عذاب الآخرة والآلهة ، فإنه هو الذي يبيع الخوف ، فمن لم يكن في ذلة ولا علة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يشغل في نفسه ولم يطلب على قلبه ، فينبغي أن يكون العبد في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء ، وأولى ما يقاسيه من البلاء الجوع فإن فيه فوائد جمعة سوى تذكر عذاب الآخرة ، وهذا أحد الأسباب الذي اقتضى اختصاص البلاء بالإنبياء والأولياء . والأمثل فالأمثل ولذلك قيل ليوسف عليه السلام : لم تجوع وفي يدك خزان الأرض ؟ فقال : أعاف أن أشبع فأني الجائع ، فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله عز وجل ، والشبان في غفلة عن ألم الجائع .

الفائدة الخامسة : وهي من أكبر العوائد : كسر شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الأمانة بالسوء ، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى ، ومادة القوى والشهوات لاعماله الأطمعة ، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة ، وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه ، والشقاوة في أن تملكه نفسه ، وكما أنك لا تملك البداية الجوع إلا يضعف الجوع فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت ، فكذلك النفس ، كما قيل لبعضهم : ما يالك مع كبرك لا تمهد بذلك

(١) « نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع ... الحديث ذكره أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وكتب عليه إنه مسند وهي علامة مارواه بإسناده .

(٢) « أجوع يوماً وأشبع يوماً ... الحديث » تقدم وهو عند الترمذي .

وقد اتهد ؛ فقال : لأنه سريع المرح فاحش الأثر فأخاف أن يجمع في فيورطني ، فلأن أحمله على الشدائد أحب إلى من أن يحملني على الفواحش ، وقال ذو النون : ما شبت قط إلا عصيت أو عصمت بمصيبة . وقالت عائشة رضي الله عنها : أول بدنة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ الشبع .

إن القوم لما شبت يطونهم جمعت بهم قوسهم إلى هذه الدنيا وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزائن الفوائد . ولذلك قيل الجوع خزانة من خزائن الله تعالى وأقل ما يتدفع بالجوع : شهوة الفرج وشهوة الكلام ، فإن الجائع لا تحرك عليه شهوة فضول الكلام ليتخلص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والتمية وغيرها ؛ فيمنعه الجوع من كل ذلك وإذا شبع افتر إلى فاكهة فيفسدها لا حاجة بأعراض الناس ؛ ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم .

وأما شهوة الفرج : فلا تخفى غائتها ؛ والجوع يكتي شرها . وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه ، وإن منعه التقوى فلا يملك عينه ، فالعين ترى كما أن الفرج يرى ، فإن ملك عينه بنض الطرف فلا يملك فكره ، فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة وما يتشوش به مناجاته ، وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة .

وإنما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالا ، وإلا لجميع معاصي الأعضاء السبعة سببا القوة الحاصلة بالشبع . قال حكيم : كل مريد صبر على السياسة فيصبر على الحذر البحت سنة لا يخطئ به شيئا من الشهوات وبأكل في نصف بطنه رفع الله عنه مؤنة النساء .

الفائدة السادسة : دفع النوم ودوام السهر ، فإن من شبع شرب كثيرا ، ومن أكثر شربه أكثر نومه . ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام : معاش المريدين لأننا كلوا كثيرا اقشروا كثيرا فترقدوا كثيرا فتخسروا كثيرا . وأجمع رأى سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة الشرب . وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلاذة الطبع وقساوة القلب . والعمر أقس الجواهر وهو رأس مال المبدقيه يتجر ، والنوم موت فسكنير ينفص العمر ، ثم فضيلة التهجد لا تخفى وفي النوم فواتها . ومهما غلب النوم فإن تهجد لم يجد حلالة العبادة ، ثم المنعزب إذا نام على الشبع أحلم ومنعه ذلك أيضا من التهجد ، ويحوجه إلى الفصل إما بالمساء البارد فيتأذى به أو يحتاج إلى الحمام وربما لا يقدر عليه بالليل ، فيفوته الوتر إن كان قد أخره إلى التهجد ، ثم يحتاج إلى مؤنة الحمام وربما تقع عينه على عورة في دخول الحمام ، فإن فيه أخطارا ذكرناها في كتاب الطهارة وكل ذلك أثر الشبع . وقد قال أبو سليمان الداراني : الاحتلام عقوبة ، وإنما قال ذلك لأنه يمنع من عبادات كثيرة لتعذر النسل في كل حال . فالنوم منيع الآفات ، والشبع مجلبة له ، والجوع مقطعة له .

الفائدة السابعة : تيسير المراقبة على العبادة فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل ، وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه ، ثم يحتاج إلى غسل اليد والخلال ، ثم يكثر ترداده إلى بيت الماء لكثرة شربه ، والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه . قال السري رأيت مع علي الجرجاني سويقا يستفسمته فقلت : ماحلك على هذا ؟ قال : إني حسبت ما بين المضغ إلى الاستغاف سبعين تسليحة فسا مضغت الحزب منذ أربعين سنة ، فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضعه في المضغ . وكل نفس من العمر جوهره نفيسة لا قيمة لها فيلبيح أن يستوفي منه خزانة باقية في الآخرة لا آخر لها وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته .

ومن جملة ما يعتد بكثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد . فإنه يحتاج إلى الخروج لكثرة شرب الماء .

وإراقة ، ومن جعله الصوم فإنه يتيسر لمن تعود الجوع ، فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة ، وإنما يستحرمها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين لكن رضوا بالحياة الدنيا واعلموا أنها ﴿ يبدلون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ .

وقد أشار أبو سليمان الداراني إلى ست آفات من الشبع فقال: من شبع دخل عليه ست آفات : فقد حلاوة المناجاة وتعلو حفظ الحكمة ، وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع يظن أن الخلق كلهم شباب ، وتقل العبادة ، وزيادة الشهوات ، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد ، والشباب يدورون حول المزايل .

الفائدة الثامنة : يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض ، فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط في المصدة والعروق ، ثم للمرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر وينقص العيش ويخرج إلى الفصد والحجامة والطبيب . وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يحيط الإنسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصي واقترام الشهوات ، وفي الجوع ما يمنع ذلك كله .

حكى أن الرشيد جمع أربعة أطباء : هندي ، ورومي ، وصرافي ، وسوادي ، وقال ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لاداء فيه . فقال الهندي : الدواء الذي لاداء فيه هندي هو الإهليلج الأسود ، وقال العراقي : هو جب الرشاد الأبيض ، وقال الرومي : هو عندى المساء الحار ، وقال السوادي : وكان أعلمهم الإهليلج ينقص المعدة وهذا داء ، وحب الرشاد يلقى المعدة وهذا داء ، والماء الحار يرغى المعدة وهذا داء قالوا فافضلك ؟ فقال : الدواء الذي لاداء معه هندي أن لا تأكل الطعام حتى تشبعه ، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشبعه فقالوا : صدقت وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ثلاث الطعام وثلاث الشراب وثلاث التنفس <sup>(١)</sup> ﴾ فتعجب منه وقال ما سمعت كلاماً في قلة الطعام أحكم من هذا وإنه لكلام حكيم ، وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ البطنة أصل الداء والحلية أصل النوم <sup>(٢)</sup> ﴾ ووجدوا كل جسم ما اعتاد <sup>(٣)</sup> ، وأظن تعجب الطبيب جرى من هذا الخبر لأن ذلك وقال ابن سالم : من أكل خبز الحنطة يحتاج بأدب لم يعتل إلا لعله الموت . قيل : وما الأدب ؟ قال : تأكل بعد الجوع وترفع قبل الشبع وقال بعض أفاضل الأطباء في ذم الاستكثار : إن أنقع ما أدخل الرجل بطنه الرمان وأضر ما أدخل معدته المالح ، ولأن يقلل من المسالخ خير له من أن يستكثر من الزمان . وفي الحديث « صوموا تصحوا » <sup>(٤)</sup> ، ففي الصوم والجوع وتعليل الطعام صحة الأجسام من الأسقام وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرها .

الفائدة التاسعة : خفة المؤنة فإن من تعود قلة الأكل كفاء من المال قدر يسير ، والذي تعود الشبع صار بطنه غريباً ملازماً له اتخذاً بمنخفه في كل يوم ، فيقول ماذا تأكل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل المداخل ، فيكتسب من الحرام فيمضي أو من الحلال فيقتل . وربما يحتاج إلى أن يعد أعين الطمع إلى الناس وهو غاية الذل والقناعة والمؤمن خفيف المؤنة . وقال بعض الحكماء : إنى لأقضى عامة حوائجي بالترك فيسكون ذلك أروح لتلقي . وقال آخر : إذا أردت أن أستعرض من غيري الشهوة أو زيادة استعرضت من نفسي فترك الشهوة فهي خير غريم لي . وكان إبراهيم بن آدم رحمه الله يسأل أصحابه عن سر المأكولات فيقال إنها غالية فيقول : أرخصوها بالترك ، وقال سهل رحمه الله : الأكل مذموم في ثلاثة أحوال : إن كان من أهل العبادة فيكسل ، وإن كان مكتسباً فلا يسلم من الآفات

(١) حديث « ثلاث للطعام » تقدم أيضاً . (٢) حديث « البطنة أصل الداء والحلية أصل النوم » وعودوا كل بدن بما اعتاد » لم أجده أصلاً . (٣) حديث « صوموا تصحوا » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الطب النبوي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

وإن كان من يدخل عليه شيء فلا يصف الله تعالى من نفسه .

وبالجحيلة سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا ، وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج ، وسبب شهوة الفرج ، شهوة البطن . وفي تقليل الأكل ما يحصم هذه الأحوال كلها وهي أبواب النار وفي جسمها فتح أبواب الجنة كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم « أديبوا قرح بلب الجنة بالجوع » فمن قنع برغيف في كل يوم قنع في سائر الشهوات أيضاً وصار حراً واستغنى عن الناس واستراح من التعب ، ونخل لعبادة الله عز وجل وبجملته الآخرة ، فيكون من الدين لا تليهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإنما لا تليهم لاستغنائهم عنها بالقتاعة ، وأما المحتاج فقلبه لا محالة ،

الفائدة العاشرة : أن يتمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على التاميين والمساكين ، فيكون يوم القيامة في ظل صدقه (١) كما ورد به الخبر : فأيا كلة كان خزانته الكثيف وما يتصدق به كان خزانته فضل الله تعالى ، فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق فأبقى أو أكل فأبقى أوليس فأبلى ، قال تصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والصبغ ، وكان الحسن رحمه الله عليه إذا تلا قوله تعالى ( إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ) قال عرضها على السموات السبع العلياق والطرائق التي زينها بالنجوم وحملها العرش العظيم فقال لما سبحانه وتعالى : هل تحملين الأمانة بما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : إن أحسن جزويت وإن أسأت عوقبت ، فقالت : لا ، ثم عرضها كذلك على الأرض فأبنت ، ثم عرضها على الجبال الشم والقوامع الصلاب الصعاب فقالت لما : هل تحملين الأمانة بما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ فذكر الجزاء والعقوبة فقالت : لا ، ثم عرضها على الإنسان لحملها إنه كان ظلوماً لنفسه جهولاً بأسرره . فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافاً فإذا صنعوا فيها ؟ وسعوا بها دورهم وضيّقوا بها قبورهم ، وأسمنوا برادتهم وأهلوا دينهم ، وأنعوا أنفسهم بالفنوس والرواح إلى باب السلطان يتضرعون بالبلاء وهم من الله في عافية ، يقول أحدهم تيمنى أرض كذا وأرديك كذا وكذا ، يشكى على شماله وبأكل من غير ماله ، حديثه سخرة وماله حرام حتى إذا أخذته الكفة وزلت به البطنة قال : يا غلام اتقني بشيء أهضم به طعامي ، يا لكع أطعامك تهضم ؟ إنما دينك تهضم ، أين الفقير أين الأرملة أين المسكين أين اليتيم الذي أمرك الله تعالى بهم؟ فهذه إشارة إلى هذه الفائدة وهو صرف فاضل الطعام إلى الفقير ليدخر به الأجر فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه . ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل سمين البطن فأما إلى بطنه بأصبعه وقال ولو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك (٢) « أى لو قدمت لآخرتك وآثرت به غيرك . وعن الحسن قال : والله لقد أدركت أقواماً كان الرجل منهم يسمى وعنده من الطعام ما يكفيه ولو شاء لأكله فيقول : والله لا أجعل هذا كله لبطني حتى أجعل بعضه لله .

فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تنتهي فوائدها ، فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة . ولأجل هذا قال بعض السلف : الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد ، والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة ، بل ذلك صريح في الأخبار التي رويناها وبالموقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معاني

(١) حديث « كل امرئ في ظل صدقه » أخرجه الحاكم من حديث عقبة بن عامر وقد تقدم .

(٢) حديث : نظر إلى رجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال « لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك » أخرجه أحمد والحاكم في المستدرک والبيهقي في الشعب من حديث جعدة الجشمي وإسناده جيد .



تلك الأخبار إدراك علم وبصيرة . فإذا لم تعرف هذا صدقت بفضل الجوع كانت لك رتبة المقلدين في الإيمان واه أعلم بالصواب .

### بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن

اعلم أن على المريد في بطلته ومأكوله أربع وظائف : الأولى أن لا يأكل إلا حلالاً فإن المبادقن أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار . وقد ذكرنا ما يجب مراعاته من درجات الروع في كتاب الحلال والحرام . وتبقى ثلاث وظائف خاصة بالأكل وهو تقدير قدر الطعام في القوة والكثرة وتقدير وقته في الإبطاء والسرعة وتعيين المجلس للأكل في تناول المشتريات وتركها .

أما الوظيفة الأولى : في تحليل الطعام ، فسيحل الرياضة فيه بالتدريج فن اعتاد الأكل الكثير وانتقل دفعة واحدة إلى القليل لم يجمله مزاجه وضعف وعظمت مشقة ؛ فينبغي أن يتدرج إليه قليلاً قليلاً وذلك بأن ينقص قليلاً قليلاً من طعامه المعتاد . فإن كان يأكل رغيفين مثلاً وأراد أن يرد نفسه إلى رغيف واحد فينقص كل يوم ربع سبع رغيف ، وهو أن ينقص جزءاً من ثمانية وعشرين جزءاً ، أو أجزاء من ثلاثين جزءاً ، فيرجع إلى رغيف في شهر ، ولا يستعربه ولا يظهر أثره ، فإن شاء فعل في ذلك بالوزن وإن شاء بالمشاهدة . فيترك كل يوم مقدار لقمة وينقصه عما أكله بالأمس . ثم هذا فيه أربع درجات .

أفصاها : أن يرد نفسه إلى قدر القوام الذي لا يبقى دونه وهو عادة الصديقين . وهو اختيار سهل التستري رحمة الله عليه إذ قال : إن الله استعبد الخلق بثلاث ؛ بالحياة ، والعقل ، والقوة . فإن خاف العبد على اثنين منها وهي الحياة والعقل ، أكل وأطهر إن كان صائماً ، وتكلف الطلب إن كان فقيراً ، وإن لم يخف عليها بل على القوة قال : فيلبي أن لا يلاي ، ولو ضعف حتى صلى قاعدا ورأى أن صلاته قاعدا مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائماً مع كثرة الأكل . وسئل سهل عن بدايته وما كان يفتات به فقال : كان فوق في كل سنة ثلاثة دراهم ؛ كنت أخذ بدرم ديسا ، وبدرم دقيق الأرض ، وبدرم سمناً ، وأخطأ الجميع وأوسى منه ثلثائة وستين أكرة ، أخذت كل ليلة أكرة أفطر عليها ، فقيل له : فالساعة كيف تأكل ؟ قال : بغير حد ولا توقيت . ويحكى عن الرهبانيين أنهم قد يردون أنفسهم إلى مقدار درهم الطعام .

الدرجة الثانية : أن يرد نفسه بالرياضة في اليوم وإلى نصف مدة ، وهو رغيف وشيء . مما يكون الأربعة منه منا ويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن في حق الأكثرين - كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم - وهو فوق القنات لأن هذه الصبغة في الجمع لقلة فولما دون المشرة ، وقد كان ذلك عادة عمر رضي الله عنه إذا كان يأكل سبع لقم أو تسع لقم .

الدرجة الثالثة : أن يردّها إلى مقدار المد ، وهو رغيفان ونصف ، وهذا يزيد على ثلث البطن في حق الأكثرين ويكاد ينهي إلى ثلث البطن ، ويبقى ثلث الشراب ولا يبقى شيء للذكر ، وفي بعض الألفاظ « ثلث للذكر » بدل قوله « للنفس » .

الدرجة الرابعة : أن يزيد على المد إلى المن ، ويشبه أن يكون ما وراء المن إسرافاً عاتفاً لقوله تعالى « ولا تسرفوا » أعني في حق الأكثرين ، فإن مقدار الحاجة إلى الطعام يختلف بالسن ، والشخص والعمل الذي يشتغل به . وهنا طريق خامس لا تقدير فيه لكنه موضع غلط ، وهو أن يأكل إذا صدق جوعه ويتقيض يده وهو على شهوة صادقة بعد ، ولكن الأغلب أن من لم يقدر لنفسه رغيفاً أو رغيفين فلا يتبين له حد الجوع الصادق ، ويشبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة .

وقد ذكر الجوع الصادق علامات ؛ إحداهما : أن لا تطلب النفس الآدمية كل أكل الخبز وحده بشهوة - أى خبز كان - فهما طلبت نفسه خبزاً بينه أو طليت أما فليس ذلك بالجوع الصادق وقد قيل : من علامت أن يصدق فلا يقع الذباب عليه ؛ أى لم يبق فيه دغية ولا دسومة فيدل ذلك على خلو المعدة ، ومرة ذلك غامض . فالصواب للرّيد أن يقدر مع نفسه القدر الذى لا يرضيه من المأدبة التى هو يصددها فإذا انتهى إليه وقف وإن بقيت شهوته .

وعلى الجملة : فتقدير الطعام لا يمكن لأنه يختلف بالأحوال والأشخاص . نعم قد كان قوت جماعة من الصحابة صاعاً من خنطة في كل جمعة . فإذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعاً ونصفاً ، وصاح الخنطة أربعة أمداد ، فيكون كل يوم قريباً من نصف مد - وهو ما ذكرناه أنه قدر ثلث البطن - واحتيج في التمر إلى زيادة لسقوط التوى منه . وقد كان أبو ذر رضى الله عنه يقول : طعامى في كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا أزيد عليه شيئاً حتى ألقاه فإني سمعته يقول « أقربكم منى مجلساً يوم القيامة وأحبكم إلى من مات على ما هو عليه اليوم »<sup>(١)</sup> وكان يقول - في إنكاره على بعض الصحابة : قد غيرتم ، ينخل لكم الشعير ولم يكن ينخل ، وغيرتم المرقق وجعتم بين إدامين واختلف عليكم بالوان الطعام ، وغدا أحدكم في ثوب وراح في آخر ، ولم تكونوا هكذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قوت أهل الصفة مداً من تمرين اثنين في كل يوم<sup>(٢)</sup> والمدا رطل وثلث ويسقط منه التوى وكان الحسن رضى الله عنه يقول المؤمن مثل العنيزة يكفيه الكف من الخنط والقبضة من السوق والجربة من الماء ، والمتافق مثل السبع الضارى يلعا يلماوسرطاً سرطاً لا يطوى بطنه لجاره ولا يؤثر أخاه بفضل الله وجهوا هذه الفضول أمامكم . وقال سهل لو كانت الدنيا دماً صبيطاً لكان قوت المؤمن منها حلالاً لأن أكل المؤمن عند الضرورة بقدر القوام فقط .

الوظيفة الثانية : في وقت الأكل ومقدار تأخيرهِ وفيهِ أيضاً أربع درجات :

الدرجة العليا : أن يطوى ثلاثة أيام فافوتها ، وفى المريد من رد الرياضة إلى العلى لا إلى القصد ، حتى انتهى بعضهم إلى ثلاثين يوماً وأربعين يوماً ، واتى إليه جماعة من العلماء يكره صدهم منهم محمد بن عمرو الفري ، وعبد الرحمن بن إبراهيم ، ورجم ، وإبراهيم التميمي ، وحجاج بن فرافصة ، وحفص العابد المصيصى ، والمسلم ابن سعيد ، وزهير ، وسليمان الخواص ، وسهل بن عبد الله القسرى ، وإبراهيم بن أحمد الخواص ، وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يطوى ستة أيام ، وكان عبداً الله بن الزبير يطوى سبعة أيام ، وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوى سبعا . وروى أن ابن الثوري وإبراهيم بن آدم كانا يطويان ثلاثاً ثلاثاً ، كل ذلك كانوا يستمينون بالجوع على طريق الآخرة .

قال بعض العلماء من طوى لله أربعين يوماً ظهرت له قدرة من الملكوت أى كشف يعض الأسرار الإلهية . وقد حكى أن بعض أهل هذه الطائفة مر إبراهيم فذاكره بحاله وطمع في إسلامه وترك ما هو عليه من الضرور ، فسكبه في ذلك كلاماً كثيراً إلى أن قال له الراهب : إن المسيح كان يطوى أربعين يوماً وإن ذلك معجزة لا تكون إلا لنبي أو صديق ، فقال له الصوفي : فإن طويت خمسين يوماً ترك ما أنت عليه وتدخل في دين الإسلام وتعلم أنه حق وأنت على باطل ؟ قال : نعم ، فجلس لا يترك إلا حيث يراه حتى طوى خمسين يوماً ، ثم قال : وأزيتك أيضاً فطوى إلى تمام الستين ، فتعجب الراهب منه قال ما أظن أن أحداً يجاوز المسيح ؟ فكان ذلك سبب إسلامه .

(١) حديث أبى ذر « أقربكم منى مجلساً يوم القيامة وأحبكم إلى من مات على ما هو عليه اليوم » أخرجه أحمد في كتاب الزهد ومن طريقه أبو نعيم في الحلية دون قوله « وأحبكم إلى » وهو منقطع . (٢) حديث : كان قوت أهل الصفة مداً من تمرين اثنين في كل يوم » أخرجه الحاكم وصححه إسناده من حديث طلحة البصرى .

وهذه درجة عظيمة قل من يبلغها إلا مكثف محمول شغل بمشاهدة ما قطعه عن طبعه وعادته واستوفى نفسه في لذته وأنساء جوعته وساجته .

الدرجة الثانية : أن يطول يومين إلى ثلاثين ليس ذلك خارجاً عن المادة بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالجدو والمجاهدة  
الدرجة الثالثة : وهي أداها أن يقتصر في اليوم واليلة على أكلة واحدة وهذا هو الأقل وما جاوز ذلك إسراف ومدارمة للشبع حتى لا يكون له حالة جوع ، وذلك فعل الترفين وهو بعيد من السنة ، فقد روى أبو سعيد الحدرى .  
رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا تشدى لم يتمش وإذا تشى لم يتند (١) وكان الساف يأكلون في كل يوم أكلة ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة « إياك والسرف ، فإن أكلتين في يوم من السرف ، وأكلة واحدة في كل يومين إقتار ، وأكلة في كل يوم قوام بين ذلك (٢) » وهو المحمود في كتاب الله عز وجل .

ومن اقتصر في اليوم على أكلة واحدة فيستحب له أن يأكلها سحراً قبل طلوع الفجر ، فيكون أكله بعد التهجذ وقبل الصبح ، فيعمل له جوع النهار الصيام وجوع الليل للقيام ، ويخلو القلب لفرغ المعدة ورقة الفكر ، واجتماع الهم وسكون النفس إلى المعلوم ، فلا تنازعه قبل وقته . وفي حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ما قام رسول الله عليه وسلم قيامكم هذا قط ، وإن كان ليقوم حتى تورم قدماء ، وما واصل وصالحكم هذا قط غير أنه قد أخر الفطر إلى السحر (٣) وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يواصل إلى السحر (٤) فإن كان يلتفت قلب العائم بعد المغرب إلى الطعام وكان ذلك يشغله عن حضور القلب في التهجذ فالأولى أن يقسم طعامه نصفين ، فإن كان رغبين مثلاً أكل رغبياً وأخذ الفطر ورغبياً عند السحر ، لتسكن نفسه ويغف بدنه عند التهجذ ولا يشتد بالثأل جوعه لأجل التسحر ، فيستعين بالزغيف الأول على التهجذ وبالتالي على الصوم . ومن كان يصوم يوماً ويفطر يوماً فلا بأس أن يأكل كل يوم فطره وقت الظهر ، ويوم صومه وقت السحر . فهذه الطرق في مواقيت الأكل وتباعده وتقارنه .

الوظيفة الثالثة : في نوع الطعام وترك الإدام ، وأعلى الطعام مخ البر فإن نخل فهو غاية الترفه ، وأوسطه شعير منخول ، وأدناه شعير لم ينخل ، وأعلى الأدم اللحم والحلاوة ، وأدناه الملح والحل ، وأوسطه المزورات بالآدهان من غير لحم . وعادة سالكى طريق الآخرة الامتناع من الإدام على الدوام بل الامتناع عن الشهوات ، فإن كل لذية يشتهيها الإنسان وأكله اقتضى ذلك بطراً في نفسه وقسوة في قلبه وأنساءه بلذات الدنيا حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى ، وتصير الدنيا جنة في حقه ويكون الموت بمناله . وإذا منع نفسه عن شهواتها وضيق عليها وسرما لذاتها صارت الدنيا جحماً عليها ومضيئاً لها فاشتدت نفسه الإفلات منها ، فيكون الموت إطلاقتها . وإليه الإشارة بقول يحيى ابن معاذ حيث قال : معاشر الصديقين جوعوا أنفسهم لولية الفردوس فإن شهوة الطعام على قدر تجويع النفس . فكل ما ذكرناه من آفات الشبع فانه يجرى في كل الشهوات وتناول اللوات فلا يطول بإعادته ، فذلك بمظلم الثواب

(١) حديث أبي سعيد الحدرى : كان إذا تشدى لم يتمش وإذا تشى لم يتند « لم أجده له أسلاً (٢) حديث : قال لعائشة « إياك والإسراف فإن أكلتين في يوم من السراف » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة وقال في إسناده ضعف . (٣) حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة : ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط وإن كان ليقوم حتى تزلع قدماء . رواه النسائي مختصراً : كان يجلى حتى تزلع قدماء . وإسناده جيد . (٤) حديث عائشة : كان يواصل إلى السحر . لم أجده من ضله وإتمامه من قوله « فأبكم أراد أن يواصل فيواصل حتى السحر » رواه البخارى من حديث أبي سعيد : وأما هو فكان يواصل وهو من خاصه .

في ترك الشهوات من المباحات ويعظم الخطر في تناولها ، حتى قال صلى الله عليه وسلم « شرار أمتي الذين يأكلون الخنطة <sup>(١)</sup> » وهذا ليس يتعبرم بل هو مباح على معنى أن من أكله مرة أو مرتين لم ينعص ، ومن دأب عليه أيضاً فلا يصح بتناوله ، ولكن قربن قسه بالنعيم فتأنس بالدنيا وتأنف اللذات وتسعى في طلبها فيجبرها ذلك إلى المعاصي فهم شرار الأمة ، لأن الخنطة يقودهم إلى اقترام أمور ، تلك الأمور معاصي . وقال صلى الله عليه وسلم « شرار أمتي الذين غذاوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم <sup>(٢)</sup> » وإنما همتهم ألوان الطعام وأنواع اللباس ويتقدمون في الكلام . وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام اذكر أنك ساكن القبر فإن ذلك بمنعك من كثير الشهوات . وقد اشتد خوف السلف من تناول لذيق الألطمة وتمرين النفس عليها وروا أن ذلك علامة الشقاوة ، وروا منع الله تعالى منه غاية السعادة ، حتى روى أن وهب بن منبه قال : اتقى ملسكان في السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر : من أين ؟ قال : أمرت يسوق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهودي لعنه الله ، وقال الآخر : أمرت بإهراق زيت اشتهاه فلان المأبد . فلما تنبيه على أن تيسر أسباب الشهوات ليس من علامات الخير . ولجذا امتنع عمر رضي الله عنه عن شربة ماء بارد بسل وقال : اعزلوا عني حسابها . فلا عبادة لله تعالى أعظم من مخالفة النفس في الشهوات وترك اللذات . كما أوردناه في كتاب رياضة النفس . وقد روى نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان مريضاً فاشتى سمكة طرية فالتقت له بالمدينة فلم توجد ، ثم وجدت بعد . كذا وكذا ، فاشتريت له بدم ونصف فديت وحملت إليه على رغي فقام سائل على الباب فقال للغلام : لها يرغيها وادفعا إليه ، فقال له الغلام : أصلحك الله قد اشتيتها منذ كذا وكذا فلم يجعها فلما وجدت اشتريتها بدم ونصف ، فتنن نعيه ثمنها ، فقال : لها وادفعا إليه ، ثم قال للغلام للسائل : هل لك أن تأخذ درهما وتركها ؟ قال : نعم فأعطاه درهما وأخطما واتى بها فوضعا بين يديه وقال : قد أعطيت درهما وأخلفتا منه ، فقال : لها وادفعا إليه ولا تأخذ منه الدرهم ، فأتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أيما امرئ اشتى شهوة أفرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم وإذا سددت كلب الجوع يرغي وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار <sup>(٤)</sup> » أشار إلى أن المقصود رد ألم الجوع والعطش ودفع ضررها دون التمتع بلذات الدنيا ، وبلغ عمر رضي الله عنه أن يربد بن أبي سفيان يأكل أنواع الطعام فقال عمر لمولى له : إذا علمت أنه قد حضر عشائه فأعطني ، فأعله فدخل عليه فحضر عشائه فأنوه بشر يدهلم فأكل معه عمر ، ثم قرب الشواء وبسط يريده وكف عمر يده وقال : الله الله يا يربد بن أبي سفيان أطلما بعد طعام ؟ والذي نفس عمر بيده لئن خالفتهم عن ستهم لينا لئن بك عن طريقهم . وعن يسار بن عمير قال : ما نخلت لعمر دقيقا قط إلا وأنا له عاص . وروى أن عتبة الغلام كان يمجج دقيقه ويحجفه في الشمس ، ثم يأكله ويقول كسرة وملح حتى يثبأ في الآخرة القواء والطعام الطيب . وكان يأخذ الكوز فيغرف به من حب كان في الشمس ناره

(١) حديث « شرار أمتي الذين يأكلون من الخنطة » لم أجده أصلا . (٢) حديث « شرار أمتي الذين غداوا بالنعيم .. الحديث » أخرجه ابن عدى في الكامل ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان من حديث فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة يأسند لا بأس به . (٣) حديث نافع : أن ابن عمر كان مريضاً فاشتى سمكة ... الحديث وفيه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أيما امرئ اشتى شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب بأسناد ضعيف جدا ورواه ابن الجوزي في الموضوعات .

(٤) حديث « إذا سددت كلب الجوع يرغي وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار » أخرجه أبو منصور الديلمي في مستدرك القردوس من حديث أبي هريرة بأسناد ضعيف .

فتقول مولاة له : يا حبة لو أعطيتني دقيقك نجذته لك ويردك لك الماء ؟ فيقول لها : يا أم فلان قد شردت عنى كلب المجموع .

قال شقيق بن إبراهيم : لقيت إبراهيم بن آدم بمكة في سوق الليل - عند مولد النبي صلى الله عليه وسلم - يسكن وهو جالس بناحية من الطريق فعدلت إليه وقعدت عنده وقلت : إيش هذا البكا . يا أبا إسحق ؟ فقال : خير ، فعاودته مرة وثلاثين وثلاثاً ، فقال : يا شقيق استر على قفلك يا أخى قل ما شئت ، فقال لي : اشتيت نفسى مثلاً لابن سنة سكباجاً فنبعتها جهدي ، حتى إذا كنت البارحة كنت جالساً وقد غلبني النعاس إذ أنا بقى شاب بيده قدح اخضر يعلو منه بخار ورائحة سكباج ، قال : فاجتمعت به حتى عنه فقربه وقال : يا إبراهيم كل ، فقلت : ما آكل قد تركته لله عز وجل ، فقال لي : قد أطعمك الله كل ، فما كان لي جواب إلا أنا بكيت ، فقال لي : كل وحملك الله ، فقلت : قد أمرنا أن لا نطرح في وعاءنا إلا من حيث نعلم ، فقال : كل عافاك الله فأجما أعطيت ، فقيل لي يا خضر اذهب بهذا وأطعمه نفس إبراهيم بن آدم فقد رحما الله من طول صبرها على ما يعملها من منحا . اطم يا إبراهيم انى سمعت الملائكة يقولون : من أعطى فلم يأخذ طلب فلم يسط ، فقلت : إن كان كذلك فما أنا بين يدك لأجل المقدمع الله تعالى ، ثم التفت فإذا أنا بقى آخر ناله شيئاً وقال : يا خضر لقمه أنت ، فلم يزل يلقي حتى نعست فالتفت وحلاوته في في ، قال شقيق : فقلت أرني كففك ، فأخذت بكفه فقبلتها وقلت : يا من يعلم الجميع الشهوات إذا صحوا المنع ، يا من يقدح في الضمير البقين ، يا من يشق قلوبهم من محبة ، أترى لشقيق عندك حلا ؟ ثم رفعت يد إبراهيم إلى السماء وقلت : بقدر هذا الكف عندك وبقدر صاحبه وبالوجود الذي وجد منك جد على عبدك الفقير إلى فضلك وإحسانك ورحمتك وإن لم يستحق ذلك ، قال : فقام إبراهيم ومضى حتى أدركننا البيت .

وروى عن مالك بن دينار أنه بنى أربعين سنة يشتهي لبناً فلم يأكله . وأهدى إليه يوماً وطب فقال لأصحابه كلوا فما ذقته منذ أربعين سنة . وقال أحد بن أبي الحوارى . اشتيت أبو سليمان الداراني رقيقاً حاراً بلع لجت به إليه فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل بيكي وقال : بجلت إلى شهرتى بعد إطالة جهدي واشتقت قد حرمت على التوبة فأقضى ، قال أحد فإريته أكل الملح حتى لقي الله تعالى . وقال مالك بن ضيفم مرت بالبصرة في السوق فنظرت إلى البقل فقالت لي نفسى : لو أطعمتى البقلة من هذا فأقسمت أن لا أطعمها إياه أربعين ليلة . ومكث مالك بن دينار بالبصرة خمسين سنة ما أكل رطبة لأهل البصرة ولا بيرة قط وقال : يا أهل البصرة عشت فيكم خمسين سنة ما أكلت لكم رطبة ولا بيرة فما زاد فيكم ما نقص ولا نقص منى ما زاد فيكم . وقال : طلقت الدنيا ، منذ خمسين سنة ، اشتيت نفسى لبناً منذ أربعين سنة فوالة لا أطعمها حتى الحق بالله تعالى ، وقال حماد بن أبي حنيفة . أتيت داود الطائي والباب مغلق عليه فسمعت يقول : نفسى ! اشتيت جزراً فأطعمتك جزراً ، ثم اشتيت تمرأ فآليت أن لا تأكله أبداً ، فسلبت ودخلت فإذا هو وحده ، ومر أبو حازم يوماً في السوق فرأى الفاكهة فاشتاتها ، فقال لابنه : اشتر لنا من هذا الفاكهة المقطوعة للمتنوعة لعلنا يذهب إلى الفاكهة التي لا مقطوعة ولا متنوعة ، فلما اشتراها وأتى بها إليه قال لنفسه : قد خدعتنى حتى نظرت حتى اشتيت وغلبتني حتى اشتريت والله لا ذقته فبعت بها إلى يامى من الفقراء وعن موسى الأشج أنه قال : نفسى تشتهي ملحا جريشاً منذ عشرين سنة ، وعن أحمد بن خليفة قال : نفسى تشتهي منذ عشرين سنة ما طلبت منى إلا الماء حتى تروى فاأزويتها . وروى أن عتبة الغلام اشتيت لها سبع سنين فلما كان بعد ذلك قال : استحييت من نفسى أن أدافها منذ سبع سنين - سنة بعد سنة - فاشتريت قطعاً على خبر وشويتها

وتركتها على رغيغ فلقيت صبياً فقلت ، ألسنت أنت ابن فلان وقد مات أبوك ؟ قال : بلى ، فنارلته إياها قالوا : وأقبل يبيكي ويقرأ ( ويطعمون العام على حبه مسكيناً ويتيمناً وأسيراً ) ثم لم يذكه بعد ذلك . ومكث يشتهي تمراً سنين ، فلما كان ذات يوم اشتوى تمراً بتهراط ورقمه إلى الليل ليفطر عليه قال : فبهت ربح شديدة حتى أظلمت الدنيا ففرح الناس ، فأقبل حنينة على نفسه يقول : هذا لجراؤى عليك وشرائى التمر بالتهراط ، ثم قال لنفسه : ما أظن أخذ الناس إلا يذنبك ؟ على أن لا تلوقيه

واشترى داود الطائي نصف فلس بقلنا وبفلس خلا ، وأقبل ليكه كلها يقول لنفسه : وبلك يا داود ما أطول حسابك يوم القيامة ، ثم لم يأكل بعده إلا قناراً ، وقال حنينة الغلام يوماً لعبد الواحد بن زيد : إن فلانا يصف من نفسه منزلة ما أعرفها من نفسى فقال : لأنك تأكل مع خبزك تمراً وهو لا يريد على الخبز شيئاً . قال : فإن أنا تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة ؟ قال : نعم ؛ وغيرها : فأخذ يبيكي فقال له بعض أصحابه : لا أبسكى الله عينك أعلى التمر تبيكي ؟ فقال عبد الواحد : دعه ؛ فإن نفسه قد عرفت صديق عزمه فى التمر ، وهو إذا ترك شيئاً لم يعاوده . وقال جعفر بن نصر : أمرنى الجندب أن أشتري له الثين الوزيرى ؟ فلما اشتريته أخذ واحدة عند الفطور فوضعتها فى فمى ثم ألقاها وجعل يبيكي ، ثم قال : أحمله فقلت له فى ذلك فقال : هتب فى ها تاف أما تستحى ؟ تركته من أجلى ثم تعود إليه ؟ وقال صالح المري : قلت لعطاء السلى إنى متكلف لك شيئاً فلا ترد على كرامتى ، فقال : أقول ما تريد ، قال . فبعثت إليه مع ابنى شربة من سويق قد لته بسمن وعسل ، فقلت : لا تبرح حتى يشربها ؛ فلما كان من الغد جعلت له تموراً فربما ولم يشربها ، فعائته ولته على ذلك وقلت : سبحان الله رددت على كرامتى ؟ فلما رأى وجدى لذلك قال : لا يسوءك هذا ؛ إنى قد شربتها أول مرة وقد راودت نفسى فى المرة الثانية على شربها فلم أقدر على ذلك ، كلما أردت ذلك ذكرت قوله تعالى ( يجرعه ولا يكاد يسيغه ) الآية قال صالح : فبكيت وقلت فى نفسى : أنا فى واد وأنت فى واد آخر .

وقال السرى السقطى نفسى منذ ثلاثين سنة تعالبنى أن أغمس جزرة فى ديس فأطعمتها . وقال أبو بكر الجلاء : أعرف رجلاً تقول له نفسه أنا أصبر لك على طى عشرة أيام وأطعمنى بعد ذلك شهوة أشتها ، فيقول لها : لا أريد أن تطوى عشرة أيام ولكن هذه الشهوة وروى أن عابداً دعا بعض إخوانه فحرب إليه رغيفاً فاجعل أخوه يقلبها لأرغفة لينتار أجودها فقال له العابد : مه أى شىء تصنع ؛ أما علمت أن فى الرغيغ الذى رغبته عنه كذا وكذا حكمة وعمل فيه وكذا وكذا صائناً ، حتى استندار من السحاب الذى يحمل الماء والماء الذى يسقى الأرض والرياح والأرض والبهايم وبني آدم حتى صار إليك ، ثم أنت بعد هذا قلبه ولا ترضى به .

وفى الخبر « لا يستدير الرغيغ ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثائة وستون صائناً أولهم ميكائيل عليه السلام الذى يكيل الماء من خزائن الرحمة ، ثم الملائكة التى تزجى السحاب والشمس والقمر والأفلاك وملائكة الهواء ودواب الأرض ، وآخرهم الحياز ( وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ) » (١) وقال بعضهم : أتيت فاسماً الجرجسى فسألته عن الزهد أى شىء هو ؟ فقال : أى شىء سمعت فيه ؟ فمدحت أقوالاً فسكت فقلت : وإى شىء تقول أنت ؟ فقال : أعلم أن البطن دينا العبد فيقدر ما يملك من بطنه يملك من الزهد ، وبقدر ما يملك بطنه يملك الدنيا وكان بشرين المحتر قد اعتل مرة ، فأتى عبد الرحمن الطليط يسأله عن شىء يوافقه من المساكولات ، فقال : سألتنى فإذا وصف لك لم تقبل ، قال : صف لى حتى اسمع ، قال : تشرب سكنجيتنا وتمص سفر جلا وتأكل

(١) حديث « لا يستدير الرغيغ ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثائة وستون صائناً أولهم ميكائيل . . . الحديث » لم أجده أصلاً .

بعد ذلك اسقذ بها جما ، فقال له بشر : هل تعلم شيئا أقل من السكجيين يوم مقامه ؟ قال : لا ، قال : أنا أعرف ، قال : ما هو ؟ قال : المنتدبا بالحل ، ثم قال : أعرف شيئا أقل من السفرجل يقوم مقامه ؟ قال : لا ، قال : أنا أعرف قال : ما هو ؟ قال : الخروب الشامي ، قال : فاعرف شيئا أقل من الاسقذ باج يقوم مقامه ؟ قال : لا ، قال : أنا أعرف ؛ ماء الحمص بسمن البقر في معناه ، فقال له عبد الرحمن : انت أعلم مني بالطلب ؛ فلم تسألني ؟

فقد عرفت بهذا أن هؤلاء امتنعوا من الشهوات ومن الشيع من الأفوات ، وكان امتناعهم للفوائد التي ذكرناها وفي بعض الآراء أنهم كانوا لا يصفو لهم الحلال فلم يرخصوا لأنفسهم إلا في قدر الضرورة ، والشهوات ليست من الضرورات حتى قال أبو سليمان : الملح شهوة لأنه زيادة على الخبز وماوراء الخبز شهوة . وهذا هو النهاية . فمن لم يقدر على ذلك فينبغي أن لا يفتل عن نفسه ولا يهتمك في الشهوات ، فكفى بالمرء إسرافا أن يأكل كل ما يشتهي ، ويفعل كل ما يهواه ، فينبغي أن لا يواظب على أكل اللحم . قال علي كرم الله وجهه من ترك اللحم أربعين يوما ساء خلفه ومن دأوم عليه أربعين يوما قسا عليه . وقيل إن للدأومة على اللحم ضراوة كضراوة الخمر . ومما كان جانا وتأتت نفسه إلى الجماع فلا يبنى أن يأكل ويجامع ، فيعطى نفسه شهوة فتغوى عليه ، وربما طلبت النفس ألا كل لينشط في الجماع . ويستحب أن لا ينام على الشيع فيجمع بين غفغفتين فيمتدد الفتور ويقسو قلبه لذلك ، ولكن ليصل أو ليجلس فيذكر الله تعالى فإنه أقرب إلى الفكر . وفي الحديث « أذيوها طعامكم بالذكر والصلاة ولا تناموا عليه فتفسد قلوبكم » (١) وأقل ذلك أن يصلي أربع ركعات أو يسبح مائة تسبيحة أو يقرأ جزءا من القرآن عقيبا كله . فتدكدن سفيان الثوري إذا شبع ليلة أحياها ، وإذا شبع في يوم واصلها بالصلاة والذكر ، وكان يقول : أشبع الزمجي وكده ومرة يقول : أشبع الحمار وكده . ومهما اشتهى شيئا من الطعام وطيبات الفواكه فلينبغي أن يترك الخبز ويأكلها بدلا منه ليكون قوتا ، ولا تكون نفسك لثلا يجمع للنفس بين عادة وشهوة . فطر سهل إلى ابن سالم وفي يده خبز وتمر فقال له : ابدأ بالتمر فإن قامت كفاؤك به وإلا أخذت من الخبز بعده بقدر حاجتك . ومهما وجد طعاما لطيفا وغليظا فليقدم اللطيف فإنه لا يشتهي الغليظ بعده ، ولو قدم الغليظ لأكل اللطيف أيضا لطافته . وكان بعضهم يقول لأصحابه : لا تأكلوا الشهوات فإن أكلتموها فلا تطلبوها فإن طلبتموها فلا تحبوها ، وطلب بعض أنواع الخبز شهوة . قال عبادة ابن عمر راحة الله عليهم : ما تأتينا من المراق فأكفة أحب إلينا من الخبز فرأى ذلك الخبز فأكفة .

وعلى الجملة لا سبيل إلى إهمال النفس في الشهوات المباحات واتباعها بكل حال فيقدر ما يستوفى العبد من شهوته يخشى أن يقال له يوم القيامة (أذهب طيانتكم في حيانكم الدنيا واستمتع بها) ويقدر ما يجاهد نفسه بترك شهوته يتمتع في الدار الآخرة بشواته . قال بعض أهل البصرة : نازعتني نفس خبز أرز وسماك فنهتها ، فتويت مطالبتها واشتدت مجاهدتي لها عشرين سنة ، فلما مات قال بعضهم : رأيته في المنام قلت ماذا فعل الله بك ؟ قال : لا أحسن أن أصف ما تلقاني به ربي من التعم والكرامات ، وكان أول شيء استقبلني به خبز أرز وسماك . وقال : كل اليوم شهوتك هنيئا بغير حساب . وقد قال تعالى (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) وكانوا قد أسلفوا ترك الشهوات . ولذلك قال أبو سليمان : ترك شهوة من الشهوات أنفع لقلب من صيام سنة وقيامها . وفقنا الله لما يرضيه .

(١) حديث « أذيوها طعامكم بالذكر والصلاة والفكر ولا تناموا عليه فتفسد قلوبكم » أخرجه الطبراني وابن السني في اليوم واليلة من حديث عائشة بسند ضعيف .

## بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه

اعلم أن المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق : الوسط ؛ إذ خير الأمور أوساطها وكلا طرفي قصد الأمور ذميم . وما أوردناه في فضائل الجوع ربما يوصى إلى أن الإفراط فيه مطلوب وهيبات ، ولكن من أسرار حكمة الشريعة أن كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة في المتع منه ، على وجه يوصى ، عند الجاهل إلى أن المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بقاية الإمكان ، والعالم يدرك أن المقصود الوسط ، لأن الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع يبنى أن يمنع غاية الجوع ، حتى يكون الطبع باعثاً والشرع مانعاً فيتقاربان ويحصل الاعتدال ، فإن من يقدر على قبح الطبع بالسكينة يبعد فيعلم أنه لا ينتهي إلا الغاية ؛ فإنه إن أسرف مسرف في مضادة الطبع كان في الشرع أيضاً ما يدل على إساءته ، كما أن الشرع بالغ في الثناء على قيام الليل وصيام النهار ، ثم لما علم النبي صلى الله عليه وسلم من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه<sup>(١)</sup> فإذا عرفت هذا فاعلم أن الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يحس بالم الجوع ، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلاً ، فإن مقصود الأكل بقاء الحياء وقوة العبادة ، ونقل المعدة بمنع من العبادة والم الجوع أيضاً يشغل القلب ويمنع منها . فالقصد أن يأكل أكلاً لا يثقل البسائر فيه أثر ليسكون متشبهاً بالملائكة فإنهم مقدسون عن ثقل الطعام والم الجوع ، وغاية الإنسان الاقتداء بهم . وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال .

ومثال طلب الأدنى البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط مثال ثلثة أقيمت في وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الأرض ، فإن ثلثة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لا تقدر على الخروج منها . فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذي هو الوسط ، فلو ماتت ماتت على الوسط لأن الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التي في الحلقة المحيطة ؛ فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالثلاثة ، والملائكة خارجون عن تلك الحلقة ، ولا مطعم للإنسان في الخروج وهو يريد أن يتشبه بالملائكة في الخلاص ، فأشبه أحواله بهم البعد ، وأبعد المواضع عن الأطراف الوسط ، فصار الوسط مطلوباً في جميع هذه الأحوال المتقابلة . وعنه عبر بقوله صلى الله عليه وسلم « خير الأمور أوساطها<sup>(٢)</sup> » وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ ومهما لم يحس الإنسان بجوع ولا شبع تيسرت له العبادة والفكر ونشف في نفسه وقوى على العمل مع خفته ، ولكن هذا بعد اعتدال الطبع .

أما في بداية الأمر إذا كانت النفس مجحوظة متشوقة إلى الشهوات مائلة إلى الإفراط فالاعتدال لا ينفعها بل لابد من المبالغة في إيلامها بالجوع ، كما يبالغ في إيلام الغاية التي ليست مروضة بالجوع والعزب وغيره إلى أن تعتدل ، فإذا ارتاضت واستوت ورجعت إلى الاعتدال ترك تعذيبها وإيلامها . ولأجل هذا السر يأمر الشيخ مراده بما لا يعطاه هو في نفسه فيأمره بالجوع وهو لا يجوع ، ويمنعه الفواكه والشهوات ، وقد لا تمتنع هو منها لأنه قد فرغ من تأديب نفسه فاستغنى عن التعذيب . ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والنجاس والامتناع عن العبادة ، كان الأصلح لها الجوع الذي يخص باله في أكثر الأحوال لشكر نفسه . والمقصود أن تنسحر حتى

(١) حديث : النبي عن صوم الدهر كله . تقدم . (٢) حديث : « خير الأمور أوساطها » أخرجه البيهقي في الشعب مرسلًا وقد تقدم .



تعدل فترد بعد ذلك في النداء أيضا إلى الاعتدال . وإنما يمتنع من ملازمة الجوع من سالكى طريق الآخرة : إمامصدق وإمام مفروق أحق .

أما المصدق : فلاستقامة نفسه على الصراط المستقيم واستغنائه عن أن يساق بسياسط الجوع إلى الحق . وأما المفروق : فلفظه بنفسه أنه المصدق المستغنى عن تأديب نفسه للظان بها خيرا . وهذا غرور عظيم وهو الأغلب . فإن النفس قلبا تأدب تأديبا كاملا ، وكثيرا ما تنفر فتتظر إلى المصدق ومساعدته نفسه في ذلك فيسمع نفسه ، كالمرضى ينظر إلى من قد صبح من مرضه فيتناول ما يتناولوه ويظن بنفسه الصحة فيها . والذي يدل على أن تقدير الطعام بمقدار يسير - في وقت مخصوص ونوع مخصوص - ليس مقصودا في نفسه - وإنما هو مجاهدة نفس متاثية عن الحق غير بالغة رتبة الكمال - أن رسول الله ﷺ لم يكن له تقدير وتوقيت لطعامه .

قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم (١) وكان يدخل على أهله فيقول « هل عندكم من شيء » فإن قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال « إني إن شاء الله صائم » (٢) وكان يقدم إليه الشيء فيقول « أما إني قد كنت أردت الصوم » ثم يأكل (٣) . وخرج صلى الله عليه وسلم يوما وقال « إني صائم » فقالت له عائشة رضى الله عنها : قد أهدى إلينا حين قال « كنت أردت الصوم ولكن قريه » (٤) .

ولذلك حكى عن سهل أنه قيل له : كيف كنت في بدايتك ؟ فأجبر بضروب من الرياضات ؛ منها : أنه كان يقاتل ورق التيق مدة . ومنها : أنه أكل دقاق التين مدة ثلاث سنين ، ثم ذكر أنه أقات بثلاثة دراهم في ثلاث سنين فقيل له : فكيف أنت في وقتك هذا ؟ فقال : أكل بلا حد ولا توقيت . وليس المراد بقولي بلا حد ولا توقيت : أنى أكل كثيرا ، بل أنى لا أقدر بمقدار واحد آكله . وقد كان معروف الكرخي يمدى إليه طيبات الطعام فيأكل ، فقيل له : إن أخاك يشرا لا يأكل مثل هذا ؟ فقال : إن أخى يشرا قبضه الورع وأنا بسطتني المهرقة ، ثم قال : إنما أنا ضعيف في دار مولاي فإذا أطمعتى أكلت وإذا جوعت صبرت ، مالى والاعتراض والتميز ؛ ودفع إبراهيم بن آدم إلى بعض إخوانه دراهم وقال : خذلنا بهذه الدرام زيدا وعسلا وخيزا حواريا فقيل : يا أبا إسحق هذا كله ؟ قال : ويحك إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال وإذا عدنا صبرنا صبر الرجال . وأصلح ذات يوم طعاما كثيرا ودعا إليه نفرا يسيرا فيهم الأوزاعي والثوري فقال له اللوزي : يا أبا إسحق أما تخاف أن يكون هذا إسرافا ؟ فقال : ليس في الطعام إسراف إنما الإسراف في لباس والأثاث .

فالذى أخذ العلم من السجاع والنقل تقليدا يرى هذا من إبراهيم بن آدم ويسمع من مالك بن دينار أنه قال ما دخل بيتي الملح منذ عشرين سنة . وعن سري السقطي أنه منذ أربعين سنة يشهى أن يغرس جزرة في ديس فما فعل . فإياه متافضا فينتحير أو يقطع بأن أحدهما غلى . والبصير بأسرار القول يعلم أن كل ذلك حق ولكن بالإضافة إلى

(١) حديث عائشة : كان يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم . متفق عليه . (٢) حديث : كان يدخل على أهله فيقول « هل عندكم من شيء » فإن قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال « إني صائم » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث عائشة وهو عند مسلم بنحو كاسي . (٣) حديث : كان يقدم إليه الشيء فيقول « أما إني كنت أريد الصوم » أخرجه البيهقي من حديث عائشة بلفظ « وإن كنت وقد فرضت الصوم » وقال إسناده صحيح وعند مسلم « قد كنت أصبحت صائما » . (٤) حديث : خرج وقال « إني صائم » فقالت عائشة يا رسول الله قد أهدى إلينا حين قال « كنت أردت الصوم ولكن قريه » أخرجه مسلم بلفظ « قد كنت أصبحت صائم » وفي رواية له « أدنيه فقد أصبحت صائما » فأكل وفي لفظ البيهقي « إني كنت أريد الصوم ولكن قريه » .

اختلاف الأحوال ثم هذه الأحوال المختلفة يسميها فطن محتاط أوغبى مغرور . فيقول المحتاط : ما أنا من جملة العارفين حتى أسأح نفسي فليت أطوح من قس سرى السقطى ومالك بن دينار ، وهؤلاء من الممتنعين عن الشهوات فيقتنى بهم . وللمغرور يقول : ما نفسي بأصعب على من قس معروف السكرى وإبراهيم بن أدهم فاقبضى بهم وأرفع التقدير في مأكولى ، فأنا أيضاً خفيف في دلو مولاي قتال وللاعتراض ؟ ثم إنه لو قصر أحد في حقه وتوقيره أو في ماله وجهه بطريفة واحدة قامت القيامة عليه واشتغل باعتراض ، وهذا مجال رحب للشيطان مع الحق ، بل رفع التقدير في الطعام والصيام وأكل الشهوات لا يسلم إلا لمن ينظر من «شكة الولاية والنوبة» ، فيكون بينه وبين الله علامة في استرساله واقبحاضه ، ولا يكون ذلك إلا بعد النفس عن طاعة الهوى والعادة بالسكينة ، حتى يكون أكله إذا أكل على نية كما يكون إمساكه بنية ، فيكون عاملاً في أكله وإفطاره ، فينبغي أن يتعلم الحزم من عمر رضى الله عنه فإنه كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب العسل ويأكله<sup>(١)</sup> ثم لم يقس نفسه عليه ، بل لما عرضت عليه شربة باردة مزوجة بسمل جعل يدير الإفاء في يده ويقول : أشربها وتذهب حلواتها وتبقى تيمناً . اعزلوا عنى حسابها ؟ وتمرّكها .

ومله الأمرار لا يجوز لشيخ أن يكشف بها مريده بل يقتصر على مدح الجوع فقط ، ولا يدعو إلى الاعتدال فإنه يقتصر لا محالة عما يدعو إليه . فينبغي أن يدعو إلى غاية الجوع حتى يتيسر له الاعتدال ، ولا يذكره أن العارف الكامل يستغنى عن الرياضة ، فإن الشيطان يجد متعلقات من قلبه فيلقى إليه كل ساعة : إنك عارف كامل ، وما الذى فاته من المعرفة والسكال . بل كل من عادة إبراهيم الخواص أن يخوض مع المريد في كل رياضة كان يأمره بها ، كيلا يخطر بباله أن الشيخ لم يأمره بما لم يفعل فيفتره ذلك من رياسته : والقوى إذا اشتغل بالرياضة وإصلاح الخير لزمه النزول إلى أحد الضعفاء تشبهاً بهم وتلفظاً في سياقتهم إلى السعادة . وهذا ابتلاء عظيم للأتقياء والأولياء . وإذا كان حد الاعتدال خفياً في حق كل شخص فالحزم والاحتياط ينبغى أن لا يترك في كل حال . ولذلك أدب عمر رضى الله عنه ولده عبد الله إذ دخل عليه فوجده يأكل لحماً مأخوفاً بسمن ، فغلا بالندرة وقال : لا أم لك كل يوماً خبزاً وخبثاً ، ويوماً خبزاً ولبناً ، ويوماً خبزاً وسمناً ، ويوماً خبزاً وزيثاً ، ويوماً خبزاً وملحاً ، ويوماً خبزاً فقاراً . وهذا هو الاعتدال ، فاما المواظبة على اللحم والشهوات فأفراط وإسراف ، ومهاجرة اللحم بالسكينة إقتار . وهذا قوام بين ذلك والله تعالى اعلم .

### بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام

إعلم أنه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان هما أعظم من أكل الشهوات ؛ أحدهما : أن لا تقدر النفس على ترك بعض الشهوات فقتضيتها ، ولكن لا يريد أن يعرف بأنه يشتتها فيخفى الشهوة ويأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة . وهذا هو الشر الخفى . سئل بعض العلماء عن بعض الزهاد فسكت عنه فقيل له : هل تعلم به بأساً ؟ قال : يأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة . وهذا آفة عظيمة ، بل حتى العبد إذا ابتلى بالشهوة وحبها ان يظهرها فإن هذا صدق الحال ، وهو يدل عن فوات الجماعة بالأعمال فإن إخفاء النفس وإظهار ضده من السكال هو هو نقصان متضاعفان ، والكذب مع الإخفاء كذبان ، فيكون مستحقاً لمقتين ولا يرضى منه إلا بتوبتين صادقتين .

(١) حديث : كان يحب العسل ويأكله . متفق عليه من حديث عائشة : كان يحب الخلاء والعسل ... الحديث . وفيه قصة شربه العسل عدد بعض نسائه .

ولذلك شدد أمر المنافقين فقال تعالى ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ لأن الكافر كفر وأظهر وهذا كفر وسر . فكان ستره لكفره كفراً آخر لأنه استخف بنظر الله سبحانه وتعالى إلى قلبه وعظم نظر الخلقين فحيا الكفر عن ظاهره . والمأفون يتلون بالشهوات بل بالمعاصي ولا يتلون بالرياء والنش والإخفاء . بل كمال المعارف أن يترك الشهوات لله تعالى ويظهر من نفسه الشهوة إسقاطاً لمازله من قلوب الخلق . وكان بعضهم يشتري الشهوات ويصلتها في البيت وهو فيها من الزاهدين ، وإنما يقصد به تليس حاله ليصرف عن نفسه قلوب الغافلين حتى لا يشوشون عليه حاله .

فتأية الزهد الزهد في الزهد : بإظهار عنده ، وهذا عمل الصديقين . فإنه جمع بين صديقين كما أن الأول جمع بين كذابين . وهذا قد حل على النفس ثقتين وجزءها كأس الصبر مرتين مرة يشربه ومرة ومية ؛ فلا جرم أولئك يؤتون أجراً مرتين بما صبروا . وهذا يضاهي طريق من يعطى جبراً فيأخذه ويرد سرا ليكسر نفسه بالذل جبراً وبالقدر سرا . فمن فاته هذا فلا ينبغي أن يفوته إظهار شهوته وقصائه والصدق فيه ، ولا ينبغي أن يمره قول الشيطان : إنك إذا أظهرت أقدى بك فتركه إصلاً لغيرك ، فإنه لو قصد إصلاح غيره لكان إصلاح نفسه أم عليه من غيره ، فهذا إنما يقصد الرياء المجرد وروجه الشيطان عليه في معرض إصلاح غيره ، فذلك نقل عليه ظهور ذلك منه وإن علم أن اطلاع عليه ليس يقتدى به الفعل أو لا ينزجر باعتقاده أنه تارك للشهوات .

الآفة الثانية : أن يقدر على ترك الشهوات لكنه يفرح أن يعرف به فيشتهر بالتعفف عن الشهوات ، فقد خالف شهوة ضميعة وهي شهوة الأكل وأطاع شهوة هي شر منها وهي شهوة الجاه ، وذلك هي الشهوة الخفية فربما أحس بذلك من نفسه فكسر هذه الشهوة أكد من كسر شهوة الطعام فليأكل فهو أول له . فقال أبو سليمان : إذا قدمت إليك شهوة وقد كنت تاركاً لها فأصب منها شيئاً يسيراً ولا تعط نفسك منهاها ، فتكون قد استعطت عن نفسك الشهوة وتكون قد نضمت عليها إذ لم تعطها شهوتها . وقال محمد بن جعفر الصادق : إذا قدمت إلى شهوة نظرت إلى نفسي فإن هي أظهرت شهوتها أعلمتها منها وكان ذلك أفضل من منها ، وإن أخفت شهوتها وأظهرت العيوب عنها طافتها بالترك ولم ألتها منها شيئاً ، وهذا طريق في عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية .

وبالجملة من ترك شهوة الطعام ووقع في شهوة الرياء كان كثر هرب من عقرب وفزع إلى حية ؛ لأن شهوة الرياء أضر كثيراً من شهوة الطعام والله ولي التوفيق .

### القول في شهوة الفرج

اعلم أن شهوة الرقاق سلطت على الإنسان للمنافقين ؛ إحداهما : أن يدرك لذته فيقيس به لذات الآخرة . فإن لذات الرقاق لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد ، كما أن النار والامها أعظم آلام الجسد . والترغيب والترهيب يسوق الناس إلى سعادتهم وليس ذلك إلا بالمحسوس ولذته محسوسة مدركة ، فإن ما لا يدرك بالذوق لا يعظم إليه الشوق .

الفائدة الثانية : بقاء النسل ودوام الوجود فهذه قائمتها ، ولكن فيها من الآفات ما تهلك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم تقهر ولم ترد إلى حد الاعتدال . وقد قيل في تأويل قوله تعالى ﴿ربنا ولا نجعلنا مالا طلاقنا به﴾ معناه شدة الغلة . وعن ابن عباس : في قوله تعالى ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ قال : هو قيام الذكر . وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه قال في تفسيره : الذكر إذا دخل . وقد قيل : إذا

قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله (١) . وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلي وهي ومني (٢) » وقال عليه السلام « النساء حائل الشيطان ولولا هذا الشهوة لما كان للنساء سلطنة على الرجال (٣) » .

وروى أن موسى عليه السلام كان جاهلاً في بعض مجالسه إذ أقبل إليه إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألواناً ؛ فلما دنا منه خلع البرنس فوضه ، ثم أتاه فقال : السلام عليك يا موسى ، فقال له موسى من أنت ؟ فقال : أنا إبليس ، فقال : لأحياك الله ما جاء بك ؟ قال : جئت لأسلم عليك لئلا تترك من الله ومكانك منه ، قال : فما الذي رأيت عليك ؟ قال : برنس أخضف به قلوب بني آدم قال : فما الذي إذا سمعه الإنسان استحوذت عليه قال : إذا أصبغت نفسه واستكفر عمله ونسى ذنوبه ، وأحذرك ثلاثاً : لا تغفل بامرأة لاتعمل لك فائدة ماعلا رجل بامرأة لاتعمل له إلا كسبت صاحب دون أصحابي حتى أقتله بها وأقتنابها ، ولا تعاهد الله عهداً إلا وفيت به ، ولا تخرج من صدقة إلا أمضيتها فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كسبت صاحب دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء بها . ثم ولى وهو يقول : علم موسى ما يحذر به بني آدم . وعن سعيد بن المسيب قال : ما بهت الله نبياً فمأخلا إلا لم يياس إبليس أن يهلكه بالنساء ولا شيء أخوف عندي منهن ، وما بالمدينة بيت أدخله إلا يبتى ويبيت أبقي أغتسل فيه يوم الجمعة ثم أروح . وقال بعضهم : إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندى وأنت سهمى الذى أرمى به فلا أخطئ ، وأنت موضع سرى وأنت رسولى فى حاجتى . فنصف جنده الشهوة ونصف جنده الغضب .

وأعظم الشهوات شهوة النساء . وهذه الشهوة أيضا لها إفراط وتضييظ واعتدال ، فالإفراط : ما يقهر العقل حتى يصرف همه الرجال إلى الاستماع بالنساء والجوارى ، فيحرم عن سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدين حتى يجر إلى اتحام الفواحش . وقد ينتهى إفراطها بطاعة إلى أمرين شنيعين : أحدهما : أن يتناولوا ما يقوى شهواتهم على الاستكثار من الواقع - كما قد يتناول بعض الناس أدوية تقوى المعدة لتعظم شهوة الطعام - وما مثال ذلك إلا كمن ابتلى بسباع ضارفة وحيات عادية فيقتام عنه فى بعض الأوقات فيحتال بإثارتها وتجييعها ثم يشتغل بإصلاحها وعلاجها ، فإن شهوة الطعام والواقع على التحقيق الآم يريد الإنسان الخلاص منها فيدرك لذة بسبب الخلاص .

فإن قلت : فقد روى فى غريب الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « شكوت إلى جبرائيل ضعيف الواقع فأمرنى بأكل الحريصة (١) » ؟ فأعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان تحت نوة وجب عليه تحصينها بالامتناع وحرم على غيره تكاسن وإن ملقهن ، فكان طلبه القوة لهذا لا للتمتع .

والأمر الثانى : أنه قد تنهى هذه الشهوة ببعض الضلال إلى العشق وهو غاية الجهل بما وضع له الواقع ، وهو مجاوزة فى البهيمية لحد البهائم لأن المشتق ليس يقنع بإراقة الواقع وهى أقبح الشهوات وأجدرها أن تستحي منه حتى اعتقد أن الشهوة لا تقضى إلا من عمل واحد ، والبهيمة تقضى الشهوة أين اتفق تشكتن به ؟ وهذا لا يمكن

(١) حديث ابن عباس موقوفاً مسنداً فى قوله تعالى (ومن شر غلق إذا وقب) قال هو قيام الذكر وقال الذى أسنده : الذكر إذا دخل . هذا حديث لا أصل له . (٢) حديث « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلي وشر مني » تقدم فى السعوات . (٣) حديث « النساء حائل الشيطان » أخرجه الأصفهاني فى الترغيب والترهيب من حديث خالد بن زيد الجهنى بإسناد فيه جهالة . (٤) حديث « شكوت إلى جبريل ضعف الواقع فأمرنى بأكل الحريصة » أخرجه العقيلي فى الضعفاء والطبراني فى الأوسط من حديث حذيفة وقد تقدم وهو موضوع .

إلا بشخص واحد معين حتى يزداد به ذلاً إلى ذلّ وعبودية إلى عبودية ، وحتى يستسخر العقل لخدمة الشهوة وقد خلق ليكون مطاعاً لا يكون خادماً الشهوة ومعتلاً لأجلها . وما العشق إلا سمة إفراط الشهوة وهو مرض قلب فارغ لا م له . وإنما يجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر والتفكير ، وإلا فإذا استحكك صدره ، فكذلك عشق المال والجاه والمقام والأولاد حتى حب السلب بالطيور والترد والقطرنج ، فإن هذه الأمور قد تستولى على طائفة بحيث تنص عليهم الدين والدنيا ولا يصبرون عنها ألبتة .

ومثال من يكثر سورة العشق في أول انبجائه مثال من يصرف عتاه الدابة عند توجيهها إلى باب لتدخله ، وما أهون منها بصرف عتاتها . ومثال ذلك من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل ويجاور الباب ثم يأخذ بذنها ويجرها إلى ورائها . وما أعظم الفجوات بين الأمرين في اليسر والعسر ، فليكن الاحتياط في بدايات الأمور فأما في آخرها فلا تقبل العلاج إلا بمجد جيد يكاد يؤدي إلى نزح الروح .

فإذا نزع إفراط الشهوة أن يغلب العقل إلى هذا الحد وهو مذموم جداً ، وتقرطها : بالمنة أو بالضعف عن إمتاع المشكوة . وهو أيضاً مذموم . وإنما المحمود أن تكون معتدلة ومطبعة للعقل والشرع في انقباضها وانبساطها . وبها أفرطت فكسرها بالجوع والنكاح قال صلى الله عليه وسلم « معاشر الشباب عليكم بالعبادة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فالصوم له وجاء » (١)

### بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله

اعلم أن المريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغل نفسه بالتزويج فإن شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجده إلى الأنس بالزوج ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله ولا يفرقه كذلك نكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان لا يشغل قلبه جميع مافي الدنيا عن الله تعالى (٢) فلا تقاس الملائكة بالخدادين . ولذلك قال أبو سليمان الداراني : من تزوج فقد ركن إلى الدنيا ؟ وقال ما وأيت مريد أتزوج يثبت على حاله الأول . وقيل له مرة : ما أحوجك إلى امرأة تأنس بها ؟ وقال : لا أنسى الله بها ، أي أن الأنس بها يمنع الأنس بالله تعالى . وقال أيضاً : كل ما أشغلك من الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشغوم . فكيف يقاس غير رسول الله صلى الله عليه وسلم به ؟ وقد كان استغرافه بحب الله تعالى بحيث كان يجد استغرافه فيه إلى حد كان يعني منه بعض الأحوال أن يسرى ذلك إلى قلبه فهدمه . فلذلك كان يضرب يده على خذ عائشة أحياناً ويقول « كليني يا عائشة » لتغلبه بكلامها عن عظم ما هو فيه لتقصير طاعة قلبه عنه (٣) فقد كان طبعه الأنس بالله عز وجل ، وكان أنه بالخلق طارحاً رفقاً بيده ، ثم إنه كان لا يطيق الصبر مع الخلق إذا جالسهم فإذا ضاق صدره قال « أرحنا بها يا بلال » (٤) حتى إلى ما هو قرة عينه (٥) فالضعيف إذا لاحظ أحواله في مثل هذه الأمور فهو مغرور لأن الأقيام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله صلى الله عليه وسلم . فشرط المريد المزية في الابتداء إلى أن يقوى في المعرفة ، إذ لم تغلب الشهوة فإن غلبت الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم ، فإن لم تنفع الشهوة بذلك وكان بحيث لا يقدر على حفظ الدين مثلاً وإن قدر على حفظ الفرج فالتكاح له أولى لتسكن الشهوة ، وإلا فهما لم يحيط عيته لم يحفظ عليه فكره

(١) حديث « معاشر الشباب من استطاع منكم النكاح فليتزوج ... الحديث » تقدم في النكاح . (٢) حديث : كان لا يشغل قلبه عن الله تعالى جميع مافي الدنيا . تقدم . (٣) حديث : كان يضرب يده على خذ عائشة أحياناً ويقول « كليني يا عائشة » لم أجده أصلاً . (٤) حديث « أرحنا بها يا بلال » تقدم في الصلاة . (٥) حديث : إن الصلاة كانت قرة عينه . تقدم أيضاً .

ويُفرق عليه همه ، وربما وقع في بلية لا يطيعتها ، وزنا العين من كبار الصغار وهو يؤدي على القرب إلى الكبيرة الفاحشة وهي زنا الفرج ، ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه ، قال عيسى عليه السلام : إياكم والنظرة فإنها تزور في القلب شهوة وكفى بها قتة ، وقال سعيد بن جبير : إنما جاءت الفتنة إداود عليه السلام من قبل النظرة . ولذلك قال لابنه عليه السلام : يا بني امش خلف الأسد والأسود ولا تمش خلف المرأة . وقيل ليحيى عليه السلام : ما به الزنا ؟ قال : النظر والتبصر . وقال الفضيل : يقول إبليس هو قومي القديمة وسهمي الذي لا أعطى . به يعني النظر . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والنظرة منهم مسموم من سهام إبليس فمن تركها خوطا من الله تعالى أصطاه الله تعالى إيماناً يجد حلاله في قلبه » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « ما تركت بعدى قتة أضرت على الرجال من النساء » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النساء » (٣) وقال تعالى « قل للزواني يفضوا من أبصارهم » الآية وقال عليه السلام « لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعيمان تزنيان وزناهما النظر ، والبدان تزنيان وزناهما البطن ، والرجلان تزنيان وزناهما المشي . والعلم يزني وزناه القلب ، والقلب بهم أو تبغى ويصدق ذلك الفرج أو يكذب » (٤) وقالت أم سلمة : استأذن ابن أم مكتوم الأعشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وميمونة جالستان ، فقال عليه السلام « احتجبا » قلنا : أليس بأعشى لا يهصر ؟ فقال « وأتيا لا تبصرانه » (٥) وهذا يدل على أنه لا يجوز للنساء مجالسة العيمان كما جرت به العادة في المآتم والولائم ، فيحرم على الأعشى الخلوة بالنساء ، ويحرم على المرأة مجالسة الأعشى وتهديق النظر إليه لغير حاجة . وإن عاجوز النساء محادثة الرجال والنظر إليهم لأجل عموم الحاجة ، وإن قدر على حفظ عينيه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالتسكح أول به ، فإن الشرف الصبيان أكثر ، فإنه لو مال قلبه إلى امرأة أمكنه الوصول إلى استباحتها بالتسكح . والنظر إلى وجه الصبي بالهوة حرام ، بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الأمر بحيث يدرك التفرقة بينه وبين المتصلي لم يحل له النظر إليه .

فإن قلت : كل ذي حس يدرك التفرقة بين الجميل والقيبح لا محالة ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة ؟ فأقول : لست أعطى تفرقة العين فقط ، بل ينبغي أن يكون إدراك التفرقة كإدراك التفرقة بين شجرة خضراء وأخرى يابسة وبين ماء صاف وماء كدر ، وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها وشجرة تساقطت أوراقها ، فإنه يميل إلى إحداها بعينه وطبعه ولكن ميلا خاليا عن الشهوة ، ولأجل ذلك لا يشتكى ملابس الأزهار والأنوار وتقييلها ، ولا تقبيل الماء الصافي ، وكذلك الشبهة الحسنة قد تميل العين إليها وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح ولكنها تفرقة لاشهوة فيها . ويعرف ذلك بميل النفس إلى القرب والملازمة . فمهما وجد ذلك الميل في قلبه وأدرك تفرقه بين الوجه الجميل وبين الثياب الحسن والأنواب المثقفة والسقوف المذهبة فنظره نظر شهوة فهو حرام ، وهذا مما يتهاون به الناس ويمرحم ذلك إلى المعاطب وهم لا يشعرون .

قال بعض التابعين ما أنا بأخوف من السبع العناري على الشاب التامك من غلام أمرد يجلس إليه . وقال

(١) حديث « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس .. الحديث » قدم أيضاً . (٢) حديث « ما تركت بعدى فتنة أضرت على الرجال من النساء » متفق عليه من حديث أسامة بن زيد . (٣) حديث « اتقوا فتنة النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري .

(٤) حديث « لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعيمان تزنيان ... الحديث » أخرجه مسلم والبيهقي واللفظ له من حديث أبي هريرة واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس نحوه (٥) حديث أم سلمة : استأذن ابن أم مكتوم الأعشى وأنا وميمونة جالستان فقال « احتجبا » الحديث أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح .

سفیان : لو أن رجلا عث بفلام بين أصبعين من أصابع رجله يريد الصوة لكان لواطاً . وعن بعض السلف قال : سيكون في هذه الأمة ثلاثة أصناف لوطيون : صنف يظنون ، وصنف يصالحون ، صنف يعملون .

لأن آفة النظر إلى الأحداث عظيمة ، فهما يجوز المريد عن غض بصره وضبط فكره فالصواب له أن يكسر شهوته بالشكاح ؛ فرب نفس لا يمكن توقاتها بالمجوع .

وقال بعضهم : غلبت على شهوتي في بدء إرادتي مما لم أطق فأكثر العنجيج إلى الله تعالى فرأيت شخصاً في المنام فقال : مالك ؟ فشكوت إليه فقال : تقدم إلى ، فتقدمت إليه فوضع يده على صدرى فوجلت بردما في فؤادي وجميع جسدى ، فأصبحت وقد زال ما بي فقيت معافى سنة ، ثم طودنى ذلك فأكثر الاستغاثة فأثاني شخص في المنام فقال لى : أعجب أن يلعب بآدم وأضرب عنقه ؟ قلت : نعم ، فقال : مد رقبك . فمدتها لجرديساً من نور فضرب به عنق فأصبحت وقد زال ما بي ، فقيت معافى سنة ، ثم طودنى ذلك أو أشد منه فرأيت كأن شخصاً قبا بين جنى وصدرى يخاطبني ويقول : ويحك كم نسأل الله تعالى رفع ما لا يجب رفعه ؟ قال . فتزوجت فأقطع ذلك عني وولدت لى .

ومهما احتاج المريد إلى الشكاح فلا ينبغي أن يترك شرط الإرادة في ابتداء الشكاح ودوامه ، أما في ابتداء الثانية الحسنة ، وفي دوامه بحسن الخلق وسداد السيرة والقيام بالحقوق الواجبة كما فصلنا جميع ذلك في كتاب آداب الشكاح فلا نطول بإعادته — وعلامة صدق إرادته أن ينكح فقيرة متدنية ولا يطلب الثنية . قال بعضهم : من تزوج غنية كان له منها خمس خصال : مغالة الصداق ، وتسويق الزفاف ، وفوت الخمة ، وكثرة النفقة ، وإذا أراد طلاقها لم يقدر خوفاً على ذهاب مالها . والفقيرة بخلاف ذلك . وقال بعضهم : ينبغي أن تكون المرأة دون الرجل بأربع وإلا استعقرته : بالنس ، والطول ، والمسال ، والحسب . وأن تكون فوقه بأربع : بالجمال ، والأدب ، والورع ، والخلق . وعلامة صدق الإرادة في دوام الشكاح الخلق .

تزوج بعض المريد بن بامرأة فلم يزل يعضدها حتى استحييت المرأة وشكت ذلك إلى أبيها وقالت : قد تحيرت في هذا الرجل أنا في منزله منذ ستين ماضيت إلى الخلا . قط إلا وحمل الماء قبلى إليه ؟ وتزوج بعضهم امرأة ذات جمال فلما قرب زفافها أصابها الجدري فاشتد حزن أهلها لذلك خوفاً من أن يستبجها ، فأداهم الرجل أنه قد أصابه رمد . ثم أراح أن بصره قد ذهب حتى زكت إليه قرال عنهم الحزن ، فقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت ففتح عينيه حين ذلك ، فقيل له في ذلك فقال : تعمدت لأجل أهلها حتى لا يحزنوا ، فقيل له : قد سبقت إخوانك هذا الخلق . وتزوج بعض الصوفية امرأة سبغت الخلق فكان يصبر عليها فقيل له : لم لا تطلقها ؟ فقال : أعشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيتأذى بها ، فإن تزوج المريد فهكذا ينبغي أن يكون ، وإن قدر على الترك فهو أولى له ، إذا لم يمكنه الجوع بين فضل النكاح وسلوك الطريق وعلم أن ذلك يشغله عن سآله ، كما روى أن محمد بن سليمان الهاشمي كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم ، فكتب إلى أهل البصرة وعلماها في امرأة يتزوجها فأجمعوا اكهم على رابعة العلوية رحماً الله تعالى . فكتب إليها : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد . فإن الله تعالى قد ملكني من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم ، وليس تمضي الأيام والليالي حتى أتتها مائة ألف وأنا أسير لك مثلها فأجيبني . فكتبته إليه : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن والرغبة فيها تورث المم والحزن ، فإن أتاك كتابي فهي زائد وقد علمناك وكفى وصي نفسك ولا تجعل الرجال أوصيائك فيقتسموا

ترائك ، فهم الدهر وليكن فطرك الموت ، وأما أنا فلو أن الله تعالى خولني أمثال الذي خولك وأضاعها ماسرفاً أن شتمك عن الله طرقة عين .

ومنه إشارة إلى أن كل ما يضل عن الله تعالى فهو نقصان ، فليست المرید إلى حاله وقلبه فإن وجدته في العزوبة فهو الأقرب ، وإن عجز من ذلك فالنكاح أولى به . ودواء هذه الة ثلاثة أمور : الجوع ، وغض البصر ، والاشتغال يشغل يستولى على القلب ، فإن لم تنفع هذه الثلاثة فالنكاح هو الذي يتأصل مادتها فقط . ولهذا كان السلف يبادرون إلى النكاح وإلى ترويع البنات .

قال سعيد بن المسيب : ما إيس إيليس من أحد إلا وأتاه من قبل النساء . وقال سعيد أيضاً — وهو ابن أربع وثمانين سنة ، وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يمشو بالأخرى — ما شيء أخوف عندي من النساء . وعن عبد الله بن أبي ربيعة قال : كنت أجالس سعيد بن المسيب فتعقدني أياً ما فلما أتته قال أين كنت ؟ قلت : توفيت أمي فاشتغلت بها ، فقال : هلا أخبرتنا فهدنا ؟ قال : ثم أردت أن أقوم فقال : هل استحدثت امرأة ؟ فقلت : يرحمك الله ومن صلى الله عليه وسلم وزوجني على درهمين أو ثلاثة ؟ قال : أنا ، فقلت : وتفضل ؟ قال . نعم ، الحمد لله تعالى وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وزوجني على درهمين — أو قال ثلاثة — قال : فقمتم وما أدري ما أصنع من الفرج ؟ فحضرت إلى منزلي وجعلت أفكر ممن أخذ ممن أستدين فضليت المغرب وانصرفت إلى منزلي فأمرجيت ، وكنت صائماً فقدمت عثائي لأظفر — وكان خيراً وزيتاً — وإذا باني يقرع فقلت : من هذا ؟ قال : سعيد ، قال : فأفكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب — وذلك أنه لم ير أربعين سنة إلا بين داره والمسجد — قال : فخرجت إليه فإذا به سعيد بن المسيب فظننت أنه قد بدله ، فقلت : يا أبا محمد لو أرسلت إلى لآتيك ؟ فقال : لا ، أنت أحق أن تأتي ، قلت : فما تأمر ؟ قال : إنك كنت رجلاً عربياً فتزوجت ففكرت أن أيتك الليلة وحده ، وهذه امرأتك وإذا هي قائمة خلفه في طوله ثم أخذ بيدها فدفعا في الباب ورده فسقطت المرأة من الحياء ، فاستترقت من الباب ثم تقدمت إلى القصعة التي فيها الخبز والزيت فوضعتها في ظل السرج لكيلا تراه ، ثم صعدت السطح فرميت الجيران لجأوني وقالوا : ما شأنك ؟ قلت : وعصم زوجتي سعيد بن المسيب ابنته اليوم وقد جاء بها الليلة على غفلة فقالوا : أو سعيد زوجك ؟ قلت : نعم ، قالوا : وهي في الدار ؟ قلت : نعم ، فنزلوا إليها وبلغ ذلك أمي فجاءت وقالت : وجيبي من وجهك حرام إن مستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام ، قال : فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها ، فإذا هي من أجل النساء واحفظ الناس لكتاب الله تعالى واعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحق الزوج ، قال فكشفت شرا لا يأتيني سعيد ولا آتيه ، فلما كان بعد الشهر أتيت وهو في جلسته فسلبت عليه فرد على السلام ولم يكلمني حتى تفرق الناس من المجلس ، فقال : ما سأل ذلك الإنسان ؟ فقلت : بنحير يا أبا محمد على ما يجب العديق وبكره العدو قال : إن رابك منه امر فتوكل والعسا فانصرفت إلى منزلي فوجه إلى يشرين ألف درهم .

قال عبد الله بن سليمان : وكانت بنت سعيد بن المسيب هذه قد خطبها منه عبد الملك بن مروان لابنته الوليد حين ولاد العهد فأبى سعيد أن يزوج . فلم يزل عبد الملك يحال على سعيد حتى ضرب به مائة سوط في يوم بارد وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف ، فاستحال سعيد في الزفاف تلك الليلة يسرفك غائقة الشهوة ووجوب المبادرة في الدين إلى تعطته نارها بالنكاح رضى الله تعالى عنه ورحمه .

### بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين

اعلم ان هذه الشهوة هي أغلب الشهوات على الإنسان وأصاها عند الهيجان على العقل . إلا ان مقتضاها فيبيع



وروى أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً فدخلت عليه امرأة فأنكته فامتنع عليها وخرج حاربا من منزله وتركها فيه قال سليمان : فرأيت تلك الليلة في المنام يوسف عليه السلام وكأني أقول له : أنت يوسف ؟ قال : نعم أنا يوسف الذي همموا أنت سليمان الذي لهم أشار إلى قوله تعالى ( ولقد همت به وهم بها لولا أنذرناهم به ) وعنه أيضا ما هو أجيب من هذا . وذلك أنه خرج من المدينة حاجا ومعه رفيق له حتى تزل بالأيام فقام رفيقه وأخذ السفرة واطل إلى السوق ليبْتَاع شيئا . وجلس سليمان في الخيمة وكان من أجل الناس وجها وأورعهم ، فبصرت به اعرابية من قلة الجبل وانحدت إليه حتى وقفت بين يديه . وعليها البرقع والقفازان . فأسفرت عن وجهها كما كانت فلقة قر وقالت : أشتى فظن أنها تريد طعاما فقام إلى فئحة السفرة ليطلعها فقالت : لست أريد هذا إنما أريد ما يكون من الرجل إلى أهله ؟ فقال : جهزك إلى إبليس ؟ ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ في التحبيب فلم يزل يبكي ، فلما رأت منه ذلك سدلَت البرقع على وجهها وانصرفت راجعة حتى بلغت أهلها ، وجاء رفيقه فرأه وقد انتفخت عيناه من البكاء واقطع حلقه فقال ما يبكيك ؟ قال : خير ذكرت صليتي ، قال : لا والله إلا أنك قصة إنما صعدك بصيبتك منذ ثلاث أو نحوها ، فلم يزل به حتى أخبره خبر الاعرابية ، فوضع رفيقه السفرة وجعل يبكي بكاء شديدا فقال سليمان : وأنت ما يبكيك ؟ قال : أنا أشتى فالبكاء منك لأنني أشتى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها ، فلم يزل يبكيان ، فلما انتهى سليمان إلى مكة فمسي وطاف ثم أتى الحجر ، فاحتج بثوبه فأخذته عيته فنام وإذا رجل وسيم طوال له شارة حسنة ورائحة طيبة فقال له سليمان : رحمتك الله من أنت ؟ قال له : أنا يوسف ، قال : يوسف الصديق ؟ قال نعم قال : إن في شأنك وشأن امرأة العزيز لعجبا ! فقال له يوسف : شأنك وشأن صاحبة الأبناء أعجب .

وروي عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (واطلق ثلاثة نفر من كان قبلكم حتى آرواهم الميت إلى غار فدخلوا فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم النار . فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم فقال رجل منهم : اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغني قبليهما أملا ولا مالا ، فتأني في طلب الشجر يوما فلم أدرس عليهما حتى تأما خليت لهما غويهما

(١) حديث : « من عشق ففف ففكم ثبات فهو شيد » أخرجه الحاكم في التاريخ من حديث ابن عباس وقال أنكر على سويد بن سعيد ، ثم قال إن يحيى لما ذكر له هذا الحديث قال لو كان لي فرس ورمح غزوت سويدا ورواء الحرائطي من غير طريق سويد بسند فيه نظر (٢) حديث « سبعة يظلمهم الله في ظله ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

فوجدتهما نائمين ففكرت أن أغيق قبليهما أهلاً ومالاً ، فلبثت والقبح في يدي أنتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر والصبية يتضاغون حول قدي فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فافرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه . وقال الآخر : اللهم إنك تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إلى فرأودتها من نفسها فامتعت مني حتى أملت سنة من السنين ، لجأني فأعطيتها مائة وعشرين ديناراً على أن تحليني وبين نفسي ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت : اتق الله ولا تنقض الحاتم إلا بحقه ، فصرجت من الوقوع عليها فاصرفت عنها وهي من أحب الناس إلى وتركت الذهب الذي أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه ، فافرجت الصخرة عنهم غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها . وقال الثالث : اللهم إننا استأجرت أجراً وأعطينتهم أجورهم غير رجل واحد فإنه ترك الأجر الذي له وذهب فتميت له أجره حتى كثرت منه الأموال ، لجأني بعد حين فقال : يا عبد الله أعطني أجرى ، فقلت كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ؛ فقال يا عبد الله أتترأى ؟ فقلت : لا استهزئ بك فخذ ، فاستأفه واخذه كله ولم يترك منه شيئاً ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فافرجت الصخرة فخرجوا بمشون<sup>(١)</sup> ، فهذا فضل من تمكن من قضاء هذه الشهوة ففهم وقريب منه من تمكن قضاء شهوة العين ، فإن العين مبداء الزنا لحفظها مهم ، وهو صسر من حيث إنه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه والآفات كلها منه تنشأ . والنظرة الأولى إذا لم تقصد لا يؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها قال صلى الله عليه وسلم « لك الأولى وعليك الثانية »<sup>(٢)</sup> ، أي النظرة.

وقال العلماء بن زياد : لا تتبع بصرك رداء المرأة فإن النظر يزرع في القلب شهوة ، وقلبا يخطر الإنسان في ترده عن وقوع البصر على النساء والصبيان . فها تخاف إلى الحسن تقاضى الطبع المعاودة وعنده يبنى أن يقرر في نفسه أن هذه المعاودة عين الجمل ، فإنه إن حقق النظر فاستحسن ثارت الشهوة وهجر عن الوصول فلا يحصل له إلا التحصر ، وإن استعجب لم يلتد وتأم لأنه قصد الالتذاذ فقد فعل ما آله ، فلا يخطر في كذا حائيه عن معصية وعن تألم وعن تحصر ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات ، فإن أخطأت عينه وحفظ الفرج مع التمسك فذلك يستدعي غاية ونهاية التوقيق .

فقد روى عن أبي بكر بن عبد الله المزني : أن قصاباً أولع بجمارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها في حاجتهم إلى قرابه أخرى فبعضها وراودها عن نفسها فقالت له : لا تفعل لأننا أشد حياء منك لي ولكني أخاف الله ، قال : فأنت تخافينه وأنا لا أخافه افرجع ثانياً فأصابه العطش حتى كاد يهلك فإذا برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل فسأله فقال : مالك؟ قال : العطش ، قال : تعالى حتى ندعو الله بأن نطلبنا صحابة حتى ندخل القرية ، قال مالي من عمل صالح فأدعوه ، فادع أنت ، قال : أنا أدعو وأمن أنت على دعائي فدعا الرسول وأمن هو فأظلمتا صحابة حتى انتهيا إلى القرية ، فأخذ القصاب إلى مكانه فالت الصحابة معه ، فقال له الرسول : زعمت أن ليس لك عمل صالح وأنا الذي دعوت وأنت الذي أمنت فأظلمتا صحابة ثم تبتمك لتجربني بأمرك ، فأخبره فقال الرسول : إن التائب عند الله تعالى يمكن ليس أحد من الناس بمكانه

وعن أحمد بن سعيد المادعي أبيه قال : كان عندنا بالكوفة شاب متعب لا زلزم المسجد الجامع لا يكاد يفارقه وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السمعت ، فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشفت به وطال عليها ذلك ، فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد فقالت له : يا فتى اسمع مني كلمات أكلبك بها ثم اعلم ما شئت ،

(١) حديث ابن عمر « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم البيت إلى غار ... فذكر الحديث بطوله رواه البخاري . (٢) حديث « لك الأولى وليست لك الثانية » أي النظرة أخرجه أبو داود والترمذي من حديث برمجة قاله ليلي قال الترمذي حديث غريب .

فرضي ولم يكلمها، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله فقالت له : يا فتى اسمع مني كلمات أكلك بها ، فأطرق ملياً وقال لها : هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون التهمة موضعاً فقالت له : واقه ما وقفت موقفى هذا جهالتهنى بأمرك ولكن ماذا الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا منى ، والذي حلفتى على أن لقيتلك فى مثل هذا الأمر بنفسى لم رقتى أن القليل من هذا عند الناس كثير ، وأتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شىء يعيها ، ووجهة ما أقول لك إن جوارحى كلها مشغولة بك فافقه الله فى أمرى وأمرك ، قال : ففى الشاب إلى منزله وأراد أن يعلى فلم يعقل كيف يعلى ؛ فأخذ قرطاساً وكتب كتاباً ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفة فى موضعها فألقى الكتاب إليها ورجع إلى منزله ، وكان فيه : بسم الله الرحمن الرحيم (على أيتها المرأة أن الله عز وجل إذا عصاه العبد علم فإذا صاد إلى المعصية مرة أخرىها سترها ، فإذا لبس لها ملايحها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرض والجلال والشجر والدواب فمن ذا يطيق غضبه ؟ فإذا كان ما ذكرت يا فتى أن أذكرك يوم أن تكون الساء فيه كالليل وتصير الجبال كالعين وتجوو الأمم لصورة الجبار العظيم ، وإلى واقه قد ضعفت عن إصلاح نفسى فكيف بإصلاح غيرى ؟ وإن كان ما ذكرت حقاً فأنى أدلك على طيب هدى يداوى الكلوم الممرضة والأوجاع المرخصة ذلك الله رب العالمين فأقصده بصدق المسألة فأنى مشغول عنك بقوله تعالى ( وأن نردم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الخناجر كاطمين ما الظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . يعلم غائنة الأعين وما تخفى الصدور ) فأين المهرب من هذه الآية ؟ ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على الطريق فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله كيلاً يراها فقالت : يا فتى لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبداً إلا غدا بين يدى الله تعالى ، ثم بكى بكاء شديداً وقالت : أسأل لك الله الذى يبده مغانح قلبك أن يسبل ما قد صر من أمرك ، ثم إنها تبعت وقالت : امنن على عوصطة أهلها عنك وأوصنى بوصية أعمل عليها ، فقال لها : أوصبك بحفظ نفسك من نفسك وأذكرك قوله تعالى ( وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ) قال : فأطرت وبكى بكاء شديداً أشد من بكائها الأول ، ثم إنها أقامت ولزمت بيتها وأخذت فى العبادة فلم تزل على ذلك حتى ماتت كدداً ، فكان الفتى يذكرها بعد موتها ثم يبكى ، فيقال له : مم بكوك وأنت قد أباستها من نفسك ؟ فيقول : إنى : قد ذبحت طعمها فى أول أمرها وجمعت قطعيتها ذخيراً لى عند الله تعالى فأنا أستحي منه أن أسترده ذخيرة ادخرتها عنده تعالى .

ثم كتاب كسر الشهوتين بحمد الله تعالى وكرمه . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آفات اللسان ، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً وصلاه على سيدنا محمد خير خلقه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وسلم تسليماً كثيراً .

## كتاب آفات اللسان

وهو الكتاب الرابع من ربيع الملهكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحسن خلق الإنسان وعدله ، وألمه نور الإيمان فزيه به وجهه وعلبه البيان فقدمه به وقضه ، وأفاض على قلبه خزائن العلوم فأكله ، ثم أرسل عليه سراً من رحمة وأسله ، ثم ألمه بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقته ، ويكشف عنه ستره الذى أرسله ، وأطلق بالحق مقوله ، وأنصح بالفكر عما أولاه وخوله ،

من علم خضله ونطق سببه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله الذي أكرمه وبجله ، ونبيه الذي أرسله بكتاب أنزله ، وأسمى فضله وبين سببه ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن قبله ما كثر الله عبد وهاله .

أما بعد : فإن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف منتهى الثرية ، فإنه صغير جرمه عظيم طاعته وجرمه ، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والمصيان ، ثم إنه ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موعوم إلا واللسان يتناولوه ويعرض له بإثبات أو نفي فإن كل ما يتناولوه العلم يرب عنه اللسان إما بحق أو باطل ولا شيء إلا والعلم يتناول له ، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء ، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور ، والأذان لا تصل إلى غير الأصوات ، واليد لا تصل إلى غير الأجسام ، وكذا سائر الأعضاء . واللسان رجب الميدان ليس له مرد ولا نجاة منتهى وحد ، له في الخير مجال رحب وله في الشر ذيل سحب ، فمن أطلق عذبة اللسان واهمله مرعى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان وساقه إلى شفا جرف مار إلى أن يضطره إلى البوار ، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيد بهلجام الشرع ، فلا يلفظ إلا قبيحاً ينفعه في الدنيا والآخرة ويكفه من كل ما ينشئ غائلته في عاجله وآجله . وعلم ما محمد فيه إطلاق اللسان أو ينم غاصص عزير والعمل بمقتضاه على من عرفه تقبل عسير ، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان فإنه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه وقد تساهل الخائف في الاحتراز عن آفاته وغواثه والحذر من مصائده وحباله ، وإنه أعظم آفة الشيطان في استغواء الإنسان . ونحن بتوفيق الله وحسن تدبيره نقول بجمع آفات اللسان وذكرها واحدة واحدة محددها وأسبابها وغواثها ، ونعرف طريق الاحتراز عنها ، ونورد ما ورد من الأخبار والآثار في ذمها . فنذكر أولاً الصمت ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لا يفي ، ثم آفة فضول الكلام ، ثم آفة الخوض في الباطل ، ثم آفة المراء والجدال ، ثم آفة الخصومة ، ثم آفة التعرض في الكلام بالتشدد وتكاف السجع والتصاحبة والتصنع فيه وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاسحين المدعين للحطابة ، ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان ، ثم آفة الفتن إما لحيوان أو جاد أو إنسان ، ثم آفة الفتناء بالشر . وقد ذكرنا في كتاب السج ما يحرم من النماء وما يحل فلا نعيد . ثم آفة المزاح ، ثم آفة السخرية والاستهزاء ، ثم آفة إضفاء السر ، ثم آفة الوعد الكاذب ، ثم آفة الكذب في القول والفعل ، ثم بيان التماريض في الكذب ، ثم آفة النجاسة ، ثم آفة التهمة ، ثم آفة نفي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين فيكلم كل واحد بكلام يوافقه ، ثم آفة المدح ، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في لحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأصول الدين ، ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله وجل وعنه الحروف أي قديمة أو عديمة ؟ وهي آخر الآفات وما يتعلق بذلك وجملتها عشرون آفة ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .

### بيان عظيم خطر اللسان وفضية الصمت

لعل أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره إلا بالصمت ، فلذلك منح الشرع الصمت وحث عليه فقال صلى الله عليه وسلم « من صمت نجاة »<sup>(١)</sup> وقال عليه السلام « الصمت حكم وقليل فاعله »<sup>(٢)</sup> أي حكمة وحزم . وروى

#### صكبات آفات اللسان

(١) حديث « من صمت نجاة » أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال غريب وهو عند الطبراني بسند جيد . (٢) حديث « الصمت حكمة وقليل فاعله » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف والبيهقي في الشعب من حديث أنس بلفظ « حكم » بدل « حكمة » وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت قال : والصحيح عن أنس أن لقمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان في كتاب =

عبد الله بن سفيان عن أبيه قال : قلت يارسول الله أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بهذا قال : قل أنتم بالله ثم استقم » قال : قلت فما أتني ؟ فأمرأى بيده إلى لسانه <sup>(١)</sup> وقال عقبة بن عامر : قلت يارسول الله ما التجادة ؟ قال : أمسك عليك لسانك ولا يسعك ينك وياك على خطيئتك <sup>(٢)</sup> وقال سهل بن سعد الساعدي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة » <sup>(٣)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « من وفى شر قبته وذنبه وقلقه فقد وفى شركه » <sup>(٤)</sup> « التقيب : هو البطن والذنب : الفرج ، والقلن : اللسان . فبهذه الشهور الثلاث بما هلك أكثر الخلق ، ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين : البطن والفرج ، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال : تقوى الله وحسن الخلق » وسئل عن أكبر ما يدخل النار فقال : الأجوفان : القم والفرج <sup>(٥)</sup> . فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه على ، ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذ ، فقد قال معاذ بن جبل : قلت يارسول الله أتؤاخذ بما نقول ؟ فقال « تكلمك أمك يا ابن جبل وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟ » <sup>(٦)</sup> وقال عبد الله التقي : قلت يارسول الله حدثني بأمر أعظم به فقال « قل ربني الله ثم استقم » قلت يارسول الله ما أخوف ما تخاف علي ؟ فأخذ لسانه وقال « هذا » <sup>(٧)</sup> « وروى أن معاذاً قال يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لسانه ثم وضع عليه أصبعه <sup>(٨)</sup> وقال أنس بن مالك : قال صلى الله عليه وسلم « لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جواره بوائقه » <sup>(٩)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « من سره أن يسلم فليزلم الصمت » <sup>(١٠)</sup> وعن سعيد بن جبيرة مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان أى تقول اتق الله فينا فإنك إن استقممت استقمنا وإن اعوججت اعوججتنا » <sup>(١١)</sup> ، وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضى الله عنه وهو يد لسانه بيده فقال له : ما تصنع يا خليفة رسول الله ؟ قال : هذا أوردني الموارد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليس شيء من الجسد إلا يشكر إلى الله اللسان على حديثه » <sup>(١٢)</sup> وعن ابن مسعود

== روضة القلاء بسند صحيح إلى أنس . (١) حديث سفيان التقي : أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بعدك ... الحديث ، أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وهو عند مسلم دون آخر الحديث الذى فيه ذكر اللسان . (٢) حديث عقبة بن عامر : قلت يارسول الله ما التجادة ؟ قال « أمسك عليك لسانك ... الحديث » أخرجه الترمذي وقال حسن . (٣) حديث سهل بن سعد « من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة » رواه البخاري (٤) حديث « من وفى شر قبته وذنبه وقلقه ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث أنس بسند ضعيف بافظ « قد وجبت له الجنة » . (٥) حديث : سئل عن أكثر ما يدخل الجنة ... الحديث ، أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه من حديث أبي هريرة . (٦) حديث معاذ : قلت يارسول الله أتؤاخذ بما شؤل ؟ قال « تكلمك أمك وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين . (٧) حديث عبد الله التقي : قلت يارسول الله حدثني بأمر أعظم به ... الحديث رواه النسائي قال ابن عساكر وهو خطأ والصواب سفيان بن عبد الله التقي كما رواه الترمذي وصححه ابن ماجه وقد تقدم قبل هذا خمسة أحاديث . (٨) حديث : إن معاذاً قال : يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج لسانه ثم وضع يده عليه . أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت قال « أصبعه » مكان « يده » . (٩) حديث أنس « لا تستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والحراطي في مقام الأخلاق بسند فيه ضعف وأبو الشيخ في فضائل الأعمال البيهقي في الشعب من حديث أنس باسناد ضعيف . (١٠) حديث « إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رفته ووقع في الإحياء عن سيد بن جبيرة مرفوعاً وإنما هو عن سعيد بن جبيرة عن أبي سعيد رفته ورواه الترمذي موقوفاً على عمار بن زيد وقال هذا أسح . (١١) حديث : إن عمر أطلع على أبي بكر وهو يد لسانه فقال : ما تصنع يا خليفة رسول الله ؟ قال : « لا شيء من الجسد إلا يشكر إلى الله اللسان على حديثه » <sup>(١٢)</sup> أوردني الموارد إن رسول الله صلى الله

أما كان على الصفا يلي ويقول : يا لسان قل خيرا تنتم واسكت عن شر تسلّم من قبيل أن تندم ، فقيل له يا أبا عبد الرحمن أعذا شيء تقوله أو شيء سمعته ؟ فقال : لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه »<sup>(١)</sup> وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كف لسانه ستر الله عورته ومن ملك ضغبه وقاه الله عذابه ومن اعتذر إلى الله قبل عثره »<sup>(٢)</sup> وروى أن معاذ بن جبل قال : يا رسول الله أوصني قال « أعبداك كأنك تراه وعد نفسك في الموت وإن شئت أنا فأك ما هو أم لك من هذا كله » وأشار بيده إلى لسانه<sup>(٣)</sup> وعن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا أخبركم بأيسر العباد وأهونها على البدن . الصمت وحسن الخلق »<sup>(٤)</sup>

وقال أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت<sup>(٥)</sup> وقال الحسن : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله عبدا تكلم فتنم أو سكت فسلم »<sup>(٦)</sup> وقيل لميس عليه السلام : دلنا على عمل ندخل به الجنة قال : لا تتفقوا أبدا ، قالوا : لا نستطيع ذلك ، فقال : فلا تتفقوا إلا بخير . وقال سليمان بن داود عليهما السلام : إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وعن البراء بن عازب قال جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال دلي على عمل يدخلني الجنة ، قال « اطعم الجائع واسق العطشان وأمر بالمعروف ونه عن المنكر فإن لم تفعل فإني أظنك فاكف لسانك إلا من خير »<sup>(٧)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « اخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان »<sup>(٨)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « وإن الله عند لسان كل قائل فليقل الله امرؤ علم ما يقول » وقال عليه السلام « إذا رأيتم المؤمن سمعوا وقورا فادنوا منه فإنه يلحق الحكمة »<sup>(٩)</sup> وقال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس ثلاثة : غائم وسالم وشاحب فالغائم الذي يذكر الله تعالى ، والسالم الساكت ، والشاحب الذي يخوض في الباطل »<sup>(١٠)</sup> وقال عليه السلام « إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه ، وإن لسان المنافق أمام قلبه ، فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم تدبره بقلبه »<sup>(١١)</sup> وقال عيسى عليه السلام : العبادة عشرة أجزء ، تسعة منها في الصمت

== عليه وسلم قال « ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله عز وجل اللسان على حدة » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو يعلى في مسنده والدارقطني في العلل والبيهقي في الشعب من رواية أسلم مولى عمر ، وقال الدارقطني إن الرفوع وهم على الدراوردى قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ولا علة له<sup>(١)</sup> حديث ابن مسعود : أنه كان على الصفا يلي ويقول : يا لسان قل خيرا تنتم . وفيه مرفوعا « إن أكثر خطايا بني آدم في لسانه » أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب بسند حسن .<sup>(٢)</sup> حديث ابن عمر : من كف لسانه ستر الله عورته . الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن .<sup>(٣)</sup> حديث : إن معاذ قال أوصني قال « أعبداك كأنك تراه ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني ورجاله ثقات وفيه انقطاع .<sup>(٤)</sup> حديث صفوان بن سليم مرفوعا « لا أخبركم بأيسر العباد وأهونها على البدن : الصمت وحسن الخلق » أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلًا ورجاله ثقات ورواه أبو الشيخ في طبقات الحديثين من حديث أبي ذر وأبي الدرداء أيضا مرفوعا .

(٥) حديث أبي هريرة « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » متفق عليه .<sup>(٦)</sup> حديث الحسن : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله عبدا تكلم فتنم أو سكت فسلم » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فإنه من رواية إسماعيل بن عياش عن الحجازيين .

(٧) حديث البراء : جاء أعرابي فقال دلي على عمل يدخلني الجنة قال « اطعم الجائع ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا بأسناد جيد . (٨) حديث « اخزن لسانك إلا من خير ... الحديث » أخرجه الطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وله في الجمع الكبير ولا بن جابر في صحيحه نحوه من حديث أبي ذر . (٩) حديث « إذا رأيتم المؤمن سمعوا وقورا فادنوا منه فإنه يلحق الحكمة » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي خالد بلفظ « إذا رأيتم الرجل ندأعطى زهدا في الدنيا وقلة منطق فاقربوا منه فإنه يلحق الحكمة » وقد تهمد . (١٠) حديث ابن مسعود « الناس ثلاثة غائم وسالم وشاحب .. الحديث » أخرجه الطبراني وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ « المجالس » وضمه ابن عدى ولم أجده « ثلاثة » من حديث ابن مسعود . (١١) حديث « إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم ==

وجزه في الغرار من الناس، وقال نيتا: صلى الله عليه وسلم « من كثر كلامه كثرت سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه. ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به » (١).

الآثار: كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام. وكان يشير إلى لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وقال عبد الله بن مسعود: واة الذي لا إله إلا هو ما شيء أخرج إلى طول من لسان، وقال طاوس: لسان سبغ إن أرسلته أكلني. وقال وهب بن منبه: في حكمة آل داود؛ حتى على العاقل أن يكون عارفا بزمانه حافظاً لسانه مقبلاً على شأه. وقال الحسن: ماعقل دينه من لم يحفظ لسانه. وقال الأوزاعي: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - أما بعد: فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه. وقال بعضهم: الصمت يجمع الرجل فضيلتين؛ السلامة في دينه والقيم عن صاحبه. وقال محمد بن واسع لسانك بين يدينا: يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدنار والدرهم. وقال يونس بن عبيد، مامن الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر علمه. وقال الحسن تكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت فقال له: مالك يا أبا بحر لا تكلم؟ فقال له: أخشى الله أن كذبت وأخشاك إن صدقت. وقال أبو بكر بن عياش: اجتمع أربعة ملوك؛ ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيسر، فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقُل، وقال الآخر: إني إذا تكلمت بكلمة ملكتي ولم أملكها وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني وقال الثالث: صعبت للتكلم إن رجعت عليه كله ضره وإن لم ترجع لم تنفعه. وقال الرابع: أنا على رد ما لم أقُل أندم متى على رد ما قلت، وقيل: أقام الصوريون المنز لم يكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة. وقيل ما تكلم الربيع بن خثيم بكلام الدنيا عشرين سنة وكان إذ أصبح وضع دواته وقرطاساً وقلماً فكل ما تكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء.

فان قلت فهذا الفضل الكبير للصمت ماسبه فاعلم ان سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والتبعية والتبعية والرياء والتفان والفضول والمراء وتزكية النفس والجور في الباطل والخسومة والفضول والتعريف والزيادة والتقصان وإيذاء الحق وهتك العورات. فهذه آفات كثيرة وهي سبابة إلى اللسان لا تثقل عليه ولها جلوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان، والخاص فيها قلما يقدر ان يسك اللسان فيطلق بما يجب ويكفه عما لا يجب فان ذلك من غوامض العلم - كما سيأتي تفصيله - ففي الجور خطر وفي الصمت سلامة فلذلك عظمت فضيلته، هذا مع ما فيه من جمع المم ودوام الوقار للفسك والذكر والعبادة والسلامة من نبات القول في الدنيا ومن حاسبه في الآخرة فقد قال الله تعالى: (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد).

وبذلك على فضل لزوم الصمت أمر، وهو أن الكلام أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم هو نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة.

أما الذي هو ضرر محض فليس فلا بد من السكوت، عنه وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تنفي بالضرر. وأما ما لا ينفع فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تصنيع زمان وهو عهد الخمران، فلا يبيح إلا القسم الرابع، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع، وهذا الرابع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنيع والفتية وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجاً يحثي دركه فيكون الإنسان به غافراً. ومن عرف دقائق

= يشوه تدبره بقلبه... الحديث لم أجده مرفوعاً وإنما رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من رواية الحسن البصري قال «كانوا يقولون». (١) حديث «من كثر كلامه كثرت سقطه... الحديث» أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد رواه أبو حاتم بن حبان في روضة الصفاء والبيهقي في الشعب موقوفاً على عمر بن الخطاب...

آفات اللسان - على ما سنده كره - علم قطعا أن ما ذكره صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال «من صمت نجما» (١) فلفظ أوقى وافته جواهر الحكم قطعا وجوامع الكلم (٢) ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعاني إلا خواص العلماء فيما سنده كره من الآفات وعسر الاحتراز عنها ما يعرفه حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى . ونحن الآن نعد آفات اللسان ونبتدئ بأخبأها وترقى إلى الأغلف قليلا ، وتؤخر الكلام في التوبة والقيمة والكذب فإن النظر فيها أطول وهي عشرون آفة فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى .

### الآفة الأولى : الكلام فيما لا يعينك

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التي ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها ، وتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلا إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه ، فإن مضيع به زمانك ومحاسب على عمل أسأفك وتستقيل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان يفتح لك من فتحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه ، ولو هلك الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرا لك فك من كلمة يبنى بها قصرا في الجنة ؟ ومن قدر على أن يأخذ كنزا من السمك فأنه يأخذ مكانه مدة لا يتنفع بها كان غاسرا خيرا خيرا غامينا ، وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الرب العظيم بذكر الله تعالى ، فإن المؤمن لا يكون صوته إلا فكرا ونظرة إلا عبرة ونظرة إلا ذكر (٣) هكذا قال صلى الله عليه وسلم . بل رأس مال العبد أوقاته ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوابا في الآخرة فقد ضيع رأس ماله . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » (٤) بل ورد ما هو أشد من هذا قال أنس . استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجرا مريوطا من الجوع فسحمت أمه عن وجهه التراب وقالت هنيئا لك الجنة يا بني ، فقال صلى الله عليه وسلم « وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره » (٥) وفي حديث آخر : أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كعبا فقال عنه فقالوا مريض غرغ يمشي حتى أتاه فلما دخل عليه قال « أبشر يا كعب » فقالت أمه هنيئا لك الجنة يا كعب فقال صلى الله عليه وسلم « من هذه التألية على الله » قال : هي أي يارسول الله قال « وما يدريك يا أم كعب لعل كعبا قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يضره » (٦) ومعناه أنه إنما تنبأ الجنة لمن لا يحاسب ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه ، وإن كان كلامه في مباح فلا تنبأ الجنة مع المناقشة في الحساب فإنه نوع من العذاب .

(١) حديث « من صمت نجما » تقدم . (٢) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم أوقى جوامع الكلام أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

### الآفة الأولى الكلام فيما لا يعينك

(٣) حديث « للمؤمن أن لا يكون صوته إلا فكرا ونظرة إلا عبرة ونظرة إلا ذكر » لم أجده أصلا وروى محمد بن زكريا الملائ أحد الضعفاء عن أبيه ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إن الله أمرني أن يكون نطقى ذكرا وصمتى فكرا ونظري عبرة » . (٤) حديث « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة . (٥) حديث : استشهد منا غلام يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مريوطه من الجوع .. الحديث وفيه « لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره » أخرجه الترمذي من حديث أنس عنصرا وقال غريب ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت بلفظ الصنف بسند ضعيف (٦) حديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كعبا فقال عنه فقالوا مريض ... الحديث . وفيه « لعل كعبا قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يضره » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث كعب بن عجرة بإسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابي وبين الراوى عنه .



وعن محمد بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « إن أول من يدخل هذا الباب رجل من أهل الجنة » فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فأخبروه بذلك وقالوا : أخبرنا بأوتى عمل في نفسك ترجو به فقال : إني لضعيف وإن أوتى ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك ما لا يعينني » (١)

وقال أبو ذر : قال لي رسول الله ﷺ « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان » قلت : بلى يا رسول الله قال « هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعينك » (٢) وقال مجاهد ، سمعت ابن عباس يقول خمس لمن أحب إلى من الدم الموقوفة : لا تكلم فيما لا يعينك فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر ، ولا تكلم فيما يعينك حتى تجد له موضعاً فإنه رب مستكمل في أمر يهينه قد وضعه في غير موضعه ففتن ، ولا تمار حليماً ولا سفهاً فإن الحلم يلقبك والسفيه يؤذيكَ ، وأذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكركَ به ، وأعفه عما تحب أن يعفبك منه ، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملَكَ به . واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازي بالإحسان مأخوذ بالاحترام . وقيل للقيان الحكم : ما حكمتك ؟ قال : لا أسأل عما كُفيت ولا أنكف ما لا يعينني . وقال مروق العجلي : أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه قالوا : وما هو ؟ قال : السكوت عما لا يعينني . وقال عمر رضي الله عنه : لا تعرض لما لا يعينك واعتزل حذوك واحذر صديقك من القوم إلا الأيمن ، ولا آمين إلا من خشي الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر فتعلم من لجوره ولا تعلمه على شرك ، واستشر في أمرك الدين يحفظون الله تعالى .

وحد الكلام فيما لا يعينك أن تكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستعز به في حال ولا مال . مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفاركَ وما رأيتَ فيها من جبال وأنهار ، وما وقع للبعث الوقائع ، وما استحسنته من الأطعمة والثياب ، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم . فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستعز . وإذا بالغت في الجهاد حتى لم يترجح بحكمتك زيادة ولا نقصان ، ولا تركية تقس من حيث التفاخر بمجاهدة الأحوال العظيمة ، ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك - وأنى تسلم من الآفات التي ذكرناها - ومن جعلتها أن تسأل غيرك عما لا يعينك فأنت بالسؤال مضيع وقتك وقد ألجأت صاحبك أيضاً للجواب إلى التضييع ، هذا إذا كان الشيء مما لا يتطرق إلى السؤال عنه آفة ، وأكثر الأسئلة فيها آفات . فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلاً فتقول له : هل أنت صائم ؟ فإن قال نعم ، كان مظهرًا لعبادته فيدخل عليه الرياء ، وإن لم يدخل سقطت عبادته من دوان السر ، وعبادة السر أفضل عبادة الجهر بدرجت ، وإن قال : لا ، كان كاذباً ، وإن سكت كان مستغفراً لك وتأذيت به ، وإن احتال لمداغة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه . فقد عرنته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحار أو للعب في حيلة الدفع ، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته ، وكذلك سؤالك عن المعاصي وعن كل ما يهينه ويشقى منه . وسؤالك عما حدث به غيرك فتقول له : ماذا تقول ؟ وقيم أنت ؟ وكذلك ترى إنساناً في الطريق فتقول : من أين ؟ فرجاً يمنعه مانع من ذكره ، فإن ذكره تأذى به واستحيا ، وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه . وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها والمستول ربما لم تسمع نفسه بأن يقول : لا أدري ، فيجيب عن غير بصيرة .

(١) حديث محمد بن كعب « إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة » فدخل عبد الله بن سلام الحديث . وفيه : إن أوتى ما أرجو سلامة الصدر وترك ما لا يعينني . أخرجه ابن الدنيا هكذا مرسلًا وفيه أبو نجيع اختلف فيه . (٢) حديث أبي ذر « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ... الحديث » وفيه « هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعينك » أخرجه ابن أبي الدنيا بسند متقطع .

ولست أعني بالكلم فيما لا يعني هذه الأجناس ، فإن هذا يتطرق إليه أو ضرر . وإنما مثال مالا يعني ما روى أن لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد دغا ولم يكن رأيا قبل ذلك اليوم ، فجعل يتعجب مما رأى فأراد أن يسأله من ذلك فنبهته حكمت فأمسك نفسه ولم يسأله ، فلما فرغ قام داود وليسه ثم قال : نعم الذرع للعرب ، فقال لقمان : الصمت حكم وقليل فاعله ، أى حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال . وقيل لأنه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال . فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهناك سر وتوريط في رياء وكذب وهو عما لا يعني وتركه من حسن الإسلام فهذا أحد .

وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه أو المباشرة بالكلام على سبيل التودد أو ترقية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها .

وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وأنه مسئول عن كل كلمة ، وأن أقاسمه رأس ماله وأن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين فأما هذه تلك وتخصيمه خسران مبين . هذا علاجه من حيث العلم . وأما من حيث العمل فالعزة أو أن يضع حصة فيؤمن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك مالا يعنيه وضبط اللسان في هذا على غير المعتاد شديد جداً .

### الآفة الثانية : فضول الكلام

وهو أيضاً منعم ، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة ، فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يحسمه ويقرره ويكرره . ومهما تأذى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلعين فالثانية فضول — أى فصل عن الحاجة — وهو أيضاً منعم — لاسبق — وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر . قال عطاء بن أفي رباح : إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ ، أو أمراً معروف أو نبياً عن مشك ، أو أن تتعلق بمحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها ، أتسكرون أن عليكم حافظين كراماً كاتبين عن اليمن وعن الشمال فمسيء ما يلتفت من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه . وعن بعض الصباغة قال : إن الرجل ليكلمني بالكلام لجوابه أشهى إلى من الماء البارد إلى الطعام فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولاً . وقال مطرف : ليظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار: اللهم اغفره وما أشبه ذلك .

واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور في كتاب الله تعالى قال الله عز وجل ﴿ لاخير في كثير من نجواً إلا من أمر بصداة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ وقال ﷺ ﴿ طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأتق الفضل من ماله ﴾ ، فاطر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال واطلقوا فضل اللسان . وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال : قدمت على رسول الله ﷺ في رطع من بني عامر فقالوا انت والدنا وانت

### الآفة الثانية فضول الكلام

(١) حديث « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأتق الفضل من ماله » أخرجه البزري وابن قانع في معجمي الصحابة والبيهقي من حديث ركب الصري وقال ابن عبد البر إنه حديث حسن وقال البزري : لا أدري مع من النبي ﷺ أم لا وقال ابن منبه مجهول لا نعرف له صحة ورواه البزري من حديث أنس بسند ضعيف .  
(١) حديث : « كيف تدعى من لا شرب ولا أكل ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث لليرة بن شعبة وأبي هريرة وأصلها عند البخاري أيضاً .

حينئذ وأنت أفضلنا علينا فضلاً ، وأنت أطولنا علينا طولاً ، وأنت الجفئة القراء ، وأنت وأنت ، فقال وقولوا قولكم ولا يستهينكم الشيطان (١) « إشارة إلى أن اللسان إذا أطلق بالثناء ولو بالصدق فيخشي أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها . وقال ابن مسعود : أنذركم فضول كلامكم ، حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته ، وقال مجاهد : إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليسكت ابنه فيقول : أياك لك كذا وكذا ؟ فيكتب كذا . وقال الحسن : يا ابن آدم بسط لك كل صحيفة وكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فأعمل ما شئت وأكثر أو أقل . وروى أن سليمان عليه السلام يمشي نهاراً ويمشي بعض عشاريته وينظرون ما يقول ويخبرونه ، فأخبروه بأنه مر في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال : عجبت من اللامعة على رؤوس الناس ما أسرع ما يكتبون ، ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يلون ، وقال إبراهيم التيمي : إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم وإلا أمسك ، والقاهر إنما لسانه رسلاً .

وقال الحسن : من كثر كلامه كثرت كذبه ، ومن كثرت ماله كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه غلب نفسه . وقال عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبي ﷺ فأكثر فقال له ﷺ « كم دون لسانك من حجاب ؟ » فقال : شفتاي وأسنان ، قال « أفأكن لك في ذلك ما يرد كلامك ؟ » وفي رواية : أنه قال ذلك في رجل أثنى عليه فاستمر في الكلام ثم قال : ما أوثق رجل شراً من فضل في لسانه وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : إنه ليعتقى من كثير من الكلام خوف المباحة . وقال بعض الحكماء : إذا كان الرجل في مجلس فأعجب الحديث فليسكت وإن كان ساكناً فليتكلم . وقال يزيد بن أبي حبيب : من قته العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع ، فإن وجد من يكفيه فإن في الاستماع سلامة ، وفي الكلام تزوين وزيادة ونقصان . وقال ابن عمر : إن أثنى ما طهر الرجل لسانه . ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة فقال : لو كانت هذه خرساً لكان خيراً لها . وقال إبراهيم : يهلك الناس خلتان : فضول المال وفضول الكلام . فهذه منعة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه ، وعلاجه ما سبق في الكلام فيما لا يعني .

### الآفة الثالثة : الخوض في الباطل

وهو الكلام في الماضي كحكاية أحوال النساء وبجائس الخمر ومقامات الفساق وتعمم الأفتاء وتجيير الملوك ومراسيم المذمومة وأحوالهم المكروهة ، فإن كل ذلك مما لا يصلح الخوض فيه وهو حرام . وأما الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه . نعم من يكثر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن عليه الخوض في الباطل . وأكثر الناس يتجالسون للتفريج بالحدث ولا يعدو كلامهم اليكف بأعراض الناس أو الخوض في الباطل . وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفتتها فلذلك لا غلظ منها إلا بالاعتصام على ما يعني من مهمات الدين والدنيا ، وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها ، فقد قال بلال بن الحرث : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلىخ به ما بلغت فيكتب

(١) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه : قدمت على رسول الله ﷺ في رهط من عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا .. الحديث أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بلفظ آخر ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ الصنف .

(٢) حديث عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبي ﷺ فأكثر فقال « كم دون لسانك من باب ... الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلًا ورجاله ثقات .

الله بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة<sup>(١)</sup>، وكان علقمة يقول: يك من كلام منغية حديث بلال بن الحرث. وقال النبي ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من التريا» وقال أبو هريرة: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يظن لها بالآخرة الله بها في أعلى الجنة». وقال ﷺ: «أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل<sup>(٢)</sup>» وإلى الإشارة بقوله تعالى: «وكننا نخوض مع الخافضين» ويقول تعالى: «فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم» وقال سليمان: «أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً في معصية الله». وقال ابن سيرين: «كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لهم فيقول لهم لو شئتم أن يأتوا بعض ما تقولون شر من الحديث. فهذا هو الخوض في الباطل وهو وراء ما شئتم من الغيبة والتمية والنميمة وغيرها. بل هو الخوض في ذكر عظومات سبق وجودها أو تدبر لتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها. ويدخل فيه أيضاً الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة وحكاية ما جرى من قال الصحابة على وجه يوم الطعن في بعضهم. وكل ذلك باطل والخوض فيه خوض في الباطل فسأل الله حسن اللون بلفظه وكرمه.

### الآفة الرابعة: المراء والجدال

وذلك منهى عنه قال ﷺ: «لا تمسار أماك ولا تمأزحه ولا تعدم موعداً فتخلفه<sup>(٣)</sup>» وقال عليه السلام «ذروا المراء فإنه لا ينفعكم حكته ولا تؤمن فتته<sup>(٤)</sup>» وقال ﷺ: «من ترك المراء وهو محق بى له بيت في أعلى الجنة ومن ترك المراء وهو مبطل بى له بيت في ريع الجنة<sup>(٥)</sup>» وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما عهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال<sup>(٦)</sup>» وقال أيضاً: «ما ضل قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدل<sup>(٧)</sup>» وقال أيضاً: «لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان محققاً<sup>(٨)</sup>» وقال أيضاً: «ست من كن فيه بلغ حقيقة

### الآفة الثالثة: الخوض في الباطل

(١) حديث بلال بن الحارث «إن الرجل ليتكلم من رضوان الله... الحديث» أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح. (٢) حديث «إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من التريا» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن وللشيخين والترمذي «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوى بها سبعين خروفاً في النار» لفظ الترمذي وقال حسن غريب. (٣) حديث «أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرهلاً ورواه قتات وهو والطبراني موقوفاً على ابن مسعود بسند صحيح.

### الآفة الرابعة: المراء والمجادلة

(٤) حديث «ولا تمأزحه ولا تعدم موعداً فتخلفه» أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم. (٥) حديث «ذروا المراء فإنه لا ينفعكم حكته ولا تؤمن فتته» أخرجه الطبراني من حديث أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك ورواه الأئمة بأسناد ضعيف دون قوله «لا ينفعكم حكته» ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا موقوفاً على ابن مسعود. (٦) حديث «من ترك المراء وهو محق بى له بيت في أعلى الجنة... الحديث» تقدم في العلم. (٧) حديث أم سلمة «أن أول ما عهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني والبيهقي بسند ضعيف وقد رواه ابن أبي الدنيا في اللاميس من حديث عروة بن روم. (٨) حديث «ما ضل قوم إلا أوتوا الجدل» أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وصححه وزاد «بعد هدى كانوا عليه» وتقدم في العلم وهو عند ابن أبي الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره للصف. (٩) حديث «لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يترك المراء وإن كان محققاً» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند ضعيف وهو عند أحمد بلفظ «لا يؤمن العبد حتى يترك الكذب في الزاح والمراء وإن كان صادقاً»

الإيمان : الصيام في الصيف ، وضرب أعداء الله بالسيف ، وتعميل الصلاة في اليوم الدين ، والصبر على المصائب ، وإسباغ الوضوء على المسكاره ، وترك المراء وهو صادق (١) « وقال الزبير لابنه : لا تجادل الناس بالقرآن فإنك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسنة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه : من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التقتل . وقال مسلم بن يسار : إياكم والمراء فإنه ساحة جهل العالم وعندها يتغنى الشيطان زلفه . وقيل : ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدل . وقال مالك بن أنس رحمه الله : ليس هذا الجدال من الدين في شيء . وقال أيضاً : المراء يقضى القلوب ويرث الضغائن . وقال لقمان لابنه : يا بني لا تجادل العلماء فيمترك وقال بلال بن سعد : إذا رأيت الرجل لجوجاً محارباً معجباً برأيه فقد تمت خسارته . وقال سفيان : لو خالفت أخى في رمة فقال حلوة وقلت حامضة لسمي بن إبي السلطان : وقال أيضاً : صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمتنعك العيش . وقال ابن أبي ليلى : لا أمارى صاحبي فإما أن أكذب وإما أن أغضب . وقال أبو الفراء : كفى بك إثماً أن لا تزال عارياً ، وقال عليه السلام « تكفير كل لحاء ركعتان (٢) » وقال عمر رضي الله عنه : لا تتعلم العلم ثلاث ولا تتركه ثلاث ، لا تعلمه لتبلى به ، ولا لتبلى به ، ولا لتراثي به ، ولا تتركه حياء من طلبه ، ولا زهادة فيه ، ولا رضا بالجهل منه . وقال عيسى عليه السلام من كثر كذبه ذهب بهام ومن لاحى الرجال سقطت مروءته ومن كثر همه سقم جسمه ومن ساء خلقه عذب نفسه . وقيل ليعقوب بن مهران : مالك لا تترك أخاك عن قل ؟ قال لأنى لا أشاريه ولا أماريه . وما ورد في ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى .

وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه ، إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلم وترك المراء بترك الإذكار والاعتراض . فكل كلام سمعته فإن كان حقاً فصدق به ، وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقاً بأمر الدين فاسكت عنه .

والعلم في كلام الغير تارة يكون في لفظه بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة أو من جهة العربية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير ، وذلك يكون تارة من قصور المعرفة وتارة يكون بظنيان اللسان ، وكيفاً كان فلا وجه لإظهار خلله .

وإما في المعنى : فبأن يقول ليس كما تقول ، وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا .

وإما في قصده فثلث أن يقول هذا اللام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وإنما أنت فيه صاحب غرض ، وما يجري مجراه ، وهذا الجلس إن جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدال وهو أيضاً منقسم بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه العناد والتكارة ، أو التلطف في التعريف لا في معرض الظلم .

وإما المجادة فعبارة عن قصد إغرام الغير وتعميره وتقويضه بالفتح في كلامه ونسجه إلى القصور والجهل فيه ، وآية ذلك أن يكون تنبيه الحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل ، يجب أن يكون هو المظهر له خطأ ليبين به فضل نفسه وقصص صاحبه ، ولا فائدة من هذا إلا بالسكوت عن كل مالا يأثم به لو ست عنه .

وإما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل ، والتهمج على الغير بإظهار قصه ، وهما شورتان باطنتان

(١) حديث « ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان ... الحديث » وترك المراء وهو صادق « أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث أبي مالك الأشعري بسند ضعيف بلفظ « ست خصام من الخير ... الحديث » .

(٢) حديث « تكفير كل لحاء ركعتان » أخرجه الطبراني من حديث أمامة بسند ضعيف .

لنفس قويتان لها ، أما إظهار الفضل : فهو من قبيل تركية النفس وهي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء وهي من صفات الربوبية . وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فإنه يقتضى أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه ، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان ، وإنما قوتهما المراء والجدال . فالمرء يطالب على المراء والجدال مقوله الصفات المهلكة ، وهذا يجاوز حد الكراهة بل هو مصيبة مهما حصل فيه إيذاء الغير . ولا تنفك المادة عن الإيذاء وتيسر الغضب وحمل المعترض عليه أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدر في قائله بكل ما يتصور له ، فيثور الشجار بين المتحاربين كما يثور المراهض بين الكلبين يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعلم نكاية وأقوى في إلحاحه وإلجامه .

وأما علاجه : فهو بأن يكسر الكبر الباطل له على إظهار فضله ، والسبعية الباطنة له على تنقيص غيره — كما سيأتي ذلك في كتاب ذم الكبر والصحب وكتاب ذم الغضب — فإن علاج كل علة بإماحة سببها . وينبى المراء والجدال ما ذكرناه ، ثم المراقبة عليه تجعله عادة وطبعاً حتى يتمكن من النفس ويعصر الصبر عنه .

وروى أن أبا حنيفة رحمه الله عليه قال لداود الطائي : لم آتت الأرواء ؟ قال : لأجل عذقي بترك الجدال ، فقال : احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم ، قال : فعلت ذلك فأريت مجاهدة أشد على منها ، وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه نصر عليه الصبر عند ذلك جداً . ولذلك قال عليه السلام « من ترك المراء وهو حق بنى الله له بيتاً في أعلى الجنة » لشدة ذلك على النفس وأكثر ما يقلب ذلك في المذاهب والمقائس ، فإن المراء طبع ، فإذا علم أن له عليه نواباً اشتد عليه حرصه وتماون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض ، بل ينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة ، وإذا رأى مبتدعاً تطف في نصحه في خلوته لا يطرق الجدال ، فإن الجدال يخيّل إليه أنها حيلة منه في التلبس وأن ذلك صنعة بقدر المجادلون من أهل منهجه على أمثاله لو أرادوا ، فتنصر البديعة في قلبه بالجدل وتماكد فإذا عرف أن التصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه ، وقال عليه السلام « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه » وقال هشام بن عروة : كان عليه السلام يرد قوله هذا سبع مرات . وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزا وقبولا قويت فيه هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزوعاً إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحسب الجاه والتميز بالفضل وأحاد هذه الصفات يفتق مجاهدتها فكيف بمجموعها ؟

### الأفة الخامسة : الخصومة

وهي أيضاً مذمومة وهي وراء الجدال والمراء ، فالمرء ملعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير . وإظهار مزية الكياسة والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقديرها . والخصومة لجامح في الكلام ليستوفى به مال أو حتى مقصود ، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضاً والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق . فقد قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أبغض

(١) حديث « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه » أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ « رحم الله امرأ كف لسانه عن أعراض المسلمين » وهو منقطع وضعيف جداً .

الرجال إلى الله الألد الخصم<sup>(١)</sup> » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع<sup>(٢)</sup> » وقال بعضهم : إياك والخصومة فإنها تمحق الدين ، ويقال : ما خاصم وربع قط في الدين . وقال ابن قتيبة : مر بي بشر بن عبد الله بن أبي بكر فقال : ما يجلسك ههنا؟ قلت : خصومة يبنى وبين ابن عم لي ، فقال : إن لأبيك عندي يدا وإني أريد أن أجزيك بها ، وإنى والله ما رأيت شيئا أنذهب للدين ولا أنقص للروء ولا أخيب للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة ؟ قال : قممت لأصرف فقال لي خصي : مالك؟ قلت : لا أخاصك ، قال : إنك عرفت أن الحق لي ، قلت : لا ولكن أكرم نفسي عن هذا قال : فإني لا أطلب منك شيئا هو لك .

فإن قلت : فإذا كان للانسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه وكيف تدم خصومه ؟ فاعلم أن هذا النم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاضع بغير علم ، مثل وكيل القاضى فإنه قبل أن يتعرف أن الحق في أى جانب هو يتوكل في الخصومة من أى جانب كان ؟ فيخاصم بغير علم ويتناول الذي يطلب حقه ، ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللد في الخصومة على قصد التسلط أو على قصد الإيذاء ويتناول الذي ينزع بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرته الحجة وإظهار الحق ، ويتناول الذي يحمله على الخصومة بعض العناد لغير الخصم وكسره مع أنه قد يستحق ذلك القندر من المال ، وفي الناس من يصرح به ويقول : إنما قصدي عياده وكسر عرضه ، وإنى إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي ، وهذا مقصوده اللد والخصومة والهجاء وهو مذموم جدا . فأما المظالم الذي ينصر حجه بطريق الشرع من غير لد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء فقمه ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا ، فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتبيح الغضب ، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين ، حتى يفرح كل واحد بمساة صاحبه ويمحون بمسرته ويطلق اللسان في عرضه ، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحنورات ، وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى إنه في صلاته يشغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب ، فالخصومة مبدأ كل شر ، وكذا المراء والمجدال ، فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة ، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدا ، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولا ينم خصومه ، إلا أنه إن كان مستنثيا عن الخصومة فيما خاصم فيه لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركا للأولى ولا يكون آثما . نعم أقل ما يفرته في الخصومة والمراء والمجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب ، إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار المواقفة ، ولا خشوة في الكلام أعظم من العطن والاعتراض الذي حاصله بالمجهول وإما تكذيب ، فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه فقدجهل أو كذبه فيقوت به طيب الكلام . وقد قال صلى الله عليه وسلم « يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام<sup>(٣)</sup> »

#### الأفة الخامسة الخصومة

(١) حديث عائشة « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » أخرجه البخارى وقد تقدم . (٢) حديث أبي هريرة « من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع » أخرجه ابن أبي الدنيا والأسفهانى في الريب وفيه رجاء أبو يحيى ضعفه الجمهور .

(٣) حديث « يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام » أخرجه الطبرانى من حديث جابر وفيه من لا أعرفه وله من حديث هانى' أبى شريح باسناد جيد « يوجب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام » .

وقد قال الله تعالى ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وإن كان مجوسياً إن الله تعالى يقول ﴿وإذا حُيِّمَ بتحية غيورا بأحسن منها أو ردها﴾ وقال ابن عباس أيضاً : لو قال في عرفون خيراً لرددت عليه . وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن في الجنة لفرقاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدما الله تعالى لمن أطعم الطعام وآلان الكلام<sup>(١)</sup> » وروى أن عيسى عليه السلام مر به خنزير فقال : مر بسلام ، قيل : ياروح الله أقول هذا لخنزير ؟ فقال : أكره أن أعود لسانى الشر . وقال نبينا عليه السلام « الكلمة الطيبة صدقة<sup>(٢)</sup> » وقال « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة<sup>(٣)</sup> » وقال عمر رضي الله عنه : البر شيء حين وجه طليق وكلام لين . وقال بعض الحكماء : الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح . وقال بعض الحكماء : كل كلام لا يسطر بك إلا أنك ترضى به جليبيك فلا تكن به عليه بخيلاً ، فإنه لعله يموتك منه ثواب المحسنين . وهذا كله في فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومة والمراء والجدال والجاج ، فإنه الكلام المستكره الموحش المؤذى للقلب المتخصص للعيش المهيج للفتن المضرب للموغل للصدر . نسال الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .

### الآفة السادسة

التعذر في الكلام بالتشديق وتكلف السمع والنفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات وما جرت به عادة المتخاصمين المداين الخطابية . وكل ذلك من التصنع المنموم ومن التكلف المعقوت الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا وأتقيا أمتي يراء من التكلف » وقال عليه السلام « إن أنبضكم إلى وأبدمكم مني مجلسا الترادون المتفهمون المتشددون في الكلام<sup>(١)</sup> » وقالت فاطمة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شرار أمتي الذين غلوا بالنعم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشددون في الكلام<sup>(٢)</sup> » وقال عليه السلام « ألاهلك المتطمعون ثلاث شرات<sup>(٣)</sup> » والتطمع هو التمسق والاستقامة . وقال عمر رضي الله عنه : إن شقا شق الكلام من شقا شق الشيطان . وجاء عمر بن سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد بن أبي وقاص فحلم بين يدي حاجته بكلام قال له سعد : ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما يتخلل البقرة الكلال<sup>(٤)</sup> » وكانت أنكر عليه ما قسمه على الكلام من التشبيب والمقدمة المصنوعة المتكلفة . وهذا أيضاً من آفات اللسان ويدخل فيه كل سجع متكلف ، وكذلك التفاسح الخارج عن حد العادة ، وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات ، إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بفر في الجئين فقال بعض قوم الجاني : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صلح ولا استل

(١) حديث أنس « إن في الجنة لفرقاً يرى ظاهرها من باطنها ... الحديث » أخرجه الترمذي وقد تقدم .

(٢) حديث « الكلمة الطيبة صدقة » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٣) حديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة ... الحديث » متفق عليه من حديث عدى بن حاتم وقد تقدم .

الآفة السادسة : التعذر في الكلام والتشديق

(٤) حديث « إن أنبضكم إلى الله وأبدمكم مني مجلسا الترادون المتفهمون للتشددون » أخرجه أحمد من حديث أبي ثعلبة وهو عند الترمذي من حديث جابر وحسنه بلفظ « إن أنبضكم إلى » . (٥) حديث فاطمة : شرار أمتي الذين غلوا بالنعم « الحديث وفيه » ويتشددون « أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب . (٦) حديث « ألا هلك المتطمعون » من حديث ابن مسعود . (٧) حديث سعد « يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما يتخلل البقرة الكلال بلسانها » رواه أحمد .



الألف السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

الألف السابعة : القمح، والسب و مذاة اللسان

(٢) حديث « يا إمام والفتى ... الحديث » أخرجه النسائي في الكبرى في التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو ورواه ابن جبان من حديث أبي هريرة . (٣) حديث : التي عن سب قتل بدر من الشركين الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن أبي الباقر مرسلا ورجله ثقات والنسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح : إن رجلا وقع في أب للعبس كان في الجاهلية فطمعه ... الحديث وفيه « لاتسبوا أمواتنا فتؤذوا أحيائنا » . (٤) حديث « ليس للؤمن بالطمان ولا اللسان ولا الفاحش ولا البذي » أخرجه الترمذي بإسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب وصححه وروى موقوفا قال الدارقطني في اللط والموقوف أصح .

(٥) حديث « الجنة حرام على كل طاحش أن يدخلها » أخرجه ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن عمرو . (٦) حديث « أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى ... الحديث » وفيه « إن الأبعد كان ينظر إلى كل كفة خيفة فيستقلها كما يستقل الرث » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن مانع واختاف في صحته فذكره أبو نعيم في الصحابة وذكره البخاري وابن جبان في التائبين . (٧) حديث « ياتلثة لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء » أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية ابن لهيعة عن أبي سلمة عنها . (٨) حديث « البذاء والبيان شعبيان من النفاق » أخرجه الترمذي وحسنه الحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي أمامة وقد تقدم .

( ١١ - إحياء علوم الدين ٢ )

المتفحش المسيح في الأسواق<sup>(١)</sup> » وقال جابر بن سمرة : كنت جالسا عند النبي ﷺ وأبى أمامي فقال ﷺ « إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء . وإن أحسن الناس إسلاما أحاسنهم أخلاقا<sup>(٢)</sup> » وقال إبراهيم ابن ميسرة يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب . وقال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدول العباد : اللسان البليد والحقن الذي .

فهذه مذمة الفحش فأما حده وحقيقته فهو التعبير عن الأمور المستحبة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتلوه به ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكونون عنها . ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها ، وقال ابن عباس : إن الله صلى الله عليه وسلم يفر ويكثر ، كنى بالفس من الجماع فالسيس والفسس والنحول والصمحة كنايةات عن الوقاع وليست بفاحشة . وهناك عبارات فاحشة يستحسب ذكرها ويستعمل أكثرها في الستم والتعير ، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أخف من بعض . وربما اختلف ذلك بمادة البلاد وأوائلها مكرومة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها وليس يختص هذا بالوقاع ، بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أول من لفظ التغوط والخرأ وغيرهما ، فإن هذا أيضا مما يخفى وكل ما يخفى يستحي منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال : قالت زوجتك كذا بل يقال قيل في الحجرة ، أو وراء الستر ، أو قالت أم الأولاد . فالتلفظ في هذه الألفاظ محمود والتصریح فيها يفضي إلى الفحش ، وكذلك من به عيوب يستحي منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرح والبواسير ، بل يقال العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه ، فالتصریح بذلك داخل في الفحش وجميع ذلك من آفات اللسان .

قال العلامة بن هرون : كان عمر بن عبد العزيز يتحف في منطقه ؛ فخرج تحت إبطه خراج فأتيناه نساها لنرى ما يقول ؟ فقلنا : من أين خرج ؟ فقال : من باطن اليد . والباحث على الفحش إما قصد الإيذاء وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث والزوم ومن عادتهم السب . وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصني فقال « عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشيء يمله فيك فلا تعره بشيء يمله فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولا تسب شيئا » فاسببت شيئا بعده<sup>(٣)</sup> وقال عياض بن حمار : قلت لرسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل من بأس أن أتصر منه ؟ فقال « المتسابان شيطانان يتماويان ويتهاجران<sup>(٤)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « سباب المؤمن فسوق وقاله كفر<sup>(٥)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « المتسابان ما قالا فعلى البادى . منهما حتى يعتدى المظلوم<sup>(٦)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « ملعون من سب والديه<sup>(٧)</sup> » وفي رواية « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل

(١) حديث « إن الله لا يحب الفاحش ولا التفحش الصليح في الأسواق » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف وله للطبراني من حديث أسامة بن زيد « إن الله لا يحب الفاحش للتفحش » وإسناده جيد .

(٢) حديث جابر بن سمرة « إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء ... الحديث » أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح . (٣) حديث : قال أعرابي أوصني فقال « عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشيء يمله فيه ... الحديث » أخرجه أحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث أبي جري المجيمى قبل اسم جابر بن سلم وقيل سلم ابن جابر . (٤) حديث عياض بن حمار : قلت لرسول الله الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من بأس أن أتصر منه ؟ فقال « المتسابان شيطانان يتكاذبان ويتهاجان » أخرجه أبو داود والطيالسي وأصله عند أحمد . (٥) حديث « سباب المسلم فسوق وقاله كفر » متفق عليه من حديث ابن مسعود . (٦) حديث « للمتسابان ما قالا فعلى البادى حتى يعتدى المظلوم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٧) حديث « ملعون من سب والديه » وفي رواية « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه ... الحديث » أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول بإسناد جيد واتفق الشيخان على اللفظ الثاني من حديث عبد الله بن عمرو .

والله « قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والده ؟ قال « يسب أب الرجل فيسب آياه .

### الآفة الثامنة : اللعن

إما حيوان أو جواد أو إنسان وكل ذلك ملعون . قال رسول الله ﷺ « المؤمن ليس بلعان (١) » وقال ﷺ « لا تلعنوا بلعنة الله ولا يفضه ولا يجهنم (٢) » وقال حذيفة : ما تلعن قوم قط إلا حق عليهم القول . وقال عمران بن حصين : بينا رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار رأت ناقة لها فضجرت منها فلعنتها فقال ﷺ « خلوا ما عليها وأعوها فإنها ملعنة (٣) » قال : فكانت أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس لا تضر أحد . وقال أبو الدرداء : ما لعن أحد الأرض إلا قالت : لعن الله أعصانا له . وقالت عائشة رضي الله عنها : سمع النبي ﷺ أبا بكر وهو يلحن بعض رقيقه فالتفت إليه وقال « يا أبا بكر أصدقين ولعنين كلا ورب الكعبة - مرتين أو ثلاثا - (٤) » فأعق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبي ﷺ وقال : لا أعود . وقال النبي ﷺ « إن اللعنين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة (٥) » وقال أنس : كان يسير رجل مع النبي ﷺ على بعير فلحن بعيره فقال ﷺ « يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون (٦) » وقال ذلك إنكاراً عليه . واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى ، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعد من الله عز وجل وهو الكفر والعظم ، بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين ، ويلبى أن يتبع فيه لفظ الشرع فإن في اللعنة خطراً لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعد الملعون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى ، ويطلع النبي صلى الله عليه وسلم إذا أطلمه الله عليه .

والصفات المقضية للعن ثلاثة : الكفر ، والبدة ، والفسق . واللعن في كل واحدة ثلاث مراتب :

الاولى : اللعن بالوصف الأعم كقولك لعنة الله على الكافرين والمبتدعين والفسقة .

الثانية : اللعن بأوصاف أحسن منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض ، أو على الزناة والظلة وآكل الربا ، وكل ذلك جائز . ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر لأن معرفة البدة غامضة ولم يرده لفظ مأثور ، فينبغي أن يمنع منه العوام لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله ويثير نزاعاً بين الناس وفساداً .

الثالثة : اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك : زيد لعنة الله ، وهو كافر أو فاسق أو مبتدع . والتفصيل

### الآفة الثامنة : اللعن

(١) حديث « المؤمن ليس بلعان » تقدم حديث ابن مسعود « ليس للمؤمن بالطمأن ولا اللعان ... الحديث قبل هذا بأحد عشر حديثاً والترمذي وحسنه من حديث ابن عمر « لا يكون المؤمن لعاناً » . (٢) حديث « لا تلعنوا بلعنة الله ... الحديث » أخرجه الترمذي وأبو داود من حديث سمرة بن جندب قال الترمذي : حسن صحيح . (٣) حديث عمران بن حصين : بينا رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار رأت ناقة لها فضجرت منها فلعنتها ... الحديث ؟ رواه مسلم . (٤) حديث عائشة : سمع رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه وهو يلحن بعض رقيقه فالتفت إليه فقال « يا أبا بكر لعنين وصدقين ... الحديث » إن اللعنين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة » أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء . (٥) حديث أنس : كان رجل مع رسول الله ﷺ على بعيره فلحن فلحن بعيره فقال ﷺ « يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون » أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد .

فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا فتجوز لعنته كقولك : فرعون لعنة الله ، وأبو جهل لعنة الله ، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا . أما شخص يمينه في زماننا كقولك زيد لعنة الله ، وهو يهودي مثلا فهذا فيه خطر فإنه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونا ؟ :

فان قلت : يلمن لكونه كافرا في الحال كما يقال للسلم : رحمه الله ، لكونه مسلما في الحال ، وإن كان يتصور أن يرتد ؟ فاعلم أن معنى قولنا : رحمه الله ، أي تبه على الإسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ، ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فإن هذا سؤال الكفر وهو في نفسه كفر ، بل الجائز أن يقال : لعنة الله إن مات على الكفر ، ولا لعنة الله إن مات على الإسلام . وذلك غيب لا يدري ، والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر ، وليس في ترك الامن خطر . وإذا عرفت هذا في الكافر فهو زيد الفاسق أو زيد المبغض أولى ، فلمن الأعيان فيه خطر لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله ﷺ فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ، ولذلك عين قوما بالامن فكان يقول في دعائه على قريش « اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة » وذكر جماعة قتلوا على الكفر حتى إن من لم يعلم عاقبته كان يلينه قهري عنه إذ روى : أنه كان يلمن الذين قتلوا أصحاب بر معونة في قنوته شهرا أو قنول قوله تعالى « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يذهب فاتهم ظالمون » يعني أنهم ربما يسلمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون ؟ وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنته وجاز دمه إن لم يكن فيه أدنى على مسلم ، فان كان لم يجر كما روى أن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر رضى الله عنه عن قبر مر به وهو يريد الطائف قال : هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص ، فغضب ابنه عمرو بن سعيد وقال : يا رسول الله هذا قبر رجل كان أطعم الطعام وأضرب الهام من أن قحافة ، فقال أبو بكر : يكفني هذا يا رسول الله يمثل هذا السلام ؟ قال ﷺ « أكفك عن أبي بكر » فانصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال « يا أبا بكر إذا ذكرت الكفار فقموا فانكم إذا خصمتم غضب الأنبياء للآباء » فكف الناس عن ذلك وشرب نعيان الخمر ثم مر في مجلس رسول الله ﷺ فقال بعض الصحابة لعنة الله ما أكثر ما يؤتى به فقال ﷺ « لا تكن عونا للشيطان على أخيك » وفي رواية لا تقل هذا فإنه يجب أن تقول رسوله ، فهذه عن ذلك . وهذا يدل على أن

(١) حديث « اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة » وذكر جماعة متفق عليه من ابن مسعود .

(٢) حديث : أنه كان يلمن الذين قتلوا أصحاب بر معونة في قنوته شهرا أو قنول قوله تعالى « ليس لك من الأمر شيء » أخرجه الشيخان من أنس : دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بر معونة ثلاثين صباحا ... الحديث وفي رواية لها : قتت شهرا يدعو على رعل وذكوان ... الحديث . ولها من حديث أبي هريرة : وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه ... الحديث . وفيه « اللهم امن لحيان ورعلا . الحديث » وفيه « ثم بلنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ﷻ ليس لك من الأمر شيء » لفظ مسلم . (٣) حديث : إن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر عن قبر مر به وهو يريد الطائف قال : هذا قبر رجل كان عاتيا على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه ... الحديث » أخرجه أبو داود في المراسيل من رواية علي بن ربيعة قال : لما أفتح رسول الله ﷺ مكة توجه من فوره ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه أبنا سعيد بن العاص قال أبو بكر : لمن هذا القبر ؟ قالوا قبر سعيد بن العاص قال أبو بكر : لمن الله صاحب هذا القبر فإنه كان يجاهد الله ورسوله ... الحديث . وفيه « فلذا سبتم للشركين فسيوم جحا » . (٤) حديث : شرب نعيان الخمر ثم مر في مجلس رسول الله ﷺ فقال بعض الصحابة لعنة الله ما أكثر ما يؤتى به قال رسول الله ﷺ « لا تكن عونا للشيطان على أخيك » وفي رواية : « لا تقل هذا فإنه يجب أن تقول رسوله » أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلًا ومحمد هذا ولد في حياته ﷺ ومعه عمدا وكناه للالك والبخاري من حديث عمر : أن رجلا على عهد رسول الله ﷺ كان اسمه عبد الله يلقب حمارا وكان يضحك رسول الله ﷺ ، وكان قد جلده في ...

لمن فاسق يعينه غير جائز. وعلى الجملة في لمن الأشخاص خطر فليجتنب ولا خطر في السكوت عن لمن إبليس ملا فضلا عن غيره.

فإن قيل: هل يجوز لمن يريد لانه قتل الحسين أو أمر به؟ قلنا: هذا لم يثبت أصلا فلا يجوز أن يقال إنه قتل أو أمر به مالم يثبت، فضلا عن العنة، لانه لا يجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق. نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم عليا وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهما فإن ذلك ثبت متواترا. فلا يجوز أن يرى مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق قال عليه السلام «لا يرى وجه رجل بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك»<sup>(١)</sup> وقال عليه السلام «ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا باه بأدعما، إن كان كافرا فهو كما قال، وإن لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه»<sup>(٢)</sup> وهذا معناه أن يكفره وهو يعلم أنه مسلم فإن ظن أنه كافر ببدعة أو غيرها كان غطلا لا كافرا، وقال مصاد قال لي رسول الله ﷺ «أنهاك أن تشتم مسلما أو تعصى إماما عادلا، والتعرض للأموات أشد»<sup>(٣)</sup> قال مسروق: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت: ما فعل فلان لعنة الله؟ قلت توفى. قالت رحمه الله، قلت: وكيف هذا؟ قالت: قال رسول الله ﷺ «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما أقوموا»<sup>(٤)</sup> وقال عليه السلام «لا تسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء»<sup>(٥)</sup> وقال عليه السلام «أيها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهارى ولا تسبوم، أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا»<sup>(٦)</sup>.

فإن قيل: فهل يجوز أن يقال: قاتل الحسين لعنة الله؟ أو الأمر بقتله لعنة الله؟ قلنا: الصواب أن يقال: قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنة الله، لانه يحتمل أن يموت بعد التوبة، فإن وحشيا قاتل حزة عم رسول الله ﷺ قتل وهو كافر، ثم تاب عن الكفر والقتل جميعا ولا يجوز أن يعلن، والقتل كبيرة ولا تنتهي إلى رتبة الكفر، فاذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خسر وليس في السكوت خطر فهو أولى.

وإنما أوردنا هذا لتهادى الناس بالعنة وإطلاق اللسان بها. والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغي أن يطلق اللسان بالعنة إلا على من مات على الكفر، أو على الأجnas المعروفين بأوصالهم دون الأشخاص المعينين. فلا اشتغال

== الشراب، فأبى به يوما فأمر به جلد فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى! فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله» من حديث أبي هريرة في رجل شرب ولم يسم وفيه «لا تعينوا عليه الشيطان» وفي رواية «لا تكونوا عون الشيطان على أخيك».

(١) حديث «لا يرى رجلا بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك» متفق عليه والسياق للبخاري من حديث أبي ذر مع تقديم ذكر الفسق. (٢) حديث «ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا أنى أحدهما إن كان كافرا فهو كما قال، وإن لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف.

(٣) حديث ماز «أنهاك أن تشتم مسلما أو تعصى إماما عادلا» أخرجه أبو نم في الحلية في أثناء حديث له طويل (٤) حديث عائشة «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما أقوموا» أخرجه البخاري وذكر اللعن في أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك في الزهد والرقائق مع القصة. (٥) حديث «لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء» أخرجه الترمذي من حديث المنيرة بن شعبة ورجاله ثقات إلا أن بعضهم أدخل بين المنيرة وبين زياد بن علاقة رجل لم يسم. (٦) حديث «أيها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهارى ولا تسبوم، أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عياض الأنصاري «احفظوني في أصحابي وأصهارى» وإسناده ضعيف ولشيوخين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة «لا تسبوا أصحابي» ولأبي داود والترمذي وقال غريب من حديث ابن عمر «اذكروا علسن موتاكم وكفوا عن مساوهم» وللنسائي من حديث عائشة «لا تذكروا موتاكم إلا بخير» وإسناده جيد.

بذكر الله أولى فإن لم يكن في السكوت سلامة .

قال مكين بن إبراهيم : كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبي بردة لجلسوا يلغون ويوقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا : يا ابن عون إنما نذكرك لما ارتكب منك ، فقال : إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة : لا إله إلا الله ولعن الله فلانا ، فلان يخرج من صحيفتي لا إله إلا الله ، أحب إلى من أن يخرج منها لعن الله فلانا ، وقال رجل لرسول الله ﷺ : أوصني فقال : « أوصيك أن لا تكون لمانا »<sup>(١)</sup> وقال ابن عمر : إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لمان . وقال بعضهم : لمن المؤمن بعد قتله ، وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا لو قلت إنه مرفوع لم أبال وعن أبي قتادة قال : كان يقال « من لمن مؤمنا فهو مثل أن يقتله »<sup>(٢)</sup> وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقرب من اللعن النجاء على الإنسان بالشركى النجاء على الظالم كقول الانسان مثلا : لا صحح الله جسمه ولا سلبه الله وما يجري مجراه ، فإن ذلك منموم ، وفي الخبر « إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبق للظالم عتبه فضلا يوم القيامة »<sup>(٣)</sup> :

### الآفة التاسعة : النساء والشعر

وقد ذكرنا في كتاب الباع ما يحرم النماء وما يحل فلا نميد ، وأما الشعر فكلام حسنة حسن وقيمه قيمح إلا أن الشعر له منموم . قال رسول الله ﷺ « لأن يتلى جوف أحدكم قيعا حتى يريه خير له من أن يتلى شعرا »<sup>(٤)</sup> وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له في ذلك فقال : أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر . وسئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال : أجعل مكان هذا ذكرا فإن ذكر الله خير من الشعر . وعلى الجملة فإنشاء الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره قال رسول الله ﷺ « إن من الشعر لحكمة »<sup>(٥)</sup> نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب ، وقد أمر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار والفرس في المدح<sup>(٦)</sup> فإنه وإن كان كاذبا فإنه لا يلتحق في التحريم كقول الشاعر :

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليق الله سائله

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء ، فإن لم يكن صاحبه سخيا كان كاذبا ، وإن كان سخيا فالمبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته . وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تبتعت لوجد فيها مثل ذلك لم يمنع منه . قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغصف نعله وكانت جالسة

(١) حديث قال رجل : أوصني قال « أوصيك أن لا تكون لمانا » أخرجه أحمد والطبراني وابن أبي عاصم في الآحاد والثاني من حديث جرهم الميموني وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبي عاصم . (٢) حديث « لمن المؤمن كقتله » متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك . (٣) حديث « إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبق للظالم عند فضلة يوم القيامة » لم أقف له على أصله ولا ترجمني من حديث عائشة بسند ضيف « من دعا لي من ظله فقد انتصر »

### الآفة التاسعة : النساء والشعر

(٤) حديث « لأن يتلى جوف أحدكم قيعا حتى يريه خير من أن يتلى شعرا » أخرجه مسلم من حديث سعد ابن أبي وقاص ووافق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد . (٥) حديث « إن من الشعر لحكمة » تقدم في العلم وفي آداب الباع . (٦) حديث : أمره حسانا أن يهجو المشركين . متفق عليه من حديث البراء أنه ﷺ قال لحسان « اهجم وجبريل معك » .

أغزل ، فنظرت إليه فجعل يبرق وجهه عرقه يتولد تورا قالت : لمعت فتنظر إلى فقال « مالك بهت ؟ » قلت :  
يارسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يبرق وجعل عرقك يتولد تورا ولو رأك أبو كبير المذل لعلم أنك أحق  
بشعره قال « وما يقول يا عاتقة أبو كبير المذل » قلت : هذين البيتين :

ومبرأ من كل غير حبيضة وفساد مرضعة وداء مفيل  
وإذا نظرت إلى أسره وجهه برقت كبرق العارض للتلال

قال فوضع عليه السلام ما كان بيده وقام إلى وقبل مابين عيني وقال « جزاك الله خيرا يا عاتقة ماسدرت منى  
كسروى منك <sup>(١)</sup> » ولما قسم رسول الله ﷺ الغنائم يوم حنين أمر العباس بن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو  
في شعره وفي آخره :

وما كان بدر ولا حابس يوقان مرداس في مجمع  
وما كنت دون امرئيه منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال ﷺ « اقطعوا لسانه » فذهب به أبو بكر الصديق رضى الله عنه حتى اختار مائة من الإبل ثم رجع  
وهو من أرمى الناس ، فقال له ﷺ « أقول في الشعر ؟ » فجعل يتنذر إليه ويقول : بأبى أنت وأبى إلى لا جد  
للشعر ديبا على لسانى كديب التل ثم يقرصنى كما يقرص التل فلا أجد بدا من قول الشعر ، فقبم ﷺ وقال :  
لاتدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين <sup>(٢)</sup> .

### الآفة العاشرة : للزاح

وأصله مذموم منبى عنه إلا قدراً يسيراً يستثنى منه قال رسول الله ﷺ « لا تمار أخاك ولا تمازحه <sup>(٣)</sup> »  
فإن قلت : المازاة فيها إهداء لأن فيها تكديفاً للأخ والصديق أو تجهيلاً له ، وأما المراح فلطائية وفيه انبساط وطيب

(١) حديث عائشة : كان رسول الله ﷺ يخفض نعله وكنت أغزل قالت : فنظرت إليه فجعل جبينه يبرق  
وجعل عرقه يتولد تورا ... الحديث . وفيه إنشاد عائشة لشعر أبى كبير المذل :

ومبرأ من كل غير حبيضة وفساد مرضعة وداء مفيل  
وإذا نظرت إلى أسره وجهه برقت كبرق العارض للتلال

إلى آخر الحديث رواه البيهقي في دلائل النبوة :

(٢) حديث : لما قسم الغنائم أمر العباس بن مرداس بأربع قلائص وفي آخره شعره :

وما كان بدر ولا حابس يوقان مرداس في مجمع  
وما كنت دون امرئيه منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال ﷺ « اقطعوا عني لسانه الحديث » أخرجه مسلم من حديث رافع بن خديج : أعطى رسول الله ﷺ  
أبا سفيان بن حرب وسفيان بن أمية وعيينة بن حصن بن بدر والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل وأعطى  
عباس بن مرداس دون ذلك ، فقال عباس بن مرداس :

اتجمل نهي ونهب السيد بين عينة والأقرع  
وما كان بدر ولا حابس يوقان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئيه منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

قال فأمم رسول الله ﷺ مائة وزاد في رواية أعطى عاتقة بن علاثة وأما زيادة « اقطعوا عني لسانه » فليست  
في شيء من الكتب المشهورة .

### الآفة العاشرة : للزاح

(٣) حديث « لا تمار أخاك ولا تمازحه » أخرجه الترمذي وقد تقدم .

قلب فلم ينه عنهُ ، فأعلم أن النهي عنه الإفراط فيه أو اللدأومة عليه . أما اللدأومة فلاه اشتغال باللعب والمزول فيه والقلب مباح ولكن المواظبة عليه مذمومة ، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تبييت القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار . فإيظن من هذه الأمور فلا ينم كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إني لأمزح ولا أقول إلا حقا » (١) إلا أن مثله بقدر أن يمزح ولا يقول إلا حقا ، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان عرضه أن يضحك الناس كيفما كان . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها في النار أبعد من التراب » (٢) وقال عمر رضي الله عنه : من كثر ضحكك قلت هيب ، ومن مزح استخف به ، ومن أكره من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياته ، ومن قل حياته قل ورضه ، ومن قل ورضه مات قلبه ، ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال ﷺ « لو تعلمون ما أعلم لبكيت كثيرا ولضحكتكم قليلا » (٣) وقال رجل لأخيه : يا أخى هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال نعم ، قال : قبل أنك أنك خارج منها ؟ قال : لا قال : فقيم الضحك ؟ قيل فإ روى ضاحكا حتى مات . وقال يوسف ابن اسباط : أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك ، وقيل أقام عطاء السلي أربعين سنة لم يضحك ونظر وهيب ابن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر فقال : إن هؤلاء قد غفر لهم فإ هذا فعل الثاكرين ؟ وإن كان لم يغفر لهم فإ هذا فعل الخائفين ؟ وكان عبد الله بن أبي يعلى يقول : أتضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار ؟ وقال ابن عباس : من أذنب ذنبا وهو يضحك دخل النار وهو ييكي . وقال محمد بن واسع : إذا رأيت في الجنة رجلا ييكي ألسنت تعجب من بكائه ؟ قيل بلى ، قال : فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه ؟ فهذه آفة الضحك والملموم منه أن يستغرق ضحكاً ، والمحمود منه التبسم الذي يكشف فيه السن ولا يسمع له صوت . وكذلك كان ضحك رسول الله ﷺ (٤) قال القاسم مولى معاوية : أقبل أعرابي إلى النبي ﷺ على قلو صعب فلم يجعل كلاً دنا إلى النبي ﷺ ليسأله يفر به فجعل أصحاب النبي ﷺ يضحكون منه ، ففعل ذلك مرارا ثم قصه فقتله فقيل : يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قلو صه وقد هلك ، فقال « نعم ، وأفواهكم ملأى من دمه » (٥) وأما داء المزاح إلى سقوط الوقار فقد قال عمر رضي الله عنه : من مزح استخف به وقال محمد ابن المشكدر : قايل لى أى يائى لا تمازح الصبيان قهون عندهم . وقال معبد بن العاص لابنه : لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الأدنى فيجترى عليك . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : اتقوا الله وإياكم والمزاح فإنه يورث الضغينة ويجر إلى القبيح ، تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به فإن ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال . وقال عمر رضي الله عنه : أتدرون لم سمى المزاح مزاحا ؟ قالوا لا ، قال : لأنه أراح صاحبه من الحلق . وقيل : لكل شيء بلور ويزور العداوة المزاح . ويقال : المزاح مسلبة للنهي مقطعة للأصدقاء .

« فإن قلت : قد تقل المزاح عن رسول الله ﷺ وأصحابه فكيف ينهى عنه ؟ فأقول : إن قدرت

(١) حديث « إني لأمزح ولا أقول إلا حقا » تقدم . (٢) حديث « الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها في النار أبعد من التراب » تقدم . (٣) حديث « لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتكم كثيرا » متفق عليه من حديث أنس وعائشة . (٤) حديث : كان ضحكه التبسم . تقدم . (٥) حديث القاسم مولى معاوية : أقبل أعرابي إلى النبي ﷺ على قلو صعب لم يجعل كلاً دنا إلى النبي ﷺ ليسأله يفر به فجعل أصحاب النبي ﷺ يضحكون منه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم قصه فقتله ، فقيل يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قلو صه فهلك قال « نعم وأفواهكم ملأى من دمه » أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق وهو مرسل .



على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن يزوج ولا تقول إلا حقاً ولا تؤذي قلباً ولا تفرط فيه وتقتصر عليه أحياناً على التدور فلا حرج عليك فيه ، ولكن من الغلط العظيم أن يشذ الإنسان للزناح حرة يواطىء عليه ويفرط فيه ثم يتسكك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو كمن يبورثنا مع الزوج ينظر إليهم وإلى رخصهم ويتسكك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا عائشة في النظر إلى رخص الزوج في يوم عيد . وهو خطأ إذ من الصنائر ما يصير كبيرة بالإصرار ، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار ، فلا ينبغي أن يغفل عن هذا<sup>(١)</sup> نعم روى أبو هريرة أنهم قالوا يا رسول الله إنك تدعيتكم لا أقول إلا حقاً<sup>(٢)</sup> وقال عطاء : إن رجلاً سأل ابن عباس أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم يزوج ؟ فقال : نعم ، قال : فما كان مزاحه ؟ قال : كان مزاحه أنه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوباً واسعاً فقال لها واليسيو احدى وجرى منه ذبلاً كذبيل العروس<sup>(٣)</sup> وقال أنس : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان من أفكه الناس مع نسائه<sup>(٤)</sup> وروى أنه كان كثير التيسم<sup>(٥)</sup> وعن الحسن قال : أتت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة صجور ؟ فبكت فقال : « إنك لست بعجوز يومئذ ، قال الله تعالى : ( إنا أنشأناهم من ماء لا يدخل الجنة من ماء ) » وقال زيد بن أسلم : إن امرأة يقال لها أم أيمن جلست إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إن زوجي يدعوك ، قال « ومن هو الذي يدعو بيضاء ؟ » قالت : والله ما بعينه بيضاء ، فقال : « بل إن بعينه بيضاء » فقالت : لا والله ، فقال صلى الله عليه وسلم « مامن أحد إلا بعينه بيضاء » وأراد به البيضاء المحيط بالحدقة<sup>(٦)</sup> وجاءت امرأة أخرى فقالت : يا رسول الله احملني على بعير فقال « بل تحملك على ابن البعير » فقالت ما أصنع به إنه لا يحملني فقال ﷺ « مامن بعير إلا وهو ابن بعير<sup>(٧)</sup> » فكان يزوج به وقال أنس : كان لابي طلحة ابن يقال له أبو صير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهم ويقول « يا أبا صير ما فعل النخير<sup>(٨)</sup> » لئن كان يلبس به وهو فرخ الصغور . وقالت عائشة رضي الله عنها : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فقال تعالى حتى أسألك ؟ فشدت درعي على بطني ثم خططنا خطأ فقمنا عليه واستبقينا فسبقني وقال « هذه مكان ذي الجواز<sup>(٩)</sup> » وذلك أنه جاء يوماً ونحن بذى الجواز وأنا جارية قد بعثني أبي بشيء فقال « اعطينيه » فأبكت وسعيت وسعي في أترى فلم يدركني وقالت أيضاً : سأبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقت ، فلما حملت اللحم سألني فسبقتي ، وقال « هذه بذلك<sup>(١٠)</sup> » وقالت أيضاً رضي الله عنها . كان عندني رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة فقصمت حريرة وجئت به فقلت لسودة : كلي ، فقالت : لا أحبه ، فقلت : والله تأكلن أولاً لطحن به وجهك ، فقالت : ما أنا بذافنة ، فأخذت

- (١) حديث : إذنه لعائشة في النظر إلى رخص الزوج في يوم عيد تقدم . (٢) حديث أبي هريرة : قالوا إنك تدعيتكم قال « إني وإن دأبتكم فلا أقول إلا حقاً » أخرجه الترمذي وحسنه . (٣) حديث عطاء : إن رجلاً سأل ابن عباس أكل رسول الله ﷺ يزوج ؟ قال ابن عباس : نعم ... الحديث فذكر منه قوله لامرأة من نسائه « البسية وأحمدى وجرى منه ذبلاً كذبيل العروس » لم أقف عليه (٤) حديث أنس : كان من أفكه الناس . تقدم (٥) حديث « أنه كان كثير التيسم » تقدم (٦) حديث الحسن « لا يدخل الجنة عجوز » أخرجه الترمذي في الشامل هكذا مرسلًا وأسنده ابن الجوزي في الوفاء من حديث أنس بسند ضيف . (٧) حديث زيد بن أسلم : في قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت إن زوجي يدعوك « هو الذي بينه بيضاء ... الحديث » أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفسحة والزناح ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبيدة بن سهم النهري مع اختلاف (٨) حديث : قوله لامرأة استحملته « تحملك على ابن البعير ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أنس بلفظ « أنا حمالكم على ولد الناقة » (٩) حديث أنس « أبا صير ما فعل النخير ؟ » متفق عليه وتقدم في أخلاق النبوة . (١٠) حديث عائشة : في مسابقتها كذبيل ﷺ في غزوة بدر فسبقها وقال « هذه مكان ذي الجواز » لم أجد له أسلاً ولم تكن عائشة معه في غزوة بدر . (١١) حديث عائشة : سأبني فسبقت . أخرجه النسائي وابن ماجه وقد تقدم في النكاح . (١٢) — إحياء علوم الدين ( ٢ )

يئدى من الصفحة شيئاً منه فطغلت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بيني وبينها ، فغضض لما رسول الله ركبته لتستعيد منى فتناولت من الصفحة شيئاً فمسحت به وجهي وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك<sup>(١)</sup> وروى أن الضحاك بن سفيان الكلبي كان رجلاً دميماً فيعباً ، فلما يابعه النبي ﷺ قال : إن عندي امرأتين أحسن من هذه الخمراء . وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب . أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزوجها وعائشة جالسة تسمع ، فقالت : أمي أحسن أم أنت ؟ قال : بل أنا أحسن منها وأكرم ، فضحك رسول الله ﷺ من سؤالها إياه لأنه كان دميماً<sup>(٢)</sup> . وروى علقمة عن أبي سلمة أنه كان ﷺ يذلع لسانه الحسن ابن علي عليهما السلام فيرى الصبي لسانه فيبش له فقال له عيينة بن بدر القزاري : والله ليكون لي الابن قد تزوج ويقل وجهه وما قبلته قط . فقال ﷺ : « إن من لا يرحم لا يرحم »<sup>(٣)</sup> ، فأكثر هذه الملاحظات متقولة مع النساء والصبيان وكان ذلك منه ﷺ معاملة لضعف قلوبهم من غيرة ميل إلى هزل وقال ﷺ مرة لصبيب وبه رمد وهو يأكل تمرأً وأما كل التمر وأنت رمد ؟ قال : إنما آكل بالشفق الآخر يا رسول الله فتبسم ﷺ<sup>(٤)</sup> . قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه . وروى أن خوات ابن جبير الأنصاري كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع رسول الله ﷺ فقال : « يا أبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ » فقال : يفتنن حنفياً لجل لي شرود ، قال : فعضى رسول الله ﷺ حاجته ثم عاد فقال : « يا أبا عبد الله أما ترك ذلك اجل الشراد بعد ؟ » قال : فسكت واستحييت وكنت بعد بعد ذلك أقتر منه كلما رأيته حياءً منه ، حتى قدمت المدينة وبعد ما قدمت المدينة قال : فرأيت في المسجد يوماً أصلي فجلس إلى فتولت فقال : « لا تطول فإنني أنظرك » فلما سالت قال : « يا أبا عبد الله أما ترك ذلك اجل الشراد بعد ؟ » قال : فكنت واستحييت ، فقام وكنت بعد ذلك أقتر منه حتى لحقت يوماً وهو على حمار وقد جعل رجله في شق واحد ، فقال : « يا أبا عبد الله أما ترك ذلك اجل الشراد بعد ؟ » فقلت والذي بينك والحق ما شرد منذ أسألت فقالني « الله أكبر الله أكبر اللهم اهد أبا عبد الله » قال : فحسن إسلامه وهده الله<sup>(٥)</sup> وكان نصيبان الأنصاري رجلاً مزاحاً فكان يشرب الخمر في المدينة فيؤتي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه بتمله ويأمر أصحابه فيضربونه بعالمهم ، فلما كثر ذلك منه

(١) حديث عائشة : في لطم وجه سودة بحريرة ولطم سودة وجه عائشة فجعل ﷺ يضحك . أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة وأبو يعلى بإسناد جيد . (٢) حديث : إن الضحاك بن سفيان الكلبي قال عندي امرأتان أحسن من هذه الخمراء أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزوجها وعائشة جالسة — قبل أن يضرب الحجاب — فقالت : أمي أحسن أم أنت ؟ قال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبي ﷺ لأنه كان دميماً . أخرجه الزبير بن بكار في الفكاهة من رواية عبد الله بن حسن مرسل أو مصلاً وللدارقطني نحو هذه القصة مع عيينة بن حصن القزاري بعد نزول الحجاب من حديث أبي هريرة . (٣) حديث أبي سلمة عن أبي هريرة : أنه ﷺ كان يذلع لسانه للحسن بن علي فيرى الصبي لسانه فيبش إليه ، قال عيينة بن بدر القزاري : والله ليكون لي الابن رجلاً قد خرج وجهه وما قبلته قط . قال : « إن من لا يرحم لا يرحم » أخرجه أبو يعلى من هذا الوجه دون ما في آخره من يقول عيينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جده . وحكى الخطيب في للبهات قولين في قائل ذلك أحدهما : أنه عيينة بن حصن ، والثاني : أنه الأقرع بن حابس . وعند مسلم من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ فيقول الحسن فقال إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم فقال رسول الله ﷺ : « من لا يرحم لا يرحم » .

(٤) حديث : قال لصبيب وبه رمد « إنما آكل التمر وأنت رمد ؟ » قال : فقال : إنما آكل على الشق الآخر ، فتبسم النبي ﷺ . أخرجه ابن ماجه والحاكم حديث صهيب ورجاله ثقات . (٥) حديث : إن خواب بن جبير كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه النبي ﷺ فقال : « يا أبا عبد الله . لك مع النسوة ؟ » قال ففتنن ضميراً لجل لي شرود ... الحديث . أخرجه الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات ابن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات ، وأدخل بعضهم زيد وبين خواب : ريمه بن عمرو .

قال له رجل من الصحابة : لعنك الله ، فقال له النبي ﷺ « لا تفعل فإنه يحب الله ورسوله » وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة إلا اشترى منها ثم أتى بها النبي ﷺ فيقول : يا رسول الله هذا قد اشترته لك وأهدته لك فإذا جاء صاحبها بتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله أعطه من متاعه . فيقول له النبي ﷺ « أولم تهد لنا » فيقول : يا رسول الله إنه لم يكن عندي ثمنه وأحببت أن تأكل منه ، فيضحك النبي ﷺ ويأمر لصاحبه بتمنعه (١) فنه مطايعات يباح مثلها على التنور لأعلى الدوام ، والمواظبة عليها مزول منموم وسبب الضحك الميسر للقلب .

### الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

وهذا عرم مهما كان مؤذيا كما قال تعالى ( يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ) ومعنى السخرية الاستهزاء والتحقير والتنبية على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه . وقد يكون ذلك بالحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وإذا كان محضرة المستهزء به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى النبية . قالت عائشة رضي الله عنها : حاكيت إنسانا فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم « والله أحب أنى حاكيت إنسانا ولي كذا وكذا » (٢) وقال ابن عباس في قوله تعالى ( يا أولئنا ما لهذا الكتاب لا يتادخروا فيه ولا كبره إلا أحصاهم ) إن الصغيرة التبريم بالاستهزاء بالؤمن ، والكبيرة التحقير بذلك . وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر . وعن عبد الله بن زعمة أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب فرفع يده في ضحكهم من الضربة فقال « علام يضحك أحدكم بما يفعل » (٣) وقال ﷺ « إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم لهم فيجىء بكره وغمه فإذا أتاه أغلق دونه ، ثم يفتح له باب آخر فيقال لهم لهم فيجىء بكره وغمه فإذا أتاه أغلق دونه فإذا زال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب فيقال لهم لهم فلا يأتيه » (٤) وقال معاذ بن جبل : قال النبي ﷺ « من غير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله » (٥) وكل هذا يرجع إلى استحقاق الغير والضحك عليه استهزاء به واستصغاراً له . وعليه نبه قوله تعالى ( عسى أن يكونوا خيرا منهم ) أي لا تستحقه استصغارا فقلله خير منك .

وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة ووربما فرح من أن يسخر به كانه السخرية في حقه من جملة المزاح - وقد سبق ما يمدح منه وما يمدح - وإنما الحزم استصغارا يتأذى به المستهزأ به لما

(١) حديث : كان نسيان رجلا مزاحا وكان يشرب الخمر فيؤتى به إلى النبي ﷺ فيضربه ... الحديث . وفيه أنه : كان يشتري الشيء ويهديه إلى النبي ﷺ ثم يجيء صاحبه فيقول أعطه من متاعه ... الحديث . أخرجه الزبير بن بكار في الفسكاة ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسل وقد تقدم أوله .

### الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

(٢) حديث عائشة : حكيت إنسانا فقال لي النبي ﷺ « ما يسرنى أنى حاكيت إنسانا ولي كذا وكذا » أخرجه أبو داود والترمذي وصححه . (٣) حديث عبد الله بن زعمة : وعظمهم في الضحك من الضربة وقال « علام يضحك أحدكم بما يفعل » متفق عليه . (٤) حديث « إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم لهم فيجىء بكره وغمه فإذا جاء أغلق دونه ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث الحسن مرسل وروناه في ثمانيات النجيب من رواية أبي هذبة أحد المالكيين عن أنس . (٥) حديث معاذ بن جبل « من غير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله » أخرجه الترمذي دون قوله « قد تاب منه » وقال حسن غريب وليس إسناده بتسل قال الترمذي قال أحمد بن منيع قالوا « من ذنب قد تاب منه » .

فيه من التهمة والتهاون . وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعه ، أو على صورته وخلقه إذا كان قصيراً أو ناقصاً ليسب من الميوب ، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية الممنوعة عنها .

### الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء . قال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا حدث الرجل الحديث ثم انفتق فبى أمانة » وقال مطلقاً « الحديث بينكم أمانة » وقال الحسن : إن من الحياة أن تحدث بسر أخيك . وروى أن معاوية رضى الله عنه أسر إلى الوليد بن عتبة حديثاً فقال لأبيه : يا أبت إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثاً وما أراه يطوى عنك ما بسطه إلى غيرك ؟ قال : فلا تحدثني به فإن من كتم مرة كان الخيار إليه ، ومن أفشاء كان الخيار عليه قال : قلت يا أبت وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه ؟ قال : لا والله يا بني وسكن أحب أن لا تدخل لسانك بأحاديث السر ، قال : فأنت معاوية فأخبره فقال : يا وليد أعتكك أبوك من روق الخطأ إفشاء السر خيانة .

وهو حرام إذا كان فيه إضرار . ولزم إن لم يكن فيه إضرار . وقد ذكرنا ما يتعلق بكتبتان السر في كتاب آداب الصبغة فأغنى عن الإعادة .

### الآفة الثالثة عشر : الوعد الكاذب

فإن اللسان سباق إلى الوعد ، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفاً وذلك من أمارات النفاق قال الله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ) وقال ﷺ « المدة عطية » وقال صلى الله عليه وسلم « الوأى مثل الدين أو أفضل » (١) والوأى : الوعد . وقد أتى الله تعالى نبيه اسمعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال ( إنه كان صادق الوعد ) قيل إنه وعد إنساناً في موضع فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسي ، فبقي اسمعيل اثنين وعشرين يوماً في انتظاره . ولما حضرت عيد الله بن عمر الوفاة قال : إنه كان خطب إلى ابني رجل من قريش وقد كان مني إليه شبه الوعد ، فوافه لا أتى الله بذلك النفاق ! أشهدكم أني قد زوجته ابني . وعن عبد الله بن أبي الحنفية قال : بايت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت وبقيت له بقية فواعده أن آتية بها في مكانه ذلك ، فأنسيت يومى والغد فأتيه اليوم الثالث وهو في مكانه ، فقال « يا بني لقد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك » (٢) وقيل

### الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

(١) حديث « إذا حدث الرجل بحديث ثم انفتق فبى أمانة » أخرجه أبو دود والترمذي وحسنه من حديث جابر . (٢) حديث « الحديث بينكم أمانة » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلاً .

### الآفة الثالثة عشرة : الوعد الكاذب

(٣) حديث « المدة عطية » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائط في مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلاً .

(٤) حديث « الوأى مثل الدين أو أفضل » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية ابن لهيعة مرسلاً وقال الوأى يعنى الوعد ، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث طي بسند ضعف . (٥) حديث عبد الله بن أبي الحنفية : بايت النبي ﷺ فوعده أن آتية بها في مكانه ذلك فأنسيت يومى والغد فأتيه اليوم الثالث وهو في مكانه فقال « يا بني قد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك » رواه أبو داود واختلف في إسناده وقال ابن مهدي ما أظن إبراهيم بن طهمان إلا أخطأ فيه .

لإبراهيم: الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجيء، قال: ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التي يجيء. وكان رسول الله ﷺ إذا وعد وعدا قال «عسى» وكان ابن مسعود لا يعد وعدا إلا ويقول إن شاء الله وهو الأول.

ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن تعذر، فإن كان عند الوعد عازما على أن لا يفي فهذا هو النفاق. وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أتمن خان» وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ «أربع من كن فيه كان منافقا ومن كانت فيه خلة منهن كن فيه خلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر» وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر، فأما من عزم على الوفاء فمن له عذر منه من الوفاء لم يكن منافقا وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضا كما يحترز من حقيقته، ولا ينبغي أن يحصل نفسه معذورا من غير ضرورة حاضرة فقد روي أن رسول الله ﷺ كان يعد أبا الهيثم ابن التهان خادما، فأتى بثلاثة من السي فأعطى اثنين وبقى واحدا، فأنت فاطمة رضي الله عنها طلب منه خادما وتقول: ألا ترى أثر الرسي يدي؟ فذكر مواعده لأبي الهيثم فجعل يقول «كيف بموعدي لأبي الهيثم؟» فآثره به على فاطمة — لما كان قد سبق من مواعده له — مع أنها كانت تدبر الرسي بينهما الضميمة. ولقد كان ﷺ جالسا يقسم غنائم هوازن بمحزن فوقف عليه رجل من الناس فقال: إن لي عندك موعدا يا رسول الله قال «صدقت فاحكم ما شئت» فقال: أحكم ثمانين حائنة وراعبا، قال «هي لك» وقال «أحكمت يسه» ولصاحبة موسى عليه السلام التي دلت على عظام يوسف كانت أحزم منك وأجول حكما منك حين حكما موسى عليه السلام فقالت حكى أن تردني شاة وأدخلك معك الجنة؟ قيل فكان الناس يضعفون ما أحكم به حتى جعل مثلا قليل أشح من صاحب الثمانين والراعي. وقد قال رسول الله ﷺ «ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفي نيته أن يفي» وفي لفظ آخر «إذا وعد الرجل وفي نيته أن يفي فلم يعد فلا إثم عليه».

### الآفة الرابعة عشرة: الكذب في القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب وقواشح الميوب. قال اسماعيل بن واسط: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه مخاطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام هذا عام أول — ثم بكى —

- (١) حديث: كان إذا وعد وعدا قال «عسى» لم أجده أصلا. (٢) حديث أبي هريرة «ثلاث من كن فيه فهو منافق... الحديث» وفيه «إذا وعد أخلف» متفق عليه وقد تقدم.
- (٣) حديث عبد الله بن عمرو «أربع من كن فيه كان منافقا... الحديث» متفق عليه. (٤) حديث: كان وعد أبا الهيثم بن التهان خادما؛ فأتى بثلاثة من السي فأعطى اثنين وبقى واحدا، فجاءت فاطمة تطلب منه... الحديث. وفيه فجعل يقول «كيف بموعدي لأبي الهيثم» فآثره به على فاطمة تقدم ذكر قصة أبي الهيثم في آداب الأكل وهي عند الترمذي من حديث أبي هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة. (٥) حديث: أنه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بمحزن فوقف عليه رجل فقال: إن لي عندك موعدا، قال: «صدقت فاحكم ما شئت... الحديث» وفيه «لصاحبة موسى التي دلت على عظام يوسف كانت أحزم منك... الحديث». أخرجه ابن حبان والحاكم في المستدرک من حديث أبي موسى مع اختلاف قال الحاكم صحيح الإسناد وفيه نظر. (٦) حديث «ليس الخلف أن يعد الرجل ومن نيته أن يفي» وفي لفظ آخر «إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يعد فلا إثم عليه» أخرجه أبو داود والترمذي وضعه من حديث بن أرقم باللفظ الثاني إلا أنهما قال «فلم يفي».

وقال «إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار» وقال أبو أمامة: قال رسول الله ﷺ «إن الكذب باب من أبواب النفاق» وقال الحسن: كان يقال إن من النفاق اختلاف السر والعلانية، والقول والعمل، والدخل والخروج، وإن الأصل الذي بني عليه النفاق الكذب. وقال عليه السلام «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب» وقال ابن مسعود: قال النبي ﷺ «لا يزال العبد يكذب ويحرم الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» وروى رسول الله ﷺ رجلين يتبايعان شاة ويتحالفان، يقول أحدهما: والله لا أقصم من كذا وكذا، ويقول الآخر: والله لا أزيدك على كذا وكذا، فربا لفاة وقد اشترأها أحدهما فقال «أوجب أحدهما بالإثم والكفارة» وقال عليه السلام «الكذب ينقص الرزق» وقال رسول الله ﷺ «إن التجار هم الفجار» فقيل يارسول الله اليس قد أحل الله البيع؟ قال «نعم ولكنكم تحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون» وقال ﷺ «ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: المنافق والمفتق سلعة بالخلف الفاجر والمسلل لإزاره» وقال ﷺ «ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة» وقال أبو ذر قال رسول الله ﷺ «ثلاثة يحبهم الله: رجل كان في قلة تنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وأصحابه، ورجل كان له جالس سوء يؤذيه فغضب على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظمن، ورجل كان معه قوم في سفر أو سرية فأطاعوا السرى حتى أصعبهم أن عمسوا الأرض فقتلوا فتخلى يصل حتى يوقظ أصحابه للرحيل. وثلاثة يشتمهم الله: التاجر أو البائع الخلف، والفقير المختال والبخيل الثاني» وقال صلى الله عليه وسلم «ويل للذي تحدث فيكذب ليضطك به القوم ويل له ويل له» (١١)

#### الآفة الزامة عشرة: الكذب في القول واليمين

- (١) حديث أبي بكر الصديق: قام فينا رسول الله ﷺ فقام هذا عام أول - ثم بكى - وقال «إياكم والكذب الحديث أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة وجهه للصف من رواية إسماعيل بن أوسط عن أبي بكر وأما هو أوسط ابن إسماعيل بن أوسط وإسناده حسن. (٢) حديث أبي أمامة «إن الكذب باب من أبواب النفاق» أخرجه ابن عدى في الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى الوجهي ضعيف جداً ورضي عنه قوله ﷺ «ثلاث من كن فيه فهو منافق» وحديث «أربع من كن فيه كان منافقا» قال في كل منهما «وإذا حدث كذب» وهما في الصحيحين وقد تقدم في الآفة التي قبلها. (٣) حديث «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له كاذب» أخرجه البخاري في كتاب الأدب للفرد وأبو داود من حديث سفيان بن أسيد وضعفه ابن عدى ورواه أحمد والطبراني من حديث الثواس بن ميمان بإسناد جيد. (٤) حديث ابن مسعود «لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» متفق عليه. (٥) حديث: مر رجلين يتبايعان شاة ويتحالفان... الحديث، وفيه قال «أوجب أحدهما بالإثم والكفارة» أخرجه أبو الفتح الأزدی في كتاب الأسماء للفردة من حديث ناسخ حديث ناسخ المحضرى وهكذا رويها في أمالي ابن ميمون وناسخ ذكره البخاري هكذا في التاريخ، وقال أبو حاتم هو عبد الله بن ناسخ.
- (٦) حديث «الكذب ينقص الرزق» أخرجه أبو الشيخ في طبقات الأصفيانيين من حديث أبي هريرة ورويناه كذلك في مشيخة القاضي أبي بكر وإسناده ضعيف. (٧) حديث «إن التجار هم الفجار... الحديث» وفيه «ويحدثون فيكذبون» أخرجه أحمد «الحاكم وقال صحيح الإسناد والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن شبل.
- (٨) حديث «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: المنافق والمفتق سلعة بالخلف الفاجر والمسلل لإزاره» أخرجه مسلم من حديث أبي ذر. (٩) حديث «ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة» أخرجه الترمذي والحاكم وصحیح إسناده من حديث عبد الله بن أنيس. (١٠) حديث أبي ذر «ثلاثة يحبهم الله... الحديث» وفيه «وثلاثة يشتمهم الله: التاجر أو البائع الخلف» أخرجه أحمد واللفظ له وفيه ابن الأحمس ولا يعرف حاله ورواه هو والنسائي بلفظ آخر بإسناد جيد والنسائي من حديث أبي هريرة «أربعة يفضهم الله البيع الخلف... الحديث» وإسناده جيد. (١١) حديث «ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي في الكبرى من رواية يهز بن حكيم عن أبيه عن جده.

وقال ﷺ « رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم فقممت معه ، فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس ، بيد القائم كلوب من حديد يلقمه في شق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كله ، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده فإذا به رجوع الآخر كما كان ، قلت للذي أتاني ما هذا ؟ قال : هذا رجل كذاب يعذب في قبره إلى يوم القيامة (١) » وعن عبد الله بن جراد قال : سألت رسول الله ﷺ قلت يا رسول الله هل ينزل المؤمن ؟ قال « قد يكون ذلك » قال : يا نبي الله هل يكذب المؤمن ؟ قال « لا » ثم أنبأنا ﷺ بقول الله تعالى ( إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ) (٢) وقال أبو سعيد الخدري : سمعت رسول الله ﷺ يقول في دعائه « اللهم طهر قلبي من النفاق وفرجني من الزنا ولساني من الكذب (٣) » وقال ﷺ « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، ومكاذب ، وماتل مستكبر (٤) » وقال عبد الله بن عامر : جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فتالت أمي : يا عبد الله تعالى حتى أعطيك فقال ﷺ « وما أردت أن تعطيه » قالت عمرا ، فقال وأما إنك لو لم تعطي لكنت عليك كذبة (٥) » وقال ﷺ « لو أفاء الله نعمة هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا (٦) » وقال ﷺ « وكان متكئا » ألا أنبئكم بأ أكبر الكبائر الإشراف بالله وعقوق الوالدين » ثم قعد وقال « ألا وقول الزور (٧) » وقال ابن عمر : قال رسول الله ﷺ « إن العبد ليكذب الكذبة فيتقاعد الملك عنه مسيرة ميل من نين ما جاء به (٨) » وقال أنس : قال النبي ﷺ « قبلوا إلى بست أتقبل لكم بالجنة » فقال وما هن ؟ قال « إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا وعد فلا يخلف وإذا أتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم (٩) » وقال رسول الله ﷺ « إن الشيطان كمالا ولموعا ونفوعا ، أما لموعه فالكذب ، وأما نفوعه فالغضب ، وأما كماله فالنوم (١٠) » وخطب عمر رضي الله عنه يوما فقال : قام فينا رسول الله ﷺ كفيها هذا فيكم فقال « أحسنوا إلى أصحابي

- (١) حديث « رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم فقممت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كلوب من حديد يلقمه في شق الجالس ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث سمرة بن جندب في حديث طويل . (٢) حديث عبد الله بن جراد : أنه سأل النبي ﷺ هل ينزل المؤمن ؟ قال « قد يكون من ذلك » قال : هل يكذب ؟ قال « لا » ... الحديث أخرجه ابن عبد البر في التمهيد بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت مقتصر على الكذب وجعل السائل أبا الدرداء . (٣) حديث أبي سعيد « اللهم طهر قلبي من النفاق وفرجني من الزنا ولساني من الكذب » هكذا وقع في نسخ الإحياء عن ابن سعيد وإنما هو عن أم معبد وكذا رواه الخطيب في التاريخ دون قوله « وفرجني من الزنا » وزاد « وعملي من الرياء وعيني من الحيانة » وإسناده ضعيف . (٤) حديث « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ... الحديث » وفيه « والإمام الكذاب » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٥) حديث عبد الله بن عامر : جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فتالت أمي يا عبد الله تعالى أعطيك فقال « وما أردت أن تعطيه ؟ » قالت عمرا فقال « إن لم تعطي لكنت عليك كذبة » رواه أبو داود وفيه من لم يسم وقال الحاكم إن عبد الله بن عامر ولد في حياته ﷺ ولم يسمع منه . قلت : وله شاهد من حديث أبي هريرة وابن مسعود ورجالها ثقات إلا أن الزمري لم يسمع من أبي هريرة . (٦) حديث « لو أفاء الله علي هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا » رواه مسلم وتقدم في أخلاق النبوة . (٧) حديث « ألا أنبئكم بأ أكبر الكبائر ... الحديث » وفيه « وقول الزور » متفق عليه من حديث أبي بكرة . (٨) حديث « إن عمر ان العبد ليكذب الكذبة فيتقاعد الملك عنه مسيرة ميل من نين ما جاء به » أخرجه الترمذي وقال حسن غريب . (٩) حديث أنس « قبلوا إلى بست أتقبل لكم بالجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب ... الحديث » أخرجه الحاكم في المستدرک والحراطي في مكارم الاخلاق وفيه سعد بن ستان ضعفه أحمد والنسائي وأكده ابن معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الإسناد . (١٠) حديث « ان الشيطان كمالا ولموعا ونفوعا » أخرجه الطبراني وأبو نعيم من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم .

ثم الذين بلوتهم ثم يفسو الكذب حتى يحلف الرجل على البين ولم يستحلف ويشهد ولم يستشهد<sup>(١)</sup> وقال رسول الله ﷺ « من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين<sup>(٢)</sup> » وقال رسول الله ﷺ « من حلف على بين يمين يأتهم ليقطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لي أو غيري وهو عليه غضبان<sup>(٣)</sup> » وروى عن رسول الله ﷺ « أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبا<sup>(٤)</sup> » وقال رسول الله ﷺ « كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم إلا الحياة والكذب<sup>(٥)</sup> » وقالت عائشة رضي الله عنها : ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها<sup>(٦)</sup> . وقال موسى عليه السلام : يا رب أي عبادك خير لك عملا ؟ قال من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزني فرجه . وقال لقمان لابنه : يا بني إياك والكذب فإنه شئ كظم الصغور عما قليل يقلاه صاحبه : وقال عليه السلام في مدح الصدق « أربع إذا كن فيك لا يضرك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث وحفظ الأمانة وحسن خلق وعفة طمعه<sup>(٧)</sup> » وقال أبو بكر رضي الله عنه في خيلة بعد وفاة رسول الله ﷺ : قام فينا رسول الله ﷺ مثل مقامى هذا عام أول - ثم بكى - وقال « عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة<sup>(٨)</sup> » وقال معاذ : قال لي رسول الله ﷺ « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وبذل السلام وخفض الجناح<sup>(٩)</sup> » .

وأما الآثار : فقد قال علي رضي الله عنه : أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب وشر التدامة تدامة يوم القيامة وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه : ما كذبت كذبة منذ شذت على إداري ، وقال عمر رضي الله عنه : أحبكم إلينا ما لم ترك أحسبكم إسماف إذا ربناكم فأحبكم إلينا أحسبكم خلقا فإذا أخبرناكم بأحبكم إلينا أصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة . وعن ميمون بن أبي شبيب قال : جلست أكتب كتابا فأثبت على حرف إن أنا كتبت زيفت الكتاب وكنت قد كذبت فمرست على تركه فتوديت من جانب البيت ( يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ) وقال الشعبي : ما أدرى أيهما أبعد غورا في النار الكذب أو البخل ؟ وقال ابن السكيت : ما أدراني أوجر على ترك الكذب لأن إغما أحسنه أم لا ؟ وقيل لخالد بن صبيح : أيسر الرجل كذبا بكذبة واحدة ؟ قال : نعم قال مالك بن دينار : قرأت في بعض الكتب ما من خطيب إلا وقرض خطبته على عمله فإن كان صادقا صدق وإن

(١) حديث : خطب عمر بالجالية ... الحديث وفيه « ثم يفسو الكذب » أخرجه الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر . (٢) حديث « من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » أخرجه مسلم في مقبعة صحيحه من حديث سمرة بن جندب . (٣) حديث « من حلف على بين يمين يأتهم ليقطع بها مال امرئ مسلم ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود . (٤) حديث : أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبا . أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية موسى بن شيبة مرسل وموسى روى معمر عنه مناكير قاله أحمد بن حنبل (٥) حديث علي « كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن إلا الحياة والكذب » أخرجه ابن أبي شيبة في اللصف من حديث أبي أمامة ورواه ابن عدي في مقبعة الكامل من حديث سعد بن أبي وقاص وابن عمر أيضا وأبي أمامة أيضا ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث سعد مرفوعا وموقوفًا وللوقوف أشبه بالصواب قاله الدارقطني في اللعل .

(٦) حديث : ما كان من خلق الله شيء أشد عند أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ولقد كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة . أخرجه أحمد من حديث عائشة ورجاله ثقات إلا أنه قال عن ابن أبي مليكة أو غيره وقدرناه أبو الشيخ في الطبقات فقال ابن أبي مليكة ولم يشك وهو صحيح (٧) حديث « أربع إذا كن فيك فلا يضرك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث » أخرجه الحاكم والحرطاني في مكالم الاخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه ابن لميعة . (٨) حديث أبي بكر « عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة » أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة وقد تقدم بعضه في أول هذا النوع . (٩) حديث معاذ « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية وقد تقدم .



كان كاذباً فرضت شفتاه بمفاريض من نار كلما قرعنا نبتاً . وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه ، وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء فقال له : كذبت ، فقال عمر والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه .

### بيان ما رخص فيه من الكذب

اعلم أن الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره ، فإن أقل درجاته أن يستند الخبير الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلاً وقد يطلق به ضرر غيره ، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة ، فالكذب يحصل لذلك الجبل فيكون مأذوناً فيه ، وربما كان واجباً .

قال ميمون بن مهران : الكذب في بعض المواطن خير من الصدق ، أرايت لو أن رجلاً سعى خلف إنسان باليف ليقتله لدخل داراً فاتته إليك فقال أرايت فلاناً ؟ ما كنت قاتلاً ؟ ألسنت تقول : لم أراه ؟ وما تصدق به وهذا الكذب واجب .

فتقول : الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً فالكذب فيه حرام ، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحاً ، وواجب إن كان المقصود واجباً ، كما أن عصمة دم المسلم واجبة . فمما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختلف من ظالم فالكذب فيه واجب . ومما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو استئالة قلب المجنى عليه إلا بكذب فالكذب مباح ، إلا أنه ينبغي أن يمتد منه ما أمكن ، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيضحي أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة ، فيكون حراماً في الأصل إلا لضرورة .

والذي يدل على الاستثناء ما روى عن أم كلثوم قالت : ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول في الحرب ، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها (١) . وقالت أيضاً : قال رسول الله ﷺ « ليس يكذب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نهي خيراً » (٢) . وقالت أسماء بنت زيد : قال رسول الله ﷺ « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما » (٣) . وروى عن أبي كاهل قال : وقع بين اثنين من أصحاب النبي ﷺ كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت : مالك ولعلان قد سمعت بحسن عليك التنا ، ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ، ثم قلت : أهلك نفسي وأصلحت بين هذين ! فأخبرت الرسول ﷺ فقال : « يا أبا كاهل أصلح بين الناس » (٤) . وأبول كذب . وقال عطاء بن يسار : قال رجل للنبي ﷺ « كذب على أهل ؟ قال : « ولا خير في الكذب » قال : أحدهما وأقول لها ، قال « لا جناح عليك » (٥) .

(١) حديث أم كلثوم : ما سمعته يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث . أخرجه مسلم وقد تقدم . (٢) حدث أم كلثوم أيضاً « ليس يكذب من أصلح بين الناس ... الحديث » متفق عليه وقد تقدم ، وألقى قبله عند مسلم بعض هذا . (٣) حديث أسماء بنت زيد « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما » أخرجه أحمد بزيادة فيه وهو عند الترمذي مختصراً وحسنه . (٤) حديث أبي كاهل : وقع بين رجلين من أصحاب النبي ﷺ كلام ... الحديث . وفي « يا أبا كاهل أصلح بين الناس » رواه الطبراني ولم يصح . (٥) حديث عطاء بن يسار : قال رجل للنبي ﷺ « كذب على أهل ؟ قال : « لا خير في الكذب » قال : أعدوها وأقول لها ، قال « لا جناح عليك » أخرجه ابن عبد البر في التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسل وهو في اللوطا عن صفوان بن سليم مضعاً من غير ذكر عطاء بن يسار .

وروى أن ابن أبي عذرة الفزولي وكان في خلافة عمر رضى الله عنه كان يطلع النساء اللاتي يتزوج بهن فطارت له في الناس من ذلك أحودة يكرها ، فلما علم بذلك أخذ بيد عبدالله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ، ثم قال لمرأته: أنشدك بالله هل تبغضيني ؟ قالت : لا تنفذي قال : فأتى أنشدك الله ، قالت : نعم ، فقال لابن الأرقم : أسمع ؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضى الله عنه فقال: إنكم تحدثون أني أعظم النساء وأعلمهن فأسأل ابن الأرقم ، فسأله فأخبره ، فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجاءت هي وعصمتها فقال : أنت التي تحدثين لزوجك أنك تبغضينه ؟ فقالت : إني أول من تاب وراجع أمر الله تعالى إنه ناشدني فتحرجت أن أكذب ، أفأكذب يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم فأكذبي فإن كانت إحداكن لا تحب أحدا فلا تحبته بذلك ، فإن أقل البيوت التي يبنى على الحب ولكن الناس يتعاضرون بالإسلام والأحساب.

وعن النواس بن سمعان الكلابي قال : قال رسول الله ﷺ « ما لي أراكم تتهاقون في الكذب تهافت الفراش في النار ؟ كل الكذب يكتب على ابن آدم لا محالة إلا أن يكذب الرجل في الحرب ، فإن الحرب خدعة ، أو يكون بين الرجلين شحنة فيصالح بينهما ، أو يحدث امرأته يرضاه » وقال ثوبان الكذبي كله إثم إلا ما نفع به مسلما أو دفع عن ضررا . وقال صلى الله عليه وسلم : إذا حدثتكم عن النبي ﷺ فلا تخرجن من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه ، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فالجرب خدعة .

فهذه الثلاث ورد فيها صريح استثناء ، وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لنفسيه . أما ما له : فثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله لله أن ينكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها لله أن ينكر ذلك ، فيقول : ما زلت وما سرفت . وقال ﷺ « من ارتكب شيئا من هذه القساوورات فليستر بستر الله » وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فليرجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلما وعرضه بلسان مؤمن كان كاذبا .

وأما عرض غيره : فيأن يسأل عن مراهقه لله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه ، وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعده لا يقدر عليه فيبدها في الحال تطييبا لقبها ، أو يمتنع إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به . ولكن الحد فيه أن الكذب محذور ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور . فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشد وقسا في الشرع من الكذب لله الكذب ، وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصديق فيجب الصدق ، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيما ، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة ، فإن شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه . ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب بما أمكنه ، وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب ، فأما إذا تعلق بمرض غيره فلا يجوز المسامحة لحق الغير والإضرار به ، وأكثر كذب الناس إغناؤه لمخطوط أنفسهم ، ثم هو لويادات المال والجاه والأمور ليس قواها

(١) حديث النواس بن سمعان « ما لي أراكم تتهاقون في الكذب تهافت الفراش في النار ؟ كل الكذب مكتوب الحديث » أخرجه أبو بكر بن بلال في مكارم الأخلاق بلفظ « تتبايعون » إلى قوله « في النار » دون ما بيده فرواه الطبراني وفيما شهر بن حوشب .

(٢) حديث « من ارتكب شيئا من هذه القساوورات فليستر بستر الله » الحاكم من حديث عمر بلفظ « اجنبوا هذه القساوورات التي نهى الله عنها فمن أثم شيء منها فليستر بستر الله » وإسناده حسن .

عنقورا ، حتى إن المرأة لتحكى عن زوجها ما تفتخر به وتكذب لأجل مراعاة الضرات ، وذلك حرام . وقالت أسماء : سمعت امرأة سألت رسول الله ﷺ قالت : إن لى ضررة وإنى أتكسر من زوجى بما لم يفعل أضرارها بذلك فهل على شئ فيه ؟ فقال ﷺ : « التشيع بما لم يعط كلابس ثوبى زور »<sup>(١)</sup> وقال ﷺ : « من تعلم بما لا يعلم أو قال لى وليس له أو أعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبى زور يوم القيامة »<sup>(٢)</sup> ويدخل فى هذا فتوى العالم بما لا يتحققه ، وروايته الحديث الذى لا يلتبه إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول : لا أدرى ، وهذا حرام ، وما يلتحق بالنساء الصبيان ، فإن الصبي إذا كان لا يرغب فى المكسب إلا بوعده أو تخويف كاذب كان ذلك مباحا . نعم وروينا فى الأخبار أن ذلك يكتب كذبا ، ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ويحاسب عليه ويطلب بتصحيح قصده فيه ثم يعفى عنه ، لأنه إنما أيسح بقصد الإصلاح ويتطرق إليه غرور كبير فإنه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذى هو مستغن عنه وإنما يتعل ظاهرا بالإصلاح فلها يكتب . وكل من أتى بكذبة فقد وقع فى خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذى كذب لأجله هو لى فى الشرع من الصدق أم لا ؟ وذلك غامض جدا والجزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه كالذى أدى إلى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان .

وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث فى فضائل الأعمال وفى التشديد فى المعاصى ، وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ عسى ، إذ قال ﷺ : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »<sup>(٣)</sup> وهذا لا يرتكب إلا لضرورة ولا ضرورة إذ فى الصدق مندوحة عن الكذب ففى ما ورد من الآيات والأخبار كفاية من غيرها . وقول القائل : إن ذلك قد تكرر على الأصحاب وسقط وقبه ، وما هو جديد فوقه أعظم ، فهذا هو الذى ليس هذا من الأغراض التى تقاوم بخود الكذب على رسول الله ﷺ وعلى الله تعالى ويؤدى فتح باب إلى أمور تشوش الشريعة فلا يقاوم خير هذا شره أصلا ، والكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر التى لا تقاومها شئ . نسال الله العفو عنا وعن جميع المسلمين .

### بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف أن فى المعاريض مندوحة عن الكذب قال عمر رضى الله عنه : أما فى المعاريض ما يكنى الرجل عن الكذب ؟ وروى ذلك عن ابن عباس وغيره . وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التريض ولا التصريح جيعا ، ولكن التريض أمر من ومثال التريض ما روى أن مطرفا دخل على زياد فاستبطأ فتمل بمرض وقال : مارفت جنى مذ فارقت الأمير إلا مارضى الله . وقال إبراهيم : إذا بلغ الرجل منك شئ فكرهت أن تكذب قتل : إن الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شئ . فيكون قوله « ما » حرف نفي عند المستمع ، وعنده اللتام . وكان معاذ بن جبل عاملا لمرضى الله عنه فلما رجع قالت له امرأته : ما جئت به بما يأتى به العمال إلى أهلهم ؟ وما كان قد آتاهما بشئ . فقال : كان عندى ضابط ، قالت : كنت أمينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبى بكر رضى الله عنه . فبعث عمر

(١) حديث أسماء : قالت امرأة إن لى ضررة وإنى أتكسر من زوجى بما لم يفعل ... الحديث . متفق عليه وهى أسماء بنت أبى بكر الصديق .

(٢) حديث « من تعلم بما لا يعلم أو أعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبى زور يوم القيامة » لم أجده بهذا اللفظ (٣) حديث « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » متفق عليه من طرق وقد تقدم فى العلم .

ملك ضابطا؟ وقامت بذلك بين نساء واشتكت عمر، فلما بلغه ذلك دعا معاذًا وقال: يمض ملك ضابطا؟ قال: لم أجد ما أعترض به إلا ذلك، فضحك عمر رضى الله عنه وأعطاه شيئا فقال: أرضها به - ومعنى قوله ضابطا يعني رقيقا وأراد به الله تعالى - وكان النخعي لا يقول لابنته: أشترى لك سكرًا بل يقول أرايت لو اشتريت لك سكرًا؟ فإنه ربما لا يتفق له ذلك - وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار قال للجارية: قول له أطلبه في المسجد ولا تقول ليس ههنا كيلا يكون كذبا - وكان الشعبي إذا طلب في المنزل وهو يكرهه خط دائرة وقال للجارية: ضعي الأضبع فيها وقولي ليس ههنا - وهذا كله في موضع الحاجة فأما غير موضع الحاجة فلا، لأن هذا تهم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذبا فهو مكروه على الجلة كما روى عبد الله بن عتبة قال: دخلت مع أبي علي عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه فخرجت وحلي ثوب، فجعل الناس يقولون هذا كساك أمير المؤمنين؟ فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا، فقال لي أبي يابني اتق الكذب وما أشبهه، فتهاه عن ذلك لأن فيه تقريراً لمن ظن كاذب لأجل غرض المفارقة وهذا غرض باطل لا فائدة فيه.

نعم المعاريض تباح لغرض خفيف كتعليق قلب الغير بالمواض كقوله عليه السلام «لا يدخل الجنة صبور» وقوله للأخرى «الذي في عين زوجك يياض» وللأخرى «نعملك على ولد البعير» وما أشبهه. وأما الكذب الصريح كما فعله نعيمان الأنصاري مع عثمان في قصة الضير إذ قال إنه نعيمان، وكما يعتاد الناس من ملاعبة الخلق بتزويرهم بأن امرأة قد رغبت في تزويجك، فإن كان فيه ضرر يؤدي إلى إيذاء قلب فهو حرام، وإن لم يكن إلا للمطايبة فلا يوصف صاحبها بالفسق ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه. قال عليه السلام «لا يكل للبر الإيمان حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه وحتى يجنب الكذب في مزاحه» وأما قوله عليه السلام «إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها في النار أبعد من الثريا» أراد به ما فيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون بعض المواض،

ومن الكذب الذي لا يوجب النسق ما جرت به العادة في المباينة كقوله طلبك كذا وكذا مرة وقلت لك كذا مرة، فإنه لا يريد به فهم المرات ببدعها بل فهم المباينة، فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذبا، وإن كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة لا يأثم وإن لم تبلغ مائة، وبينهما درجات يترضى مطلق اللسان بالمباينة فيها لخطر الكذب. وما يعتاد الكذب فيه ويقساهل به أن يقال: كل الطعام، فيقول: لا أشتيه؛ وذلك منهى عنه وهو حرام، وإن لم يكن فيه غرض صحيح قال مجاهد: قالت أسماء بنت عميس؛ كنت صاحبة طائفة في الليلة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعي نسوة قالت: فوالله ما وجدنا عنده في قرى إلا قدحا من لبن، فشرب منه ثم ناوله طائفة، قالت: فاستحييت الجارية فقلت: لا ترضى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خذى منه، قالت: فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال «ناولى صواحبك، فقلن: لا أشتيه، فقال لا تصمن جوما وكذبا» قالت: فقلت يا رسول الله إن قالت إحداك لشيء تشبهه لا أشتيه أبعد ذلك كذبا؟ قال

(١) حديث «لا يدخل الجنة حموز» وحديث «في عين زوجك يياض» وحديث «نعملك على ولد البعير» تقدمت الثلاثة في الآفة العاشرة. (٢) حديث «لا يستكمل المؤمن إيمانه حتى يجنب الكذب في مزاحه» ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب من حديث أبي مليكة النمري وقال فيه نظر وللشيعين من أنس «لا يؤمن أحد منكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وللدارقطني في اللؤلؤ والمختلف من حديث أبي هريرة «لا يؤمن عبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في مزاحه» قال أحمد بن حنبل منكر. (٣) حديث «إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من الثريا» تقدم في الآفة الثالثة.

« إن الكذب ليكتب كذبا ، حتى تكتب الكذبية كذبية<sup>(١)</sup> » وقد كان أهل الورع يحذرون عن التصاح بمثل هذا الكذب .

قال البيهقي بن سعد : كانت عينا سعيد بن المسيب ترمش حتى يبلغ الرمش خارج عينيه ، فيقال له : لو مسحت عينيك ؟ فيقول : وأين قول الطيب : لا تمس عينيك فأقول : لا أقول ؟ وهذه مراقبة أهل الورع . ومن تركه انسل لسانه في الكذب عن حد اختياره فيكذب ولا يضر . وعن خوات النبي قال : جاءت أخت الربيع بن خثيم مائة لابن له فأنكبت عليه ، فقالت : كيف أنت يا بني ؟ فجلس الربيع وقال : أرضعتيه ؟ قالت : لا ، قال : ما عليك لو قلت : يا ابن أخي فصمت ؟ ومن العادة أن يقول : يعلم الله ، فيما لا يعلم . قال عيسى عليه السلام إن من أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد إن الله يعلم ، لما لا يعلم . وربما يكذب في حكاية المنام ، والإثم فيه عظيم إذ قال عليه السلام « إن من أعظم الغفرة أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام ما لم يرى أو يقول على ما لم يقل<sup>(٢)</sup> » وقال عليه السلام « من كذب في حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شمرتين وليس بمعاقد بينهما أبدا<sup>(٣)</sup> » .

### آلة الخامسة عشرة النبية

والنظر فيها طويل ولئن ذكر أولا مذمة النبية وما ورد فيها من شواهد الشرع ، وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة ، فقال تعالى ﴿ ولا يَنْتَبِ بِكُمْ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ ﴾ وقال عليه السلام « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه<sup>(٤)</sup> » والنبية تتناول العرض وقد جمع الله بينه وبين المال والدم ، وقال أبو هريرة : قال عليه السلام « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تفاحشوا ولا تدابروا ولا يَنْتَبِ بِكُمْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا<sup>(٥)</sup> » وعن جابر وأبي سعيد قالا : قال رسول الله ﷺ « إياكم والنبية فإن النبية أشد من الزنا ، فإن الرجل قد يزني ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه وإن صاحب النبية لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه<sup>(٦)</sup> » وقال أنس : قال رسول الله ﷺ « مررت ليلة أسرى في على أقوام يخمشون وجوههم بأظفارهم قتلوا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين يفتابون الناس ويقعون في أعراضهم<sup>(٧)</sup> » وقال سليم بن جابر : أتيت النبي عليه الصلاة والسلام فقلت علي خيراً أقتع به ، فقال « لا تحقرن من المعروف شيئا

(١) حديث مجاهد عن أسماء بنت عميس : كنت صاحبة عائشة التي هيأها وأدخلتها على رسول الله ﷺ ... الحديث وفيه « قال لا يجتمع جوما وكذبا » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في الكبير وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وهو الصواب ، فإن أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبشة ، لكن في طبقات الأصبهانيين لأن الشيخ من رواية عطاء بن أبي رباح عن أسماء بنت عميس : رخصنا إلى النبي ﷺ بعض نساءه ... الحديث . فإذا كانت غير عائشة بمن توجبها بعد خير فلا مانع من ذلك . (٢) حديث « إن من أعظم القرى أن ندعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام ما لم يقل أو يقول على ما لم يقل » أخرجه البخاري من حديث واثلة بن الأسقع وله من حديث ابن عمر « من أفرى القرى أن يرى عينيه ما لم يره » . (٣) حديث « من كذب في حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شمرتين » أخرجه البخاري من حديث ابن عباس .

### آلة الخامسة عشرة : النبية

(٤) حديث « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٥) « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا يَنْتَبِ بِكُمْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله « ولا يَنْتَبِ بِكُمْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَقَدْ تَدْرِمُ فِي آدَابِ الصَّحْبَةِ » . (٦) حديث جابر وأبي سعيد « إياكم والنبية فإن النبية أشد من الزنا ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وابن حبان في الضعفاء وابن مردويه في الضعيف . (٧) حديث أنس « مررت ليلة أسرى في على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم ... الحديث » أخرجه أبو داود مستندا ومرسلا وللسند أصح .

ولو أن تصب من طوك في إزاء المستق، وأن تلقى أخاك بيشر حسن وإن أدبر فلا تفتابه<sup>(١)</sup>» وقال البراء: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع الحواقي في يوتهن فقال «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تتباؤوا المسلمين ولا تتبعوا عورتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع عورة الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف يته<sup>(٢)</sup>» وقيل أوحى الله إلى موسى عليه السلام: من مات تأثبا من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصرا عليها فهو أول من يدخل النار. وقال أنس: أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم يوم فقال «لا يظفرون أحد حتى آذن له» فصام الناس حتى إذا أسوا جعل الرجل يحجى فيقول: يا رسول الله ظلت صائما فأذن لي لأظفر فيأذن له، والرجل والرجل حتى جاء رجل فقال: يا رسول الله فنانان من أمك ظلتا صائمتين وإنهما يستحيان أن يأتيك فأذن لهما أن يظفرا فأعرض عنه ﷺ، ثم عوده فقال «إنهما لم يصوما وكيف يصوم من ظل نهاره بأكل لحم الناس؟ اذهب فرما إن كانتا صائمتين أن تستقيتا» فرجع إليهما فأشبههما فاستقاءتا، فقامت كل واحدة منهما علة من دم، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره فقال «والذي قضى بيده لوبقيتا في يظفروهما لا كتلتهما النار<sup>(٣)</sup>» وفي رواية: أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك وقال يا رسول الله والله إنهما قد ماتتا أو كادتا تموتا، فقال ﷺ «اتوتى بهما» فجاءت فدعا رسول الله ﷺ بقبح فقال لإحدهما «قبي» فقامت من قبح ودم وصديد حتى ملأت القدرح، وقال للآخرى «قبي» فقامت كذلك، فقال «إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأظفرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس<sup>(٤)</sup>» وقال أنس: خطبنا رسول الله ﷺ فذكر الربا وعظم شأنه فقال «إن الدم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين ذنية يربنها الرجل وأربى الربا عرض المسلم<sup>(٥)</sup>» وقال جابر كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأقن على قبرين يعلنب صاحبا فقال «إنهما يعلنبان وما يعلنبان في كبير، أما إحداهما فكان يفتاب الناس، وأما الآخر فكان لا يستره من بوله» فدعا بجريدة رجلة أو جريدتين فكسرها ثم أمر بكل كسرة ففرست على قبر وقال «أما إنه سيهون من عذابهما ما كانتا وطيتين — أو ما لم ييسا —<sup>(٦)</sup>» ولما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذا في الزنا قال رجل لصاحبه: هذا أقصم كما يقصم الكلب، فمر صلى الله عليه وسلم وهما معه بحيفة فقال «انها منيا» فقالا: يا رسول الله تهش

- (١) حديث سليم بن جابر: أتيت رسول الله ﷺ فقلت علفي خيرا يفضي الله به ... الحديث. أخرجه أحمد في السند وابن أبي الدنيا في الصمت واللفظ له ولم يقل فيه أحمد «وإذا أدبر فلا يفتابه» وفي إسنادها ضعف.
- (٢) حديث البراء «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تتباؤوا المسلمين ... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا ورواه أبو دواد من حديث أبي بزة بإسناد جيد. (٣) حديث أنس: أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم وقال «لا يظفرون أحد حتى آذن له فصام الناس ... الحديث» في ذكر للرأتين اللتين اغتابتا في صيامهما فتأدت كل واحدة منهما علة من دم؟ أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وابن مردويه في التفسير من رواية يزيد الرقاشي عنه وزيد ضعيف.
- (٤) حديث المرأتين المذكورتين وقال فيه «إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأظفرتا على ما حرم الله عليهما ... الحديث» أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله ﷺ وفيه رجل لم يسم ورواه أبو يعلى في مسنده فأسقط منه ذكر الرجل اللهم. (٥) حديث أنس: خطبنا رسول الله ﷺ فذكر الربا وعظم شأنه ... الحديث: وفيه «وأربى الربا عرض الرجل للسم» أخرجه ابن أبي الدنيا بسند ضعيف. (٦) حديث جابر: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأقن على قبرين يعلنب صاحبا فقال «أما إنهما يعلنبان وما يعلنبان في كبير، أما إحداهما فكان يفتاب الناس ... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وإبو العباس الدغولي في كتاب الآداب بإسناد جيد وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه التهمة بدل الغيبة. ولعليلالي فيه «أما إحداهما فكان يأكل لحوم الناس» ولأحمد والطبراني من حديث أبي بكرة نحوه بإسناد جيد.

جيفة ؛ فقال « ما أصعبنا من أخيك أئن من هذه » وكان الصحابة رضي الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يتناجون عند النية ويرون ذلك أفضل الأعمال ويرون خلافه عادة المنافقين . وقال أبو هريرة : من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه له في الآخرة وقيل له كله ميتا كما أكلته حيا ، فياكله فينتج ويكبح <sup>(١)</sup> وروى مرفوعا كذلك . وروى أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد فريهما رجل كان عثنا فترك ذلك . فقالا : لقد بقي فيه منه شيء ، وأقيمت الصلاة فدخلنا فصلينا مع الناس ، لحاك في أنفسهما ما قالأ فأتيا صلاه فسألا فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة وأمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائمين . وعن مجاهد أنه قال ( ويل لكل همزة لمزة ) الهمزة : العلمان في الناس ، والهمزة : الذي يأكل لحوم الناس . وقال قتادة : ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث : ثلث من النية ، وثلث من النية ، وثلث من البول . وقال الحسن : والله النية أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد . وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في السكف عن أعراض الناس . وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك . وقال أبو هريرة : يصير أحذكم التقنى في عين أخيه ولا يصير المجدع في عين نفسه . وكان الحسن يقول : ابن آدم أن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تصيب الناس بعيب هوفيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فصلحه من نفسك ، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك ، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا . وقال مالك بن دينار : مر عيسى عليه السلام ومعه الخواريون بصيفة كلب فقال الخواريون : ما أئن ريح هذا الكلب ا قتال عليه الصلاة والسلام : ما أشد يياض أسنانه ! كأنه <sup>(٢)</sup> ينهم من غيبة الكلب ونهمهم على أنه لا يذكر من شيء من خلق الله إلا أحسنه . وسمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلا ينتاب آخر فقال له : إياك والنية فأنها إدام كلاب الناس . وقال عمر رضي الله عنه : عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء وإياكم وذكر الناس فإنه داء . نسأل الله حسن التوفيق لطاعته .

### بيان معنى النية وحدودها

اعلم أن حد النية أن تذكر أعياك بما يكره لو بلغه ، سواء ذكرته بتقص في بدنه أو نسيه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه ، حتى في ثوبه وداره ودابته .

أما البدن : فكذلك العشم والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة ، وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكره كيفما كان . وأما النسب : فأن تقول أوه قطبي أو هندي أو فاسي أو خبيس أو إسكافي أو ذبال ، أو شيء مما يكره كيفما كان . وأما الخلق : فأن تقول هوسى الخلق بخيل مشكبر مرأشديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متور وما يجرى مجراه . وأما في أفعاله المتعلقة بالدين : فكقولك هوسارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترز من التجاسات أو ليس باراً بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمتها أو لا يحرس صومه عن الرفث والنية والعرض لأعراض الناس . وأما فعله التعلق بالدنيا : فكقولك إنه قليل الأدب متهاون بالناس ، أو لا يرى لأحد

- (١) حديث قوله للرجل الذي قال لصاحبه في حق للرجوم هذا أقص كما يقصم الكلب فر بجيفة فقال « انهما الحديث » أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة نحوه باسناد جيد .  
 (٢) حديث أبي هريرة « من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه له في الآخرة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيا ... منها ... الحديث » أخرجه ابن مردويه في التفسير مرفوعا وموقوفا وفيه محمد بن إسحاق رواه بالضعف .

على نفسه حقاً أو يرى لنفسه الحق على الناس ، أو أنه كثير الكلام كثير الأكل توم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه . وأما في ثوبه فكقولك إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب . وقال قوم : لا غيبة في الدين لأنه ذم مادحه الله تعالى فذكره بالمعاصي وذهم بها يجوز ، بدليل ما روى أن رسول الله ﷺ ذكرت له امرأة وكثرة صومها وصلاتها لكنّها تؤذي جيرانها بلسانها فقال « هي في النار » وذكرت عنه امرأة أخرى بأنها بخيلة فقال « فإخبرها إذن » لا فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال ، ولم يكن غرضهم التفتيش ولا يحتاج إليه في غير مجلس الرسول ﷺ . والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو متعاب لأنه داخل فيها ذكره لرسول الله صلى الله عليه وسلم في حد الغيبة .

وكل هذا وإن كان صادقا فيه فهو متعاب عاص لربه وآكل لحمة أخيه بدليل ما روى أن النبي ﷺ قال « هل تدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال « ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أ رأيت إن كان في أخى ما أتو له ؟ قال « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته » وقال معاذ بن جبل : ذكر رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا : ما أجزه ؟ فقال ﷺ « اغتبتم أخاك » قالوا يا رسول الله قلنا ما فيه ، قال « إن قلت ما ليس فيه فقد بهته » وعن حذيفة عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت عند رسول الله ﷺ امرأة فقالت : إنها قصيرة فقال ﷺ « اغتبها » وقال الحسن : ذكر الغير ثلاثة الغيبة والبهان والإفك ، وكل في كتاب الله عز وجل : فالغيبة أن تقول ما فيه ، والبهان أن تقول ما ليس فيه ، والإفك أن تقول ما يهلك . وذكر ابن سيرين رجلا فقال : ذاك الرجل الأسود ثم قال : استغفر الله إنى أراى قد اغتبته . وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعي فوضع يده على عينه ولم يقل إلا حرام . وقالت عائشة : لا يفتنن أحدكم أخدا فإني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي ﷺ إن هذه لطيفة الذيل فقال لي « الفطى الفطى » فلفظت مضطربة لحمة » .

### بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تقويم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه ، فالتعريض به كالإصرار والفعل فيه كالتقول ، والإشارة والإيماء والنمز والممز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام . فمن ذلك قول عائشة رضي الله عنها : دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدي أنها قصيرة فقال عليه

(١) حديث : ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاتها لكن تؤذي جيرانها فقال « هي في النار » أخرجه ابن جبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة (٢) حديث : ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة قال « فإخبرها إذن » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي جعفر محمد بن علي مهمل ، وروينا في أمالي ابن شيمون هكذا . (٣) حديث « هل تدرون ما الغيبة ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم ، قال « ذكرك أخاك بما يكره ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٤) حديث معاذ : ذكر رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا ما أجزه ... الحديث . أخرجه الطبراني بسند ضعيف (٥) حديث عائشة : أنها ذكرت امرأة فقالت إنها قصيرة فقال « اغتبها » رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه بلفظ آخر ووقع عند المصنف عن حذيفة عن عائشة وكذا هو في السمعت لابن أبي الدنيا والصواب عن أبي حذيفة كاعتدأ أحمد وأبو داود والترمذي واسم أبي حذيفة سلمة بن صبيب .

(٦) حديث عائشة : قلت لامرأة إن هذه لطيفة الذيل فقال ﷺ « الفطى » فلفظت بضعة من لحم . أخرجه ابن أبي الدنيا وابن مردويه في التضمير وفي إسناده امرأة لا أعرفها .



السلام » اغتبتها <sup>(١)</sup> » ومن ذلك المحاكاة كأن يمشى متارجماً أو كما فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة لأنه أعظم في التصور والتفهم . ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة حاكمت امرأة قال « ما يبرئني أتى حاكيت إنساناً ولي كذا وكذا <sup>(٢)</sup> » وكذلك الغيبة بالسكتاية فإن القلم أحد السانين . وذكر المصنف شخصاً معيناً وتهجين كلامه في السكتاب غيبة إلا أن يفتقر به شيء من الأعداد الموجهة إلى ذكره . كما سيأتي بيانه . وأما قوله : قال قوم كذا : فليس ذلك غيبة ، إنما الغيبة التعرض للشخص معين إما حي وإما ميت . ومن الغيبة أن نقول : بعض من مر بنا اليوم ، أو بعض من رأيته ؛ إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معيناً ؛ لأن المخبر تقيمه دون ما به التفهم فأما إذا لم يفهم عنه جاز . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكره من إنسان شيئاً قال « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا <sup>(٣)</sup> » فكان لا يبين . وقولك : بعض من قدم من السفر ، أو بعض من يدعى العلم ، إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهو غيبة .

وأخبرت أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين فإنهم يفهمون المقصود على سيفة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التشفع عن الغيبة ويفهمون المقصود ، ولا يدرون بمجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة والزبالة ، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول : الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام ، أو يقول : نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها ، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء ، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول : ما أحسن أحوال فلان ؛ ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه ثور وابتلى بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر . فيذكر نفسه ومقصوده أن ينم غيره في ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بال صالحين بأن ينم نفسه ، فيكون مغتاباً ومزكياً نفسه ، فيجمع بين ثلاث فواحش وهو بمجهل يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة . ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فإنه يتبعهم ويحيط بمكائدهم يعلمهم ويضحك عليهم ويسخر منهم . ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتقنه له بعض الحاضرين فيقول : سبحان الله ما أعجب هذا ؛ حتى يصنى إليه ويعلم ما يقول ، فيذكر الله تعالى ويستعمل الاسم آلة في تحقيق خبثه ، وهو يمين على الله عز وجل يذكره جهلاً منه وضروراً ، وكذلك يقول : ساء لي ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به نسأل الله أن يروح نفسه ، فيكون كاذباً في دعوى الاعتناء في إظهار الدعاء له ، بل لم قصد الدعاء لأخفاء من خلوته عقيب صلاته ، ولو كان يقيم به لأغتم أيضاً بإظهار ما يكرهه . وكذلك يقول : ذلك المسكين قد بلى بألفه عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو في كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره وخفى قصده ، وهو لجهل لا يدري أنه قد تعرض لفتة أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهاوا .

ومن ذلك الإصفاة إلى الغيبة على سبيل التعجب فإنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المتكلم في الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول : عجب ما حدث أنه كذا ؛ ما عرفته إلى الآن إلا بالخبر : وكنت أحسب فيه غير هذا ، عافانا الله من بلاته . فإن كل ذلك تصديق للكتاب والتصديق بالغيبة بل الساكت شريك

(١) حديث عائشة : دخلت علينا امرأة فأومأت يدي أي قصيرة فقال النبي ﷺ « قد اغتبتها » أخرجه ابن أبي الدنيا وابن مريوة من رواية حسان بن غارق عنها وحسان وثقة ابن حبان وباقين ثقات .

(٢) حديث « ما يبرئني أتى حاكيت » تدم في الآفة الحادية عشرة .

(٣) حديث : كان إذا ذكره من إنسان شيئاً قال « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عائشة دون قوله « وكان لا يبرره » ورجاله رجال الصحيح .

المخاطب . قال صلى الله عليه وسلم «الستمع أحد المتنايين<sup>(١)</sup>» وقد روى عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أن أحدهما قال لصاحبه : إن فلانا لنشوم ثم إنهما طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليا كلا به الخبر فقال صلى الله عليه وسلم «قد اتدتمنا؟» قالوا : ما فعله؟ قال «على إنكما أكلتما من لحم أخيكما<sup>(٢)</sup>» فانظر كيف جمعهما وكان القتال أحدهما والآخر مستمعا . وقال للرجلين الذين قال أحما . أقصص الرجل كما يقصص الكلب « انتهى من هذه الجيفة<sup>(٣)</sup> » فجعل بينهما فالستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف ، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لومه ، وإن قال بلسانه اسكت ، وهو منه ذلك بقلبه فذلك تفادى ، ولا يخرج من الإثم ما لم يكره بقلبه ، ولا يكن في ذلك أن يشير باليد أى اسكت ، أو يشير بمحاجبة وجهه ، فإن ذلك استحقاق للذكور بل يبنى أن يعظم ذلك فينبذ عنه صريحا وقال صلى الله عليه وسلم من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق<sup>(٤)</sup> » وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن رد عن عرضه يوم القيامة<sup>(٥)</sup>» وقال أيضا «من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعقبه من النار<sup>(٦)</sup>» وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة وفي فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب آداب الصعوبة وحقوق المسلمين فلا نطول بإعادتها .

### بيان الأسباب الناعثة على الغيبة

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ولكن يحسبها أحد عشر سببا : ثمانية منها تطرد في حق العامة ، وثلاثة تخص بأهل الدين والخاصة .

أما الثانية ؛ فالأول : أن يشق التنبؤ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه ، فإنه إذا هاج غضبه يشتد بذكر مساويه فيسبق اللسان إليه باللعن إن لم يكن ثم دين وإزع ، وقد يمتنع تقفى التنبؤ عند الغضب فيحتمل الغضب في الباطن فيصير حقا ثابتا فيكون سببا دائما لا ذكرى المساوى ، فالهقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة .  
الثاني : موافقة الأقران وبجاملة الرفقاء . ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا كانوا يشككون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استغفروه وقرروا عنه فيساعدوه ويرى ذلك من حسن المماشرة ويظن أنه بجاملة في الصعوبة ، وقد يغضب رفاقه فيحتاج إلى أن يغضب لبعضهم إظهارا للسامعة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوى .

الثالث : أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند عهده ، أو يشهد عليه بشهادة

(١) حديث «الستمع أحد المتنايين» أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر : نهى رسول الله ﷺ عن التنية وعن الإصباح إلى الغيبة . وهو ضعيف (٢) حديث : أن أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه إن فلانا لنشوم ثم طلبا أدما من رسول الله ﷺ فقال «قد اتدتمنا؟» قالوا : ما فعله؟ قال «على ما أكلتما من لحم صاحبكما» أخرجه أبو العباس الدغولي في الآداب من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسل نحوه (٣) حديث « انتهى من هذه الجيفة » قاله للرجلين الذين قال أحدهما : أقصص كما يقصص الكلب . تقدم قبل هذا باثني عشر حديثا (٤) حديث «من أذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق» أخرجه الطبراني من حديث سهل بن حنيف وفيه ابن لمعة (٥) حديث أبي الدرداء «من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن رد عن عرضه يوم القيامة» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وفيه شهر بن حوشب وهو عند الطبراني من وجه آخر يلفظ «رد الله عن وجهه النار يوم القيامة» وفي رواية له «كان له حجابا من النار» وكلامه ضعيف (٦) حديث «من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعقبه من النار» أخرجه أحمد والطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد .

فيأدره قبل أن يتجسس هو حاله ويظن فيه ليستقط أثر شهادته ، أو يتدبى بذكر ماقبه صادقا لكذب عليه  
بسمه فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول : ما من عادت الكذب ، فإني أخبركم بكذا وكذا من أحواله  
فكان كما قلت .

الرابع : أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله ، وكان من حقه أن يرى نفسه ولا يذكر الذي  
فعل فلا ينسب غيره إليه ، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركا له في الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله .

الخامس : إرادة التصنع والمباهاة ، وهو أن يرفع نفسه بقبض غيره فيقول فلان وفيه ريكك وكلامه  
ضعيف ، وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويبرهن أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يظلم مثل تعظيمه  
فيفقد فيه ذلك .

السادس : الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبهونه ويكرمونه ، فيريد زوال تلك الثمّة عنه  
فلا يجد سبيلا إليه إلا بالفسخ فيه ، فيريد أن يستقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه  
لأنه يشغل عليه أن يسمع كلام الناس وتثناءهم عليه وإكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد وهو غير الغضب والحقد ،  
فإن ذلك يستدعي جنابة من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والرفيق للوافق .

السابع : اللعب والمزول والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك ، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل  
المحاكاة ومثوثة التكرير والمجرب .

الثامن : السخرية والاستهزاء استحضاراً له فإن ذلك قد يجرى في الحضور ويجرى أيضا في التوبة ومثوثة  
التكرير واستغفار المستهزأ به .

وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغضبها وأدقها ، لأنها شروخها الشيطان في معرض الخيرات  
وفيهما خير . ولكن شاب الشيطان بها الشر .

الأول : أن تثبت من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين ، فيقول ما أعجب ما رأيت من  
فلان فإنه قد يكون به صادقا ويكون تعجبه من المنكر ، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان  
عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه ، فصار به متغابا وأتما لمن حيث لا يدري . ومن ذلك قول الرجل : تعجب من فلان  
كيف يحب جارتة وهي قبيحة ؟ وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل ؟ .

الثاني : الرحمة وهو أن يفتن بسبب ما يتبلى به فيقول : مسكين فلان قد عني أمره وما ابتلى به ، فيكون صادقا  
في دعوى الاعتماد وبلية النعم عن الخسر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به متغابا ، فيكون غمه ورحمته خيرا وكذا  
تعجبه ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري ، والترحم والاعتماد يمكن دون ذكر اسمه فيهبج الشيطان على  
ذكر اسمه ليطيل به ثواب اغتيامه وترحمه .

الثالث : الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارئة إنسان إذا راه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه ،  
وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يظهره على غيره ، أو يستر اسمه ولا يذكره  
بالسوء ، فإنه الثلاثة مما يفتن دركها على العلماء فضلا عن العوام ، فإنهم يظنون أن أن التعجب والرحمة والغضب  
إذا كان لله تعالى . كان عنرا في ذكر الاسم وهو خطأ ، بل المرخص في النية حاجات مخصوصة لامتدوحة فيها عن  
ذكر الاسم - كما سيأتى ذكره - روى عن عاصم بن واثلة : أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم

فسلم عليهم فردوا عليه السلام ، فلما جاؤهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا في الله تعالى فقال أهل المجلس : لبئس ما قلت والله ثبنته ، ثم قالوا : يا فلان لرجل منهم - قم فأدركه وأخبره بما قال ، فأدركه رسولهم فأخبره فأثنى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ما قال وسأله أن يدعوهم ، ففعلهم وسأله فقال : قد قلت ذلك فقال صلى الله عليه وسلم « لم تبغضه ؟ » فقال : أنا جاره وأنا به خابر ، والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه المكتوبة ، قال : فأسأله يارسول الله هل رأي أخريتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو الزكوة أو السجود فيها ؟ فأسأله فقال : لا ، فقال : والله ما رأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر ، قال : فأسأله يارسول الله هل رأي قط أظفرت فيه أو تقصت من حته شيئا ؟ فأسأله عنه فقال : لا ، فقال : والله ما رأيته يعطي سائلا ولا مسكينا قط ولا رأيته ينفق شيئا من ماله في سبيل الله إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر ، قال : فأسأله يارسول الله هل رأي تقصت منها أو ما كست فيها طالبا الذي يسأله ؟ فأسأله فقال : لا ، فقال صلى الله عليه وسلم للرجل « قم فقله خير منك » (١) .

### بيان الملاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة

أعلم أن مساوي الأخلاق كلها إنما تعالج بمحور العلم والعمل ، وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فلنفحص من سببها . وعلاج كلف اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة والآخر على التفصيل .

أما على الجملة : فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بفيتيته بهذه الأخبار التي رويها وأن يعلم أنها عيضة لحسائه يوم القيامة ، فلأنما تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه ، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه ، وهو مع ذلك معرض لثقت الله عز وجل ومشيبه عنده بأكل الميتة ، بل العبد يدخل النار بأن ترجع كفة سيئاته على كفة حسناته وربما تنقل إليه سيئة واحدة عن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار . وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله وذلك بعد الخفاصة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب . قال صلى الله عليه وسلم « ما النار في البئس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد » (٢) وروى أن رجلا قال للحسن بنغني أنك تتأني ، فقال : ما يبلغ من قدرك عندي أني أحملك في حسناتك : فهما آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك ، وينفعه أيضا أن يتبرير في نفسه فإن وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن شغل عيبه عن عيوب الناس » (٣) ومهما وجد عيبا فلينبغي أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره ، بل ينبغي أن يحقن أن عجز غيره عن نفسه في التترع عن ذلك الميب كعجزه ، وهذا إن كان ذلك عيبا يمتنع بفعله واختياره ، وإن كان أمرا خلقيا فالتم له ذم الخلق فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها . قال رجل لحكيم : يا قبيح الوجه ، قال : ما كان خلق وجهي إلى فأحسنه . وإذالم عبد العبد عيبا في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلون نفسه بأعظم العيوب ، فإن تلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب ، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه بريء من كل عيب بنفسه وهو من أعظم العيوب . وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بفيتيته كئالة بغيته غيره ، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يتخاب فيفتني أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه فهذه معالجات جملة :

- (١) حديث عامر بن وائلة : أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله ﷺ فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاؤهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا في الله ... الحديث بطوله . وفيه فقال « قم فقله خير منك » أخرجه أحمد بإسناد صحيح .
- (٢) حديث « ما النار في البئس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد » لم أجده أصلا .
- (٣) حديث « طوبى لمن شغل عيبه عن عيوب الناس » أخرجه الزوار من حديث أنس بسند ضعيف .

أما التفصيل فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة فإن علاج الملة يقطع سببها ، وقد قدمنا الأسباب .  
أما الغضب فيعالجها بما سيأتى في كتاب آفات الغضب وهو أن يقول : إني إذا أغضيت غضبي عليه فلعن الله تعالى  
بعضي غضبه على سبب الغيبة إذ نهاني عنها فاجترأت على نهيي واستخففت بزجره وقد قال عليه السلام « إن جهنم بابا  
لا يدخل منه إلا من شق غيظه بمعصية الله تعالى » وقال عليه السلام « من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه »  
وقال عليه السلام « من كظم غيظا وهو يقدر على أن يفضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رموس الخلاق حتى يخرجه في  
أى الجور شاء » وفي بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين : يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب  
فلا أعفك فيمن أعف .

وأما الموافقة فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سطوته في رضا المخلوقين ، فكيف ترضى لنفسك أن  
توفر غيرك وتحرق مولاك فتترك رضاك لغيرك إلا أن يكون غضبك لله تعالى ؟ وذلك لا يوجب أن تذكر المخطوب  
عليه بسوء بل ينبغي أن تغضب الله أيضا على رفضائك إذا ذكره بالسوء ، فإنهم عصوا ربك بأحسن الذنوب وهي الغيبة .

وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الحياة حيث يستغنى عن ذكر الغير ، فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت  
الخالف أشد من التعرض لمقت المخلوقين ، وأنت بالنية متعرض لسطط الله يقينا ولا تدري أنك تتخلص من سطط  
الناس أم لا ؟ فتخلص نفسك في الدنيا بالثوم وتهلك في الآخرة وتحترق حسناك بالحقيقة ، ويحصل لك دم الله تعالى  
تقدا وتظن دفع دم الخلق نسيت ، وهذا غاية الجهل والخللان .

وأما عنذك كقولك إن أكلت الحرام فقلان يأكله ، وإن قبلت مال السلطان فقلان يقبله ، فهذا جهل لأنك  
تعتبر بالاعتداء بمن لا يجوز الاعتداء به ، فإن من خالف أمر الله تعالى لا يقدر به كائن من كان ، ولو دخل غيرك  
الثار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم تواقع ، ولو واقعته لسفه عقلك . فضا ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها  
إلى ما اعتبرت عنه وسجلت مع الجرح بين المصيبين على جهالك وغبائك ، وكنت كالشاة تنظر إلى المعزى ترى  
نفسها من قلة الجبل فهي أيضا ترى نفسها ، ولو كان لها لسان ناطق بالعذر وصرخت بالعذر وقالت : العزأ كيس  
مضى وقد أهلكك نفسها فكذلك أنا اقبل ، لكنت تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثم لا تصيب ولا تضحك  
من نفسك .

وأما قصدك المباهاة وزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدم في غيرك ، فينبغي أن تعلم أنك بما ذكرته به  
أبطلت فضلك عند الله وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر ، وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلث  
الناس فتكون قد بعت ما عند الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهما ، ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا  
لا يشنون عنك من الله شيئا .

وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا وكنت في الدنيا معذبا بالحسد ،  
فاقمعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة ، فكنت خامسا لنفسك في الدنيا فصرت أيضا خامسا في الآخرة

(١) حديث « إن جهنم بابا لا يدخله إلا من شق غيظه بمعصية الله » أخرجه البرزاورا بن أبي الدنيا وابن عدى والبيهقي والنسائي  
من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

(٢) حديث « من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث سهل بن  
سعد بسند ضعيف ورويناه في الأربعين الجهادية للشافعي .

(٣) حديث « من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن  
ماجة من حديث معاذ بن أنس .

لتجمع بين التكاليف ، فقد قصدت محمودك فأصبحت نفسك وأهديت إليه حسناتك ، فإذا أنت صديقه وعدو نفسك  
إذ لا تضره غيبك وتضره ، وتفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته ولا تنفعك وقد جمعت إلى خبث  
الحسد جهل الخفاة ، وربما يكون حسدك وقبحك سبب انتشار فضل محمودك كما قيل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حوود

وأما الاستهزاء فمقصودك منه إحزاء غيرك عند الناس بإغواء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة والنبیین  
عليهم الصلاة والسلام ، فلو تفكرت في حسرتك وجنایتك وحطتك وغريك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من  
استهزأت به وتساوى إلى النار لأدعشك ذلك عن إغواء صاحبك ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك ،  
فإنك سخرت به عند نفر قليل وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملاء من الناس ويسروك تحت  
سيئاته كما يساق الحمار إلى النار ، مستهزأ بك وفرحاً بحزرك ومسروراً بنصرة الله تعالى إياه عليك وتسلمته على  
الانتقام منك .

وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن ، ولكن حسدك لإبليس فأضلك ، واستغفلك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو  
أكثر من حسدك ، فيكون جبراً لإثم المحروم فيخرج عن كونهم مرحوماً ، وتقلب أنت مستحقاً لأن تكون مرحوماً ،  
إذ حبط أجرك ونقصت من حسناتك ، وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجد الغيبة ، وإنما الشيطان حبيب إليك الغيبة  
ليحبط أجر فضلك وتصير معرضاً لمقت الله عز وجل بالغيبة .

وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة فتعجب من نفسك انت ؟ كيف أهلكك نفسك ودينك بدين غيرك أو  
بديناه وانت مع ذلك لأنامن من عقوبة الدنيا ! وهو ان يهلك الله سرك كما هتك بالصحب سر أخيك ، فأذن علاج  
جميع ذلك المعرفة فقط والتحقيق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان ، فمن قوى إيمانه بجميع ذلك انكشف لسانه  
عن الغيبة لا محالة .

### بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلم ان سوء الظن حرام مثل سوء القول ، فكما يحرم عليك ان تحدث غيرك بلسانك بما سوى النور فلهذا  
ان تحدث نفسك وتسي الظن بأخيك ، ولست اعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ، فأما الخواطر  
وحديث النفس فهو مغفوف عنه بل الشك ايضاً مغفوف عنه ، ولكن المنهى عنه ان يظن ، والظن عبارة عما تركن إليه  
النفس ويميل إليه القلب . فقد قال الله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم )  
وسبب تحريمه ان استمرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك ان تعتقد في غيرك سوء إلا إذا انكشف لك  
ببيان لا يقبل التأويل ، فمعد ذلك لا يمكنك إلا ان تعتقد ما علمته وشاهدته ، وما لم تشاهده بيمينك ولم تسمعه  
بأذنك ثم وقع في قلبك فأثماً الشيطان بلبقه إليك ، فينبغي ان تكذبه فانه افترق الفساق ، وقد قال الله تعالى  
( يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة ) فلا يجوز تصديق إبليس وإن كان  
ثم غيلة تدل على فساد واحتمل خلاه لم يجوز ان تصدق به ، لأن الفاسق يصور ان يصدق في خبره ولكن لا يجوز  
لك ان تصدق به ، حتى إن من استنكسك فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز ان يحد ، إذ يقال ان يكون قد تضمن  
بالخر وبجها وما شربها ، او حل عليه قهراً ، فكل ذلك لا محالة دالة محتمة فلا يجوز تصديقها بالقلب

وإساءة الظن بالمسلم بها، وقد قال صلى الله عليه وسلم «إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء» (١) فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بيئته عادة، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر.

فإن قلت: فإذا سرف عقد الظن والشكوك تخطج والنفس تحدث؟ فنقول: أماراة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما يستثله ويقدر عن مراعاة وتقديره وإكرامه والاعتناء بسببه؛ فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه.

وقد قال صلى الله عليه وسلم «ثلاث في المؤمن وله ممن خرج فخرجه من سوء الظن أن لا يحقته» (٢) أي لا يحقته في نفسه بمقد ولا فعل لافي القلب ولا في الجوارح. أما في القلب: فينتيره إلى التفرقة والكراهة. وأما في الجوارح: فبالعمل بموجبيه. والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى غيلة مساءة الناس، وبأن إليه أن هذا من ضللتك وسرعة فهمك وذاتك وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى، وهو على التحقيق ناظر بمرور الشيطان وظلمته.

وأما إذا أخبرك به عدل فالظنك إلى تصديقه كنت مغلورا، لأنك لو كذبتك لكنت جانيا على هذا العدل إذ ظننت به الكذب، وذلك أيضا من سوء الظن. فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وقسى بالآخر. نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة وعاسدة وتمت فتطرق التهمة بسببه؟ فتدور الشرع شهادة الأب العدل للولد لثمة ورد شهادة العدو (٣) فك عند ذلك أن ترتقب، وإن كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه، ولكن تقول في نفسك المذكور حالة كان عندي في ستر الله تعالى، وكان أمره محجوبا عني وقد بقي كما كان لم يكشف لي شيء من أمره، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا عاسدة يتوهم بالمذكور، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مسانهم، فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل، فإنه المغتاب فاسق، وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاحتياذ تساهلوا في أمر الغيبة ولم يكتفوا بتناول أعراض الخلق.

ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعوه للخير. فإن ذلك يقيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقى إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه في السر ولا يخدمك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نفسه لينظر إليك بعين التعظيم وتنتظر إليه بعين الاستحقار وترفع عليه، بإبداء الوعظ ولكن قد تخلص من الإثم وأنت حزين، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك قصاص في دينك؛ وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالصيحة. فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أمر الوعظ وأجر التلم بصييته وأجر الإغاة له على دينه.

(١) حديث «إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف وابن ماجه بنحو من حديث ابن عمر. (٢) حديث «ثلاث في المؤمن وله ممن خرج» أخرجه الطبراني من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف (٣) حديث «ورد الشرع شهادة الوالد العدل وشهادة العدو» أخرجه الترمذي من حديث عائشة وصفته «لا يجوز شهادة خائن ولا خاتن ولا عبل وحدا ولا ذئب ولا غنم ولا خنزير ولا ولا قرابة» ولا في داود وابن ماجه بإسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ رد شهادة الخائن والخاتنة وذئب الصقر على أخيه.

ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضا منهي عنه ، قال الله تعالى ( ولا تجسسوا ) فالنية وسوء الظن والتجسس منهي عنه في آية واحدة . ومعنى التجسس أن لا يترك عباده تحت ستر الله ، فيتوصل إلى الاطلاع وهناك الستر حتى يتكشف له ما لو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه . وقد ذكرنا في كتاب الأمر بالمعروف بحكم التجسس وحقيقته .

### بيان الأعدار المخصصة في النية

اعلم أن المرخص في ذكر مساوي الغير هو فرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به فيدفع ذلك إثم النية وهي ستة أمور :

الأول : الظلم فإن من ذكر قاضيا بالظلم والحياة وأخذ الرشوة كان متبنا باصيا إن لم يكن مظلوما ، أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به قال صلى الله عليه وسلم « إن لصاحب الحق مقالا »<sup>(١)</sup> وقال عليه السلام « مظل النفي ظلم »<sup>(٢)</sup> وقال عليه السلام « لي الواجد يحل عقوبته وعرضه »<sup>(٣)</sup> .

الثاني : الاستماعة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهج الصلاح ، كما روى أن عمر رضي الله عنه مر على عيان وقيل على طلحة - رضي الله عنه فلم يرد السلام ، فذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه فذكر له ذلك ، فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم . وكذلك لما بلغ عمر رضي الله عنه أن أبا جندل قد عاقب الآخر بالعام كتب إليه ( بسم الله الرحمن الرحيم حم تزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ) الآية فتاب ، ولم يرد ذلك عمر عن أبلغه غيبة ، إذ كان قصده ألا ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه ما لا ينفعه نصحه غيره بإباحة هذا بالقصد الصحيح فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما .

الثالث : الاستفتاء كما يقول للفقى « ظلتني أبي أزوجني أو أخى فكيف طريقتي في الخلاص ؟ » والإسلام التعريض بأن يقول : ما قولك في رجل طلبة أبوه أو أخوه أو زوجته ؟ ولكن التعيين مباح بهذا القدر لما روى عن هند بنت حبة أنها قالت لثني صلى الله عليه وسلم : « إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي أفأخضن غيري عليه فقال « خذي ما يكفينك ووليك بالمعروف »<sup>(٤)</sup> » فذكرت الشح والظلم لما ولولدها ولم يجرها صلى الله عليه وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء .

الرابع : تحذير المسلم من الشر ، فإذا رايت قبيحا يردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه فلك أن تكشف له بدعته وفسقه . مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سرية البدعة والفسق لا غيره ، وذلك موضع الضرر إذ قد يكون الحسد هو الباعث ويلبس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق ، وكذلك من اشترى مملوكا وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بغير آخر فلك أن تذكر ذلك ، فإن في سكوتك ضرر المشتري وفي ذكرك ضرر العبد ، والمشتري أولى بمراعاة حياته . وكذلك الموك إذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه إن علم مطمئا ، وكذا المستشار في التزوج ولإدخال الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للتشهير لأعلى قصد

(١) حديث « لصاحب الحق مقال » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث « مظل النفي ظلم » متفق عليه من حديثه .

(٣) حديث « لي الواجد يحل عرض عقوبته » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الشريد بإسناد صحيح .

(٤) حديث : ان هنداً قالت ان أبا سفيان رجل شحيح . متفق عليه من حديث عائشة .



الواقعة ، فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله : لا تصلح لك ، فهو الواجب وفيه الكفاية وإن علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس أذكروه بما فيه حتى يحذره الناس »<sup>(١)</sup> وكانوا يقولون ثلاثة لا غيبة لهم : الإمام الجائر والمبتدع والمجاهر بفسقه .

الخامس : أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعشى ، فلا إثم على من يقول روى أبو الزناد عن الأعرج ، وسنان عن الأعشى ، وما يجري مجراه فقد قبل العلماء ذلك لضرورة التعريف ، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرمه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهوراً به . نعم إن وجد عنه معدلاً وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ، ولذلك يقال للأعمى : البصير ، عدولاً عن اسم النقص .

السادس : أن يكون مجاهراً بالفسق كالخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وكان ممن يظهر به بحيث لا يستنكف ، من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به ، فإذا ذكرت فيه ما يظهر به فلا إثم عليك قال رسول الله ﷺ « من أتى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له »<sup>(٢)</sup> وقال عمر رضي الله عنه : ليس لفاجر حرمة وأراد به المجاهر بفسقه دون المستر إذ المستر لا بد من مراعاة حرمة . وقال الصلت بن طريف قلت للحسن . الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له ؟ قال : لا ولا كرامة . وقال الحسن : ثلاثة لا غيبة لهم ؛ صاحب الهوى والفاسق المعلن بفسقه والإمام الجائر فهو لا . الثلاثة يجسمهم انهم يظهرون به وربما يتفخرون به ، فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره ؟ نعم لو ذكره بنهر ما يظهر به إثم . وقال عوف : دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج فقال : إن الله حكم عدل ، ينتقم الحجاج من اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظله ، وإنك إذا لقيت الله تعالى غداً كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أكبر ذنب أصابك الحجاج .

### بيان كفارة النية

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه ، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته ، ويبني أن يستحل وهو حزين متأسف قائم على فعله ؟ إذ المرأتى قد يستحل ليظهر من نفسه الورع وفي الباطن لا يكون تاماً ، فيكون قد قارف معصية أخرى وقال الحسن : يكفيه الاستغفار دون الاستحلال . وربما استدلل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « كفارة من اغتبت أن تستغفر له »<sup>(٣)</sup> وقال مجاهد كفارة أكلك لحم أخيك : أن تثنى عليه وتدعو له بخير . وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من النية قال : إن تثنى إلى صاحبك فتقول له : كذبت فيما قلت وظلمت وأساءت فإن شئت أخذت بمحك وإن شئت عفوت ، وهذا هو الأصح . وقول القاتل : العرض لا عوض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف ، إذ قد وجب في العرض حد القذف وثبت المطالبة به . بل في الحديث الصحيح ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « من كانت لأخيه مظلة في عرض أومال فليستحلها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار

(١) حديث « أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس أذكروه بما فيه يحذره الناس » أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء وابن عدى عن رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله « حتى يعرفه الناس » ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا في الصمت .

(٢) حديث « من أتى جلباب الحياء فلا غيبة له » أخرجه ابن عدى وأبو الشيخ في كتاب ثواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم . (٣) حديث « كفارة من اغتبت أن تستغفر له » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والمآثر ابن إسامة في مسنده من حديث أنس بسند ضعيف .

ولا درم، إنما يؤخذ من حسنة فإن لم يكن له حسنة أخذ من سيئات صاحبه فريدت على سيئاته<sup>(١)</sup> وقالت عائشة رضي الله عنها لأمراء قالت لأخرى إنها طوية الذيل: فقد اغتبتها فاستحلها. فإذا لاد من الاستحلال إن قدر عليه، فإن كان غائباً أو ميتاً فنيته إن يكثر له الاستغفار والنداء ويكثر من الحسنة.

فإن قلت: فالتحليل هل يجب؟ فأقول: لا، لأنه يبرح والتبرع فضل، وليس بواجب ولكنه مستحسن وسيل المتندر أن يبالغ في التناء عليه والتودد إليه ويلزم ذلك حتى يطيب قلبه، فإن لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة النية في القيامة.

وكان بعض السلف لا يحلل. قال سعيد بن المسيب: لا أحل من ظفني. وقال ابن سيرين: إن لم أحرمها عليه فأحلها له إن الله حرم النية عليه وما كنت لأحل ما حرم الله أبداً.

فإن قلت: فامعنى قول النبي ﷺ ينبغي أن يستحلها وتحليل ما حرم الله غير ممكن؟ فنقول: المراد به العفو عن المظلة لا أن يتقلب الحرام حللاً، وما قاله ابن سيرين حسن في التحليل قبل النية فإنه لا يجوز له أن يحلل لغيره النية.

فإن قلت: فامعنى قول النبي ﷺ «أبجز أحكم أن يكون كأي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إنني قد تصدقت بعرضي على الناس<sup>(٢)</sup>» فكيف تصدق بالعرض ومن تصدق به فهل يباح تناوله فإن كان لا تتخذ صدقة فامعنى الحديث عليه؟ فنقول: معناه إن لا أطلب مظلة في القيامة منه ولا أخاصمه، وإلا فلا تصير النية حللاً به ولا تستطع المظلة عنه، لأنه عفو قبل الوجوب إلا أنه وعد، وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم، فإن رجع وخصم كان القياس كاستمر الحقوق أن له ذلك. يل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يقطع حقه من حد القاذف، ومظلة الأخيرة مثل مظلة الدنيا، وعلى الجملة فالعفو أفضل.

قال الحسن إذا جئت الأمم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقيم من كان له أجر على الله فلا يقوم إلا الماعون عن الناس في الدنيا. وقد قال الله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فقال النبي ﷺ «يا جبريل ماهذا العفو؟» فقال: «إن الله تعالى بأمرك أن تغفوا عن ظلمك وتصل من ظلمك وتعلمي من حرمك<sup>(٣)</sup>» وروى عن الحسن أن رجلاً قال له: إن فلاناً قد اغتابك فبعت إليه رطباً على طبق وقال: قد بلغني أنك أهديت إلى من حسنتك فأردت أن أكافئك عليها فأعذرتني فإني لا أقدر أن أكافئك على التمام.

### الآفة السادسة عشرة: النسيئة

قال الله تعالى (مما مشاء بنميم) ثم قال (عتل بعد ذلك زميم) قال عبد الله بن المبارك: الزميم ولد الزنا الذي لا يكتنم الحديث، وأشار به إلى أن كل من لم يكتنم الحديث ومتى بآتيمة دل على أنه ولد زنا استنبأ طامن قوله عز وجل (عتل بعد ذلك زميم) والزميم هو النسيء وقال تعالى (ويل لكل همزة لمرة) قيل الهمزة: النام،

(١) حديث «من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أو مال فليتحلله... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث «أبجز أحكم أن يكون كأي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إنني قد تصدقت بعرضي على الناس» أخرجه البزار وابن السني في اليوم والليلة والعقيلي في الضعفاء من حديث أنس بن سفيان في ذكر ما رواه ابن عبد البر من حديث ثابت مرسل عند ذكر أبي ضمضم في الصحابة قلت وأما هو رجل ممن كان قبلنا كما عند البزار والعقيلي.

(٣) حديث: «زول (خذ العفو) الآية قال جبريل (ماهذا)» قال إن الله يأمرك أن تغفوا عن ظلمك وتصل من ظلمك وتعلمي من حرمك. تخدم في رياضة النفس.

وقال تعالى ( حمالة الحطب ) قيل إنها كانت تامة حمالة الحديث وقال تعالى ( غلاتهما فلم ينفيا عنهما من الله شيئاً ) قيل كانت امرأة لوط تغيب بالضيغان وامرأة نوح تغيب أنه يجنون وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة عام » (١) وفي حديث آخر « لا يدخل الجنة قتات » والقتات هو الغام . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحبك إلى الله أحاسنكم أخلاقاً المولطون أكثافاً الذين بألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى الله المشامون بالتهمة ، والمفرقون بين الإخوان ، المتسبون للبراء العثرات » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بشراكم ؟ قالوا : بلى ، قال « المشامون بالتهمة المفسدون بين الأجيال الباطون للبراء العيب » (٣) وقال أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أشاع على مسلم كلمة ليشتبه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة » (٤) وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها يرى ليشتبه بها في الدنيا كان حقاً على الله أن يذيه بها يوم القيامة في النار » (٥) وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار » (٦) ويقال : إن ذلك عذاب القبر من التهمة . وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي فقلت سعد من دخلني فقال الجبار جل جلاله وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس ، لا يسكنك مدمن خمر ولا مصر على الزنا ولا قتات وهو الثام ولا ديوث ولا شرطي ولا غث ولا قاطع رحم ولا الذي يقول على عهد الله إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به » (٧) وروى كعب الأحبار أن بني إسرائيل أصابهم قحط فاستنق موسى عليه السلام مرات فاسقوا فأوحى الله تعالى إليه : إني لا استجيب لك ولئن ملك وفيكم تمام قد أصر على التهمة . فقال موسى : يارب من هو ؟ دلي عليه حتى أخرجه من بيتنا ، قال : ياموسى أنها كم عن التهمة وأكون تاماً ، فتأبوا جميعاً فسقوا . ويقال اتبع رجل حكماً سيمامة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه قال : إني جئت لك الذي أتاك الله تعالى من العلم أخبرني عن السماء وما أسفل منها ؟ وعن الأرض وما أوسع منها ؟ وعن الصخر وما أغنى منه ؟ وعن النار وما أحر منها ؟ وعن الزمهرير وما أبرد منه ؟ وعن البحر وما أغنى منه ؟ وعن اليتيم وما أذل منه ؟ فقال له الحكم : البتان على البرى أقتل من السموات ، والحق أوسع من الأرض ، والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحر من النار ، والحاجة

#### الآفة السادسة عشرة : التهمة

- (١) حديث « لا يدخل الجنة عام » وفي حديث آخر « قتات » متفق عليه من حديث حذيفة وقد تقدم (٢) حديث أبي هريرة « وأحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً للمولطون أكثافاً » أخرجه الطبراني في الأوسط الصغير وقد تقدم في آداب الصفة (٣) حديث « ألا أخبركم بشراكم ؟ قالوا : بلى ، قال « المشامون بالتهمة ... الحديث » أخرجه أحمد بن حنبل في حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم .
- (٤) حديث أبي ذر « من أشاع على مسلم كلمة ليشتبه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة » أخرجه ابن أبي الدنيا في المستوطراني في مكارم الأخلاق وفيه عبدالله بن ميمون فإن يكن القنداح فهو مرفوعاً وللحديث (٥) حديث أبي الدرداء « أما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها يرى ليشتبه بها في الدنيا كان حقاً على الله أن يذيه بها يوم القيامة في النار ... » أخرجه ابن أبي الدنيا موقوفاً على أبي الدرداء ، ورواه الطبراني بلفظ آخر مرفوعاً من حديثه وقد تقدم .
- (٦) حديث أبي هريرة « من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا وفي رواية أحمد رجل لم يسم أسقط ابن أبي الدنيا في الإسناد (٧) حديث ابن عمر « إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي فقلت : سعد من دخلني ، قال الجبار : وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية » فذكر منها « ولا قتات » وهو الثام ، لم أجدهم هكذا بتامه ولا أحد « لا يدخل الجنة عاق ولو الديوث ولا ديوث » وللنساء من حديث عبدالله بن عمرو « لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر » وللشيخين من حديث حذيفة « لا يدخل الجنة قتات » ولهما من حديث جابر بن مطعم « لا يدخل الجنة قاطع » وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس « لا خلق الله الجنة قال لها : تكلمي تريي فترتي ، فقالت : طوبى لمن دخلني ورخصته لي ، فقال الله عز وجل ، لا تسكنك غنث ولا ناعثة »

إلى القريب إذا لم تنجح أبعد من الزمير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنام إذا بان أمره أذل من اليتيم .

### بيان حد النعمة وما يجب في ردّها

اعلم أن اسم النعمة إنما يطلق في الأكثر على من يتم قول الغير إلى المقول فيه ، كما تقول فلان كان يحكم فيك بكذا وكذا ، وليست النعمة مختصة به . بل حدّها كشف ما يكره كشفه ، سواء كرهه المقول عنه أو المقول إليه ، أو كرهه ثالث ، وسواء كان ذلك الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيحاء ، وسواء كان المقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً وتقصاً في المقول عنه أو لم يكن ، بل حقيقة النعمة إفشاء السر وهناك السر عما يكره كشفه ، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس بما يكره فيلجئ أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية ، كما إذا رأى من يتناول مال غيره فقلبه أن يشهد به مراعاة الحق المشهود له ، فأما إذا رأى معنى مالا لنفسه فذكره فهو نعمة وإفشاء السر ، فإن كان ما يتم به نقصاً وعيباً في المحكي عنه كان قد جمع بين النية والنية . فالبايعت على النعمة إما إرادة السوء للمحكي عنه أو إظهار الحب للمحكي له ، أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل .

وكل من حملت إليه النعمة وقيل له فلانا قال فيك كذا أو فعل في حاك كذا أو هو يدبر في إفساد أمرك أو في عمالة عدوك أو قبح حالك أو ما يجرى مجراه فليس له أمور ؛ الأول : أن لا يصدق لأن التهام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا إن جلدكم فاسق بنياً فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ) الثاني : أن ينهأ عن ذلك وينصحه له ويصح عليه فعله قال الله تعالى ( وأمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ) الثالث : أن يفضله في الله تعالى فإنه ينفض عند الله تعالى ويجب بنض من يفضله الله تعالى . الرابع : أن لا يظن بأخيه الغائب السوء لقول الله تعالى ( اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ) الخامس : أن لا يحك ما حكى لك على التحس والبحث لتحقيق ، انظروا لقوله تعالى ( ولا تجسسوا ) السادس : أن لا ترضى لنفسك ما نهيت التهام عنه ولا تحكي نميمته فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا ، فتكون به تاماً ومتتاباً وقد تكون قد أتيت ما عنه نهيت . وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه أدخل عليه رجل قد ذكر له عن رجل شيئاً فقال له عمر : إن شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية ( إن جلدكم فاسق بنياً فتبينوا ) وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية ( مماز مشاء بنم ) وإن شئت عفونا عنك ؟ فقال : العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبداً . وذكر أن حكماً من الحكماء زاره بعض إخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم : قد أطلعت في الزيارة وأتيت بثلاث جنابات ؛ بغضت أخى إلى ، وشغلت قلبى الفارغ ، واتهمت نفسك الأمانة . وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالساً وعنده الزهري فجاء رجل فقال له سليمان : بلغني أنك وقعت في وقت كذا وكذا ، فقال الرجل : ما فعلت ولا قلت ؟ فقال سليمان : إن الذي أخبرني صادق ، فقال له الزهري : لا يكون التهام صادقاً ، فقال سليمان : صدقت ، ثم قال للرجل : انذهب بسلام .

قال الحسن : من تم إليك ثم عليك . وهذا إشارة إلى أن التهام يبنى أن يفضى ولا يوثق بقوله ولا بصداقه . وكيف لا يفضى وهو لا ينفك عن الكذب والنية والتدبر والحياة والفن والحسد والتفاق والإفساد بين الناس والخذلية وهو من يسعون في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ؛ وقال تعالى ( إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبنون في الأرض بنير الحق ) والتهام منهم . وقال صلى الله عليه وسلم « إن من شرار الناس

من اتقاه الناس لشدة (١) « واتمام منهم . وقال : لا يدخل الجنة قاطع » قيل : وما القاطع ؟ قال « قاطع بين الناس (٢) » وهو التمام وقيل قاطع الرحم .

وروى عن علي رضي الله عنه أن رجلا سأل إليه رجل فقال له : يا هذا نحن نسأل عما قلت فإن كنت صادقاً فمتنك وإن كنت كاذباً عاقبتك وإن شئت أن تضيف أفتناك ، فقال : أفتني يا أمير المؤمنين . وقيل لحمد بن كعب القرظي أي خصال المؤمن أروم ؟ قال : كثرة الكلام وإفشاء الروقول قول كل أحد . وقال رجل لعبد الله ابن حار - وكان أميراً - بلغني أن فلانا أعلم الأمير أني ذكرته بسوء ، قال قد كان ذلك ، قال : فأخبرني بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك ؟ قال : ما أحب أن أشتت قصبي بلساني وحسي أني لم أصدق فيما قال ولا أطلع عنك الوصال

وذكرت السعياة عند بعض الصالحين فقال : ما ظنكم يقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم ؟ وقال مصعب بن الزبير : نحن نرى أن يقول السعياة شر من السعياة لأن السعياة دلالة والقبول إجملة ، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجله ، فأتوا الساعي فلو كان صادقا في قوله لكان ثلثيا في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر المودة . والسعياة هي التسمية إلا أنها إذا كانت إلى من يخاف جانبها سميت سعياة وقد قال صلى الله عليه وسلم « الساعي بالناس إلى الناس لغير رشدة (٣) » يعني ليس بولد حلال . ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه في الكلام وقال : إني مكلّمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله وإن كرهته فإن وراءه ما يحب إن قبله ، فقال : قل ، فقال : يا أمير المؤمنين إنه قد اكتشفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم وروضاك بسخط ربهم ، عافوك في الله ولم يحافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ولا تصخ إليهم فيما استحفك الله إياه فإنهم لن يألوا في الأمة خسفا وفي الأمانة تخيما وأراض قطعاً وأتاكها ، أعلى قريهم البغي والخيمة ، وأجل وسألهم الغيبة والوقعة وأنت مسئول عما أجرموا وليسوا المسؤولين عما أجرمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غشاً من باع آخرته بدنيا غيره . وسعى رجل يزيد الأعمش إلى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل وقال .

فأنت امرؤ إما ائتمنك خاليا فئتت وإما قلت قولاً بلا علم  
فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الحيانة والإيم

وقال رجل لعمر بن عبيد : إن الأسوارى ما يزال يذكر في قصصه بشر ، فقال له عمرو : يا هذا ما رعبت حق بجلسة الرجل حيث قتلت لإيتاحديته ، ولا أدبت حتى حين أعلقتني عن أخي ما أكره ولكن أعله أن الموت يعننا والقيبر يعننا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين . ورفع بعض السادة إلى الساحب بن عباد رقعة فيه فيها على ما يتيم يجعله على أخذه لكثرة ، فوقع على ظهرها : السعياة فيبشرونك كانت محببة ، فإن كنت أخرجتها بجرى التصح فغير أنك فيها أفضل من الريح ، ومعاذ الله أن تقبل مهووكا في مستور ، ولولا أنك في خفارة شيتك لقابلناك بما يقتضيه فلك في مثلك ، فوق ياملون العيب فإن الله أعلم بالغيب ، الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله والمال ثمرة الله ، والساعي لعنة الله . وقال لقمان لابنه : يا بني أوصيك بخلاف إن تمسكت بهن لم تزل

(١) حديث « إن من شر الناس من اتهم الناس لشدة » متفق عليه من حديث عائشة نحوه (٢) حديث « لا يدخل الجنة قاطع » متفق عليه من حديث جابر بن مطعم (٣) حديث « الساعي بالناس إلى الناس لغير رشدة » أخرجه الحاكم من حديث أبي موسى « من سعى بالناس فهو لغير رشدة » أوفيه شيء منها وقال : له أسانيد هذا أمثلها ، قلت فيه سهل بن عتبة قال فيه ابن طاهر في التذكرة منكر الرواية ، قالوا الحديث لأصل له وقد ذكر ابن جابر في الثقات سهل بن عبيد بن عمرو الطبراني بلفظ « لا يسعى على الناس إلا ولد بني وإلا من فيه عرق منه » وزاد بين سهل وبين بلال بن أبي بردة : أبا الوليد القرظي .

سيدا أبسط خلقك لقريب ووحيد . وأمسك جبهك عن الكريم والقيم ، واحفظ إخوانك وصل أهلك وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك ، وليسكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تبهم ولم يميؤك . وقال بعضهم : التهمة مبنية على الكذب والحسد والتناقض أي أنافي الذل . وقال بعضهم : لو صمغ قلبه النمام إليك لكان هو المجترى بالقتل عليك ، والنمقول عنه أولى بحبك لأنه لم يقابلك بشتمك .

وعلى الجملة فشر النمام عظيم ينبغي أن يتوقى . قال حماد بن سلة : باع رجل عبدا قال للشرى : ما فيه عيب إلا التهمة ، قال : قد رحيت ، فاشترته . فكش الغلام أياها ثم قال لروجة مولا : إن سيدى لا يحبك وهو يريد أن يشرى عليك ، نفذى الموصى وحلق من شر قتاه عند نومه شرأت حتى أبحر لها فيحبك ، ثم قال للزوج : إن امرأتك اتخذت خيلا وتريد أن تقتلك ، فتأوم لها حتى تعرف ذلك ، فتأوم لها فجاءت المرأة بالموصى فظن أنها تريد قتله فقام إليها فقتلها ، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين الغيبتين الغيبتين . ففسأل الله حسن التوفيق

### الآفة السابعة عشر

كلام ذي الساتين الذى يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافق ، وقلبا يخلو عنه من يشاهد متعادين وذلك من النفاق . قال عمار بن ياسر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة » (١) وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يجحدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتي هؤلاء بجحد و هؤلاء بحديث (٢) وفى لفظ آخر « الذى يأتي هؤلاء بوجه هؤلاء بوجه » وقال أبو هريرة : لا ينبغي لذى الوجهين أن يكون أمينا عند الله . وقال مالك بن دينار : قرأت فى التوراة بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين . وقال صلى الله عليه وسلم « أبغض خليفة الله تعالى يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لإخوانهم فى صدورهم فإذا لقوهم تملقوا لهم والذين إذا دعوا إلى الله ورسوله كانوا بطلاء . وإذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا سراها » (٣) وقال ابن مسعود : لا يكون أحدكم إمامة ، قالوا : وما الإمامة ؟ قال الذى يجرى مع كل ربح وانفقوا على أن ملائكة الاثنين يرحمن نفاق ، والنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها .

وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر : يموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تصل عليه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنه منهم ، فقال : تدعوك الله أنا منهم أم لا ؟ قال : اللهم لا ولا أؤمن منها أحداً بحدك .

فإن قلت : بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك ؟ فأقول : إذا دخل على متعادين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن منافقا ولا ذا لسانين ، فإن الواحد قد يصادق متعادين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهى إلى حد الآخرة ، أو لم تحقق الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء . كما ذكرنا فى كتاب آداب الصعجة والآخرة . نعم لم نقل

### الآفة السابعة عشرة : كلام ذي الساتين

(١) حديث عمار بن ياسر « من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة » أخرجه البخارى فى كتاب الأدب للفرد وأبو داود بسند حسن . (٢) حديث أبي هريرة « يجحدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين ... الحديث » منقذ على بلفظ « يجحدون من شر الناس » لفظ البخارى وهو عند أبى الدنيا بلفظ الصنف (٣) حديث « أبغض خليفة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لإخوانهم فى صدورهم ، فإذا لقوهم تملقوا لهم ... الحديث » لما انفصل على أصل

كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من التسمية، إذ يصير غاماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقط فإذا نقل من الجانبين فهو شر من التام، وإن لم ينقل كلاماً ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين، وكذلك إذا عدل كل واحد منهما بأن يعمره، وكذلك إذا أتى على كل واحد منهما في معاداته. وكذلك إذا أتى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده ينمى فهو ذو لسانين. بل ينبغي أن يسكت أو يثنى على الحق من المتعديين. ويثنى عليه في غيبته وفي حضوره. وبين يدي عدوه.

قيل لابن عمر رضي الله عنهما: إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره، فقال: كنا نعد هذا نقافاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> وهذا نقافٌ مهما كان مستغنياً عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه، فلا استغنى عن الدخول ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن فهو نقاف، لأنه الذي أحوج نفسه إلى ذلك، فإن كان مستغنياً عن الدخول لوقع بالقليل وترك المال والجاء فدخل لضرورة الجاء والفتى وأثنى فهو مناقف. وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم «حب المال والجاء يبين التفاف في القلب كما يبين الماء البقل»<sup>(٢)</sup> لأنه يهجر إلى الأمرأه وإلى مراعاتهم ومراءاتهم، فأما إذا ابتلى به لضرورة وخاف إن لم يثن فهو معذور، فإن اتقاء الشر جائز. قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إنا لنكسر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلتمهم وقالت عائشة رضي الله عنها: استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «اذهبوا له فبئس رجل المشيرة هو» ثم لما دخل ألان له القول، فلما خرج قلت: يا رسول الله قلت فيه ما قلت ثم ألت له القول، فقال «يا عائشة إن شر الناس الذي يكرم اتقاء شره»<sup>(٣)</sup> ولكن هذا ورد في الإقبال وفي الكسر والتيسر: فاما الثناء فهو كذب صراح ولا يجوز إلا لضرورة أو لإكراه يباح الكذب بمثل - كما ذكرناه في آفة الكذب - بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل، فإن فعل ذلك فهو مناقف، بل ينبغي أن يتكر، فإن لم يتقدر فيسكت بلسانه ويشكر بقلبه.

### الآفة الثامنة عشرة: المدح

وهو منهى عنه في بعض المواضع. أما النعم فهو النية والوقية وقد ذكرنا حكمها. والمدح يدخله ست آفات أربع في المادح، واثنان في المدحود.

فأما المادح: فالأول: أنه قد يفرط فيقتهى به إلى الكذب. قال خالد بن معدان: من مدح إماماً أو أحداً بما ليس فيه على ردوس الأشهاد بشه الله يوم القيامة يثمر بلسانه.

الثانية: أنه قد يدخله الرياء فإنه المدح مظهر للحب، وقد لا يكون مضمراً لئلا يعتقد الجميع ما يقوله فيصير به مرثياً مناقفاً.

الثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الإصلاح عليه، ووي أن رجلاً مدح رجلاً عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام «ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعنا ما أطلع» ثم قال «إن كان أحدكم لأب مادحاً

(١) حديث: قيل لابن عمر رضي الله عنهما: إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره قال: كنا نعد ذلك نقافاً على عهد رسول الله ﷺ. أخرجه الطبراني من طرق. (٢) حديث «حب الجاه والمال يبينان التفاف في القلب كما يبين الماء البقل» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف إلا أنه قال «حب الغناء» وقال «المعش» مكان «البقل»، (٣) حديث عائشة: استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال «اذهبوا له فبئس رجل المشيرة... الحديث» وفيه «إن شر الناس الذي يكرم اتقاء لشره» متفق عليه وقد تقدم في الآفة التي قبلها

أخاه فليقل أحسب فلانا ولا أدرك على الله أحدا حسيه الله إن كان يرى أنه كذلك (١) وهذه الآفة تنطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تترف بالأدلة كقوله إنه متق وورع وزاهد وخير وما يجري مجراه ، فأما إذا قال رأيته يصلي بالليل ويصنق فيه أمور مستيقنة . ومن ذلك قوله إنه عدل رضا فإن ذلك غنى فلا يبغي أن يجرم القول فيه إلا بعد خبرة باطنة . سمع عمر رضى الله عنه رجلا يقضى على رجل فقال : أسأرت منه ؟ قال : لا ، قال : أخاطبته في الميابة والمعاملة ؟ قال : لا . قال : فأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال : لا . فقال : والله الذي لا إله إلا هو لا أراك تعرفه .

الرابعة : أنه قد يفرح المدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى ينضب إذا مدح الفاسق (٢) وقال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى أرضه ، والظالم الفاسق ينبغي أن ينم ليقيم ولا يمدح ليفرح .

وأما المدوح فيضره من وجهين : أحدهما : أنه يحدث فيه كبرا واصحابا وهما مهلكان . قال الحسن رضى الله عنه : كان عمر رضى الله عنه جالسا ومعه الندة والناس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر ، فقال رجل : هذا سيد ريعة ، فسمعا عمر ومن حوله وسمعا الجارود ، فلما دنا منه خفقه بالندرة فقال : ما لك يا أمير المؤمنين؟ قال : ما لك أما لقد سمعتها؟ قال : سمعتها ، قال : خشيت أن يخاطبك قلبك منها شيء فأجبت أن اطأطئ منك .

الثاني : هو أنه إذا أتى عليه بالخير فرح به وقرر ورضى عن نفسه ومن أعجب بنفسه قل تشمره وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرا . فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ولهذا قال عليه السلام قطعت عنك صاحبك لو سمعنا ما أقطع ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى ربيضا (٣) وقال أيضا لمن مدح رجلا « عقرت الرجل عقرك الله (٤) » وقال مطرف : ما سمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي . وقال زياد بن أبي مسلم : ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراه إلى الشيطان ، ولكن المؤمن يراجع ، فقال ابن المبارك : لقد صدق كلاهما أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام ، وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص . وقال صلى الله عليه وسلم « لو مشى رجل إلى رجل يسكين مرهف كان خيرا لهما من أن يشئ عليه في وجهه (٥) » وقال عمر رضى الله عنه : المدح هو الذبح . وذلك لأن المدح هو الذي يفر عن العمل والمدح يوجب الفتور ، أو لأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح ، لذلك شبه به ، فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق المدح والمدح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوبا إليه . ولذلك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصعابة فقال « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح (٦) » وقال في عمر « لو لم أبعث لبعث

#### الآفة الثامنة عشرة : للمدح

(١) حديث : إن رجلا مدح رجلا عند رسول الله ﷺ فقال « وعحك قطعت عنك صاحبك » متفق عليه من حديث أبي بكر بنحوه وهو في السمعت لابن أبي الدنيا بلفظ للسنن . (٢) حديث « إن الله ينضب إذا مدح الفاسق » أخرجه ابن أبي الدنيا في السمعت والبيهقي في الشعب من حديث أنس وفيه أبو خلف خادم أنس ضعيف ، ورواه أبو يعلى اللؤلؤي وابن عدى بلفظ « إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش » قال القسبي في الليزان : منكر ، وقد تقدم في آداب السكتب . (٣) حديث « إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى ربيضا » أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسل . (٤) حديث « عقرت الرجل عقرك الله » قاله ابن مدح رجلا ، لم أجده أصلا . (٥) حديث « لو مشى رجل يسكين مرهف كان خيرا له من أن يشئ عليه في وجهه » لم أجده أيضا . (٦) حديث « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح » تقدم في العلم .



يا عمر (١) « وأى ثناء يزيد على هذا ؟ ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصرة . وكانوا رضى الله عنهم أهل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرا وعجبا وفورا . بل مدح الرجل نفسه فيجب لما فيه من الكبر والتفاخر إذ قال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا غر (٢) » أى لست أقول هذا تفاخرا كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم . وذلك لأن اقتضاه صلى الله عليه كان باقة وبالقرب من الله لا يولد آدم وتقدمه عليهم ؛ كما أن المقبول عند الملك قبولاً عظيماً إنما يفترخ بقبوله إياه وبه يفرح لا يتقدمه على بعض رعاياه . وبفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحديث عليه قال صلى الله عليه وسلم « وجبت (٣) » لما أتوا على بعض الموتى . وقال مجاهد : إن لبنى آدم جلوساً من الملائكة فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم غيره قالت الملائكة : ولك مثله ، وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة . يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك واحد الله الذى ستر عورتك . فهذه آفات المدح .

### بيان ما على المدوح

أعلم أن على المدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة التفور ، ولا يشجو منه إلا بأن يعرف نفسه ويأمل ما في خطر الحفاة ودقائق الرياء وآفات الأعمال ، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المداح ولو انكشف له جميع أسرارته وما يجري على خواطره لكف المداح عن مسحه وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المداح . قال صلى الله عليه وسلم « أحوأ التراب في وجهه المادحين (٤) » وقال سفيان بن عيينة : لا يضر المدح من عرف نفسه . وأثنى على رجل من الصالحين فقال : اللهم إن هؤلاء لا يعرفونى وأنت تعرفنى . وقال آخر لما أثنى عليه : اللهم إن عبدك هذا يقرب إلى بمقتك وأنا أشهدك على مقتك . وقال على رضى الله عنه لما أثنى عليه : اللهم اغفر لى ما لا يعلمون ولا تراخضنى بما يقولون واجعلنى خيراً مما يظنون . وأثنى رجل على عمر رضى الله عنه فقال : أتبلكنى وتهلك نفسك ؟ وأثنى رجل على على كرم الله وجهه - وكان قد بلغه أنه يقع فيه - فقال ، أنا دون ما قلت وفوق ما في نفسك .

### الآفة التاسعة عشرة

الغفلة عن دقائق الخطأ في غوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين فلا يقدر على تفرغ القلب في أمور الدين إلا العلماء الناصحاء ، فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخلل من الزلل لكن الله تعالى ينفو عنه لجهله . مثاله : ما قال حذيفة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت ولكن ليقل ماشاء الله ثم شئت (٥) » وذلك لأن في العطف المطلق تشريفاً وتسوية وهو على خلاف الاحترام . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : جاء رجل إلى رسول الله عليه وسلم يكلمه في بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت ، فقال

- (١) حديث « لو لم أبث لبث يا عمر » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وهو منكر والمعروف من حديث عتبة بن عامر « لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب » رواه الترمذى وحسنه (٢) حديث « أنا سيد ولد آدم ولا غر » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدرى والحاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد وله من حديث عبادة بن الصامت « أنا سيد الناس يوم القيامة ولا غر » ولمسلم من حديث أبي هريرة « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » . (٣) حديث « وجبت » قاله لما أتوا على بعض الموتى متفق عليه من حديث أنس . (٤) حديث « أحوأ في وجهه المادحين التراب » أخرجه مسلم من حديث للقداد .

### الآفة التاسعة عشرة : في الغفلة عن دقائق الخطأ

- (٥) حديث حذيفة « لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح .

صلى الله عليه وسلم « أجعلني لله عبداً، بل ما شاء الله وحده <sup>(١)</sup> ». وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال « قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى <sup>(٢)</sup> » فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : ومن يعصهما ، لأنه تسوية وجمع . وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل : أعود بالله بك ، ويجوز أن يقول : أعود بالله ثم بك ، وأن يقول : لولا الله ثم فلان ؟ ولا يقول : لولا الله وفلان ؟ وكره بعضهم أن يقال : اللهم أعطنا من النار ، وكان يقول : العنى يكون بعد الرود . وكانوا يستعيرون من النار ويؤمنون من النار . وقال رجل : اللهم اجعلني ممن تصفيه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فقال حذيفة : إن الله يغني المؤمنين عن شفاعة محمد وتكون شفاعة المؤمنين من المسلمين . وقال إبراهيم : إذا قال الرجل للرجل يا حمار يا خنزير ! قيل له يوم القيامة : حماراً رأيته خلقتة؟ خنزيراً رأيته خلقتة؟ وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلمة ، فيقول : لولاه لسرقنا اللبنة . وقال عمر رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت <sup>(٣)</sup> » قال عمر رضي الله عنه : فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها . وقال صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا العنب كراماً إنما السكرم الرجل المسلم <sup>(٤)</sup> » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يرى ولا يلقى سيدي وسيدتي فلكم عبيد الله والرب الله سبحانه وتعالى » وقال صلى الله عليه وسلم « لا تقولوا لفاقد سيدنا فإنه إن يكن سيدكم لقد أحطكم ربكم <sup>(٥)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم ومن قال أنا بريء من الإسلام فإن كان صادقا فهو كما قال وإن كان كاذبا فلن يرجع إلى الإسلام سالماً <sup>(٦)</sup> » فهذا وأمثاله ما يدخل في الكلام ولا يمكن حصره .

ومن تأمل جميع ما أوردناه من آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم « من صمت نجا <sup>(٧)</sup> » لأن هذه الآفات كلها مهابك ومعاطب وهي على طريق المتكلم فإن سكوتك سلم من الكل ، وإن نطق وتكلم غامر بنفسه إلا أن يوقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ومراقبة لازمة ، ويقال من الكلام فساد يسلم عند ذلك ، وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر ، فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تسلم فتمت فكن ممن سكوت فسلم فالسلامة إحدى الغنيمتين .

### آفة المشرون

سؤال العوام من صفات الله تعالى وعن كلامه ، وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة ؟ ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن إلا أن ذلك تميل على النفوس والفضول خفيف على القلب . والعالم يفرج بالخواص في العلم؛ إذ الشيطان يخيل إليه أنه من العلماء وأهل الفضل ، ولا يزال يحجب إليه ذلك حتى يتكلم في العلم بما هو كافر وهو

(١) حديث ابن عباس : جاء رجل إلى النبي ﷺ فسلمه في بعض الأمر فقال : ماشاء الله وشئت فقال « أجعلني الله عبداً قل ما شاء الله وحده » أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد حسن وابن ماجه . (٢) حديث : خطب رجل عند النبي ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ... الحديث « أخرجه مسلم من حديث عدى بن حاتم . (٣) حديث عمر : إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . متفق عليه . (٤) حديث « لا تسبوا العنب الكرم إنما السكرم الرجل المسلم » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٥) حديث « لا تقولوا للشافق سيدنا . . . الحديث » أخرجه أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح . (٦) حديث « من قال أنا بريء من الإسلام فإن كان صادقا فهو كما قال ... الحديث » أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث بريدة بإسناد صحيح . (٧) حديث « من صمت نجا » أخرجه الترمذي وقد تقدم في أول آفات اللسان .

لا يدري . وكل كبيرة يرتكبها العاصي فهي أسلم له من أن يحكم في العلم لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ؛ وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات والايان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث ، وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به الموت من الله عز وجل ويترعنون لخطر الكفر ، وهو كسؤال ساسة الدواب عن أمراء الملوك وهو موجب العقوبة . وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم ، فإنه بالإضافة إليه عاصي . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استعظمتم <sup>(١)</sup> » وقال أنس : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فأكثرُوا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال « سلوني ولا تسألوني عن شيء إلا أنباتكم به » فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله من أنا ؟ فقال « أوك حذافة » فقام إليه شابان أخوان قتالا : يا رسول الله من أبونا ؟ فقال « أبوكما الذي تدعيان إليه ، ثم قام إليه رجل آخر فقال : يا رسول الله أفي الجنة أنا أم في النار ؟ فقال « لا بل في النار » فلما رأى الناس غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسكوا فقام إليه عمر رضي الله عنه فقال : رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، فقال « اجلس يا عمر وحك الله إنك ما علمت لموق <sup>(٢)</sup> » .

وفي الحديث : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال <sup>(٣)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « يوشك الناس يتسألون حتى يقولوا لقد خلق الله الخلق فن خلق الله ؟ فإذا قالوا ذلك قتلوا » ( قال هو الله أحد الله الصمد ) حتى نقصوا السورة ثم ليتفل أحسبكم عن يساره ثلاثاً وليستعمل بالله من الشيطان الرجيم <sup>(٤)</sup> .

وقال جابر : ما نزلت آية الملاحتين إلا لكثرة السؤال <sup>(٥)</sup> . وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قيل أو أن استحقاقه إذ قال ( فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ) فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال ( لا تأخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري صراً ) فلم يصبر حتى سأل ثلاثاً قال ( هذا فراق بيني وبينك ) وفارقه .

فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات وهو من المثيرات للفتن ، فيجب قمعهم ومنهم من ذلك . وغرضهم في حروف القرآن يضاهي حل من كتب الملك إليه كتاباً ورسم له فيه أموراً فلم يشتغل بشيء منها ، وضيع زمانه في أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث ؟ فاستحق بذلك العقوبة لأعماله . فكذلك تضییع العاصي حدود القرآن واشتغاله بمروره أي قديمة أم حديثة ؟ وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى ، والله تعالى أعلم .

#### الآفة الشرون : سؤال العوام عن صفات الله تعالى

- (١) حديث « ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .
- (٢) حديث : سأل الناس رسول الله ﷺ يوماً حتى أكثرُوا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال « سلوني ولا تسألوني عن شيء إلا أنباتكم به ... الحديث » متفق عليه مقتصر على سؤال عبد الله بن حذافة وقول عمر . ولمسلم من حديث أبي موسى : فقام آخر فقال من أنا ؟ فقال أبو بكر سالم مولى شيعة . (٦) حديث : النهي عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال : متفق عليه من حديث المنيرة بن شيعة .
- (٣) حديث « يوشك الناس يتسألون حتى يقولوا قد خلق الله الخلق ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .
- (٤) حديث جابر : ما نزلت آية التلاعن إلا لكثرة السؤال . رواه البرزبانساند جيد .

قال الله تعالى ﴿ إِذَا جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَيَةَ حِمْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَاِنَّ اللَّهَ سَكِينَةٌ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى

المؤمنين ﴿ الآية . ثم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة وروى أبو هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله مرني بعمل وأقل ، قال . « لا تغضب » ثم أعاد عليه فقال « لا تغضب »<sup>(١)</sup> وقال ابن عمر : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قل لي قولاً وأقله لعل أعتقه فقال « لا تغضب » فأعلنت عليه مرتين كل ذلك يرجع إلى « لا تغضب » وعن عبد الله بن عمرو : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا ينقذني من غضب الله ؟ قال « لا تغضب » وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما تدعون الصرعة فيكم ؟ » قلنا : الذي لا صرعه الرجال ، قال « ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب » وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » وقال ابن عمر : قال النبي صلى الله عليه وسلم « من كف غضبه ستر الله صوته » وقال سليمان ابن داود عليهما السلام : يا بني إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستحق أن ينادى الرجل الحليم . وعن عكرمة في قوله تعالى ( وسيداً وحسبوا ) قال : السيد الذي لا يقبله الغضب . وقال أبو الدرداء : قلت يا رسول الله دلي على عمل يدخلني الجنة قال : « لا تغضب » وقال يحيى لميلى عليهما السلام : لا تغضب ، قال : لا أستطيع أن لا أغضب إنما أنا بشر ، قال : لا تقن مالا ، قال : هذا عسى . وقال صلى الله عليه وسلم « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العمل »<sup>(٢)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « ما غضب أحد إلا أشتى على جهنم »<sup>(٣)</sup> وقال له رجل : أي شيء أشد على قال « غضب الله » قال : فما يمدني من غضب الله ؟ قال « لا تغضب »<sup>(٤)</sup> .

الآثار : قال الحسن : يا ابن آدم كلما غضبت وثبت ويوشك أن تلب وثبة تقعق في النار . وعن شئ التمرين أنه لني ملكاً من الملائكة فقال : علني حلاً أزداد به إيماناً ويقيناً ، قال : لا تغضب فإن الشيطان أقوم ما يكون على ابن آدم حين يغضب ، فرد الغضب بالكظم ، وسكنه بالثبوت ، وإياك والصرعة فإنك إذا جعلت أخفاك حظك ، وكفى سلباً لنا القريب والبعيد ولا تكن جباراً عتيداً . وعن وهب بن منبه : أن راهباً كان في صومته فأراد الشيطان أن يصدقه فلم يستطع . فجاءه حتى ناداه فقال له : اقنع ، فلم يجبه فقال : اقنع لأنني إن خعبت ندمت ، فلم يلتفت إليه فقال : إني أنا المسيح ، قال الراهب : وإن كنت المسيح فما صنعت بك ؟ أليس قد أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ووعدتنا القيامة فلم نجتكم اليوم بنبره لم تقبله منك ؟ فقال الشيطان : قد أردت أن أضلك فلم أستطع ، فلتك لتسألني

#### كتاب الغضب والحقد والحسد

- (١) حديث أبي هريرة : أن رجلاً قال يا رسول الله مرني بعمل وأقل قال « لا تغضب » ثم أعاد عليه فقال « لا تغضب » ثم أعاد عليه فقال « لا تغضب » رواه البخاري . (٢) حديث ابن عمر : قلت لرسول الله ﷺ قل لي قولاً وأقله لعل أعتقه ... الحديث . أخرج نحوه أبو جلي بإسناد حسن . (٣) حديث عبد الله بن عمرو : سأل رجل رسول الله ﷺ ما يمدني من غضب الله ؟ قال « لا تغضب » أخرجه الطبراني في معجم الأئمة وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن ، وهو عند أحمد ؟ وأن عبد الله بن عمرو هو السائل . (٤) حديث ابن مسعود « ما تدعون الصرعة ... الحديث » رواه مسلم . (٥) حديث أبي هريرة « وليس الشديد بالصرعة ... الحديث » متفق عليه . (٦) حديث ابن عمر « من كف غضبه ستر الله صوته » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الغفوة ودم الغضب وفي الصمت ، وتقدم في آفات اللسان . (٧) حديث أبي الدرداء : دلي على عمل يدخلني الجنة ؟ قال « لا تغضب » أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والأوسط بإسناد حسن . (٨) حديث « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العمل » ، أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بسند ضعيف . (٩) حديث « ما غضب أحد إلا أشتى على جهنم » أخرجه الزوار وابن عدى من حديث ابن عباس « للنار باب لا يدخله إلا من شق غظه بمصية الله » وإسناده ضعيف وتقدم في آفات اللسان . (١٠) حديث : قال رجل أي شيء أشد على قال « غضب الله » قال : فما يمدني من غضب الله ؟ قال « لا تغضب » أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بالشرط الأخير منه وقد تقدم قبله بست أحاديث .

عما شئت فأخبرك ، فقال: ما أريد أن أسألك عن شيء ، قال فولى مدبراً ، فقال الراهب : ألا تسمع ، قال : بلى ، قال : أخبرني أى أخلاق بنى آدم عون لك عليهم ؟ فقال : الحدة ، إن الرجل إذا كان حديداً قلبناه كما يقطب الصياني الكرة .

وقال خيشمة : الشيطان يقول كيف يتلبى ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون في قلبه ؟ وإذا غضب طرحت حتى أكون في رأسه ؟ وقال جعفر بن محمد : الغضب مفتاح كل شر . وقال بعض الأنصار : رأس الحق الحدة وقائمه الغضب ، ومن رضى بالجهل استغنى عن الحلم ، والحلم زين ومنفعة ، والجهل شين ومضرة ، والسكوت عن جواب الآخر جوابه .

وقال مجاهد : قال إبليس ما أعجزني بنو آدم فلن يسجروني في ثلاث : إذا سكر أحدهم أخذنا بجزامته فقدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا ، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ، وبخيل بما في يديه وتحميه بما لا يقدر عليه . وقيل لحكيم : ما أملك فلاناً لنفسه ؟ قال : إذا لانت له الشهوة ولا يصبره الهوى ولا يغلبه الغضب . وقال بعضهم : إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار . وقيل : اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر المسل .

وقال عبد الله بن مسعود : انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه ، وأمانته عند طمعه ، وما عليك بحمله إذا لم يغضب ؟ وما عليك بأمانته إذا لم يطمع ؟ وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله : أن لا تعاقب عند غضبك وإذا غضبت على رجل فاصبره ، فإذا سكن غضبك فأخبره بما قبضه على قدر ذنبه ، ولا تتجاوز به خمسة عشر سوطة . وقال علي بن زيد : أغلظ رجل من فريش لعمر بن عبد العزيز القول فأطرق عمر زماناً طويلاً ثم قال : أردت أن يستغفرني الشيطان بعز السلطان فأنا لك اليوم ما تراه متى غداً ؟ وقال بعضهم لا يته : يابني لا يثبت العقل عند الغضب كما لا يثبت روح الحية في التناثر المسجورة ، فأقل الناس غضباً أعقلهم ، فإن كان الدنيا كن دماء ومكرراً ، وإن كان الآخرة كن حلاً وعلاً ، فقد قيل : الغضب عدو العقل والغضب غول العقل .

وكان عمر رضى الله عنه إذا خلب قال في خطبته : أظلم منكم من حفظ من الطمع والهوى والغضب . وقال بعضهم : من أطاع شهوته وغضبه قاداه إلى التار . وقال الحسن : من علامات المسلم قوة في دين وحزم في لين وإيمان في يقين وعلم في حلم وكيس في رفق وإحطاء في حق وقصد في غنى وتحمل في فاقة وإحسان في قدرة وتحمل في رفاقة وصبر في شدة ، لا يغلبه الغضب ولا تتجهم به الحية ولا تغلبه شهوة ولا تقضمه بعثته ولا يستغفه حرصه ولا تقصر به نيته ، فينصر المظلوم ويرحم الضعيف ولا يبخل ولا يندر ولا يسرف ولا يقتدر ، يفر إذا ظلم ويعفو عن الجاهل . نفسه منه في عناء والناس منه في رخاء .

وقيل لعبد الله بن المبارك أجل لنا حسن الخلق في كيلة . فقال اترك الغضب . وقال نبي من الأنبياء لمن تبعه : من يتكفل لي أن لا يغضب فيكون معي في درجتي ويكون بعدي خليفتي ؟ فقال شاب من القوم : أنا ، ثم أضاف عليه فقال الشاب : أنا أوفى به ، فلما مات كان في منزله بعده وهو ذو الكفل ، سمى به لأنه تكفل بالغضب ووفى به . وقال وهب بن منبه : للكفر أربعة أركان : الغضب ، والشهوة ، والحرق ، والطمع .

### بيان حقيقة الغضب

اعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرضاً للفساد والموتان ، بأسباب في داخل بدنه وأسباب خارجة عنه ، أنعم عليه بما يحصيه عن الفساد ويدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم سماه في كتابه .

أما السبب الداخلي : فهو أنه ركب من الحرارة والرطوبة ، وجعل بين الحرارة والرطوبة عداءة ومضادة ، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها حتى تصير أجزأها بخاراً يتصاعد منها ، فلم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما تحلل وتبخر من أجزائها لفسد الحيوان ، فخلق الله الغذاء الموافق لبنن الحيوان وخلق في

الحَيوان شَبوة تبعته على تناول الغذاء ؛ كَلوكل يَفِي جِبر ما انكسر وسد ما تَمَلَّ ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب

وأما الأسباب الخارجة التي يتعرض لها الإنسان : فكالسيف والسنان وسائر المهلكات التي يقصد بها ، فافتقر إلى قوتوحية ثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه تَخَفُّق الله طبيعة الغضب من النار وغرزمها في الإنسان وبجها بطيته . فيها صد عن غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده أشعلت نار الغضب وثارت ثوراناً يغلي بهدم القلب وينشر في العروق ويرتفع إلى أعالي البدن ؛ كما ترتفع النار وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر ، فذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والمين ، والبشرة لصفائها تحكي لون مارادها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجة لون ما فيها . وإنما ينسب الدم إذا غضب على مادونه واستشعر القدرة عليه ، فإن صدر الغضب على من فوقه وكان معه يأْس من الانتقام تولد منه اقتباس الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار حرّاً ، ولذلك يصفر اللون ، وإن كان الغضب على ظهير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر ويضطرب .

وبالجملة فتوة الغضب عليها القلب ومماها غليان دم القلب طلب الانتقام وإنما توجه هذه القوة عند ثورتها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها وإلى التفتي والانتقام بعد وقوعها والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ، ولا تسكن إلا به . ثم إن الناس في هذه القوة على درجات ثلاث في أول الفطرة من التفرط والإفراط والاعتدال . أما التفرط : فيفقد هذه القوة أو يضعفها وذلك منموم ، وهو الذي يقال فيه أنه لاهية له . ولذلك قال الشافعي رحمه الله : من استغصب فلم يغضب فهو حمار . فن قد قوة الغضب والحية أصلاً فهو ناقص جداً وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالشدّة والحية فقال ﴿ أشداء على الكفار رحما بينهم ﴾ وقال لئيبه صلى الله عليه وسلم ﴿ جلمد الكفار والمنافقين واغفل عنهم ﴾ الآية وإنما الخلطة والشدّة من آثار قوة الحية وهو الغضب .

وأما الإفراط : فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ، ولا يبقى للرب معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار ، بل يصير في صورة المضطر . وسبب غلبته أمور غريزية وأمور اعتيادية : قرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كان صورته في الفطرة صورة غضبان ، ويدين على ذلك سرارتمزاج القلب لأن الغضب من النار (١) كما قال صلى الله عليه وسلم : وإنما برودة المزاج طفتته وتكسر صورته . وأما الأسباب الاعتيادية : فهو أن يخاف قوماً يتيجون بتشتي الشيط أو طاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية ، فيقول الواحد منهم : أما الذي لا أصبر على المكر والمحال ولا أحتمل من أحداً أمراً ! ومعناه لا عقل في ولا حلم . يذكره في معرض التفرّج بجملة . فن سمعه وسخ في نفسه حسن الغضب وحب التشبه بالقوم فيقوى به الغضب ومما اشتدت نار الغضب وقرى اضطرابها أتمت صاحبها وأصم عن كل موعظة ، فإذا وعظ لم يسمع بل زاده ذلك غضباً ، وإذا استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر إذ يظن . نور العقل وينمى في الحال بدخان الغضب ، فإن معدن الفكر السماع ، ويتساعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى السماع يستولى على معادن الفكر ، وربما يمتد إلى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بينه ، وتسود عليه الدنيا بأسرها ، ويكون دماغه على مثال كيف اضطربت فيه نار ، فاسود جوه وحى مستقره وأما بالدخان جواربه ، وكان فيه سراج ضعيف فانمى أو اضلماً فلا تثبت فيه قدم ولا يسمع فيه كلام ولا يرى فيه صورة ، ولا يقدر على إطفائه لامن داخل ولا من خارج ، بل يبنى

(١) حديث « الغضب من النار » أخرجه الترمذى من حديث أبي سعيد بسند ضعيف « الغضب جرة في قلب ابن آدم » ولأبي داود من حديث عطية السدي « إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار » .

أن يصر إلى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق ، فكذلك يفعل الغضب بالقلب والماغ . وربما تقوى نار الغضب فتغنى الرطوبة التي بها حياة القلب ، فيموت صاحبه غيظا كما تقوى النار في الكهف فينشق وتهد أُماليه على أسفله ، وذلك لإحلال النار مافي جوانبه من القوة الممسكة الجامعة لأجوانه ، فكذلك حال القلب عند الغضب . والحقيقة فالفنية في ملطم الأمواج عند اضطراب الرياح في لجة البحر أحسن حالا وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيظا ؛ إذ في السفينة من يحال لتسكينها وتديرها وينظر لها ويسوسها ، وأما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته إذ أعماه الغضب وأصمه . ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق وتعمر الأحداق وتقلب المناخر وتسهيل الخلفة ، ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكر غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته ، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره فإن الظاهر عنوان الباطن ، وإنما قبحت صورة الباطن أولا ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانيا ، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن فقس الثمرة بالثمرة فهذا أثره في الجسد .

وأما أثره في اللسان فاختلاله بالتمتم والقشعش من الكلام الذي يستحي منه ذو العقل ويستحي منه قائله عند تور الغضب ، وذلك مع تحيط التلم واضطراب القسط .

أما أثره على الأعضاء فالضرب والتهميم والتزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة ، فإن هرب منه المنضوب عليه أو فاته بسبب وعجز عن التفتي رجع الغضب على صاحبه فمزق ثوب نفسه ولطم نفسه ، وقد يضرب يديه على الأرض ويمدو عند الواله السكران والمهوش المتعير ، وربما يسقط صريحا لا يطيق العدو والهوض بسبب شدة الغضب ويعتره مثل النخبة ، وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القفصة مثلا على الأرض وقد يكسر المائدة إذا قد عليها . ويتعاطى أفعال المجانين فيشتم البيهمة والجمادات ويخاطبها ويقول إلى متى منك هذا يا كيت وكيت ؟ كأنه يخاطب عاقلا ، حتى ربما رفست دابة فهرقس الذباب ويقابلها بذلك !

وأما أثره في القلب مع المنضوب عليه فالحدق والحسد وإخبار سوءه والشتماء بالمساءات والحوزن بالسرور والعزم على إفساد السر وهتك السر والاستهزاء وغير ذلك من المباحث ، فهذه ثمرة الغضب المفرط .

وأما ثمرة الغضب الضعيفة فتلة الألفة مما يؤف منه من التعرض للحرم والزوجة والأمة واحتمال الذل من الأخاء وضرب النفس والقائمة وهو أيضا مذموم ، إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرام وهو خنونه قال صلى الله عليه وسلم « إن سعدا لغيرور وأنا أغبر من سعد وإن الله أغبر مني <sup>(١)</sup> » وإنما خلقت النيرة لحفظ الأنساب . ولو توسع الناس بذلك لاخطلت الأنساب . ولذلك قيل كل أمة وضعت النيرة في رجالها وضمت الصيانة في نساءها . ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عن مشاهدة المنكرات وقد قال صلى الله عليه وسلم « خير أمتي أحداؤها <sup>(٢)</sup> » يعني في الدين وقال تعالى « ولا تأخذكم بما راة في دين الله » يل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه ؛ إذ لا تتم الرياضة إلا بتسلط الغضب على الشهوة ، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الحسية . فقدف الغضب مذموم وإنما المحمود غضب ينظر لإشارة العقل والدين ، فينبعث حيث يجب الحية وينطلق حيث يحسن الحلم ، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده وهو الوسط الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه

(١) حديث « إن سعدا لغيرور ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه من حديث النيرة بنحوه وتقدم في التسلك . (٢) حديث « خير أمتي أحداؤها » أخرجه الطبراني في الأوسط واليهي في الشعب من حديث علي بن بسند ضعيف وزاد « الذين إذا غضبوا رجسوا » .



وسلم حيث قال « خير الأمور أوسطها »<sup>(١)</sup> فن مال غضبه إلى القنوت حتى أحس من نفسه بضمف الشيرة وخصه النفس في أحبال الذل والعظيم في غير عله فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه . ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى التهور واقتحام القواض فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين ؛ فهو الصراط المستقيم وهو أرق من الشعرة وأحد من السيف ؛ فإن عجز عنه فليطلب القرب منه قال تعالى ( ولن تستطيعوا أن تملأوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالملقطة ) فليس كل من عجز عن الإتيان بالخبر كله ينبغي أن يأتى بالشركة ؛ ولكن بعض الشر أهون من بعض وبعض الخير أرفع من بعض . فهذه حقيقة الغضب ودجارتة نسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه إنه على ما يشاء قدير .

### بيان الغضب هل يمكن إزالته أصله بالرياضة : أم لا ؟

اعلم أنه ظن ظانون أنه يصور عو الغضب بالكلية ، وزعموا أن الرياضة إليه توجه وإياه تقصد ، وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج . وهذا رأى من يظن أن الحق كالخلق وكلهما لا يقبل التغيير ، وكلا الرأيين ضعيف ، بل الحق فيه ما يذكره وهو أنه ما بقى الإنسان يجب شيئاً ويكره شيئاً فلا يخلو من الغيظ والغضب ، وما دام يوافق شيئاً ويخالفه آخر فلا بد من أن يجب ما يوافق ويكره ما يخالفه ، والغضب يتبع ذلك فإنه مهما أخذ منه محبوه غضب لأعالة ، وإذا قصد بمكروه غضب لأعالة .

إلا أن ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، الأول : ما هو ضرورة في حق الكافة كالقوت والمساكن والملبس وصحة البدن ، فن قصد بدنه بالضرب والجرح فلا بد وأن يغضب وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذى يستر عورته وكذلك إذا أخرج من داره التى هى مسكنه أو أريق ماؤه الذى لعطشه ؛ فهذه ضرورات لا يخطئ الانسان من كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها .

القسم الثانى : ما ليس ضرورياً لأحد من الخلق كالجاء وللمال الكثير والتمنان والغراب ، فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الأمور ، حتى صار الذهب والفضة محبوبين في أنفسهما فيكثران ، ويغضب على من يسرقهما وإن كان مستغنياً عنهما في القوت ، فهذا الجنس عما يتصور أن يفك الإنسان عن أصل النسيظ عليه . فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمه ظالم فيجوز أن لا يغضب ، إذ يجوز أن يكون بصيراً بأمر الدنيا فيزهد في الزيادة على الحاجة فلا يغضب بأخذها ، فإنه لا يجب وجودها ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها وأكثر غضب الناس على ما هو غير ضرورى كالجاء والصيت والتصدر في المجالس والمباهاة في العلم ، فن غلب هذا الحب عليه فلا معالجة يغضب إذا زاحمه مزاحم على التصدر في المحافل ، ومن لا يجب ذلك فلا يبالى ولو جلس في صف التمال ، فلا يغضب إذا جلس غيره فوقه . وهذه العادات الرديئة التى أكثرت عذاب الإنسان ومكراهه فأكثر غضبه ، وكلما كانت الإرادات والشهوات أكثر كان صاحبها أحمق رتية وانقص ، لان الحاجة صفة نقص فهما كثرت كثرت النقص ، والجاهل أبداً يجهد في أن يزيد في حاجاته وفي شهواته ، وهو لا يدري أنه مستكثر من أسباب الغم والحزن ، حتى يتقى بعض الجهال بالعادات الرديئة ومخالطة قرناء السوء إلى أن يغضب لوقيل له : إنك لا تحسن اللعب بالطيور واللعب بالشطرنج ولا تقدر على شرب الخمر الكثير وتناول الطعام الكثير ، وما يجرى مجراه من الرذائل ، فالغضب على هذا الجنس ليس بصروى لأن حبه ليس بصروى .

(١) حديث « خير الأمور أوسطها » أخرجه البيهقي في الشعب مرسلًا وقد تقدم .

القسم الثالث : ما يكون ضروريا في حق بعض الناس دون البعض ، كالكتاب مثلا في حق العالم لأنه مضطر

إليه فيجب فيغضب على من يحرقه ويغرقه ، وكذلك أدوات الصناعات في حق المكتسب الذي لا يمكنه التوصل إلى القوة إلا بها ، فأما هو وسيلة إلى الضروري ، والمحجوب يصير ضروريا ومحبوبا ، وهذا يختلف بالأشخاص وإنما الحب الضروري ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها <sup>(١)</sup> » ومن كان بصيرا بحقائق الأمور وسلم له هذه الثلاثة يتصور أن لا يغضب في غيرها . فلهذه ثلاثة أقسام فلنذكر غاية الرياضة في كل واحد منها .

أما القسم الأول : فليست الرياضة فيه لينعم غيظ القلب ولكن لكي يقدر على أن لا يطيع الغضب ولا يستعمله في الظاهر إلا على حد يستجبه الشرح ويستحسنه العقل ، وذلك يمكن بالمجاهدة وتكليف الحلم والاحتياط مدة ، حتى يصير الحلم والاحتياط خلقا راسخا فأما قبح أصل الغيظ من القلب فذلك ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن نعم يمكن كسر سوره وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن ، وينتهي ضعفه إلى أن لا يظهر أثره في الوجه ، ولكن ذلك شديد جدا وهذا حكم القسم الثالث أيضا لأن ما صار ضروريا في حق شخص فلا ينعمه من الغيظ استثناء غيره عنه . فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه في الباطن حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه .

وأما القسم الثاني : فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه إذ يمكن إخراج حبه من القلب ، وذلك بأن يعلم الإنسان أن وطنه القبر ومستقره الآخرة وأن الدنيا ممر يعبر عليها ويتزود منها قدر الضرورة ، وما وراء ذلك عليه وبال في وطنه ومستقره فيزهد في الدنيا ويمحو حبا عن قلبه ، ولو كان للإنسان كلب لا يحبه لا يغضب إذا ضربه غيره ، فالغضب تبع الحب . فالرياضة في هذا تنتهي إلى قبح أصل الغضب وهو نادر جدا ، وقد انتهى إلى المنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه وهو أهون .

فإن قلت : الضروري من القسم الأول التألم بفوات المحتاج إليه دون الغضب ، فمن له شاة مثلا وهي قوته فأنبت لا يغضب على أحد وإن كان يحصل فيه كراهة ، وليس من ضرورة كل كراهة غضب ، فإن الإنسان يتألم بالقصد والحجامة ولا يغضب على القصاد والحجام فمن غلب عليه التوحيد حتى يرى الأشياء كلها بيد الله وقوته فلا يغضب على أحد من خلقه ، إذ يرام مسخرين في قبضة قدرته كالقلم في يد الكاتب ، ومن وقع ملك بضرب رقبته لم يغضب على القلم ، فلا يغضب على من يذبح شاته التي هي قوته كما لا يغضب على موتها ، إذ يرى الذبح والموت من الله عز وجل فيندفع الغضب بغلبة التوحيد . ويندفع أيضا بحسن الظن بالله ، وهو أن يرى أن الكل من الله وأن الله لا يقدر له إلا ما فيه الخير ، وربما تكون الخيرة في مرضه وجوعه وجرحه وقتله ، فلا يغضب كما لا يغضب على القصاد والحجام لأنه يرى أن الخيرة فيه ، فيقول هذا على هذا الوجه غير محال ، ولكن غلبة التوحيد إلى هذا الحد إنما تكون كالبرق الخاطف ، تنب في أحوال مختلفة ولا تقدم ، ويرجع القلب إلى الانكفات إلى الوسائط رجوعا طبيعيا لا يتدفع عنه ، ولو تصور ذلك على الدوام لبشر لتصور لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يغضب حتى تحمر وجنتاه <sup>(٢)</sup> حتى قال « اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيمأ مسلم سببه

(١) حديث « من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عبيد الله بن حصن دون قوله « بحذافيرها » قال الترمذي حسن غريب .

(٢) حديث : كان ﷺ يغضب حتى تحمر وجنتاه . أخرجه مسلم من حديث جابر : كان إذا خطب أحمرت عيناه وعلأ صوته واشتد غضبه . وللحاجم : كان إذا ذكر الساعة أحمرت وجنتاه واشتد غضبه . وقد تقدم في أخلاق النبوة .

أو لعنته أو ضربته فأجعلها منى صلاة عليه وذكة وقرية تقربه إليك يوم القيامة<sup>(١)</sup> » وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا فقال « اكتب فوالذي ينشئ الحق نبياً ما يخرج منه إلا حق » وأشار إلى لسانه<sup>(٢)</sup> فلم يقل إني لأغضب ، ولكن قال إن الغضب لا يخرجني عن الحق ، أي لأعمل بموجب الغضب . وغضبت عائشة رضي الله عنها مرة فقال لما رسول الله ﷺ « مالك جاءك شيطانك » فقالت : وما لك شيطان ؟ قال « بلى ولكنني دعوت الله فأعاقني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بالخير<sup>(٣)</sup> » ولم يقل : لا شيطان لي ، وأراد شيطان الغضب لكن قال : لا يعصيني على الشر . وقال علي رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ لا يغضب لندنيا فإذا أغضب الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى يقتصر له<sup>(٤)</sup> . فكان يغضب على الحق ، وإن كان غضبه لله فهو التفات إلى الوسائط على الجملة ، بل كل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته التي لا بد له في دينه منها فإنما غضب لله ، فلا يمكن الانتصاف عنه . نعم يفقد أصل الغضب فيها هو ضروري إذا كان القلب مشغولاً بضروري أم منه ، فلا يكون في القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره ، فإن استغرق القلب ببعض المهمات يمنع الإحساس بما عداه .

وهذا كما أن سليمان لما شتم قال : إن خفت موازيني ، فأنا شر مما تقول وإن ثقنت موازيني لم يضرنى ما تقول . فقد كان همه مصروفاً إلى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشتم . وكذلك شتم الربيع بن خثيم فقال : يا هذا قد سمع الله كلامك وإن دون الجنة عقبة إن قطعها لم يضرنى ما تقول ، وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول . وسب رجل أبا بكر رضي الله عنه فقال : ما ستر الله عنك أكثر ، فكأنه كان مشغولاً بالنظر في تقصير نفسه عن أن ينفي الله حق قنانه ويعرفه حق معرفته ، فلم ينضيه نسبة غيره إياه إلى قصان ، إذ كان ينظر إلى نفسه بين القصان ، وذلك لجلالة قدره ، وقالت امرأة لمالك بن دينار : يا امرأتى ، فقال : ما عرفني غيرك فكأنه كان مشغولاً بأن ينفي عن نفسه آفة الرياء ، ومتكراً على نفسه ما يلقبه الشيطان إليه فلم يغضب لما نسب إليه . وسب رجل الشعبي فقال : إن كنت صادقاً فغفر الله لي ، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك .

فهذه الأقاويل دالة في الظاهر على أنهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم ، ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر في قلوبهم ولكنهم لم يشتغلوا به واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم ، فإذا اشتغال القلب ببعض المهمات لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض الخبايا ؛ فإذا تصور فقد التفت إلى ما يشتغال القلب بهم ، أو بغيره نظر الوحيد ، أو بسبب ثالث ؛ وهو أن يعلم أن الله يجب منه أن لا يتنازع في شيء شدة حبه لله غيظه ، وذلك غير محال في أحوال نادرة . وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب نحو حب الدنيا عن القلب وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها — كما سيأتي في كتاب ذم الدنيا — ومن أخرج حب المزايا عن القلب تخاص من أكثر

(١) حديث « اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله « أغضب كما يغضب البشر » وقال « جلده » بدل « ضربته » وفي رواية « إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر » وأصله متفق عليه وتقدم وسلم من حديث أنس « إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر » ولأبي يعلى من حديث أبي سعيد أو ضربته .

(٢) حديث عبد الله بن عمرو : يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا ؟ قال « اكتب فوالذي ينشئ الحق ما يخرج منه إلا حق » وأشار إلى لسانه . أخرجه أبو داود بنحوه .

(٣) حديث : غضبت عائشة فقال النبي ﷺ « مالك جاءك شيطانك ؟ ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة

(٤) حديث علي : كان لا يغضب للندنيا ... الحديث أخرجه الترمذي في الشبائل وقد تقدم .

أسباب الغضب، وما لا يمكن حمله يمكن كرهه وتضعيفه فيضعف الغضب بسببه ويهون دفعه . نسأل الله حسن التوفيق بلفظه وكرمه إنه على كل شيء قدير والحمد لله وحده .

### بيان الأسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة جسم مادتها وإزالة أسبابها فلا بد من معرفة أسباب الغضب . وقد قال يحيى لميبي عليها السلام : أي شيء أشد ؟ قال : غضب الله ، قال فما يقرب من غضب الله ، قال : أن تغضب ، قال : فما يبدي الغضب وما ينبت ؟ قال عيسى : الكبر والفخر والعز والحقية .

والأسباب المهيجة للغضب هي : الزهو والعجب والمزاح والهلزل والهزل والتعجبير والمأوأة والمضادة والندبر وشدة الحرص على فضول المال والمجاهة ، وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعا ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأعدادها .

فينبغي أن تمت الزهو بالتواضع . وتميت العجب بمعرفتك بنفسك كما سيأتي بيانه في كتاب الكبر والعجب . وتزيل الفخر بأنك من جنس عبك إذ الناس جميعهم في الانتساب أب واحد ، وإنما اختلفوا في الفضل أشتا فافتر آدم جنس واحد وإنما الفخر بالفضائل ؛ والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهي أصلها ورأسها ، فإذا لم تغل عنها فلا فضل لك على غيرك ، فلم تفخر وأنت من جنس عبك من حيث البنية والنسب والأعضاء الظاهرة والباطنة ؛ وأما المزاح فتزيله بالتفاؤل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك . وأما الهزل فتزيله بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التي تبين لك إلى سعادة الآخرة . وأما الهزل فتزيله بالكرم من إهداء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك . وأما التعجب فالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن الجواب . وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالتقاعاة بقدر الضرورة طلباً لئلا الاستغناء وترفعاً عن ذل الحاجة .

وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر في علاجه إلى رياضة وتعمل مشقة ، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوايتها لرغب النفس عنها وتنفر عن قبحها ، ثم المواظبة على مباشرة أعددتها مدة مديدة حتى تصبح بالعادة مأروقة هيئة على النفس ، فإذا أتممت عن النفس فقد ذك وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضا عن الغضب الذي يتولد منها ، ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة ، وتلقبها بالانقلاب المحموده ضباوة وجبلا حتى تميل النفس إليه وتستحسنه . وقد يتأكد ذلك بمحاكاة شدة الغضب عن الأكابر في معرض اللعاب بالشجاعة ، والتفوس مائلة إلى التشبيه بالأكابر فيهب الغضب إلى القلب بسببه ، وتسمية هذا عزة وشجاعة جعل بل هو مرض قلب وتقصان عقل وهو لضعف النفس وتقصانها وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضبا من الصحيح ، والمرأة أسرع غضبا من الرجل ، والصبي أسرع غضبا من الرجل الكبير ، والشيوخ الضعيف أسرع غضبا من الكهل ، وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة أسرع غضبا من صاحب الفضائل . فالرذل ينضب لشهوته إذا فاته القمة ، ولبيخله إذا فاته الحبة ، حتى إنه ينضب على أهله وولده وأصحابه . بل القوى من يملك نفسه عند الغضب كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس العديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » (١) بل ينبغي أن يعالج هذا الجاهل بأن تلي عليه

حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء ، وعند ذلك منقول عن الأكراد والأثراك والجهلة والأغبياء الذين لا عقول لهم ولا فضل فيهم .

### بيان علاج الغضب بسد هيجانه

ما ذكرناه هو جسم لمواد الغضب وقطع لأسبابه حتى لا يبيح ، فإذا جرى سبب هيجانه فعنده يجب التثبت حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المنعوم ، وإنما يبالغ الغضب عند هيجانه بمحجون العلم والعمل .

أما العلم فهو ستة أمور ، الأول : أن يتفكر في الأخبار التي سنوردها في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتساب فيرغب في ثوابه ، فتمتعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التثني والانتقام ويطن في عنه غيظه ، قال مالك بن أوس بن الحدثان : غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت يا أهدر المؤمنين (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فأخذ عمر يقول (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فكان يتأمل في الآية وكان واقفاً عند كتاب الله مهما نلى عليه كثير التدبر فيه فتدبر فيه وغل الرجل ، وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى (والكاظمين الغيظ) فقال لعلامه خل عنه .

الثاني : أن يخوف نفسه بقباب الله وهو أن يقول : قدرة الله على أعظم من قدرتي على هذا الإنسان ، فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن أن يمض الله غضبه علي يوم القيامة وأنا أحوج ما أكون إلى العفو . فقد قال تعالى في بعض الكتب القديمة : يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحكك فيمن أعنى . وبموت رسول الله ﷺ وصيافاً إلى حاجة فأجلأ عليه فلما جاء قال : لولا القصاص لأوجنتك (١) «أى القصاص في القيامة . وقيل : ما كان في بني إسرائيل ملك إلا ومعه حكم إذا غضب أعطاه صحيفة فيها : ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة ، فكان يقرأها حتى يسكن غضبه .

الثالث : أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتضرر العدو لمقابله والسعي في هدم أغراضه والشجاعة بمصائبه وهو لا يحفل من المصائب فيخوف نفسه بمواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة ، وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه ، لأنه متردد على حظوظه الماجلة يقدم بعضها على بعض ، إلا أن يكون عنده أن تتشوش عليه في الدنيا فرأته العلم والعمل وما يعينه على الآخرة فيكون مثابا عليه .

الرابع : أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب ، ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ومشافة صاحبه للكلب العناري والسيح العادي ، ومشافة الحليم الهادي التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء ، ويخبر نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأرادل الناس وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء في عاداتهم فتيل نفسه إلى حب الاقتداء هؤلاء إن كان قد بقي معه مسكينة عقل .

الخامس : أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمتنع من كظم الغيظ ، ولا بد وأن يكون له سبب مثل قول الشيطان له : إن هذا يجعل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيراً في أعين الناس ! فيقول لنفسه : بما أعجبك ! تأقنين من الاحتمال الآن ولا تأقنين من غيى يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم

منه ؟ وتحذرين من أن تصبرى في عين الناس ولا تحذرين من أن تصبرى عند الله والملائكة والنبين ؟ فهما كظم الغيظ فينبى أن يكظمه الله ، وذلك يعظمه عند الله ، قاله والناس ؟ وذلك من ظله يوم القيامة أشد من ذلكم انكظم الآن ، ألا يجب أن يكون هو القائم إذا نودى يوم القيامة : ليقيم من أجره على الله ، فلا يقوم إلا من حفا ؟ فهذا وأمثاله من معارف الإيمان يبنى أن يكرره على قلبه .

السادس : أن يعلم أن غضبه من تسجيته من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده ، فكيف يقول مرادى أولى من مراد الله ؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه .

وأما العمل فإن تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . هكذا أمر رسول الله ﷺ أن يقال عند الغيظ (١) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضبت فائضة أخذ بأفها وقال « يا عويش قولى اللهم رب النبي محمد اغفر لى ذنبى وأذهب غيظ قلبى وأجرنى من مضلات الفتن (٢) » فيستحب أن تقول ذلك ، فإن لم يزل بذلك فاجلس إن كنت قائماً واضطجع إن كنت جالساً وأقرب من الأرض التى منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك ، وأطلب للجُلوس والاضطجاع السكون فإن سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الغضب جرة توقد فى القلب (٣) » ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحرمة عينيه ، فإذا وجد أحكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فليتم ، فإن لم يزل ذلك فليتنسأ بالماء البارد أو يمتثل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء . فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا غضب أحدكم فليتنسأ بالماء فإنما الغضب بمن النار (٤) » وفى رواية « إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتنسأ » وقال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ « إذا غضبت فاسكت (٥) » وقال أبو هريرة : كان رسول الله ﷺ إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه (٦) وقال أبو سعيد الخدري : قال النبي ﷺ « ألا إن الغضب جرة فى قلب ابن آدم (٧) » ألا ترون إلى حرمة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن وجد من ذلك شيئاً فليصق خده بالأرض « وكان هذا إشارة إلى السجود وتمكين أعر الأعضاء من أدل المواضع وهو التراب لتستقر به النفس الدل وترايل به العزة والزهو الذى هو سبب الغضب .

وروى أن عمر غضب يوماً فغدا بما فاستنشق وقال : إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب . وقال عروة

(١) حديث : الأمر بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغيظ . متفق عليه من حديث سليمان بن صرد قال : كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبان فأحدهما أحر وجهه وانتفخت أوداجه ... الحديث . وفيه « لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد » فقالوا له : إن النبي ﷺ قال « تعوذ بالله من الشيطان الرجيم ... الحديث »

(٢) حديث : كان إذا غضبت عائشة أخذ بأفها وقال « يا عويش قولى اللهم رب النبي محمد اغفر لى ذنبى وأذهب غيظ قلبى ... الحديث » أخرجه ابن السني فى اليوم واليلة من حديثه وتقدم فى الأذكار والدعوات (٣) حديث « إن الغضب جرة توقد فى القلب .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد دون قوله « توقد » وقد تقدم ورواه بهذا اللفظ البهتي فى الشعب (٤) حديث « إذا غضب أحدكم فليتنسأ بالماء البارد ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عطية السعدى دون قوله « بالماء البارد » وهو بلفظ الرواية الثانية التى ذكرها المصنف وقد تقدم

(٥) حديث ابن عباس : إذا غضبت فاسكت . أخرجه أحمد وابن أبى الدنيا والطبرانى واللفظ لها والبيهقى فى شعب الإيمان وفيه لىث بن أبى سلم (٦) حديث أبى هريرة : كان إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه . أخرجه ابن أبى الدنيا وفيه من لم يسم لأحمد بإسناد جيد فى أثناء حديث فيه وكان أبو ذر قائماً فجلس ثم اضطجع قيل له : لم جلست ثم اضطجعت ؟ قال : إن رسول الله ﷺ قال لنا « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » وللرفوع عند أبى داود وفيه عنده انقطاع مقطعة أبو الأسود

(٧) حديث أبى سعيد « ألا إن الغضب جرة فى قلب ابن آدم ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن .

ابن محمد : لما استعملت على اليمن قال لى أبى : أوليت ؟ قلت : نعم ، قال : فإذا غضبت فأنظر إلى السماء فوقك وإلى الأرض تحتك ثم عظم خالفهما . وروى أن أباً ذر قال لرجل : يا ابن الحراء - فى خصومة بينهما - بلغ رسول الله ﷺ فقال : « يا أباً ذر بلغنى أنك اليوم عيرت أمك بأمة » فقال نعم ، فأتلق أبو ذر ليرضى صاحبه فسبقه الرجل فلم عليه فذكر لرسول الله ﷺ فقال : « يا أباً ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من آخر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل » ثم قال « إذا غضبت فإن كنت قائماً فاقصد وإن كنت قاعدا فانتكز وإن كنت متكئاً فامنع » وقال المتعمر بن سليمان : كن رجلاً من كان قبلكم يغضب فيشتد غضبه فيكتب ثلاث صحائف وأعطى كل صحيفة رجلاً وقال الأول : إذا غضبت فأعطى هذه ، وقال الثانى : إذا سكن بعض غضبي فأعطى هذه ، وقال الثالث : إذا ذهب غضبي فأعطى هذه ، فاشتد غضبه يوماً فأعطى الصحيفة الأولى فإذا فيها ما أنت وهذا الغضب إنك لست بالله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً ، فسكن بعض غضبه ، فأعطى الثانية فإذا فيها : ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء ، فأعطى الثالثة فإذا فيها : خذ الناس بحق الله فله لا يصلهم إلا ذلك ، أى لا تعطل الحدود . وغضب المهدي على رجل فقال شيب : لا تغضب لله بأشد من غضبه لنفسه ، فقال : خلوا سييله .

### فضيلة كظم الغيظ

قال الله تعالى (والكاظمين الغيظ) وذكر ذلك فى معرض المدح . وقال رسول الله ﷺ « من كف غضبه كف الله عنه عذابه ومن اعتذر إلى ربه قبل أن يعلفه ومن خزن لسانه سر الله عوده » وقال ﷺ « أشدكم من غاب نفسه عند الغضب وأحكم من صفا عند القدرة » وقال ﷺ « من كظم غيظاً ولو شاء أن يعضيه لأمضاه ملائكة قلبه يوم القيامة رضا » وفى رواية « ملائكة قلبه أمناً وإيماناً » وقال ابن عمر : قال رسول الله ﷺ ما جرح عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى » وقال ابن عباس رضى الله عنهما :

(١) حديث أبى ذر : أنه قال لرجل : يا ابن الحراء فى خصومة بينهما بلغ ذلك النبي ﷺ ... الحديث . وفيه قال : يا أباً ذر ارفع رأسك فانظر ... الحديث . وفيه ثم قال « إذا غضبت » إلى آخره . أخرجه ابن أبى الدنيا فى الغفو وذم الغضب بإسناد صحيح وفى الصحيحين من حديثه قال : كان بيني وبين رجل من إخواني كلام وكانت أمه انجمية فبرته بأمة فشكاني إلى النبي ﷺ قال « يا أباً ذر إنك امرؤ فيك جاهلية » ولأحد أنه ﷺ قال له « أنظر فإنك لست بخير من آخر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى » ورجاله تقات .

### فضيلة كظم الغيظ

(٢) حديث « من كف غضبه كف الله عنه عذابه ... الحديث » أخرجه الطبراني فى الأوسط والبيهقى فى شعب الإيمان واللفظ له من حديث أنس بإسناد ضعيف ولابن أبى الدنيا من حديث ابن عمر « من ملك غضبه وقاه الله عذابه ... الحديث » وقد تقدم فى آفات اللسان (٣) حديث « أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحكم من صفا عند القدرة » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث طى بإسناد ضعيف والبيهقى فى الشعب بالشر الأول من رواية عبد الرحمن بن عجلان مرسل بإسناد جيد ، وللبزار والطبراني فى معارج الأخلاق واللفظ له من حديث « أشدكم أمسككم لنفسه عند الغضب » وفيه عمران القطان يختلف فيه . (٤) حديث « من كظم غيظاً ولو شاء أن يعضيه أمضاه ملائكة قلبه يوم القيامة رضى » وفى رواية « أمناً وإيماناً » أخرجه ابن أبى الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر وفيه سكن بن أبى سراج تكلم فيه ابن حبان وأبو داود بالرواية الثانية من حديث رجل من أبناء أصحاب النبي ﷺ عن أبيه ، ورواه ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة وفيه من لم يسم (٥) حديث ابن عمر « ما جرح رجل جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله » أخرجه ابن ماجه .

قال ﷺ « إن لجنهم بابا لا يدخله إلا من شق غيظه بمصيبة الله تعالى <sup>(١)</sup> » وقال ﷺ « ما من جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظلمها عبد وما كظلمها عبد إلا ملا الله قلبه إيمانا <sup>(٢)</sup> » وقال ﷺ « من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق ويغيظه من أى الجور شاء <sup>(٣)</sup> »

الآثار : قال عمر رضى الله عنه : من اتقى الله لم يشف غيظه ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما نرون . وقال لقمان لابنه : يا بني لا تنهب ماء وجهك بالمسأة ولا تشف غيظك بفضيحتك وأعرف قنوك تنفعك معيشتك . وقال أيوب : حلم ساعة يدفع شرا كثيرا . واجتمع سفيان الثوري وأبو خزيمة البرصوي والنضيل بن عياض فتذاكروا الزهد فأجمروا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الجرح . وقال رجل لعمر رضى الله عنه : والله ما تقضى بالعدل ولا تطع الجور ، فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه . فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ألا تسمع أن الله تعالى يقول (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ) فهذا من الجاهلين ، فقال عمر : صدقت ، فكأنما كانت ناراً فأطفئت . وقال محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله : إذا رضى لم بدخله رضاءه في الباطل وإذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق وإذا قدر لم يتناول ما ليس له . وجه رجل إلى سليمان فقال : يا عبد الله أوصنى ، قال : لا تغضب ، قال : لا أقدر ، قال : فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك .

### بيان فضيلة الحلم

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ؛ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحمل أى تكلف الحلم ، ولا يحتاج كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ، ولكن إذا تمود ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يبيح الغيظ ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب ، وهو الحلم الطبيعي ، وهو دالة كال العقل واستيلاته وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداء التحمل وكظم الغيظ تكلفا . قال ﷺ « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتخير الخير يحله ومن يتوق الشر يره <sup>(٤)</sup> » وأشار بهذا إلى أن اكتساب الحلم طريقته التحمل أولا وتكلفه ، كما أن اكتساب العلم طريقته التحمل . وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ « اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ، لينوا لمن تعلمون ولن تعملون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فينلب جهلكم حبكم <sup>(٥)</sup> » وأشار بهذا إلى أن التكبر والتجبر هو الذى يبيح الغضب ويمنع من الحلم واللين . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم اللهم اغنى بالعلم وزينى بالحلم وأكرمنى بالقوى وجلنى بالمعافاة <sup>(٦)</sup> » وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال النبي ﷺ « اتبعوا

(١) حديث ابن عباس « إن لجنهم بابا لا يدخل منه إلا من شق غيظه بمصيبة الله » تقدم في آفات اللسان  
(٢) حديث « ما من جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظلمها عبد وما كظلمها عبد إلا ملا الله قلبه إيمانا » أخرجه ابن الدنيا من حديث ابن عباس وفيه ضعف ويتلف من حديث ابن عمر وحديث الصحابي الذى لم يسم وقد تقدم (٣) حديث « من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يغيظه من أى الجور شاء » تقدم في آفات اللسان .

### فضيلة الحلم

(٤) حديث « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ... الحديث » أخرجه الطبراني والدارقطني في اللعل من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف (٥) حديث أبي هريرة « اطلبوا مع العلم السكينة والحلم ... الحديث » أخرجه ابن السني في رياضة التحلين بسند ضعيف (٦) حديث : كان من دعائه « اللهم اغنى بالعلم وزينى بالحلم وأكرمنى بالقوى وجلنى بالمعافاة » لم أجد له أصلا .



الرفعة عند الله . قالوا : وماهى يا رسول الله ؟ قال « تصل من قطعك وتعلمى من حرمك وتحمل عن جهل عليك »<sup>(١)</sup> وقال عليه السلام « خمس من سنن المرسلين : الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر »<sup>(٢)</sup> وقال على كرم الله وجهه : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم وإنه ليكتب جبارا عتيذا ولا يملك إلا أهل بيته »<sup>(٣)</sup> وقال أبو هريرة : إن رجلا قال يا رسول الله إن لى قرابة أصلهم وقطعون وأحسن إليهم ويسبئون إلى ويجهلون على وأحل غنمهم ، قال « إن كان كما تقول فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير أمداً على ذلك »<sup>(٤)</sup> المل : يعنى به الزمل . وقال رجل من المسلمين : اللهم ليس عندى صدقة أتصدق بها فأيا رجل أصاب من عرضي شيئاً فهو عليه صدقة فأوحى الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم إني قد غفرت له<sup>(٥)</sup> وقال عليه السلام « أيسر أحذركم أن يكون كأبي ضمضم » قالوا : وما أبو ضمضم ؟ قال « رجل عن كان من قبلكم كان إذا أصبح يقول : اللهم إني تصدقت اليوم بمرضى على من ظلمنى »<sup>(٦)</sup>

وقيل فى قوله تعالى ( ربانين ) أى حباء علماء . وعن الحسن فى قوله تعالى ( وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ) قال حباء إن جهل عليهم لم يجهلوا . وقال عطاء بن أبى رباح ( يمشون على الأرض هونا ) أى حباء . وقال ابن أبى حبيب فى قوله عز وجل ( وكلا ) قال : الكهل منتهى الحلم . وقال مجاهد ( وإذا مروا بالنومروا كراماً ) أى إذا أوثقوا صفحو .

وروى أن ابن مسعود مر بلفو معرضاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً »<sup>(٧)</sup> ثم تلا إبراهيم بن بكرة وهو الراوى قوله تعالى ( وإذا مروا بالنومروا كراماً ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم لا يدركنى ولا أدرك زمان لا يتبعون فيه العلم ولا يستحيون فيه من الخلق ، قلبهم قلوب العجم وأنتمم ألسنة العرب »<sup>(٨)</sup> وقال عليه السلام « ليلينى منكم ذؤاد الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ولا تختلفوا تختلف قلوبكم ، وإياكم ومعيشتكم الأسواق »<sup>(٩)</sup> وروى أنه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم الأشج فأنشج راحته ثم عقلها وطرح عنه ثوبين

(١) حديث « اتبوا الرفعة عند الله » قالوا : وماهى ؟ قال « تصل من قطعك ... الحديث » أخرجه الحاكم البيهقي وقد تقدم .  
(٢) حديث « خمس من سنن المرسلين : الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر » أخرجه أبو بكر بن أبى عاصم فى اللثانى والآحاد والترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من رواية ملىح بن عبد الله الخطمى عن أبيه عن جده ، وللازمذى وحسنه من حديث أبى أيوب « أربع » فأسقط « الحلم والحجامة » وزاد « النكاح » (٣) حديث على « إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف (٤) حديث أبى هريرة : أن رجلاً قال يا رسول الله إن لى قرابة أصلهم وقطعون وأحسن إليهم ويسبئون إلى ويجهلون على وأحل غنمهم ... الحديث . رواه مسلم (٥) حديث قال رجل من من المسلمين اللهم ليس عندى صدقة أتصدق بها فأيا رجل أصاب من عرضي شيئاً فهو صدقة عليه ... الحديث . أخرجه أبو نعيم فى الصحابة والبيهقى فى الشعب من رواية عبد الحميد بن أبى عيسى ابن جبر عن أبيه عن جده بإسنادين ، زاد البيهقى عن علي بن زيد وعليه هو الذى قال ذلك كما فى أثناء الحديث وذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب أنه رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبى صالح عن أبى هريرة : أن رجلاً من المسلمين ولم يسمه وقال أنه أبى ضمضم قلت وليس بأبى ضمضم إنما هو علي بن زيد وأبو ضمضم ليس له بهتوا إنما هو مقدم (٦) حديث « أيسر أحذركم أن يكون كأبى ضمضم ... الحديث » تقدم فى آفات اللسان .

(٧) حديث أن ابن مسعود مر بلفو معرضاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً » أخرجه ابن البارك فى البر والصلوة (٨) حديث « اللهم لا يدركنى ولا أدرك زمان لا يتبعون فيه العلم ولا يستحيون فيه الخلق ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف (٩) حديث « ليلينى منكم ذؤاد الأحلام والنهى ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود دون قوله « ولا تختلفوا تختلف قلوبكم » فهى عند أبى داود والترمذى وحسنه وهى عند مسلم فى حديث آخر لابن مسعود .

كانا عليه وأخرج من الأنبياء نوريين حسنين فليسيما ، وذلك بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى ما يصنع ، ثم أقبل  
يمشي إلى رسول الله ﷺ فقال عليه السلام «إن فيك يا أشجع خلقين يحبهما الله ورسوله» قال : ما هما بأذانت وأمر  
يا رسول الله؟ قال الحلم والأناة . فقال خلتان تحققتما أو خلتان جبلت عليهما فقال «بل خلتان جبلت الله عليهما» فقال:  
الحمد لله الذي جعلني على خلقين يحبهما الله ورسوله (١) وقال ﷺ «إن الله يحب الحلم الحلي الغني المتعفف» يا العمال التي  
ويبتعض الفاحش البذيء السائل المحفف النبي (٢) وقال ابن عباس : قال النبي ﷺ «ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن  
فلا تمتدوا بشيء من عمله: تقوى تحجزه عن معاصي الله عز وجل ، وحلم يكف بالسفيه ، وخلق يعيش بهي الناس (٣)»  
وقال رسول الله ﷺ «إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد : أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس وهم يسير  
فيضطربون سراعا إلى الجنة فيلقاهم الملائكة فيقولون لهم إنا نراكم سراعا إلى الجنة فيقولون نعم أهل الفضل ،  
فيقولون لهم ما كنتم تفعلون ؟ فيقولون كنا إذا ظلمنا صبرنا وإذا أمرنا إلينا عفونا وإذا جهل علينا حلمنا ، فيقال  
لهم ادخلوا الجنة فتمم أجر العاملين (٤)» .

الآثار : قال عمر رضي الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا العلم السكينة والحلم . وقال علي رضي الله عنه : ليس الخير  
أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ويسلم حلمك ، وأن لا تبايها الناس بمباداة الله ، وإذا أحسنت  
حمدت الله تعالى ، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى . وقال الحسن : اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم . وقال أكثم بن  
صبيح : دامة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر . وقال أبو الدرداء : أدركت الناس ورقا لاشوك فيه فأصبحوا شوكا  
لاورق فيه ، إن عرفتكم فتدركون وإن تركتكم لم يتركوك ، قالوا : كيف نصنع؟ قال : تقررهم من عركك ليوم فتركك .  
وقال علي رضي الله عنه : إن أول ما عوض الحليم من حله أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل . وقال معاوية رحمه الله  
تعالى : لا يبلغ العبد مبلغ الرأى حتى يملأ حلمه حمله وصبره شهوته ، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم . وقال معاوية  
لمعرو بن الأهم : أي الرجال أحصح ؟ قال : من ردهجه بحمله . قال : أي الرجال أسنى ؟ قال : من بذل دنياه  
لصلاح دينه . وقال أنس بن مالك في قوله تعالى ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ إلى قوله ﴿ عظيم ﴾  
هو الرجل يشتمه أخوه فيقول : إن كنت كاذبا فنفرت الله لك وإن كنت صادقا فنفرت الله لي . وقال بعضهم : شتمت  
فلانا من أهل البصرة فلم على فاستبدني بها زمانا . وقال معاوية لعرابة بن أوس : بم سدت قومك يا عرابة ؟ قال :  
يا أمير المؤمنين كنت أحلم من جماعهم واعطى سائلهم وأسقى حوائجهم . فمن فعل فعل فهو مثلي ومن جاوزني فهو  
أفضل مني ومن قصر عنى فأنا خير منه . وسب رجل ابن عباس رضي الله عنهما فلما فرغ قال : يا عكرمة هل للرجل  
حاجة فتفحصها ؟ فنكس الرجل رأسه واستسقى ، وقال رجل لمعرو بن عبد العزيز : أشهد أنك من الفاسقين ، فقال:  
ليس تقبل شهادتك . وعن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم أنه سبه رجل فرمى إليه بنخيسة كانت عليه وأمر  
له بألف درهم ، فقال بعضهم : جمع له خمس خصال محمودة : الحلم وإسقاط الأذى وتخليص الرجل عما يبعد من الله  
عز وجل وحمله على الندم والتوبة ورجوعه إلى مدح بعد الذم اشترى جميع ذلك من الدنيا يسير . وقال رجل لمعرو بن عبد

- (١) حديث «يا أشجع إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة ... الحديث» متفق عليه (٢) حديث : إن الله يحب العلم الغني المتعفف ... الحديث» أخرجه الطبراني من حديث سعد «إن الله يحب البعد التي التي الحفي  
(٢) حديث ابن عباس «ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تمتدوا بشيء من عمله» أخرجه أبو نعيم في كتاب  
الإيجاز بإسناد ضعيف والطبراني من حديث أم سلمة بإسناد لين وقد تقدم في آداب الصلوة (٤) حديث «إذا جمع  
الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس ... الحديث» وفيه «إذا جهل علينا حلمنا» أخرجه البيهقي في  
شعب الإيمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال البيهقي في إسناده ضعف .

إنه قد وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر واني أريد أن أتركه فأخشي أن يقال لي : إن تركته له ذل ، فقال جعفر : إنما الدليل الظالم . وقال الخليل بن أحمد : كان يقال من أساء فأحسن إليه فقد جعل له ساجد من قلبه يردعه عن مثل إساءته . وقال الأحقف بن قيس : لست بحليم ولكني أتعلم . وقال وهب ابن منبه : من يرحم يرحم ومن يهشم يهشم . ومن يجهل يغلب ، ومن يجهل يخطئ . ومن يحرص على الشر لا يسلم ، ومن لا يدع المراء يهشم ، ومن لا يكره الشر لا يأثم ، ومن يكره الشر يصمم ومن يتبع وصية الله يحفظ ، ومن يحذر الله يأمن ، ومن يقول الله يمنع ، ومن لا يسأل الله يفقر ، ومن يأمن مكر الله يخذل ، ومن يستمن بالله يظفر . وقال رجل لما لك بن دينار : بلغني أنك ذكرتني بسوء ، قال : أنت إذن أكرم جلي من نفسي إني إذا فعلت ذلك أهديت لك حسنا . وقال بعض العلماء الحلم أرفع من العقل لأن الله تعالى تسمى به . وقال بعض العلماء الحكماء : والله لأحببتك سبا يدخل مملك في قبرك ، فقال : مملك يدخل لامي . ومر المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام يقوم من اليهود فقالوا له شرا فقال لم خيرا فقيل له : إنهم يقولون شرا وأنت تقول خيرا ؟ فقال : كل ينفق ما عنده . وقال لقمان ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة : لا يعرف الحلم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه . ودخل على بعض الحكماء صديق له فقدم إليه طعاما فخرجت امرأة الحكيم - وكانت سيئة الخلق - فرفعت المائدة وأقبلت على شتم الحكيم ، فخرج الصديق غضابا تبعه الحكيم وقال له تذكر يوم كنا في منزلك نظم فسطحت دجاجة على المائدة فأفسدت ماعليها فلم ينضب أحد منا ؟ قال : نعم ، قال فاحسب أن هذه مثل تلك السجاسة ؟ فصرى عن الرجل غضبه وانصرف وقال صديق الحكيم ، الحلم شفاء من كل ألم . وضرب رجل حكيما فأوجعه فلم ينضب فقيل له في ذلك فقال : أفه مقام حجر تعثرت به فذهب الغضب . وقال محمود الوراق :

سألوم نفسي الصفع من كل مذنب وإن كثرت منه على الجرائم  
وما الناس إلا واحد من ثلاثة شريف ومشروف ومثل مقاوم  
فأما الذي فوق فأعرف قدره وأتبع فيه الحق والحق لازم  
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن إجابته عرضي وإن لام لا أثم  
وأما الذي مثلي فإن ذل أو هذا تفصلت إن الفضل بالحلم حاكم

### بيان التقدير الذي يحوز الانتصار والتشفي به من الكلام

أعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابله بمثله ، فلا يجوز مقابلة النية بالنية ولا مقابلة التجسس بالتجسس ولا السب بالسب وكذلك سائر المعاصي . وإنما القصاص والتراتع على ما قدر ماورد الشرع به وقد فصلناه في الفقه وأما السب فلا يقال بمثله إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تسيره بما فيه » (١) وقال « المستبان ما قالوا فهو على الباطن مالم يثبت المظالم » وقال « المستبان شيطانان يتهاتران » (٢) وشم رجل أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينصر منه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : إنك كنت ساكتا لما شتني فلما تكلمت قتت قال « لأن الملك كان يجيب عنك فلما تكلمت ذهب الملك وجه الشيطان فلم أكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان » (٣) وقال قوم : تجوز المقابلة بما لا كذب فيه وإنما نهى رسول الله ﷺ

(١) حديث « إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تسيره بما فيه » أخرجه أحمد من حديث جابر بن مسلم وقد تقدم  
(٢) حديث « المستبان شيطانان يتهاتران » تقدم (٣) حديث : شتم رجل أبا بكر رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينصر منه قام رسول الله ﷺ . الحديث . أخرجه أبو داود ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال سئل عن رجل سب رجلا فقال رسول الله ﷺ : لا تجوز المقابلة بما لا كذب فيه وإنما نهى رسول الله ﷺ

عن مقابلة الصديق بمثلته نهى فيه ، والأفضل تركه ولكنه لا يصعب به . والذى يرخس فيه أن يقول : من أنت ؟ وهل أنت إلا من بنى فلان ؟ كما قال سعد لابن مسعود : وهل أنت إلا من بنى هذيل ؟ وقال ابن مسعود : وهل أنت إلا من بنى أمية ؟ ومثل قوله : يا أحمق ، قال مطرف : كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الناس أقل حماقة من بعض ، وقال ابن عمر في حديث طويل : حتى ترى الناس كلهم حتى في ذات الله تعالى (١) . وكذلك قوله يا جاهل ، إذ ما من أحد إلا وفيه جهل ، فقد آذاه بما ليس بكذب ، وكذلك قوله : يا سيهى الخلق ، يا صفيق الوجه يا ثلأيا للأعراس ، وكان ذلك فيه . وكذلك قوله : لو كان فيك حياة لما تكلمت ، وما أحقرك في عيني بما فعلت ، وأخراك الله وأتخمت منك .

فأما التنمية والقبية والكذب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق ، لما روى أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام ، فذكر رجل خالداً عند سعد ، فقال سعد : مه إن مايتنا لم يبلغ ديننا . يعنى أن يأثم بعضنا في بعض ، فلم يسمع السوء فكيف يجوز له أن يقوله ؟ .

والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام كالنفسه إلى الزنا والفحش والسب : ما روت عائشة رضی الله عنها أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن إليه فاطمة ، فجاءت فقالت : يا رسول الله أرسلني إليك لأزواجك يسألك العدل في ابنة أبي حمزة ، والتي صلى الله عليه وسلم نائم . فقال : يا بنية أتجيبن ما أحب ؟ قالت : نعم ، قال : فأحي هذه . فرجعت إليهن فأخبرتهن بذلك فقلن : ما أغثت عنا شيئاً . فأرسلن زينب بنت جحش ، قالت : وهي التي كانت تساميني في الحب فجاءت فقالت : بنت أبي بكر وبنت أبي بكر ، فإني تذكركني وأنا ساكتة أظن أن يأذن لي رسول الله ﷺ في الجواب فأذن لي ، فسويتها حتى جف لساني فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كلا إنها ابنة أبي بكر » (٢) . يعنى أنك لا تقاوميني في الكلام قط وقولها : سببتا ، ليس المراد به الفحش بل هو الجواب عن كلامها بالحق ومقابلتها بالصدق . وقال النبي ﷺ « المستبان ما قاله قبل البادى منها حتى يعتدى المظلوم » (٣) . فأثبت للظلم انتصاراً إلى أن يعتدى . فهذا التقوى هو الذى أباحه مؤلا . وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق . ولا تبعد الرخصة في هذا التقوى ولكن الأفضل تركه فإنه يحرم إلى ما وراءه ولا يمكنه الانتصار على قدر الحق فيه ، والسكوت عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على الشرع فيه ، ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في قوة الغضب ولكن يعود سريعاً ، ومنهم من يكف نفسه في الابتداء ولكن يحقد على النوام . والناس في الغضب أربعة : فبعضهم كالخلفاء سريع الوقود سريع الخود ، وبعضهم كالنساء بطيء الوقود بطيء الخود ، وهذا هو بطيء الوقود سريع الخود وهو الأحمد ما لم ينته إلى فتور الخيفة الغيرة ، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخود وهذا هو شرم . وفي الخبر « المؤمن سريع الغضب سريع الرضى فيه » (٤) . وقال الشافعي رحمه الله : من استغضب فلم يضبط فهو حار ومن استرضى فلم يرضى فهو شيطان . وقال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شق فمنهم بطيء الغضب سريع الرضى ، ومنهم سريع الغضب سريع الرضى ، فذلك بتك ، ومنهم سريع الغضب بطيء الرضى ، ألا وإن خيرهم البطيء الغضب السريع الرضى . وشرهم السريع الغضب البطيء الرضى » (٥) . ولما كان الغضب هيج ويؤثر في كل إنسان وجب على السلطان أن لا يماقب

(١) حديث ابن عمر في حديث طويل « حتى ترى الناس كأنهم حتى في ذات الله عز وجل » تقدم في العلم

(٢) حديث عائشة : إن أزواج النبي ﷺ أرسلن فاطمة فقالت : يا رسول الله أرسلني لأزواجك يسألك العدل

في ابنة أبي حمزة ... الحديث . رواه مسلم (٣) حديث « المستبان ما قاله قبل البادى ... الحديث » رواه مسلم

وقد تقدم (٤) حديث « المؤمن سريع الغضب سريع الرضى » تقدم (٥) حديث أبي سعيد الخدري « ألا إن

بني آدم خلقوا على طبقات ... الحديث » تقدم

أحدا في حال غضبه ، لأنه ربما يتبدى الواجب ، ولأنه ربما يكون متفهما عليه فيكون متشفيا لغيظه وربما نفسه من ألم الغيظ ، فيكون صاحب حظ ، فيلجئ أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه . ورأى عمر رضي الله عنه سكران فأراد أن يأخذه ويمزقه فشمته السكران فرجع عمر ، فقيل له : يا أمة المؤمنين لما شتمك تركته ؟ قال : لأنه أغضبني ولو عودته لكان ذلك لغضي نفسي ، ولم أحب أن أضرب مسلما حمية لنفسى . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لرجل أغضبه : لو أنك أغضبتني لما قبلك .

### القول في معنى الحقد وتأثيره وفضيلة العفو والرفق

أعلم أن الغضب إذا لم كظمه لسر من التشفى الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقا ، ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استغفاله والبخسة له والتفارع عنه وأن يدوم ذلك ويبقى ، الله قد قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن ليس بمحقد » (١) ، فالحقد ثمرة الغضب .

والحقد يشر ثمانية أمور ( الأول ) الحسد : وهو أن يملك الحقد على أن تمتد زوال النعمة عنه فتعم بئمة إن أصابها وتر بصحية إن زلت به ، وهذا من فعل المنافقين . وسيأتي ذمه إن شاء الله تعالى . ( الثاني ) أن يزيد على إضرار الحسد في الباطن ، فتشتم بما أصابه من البلاء . ( الثالث ) أن تهجره وتصارمه وتقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك . ( الرابع ) وهو دونه أن تعرض عنه استصغارا له . ( الخامس ) أن تتكلم فيه بما لا يعمل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره . ( السادس ) أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه . ( السابع ) إيقاظه بالضرب وما يؤلم بدنه . ( الثامن ) أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلة . وكل ذلك حرام .

وأقل درجات الحقد أن تحتز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تحصى الله به ، ولكن تستقله في الباطن ولا تنهى قلبك عن بغضه ، حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على المنفعة له ، أو بترك المعاد له والثناء عليه أو التبرؤ على بره ومواساته . فهذا كله مما ينقص درجاتك في الدين ويحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جليل وإن كان لا يمرضك لمقاب الله .

ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينطق على مسطح - وكان قريه - لكونه تكلم في واقعة الإفك نزل قوله تعالى ( ولا يأتل أولوا الفضل منكم ) ( لا لقوله ) ( ألا تجزون أن ينفر الله لكم ) فقال أبو بكر : نعم نحب ذلك وصاد إلى الإتيان عليه (٣) .

والأولى أن يبقى على ما كان عليه ، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان بمجاهدة النفس وإرغام الشيطان فذلك مقام الصديقين وهو من فضائل أعمال المترين . فللمحقد ثلاثة أحوال عند القدرة . ( أحدها ) أن يتوفى حقه الذي يستحقه من غير زيادة أو نقصان وهو العدل . ( الثاني ) أن يحسن إليه بالعفو والصلة وذلك هو الفضل . ( الثالث ) أن يظلمه بما لا يستحقه وذلك هو الجور ، وهو اختيار الأراذل ، والثاني : هو اختيار الصديقين ، والأول : هو منتهى درجات الصالحين . ولذا ذكر الآن فضائل العفو والإحسان :

### فضيلة العفو

(١) حديث « المؤمن ليس بمحقد » تقدم في العلم . (٢) حديث : لما حلف أبو بكر أن بكر أن لا ينطق على مسطح نزل قوله تعالى ( ولا يأتل أولوا الفضل منكم ) الآية متفق عليه من حديث عائشة .

## فضيلة العفو والإحسان

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقا فيسقطه ويرى عنه من قصاص أو عرامة ، وهو غير الحلم وكظم الغيظ ؛  
فذلك أفردناه . قال الله تعالى ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین﴾ وقال الله تعالى ﴿وإن تغفروا  
أقرب للتعوی﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث والذى نفسى بيده لو كنت حالفا لحلفت عليهن :  
ما نقص مال من صدقة تصدقوا ، ولا عفا رجل من مظلة يتننى بها وجه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة ،  
ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم التواضع لا يزيد العبد  
إلا رفعة فواضعوا برؤسكم الله ، والعفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا بؤسكم الله ، والصدقة لا يزيد المال إلا كثرة  
تصدقوا برؤسكم الله <sup>(٢)</sup> » وقالت عائشة رضى الله عنها : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم متصصراً من مظلة  
ظلمها قط ما لم ينتك من عارم الله ، فإذا انتهك من عارم الله شيء كان أشد من ذلك غضباً ، وما خير بين أمرين إلا  
اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً <sup>(٣)</sup> . وقال عتبة : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فابدرته فأخذت بيده  
أو بدرت فأخذ بيدي فقال « يا عتبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة : فصل من قطعك وتعطى من  
حرمك وتمغى عن ظلك <sup>(٤)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « قال موسى عليه السلام يارب أى عبادك أعز عليك ؟  
قال الذى إذا قدر عفا <sup>(٥)</sup> » وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعز الناس قال الذى يعفو إذا قدر فاعفوا بؤسكم الله .  
وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو مظلة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس وأراد أن يأخذ له  
بمظلته ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن المظلومين هم المفلحون يوم القيامة <sup>(٦)</sup> » فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث . وقالت  
عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » وعن أنس قال : قال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم « إذا بعث الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات : يا معشر الموحدين إن الله قد  
عفا عنكم فليعب بؤسكم عن بعض <sup>(٧)</sup> » وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى  
ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بضادى الباب فقال « ما تقولون وما تظنون ؟ » فقالوا : نقول أخ وابن عم حمير رجم  
- قالوا ذلك ثلاثاً - فقال صلى الله عليه وسلم « أقول كما قال يوسف ﴿ لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم  
الرحمين ﴾ »

(١) حديث « ثلاث والذى نفسى بيده إن كنت حالفا لحلفت عليهن : ما نقصت صدقة من مال ... الحديث »  
أخرجه الترمذى من حديث أبي كبشة الأنمارى وسلم وأبى داود نحوه من حديث أبي هريرة (٢) حديث « التواضع  
لا يزيد العبد إلا رفعة فواضعوا برؤسكم الله » أخرجه الأصفهاني فى الترهيب وأبو منصور الديلى فى مسند الفردوس  
من حديث أنس بسند ضعيف . (٣) حديث عائشة : ما رأيت رسول الله ﷺ متصصراً من مظلة ظلمها قط ...  
الحديث » أخرجه الترمذى فى الثبائى وهو عند مسلم بلفظ آخر وقد تقدم . (٤) حديث عتبة بن عامر « يا عتبة  
ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة فصل من قطعك ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى مكارم  
الأخلاق والبيهقى فى الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم . (٥) حديث : قال موسى يارب أى عبادك أعز عليك ؟ قال  
الذى إذا قدر عفا . أخرجه الحارثى فى مكارم من حديث أبي هريرة وفيه ابن لهيعة . (٦) حديث « إن للظلمين  
هم للمفلحون يوم القيامة » وفى أوله قصة ابن أبى الدنيا فى كتاب العفو من رواية أبى صالح الحنفى مرسل (٧) حديث  
أنس : إذا بعث الله عز وجل الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات : يا معشر الموحدين إن الله  
قد عفا عنكم فليعب بؤسكم عن بعض . أخرجه أبو سعيد أحمد بن إبراهيم القررى فى كتاب التبصرة والتذكرة بلفظ  
« ينادى مناد من بطنان العرش يوم القيامة : يا أمة محمد إن الله تعالى يقول ما كان لى قبلكم قد وهبته لكم وبيعت  
التيارات فواهبوها وادخلوا الجنة برحمتى » وإسناده ضعيف ورواه الطبرانى فى الأوسط بلفظ « نادى مناد يا أهل  
الجنة تاركوا للظالم بينكم وثوابكم على » وله من حديث أم هانئ « ينادى مناد : يا أهل التوحيد ليعف بؤسكم عن  
بعض وعلى الثواب » .

الراحمين) (١) قال غفر جوا كما نمتوا من القبور فدخلوا في الإسلام . وعن سبيل بن عمرو قال : لما قدم رسول الله ﷺ مكة وضع يديه على باب الكعبة والناس حوله فقال « لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » ثم قال « يا معشر قريش ما تقولون وما تظنون ؟ » قال : قلت يا رسول الله نقول خيرا ونظن خيرا أخ كبريم وابن عم رحيم وقد قدرت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أقول كما قال أخى يوسف ( لا شريك عليكم اليوم بغفر الله لكم ) » (٢) وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا وقف العباد نادى مناد ليقيم من أجره على الله فليدخل الجنة ، قيل ومن ذا الذي له على الله أجر ؟ قال « العافون عن الناس ، فيقوم كذا وكذا ألفا فيدخلونها بنعيم حساب » (٣) وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يبنى لوالى أمر أن يؤتى مجد إلا أقامه والله عفو عمن قرأ ( وليعفو وليصفحوا ) الآية » (٤) وقال جابر : قال رسول الله ﷺ « ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخلن أى أبواب الجنة شاء وزوج من المحور العين حيث شاء ، من أدى ديننا خفياً وقرأ في دبر كل صلاة ( قل هو الله أحد ) عشر مرات وعفا عن قاتله » قال أبو بكر : أو إحداهن يا رسول قال « أو إحداهن » (٥) .

الآثار : قال إبراهيم التيمي : إن الرجل ليظلمني فأرحه . وهذا إحسان وراء العفو لأنه يستل قلبه بتمرحه لمصيبة الله تعالى بالظلم وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب . وقال بعضهم : إذا أراد الله أن يتحف عبدا قبيض له من يظلمه . ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ليجعل يشكو إليه رجلا ظلمه ويقع فيه فقال له عمر : إنك إن تلتى الله ومظلمتك كما هي . خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصنا . وقال يزيد بن ميسرة : إن ظلمت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمت فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك وإن شئت أخرت كما لي يوم القيامة فيمسكنا عصى . وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه : كل الظالم إلى ظلمه فإنه أسرع إليه من دعاك عليه إلا أن يتداركه بعمل وقرن أن لا يفعل . وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال : بلغنا أن الله تعالى بأمر مناديا يوم القيامة فتنادى من كان له عند الله شيء فليقيم فيقوم أهل العفو ، فيكافئهم الله بما كن من عفوم عن الناس . وعن هشام بن محمد قال : (أبي التيمان بن المنذر برجلين قد أذنب أحدهما ذنباً عظيماً فصفا عنه والآخر أذنب ذنباً خفيفاً فصفاه وقال :

تعفو الملوك عن العظيم من الذنوب بفصلها  
ولقد تعاقب في اليسير وليس ذلك لجهلها  
إلا لعرف حلها ونفاق شدة دخلها

وعن مبارك بن فضالة قال : وقد سوار عبداً في وفد من أهل البصرة إلى أبي جعفر ، قال : فكنت عنده إذ أتى برجل فأمر بقتله فقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر ، فقلت يا أمير المؤمنين ألا أحدثك حديثاً سمعت

- 
- (١) حديث أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بضادتي الباب فقال « ما تقولون ... الحديث » رواه ابن الجوزي في الوفاء من طريق ابن أبي الدنيا وفيه ضعف .  
(٢) حديث سهل بن عمر : لما قدم رسول الله ﷺ مكة وضع يده على باب الكعبة الحديث بنحوه : لم أجده .  
(٣) حديث أنس « إذا وقف العباد نادى مناد ليقيم من أجره على الله فليدخل الجنة » قيل من إذ الذى أجره على الله ؟ قال « العافون عن الناس ... الحديث » أخرجه الطبراني في معارج الأئمة وفيه الفضل بن يسار ولا يتابع على حديثه . (٤) حديث ابن مسعود « لا يبنى لوالى أمر أن يؤتى مجد إلا أقامه والله عفو عمن قرأ ... الحديث » أخرجه أحمد والحاكم وصححه وتقدم في آداب الصلوة . (٥) حديث جابر : ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة من أى أبواب الجنة شاء ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط في السطاء بسند ضعيف .

من الحسن؟ قال: وما هو؟ قلت سمعت يقول: إذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد حيث يسمعون الداعي وينفهم البصر، فيقوم مناد فينادي من له عند الله يد فليقيم؛ فلا يقوم إلا من عفا، فقال: والله لقد سمعت من الحسن؟ فقلت والله سمعت منه، فقال: خليتاه عنه. وقال معاوية: عليكم بالحلم والاحتياط حتى تتمكنكم الفرصة، فإذا أمكنتمكم فليحكم بالصفح والإفضال. وروى أن رابعاً دخل على هشام بن عبد الملك فقال للرابع: أ رأيت ذا القرنين أكل ندياً؟ فقال: لا ولكنه إنما أعطى ما أعطى بأربع خصال كن فيه: كان إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا حدث صدق، ولا يجمع شغل اليوم لند. وقال بعضهم: ليس الحلم من ظلم ظلم. حتى إذا قدر انقمت، ولكن الحلم من ظلم ظلم حتى إذا قدر عفا. وقال زياد: القنطرة تنهب الحفيظة يعنى الحقد والغضب. وأتى هشام برجل بلغه عنه أمر فلما أقيم بين يديه جعل يتكلم بجمته فقال له هشام: وتكلم أيضاً؟ فقال الرجل: يا أمير المؤمنين قال الله عز وجل (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) أفجادل الله تعالى ولا تتكلم بين يديك كلاماً؟ قال هشام: بلى ويحك تكلم. وروى أن سارقاً دخل غيابة عمار بن ياسر بصفين فقيل له أقطعه فإنه من أعدائنا، فقال بل أستر عليه لعل الله يستر على يوم القيامة. وجلس ابن مسعود في السوق يتنازع طعاماً ما فاتح ثم طلب الدرهم وكانت في عمامته فوجدتها قد حلت فقال: لقد جلست وزئنا لمسى، فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون: اللهم اقطع يد السارق الذى أخذها اللهم أقبل به كذا، فقال عبادة: اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها وإن كان حمله جرامة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه. وقال الفضيل: ما رأيت أزهده من رجل من أهل خراسان جلس إلى في المسجد الحرام ثم قام ليطوف فسمعت دنانير كانت معه للجمل يبيكي، فقلت أعلى الدنانير تبيكي؟ فقال: لا، ولكن مثلي وإياه بين يدي الله عز وجل فأشرف عقلي على إحضار حجة فيكأى رحمة له؟ وقال مالك بن دينار: أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلا وهو على البصرة أمير، وجاء الحسن وهو خائف فدخلنا معه عليه فإكنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراريج، فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته من ييمهم إياه وطرحهم له في الحب فقال: يا عوا أخاهم وأحزونوا أباهم، وذكر ما لقى من كيد النساء ومن الحبس ثم قال: أيها الأمير ماذا صنع الله به؟ أذاله منهم ورفع ذكره وأعلى كلبته وجعله على خزان الأرض؟ فماذا صنع حين أكل له أمره وجمع له أهله؟ (قال لأشرب عليكم اليوم يفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) يعرض للحكم بالعفو عن أصحابه. قال الحكم فإنا أقول لأشرب عليكم اليوم ولم أجد إلا ثوب هذا لواريكم تحته. وكتب ابن المنفع إلى صديق له يسأله العفو عن بعض إخوانه: فلان هارب من ذلته إلى عفوكم لا تدمتكم بك. واعلم أنه لن يرداد الذنب حظاً إلا أزداد العفو فضلاً. وأتى عبد الملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث فقال لرجاء بن حيوة: ما ترى؟ قال إن الله تعالى قد أعطاك ماتحب من الظفر فاقطع الله ما يجب من العفو ففعلنهم. وروى أن زياداً أخذ رجلاً من الخوارج فأقلت منه فأخذ أخاه فقال له: إن جئت بأخيك وإلا ضربت صفك، فقال: أ رأيت إن جئت بكتاب من أمير المؤمنين تحضلى سبيلى [قال: بلى]، قال: فإنا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم وأقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى ثم تلا (ألم ينبا بما صنف موسى وإبراهيم الذى وفى أن لا نزر ولازدة وزر أخرى) فقال زياد: خلوا سبيله، هذا رجل قد لقن حجة. وقيل مكتوب في الإنجيل: من استغفر لمن ظله فقد هزم الشيطان.

## فضيلة الرق

أعلم أن الرق محمود ويضاده العنف والحدة. والعنف نتيجة الغضب والفظاظة. والرق واللين نتيجة حسن



الحق والسلامة ، وقد يكون سبب الحدة الغضب ، وقد يكون سببها شدة الحرص واستقلاؤه بحيث يدهش عن التفكير ويمنع من التثبت ، فالرق في الأمور ثمرة لإحسان الحق ، ولا يحسن الحق إلا بضيقه والضعف قوة الشهوة وحفظها على حد الاعتدال . ولاجل هذا أنى رسول الله ﷺ على الرق وبالع في فقال « يا عائشة إنه من أعطى حظه من الرق فقد أعطى حظه من الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة »<sup>(١)</sup> وقال رسول الله ﷺ « إذا أحب الله أهل بيت أدخل بينهم الرق »<sup>(٢)</sup> وقال ﷺ « إن الله يعطي على الرق ما لا يعطي على الحرق وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرق وما من أهل بيت يحرمون الرق إلا حرموا محبة الله تعالى »<sup>(٣)</sup> وقالت عائشة رضي الله عنها : قال النبي ﷺ « إن الله رفيق يحب الرق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف »<sup>(٤)</sup> وقال ﷺ « يا عائشة أرفقي فإن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلم على باب الرق »<sup>(٥)</sup> وقال ﷺ « من يحرم الرق يحرم الخير كله »<sup>(٦)</sup> وقال ﷺ « أيما وال ولا يفرق ولان رقي الله تعالى به يوم القيامة »<sup>(٧)</sup> وقال ﷺ « تدرون من يحرم على التأديم القيامة كل من لين سهل قريب »<sup>(٨)</sup> وقال ﷺ « الرق بين والخرق شؤم »<sup>(٩)</sup> وقال ﷺ « الثاني من الله والمجلة من الشيطان »<sup>(١٠)</sup> وروى أن النبي ﷺ أنه رجلاً فقال « إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك فأخصني منك » فيقول « يا عائشة »<sup>(١١)</sup> قال « يا عائشة »<sup>(١٢)</sup> عليه فقال « هل أنت مستوص »<sup>(١٣)</sup> مرتين أو ثلاثاً قال : نعم قال « إذا أردت أمراً قدبر عاقبه فإن كان رشداً فامضوا وإن كان سوى ذلك فانهت »<sup>(١٤)</sup> وعن عائشة رضي الله عنها : أنها كانت مع النبي ﷺ في سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه يميناً وشمالاً فقال النبي ﷺ « يا عائشة عليك بالرق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه »<sup>(١٥)</sup> . الآثار : بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جماعة من رعيه اشتكوا من عمله فأمرهم أن يوافوه ، فلما أتوه

## فضيلة الرق

- (١) حديث « يا عائشة إنه من أعطى حظه من الرق أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ... الحديث » رواه أحمد والقبلي في الضعاف في ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر اللبكي وضعفه عن القاسم عن عائشة . وفي الصحيحين من حديثها « يا عائشة إن الله يحب الرق في الأمر كله » . (٢) حديث « إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرق » أخرجه أحمد بسند جيد والبيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عائشة . (٣) حديث « إن الله يعطي على الرق ما لا يعطي على الحرق ... الحديث » أخرجه الطبراني في الكبير من حديث جرير بن إسناد ضعيف . (٤) حديث : « إن الله رفيق يحب الرق ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة (٥) حديث « يا عائشة أرفقي إن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلم على باب الرق » أخرجه أحمد من حديث عائشة وفيه اقطعاع ولأبي داود « يا عائشة أرفقي » (٦) حديث « من يحرم الخير كله » أخرجه مسلم من حديث جرير دون قوله « كله » ففيه عند أبي داود . (٧) حديث « أيما وال ولا يفرق ولان رقي الله تعالى به يوم القيامة » أخرجه مسلم من حديث عائشة وفي حديث فيه « ومن ولي من أمر أمي شيئاً فرفق بهم فارفق به » . (٨) حديث « تدرون على من يحرم النار على كل حين لين سهل قريب » أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وتقدم في آداب الصحة . (٩) حديث « الرق بين والخرق شؤم » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود والبيهقي في الشعب من حديث عائشة وكلاهما ضعيف . (١٠) حديث « الثاني من الله والمجلة من الشيطان » أخرجه أبو يعلى من حديث أنس ورواه الترمذي وحسنه من حديث سهل بن سعد بلفظ « الأئمة من الله » وقد تقدم . (١١) حديث : أنه رجلاً فقال يارسول الله إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك ... الحديث » وفيه « فإذا أردت أمراً قدبر عاقبه فإن كان رشداً فامضه ... الحديث » أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق من حديث أبي جعفر هو للسمي عبد الله بن مسور الهامشي ضعيف جداً ولأبي نعم في كتاب الإيجاز من رواية إسماعيل الأنصاري عن أبيه عن جده « إذا هممت بأمر فاجلس قدبر عاقبه » وإسناده ضعيف . (١٢) حديث عائشة « عليك بالرق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه ... الحديث » رواه مسلم .

قام بحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس، أيها الرعية، إن لنا عليكم حقا التضيعة بالغيب والمعاونة على الخير ، أيها الرعاة إن الرعية عليكم حقا فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ولا أعز من حلم إمام ورفقه ، وليس جمل أبض إلى الله ولا أعز من جهل إمام وخرقه ، واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه يرزق العافية عن هو دونه . وقال وهب بن منبه : الرفق نقي الحلم .

وفي الخبر موقرقا ومرقعا « العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قيمه والرفق والده ، واللين أخوه والصبر أمير مجوده (١) » . وقال بعضهم : ما أحسن الإيمان بزيته العلم بما أحسن العلم بزيته العمل وما أحسن العمل بزيته الرفق وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم . وقال عمرو بن العاص لا ينعبد الله : ما الرفق ؟ قال : أن تكون ذا أناة فلا ين الولاة . قال فا الحرق ؟ قال : معاداة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك . وقال سفيان لأصحابه : تدرؤن ما الرفق ؟ قالوا : قل يا أبا محمد ، قال : أن تضع الأمور من مواضعها : الشدة في موضعها واللين في موضعها والسيف في موضعه والوسط في موضعه ، وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين والفضافة بالرفق كما قيل :

وموضع اللين في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع اللين  
فالحمود وسط بين العنف واللين كما في سائر الأخلاق ، ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر ، فذلك كثرة ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف ، وإن كان العنف في محله حسنا كما أن الرفق في محله حسن ، فإذا كان الواجب هو العنف فقد وافق الحق الهوى وهو ألد من الزبد بالشد وهكذا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : روى أن عمرو بن العاص كتب إلى معاوية بعاتبه في الثاني فكتب إليه معاوية : أما بعد ؛ فإن التفهم في الخير زيادة رشد ، وإن الرشيد من رشد عن المعجلة ، وإن الخائب من خاب عن الأناة ، وإن المثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيبا ، وإن السجل عظم أو كاد أن يكون عظيما ، وإن من لا يتفهمه الرفق يضره الحرق ، ومن لا تنفعه التجارب لا يترك الملال . وعن أبي عون الأنصاري قال : ما تكلم الناس بكلمة صعبة إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجرى مجراها . وقال أبو حمزة الكوفي : لا تتخذ من الخدم إلا مالا يد منه فإن مع كل إنسان شيطانا . واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئا إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه . وقال الحسن : المؤمن وقاف متأن وليس كحاطب ليل . فهذا ثناء أهل العلم على الرفق وذلك لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور ، والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على التدور ، وإنما السكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطى كل أمر حقه فإن كان قصير البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليسكن ميده إلى الرفق فإن النجح معه في الأكثر .

القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته

بيان ذم الحسد

اعلم أن الحسد أيضا من نتائج الحقد ، والحقد من نتائج الغضب فهو فرع فرع والغضب أصل أصله ، ثم إن الحسد من الفروع الذميمة مالا يكاد يحصى . وقد ورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة : قال رسول الله صلى الله

(١) حديث « العلم خليل للمؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قائمه والرفق والده » أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب فضائل الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف ورواه القاضي في مسند الشهاب من حديث أبي البرداء وأبي هريرة وكلاما ضعيف .

عليه وسلم « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم في النهي عن الحسد وأسبابه ونثراته « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا »<sup>(٢)</sup> وقال أنس : كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة » قال : فطلع رجل من الأنصار ينفض لحية من وضوءه قد علق نعليه في يده الشمال فسلم ، فلما كان الغد قال صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع ذلك الرجل ، وقاله في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل ، فلما قام صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له : إني لأحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا فإن رأيت أن ترويني إليك حتى تمض الثلاث فقلت ، فقال « نعم » فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا أقلب من على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم حتى يقوم صلاة الفجر ، غير أني ما سمعته يقول إلا خيرا فلما مضت الثلاث وحسنت أن أحضر عمله قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ، ولكي سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا فأردت أن أعرف عملك فلم أرك تعمل عملا كثيرا فما الذي بلغ بك ذلك : فقال ما هو إلا ما رأيت ، فلما وابت دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجعل من أحد من المسلمين في نفسي غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه ، قال عبد الله : فقلت له هي التي بلغت بك وهي التي لا نطق <sup>(٣)</sup> . وقال ﷺ « ثلاث لا ينجو منها أحد : الظن والطيرة والحسد ، وسأحدثكم بالخروج من ذلك : إذا ظننت فلا تحقق ، وإذا ظنيت فامض ، وإذا حسنت فلا تبغ »<sup>(٤)</sup> وفي رواية « ثلاثة لا ينجو منهم أحد وقل من ينجو منهم » فأثبت في هذه الرواية إمكان التجاة . وقال ﷺ « دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء ، والبغضة هي الحافلة لا أقول حافلة الشعر ولكن حافلة الدين ، والدي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بما شئت ذلك لكم أقشوا السلام بينكم »<sup>(٥)</sup> وقال ﷺ « كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يظلم القدر »<sup>(٦)</sup> وقال ﷺ « إنه يصيب أمتي داء الأمم » قالوا وما داء الأمم ؟ قال « الأشر والبطر والتكابر والتنافس في الدنيا والتباعد والتحاسد حتى يكون البغي ثم المخرج »<sup>(٧)</sup> وقال ﷺ « لا تظهر الشهادة لأخيك فيعافيه الله ويتليك »<sup>(٨)</sup> وروى أن موسى عليه

#### القول في ذم الحسد

- (١) حديث « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة وابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم . (٢) حديث « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ... الحديث » متفق عليه وقد تقدم
- (٣) حديث أنس : كنا يوما جلوسا عند رسول الله ﷺ قال « يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة ... الحديث بطوله » وفيه : أن ذلك الرجل قال لا أجعل على أحد من المسلمين في نفسي غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله رواء أحمد باسناد صحيح على شرط الشيخين ورواه البراء ومي الرجل في رواية له سعدا وفيها ابن أبيه .
- (٤) حديث « ثلاث لا ينجو منهم أحد : الظن والطعن والحسد الحديث » وفي رواية « وقل من ينجو منهم » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزهري وموسى بن يعقوب الزمعي ضعيفان الجمهور والرواية الثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضا من رواية عبد الرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف والطبراني من حديث حارثة ابن العثمان نحوه وقدم آفات اللسان . (٥) حديث « دب إليكم داء الأمم : الحسد والبغضاء ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث مولى الزبير عن الزبير . (٦) حديث « كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يظلم القدر » أخرجه أبو مسلم الكشي والبيهقي في الشعب من رواية يزيد الرقائى عن أنس ويزيد ضعيف ورواه الطبراني في الأوسط من وجه آخر بلفظ « كادت الحاجة أن تكون كفرا » وفيه ضعف أيضا . (٧) حديث « إنه يصيب أمتي داء الأمم قبلكم » قالوا وما داء الأمم ؟ قال « الأشر والبطر ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة باسناد جيد .
- (٨) حديث « لا تظهر الشهادة لأخيك فيعافيه الله ويتليك » أخرجه الترمذي من حديث واثلة بن الأسقع وقال حسن غريب وفي رواية ابن الدنيا فيرحمه الله .

السلام لما تعجل إلى ربه تعالى رأى في ظل العرش رجلاً فنبهه بمكانه فقال إن هذا الكريم على ربه ، فسأل ربه تعالى أن ينبره باسمه فلم ينبره وقال أحذرك من عمله بثلاث : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وكان لا يبق والده ، ولا يمتن بالنعمة . وقال ذكرى عليه السلام : قال الله تعالى : الحاسد عدو لثمعي متسخط لقضائي غير راض بقسقي التي قسمت بين عبادي . وقال عليه السلام : « أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر فيهم المسال فتحاسدون ويقتلون <sup>(١)</sup> » وقال عليه السلام : « استمعوا على قضاء الحوائج بالكتان فإن كل ذي نعمة محسود <sup>(٢)</sup> » وقال عليه السلام : إن لنعم الله أعداءً قليل ومن هم ؟ الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله <sup>(٣)</sup> » وقال عليه السلام : « ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة » قيل يارسول الله من هم قال « الأمراء بالجوهر والعرب بالمصية والبهاقين بالتكبر بالحياة ، وأهل الرستاق بالمجالة والعلماء بالحسد <sup>(٤)</sup> » .

الأنار : قال بعض السلف : أول خطيئة كانت هي الحسد حسد إبليس آدم عليه السلام على ربه تعالى أن يسجد له فحمله الحسد على المعصية . وحكى أن عون بن عبد الله دخل على الفضل بن المطلب وكان يومئذ على واسط فقال : إني أريد أن أعظك بشيء فقال : وما هو ؟ إياك والكبر فإنه أول ذنب عصي الله به ، ثم قرأ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ الآية ، وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه سبحانه من الجنة عرضها السموات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحدة نهى الله عنها فأكل منها فأخرجهم الله تعالى منها ، ثم قرأ ﴿ اهبطوا منها ﴾ إلى نهاية الآية وإياك والحسد فإنه قتل ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ ﴿ وَاُولَئِكَ عَلَيْهِمْ نَآئِبُنِي آدَمُ بِالْحَقِّ ﴾ الآيات ، وإذا ذكر أصحاب رسول الله ﷺ فأصمك ، وإذا ذكر التصدي فأسكت ، وإذا ذكرت النجوم فأسكت . وقال بكر بن عبد الله : كان رجل يفتنى بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك فيقول : أحسن إلى الحسن بإحسانه فإن المصير سيكتفيكم إيساره ، فحسده رجل على ذلك المقام والكلام فسمى به إلى الملك فقال : إن هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول زعم أن الملك أبخر ، فقال له الملك . وكيف يصح ذلك عندي ؟ قال : تدعوه إليك فإنه إذا دعا منك وضع يده على أذنه ثلاثاً يتم ريح البخر ، فقال له انصرف حتى أنظر ، فخرج من عند الملك فطأ الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم فخرج الرجل من عنده وقام بحذاء الملك على عادته فقال أحسن إلى الحسن بإحسانه فإن المصير سيكتفيكم إيساره ، فقال الملك : ادن مني فدنا منه فوضع يده على فيه فخافه أن يشم الملك منه رائحة الثوم ، فقال الملك في نفسه : ما أرى فلاناً إلا صادق ؟ قال وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزته أو صلة فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل من عماله : إذ أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه واحش جلده ثوباً وايمت به إلى وأخذ الكتاب وخرج فلقبه الرجل الذي سمى به فقال : ما هذا الكتاب قال خط الملك لي بصلة ، فقال : هبه لي !

(١) حديث « أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر لهم المال فتحاسدون ويقتلون » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي عامر الأشعري وفيه ثابت بن أبي ثابت جهم أبو حاتم وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد « إن مما أخاف عليكم من بعدى ما فتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » ولها من حديث عمرو بن عوف البدرى « والله ما الفقر أخشى عليكم ولكنني أخشى أن تسخط عليكم الدنيا .. الحديث » ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « إذا فتحت عليكم فارس والروم . الحديث » وفيه يتنافسون ثم يتحاسدون ثم يتدابرون الحديث . ولاحد والبرار من حديث عمر « لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم المدلاة والبضاء إلى يوم القيامة » .

(٢) حديث « استمعوا على قضاء الحوائج بالكتان فإن كل ذي نعمة محسود » أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف . (٣) حديث « إن لنعم الله أعداءً » قبل ومن أولئك ؟ قال « الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس « إن لأهل المم حساداً فاحذروهم » .

(٤) حديث « ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة » قيل يارسول الله ومن هم ؟ قال « الأمراء بالجور ... الحديث » وفيه « والعلماء بالحسد » أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر وأبى بن سنان بن شفيق .

فقال : هو لك ، فأخذه ومضى به إلى العامل ، فقال العامل : في كتابك أن أذعك وأسلحك ، قال : إن الكتاب ليس هو لي فاقه اتقى أمرى حتى تراجع الملك ، فقال : ليس لكتاب الملك مراجعة ، فذبحه وساحه وحشا جلده تنبها وبعث به ، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته وقال مثل قوله ، فحب الملك وقال : ما فعل الكتاب ؟ فقال : تقبى فلان فاستوجه منى فوجهته ، قال له الملك : إنه ذكر لي أنك تزعم أنى أبخر ، قال : ما قلت ذلك ؟ قال : فلم وضعت يدك على فيك ؟ قال : لأنه أطمعنى طامعا فيه ثم فكرت أن تشبه ، قال : صدقت لرجع إلى مكانك فقد كفى الحسرة . وقال ابن سيرين رحمه الله : ما حدثت أحدا على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهى خيرة الجنة ؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار وقال رجل للحسن : هل يحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك بنى يعقوب ؟ نعم ، ولكن غمى في صدرك فإنه لا يضرك ما لم تعد به بنا ولا لسانا . وقال أبو الدرداء : ما أكثر عبد ذكر الموت إلا غل فرحه وقل حسده وقال معاوية : كل الناس أقدر على رضاه لإحسانه نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها ولذلك قيل :

كل العداوات قد ترجى إقامتها إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال بعض الحكماء : الحسد جرح لا يبرأ وحسب المسود ما يلقى . وقال أعرابي : ما رأيت ظالما أشبه بظالم من حاسد ، إنه يرى النعمة عليك تقمة عليه . وقال الحسن : يا ابن آدم لم تحسد أهلك ؟ فإن كان الذى أعطاه لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار ؟ وقال بعضهم : الحاسد لا يتال من المجالس إلا مذمة وذلا ، ولا يتال من الملائكة إلا لئمة وبغضا ، ولا يتال من الخلق إلا جزعا وغمما ، ولا يتال عند النزاع إلا شدة وهولا ، ولا يتال عند الموقف إلا قسيسة ونكالا ،

### بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة ، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فكيف فيها حالتان : أحدهما : أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها ، وهذه الحالة تسمى حسدا . فالحسد حدة كراهة النعمة وحب زوالها عن الممتع عليه .

الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها لا تكره وجودها ودوامها ولكن تشتهى لنفسك مثلبا . وهذه تسمى غبطة ، وقد تخصص باسم المنافسة .

وقد تسمى المنافسة حسدا والحسد منافسة ويوضع أحد الطرفين موضع الآخر ، ولا حبر في الأساسى بعد فهم المعانى . وقد قال عليه السلام : « إن المؤمن يبط والمنافق يحسد <sup>(١)</sup> » .

فأما الأول فهو حرام بكل حال ، إلا نعمة أسأها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهيج الفتنة وإفساد ذات الدين وإيذاء الخلق ، فلا يضرك كراهتك لها وعيبك لزوالها ، فإنك لا تحب زوالها من حيث هى نعمة بل من حيث هى آفة إفساد ، ولو أمنت فسادها لم ينمك بتعمت ، وبدل على تحريم الحسد الأخبار التى نقلناها وأن هذه الكراهة تسخط قضاء الله في تفضيل بعض عبيده على بعض ، وذلك لاعترفيه ولا رخصة ، وأى معصية تزيد على كراهتك

### بيان حقيقة الحسد وحكمه

(١) حديث « للؤمن يبط والمنافق يحسد » لم أجده أصلا مرفوعا وإنما هو من قول الفضيل بن عياض ، كذلك رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد .

راحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة ؟ وإلى هذا أشار القرآن بقوله ﴿ إِنْ تَسْكُمُ حَسَنَةً تَكُونُ مِنْهُ ﴾ وإن تصيكم سيئته يفرحوا بها ) وهذا الفرح شناعة والحسد والثبابة يتلازمان . وقال تعالى ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فأخبر تعالى أن جهنم زوال نعمة الإيمان حسد . وقال عز وجل ﴿ وَدُوَالُوا لَوْ تَسْكُرُونَ كَمَا تَكْفُرُونَ سَوَاءٌ ﴾ وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف عليه السلام وصبرهما في قلوبهم بقوله تعالى ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عَلَيْهِمْ ﴾ إن أبانا لفي ضلال مبين . اقلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم ﴿ فلما كرهوا حب أبيهم له وسامه ذلك وأحبوا زواله عنه فقبضوه عنه وقال تعالى ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ أى لا يتفق صدورهم به ولا يشعرون فأخى عليهم بعدم الحسد . وقال تعالى في معرض الإنكار ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ وقال تعالى ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ إلى قوله ﴿ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٌ ﴾ قيل في التفسير : حسدا . وقال تعالى ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيِّنَاتٍ ﴾ فأقول الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته ، وأمرهم أن يتألفوا بالعلم فتحاسدوا واختلفوا إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة وقبول القول فرد بعضهم على بعض . قال ابن عباس : كانت اليهود قبل أن يبعث النبي ﷺ إذا قاتلوا قوما قاتلوا نساء لك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الذي نزل به إلانما نصرتنا ﴿ فكانوا يصرون . فلما جاء النبي ﷺ من ولد إسماعيل عليه السلام عرفوه وكفروا به بهمنهم قهريه إياه فقال تعالى ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ﴿ إلى قوله ﴿ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى حسدا . وقالت صفية بنت حيي للنبي ﷺ : جاء أبى وعمى من عندك يوما ، فقال أبى لعنى : ما تقول فيه ؟ قال : أقول إنه النبي الذي بشر به موسى ، قال : فما ترى ؟ قال : أرى معاداته أيام الحياة ﴿ فهذا حكم الحسد في التحريم .

وأما المنافسة : فليست بحرام بل هى إما واجبة وإما مندوبة وإما مباحة ، وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة والمنافسة بدل الحسد ، قال قثم بن العباس : لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي ﷺ فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة - قال لعل حين قال لهما : لا تذهبوا إليه فإنه لا يؤمر كما عليهما فقالا له : ما هذا منك إلا نفاة والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك ﴿ أى هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجه إياك فاطمة .

والمنافسة فى اللغة مشتقة من التنافس . والذي يدل على إباحة المنافسة قوله تعالى ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ وقال تعالى ( سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ) وإنما المسابقة عند خوف الفتوى وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما ، إذ يجرح كل واحد أن يسبقه صاحبه فيعطى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها ،

(١) حديث ابن عباس : قوله كانت اليهود قبل أن يبعث النبي ﷺ إذا قاتلوا قوما قالوا : نساء لك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله ... الحديث : فى زوال قوله تعالى ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أخرجه ابن اسحاق فى السيرة فى بيلته عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج رسول الله ﷺ ، فذكره نحوه وهو منقطع . (٢) حديث : قالت صفية بنت حيي للنبي ﷺ : جاء أبى وعمى من عندك يوما فقال أبى لعنى : ما تقول فيه ؟ قال أقول إنه النبي الذي بشر به موسى ... الحديث . أخرجه ابن اسحاق فى السيرة قال حديث أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال حديث عن صفية فذكره نحوه وهو منقطع أيضا . (٣) حديث قثم بن العباس : لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي ﷺ فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة قال لعل ... الحديث هكذا وقع للمصنف أنه تم والفضل والمطلب ابن ربيعة كما رواه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة ابن الحارث قال : اجتمع ربيعة بن الحارث والباس بن عبد المطلب فقالا والله لو يمشا هذين الغلامين قال لى والفضل بن عباس اتيا إلى رسول الله ﷺ فسكاه ؟ فذكر الحديث .

كيف وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال « لا حسد إلا في اثنين : رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكه في الحق ، ورجل آتاه الله علما فهو يعمل به ويعلمه الناس (١) » ثم قرر ذلك في حديث أبي كبشة الأنصاري فقال « مثل هذه الأمة مثل أربعة : رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه في ماله ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول رب لو أن لي مال مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله فهما في الأجر سواء . وهذا منه حب لأن يكون مثل ماله فيعمل مثل ما يعمل من غير حب زوال النعمة عنه قال - ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفعه في معاصي الله ، ورجل لم يؤته علما ولم يؤته مالا فيقول لو أن لي مثل مال فلان لكنت أفتقه في مثل ما أفتقه فيه من المعاصي فهما في الوزر سواء (٢) » قدمه رسول الله ﷺ من جهة تنبيه المصيبة لآمن جهة حبه أن يكون حبه أن له من النعمة مثل ماله . فإذا لاجر ح على من يفيض غيره في نعمة ويستهي لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له . نعم إن كانت تلك النعمة دنية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة فهذه المتأصلة واجبة ، وهو أن يجب أن يكون مثله لأنه إذا لم يكن يجب ذلك فيكون راضيا بالمصيبة وذلك حرام ، وإن كانت النعمة من الفضائل كالإتقان في الأعمال في المسكوكات والصدقات فالمتأصلة فيها مندوب إليها ، وإن كانت نعمة ينتم بها على وجه مباح فالمتأصلة فيها مباحة ، وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته والحق به في النعمة وليس فيها كراهة النعمة ، وكان تحت هذه النعمة أمران ، أحدهما : راحة المتعم عليه ، والآخر : ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه وهو يكره أحدا لوجهين وهو تخلف نفسه ويجب مساواته له .

ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في المباحات ، نعم ذلك ينقص من الفضائل وينافض الزهد والتوكل والرضا ويجب عن المقامات الراجعة ولكنه لا يوجب العصيان . وهنا دقيقة غامضة : وهاته إذا أيس من أن يقال مثل تلك النعمة وهو يكره تخلفه ونقصانه فلا محالة يجب زوال النقصان ، وإنما يزول نقصانه إما بأن ينال مثل ذلك أو بأن تزول نعمة المحسود ، فإذا اند أحد الطريقين فيكاد القلب لا يفتك عن شهوة الطريق الآخر ، حتى إذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشقى عنده من دوامها إذ يزاولها يزول تخلفه وتقدم غيره ، وهذا يكاد لا يفتك عن القلب عنه فإن كان بحيث لو أفضى الأمر إليه ورد إلى اختياره لسي في إزالة النعمة عنه فهو حسود وحسد منموما ، وإن كان تدعه التقوى عن إزالة ذلك ، فيعني عما يحمده في طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عنه فهو حسود حيدا منها كان كارها لذلك من نفسه ببقوله ودينه ، وأصله المعنى بقوله ﷺ « ثلاث لا يفتك المؤمن عنهن : الحسد والظن والطيرة (٣) » ثم قال وله منهن مخرج « إذا حسدت فلا تبغ » أي أن وجدت في قلبك شيئا فلا تمسك به . ويبيد أن يكون الإنسان مريدا للحاق بأخيه في النعمة فيحجز عنها ثم يفتك عن ميل إلى زوال النعمة . إذ يجب لعمالة ترجيحها له على دوامها . فهذا الحد من المتأصلة زاحم الحسد الحرام فينبغي أن يحتاط فيه فإنه موضع الخطر ، وما من إنسان وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم ، ويكاد يتجر ذلك إلى الحد المحذور إن لم يكن قوى الإيمان ويزين التقوى . ومهما كان محرکه خوف الضاوت وظهور نقصانه عن غيره جره ذلك إلى الحسد المنموم وإلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه ، حتى يزول هو إلى مساواته إذ لم يقدر هو أن يرتقى إلى مساواته يادرك النعمة ؛ وذلك لارخصة فيه أصلا بل هو حرام سواء كان في مقاصد الدين أو مقاصد

(١) حديث « لا حسد إلا في اثنين ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم في العلم .

(٢) حديث أبي كبشة : مثل هذه الأمة مثل أربعة : رجل آتاه الله مالا .. الحديث » رواه ابن ماجه والترمذي وقال

حسن صحيح . (٣) حديث « ثلاث لا يفتك للمؤمن عنهن : الحسد والظن والطيرة ... الحديث » تقدم غير مرة .

الدنيا ، ولكن يعنى عنه في ذلك المالم يعمل به إن شاء الله تعالى ، وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له : فهذه هي حقيقة الحسد وأحكامه .

وأما مراتبه فأربع ( الأولى ) أن يحبزوال النعمة عنه وإن كان ذلك لا يقتل إليه وهذا غاية الخبث . ( الثانية ) أن يجب زوال النعمة إليه لرغبته في تلك النعمة ، مثل رغبته في دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره وهو يجب أن تكون له ، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه ، ومكروهه فقد النعمة لا تتم غيره بها . ( الثالثة ) أن لا يشتهي عينها لنفسه بل يشتهي مثلها ، فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما . ( الرابعة ) أن يشتهي لنفسه مثلها فإن لم تحصل فلا يجب زوالها عنه .

وهذا الأخير هو المعصية إن كان في الدنيا ، والمندوب إليه إن كان في الدين ، والثالثة فيها مذموم وغير مذموم ، والثانية أخف من الثالثة ، والأولى مذموم محض . وتسمية الرتبة حسدا فيه تجوز وتوسع ولكنه مذموم لقوله تعالى ﴿ ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ فتمنيه لئلا ذلك غير مذموم ، وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم .

### بيان أسباب الحسد والمنافسة

أما المنافسة فسيبها حب ما فيه المنافسة فإن كان ذلك أمرا دينيا فسيب حب الله تعالى وحب طاعته ، وإن كان دنيويا فسيب حب مباحات الدنيا والتمتع فيها . وإنما نظرنا الآن في الحسد المذموم ومداخله كثيرة جدا ، ولكن يحصر جهتها سبعة أبواب : العداوة ، والتمزج ، والكبر ، والتعجب ، والخوف من قوت المقاصد المحبوبة ، وحب الرئاسة ، ورغبة النفس وبخلها . فانه ما يكره النعمة على غيره اما لأنه عدوه فلا يريد له الخير ، وهذا لا ينحصر بالأمثال ، بل يحسد الخسيس الملك بمعنى أنه يجب زوال نعمته لكونه مفضلا له بسبب إسمائه إليه ، أو إلى من يحبه . وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبر بالنعمة عليه وهو لا يطيق احتمال كبره وتفارقه لعزة نفسه ، وهو المراد بالتمزج . وإما أن يكون في طلبه أن يشكر على المحسود ويتمتع بذلك عليه لنعمته وهو المراد بالكبر . وإما أن تكون النعمة عظيمة والمنصب عظيما فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة وهو المراد بالتعجب . وإما أن يخاف من قوت مقاصده بسبب نعمته بأن يتوصل بها إلى مزاحمته في أغراضه . وإما أن يكون يحب الرئاسة التي تلبس على الاختصاص بنعمة لا يساوي فيها . وإما أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب بل لحب النفس وشحها بالخير لمباد الله تعالى . ولابد من شرح هذه .

السبب الأول : العداوة والبغضاء ؛ وهذا أشد أسباب الحسد ، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد . والحقد يقتضى التشنى والانتقام ، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان ، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى ، فيها أصابت عدوه بلية فرح بها وظلها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله ، ومهما أصابه نعمة ساء ذلك لأنه ضد مراده ، وربما يحقر له أنه لا منزله له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه . وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما ، وإنما غاية التشنى أن لا يبغي وأن يكره ذلك من نفسه ، فأما أن يبغض لسانا ثم يستوى عنده مسرته ومساوئته ، فهذا غير ممكن ، وهذا عما وصف الله تعالى الكفار به أعنى الحسد بالعداوة إذ قال الله تعالى ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن



الله علم بذات الصدور - لن تمسك حنة تسوم) الآية . وكذلك قال تعالى ( ودوا ما عاتم قد بدت البغضاء من أخواهم وما تخفي صدورهم أكبر ) والحسد بسبب البغض ربما يقضى إلى التنازع والتقاتل واستغراق العمر في إزالة التهمة بالخيل والسماية وهتك السر وما يجرى مجراه .

السبب الثاني : التمزؤ ، وهو أن يتقل عليه أن يرفع عليه غيره ، فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو حليا أو مالا خاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتلال صلفه وتفاخره عليه ، وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره ، فإنه قد رضى بمساواته مثلا ، ولكن لا يرضى بالترفع عليه .

السبب الثالث : التكبر ؛ وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستغفره ويستخلمه ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة في أغراضه ، فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويرفع عن متابعتها ، أو ربما يتشوف إلى مساواته أو إلى أن يرتفع عليه فيعود متكبرا بعد أن كان متكبرا عليه . ومن التكبر والتمزؤ كان حسدا أكثر الكفار لرسول الله ﷺ إذ قالوا : كيف يقدم علينا غلام يقيم وكيف نطأ على رءوسنا ؟ فقالوا ( لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ) (١) أى كان لا يتقل علينا أن نتواضع له وتلبه إذا كان عظيما وقال تعالى يمض قول قرش ( أمؤلات من الله عليهم من يبتئ ) كالاستحقار لهم والألفة منهم .

السبب الرابع : التعصب ؛ كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة إذ قالوا ( ما أئتم إلا بشر مثلنا ) وقالوا ( تؤمن لبشرين مثلنا ) ( ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون ) فتعصبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحى والقرب من الله تعالى بشر مثلهم لحسودهم ، وأحبوا زوال النبوّة منهم جزما أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة ، ولا عن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة أو سبب آخر من سائر الأسباب ، وقالوا متعصبين ( أبعث الله بشرا رسولا ) وقالوا ( لولا أنزل علينا الملائكة ) وقال تعالى ( أوصيهم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل مثكم ) الآية .

السبب الخامس : الخوف من فوت المقاصد ؛ وذلك يخص بتراحمين على مقصود واحد ، فإن كل واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده ، ومن هذا الجنس تحاسد الضرأت في التراحم على مقاصد الزوجية ، وتحاسد الإخوة في التراحم على نيل المنزلة في قلب الأيوين للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال ، وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ ، وتحاسد ندماء الملك وغواصه في نيل المنزلة من قلبه للتوصل إلى المال والجاه ، وكذلك تحاسد الواعظين المتراحمين على أهل بلدة واحدة إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم ، وكذلك تحاسد العالمين المتراحمين على طائفة من المتفقه محسودين ؛ إذ يطلب كل واحد منزلة في قلوبهم للتوصل بهم إلى أغراض له

السبب السادس : حب الرياسة وطلب الجاه لنفسه من غير توصل به إلى مقصود ؛ وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم الظهير في فن من الفنون إذا غلب عليه حب الثناء واستغره الفرح بما يمدح به من أنه واحد المهر

#### بيان أسباب الحسد والحسنة

(١) حديث : سبب نزول قوله تعالى ( لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ) ذكره ابن اسحاق في السيرة ، وإن قائل ذلك الوليد بن المغيرة قال : أنزل على محمد وأترك وأنا كبير قرشي وسيدها ويرثك أبو مسعود عمرو بن عمير التقي سيد تهيف فحن عطاء القريتين ، فأثّر الله فيا بلغي هذه الآية . ورواه أبو محمد بن أبي حاتم وابن مردويه في تفسيرهما من حديث ابن عباس إلا أنها قالا مسعود بن عمرو ، وفي رواية لابن مردويه حبيب ابن عمير التقي وهو ضعيف .

وفريد العصر في فته وأنه لا نظير له، فإنه لو جمع ينظر له في أقصى العالم لساء ذلك وأحب موته أو زوال النعمة عنه التي بها يشاركه في المنزلة من شجاعته أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرد هو به ويفرح بسبب تفرده، وليس السبب في هذا عدواة ولا تمزز ولا تكبر على المحسود ولا خوف من قوت مقصود سوى محض الرياسة يدعوى الانفراد. وهذا وراء ما بين أحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة. وقد كان علماء اليهود يشكرون معرفة رسول الله ﷺ ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم واستباحتهم بهما نسخ عليهم.

السبب السابع: خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى، فإنك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طالب مال إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم وقوات مقاصدهم وتنقص عيشهم فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لنفسه ويبتل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وغزائنه. ويقال البخل من يبتل بمال نفسه والشحيح هو الذي يبتل بمال غيره، فهذا يبتل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينه وبينهم عدواة ولا رابطة، وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس وردة في الطبع عليه وقمت الجبلة، ومعالجته شديدة لأن الحمد الثابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة يتصور زوالها فيقطع في إذائها، وهذا خبث في الجبلة لا عن سبب عارض فحصر إزالته إذ يستحيل في العادة إزالته. فهذه هي أسباب الحمد وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحمد بذلك، ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والجمالة، بل ينتكح حجاب الجمالة وتظهر العدواة بالكلية. وأكثر المحاسنات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب، وقلما يجرد سبب واحد منها.

بيان السبب في كثرة الحمد بين الأمثال والأقربان والأخوة وبني العم والأقارب

وتأكله وقتله في غيرهم وحنقه

إعلم أن الحمد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها، وإنما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الأسباب فيهم وتطاهر، إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه قد يجتمع عن قبول التكبر ولأنه يتكبر ولأنه عدو ولغير ذلك من الأسباب. وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجمعون بسببها في مجالس المخططات ويتواردون على الأغراض، فإذا خالف واحد منهم صاحبه في غرض من الأغراض نفر طبعه منه وأبغضه وثبت الحقد في قلبه، فعند ذلك يريد أن يستحقه ويتكبر عليه ويكافئه على مخالفته لفرسه، ويكره تمكنه من النعمة التي توصله إلى أغراضه وترادف جملة من هذه الأسباب؛ إذ لا رابطة بين شخصين في بلدين متباعدتين فلا يكون بينهما محاسبة، وكذلك في محلتين. نعم إذا تجاوزا في مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما، فيثور من التناقض التنافر والتباغض ومنه تتوربقة أسباب الحسد، ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد للتاجر، بل الإسكافي يحسد الإسكافي ولا يحسد البزاز إلا بسبب آخر سوى الاجتماع والخفة، ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب والمرأة تحسد منتها وسرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته. لأن مقصد الزنا غير مقصد الإسكافي فلا يتواحون على المقاصد، إذ مقصد البزاز الثروة ولا يحصلها إلا بكثرة الزيون، وإنما ينازعه فيه بزاز آخر، إذ حريف البزاز لا يطلبه

الإسكاف بل الغراز . ثم مزاحة الغراز المجاور له أكثر من مزاحة البعيد عنه إلى طرف السوق ، فلا جرم يكون حسده للجار أكثر . وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد الشجاع العالم لأن مقصده أن يذكر بالشجاع عثر يشترها وينفرد بهذه الخصلة ، ولا يزاحم العالم على هذا الغرض . وكذلك يحسد العالم العالم ولا يحسد الشجاع . ثم حسد الواعظ الواعظ أكثر من حسد الفقير والعليل ، لأن التزاحم بينهما على مقصود واحد أخس .

فأصل هذه المحاسنات العداوة ، وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد ، والغرض الواحد لا يجمع متباعين بل متناسين ، فلذلك يكثر الحسد بينهما . نعم من اشتد حرصه على الجاه وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه فإنه يحسد كل من هو في العالم وإن بعد عي يساهم في الخصلة التي يتفاخر بها ، ومنفياً جميع ذلك حب الدنيا ، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين ، أما الآخرة فلا تضيق فيها ، وإنما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم من يجب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملوكوت سمواته وأرضه لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً ، لأن المعرفة لا تضيق عن العارفين . المعلوم الواحد بعله ألف ألف عالم ويفرح بمعرفة وتلد به ، ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره ، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس وثمرة الافادة . فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة لأن مقصدهم معرفة الله تعالى وهو بحر واسع لا تضيق فيه ، وغرضهم المنزلة عند الله ولا تضيق أيضاً فيما عند الله تعالى ، لأن أجل ما عند الله سبحانه من النعم لذة لقاءه وليس فيها مانعة ومزاحة ، ولا تضيق بعض الناظرين على بعض بل يزيد الأنس بكثرتهم

نعم إذا قصد العلماء بالملم المال والجاه تحاسدوا لأن المال أعيان وأجسام إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر ، ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لاجالة ، فيكون ذلك سبباً للمحاسدة ، وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يتلى قلب غيره بها وأن يفرح بذلك .

والفرق بين العلم والمسأل أن المسأل لا يحل في يد مالم يرتحل عن اليد الأخرى والعلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره بتعليمه من غيره أن يرتحل من قلبه ، للمال وللمال أجسام وأعيان ولها نهاية فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض لم يبق بعده مال يملكه غيره ، والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيعابه ، فنعود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملوكوت أرضه وسمائه صار ذلك ألد عنده من كل نعم ، ولم يكن ممنوعاً منه ولا مزاحاً فيه ، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق لأن غيره أيضاً لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته بل زادت لذته بمؤانسته ، فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملوكوت على الدوام أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة ، فإن نعيم المعارف وجمته معرفته التي هي صفة ذاته ، وأمن زوالها وهي أبداً بجنى ثمارها ؛ فهو بروحه وقلبه معتد بما كفة علمه وهي كفة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل قلوبها دائية ، فهو وإن غمض العين الظاهرة فروحاً أبداً ترقع في جنة عالية ورياض زاهرة ، فإن فرض كثرة في العارفين لم يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين ( وزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ) فهذا حالهم وهم بعد في الدنيا ، فإذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ومشاهدة المحبوب في المقبي ؟ فاذن لا يتصور أن يكون في الجنة محاسدة ولا أن يكون بين أهل الجنة في الدنيا محاسدة ، لأن الجنة لامضايقة فيها ولا مزاحة ، ولا تنال إلا بمعرفة الله تعالى التي لا مزاحة فيها في الدنيا أيضاً ، فأهل الجنة بالضرورة برآء من الحسد في الدنيا والآخرة جميعاً ، بل الحسد من صفات المجهدين عن سمة عليين إلى مضيق سجين ، ولذلك وصف به الشيطان العين ، وذكر من صفاته أنه حسد آدم عليه السلام على ما نصح به من الاجتناب ولما دعى إلى السجود استكبر وأبى وتمرد وعصى . فقد عرف أنه لا حسد إلا للوارد على مقصود

يضيق عن الوفاء بالكل . ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء ويحاسدون على رؤية البساتين التي هي جزء يسير من جملة الأرض ، وكل الأرض لا وزن لها بالاحاطة إلى السماء ، ولكن السماء لمة الأنظار وافية بجميع الأجزاء فلم يكن فيها تراحم ولا تحاسد أصلا . فليكن إن كنت بصيرا وعلى نفسك مشقة أن تطلب نعمة لازحة فيها ولذة لا كدولها ، ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله عز وجل ومعرفة صفاته وأفعاله وعجائب ملكوت السموات والأرض . ولا ينال ذلك في الآخرة إلا بهذا المعرفة أيضاً فإن كنت لا تشاق إلى معرفة الله تعالى ولم تجسد لذتها وقرحتك وأيك وضعت فيها رغبتك فأنت في ذلك معنور ؛ إذ العنين لا يشاق إلى لذة الواقع ، والعصى لا يشاق إلى لذة الملك ، فإن هذه لذات يختص بأدراكها الرجال دون الصبيان والمخثنين . فكذلك لذة المعرفة يختص بأدراكها الرجال ( رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ) ولا يشاق إلى هذه اللذة غيرهم ؛ لأن الشوق بعد النوق ، ومن لم يلق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشق ، ومن لم يشق لم يطلب ، ومن لم يطلب لم يدرك . ومن لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل السافلين ( ومن يش عن ذكر الرحمن تقيض له شيطانا فهو له قرين ) .

### بيان الدواء الذي ينقي مرض الحسد عن القلب

أصل أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل . والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف حقيقة أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين ، وأنه لا ضرر فيه على الموصود في الدنيا والدين بل ينفع به فيها . ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لعلها .

أما كونه ضررا عليك في الدين ، فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى ، وكرحت نعمته التي قسمها بين عبادته وعبدته الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته ، فاستنكرت ذلك واستبشمت . وهذه جنازة على حدقة التوحيد وقضى في عين الإيمان ، وناهيك بهما جنازة على الدين . وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلا من المؤمنين وترك نصيحتهم ، وفارقت أولياء الله وأنبياءه في جهنم الخير لعباده تعالى ، وشاركت إبليس وسائر الكفار بحبهم للؤمنين البلايا وذوال النعم وهذه خبايا في القلب تأكل حسنة القلب كما تأكل النار الحطب ، وتمحوها كما يحو الليل النهار . وأما كونه ضررا عليك في الدنيا فهو أنك تألم بحسدك في الدنيا أو تعذب به ، ولا تزال في كد وغم إذ أعدائك لا يجلبهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تعذب بكل نعمة تراها وتألم بكل بلية تتصرف عنهم . فتبقى مغموما محروما متضعب القلب ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهي الأعداء لك وتفتيه لأعدائك ، فقد كنت تريد الحقنة لمعدوك فتجرت في الحال عنتك وغمك قيدا ، ومع هذا فلا تزال النعمة عن الموصود بحسدك ، ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى القطة إن كنت عاقلا أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومسااته مع عدم النفع ، فكيف وانت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة ؟ فما أصعب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير قبح بئاله بل مع ضرر محتمله وألم يقاسيه فبهلك دينه وديناه من غير جدوى ولا فائدة وأما أنه لا ضرر على الموصود في دينه وديناه فواضح لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك ، بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة فلا بد أن يدوم إلى أجل غير معلوم قدره الله سبحانه ، فلا حيلة في دفعه بل كل شيء عتده بمقدار ، ولكل أجل كتاب . ولذلك شكنا في من الأنبياء من امرأة ظالة مستولية على الحق فأوحى الله إليه : فر من قدامها حتى تتقضى أيامها ، أي ما قدرناه في الأرض لا يسيل إلى تغييره فأصبر حتى تتقضى المدة التي سبق القضاء بدوام إقبالها فيها . ومهما

لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا ولا يكون عليه إثم في الآخرة ، ولعلك تقول ليست النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدى . وهذا غاية الجهل فإنه بلاء تشتبه أولا لنفسك ، فإنك أيضا لا تخلو عن عدو يحسدك ، فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق لله تعالى عليك نعمة ولا على أحد من الخلق ولا نعمة الإيمان أيضا ، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان ، قال الله تعالى ( ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ) إذ ما يرده المحسود لا يكون . نعم هو يضل بإرادته الضلال لغيره فإن إرادته الكفر كفر . فمن اشتبه أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد فكأنما يريد أن يسلب نعمة الإيمان بحسد الكفار وكذا سائر النعم . وإن اشتبهت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك فهذا غاية الجهل والغباء ، فإن كل واحد من حق الحساد أيضا يشتهى أن ينحس به هذه الخاصة ولست بأول من غيرك ، فنعمة الله تعالى عليك في إن لم تزل النعمة بالحسد مما يجب عليك شكرها وأنت بمهلك تكرها .

وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح ، أما منفعة في الدين : فهو أنه مظلوم من جهلك لا سباً إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالنسبة والفتح فيه وهتك سريه وذكر مساويه ، فهذه هدايا تهدسها إليه ؛ أعنى أنك بذلك تهدي إليه حسناك حتى تلقاه يوم القيامة مفلسا محروما عن النعمة كما حرمت في الدنيا عن النعمة ، فبكانك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل . نعم كان لله عليه نعمة إذ وفقت الحسنا فتقلت إلى فاضفت إليه نعمة إلى نعمة وأضفت إلى فضلك شقاوة إلى شقاوة .

وأما منفعة في الدنيا فهو أن أهم أغراض الخلق مساة الأعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذيين مغمومين ، ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد ، وغاية أمان أعدائك أن يكونوا في نعمة وأن تكون في غم وحسرة بسبهم وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم ، ولذلك لا يشتهى عدوك موتك بل يشتهى أن تطول حياتك ولكن في عذاب الحسد تنتظر إلى نعمة الله عليه فيستطع قلبك حسدا . ولذلك قيل :

لامات أعداؤك بل خطوا حتى يروا فيك الذي يكمد  
لا ذلك محسودا على نعمة فإنما الكامل من يحسد

ففرج عدوك بنفسك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته ، ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكن ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده فما أنت فيما تلازمه من غم الحسد إلا كما يشتهيه عدوك ، فإذا تأملت هذا عرفت أنك عند نفسك وصديق عدوك إذ تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة . وصرت مغموما عند الخالق والخالق شقيا في الحال والمآل ، ونعمة المحسود دائمة شئت أم أبيت باقية ، ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرور على إبليس الذي هو أعدى أعدائك ، لأنه لما رآك محروما من نعمة العلم والورع والجاء والمال الذي اختص به عدوك عنك خاف أن تحب ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحبة ، لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكا في الخير ، ومن فاته اللحاق بدو الجماعة لا كابر في الدين لم يفت ثواب الجبيل مما أحب ذلك ، فتخاف إبليس أن تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحب فبغضه إليك حتى لا تلحقه بمحبك كما لم تلحقه بمملاك .

وقد قال أعرابي لابي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، فقال النبي صلى الله

عليه وسلم « المرء مع من أحب »<sup>(١)</sup> وقام أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ فقال « ما أعددت لها؟ » قال: « ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله، فقال صلى الله عليه وسلم « أنت مع من أحببت »<sup>(٢)</sup> قال أنس: « فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرهم يومئذ. إشارة إلى أن أكبر نبيتهم كانت حب الله ورسوله. قال أنس: « فحسن يحب رسول الله وأبا بكر وعمر ولا تعمل مثل عملهم ونرجو أن نكون معهم. وقال أبو موسى: « قلت يا رسول الله الرجل يحب المسلمين ولا يصلي ويجب الصوم ولا يصوم، حتى عد أشياء. فقال النبي صلى الله عليه وسلم « هو مع من أحب »<sup>(٣)</sup> وقال رجل لعمر بن عبد العزيز إنه كان يقال إن استطعت أن تكون طاماً، فإن لم تستطع أن تكون طاماً فكن متعلماً، فإن لم تستطع أن تكون متعلماً فأجهم، فإن لم تستطع فلا تبغضهم، فقال: سبحان الله لقد جعل الله لنا غرساً.

فانظر الآن كيف حسدك إبليس قوتك عليك ثواب الحب، ثم لم يقنع به حتى بنض إليك أعاك وحملك على الكراهة حتى أمت، وكيف لاوصاك تحسد رجلاً من أهل العلم وتحب أن يخطي في دين الله تعالى ويكشف خطؤه ليتضح « وتحب أن يخرس لسانه حتى لايتكلم أو يمرض حتى لايعلم ولا يعلم وأى إثم يزيد على ذلك؟ فليتك إذ فاك الحاق به ثم اغتممت بسببه سلمت من الإثم وعذاب الآخرة وقد جاء في الحديث « أهل الجنة ثلاثة المحسن والمحبة والكف عنه »<sup>(٤)</sup> أى من يكف عنه الآذى والحسد والبغض والكراهة.

فانظر كيف أبعدك إبليس عن جميع المداخل الثلاثة حتى لايتكون من أهل واحد منها آية، فقد تذهبك حسد إبليس وما فقد حسدك في عدوك بل على نفسك، بل لو كشفت بحالك في بقعة أو منام رأيت نفسك أيها الحاسد في صورة من يرى سهما إلى عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه بل يرجع إلى حذقه البني فيقتلها، فيزيد غصبه فيعود ثانية فيرى أشد من الأولى فيرجع إلى صته الأخرى فيمضيها، فزداد غيظه فيعود على رأسه فيشجعه وعدوه سالم في كل حال وهو إليه راجع مرة بعد أخرى، وأعداؤه حوله يفرحون به ويضحكون عليه. وهذا حال المحسود وسخريه الشيطان منه، بل حاله في الحسد أفجع من هذا لأن الرمية الماتمة لم تقوت إلا العيينين ولو بقينا لفاتنا بالموت لا حياة والحسد يعود بالإثم والإثم لاغوت بالموت، ولعله يسوقه إلى غضب الله وإلى النار، فلأن تذهب عينه في الدنيا خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار فيقتلها ليحب النار.

فانظر كيف انتقم الله من الحاسد إذ أراد زوال النعمة عن المحسود فلم يزلها عنه ثم أزالها عن الحاسد؛ إذ السلامة من الإثم نعمة والسلامة من الهم والكمد نعمة قد زالتا عنه تصديقاً لقوله تعالى « ولا يحيق المكر السوء إلا بأهله » وربما يتنيل بين ما يشبهه لعدوه، وقبلما يشمت شامت بمساءة إلا ويبتلي بمثلها، حتى قالت عاتقة رضي الله عنها: « ماتت لثمان شيئاً إلا نزل بي، حتى لو تمت له القتل لقتلت، فهذا إثم الحسد نفسه فكيف مايجر إليه الحسد من الاختلاف وجسود الحق وإطلاق اللسان واليد بالفواحش في التشنج من الأعداء؟ وهو الداء الذي فيه ملك الأمم السالفة.

فهذه هي الأدوات العلية فهما تفكر الإنسان فيها ينهن صاف وقلب حاضر اضطرابات نار الحسد من قلبه، وعلم

- (١) حديث: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، قال « هو مع من أحب » متفق عليه من حديث ابن مسعود
- (٢) حديث: سؤال الأعرابي متى الساعة؟ قال « ما أعددت لها ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس
- (٣) حديث أبي موسى: « قلت يا رسول الله الرجل يحب المسلمين ولا يصلي ... الحديث » وفيه « هو مع من أحب » متفق عليه من حديث بلقظ آخر مختصراً: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، قال « المرء مع من أحب »
- (٤) حديث « أهل الجنة ثلاثة: المحسن والمحبة والكف عنه » لم أجده إلا أصلاً.

أنه مهلك نفسه ومفرج عدوه ومسقط ربه ومنخص عيشه .

وأما العمل النافع فيه فهو أن يحكم الحسد فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه تقيضه ، فإن عمله الحسد على التذبح في محسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه ، وإن عمله على التشكر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه ، وإن بشه على كلف الإنعام عليه ألزم نفسه الزيادة في الإنعام عليه ؛ فبما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه ، وتولد من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد ، لأن التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المتعم عليه ويسترقه ويستعطفه ويصمله على مقابلة ذلك بالإحسان ، ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطلب قلبه ويصير ما تكلفه أولاً ؛ طبعاً آخره ولا يصدنه عن ذلك قول الشيطان له : لو تواضعت وأثيت عليه حملك العدو على العجز أو على التفاق أو الخوف وأن ذلك مثله ومهاة ، وذلك من خداع الشيطان ومكايده بل المجاملة - تكلفاً كانت أو طبعاً - تكسر سورة المداوة من الجاهنين وتقل مرغوبها وتعود القلوب التآلف والتحاب ، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض .

فهذه هي أدوية الحسد وهي نافعة جداً إلا أنها مرة على القلوب جداً ولكن النفع في الدواء المر . فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء ، وإنما تون مرارة هذا الدواء ؛ أعنى التواضع للأعداء والتقرب إليهم ، بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها وقوة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى وحسب ما أحبه ؛ وعزة النفس وترفعها عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جهل ، وعند ذلك يريد ما لا يكون ، إذ لا مطمع في أن يكون ما يريد وفوات المراد ذل وخسة ، ولا طريق إلى الخلاص من هذا الدلل إلا بأحد أمرين : إما بأن يكون ما تريد أو بأن تريد ما يكون ؛ والأول ليس إليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه . وأما الثاني ؛ فللمجاهدة فيه مدخل ، وتحصيله بالرياضة ممكن ، فيجب تحصيله على كل عاقل . هذا هو الدواء الكلي .

فأما الدواء المفصل : فهو تتبع أسباب الحسد من الكبر وغيره وعزة النفس وشدة الحرص على ما لا ينبغي - وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضع إن شاء الله تعالى - فإنها مواد هذا المرض ولا ينقزع المرض إلا بقمع المادة ، فإن لم تقمع المادة لم يحصل بما ذكرناه إلا تسكين وتخفيف ؛ ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء مواده ، فإنه مادام عيماً للجاء فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاء والمنزلة في قلوب الناس دونه ، ويقمه ذلك لأحالة ؛ وإنما غايته أن يهون الغم على نفسه ولا يظهر بلسانه ويده ، فأما الخلق عنه . رأساً فلا يمكنه والله الموفق .

### بيان التقدير الواجب في نقي الحسد من القلب

اعلم أن المؤذى عمقوت بالطبع ، ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالباً ، فإذا تميزت له نعمة فلا يمكنك أن لا تكرمها له حتى يستوى عندك حسن حال عدوك وسوء حاله ، بل لا تزال تدرك في النفس بينهما تفرقة ، ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له ، ولكن إن قوى ذلك فيك حتى يمتك على إظهار الحسد بقول أو فعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بأفعال الاختيارية فأنت حصود عاصي بحسدك ، وإن كفت ظاهرك بالسكينة إلا أنك بباطلك تحب زوال النعمة وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة فأنت أيضاً حصود طامس ، لأن الحسد صفة القلب لاصقة الفعل ، قال الله تعالى ( ولا يحسدون في صدورهم حاجة ما آوتوا ) وقال عز وجل ( ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكفرون سواء ) وقال ( إن تمسكم حسنة تؤم ) أما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن

الحسد وليس هو عين الحسد ، بل عمل الحسد القلب دون الجوارح . نعم هذا الحسد ليس مغالطة يجب الاستحلال منها بل هو معصية بينك وبين الله تعالى ، وإنما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح ، فأما إذا كفت ظاهرك وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تمقت نفسك على ما في طبيعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع ، فقد أدبت الواجب عليك ، ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا ، فأما تغيير الطبع ليستوى عنده المؤذى والمحسن ويكون فرسه أو غمه بما تيسر لهما من نعمة أو تعصب عليهما من بلية سواء ، فهذا ما لا يطالع الطبع عليه مادام ملتفتا إلى حظوظ الدنيا ، إلا أن يصير مستغرقا بحب الله تعالى مثل السكران الواله ، فقد انتهى أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد ، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة وهي عين الرحمة ، ويرى الكل عباداً لله وأفعاله أفعالا لله ، ويراهم مسخرين وذلك إن كان فهو كالبريق الخاطف لا يدوم ، ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبيعه ويعود العدو إلى تنازعه . أعنى الشيطان . فإنه يتنازع بالسوسة . فهما قابل ذلك بكراهته وألزم قلبه هذه الحالة فقد أدى ما كلفه . وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه لما روى عن الحسن أنه سئل عن الحسد فقال : غمه فإنه لا يضره ما لم يتبد . وروى عنه موقوفا ومرنوعا إلى النبي ﷺ أنه قال ثلاثة لا يعظمنهم المؤمن ولهم من عرج فمخرجه من الحسد أن لا يبغي ، والأولى أن يعمل هذا على ما ذكرناه من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل في مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو ، وتلك الكراهة تمنحه من البنى والإيذاء ، فإن جميع ماورد من الأخبار في ذم الحسد يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم ، ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لاعتن الأفعال . فكل من يحب إسائة مسلم فهو حاسد . فإذا كونه آثماً بمجرد حسد القلب من غير فعل هو في عمل الاجتهاد ، والأظهر ما ذكرناه من حيث ظواهر الآيات والأخبار ومن حيث المعنى ؛ إذ يعد أن يعنى عن العبد في إرادته إسائة مسلم واشتغاله بالقلب على ذلك من غير كراهة .

وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال ، أحدها : أن تحب مساآتهم بطبعك ، وتكره حبك لذلك وميل قلبك إليه بعقلك ، وتمقت نفسك عليه وتوددوا كانت لك حيلة في إزالة ذلك الميل منك ، وهذا مغفوقه قطعاً لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه .

الثاني : أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساآته إما بلسانك أو بجوارحك ، فهذا هو الحسد المحذور قطعاً .

الثالث : وهو بين الطرفين أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك . ومن غير إنكار منك على قلبك ، ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه ، وهذا في عمل الخلاف . والظاهر أنه لا يعظوا عن إثم بقدر قوة ذلك الحب وضغفه . والله تعالى أعلم بالحادثة رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل .



## كتاب ذم الدنيا

وهو الكتاب السادس من ربيع المملكات من

كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي عرف أوليائه غوائل الدنيا وآفاتنا ، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها ، حتى نظروا في شواهدنا وآياتنا ، ووزنوا بحسناتها سيئاتها فقبلوا أنه يريد منكها على معروفها ولا يبي مرجوها بمنعها ولا يسلم طلوها من كسوفها ، ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها ، ولها أسرار سوء فبأن تحلك الراغبين في وصالها ، ثم هي فرارة عن طلابها شحيحة بأيقالها ، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها ، إن أحصت ساعة أساءت سنة . وإن أساءت مرة جعلتها سنة ، فدوائر إقبالها على التقارب دائرة ، وتجارة بنينا غامرة باثرة ، وآفاتنا على التوالى لصدور طلابها واشتاق ، ومجاري أحوالها بذل طالبيها ناطقة . فكل مغرورها إلى الدل مصيره ، وكل متكبرها إلى التضر مسيره . شأنها الحرب من طالبها والطلب طارها ، ومن خلعها فاته ، ومن أعرض عنها واتته لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات ولا ينفك سرورها عن المنفضات ، سلامتها تعقب السقم ، وشبابها يسوق إلى الهرم ، ونعيمها لا يشمر إلا الحسرة والندم فهي خداعة مكررة ، وطيارة فرارة ، لا تزال تزين لطلابها ، حتى إذا صاروا من أحيائها ، كشرت لهم عن أنيابها وشوشت عليهم مناظم أسباها ، وكشفت لهم عن مكنون مجائنها ؛ فأذاقهم قوائل سامها ، ورشقتهم بصواب سهامها بينا أصحابها منها في سرور وإنعام إذ ولت عنهم كأنها أضغاث أحلام ، ثم صكرت عليهم بدواها فطعتهم طعن الحصيد ، ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد ، وإن ملكك واحدا منهم ما طلمت عليه الشمس جعلته حصيدا كأن لم ين بالأمس ، تمنى أصحابها سرورا وتعدم غرورا حتى ياملون كثيرا وينون قصورا ، تصبغ قصورهم قبورا وجمعهم بورا ، وسعيهم هباء منثورا ودعائهم ثورا ؛ هذه صفتها وكلنا أمر الله قدرا مقدورا . والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله المرسل إلى العالمين بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا ، وعلى من كل من أله وأصحابه له في الدين ظهيرا وعلى الظالمين نصيرا وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فإن الدنيا عدوة لله وعدوه لأوليائه الله وعدوه لأعداء الله . أما عداوتها لله : فإنها قطعت الطريق على عباد الله ، ولذلك لم ينظر الله إليهم منذ خلقها . وأما عداوتها لأوليائه الله عز وجل : فإنها تزيت لهم بزيتها وعشمت زهرتها ونضارتها حتى يجرحوا مرارة الصبر في مقاطعتها . وأما عداوتها لأعداء الله : فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها فالتصمت بشيكتها حتى وثقوا بها ، وعولوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها ، فاجتوا منها حسرة تقطع دونها الأكباد ، ثم مرهمهم السمادة أبد الآباد ، فهم على فراغها يتحصرون ومن مكابها يستغيثون ولا يغاثون ، بل يقال لهم ( أخشوا فيها ولا تكلمون أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعصرون ) .

وإذا عظمت غوائل الدنيا وشرورها فلا بد أولا من معرفة حقيقة الدنيا وما هي ؟ وما الحكمة في خلقها مع عداوتها ؟ وما مدخل غرورها وشرورها ؟ فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ويوشك أن يقع فيه . ونحن نذكر ذم

الدنيا وأمتلتها ، وحقيقتها وتفصيل معانيها ، وأصناف الأشغال المتعلقة بها ، ووجه الحاجة إلى أصولها ، وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها إن شاء الله تعالى . وهو المعين على ما يرضيه .

### بيان ذم الدنيا

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمتلتها كثيرة . وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة . بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يعيشوا إلا لذلك ، فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها ، وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها ، فقد روى أن رسول الله ﷺ مر على شاة ميتة فقال «أترون هذه الشاة ميتة على أهلها ؟» قالوا : «نأى» قال : «والذي نفسي بيده الدنيا أهون على القوم من هذه الشاة الميتة ولو كانت الدنيا تمسك عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء» (١) وقال ﷺ «الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر» (٢) وقال رسول الله ﷺ «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان فتنة» (٣) وقال أبو موسى الأشعري : قال رسول الله ﷺ «من أحب الدنيا هضر بآخرته ومن أحب آخرته هضر بدنياه فأثروا ما يبيح على ما يفي» (٤) وقال ﷺ «حب الدنيا رأس كل خطيئة» (٥) وقال زيد بن أرقم : كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فدعا بشراب فأتى بهاء وعسل ، فلما أدنا منه فيه بكى حتى أبكى أصحابه وسكتوا وما سكت ، ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسأله قال : ثم مسح عينيه فقالوا : يا غليظة رسول الله ما أبكاك ؟ قال : كنت مع رسول الله ﷺ فرأيت يدفع عن نفسه شيئا ولم أرمعه أحدا ، فقلت يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك ؟ قال «هذه الدنيا مثلك لي فقلت لها : إليك حتى تم رجعت فقالت : إنك إن فالت متى لم فلت متى من بعدك» (٦) وقال صلى الله عليه وسلم «يا عجبا كل العجب للصديق بدار الخلود وهو يسعى لدار الفناء» (٧) ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مزبة فقال «هلوا إلى الدنيا وأخذوا خرقا قد بليت على تلك المزبة وهظما قد فخرت فقال : هذه الدنيا» (٨) ، وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا متعلق مثل تلك الخرق وأن الأجسام التي ترى باستعصامها بالية . وقال صلى الله عليه وسلم «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فتنظروا كيف تعملون إن بني إسرائيل لما

### مكتاب ذم الدنيا

(١) حديث : مر على شاة ميتة فقال «أترون هذه الشاة ميتة على صاحبها ... الحديث» أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه إسناده من حديث سهل بن سعد وآخره عند الترمذي وقال حسن صحيح ، ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث السوردي بن شداد دون هذه النقطة الأخيرة ، ولمس نحوه من حديث جابر . (٢) حديث «الدنيا سجن للمؤمن ! وجنة للكافر» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٣) حديث «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها» أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي هريرة وزاد «إلا ذكر الله وما والاها وعالم ومتعلم» . (٤) حديث «حب الدنيا رأس كل خطيئة» أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا واليهيقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية الحسن مرملا . (٥) حديث زيد بن أرقم : كنا مع أبي بكر فدعا بشراب فأتى بهاء وعسل فلما أدنا منه فيه بكى حتى أبكى ... الحديث . وفيه : كنت مع رسول الله ﷺ فرأيت يدفع عن نفسه شيئا ... الحديث . أخرجه البزار بسند ضعيف بنحوه والحاكم وصححه إسناده وابن أبي الدنيا واليهيقي من طريقه بلفظه . (٦) حديث «يا عجبا كل العجب للصديق بدار الخلود وهو يسعى لدار الفناء» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي جرير مرملا . (٧) حديث : إنه وقف على مزبة فقال «هلوا إلى الدنيا ... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا واليهيقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية ابن ميمون اللخمي مرملا ، وفيه بقية بن الوليد وقد عتته وهو مدلس .

بسطت لهم الدنيا ومهدت ناهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب (١) » وقال عيسى السلام : لا تتخذوا الدنيا ربا فتخفكم عبيدا أكثروا كنزكم عند من لا ينفعه فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفو صاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة . وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : يامعشر الجوارين إلى قد كبت لكم الدنيا على وجهها فلا تشوها ببدى فإن من خبت الدنيا أن عصى الله فيها وإن من خبت الدنيا أن الآخرة لا تترك إلا بتركها ، ألا فاصبروا الدنيا ولا تصمروها واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ، ورب شهوة ساعة أورث أهلها حزنا ملويلا . وقال أيضا : بطعت لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا يثاؤعنكم فيها الملوك والنساء ، فأما الملوك فلا تنازعوم الدنيا فانهم لن يرضوا لكم ماتر كنوم ودينام ، وأما النساء فاثقومن بالهوم والصلاة . وقال أيضا : الدنيا طالبة ومطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يحصى الموت فيأخذ بعنقه . وقال موسى ابن يسار : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا وأنه متخلقها لم ينظر إليها (٢) » وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام مرقى موكية والطير تظله والجن والإنس عن يمينه وشماله قال : فرعباد من بني إسرائيل فقالوا والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكا عظيما ، قال فسمع سليمان وقال : لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود ، فإن ما أعطى ابن داود به هو التسبيحة تبقى . وقال صلى الله عليه وسلم « ألهاكم الشكائر يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالى إلا ما أكلت فأفقت أو لبست فألبيت أو صدقت فأبقيت (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا دار من لادار له ومال من لامل له ، ولها يجمع من لا عقل له ، وعليها يعادى من لا طبع له ، وعليها يحسد من لا فقه له ، ولها يسمى من لا يقين له (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أصبح والدنيا أكبر منه فليس من الله في شيء وأزعم الله قلبه أربع خصال : مما لا يتقطع عنه أبدا ، وشغلا لا يتفرغ منه أبدا ، وبوقرا لا يبلغ غناه أبدا ، وأملا لا يبلغ مثناه أبدا (٥) » وقال أبو هريرة : قال يارسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعا بما فيها ؟ قلت : بلى يارسول الله ، فأخذ يدي وأتى بي واديا من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها روس أناس وعذرات وخرق وعظام ، ثم قال « يا أبا هريرة هذه الروس كانت تحرم كهرصم وتأمّل كأملمكم ثم هي اليوم عظام بلاجله ثم هي صائرة رماذا ، وهذه العذرات هي ألوان أطعمتهم كتبوها من حيث كتبوها ثم قد فرما في بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية كانت رباشهم ولباسهم فأصبحت والزايح تصفقا ، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا يتجمعون عليها أطراف البلاد ؛ فن كان يا كيا على الدنيا فليكن : قال : فما ربحتنا حتى اشتد بكؤنا (٦) » ويروى أن الله عز وجل لما أبعث آدم إلى الأرض قال له : ابن الخراب ولد للفناء

(١) حديث « إن الدنيا حاوة خضرة وإن الله مستخفكم فيها فانظر كيف تصلون ... الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد دون قوله « إن بني إسرائيل ... الخ » والشرط الأول متفق عليه ورواه ابن أبي الدنيا من حديث الحسن مرسلًا بزيادة التي في آخره . (٢) حديث موسى بن يسار « إن الله جل ثناؤه لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها » أخرجه ابن أبي الدنيا من هذا الوجه بلاه والبيهقي في الشعب من طريقه وهو مرسل . (٣) حديث « ألهاكم الشكائر يقول ابن آدم مالى مالى ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن الشخير . (٤) حديث « الدنيا دار من لادار له ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث عائشة مقصرا على هذا وعلى قوله « ولها يجمع من لا عقل له » دون بقية وزاد ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه « ومال من لامل له » وإسناده جيدا . (٥) حديث « من أصبح والدنيا أكبر منه فليس من الله في شيء وأزعم الله قلبه أربع خصال ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر دون قوله « ألزم الله قلبه ... الخ » وكذلك رواه ابن أبي الدنيا من حديث أنس بإسناد ضعيف والحاكم من حديث حذيفة وروى هذه الزيادة منفردة صاحب الفردوس من حديث ابن عمر وكلاهما ضعيف . (٦) حديث أبي هريرة « ألا أريك الدنيا جميعا بما فيها » قلت : بلى يارسول الله فأخذ يدي وأتى بي واديا من أودية المدينة فلما مزبلة ... الحديث لم أجده أصلا .

وقال داود بن حلال مكتوب في مصحف إبراهيم عليه السلام : يادنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت وترزقت لهم ، إن قدفت في قلوبهم بنضك والصدود عنك وما خلقت خلقا أهون على منك ، كل شأنك صغير وإلى الغناء بصير قضيت عليك يوم خلقتك أن لاتموتى لأحد ولا يلوم لك أحد ، وإن يجلب بك صاحبك وشح عليك ، طوبى للأبرار الذين أطلعتني من قلوبهم على الرضا ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة ، طوبى لهم ما لهم عندى من الجزاء إذا وفدوا إلى من يقودهم إلا النور يسمى أمامهم والملائكة سافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتي . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدنيا موقوفة بين السماء والأرض ، منذ خلقها الله تعالى لم ينظر إليها ، وتقول يوم القيامة يارب اجسني لأدنى أولياك اليوم نصيبا فيقول اسكني يا الله . إن لم أرضك لهم في الدنيا أرضاك لهم اليوم» (١) وروى في أخبار آدم عليه السلام أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته فخرج التفل ، ولم يكن ذلك جمولا في شيء من ألعمة الجنة إلا في هذه الشجرة فلذلك نهيها عن أكلها ، قال ليجلب يدور في الجنة ، فأمر الله تعالى ملكا بخاطبه فقال له : قل له أي شيء تريد ؟ قال آدم : أريد أن أضع ماني بطي من الأدنى ، فقبل الملك : قل له في أي مكان تريد أن تضعه أعلى الفرس أم على السرور أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار هل ترى ههنا مكانا يصلح لذلك ؟ أبعث إلى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم « ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار » قالوا يا رسول الله مصلين ؟ قال « نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخضون عنة من الليل فإذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه « المؤمن بين عاقبتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيهن وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه ؟ فليتود العبد من نفسه لنفسه من دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن شبابه لهرمه فإن الدنيا خلقت لكم وأتمت خلقتكم للأخرة ، والذي قضى يله ما بعد الموت من مستحب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار» (٣) وقال عيسى عليه السلام : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماسو النار في إناء واحد . وروى أن جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام : يا أطول الأنبياء عمرا كيف وجدت الدنيا ؟ فقال : كدار لما بآبى دخلت من أحدها وخرجت من الآخر . وقيل لعيسى عليه السلام : لو اتخذت بيتا يكثر لك ؟ قال : يكفيني خلقان من كان قبلنا . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت» (٤) وعن الحسن : قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فقال « هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العنى ويجمعه بصيرا ؟ ألا إنه من رغب في الدنيا وطال أمه فيها أعنى الله قلبه على قدر ذلك ، ومن زهد في الدنيا وقصر فيها أمه أعطاه الله علما بغير تعلم ، وهدى بغير هداية ، ألا إنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ، ولا العنى إلا بالفقر والبخل ، ولا المحبة إلا باتباع الهوى ، ألا فإن أدرك ذلك الزمان منكم فمصر على الفقر وهو يقدر على العنى ، ومصر على البغضاء وهو يقدر على المحبة . وصبر على الذل وهو يقدر على العز لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صديقا» (٥) وروى أن عيسى عليه السلام اشتد عليه المطر والرعد

- (١) حديث « الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله لا ينظر إليها ... الحديث » تقدم بضمه من رواية موسى بن يسار مرسلا ولم أجد باقيه . (٢) حديث « ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث سالم مولى أبي حذيفة بسند ضعيف وأبو منصور الديلمي من حديث أنس وهو ضعيف أيضا . (٣) حديث « المؤمن بين عاقبتين بين أجل قد مضى ... الحديث » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن من رجل من أصحاب النبي ﷺ وفيه إهطاع . (٤) حديث « احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت » أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من رواية أبي الدرداء الراوى مرسلا وقال البيهقي إن بعضهم قال عن أبي الدرداء عن رجل من الصحابة قال لنبى لا يدري من أبو الدرداء قال هذا منكر لا أصل له . (٥) حديث الحسن « هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العنى ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه هكذا مرسلا وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم .

والبرق وما فصل يطلب شيئاً بلجاً إليه فوصت عينه على خيمة من بعيد ، فأناها فإذا فيها امرأة فحادهما ، فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال : ألمي جعلت لكل شيء ما يرى ولم تجعل لي ما يرى ؛ فأوحى الله تعالى إليه : ما أراك في مستقر رحمتي لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتن بيدي ، ولا تعلمن في عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كمر الدنيا ، ولأمرن منادياً ينادي أين الزهاد في الدنيا زوروا عرس الزاهد في الدنيا عيسى ابن مريم .

وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها وما فيها ، وتفره ويأمنها ، ويثق بها وتعفله ، ويويل للفترين كيف أرتهم ما يكرهون وفارقهم ما يحبون وجاهد ما يوعدون ؛ ويويل لمن الدنيا همه والخطايا عمله كيف يفتضح غدا بذنبه ؟ وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام « يا موسى مالك ولدار الظالمين إنما ليست لك بدار أخرج منها مالك وفارقها بعقلك ، فبئست الدار هي إلا لامل يعمل فيها فصمت الدار هي ، يا موسى إن مرصد الظالم حتى أخذ منه اللطوم » وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح فيما بهال من البحرين ، فسمعت الأنصار يقدمون أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف فعرضوا له ، فبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ثم قال « أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء » قالوا : أجل يا رسول الله ، قال « فأبشروا وأملوا ما يبركم فوفاة ما الفقر أنشئ عليكم ولكني أنشئ عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها قبلكم كما أمركم » (١) .

وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض » فقيل ما بركات الأرض ؟ قال « زهرة الدنيا » (٢) . وقال صلى الله عليه وسلم « تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا » (٣) فهي عن ذكرها تفلا عن إصابة عينا .

وقال عمار بن سعيد : مر عيسى عليه السلام بقرية فإذا أهلها موق في الأفياء والطرق ، فقال : يا معشر الحوارين إن هؤلاء ماتوا عن سخطه ولو ماتوا عن غير ذلك لتنافوا فقالوا : يا روح الله ودنا أن لو علمنا خبرهم . فقال الله تعالى فأوحى إليه إذا كان الليل فتأدهم بمحبوك . فلما كان الليل أشرف على نثرهم نادى : يا أهل القرية فأجابه مجيب لبيك يا روح الله : فقال : ما حالكم وما قسمكم ؟ قال بئنا في عافية وأصبنا في الهاوية ، قال : وكيف ذاك قال : بيننا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصي ، قال : وكيف كن حبيكم للدنيا ؟ قال : حب الصبي لأمه إذا أقيلت فرحنا بها وإذا أدبرت حزنا وبكينا عليها ، قال : فبالأصحابك لم يحبوني ؟ قال : لأنهم لم يجمعوني بلجهم من نارياً بيدي ملائكة فلا ظشدد ، قال : فكيف أجبتني أنت من بينهم ؟ قال : لأن كنت فيهم ولم أكن منهم ، فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم ، فأنما ملحق على شفير جهنم لأدري أنهم منها لم أكجب فيها ؟ فقال المسيح للحواريين : لآكل خبز الشمر بالملح الجريش وليس المسوح والثوم على المزابيل كثير مع حافية الدنيا والآخرة . وقال أنس : كانت ناقة رسول الله ﷺ الضياء لتسبق فيأه أمراني بئانه فسبقها ، فحق ذلك على المسلمين فقال ﷺ « إنه حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه » (٤) قال عيسى عليه السلام : من الذي يبنى على موج البحر داراً ؟ تلكم الدنيا فلا

(١) حديث : بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بهال من البحرين فسمعت الأنصار يقدمون أبي عبيدة ، متفق عليه من حديث عمرو بن عوف البصري . (٢) حديث أبي سعيد « إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض ... الحديث » متفق عليه . (٣) حديث « لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا » أخرجه البيهقي في الشعب من طريق ابن الدنيا من رواية محمد بن النضر الحارثي مرسل . (٤) حديث أنس : كانت ناقة رسول الله ﷺ الضياء لتسبق فيأه أمراني بئانه فسبقها ، فحق ذلك على المسلمين فقال ﷺ « إنه حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه » أخرجه البخاري

تخلفوها قراراً . وقيل لعيسى عليه السلام : علمنا علماً واحداً يحبنا الله عليه ، قال : ابتغوا الدنيا بحبكم الله تعالى . وقال أبو الدرداء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولهانت عليكم الدنيا ولأترتم الآخرة »<sup>(١)</sup> ثم قال أبو الدرداء — من قبل نفسه — لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصدقات تجارون وتكون على أنفسكم ، ولتركن أموالكم لا حارس لها ولا راجع إليها إلا ما لا بد لكم منه ، ولكن ينبغي عن قلوبكم ذكر الآخرة ، وحضرها الأمل فصارت الدنيا أملك بأعمالكم ، وصرت كالأدنين لا يعلمون فيعصمكم شر من الهائم التي لا تدع هواها غفلة عما في عاقبتها ، مالكم لا تحاجون ولا تناصحون وأنتم إخوان على دين الله ما فرق بين أهوائكم إلا خبت سرائركم ، ولو اجتمعتم على البر لتحاببتم ، مالكم تتاحسون في أمر الدنيا ولا تناصحون في أمر الآخرة ؟ ولا مملك أحدكم النصيحة لمن يحبه ويعينه على أمر آخره ، ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم ، لو كنتم توفقون بخير الآخرة وشرها كما توفقون بالدنيا لأترتم طلب الآخرة لأنها أملك لأموركم .

فإن قلتم : حسب الساجدة غالب ؟ فإننا إنكم تدعون الساجدة من الدنيا للأجل منها ، تسكنون أنفسكم بالمشقة والاحتراف في طلب أمر لعلكم لا تدركوه ، فيفس القوم أنتم ما حققت إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم ! فإن كنتم في شك مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فالتفتوا لثنتين لكم ولزركم من الثور ما تطلعن إليه قلوبكم ، والله ما أنتم بالمتفوسه عقولكم فتعلمونكم إنكم تستببون صواب الرأي في دنياكم وتأخذون بالخزم في أموركم ، مالكم تفرحون باليسير من الدنيا تقيسونه وتخزون على اليسير منها يفوتكم ، حتى يبين ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم ، وتسمونها المصائب وتقيمونها فيها المصائب ، وعانكم قد تركوا كثيراً من دينهم ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم ولا ينفير حالكم ، إن لاري الله قد بئرا منكم يلقي بضعكم بعضاً بالسرور ، وكلكم بكراً أن يستقبل صاحبه بما يكره غفلة أن يستقبله صاحبه بمثله فاصطحبتم على الغل ونفقت مراعيتكم على الدمن وتضافتم على رفض الأجل ، ولوددت أن الله تعالى أراخي منكم وأخفي بين أحب رؤيته ولو كان حياً لم يصايركم ، فإن كان فيكم خير فقد أتممتكم وإن تطلبا ما عند الله يجهده سيرا ، وباقه أستعين على نفسي وعليكم . وقال عيسى عليه السلام : يا معشر الحوارين ارضوا بذنوب الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بذنوب الدين مع سلامة الدنيا . وفي معناه قيل :

أرى رجلاً بأذن الدين قد فتعوا وما أراهم رضوا في العيش بالدن

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال عيسى عليه السلام : يا طالب الدنيا لئب تركك الدنيا أمر . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « لتأتينكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب »<sup>(٢)</sup> وأوصى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : يا موسى لا تركن إلى حب الدنيا فلن تأتيني بكبرة هي أشد منها . وموسى عليه السلام يرحل وهو يبكي ورجع وهو يبكي ، فقال موسى : يا رب صدك بي من عاقبتك فقال : يا ابن عمران لو سال هماغه مع دموع عينيه ورفع يديه حتى يسقط لم أغفر له وهو يحب الدنيا .

الآثار : قال علي رضي الله عنه : من جمع فيه ست خصال لم يدع الجنة مطلباً ولا عن النار مهرباً ، أولها : من

(١) حديث أبي الدرداء « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولهانت عليكم الدنيا ولأترتم الآخرة » أخرجه الطبراني دون قوله « ولهانت ... الخ » وزاد « ولخرجتم إلى الصدقات ... الحديث . وزاد الترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر « وما تلذذتم بالنساء على الفراش » وأول الحديث متفق عليه من حديث أنس وفي أفراد البخاري من حديث عائشة .

(٢) حديث « لتأتينكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب » لم أجده إلا أصلاً .

عرف الله فأطاعه ، وعرف الشيطان فمصاه ، وعرف الحق فاتبعه ، وعرف الباطل فأتاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها . وقال الحسن : رحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم وديعة فأدوها إلى من اتهمهم عليها ، ثم راحوا خفافا . وقال أيضا رحمه الله : من نافلك في دينك فتنافسه ومن نافلك في دنياك فأتتها في نحره . وقال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينةك فيها تقوى الله عز وجل ، وحشوها بالإيمان بالله تعالى ، وشراعها التوكل على الله عز وجل ؛ لذلك تجو وما أدراك ناجيا . وقال الفضيل : طالت فكرتي في هذه الآية ( إنا جعلنا ما على الأرض دينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا ) وقال بعض الحكماء : إنك لن تصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك وسيكون له أهل بعدك ، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغداء يوم ، فلا تهلك في أكله ، وضم من الدنيا وأطهر على الآخرة ، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربها النار . وقيل لبعض الرهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال : يخلق الأبدان ويمجد الآمال ويضرب المنته ويبعد الأمنية ، فما حال أهله ؟ قال : من ظفر به تمسب ومن فاته نصب . وفي ذلك قيل :

ومن يحمدا الدنيا ليمش يسره      فسوف لعمري عن قليل يلومها  
إذا أدبرت كانت على المرء حسره      وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها وتذهب الدنيا ولا أكون فيها فلا أسكن إليها فإن عيشنا نكد وصغرها كدر وأهلها منها على وجل ؛ إما بشمعة زائلة أو ليلة نازلة أو مية قاضية . وقال بعضهم من سبب الدنيا أنها لا تملأ أحدا ما يستحق ، لكنها إما تزيد وإما أن تنقص . وقال سفيان : أما ترى النعم كأنها منضوب عليها قد وضعت في غير أهلها . وقال أبو سليمان الدرائي : من طلب الدنيا على المحبة لما لم يعط منها شيئا إلا أريد أكثر ومن طلب الآخرة على المحبة لما لم يعط منها شيئا إلا أراد أكثر ، وليس لهذا غاية ؛ وقال رجل لابن حازم : أشكو إليك حب الدنيا وليس لي بدار . فقال : انظر ما آتاك الله عز وجل منها فلا تأخذ إلا من حله ولا تضعه إلا في حقه . ولا يصرك حب الدنيا . وإنما قال هذا لأنه لو أخذ نفسه بذلك لآتبعه حتى يبرم بالدنيا ويطلب الخروج منها وقال يحيى بن معاذ : الدنيا حاوت الشيطان ، فلا تسرق من حائوه شيئا فيجبي . فطلبه قبا أخذك . وقال الفضيل : لو كانت الدنيا من ذهب يفتى والآخرة من خوف يبق ؛ لكان ينبغي لنا أن نختار خروفا يبق على ذهب يفتى . فكيف وقد اخترنا خروفا يفتى على ذهب يبق ؟ وقال أبو حازم : إياكم والدنيا فإنه يفتى أنه يوقف العيد يوم القيامة إذا كان معظما الدنيا فيقال : هذا ظلم محقره الله . وقال ابن مسعود : ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف وماله دابة فالضيف مرتحل والمارة مردودة . وفي ذلك قيل :

وما المسال والأهلون إلا ودائع      ولابد يوما أن ترد الودائع

وزار رابعة أصحابها ؛ فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها ، فقالت : استكثروا عن ذكرها فلو لموقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها ، ألا من أحب شيئا أكثر من ذكره . وقيل لإبراهيم : كيف أنت ؟ فقال :

ترفع دنياك بتعزيق دينك      فلا دينك يبق ولا مائترة  
فطوي لعبد أثر الله به      وجاد بدنيته لما يتوقع

وقيل أيضا في ذلك :

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره      وتال مال الدنيا سرور أو أنما

كبان . بنى بنيانه فأقامه قلما استوى ما قد بناء تهما  
وقيل أيضاً في ذلك :

هب الدنيا تساق إليك هفوا أليس مصير ذلك إلى انتقال  
وما دنياك إلا مثل فيه أظلك ثم آذن بالزوال

وقال لقمان لابنه : يا بني بع دنياك بأخرك ترحبهما جميعاً ، ولا تبع أخرك بدينك تخسرهما جميعاً . وقال  
مطرف بن الشخير : لا تنظر إلى خفض عيش الملوك ولين وياشهم ، ولكن انظر إلى سرعة طعنهم وسوء منقلبهم .  
وقال ابن عباس : إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء : جزء للؤمن ، وجزء للنافق ، وجزء للكافر . فالؤمن  
يزود ، والنافق يترين ، والكافر يتمنع . وقال بعضهم : الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئاً فليصبر على معاينة  
الكلاب ، وفي ذلك قيل :

ياغاطب الدنيا إلى نفسها تتع عن خطبتها تلم  
إن التي تعطب عذاره قرية العرس من الماتم

وقال أبو الدرداء : من هوان الدنيا على الله أنه لا يصح إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها . وفي ذلك قيل :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن علو في ثياب صديق  
وقيل أيضاً :

ياراقد الليل سروراً بأوله إن الحوادث قد يطرطن أسعارها  
أفنى القرون التي كانت منعمة كد الكديدين إقبالا وإدبارا  
كم قد بادت حروف الدهر من ملك قد كان في الدهر قناعا وضاررا  
يا من يماق دنيا لا يقاء لها يمس ويصبح في دنياه سفارا  
هلا تركت من الدنيا معاينة حتى تماق في الفردوس أهكارا  
إن كنت تبني جنان الخلد تسكنها فينبغي لك أن لا تأمن النارا

وقال أبو أمامة الباهلي رضى الله عنه : لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أنت إبليس جنوده فقالوا : قد بعث نبى  
وأخرجت أمة ، قال : يحبون الدنيا ؟ قالوا نعم ، قال : لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالي أن لا يعبدوا إلاوثان ،  
ولئنما أعندو عليهم وأرواح ثلاث : أخذ المال من غير حقه ، وإتقائه في غير حقه ، وإمساكه عن حقه ، والشر كله  
من هذا ينبع . وقال رجل لملى كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا ، قال : وما أصف لك من دار من  
صح فيها سقم ، ومن أمن فيها ندم ، ومن اقتر فيها حزن ، ومن استغنى فيها افتقار ، في حلالها الحساب ، وفي حرامها  
العقاب ، ومتشابها العتاب . وقيل له ذلك مرة أخرى فقال : أطول أم أقصر ؟ فقيل : قصر فقال : حلالها حساب ،  
وحرامها عذاب . وقال مالك بن دينار : اتقوا السمارة فإنها تسحر قلوب العلماء بعنى الدنيا . وقال أبو سليمان  
الداراني : إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تراحمها ، فإن كانت الدنيا في القلب لم تراحمها الآخرة ، لأن الآخرة  
كرامة والدنيا لثيمة . وهذا تشديد عظيم ونرجو أن يكون ما ذكره سياربين الحكم أمم ، إذ قال : الدنيا والآخرة  
يختصمان في القلب فأيهما غلب كان الآخر تبعاً له . وقال مالك بن دينار : بقدر ما تحزن الدنيا يخرج هم الآخرة من  
قلبك ، وبقدر ما تحزن الآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك . وهذا اقتباس بما قاله على كرم الله وجهه حيث قال : الدنيا



والآخرة ضرطان يفقد ما ترضى إحداها تسخط الأخرى . وقال الحسن : والله لقد أدركت أفواما كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه ، ما يبالون أشرفت الدنيا أم غربت ، ذهب إلى ذا أو ذهب إلى ذاك ؟ وقال رجل الحسن : ما تقول في رجل أناه الله مالا فهو يتصدق منه ويصل منه أيسن له أن يعيش فيه ؟ يعني يتنعم . فقال : لا ، لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف وقدم ذلك ليوم فتره . وقال الفضيل : لو أن الدنيا بمخافيرها عرضت على حلالا لا أحاسب عليها في الآخرة لكنت أقدرها كما يقدر أحدكم الحليفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه

وقيل : لما قدم عمر رضى الله عنه الشام فاستقبله أبو صبيدة بن الجراح على ناقه مخطومة بحبل ، فسلم وسأله ، ثم أتى منزله فلم يرفيه إلا سيفه وقرسه ورحله فقال له عمر رضى الله عنه : لو اتخفت متاعا؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا يبلتنا المقييل . وقال صفيان : خذ من الدنيا لبدتك وخضعن الآخرة لتقلبك . وقال الحسن : والله لقد صيدت بشواسر أربل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم الدنيا . وقال وهب : قرأت في بعض الكتب : الدنيا غنيمة الأكياس وغفلة الجهال لم يعرفوها حتى خرجوا منها ، فساءلوا الرجعة فلم يرجعوا . وقال لقمان لابنه : يا بني إنك استدرت الدنيا من يوم نزلت واستقبلت الآخرة فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها . وقال سعيد بن مسعود : إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتقص آخرته وهو به راض فذلك المغبون الذي يلعب بوجهه وهو لا يشعر . وقال عمرو بن العاص على المنبر : والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهد فيه منكم ، والله ما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث إلا والذى عليه أكثر من الذى له (١)

وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى ﴿ فلا تفرنكم الحياة الدنيا ﴾ من قال ذا ؟ قاله من خلقها ومن هو أعلم بها ، إياكم وما شغل من الدنيا فإن الدنيا كثيرة الأشغال ، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب . وقال أيضا : مسكن ابن آدم رضى بدار حلالة حساب وحرامها عذاب ، وإن أخذه من حله حوسب به وإن أخذه من حرام عذب به ، وابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله ، يفرح بمصيبته فيدينو بجزع من مصيبته في دنياه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز : سلام عليك ، أما بعد . فكانك بأخر من كتب عليه الموت قد مات فأجابه عمر : سلام عليك ، كأنك بالدنيا ولم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل . وقال الفضيل بن عياض : الدخول في الدنيا هين ولكن الخروج منها شديد . وقال بعضهم : عجب لمن يعرف أن الموت حق كيف يفرج ؟ وعجب لمن يعرف أن النار حق كيف يضحك ؟ وعجب لمن رأى قلب الدنيا بأهلها كيف يطمئن إليها ؟ وعجب لمن يعلم القدر حق كيف ينصب ؟

وقدم على معاوية رضى الله عنه رجل من محران عمره ما تأسه فسأله عن الدنيا كيف وجدتها؟ فقال : سنيات بلاء وسنيات رخاء ، يوم يقوم ولية قليلة يولد ويهلك ماله ، فلو لا المولود لباد الخلق ولو لا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها فقال له : سل ما شئت ، قال : عمر مضى فتره أو أجل حضر فدفنه ، قال : لا مملك ذلك ، قال : لا حاجة لي إليك . وقال داود الطائي رحمه الله : يا ابن آدم فرحت بيلوخ أملك وإنما بانيته باقتضاء أجلك ، ثم سوف بعملك كل منفعة لتفرك . وقال بشر : من سأل الله الدنيا قائما يسأله طول الوقوف بين يديه . وقال أبو حازم : ما في الدنيا شيء يترك إلا وقد ألصق الله إليه شيئا يسوك . وقال الحسن : لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث : أنه لم يشبع بما جمع ، ولم يدرك ما أمل ، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه . وقيل لبعض العباد : قد نلت الفنى ، فقال : إنما نال الفنى من أعنى من ريق الدنيا .

(١) حديث عمرو بن العاص : والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله ﷺ يهد فيه منكم . . . الحديث . أخرجه الحاكم وصححه ورواه أحمد وابن حبان بنحوه .

وقال أبو سليمان : لا يصبر عن شوائب الدنيا إلا من كان في قلبه ما يشفه بالآخرة . وقال مالك بن دينار : اصطالحنا على حب الدنيا فلا يأمر بعضنا بعضا ولا ينهى بعضنا بعضا ، ولا يدعنا الله على هذا ، فليت شعري أي عذاب الله ينزل علينا ؟ وقال أبو حازم : يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة . وقال الحسن : آمينوا الدنيا فوالله ما هي لأحد بأهنا منها من أهانتها . وقال أيضا : إذا أراد الله بعد خيرا أعطاه من الدنيا عطية ثم يمسه ، فإذا نفذ أمد عليه ، وإذا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطا . وكان بعضهم يقول في دعائه : يا ممسك السبل أن تقع على الأرض إلا بإذتك أسكن الدنيا عني . وقال محمد بن المنكسر : أرايت لو أن رجلا صام الدهر لا يقطر ، وقام الليل لا ينام ، وتصدق بماله ، ويجاهد في سبيل الله ، واجتنب حرام الله ، غير أنه يؤتى به يوم القيامة فيقال : إن هذا عظم في عينه ما حفره الله ، وصرفه الله ، وصرف في عينه ما عظمه الله كيف ترى يكون حاله ؟ فمن مثاليس هكذا الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترنا من الذنوب والخطايا ؟

وقال أبو حازم : اشتدت مؤنة الدنيا والآخرة فانك لا تجد عليها أعوانا ، وأما مؤنة الدنيا فانك لا تضرب بيدك إلى شيء منها إلا وجدت فاجرا قد سبقك إليه . وقال أبو هريرة : الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالثمن البالي تاتى بها منذ خلقها إلى يوم يفتنها : يارب يارب لم تبغضني ؟ فيقول لها : اسكني يا لاشيء . وقال عبد الله بن المبارك : حب الدنيا والذنوب في القلب قد احتوت ، فتى يصل الخير إليه ؟ وقال وهب بن منبه : من فرح قلبه بشيء من الدنيا فقد أخطأ الحكمة ، ومن جمل شهوته تحت قميصه فرق الشيطان من ظله ، ومن غلب عليه هواه فهو اتعاف . وقيل لبشر : مات ملان فقال : جمع الدنيا ونهب إلى الآخرة ، ضيع نفسه . قيل له : إنه كان يفعل ويفعل - وذكروا أربابا من البر - فقال : وما ينفذ هذا وهو يجمع الدنيا ؟ وقال بعضهم : الدنيا تبغض إلينا نفسها ونحن نحبا فكيف لو تحببت إلينا ؟ وقيل لحكيم : الدنيا لمن هي ؟ قال : لمن تركها ؟ فقيل الآخرة لمن هي ؟ قال : لمن طابها وقال حكيم : الدنيا دار غراب وأغرب منها قلب من يصرها ، والجنة دار عمران وأعمرها قلب من يطلبها .

وقال الحميد : كان الشافعي رحمه الله من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدنيا ، وعظ أخاه في الله وخوفه بالله فقال : يا أخي إن الدنيا حصن مؤلة ودار مذلة ، عمرانها إلى الخراب صائر ، وساكنها إلى القبور زائر ، شغلها على الفرة موقوف ، وغناها إلى الفقر مصروف ، الإكثار فيها إفسار ، والإعصار فيها يسار ، فانزع إلى الله وأرض برزق الله لا تنسلف من دار فتناك إلى دار فتناك ، فان حبشك في ذائل وجدار مائل ، أكثر من عمالك وأقصر من أمالك

وقال إبراهيم بن آدم لرجل : أدرم في المنام أحب إليك أم دينار في اليقظة . فقال دينار في اليقظة فقال : كذبت ، لأن الذي تحبه في الدنيا كأنك تحبه في المنام ، والذي لا تحبه في الآخرة كأنك لا تحبه في اليقظة . وعن إسماعيل بن عياش قال : كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة فيقولون إليك عنايا خنزيرة ، فلو وجدوا لها اسماء قبيح من هذا لسموها به . وقال كعب : لتجبن إليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها . وقال يحيى بن مازاد الرازي رحمه الله : العقلاء ثلاثة ؛ من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبني قبره قبل أن يدخله ، وأرضى خالفه قبل أن يلقاه . وقال أيضا : الدنيا بلغ من شؤمها أن تمسكك لما يلهيك عن طاعة الله ، فكيف الوقوع فيها ؟ وقال بكر بن عبد الله : من أراد أن يستغنى عن الدنيا بالدنيا كان كطفيء النار بالبن . وقال بندار : إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون في الزهد فاعلم أنهم في سخرة الشيطان . وقال أيضا : من أقبل على الدنيا أحرقت نيرانها - يعني الحرص - حتى يصير رمادا ، ومن أقبل على الآخرة صفته بنيرانها فصار سيده كذهب يتفزع به ، ومن أقبل على الله عز وجل أحرقت نيران التوحيد فصار جوهرا لأحد لقيته . وقال علي كرم الله وجهه : إنما الدنيا ستة أشياء ؛ معلوم ومشروب وملبوس ومركوب

ومتكح ومشموم ؛ فأشرف المظومات العسل وهو مذقة ذباب ، وأشرف المشروبات الماء ويستوى فيه السمر والفاجر ، وأشرف اللبوسات الحرير وهو نسج دودة ، وأشرف المركبات القوس وعليه يقتل الرجال ، وأشرف المشكولات المرأة وهي مبال في مبال ؛ وإن المرأة لتزين أحسن شيء منها ويراد أقبح شيء منها ، وأشرف المشومات المسك وهو دم .

### بيان الموعظة في ذم الدنيا وصفتها

قال بعضهم : يا أيها الناس اعملوا على مهل ، وكونوا من الله على وجل ، ولا تنفروا بالأمل ونسيان الأجل ، ولا تركوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة ، قد ترغبت لكم بمرورها وتحتكم بأمانها ، وتزينت لخطاياها فأباحت كالمرس المجلية ، العيون إليها ناظرة والقلوب عليها طاكفة والنفوس عاشقة ، فكم من عاشق لها قتل ، ومطعم لها غذلت ، فافظروا إليها بين الحقيقة فإنها دار كثير يرواقتها وذيها عالقها ، جديها ييل ، وملكها يفي ، وعزها يذل ، وكثيرها يذل ، ودعا يموت ، وغيرها يفوت ، فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم ، واتقوا من رقدتكم قبل أن يقال إن فلان عليل أو مدنف قليل ، فهل على النواء من دليل ؟ وهل إلى الطبيب من سبيل ؟ فتدعى لك الأطباء ولا يرجى لك الشفاء ثم يقال إن فلان أوصى وولاه أحس ، ثم يقال قد قتل لسانه فما يكلم إخوانه ولا يعرف جيرانه ، وعرق ذلك عند جيتك ، وتابع أثنيك ، وثبت يمينك ، وطمعت جفونك ، ومدت ظنوك ، وتلجلج لسانك وبكى إخوانك ، وقيل لك هذا ابنك فلان ، وهذا أخوك فلان ؛ ومنعت من الكلام فلا تتلق ، وختم على لسانك فلا يطلع ، ثم حل بك القضاء وانزعقت نفسك من الأعضاء ثم عرج بها إلى الهلاك ، فاجتمع عند ذلك إخوانك وأحضر أكفانك ، فسلوك وكفنوك ، قاطع حوادك واستراح حسادك ، وانصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مرتبتنا بأعمالك . وقال بعضهم لبعض الملوك : إن أحق الناس بدم الدنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطى حاجته منها ، لأنه يتوقع آفة تمدو على ماله فتجتاحه أو على جسمه فضربه ، أو تأتى سلطانه فتهدمه من القواعد ؛ أو تدب إلى جسمه فتقسه ، أو تعجبه بشيء هو ضيق به بين أحبابه ؛ فالدنيا أحق بالدم ، هي الآخرة تعطى ، الراجعة فيما تهب ، بينما هي تضحك صاحبا إذ أضحكك منه غيره . وبينما هي تبكي له إذ أبكت عليه ، وبينما هي تبسط كنفها بالإصلاح إذ بسطها بالاسترداد ، فتمتد التاج على رأس صاحبها اليوم وتمزقه بالتراب غدا ؛ سواء عليها ذهاب مذهب وبقاء ما بقي ، تجد في الباقي من الذاهب خلفا ، وترضى بكل من كل بدل . وكتب أبو الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز . أما بعد ، فإن الدنيا دار ظنن ليست بدار إقامة ؛ وإنما أتزل آدم عليه السلام من الجنة إليها عقوبة ، فأخبرها يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها إلى تركها ، والغنى منها فقرها ، لها في كل حين قاتل ، تلد من أعرها ، وتفقر من جمها ، وهي كالم يأكله من لا يعرفه وفيه حقه ، فكأن فيها كالدواى جراحه يمتنى قليلا غثاة ما يكره طويلا ؛ ويصير على شدة النواء غثاة طول الداء ، فأخبر هذه الدار الدائرة الختالة الخداعة التي قد زينت بخدعها وقتت بمرورها وحلت بأمانها وسوفت بخطاياها فأباحت كالمرس المجلية ، العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهمة والنفوس لها عاشقة وهي لأزواجها كلهم قاتلة ، فلا الباقي بالماضي معتبر ولا الآخر بالأول مزدجر ، ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مدكر ، فاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاعتز وطغى ونسى المعاد ، فغفل فيها ليه حتى زلت به قدمه ، فغطمت ندامته وكثرت حسره ، واجتمعت عليه سكرات الموت وتآله وحشرات القوت بنصته . وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب ولم يروح نفسه من التنب ، فخرج بنهر زاد وقدم

على غير مهاد ، فاحذوها يا أمهر المؤمنين وكن أسر ماتكون فيها أحذر ماتكون لها ، فإن صاحب الدنيا كلها  
اطمان منها إلى سرور أشخصه إلى مكروه ، السار في أهلها غار ، والنافع فيها غدار ضار ، وقد وصل الرخاء منها  
بالبلاء ، وجعل البقاء إلى فناء ، فسروها مشوب بالأحزان لا يرجع منها ما ولي وأدير ، ولا يدري ما هو آت  
فيستظر . أما أنها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، وابن آدم فيها على خطر ، إن عقل ونظر فهو من  
النعماء على خطر ومن البلاء على حذر ، فلو كان الخائف لم يخبر عنها خبراً ولم يضرب لها مثلاً لكأن الدنيا قد أيقظت  
النائم ونهت الغافل ، فكيف لو قد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ ؟ فلما هو الله جل ثناؤه قد رما نظر الهامته  
خلفها ، ولقد عرضت على نبيك ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا يتقصده ذلك عند الله جناح مبوءة فأبى أن يقبلها (١) .  
أذكره أن يخالف على الله أمره أو يحجب ما أبغضه خالفه أو يرفع ما وضعه لميلك ، فزواها عن الصالحين اختبأوا  
وبطلوا لأعدائه اغترأوا ، فيظن المخروء بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ، ونسى ما صنع عز وجل بمحمد صلى الله عليه  
وسلم حين شد الحرج على بطنه (٢) . ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه عز وجل أنه قال لموسى عليه السلام : إذا رأيت  
النفي معبلاً قتل ذنب علقه وإذا رأيت الفقر مقبلاً قتل مرجحاً بشمار الصالحين . وإن شئت  
أقديت بصاحب الروح والكلمة عيسى ابن مريم عليه السلام فانه كل يقول : إداى الجوع ، وشعاعى الخوف ،  
ولباسى الصوف ، وصلانى فى الشتاء فى مشارق الشمس ، وسراجى القمر ، ودابنى رجلاى ، وطمانى وفاكفى  
ما أتيت الأرض : أبيت وليس لى شيء ، وأصبح وليس لى شيء ، وليس على الأرض أحد أغنى منى . وقال  
وهب بن منبه : لما بعث الله عز وجل موسى وهرون عليهما السلام إلى فرعون قال : لا يروعنكما لباسه الذى  
لبس من الدنيا ، فإن ناصبت يدي ليس يطلع ولا يطف ولا يتنفس إلا بأذى ، ولا يسجبنكما ما تمتع بهما فأتما  
هى زهرة الحياة الدنيا وذوينة المرءين : فلو شئت أن أرينكما بزيينة الحياة الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدره  
تعبج عما أوتيتها لغصت ، ولكنى أرضيتكما عن ذلك فأزوى ذلك عتكا ، وكذلك أهل بأوليائى إلى لاؤدوم عن  
نيسما كما يدود الراسى الشفيق فتمت عن مرائع الهندك ، وإلى لا جنهم ملاذها كما يحب الراسى الشفيق إبله عن  
منازل العرة ، وما ذاك لوانهم على ولكن ليتكلموا نصيهم من كرامتى سالما موفرا ، إنما يقرى بأوليائى بالذل  
والخوف والخنوع والتقوى تنبت فى قلوبهم وتظهر على أجسادهم ، فهى نياهم التى يلبسون وثارهم الذى يظهرون ،  
وضميرهم الذى يستشعرون ونجاتهم التى بها يفوزون ، ورجاؤهم الذى إياه يأملون ، ومجدهم الذى به يفخرون ،  
وسيام التى بها يبرفون ، فإذا قضيتهم فاصنع لهم جناحك ، وذلك لهم قلبك ولسانك ، واعلم أنه من أخاف لى ولما  
قد ياوزى بالمخاربة ، ثم ما التائر له يوم القيامة .

وعن علي كرم الله وجهه يوما خطبة فقال فيها : اعلوا أنكم ميتون وميعوثون من بعد الموت وموقوفون  
على أعمالكم وعجزون بها ، فلا تنركم الحياة الدنيا فأنها بالبلاء محفوفة وبالبقاء معروقة وبالقدر موصولة ، وكل  
ما فيها إلى زوال وهى بين أهلها دول وسجال ، لا تدوم أحوالها ولا يسلم من شرها نوالها ، بينا أهلها منها فى رغاء

(١) حديث الحسن وكتب به إلى عمر بن عبد العزيز : عرضت لى الدنيا لى نبيك ﷺ بمفاتيحها وخزائنها . . .  
الحديث . أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا مرسلًا ورواه أحمد والطبرانى متصلًا من حديث أبى موسىبة فى أثناء حديث  
فيه « إنى قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة . . . الحديث » وسنده صحيح ولترمذى من حديث أبى أمامة  
« عرض لى ربه ليجعل لى بطحاء مكة ذهبًا . . . الحديث » . (٢) حديث الحسن مرسلًا فى شدة الحجر على بطنه  
أخرجه ابن أبى الدنيا أيضاً هكذا وللبخارى من حديث أنس : رفعتنا عن بطوننا عن حجر حجر فرجع رسول الله ﷺ  
خبرين . وقال حديث غريب .

وسرور إدام منها في بلا وغرور ، وأحوال مختلفة وثارات منسقة ، العيش فيها مذموم والرخا فيها لا يذوم ، وإنما أهلها فيها أغراض مستدة ، ترميم بهاها وتقصيم بهاها ، وكل حظه فيها مقصور وحظه فيها موفور .

واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من الدنيا على سبيل من تقصى عن كل أطول منكم أعمارا وأشد منكم بطشا وأعمر ديارا وأبعد آثارا ، فأصبحت أصواتهم هائمة عامدة من طول تقلبها ، وأجسادهم بالية وديارهم على عروشها غاية وآثارهم عافية ، واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرور والتمارق المبهدة ، الصخور والأشجار المستنققة القبور اللاتمة الملحقة ، فحطامه قارب وساكنها مغرب ، بين أهل عمارة موحشين وأهل حلة متشاغلين ، لا يستأنسون بالعمران ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان على ما بينهم من قرب للسكان والجوار ودنو الدار ، وكيف يكون بينهم تواصل وقد طعنهم بكسكة البلا وأكثهم الجفادو والآرى ؟ وأصبحوا بعد الحياة أمواتا وبعد نضارة العيش وقفا بلع بهم الأحباب وسكنوا تحت التراب وظنوا فليس لهم إياب ، هيات (كلا إنها كلة هو قائلها ومن وراثهم برزخ إلى يوم يمشون) فكانت قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلاء والوحدة في دار النوى وارتبتم في ذلك للضعف وضيق ذلك المستودع ، فكيف بكم لو طابتكم الأمور وبهرت القبور وحصل ما في الصدور وأوقفتم التحصيل بين بدى الملك الجليل فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذنوب وهتكت عنكم الحجب والاستار وظهرت منكم العيوب والأسرار ؟ هناك تجرى كل نفس بما كسبت وإن الله عز وجل يقول (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) وقال تعالى (ووضع الكتاب قمرى المجرمين مشفقين مما فيه) الآية جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه متبعين لأوليائه حتى جعلنا وإياكم دار المقامة من فضله إنه مجيد مجيد .

وقال بعض الحكماء : الأيام سهام والناس أغراض ، والنهر يرميك كل يوم بسهامه ويفترمك بلياليه وأيامه حتى يستغرق جميع أجزائك ، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك وسرعة الليالي في بدتك ؟ لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص لاسترحمت من كل يوم بأن عليك واستثقلت ممر الساعة بك ولكن تدبر الله فوق تدبير الاعتبار ، وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها ، وإنها لأمر من الطعم إذا صجنا الحكماء ؛ وقد أصيبت الواصف لعيوبها بظلم أفضالها ، وما أتى به من العجائب أكثر مما يحيط به الواظف ، اللهم أرشدنا إلى الصواب وقال بعض الحكماء وقد استوصف الدنيا وقد بقائها فقال : الدنيا وفك الذى يرجع إليك فيه طرفك ، لأن مامضى حتك قد فاتك إدراكه ، وما لم يأت فلا علم لك به ، والهر يوم مقبل تضاء ليك وقطوبه ساعة ، وأحداثة تتوالى على الإنسان بالتغيير والتقصان ، والهر موكل بتشتيت الجماعات وانفraz العمل وتنقل الدول ، والأمل طويل والهر قصير وإلى الله تصير الأمور .

وخطب عمر بن عبد العزيز رحة الله عليه فقال : يا أيها الناس إنكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدقون به فإنكم حق ، وإن كنتم تكذبون به فإنكم هلكى ، إنما خلقتم للأبى لكنكم من دارلى دار تنقلون ، عباد الله إنكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص ، ومن شرابكم شرر ، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها إلا بقران أخرى تكمهون فراها ، فاعلموا لما أنتم صائرون إليه وخالدون فيه ثم غلب البكاء وزل .

قال على كرم الله وجهه في خطبه : أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التارك لكم وإن كنتم لتحبون تركها ، الملية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها ، فأنما مثلكم ومثلا كمثل قوم في سفر سلكوا طريقا وكانهم قد قطعوه ، واقفوا لإعلم فسكنهم بلغوه ، وكصلى أن يجرى للهرى حتى ينضى إلى الناية ؟ وكصلى أن يبقى من له يوم في

الدنيا ومطالب حيث يطلبه حتى يفارقتها ، فلا تفرحوا باليؤسها وضارتها فإنه إلى انقطاع ، ولا تفرحوا بمتاعها ونعماتها فإنه إلى زوال ، صعبت لطالب الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه .

وقال محمد بن الحسين : لا علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والادب أن اقنعز وجل قد أمان الدنيا ، وأنه لم يرعها لأولياته ، وأنها عنده حقيقة قليلة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم زهد فيها وحذر أصحابه من فتحها ، أكلوا منها تصدأً وقدموا فضلاً . وأخذوا منها ما يكتفي وتركوا ما يلهي . لبسوا من الثياب ماستر العورة . وأكلوا من الطعام أدناه بما سدل الجوع ، ونظروا إلى الدنيا بمن أنها قانية ، وإلى الآخرة أنها باقية ، فزودوا من الدنيا كزاد الراكب غريبا الدنيا وعمرها بها الآخرة ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم فعملوا أنهم سينظرون إليها بأعينهم فارتحلوا إليها بقلوبهم لما علوا أنهم سيرتجلون إليها بأبدانهم ، تعبوا قليلا وتعمعوا طويلا ، كل ذلك بتوفيق مولاكم الكريم ، أحبوا ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم .

### بيان صفة الدنيا بالأمثلة

اعلم أن الدنيا سرية الفناء قريبة الانقضاء ، تعد بالبقاء ثم تخلف في الزمان ، تنظر إليها فترامها ساكنة مستقرة ، وهي سائرة سيرا عتيقا ومرتعلة احتمالا سريعا ، ولكن الناظر إليها قد لا يحس بمركتها فيطمئن إليها ، وإنما يحس عند انقضائها ، ومثلها الظل فإنه متحرك ساكن متحرك في الحقيقة ساكن في الظاهر ، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر ، بل بالبصرة الباطنة ، ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أنشد وقال :

أحلام نوم أو كظل زائل إن اليبس بمثلها لا يندفع  
وكان الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يمثل كثيرا ويقول :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها إن اغترأوا بظل زائل حق

وقيل إن هذا من قوله . ويقال : إن أعرابيا نزل بقوم فقدموا إليه طعاما فأكل ، ثم قام إلى ظل خيمة لم ينام هناك فاقبلوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه ، فقام وهو يقول :

ألا إنما الدنيا كظل تنبه ولا يدري ما أن ظلك زائل

وكذلك قيل :

ولن امرا دنياه أكبر همه لمستسك منها بجبل غرور

مثال آخر لدنيا من حيث التغير بخیالاتها ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها : تشبه خیالات المنام وأضغاث الأحلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون <sup>(١)</sup> » ، وقال يونس بن حبيب : ما شئت قسى في الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب فينبه هو كذلك إذا نثبه ، فكذلك الناس ينام فإذا ماتوا انتبهوا ، فإذا ليس بأي شيء هم . ما ركضوا إليه وفرحوا به . وقيل لبعض الحكماء : أي شيء أشبه بالدنيا ؟ قال أحلام الناس .

مثال آخر لدنيا في عداوتها لأهلها وإهلاكها لبنها : اعلم أن طبع الدنيا التلطف والاستدراج أولا والتوصل إلى الإهلاك آخرأ ، وهي ك امرأة تزني للخطاب حتى إذا نكحتهم ذبحتهم . وقد روى أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرأها في صورة عجوز هتاء عليها من كل زينة ، فقال لها : كم تزوجت ؟ قالت : لا أحصيهم ، قال :

(١) حديث « الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون » لم أجده أصلا .

فكلهم مات عندك أم كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قلت، فقال عيسى عليه السلام: يؤسا لأزواجك الباقين كيف لا يمتنعون بأزواجك الماضين؟ كيف تهلكينهم واحدا بعد واحد ولا يكون منك ولد حذر؟ ٢١.

مثال آخر للدنيا في غافلة ظاهرها باطنها: أعلم أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر وهي شبه مجوز متزيعة تخدع الناس بظاهرها، فإذا وقعوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبايعها فتدعوا على اتباعها وخطوها من ضعف عقولهم في الاعتراض بظاهرها. وقال العلاء بن زياد: رأيت في المنام مجوزا كبيرة متمصبة الجلد عليها من كل دينة الدنيا والناس عكوف عليها مجبورون ينظرون إليها غيبثت ونظرت وتسجبت من نظرم إليها وإقبالهم عليها فقلت لها: ويلك من أنت؟ قالت أو ما تعرفني؟ قلت لا أدري من أنت؟ قالت: أنا الدنيا، قلت: أعوذ بالله من شرك؟ قالت: إن أحببت أن تهازم من شري فأخض الدم. وقال أبو بكر بن عياش: رأيت الدنيا في النوم مجوز مشوهة شطاه تصفق يديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون، فلما كانت بمذاق أقبلت على قالت: لو نظرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بـجـولاء. ثم بكى أبو بكر وقال رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد وقال ابن عباس: قال ابن عباس يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة مجوز شطاه ذرقاء، أنيابها يادية، مشوه خلقها، فتشرف على الخلائق فيقال أنمرقون هذه فيقولون: نموذ بالله من معرفة هذه فيقال: هذه الدنيا التي تاحترم عليها، بها تقاطعت الأرحام، وبها تحاسدت وتباغضت وانفردتم، ثم يقذف بها في جهنم فتنادي: أي رب أين أتباعي وأشيائي؟ فيقول الله عز وجل: ألحقوا بها أتباعها وأشيائها. وقال الفضيل: بلغني أن رجلا خرج بروحه فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل دينة من الحسل والثياب، وإذا لا يمر بها أحدا إلا جرحته، فإذا هي أدبرت كانت أحسن شدة. رآه الناس، وإذا هي أقبلت كانت أفحش شدة. رآه الناس، فجوز شطاه ذرقاء عفاة. قال: قلت: أعوذ بالله منك؟ قالت: لا والله. لا يمينك الله مني حتى تبغض الدم. قال: فقلت من أنت؟ قالت: أنا الدنيا.

مثال آخر للدنيا وصور الإنسان بها: أعلم أن الأحوال ثلاثة: حالة لم تكن فيها شيئا وهي ما قبل وجودك إلى الأذل، وحالة لا تكون فيها مشاهدا للدنيا وهي ما بعد موتك إلى الأبد، وحالة متوسطة بين الأبد والأذل وهي أيام حياتك في الدنيا؛ فانظر إلى مقدار طولها وانسب إلى طرق الأزل والأبد حتى تعلم أنه أقل من منزل قصر في سفر بعيد. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «مالي وللدنيا وإنما مثل الدنيا كمثل راكب سار في يوم صائف فرقت شجرة فقال تحت ظلها ساعة ثم راح وتركها» (١) ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ولم ييال كيف انقضت أيامه في ضر وضيق أو في سعة ورفاهية، بل لا يبقى لبنة على لبنة. توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما وضع لبنة على لبنة ولا نصبه على قصة (٢) ورأى بعض الصحابة يبنى بيتا من جص فقال «أرى الأمر أعجل من هذا وأشكر ذلك» (٣) وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال: الدنيا قطرة فاعبروها واتمروها. وهو مثال واضح فإن الحياة الدنيا ممر إلى الآخرة، والمهد هو الليل الأول على رأس التنظرة، والمهد هو الليل الآخرة،

(١) حديث «مالي وللدنيا وإنما مثل الدنيا كمثل راكب... الحديث» أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث ابن مسعود بنحوه ورواه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس.

(٢) حديث: ما وضع لبنة... الحديث. أخرجه ابن حبان في الثقات والطبراني في الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف «من سأل عني أو سره أن ينظر إلى فلينظر إلى أشعث شاحب مشعر لم يضع لبنة على لبنة... الحديث»

(٣) حديث: رأى بعض أصحابي يبنى بيتا من جص فقال «أرى الأمر أعجل من هذا» أخرجه أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال حسن صحيح.

ويبينها مسافة محدودة؛ فمن الناس قطع نصف القنطرة، ومنهم من قطع ثلثها، ومنهم من قطع ثلثها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها، وكيف كان فلا بد له من العبور والبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزينة وأنت عاجز عليها غاية الجهل والخذلان.

مثال آخر للدنيا في لين موردها وخشوة مصدرها: أعلم أن أوائل الدنيا تبدو هيئة لينة يظن الخافض فيها أن جلاله يفيضها كحلالة الخوض فيها وهيئات؛ فإن الخوض في الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد، وقد كتب علي رضي الله عنه إلى سلمان الفارسي يثألها فقال: مثل الدنيا مثل الحية لين مسها ويقتل سمها، فأعرض عما يصيبك منها لئلا ما يصعبك منها، ووضعت عنك مومها بما أيقنت من فراها، وكن أسرها تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحبها كلما اطمان منها إلى سرور شخصه عنه مكروه والسلام.

مثال آخر للدنيا في تعدد الخلاص من تبعتها بعد الخوض فيها قال صلى الله عليه وسلم «إنما مثل صاحب الدنيا كاللشي في الماء هل يستطيع الذي يمشي في الماء أن لا تجبل قمعاه» وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون في نعيم الدنيا بأنفسهم وقلوبهم منها مطيرة، وعلاقتها عن بواطنهم منقطعة، وذلك مكيدة من الشيطان بل لو أخرجوا نائم فيه لكانوا من أعظم المتفجسين بفراقها، فكما أن المشي على الماء يقتضي بللا لا يحمله يلتصق بالقدم فكذلك ملازمة الدنيا تقتضي علاقة وظلمة في القلب، بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلالة العبادة. قال عيسى عليه السلام بحق أقول لكم: كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلالتها مع ما يجد من حب الدنيا، وبحق أقول لكم: إن الدابة إذا لم تركب وتمتن تصعب ويتعب خلقها كذلك القلوب إذا لم ترفق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتمنطق؛ وبحق أقول لكم: إن الرق مالم يتخرق أو يقبل يوشك أن يكون وراء العسل كذلك القلوب مالم تغرق في الشهوات أو يذنبها الطمع أو يقسمها التعم سوف تكون أوصية للحكمة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إنما بقى من الدنيا بلاء وقتة وإنما مثل عمل أحدكم كمثل الرطاب إذا طاب أعلاه طاب أسفله وإذا خيب أعلاه خيب أسفله»

مثال آخر لما بقي من الدنيا وقتله بالإضافة لما سبق: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره يبقى متعلقا بحيط في آخره فيوشك ذلك الحيط أن ينقطع» .  
مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك، قال عيسى السلام: مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يقتله.

مثال آخر لخصافة آخر الدنيا أولها ولتضارة أولها وخيب عواقبها: أعلم أن شهوات الدنيا في القلب لذينة كشهوات الأطعمة في المعدة، وسيجد البعد عند الموت لشهوات القلب في قلبه الكراهة والتن والقيح ما يصعبه للأطعمة الذينة إذ يلتذ في المعدة غائبا، وكما أن الطعام كلما كان أذ طعاما وأكثر دسما وأظهر حلالة كان رجيحه أقدر وأشد تننا، فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وألذ وأقوى، فتنها وكراحتها والتأذي بها عند الموت أشد

(١) حديث «إنما مثل صاحب الدنيا كمثل اللشي في الماء... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من رواية الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال فذكره. ووصله البيهقي في الشعب وفي الزهد من رواية الحسن عن أنس. (٢) حديث «إنما بقي من الدنيا بلاء وقتة... الحديث» أخرجه ابن ماجه من حديث سفيان في فرقته في موضعين ورجاله ثقات. (٣) حديث «مثل هذه الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره» أخرجه أبو الشيخ ابن جابر في الثواب وأبو نعيم في الطيبة والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس بسند ضعيف.



بل هي في الدنيا مشاهدة ، فإن من نبيت داره وأخذ أهله وماله وولده ، فتكون مصيبته وألمه وقبحه في كل ما فقد بقدر لذته بوجوه له وحرمه عليه ، فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألذ فهو عند الفقد أسمى وأمر ، ولا معنى للموت إلا فقد ما في الدنيا وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الضحاك بن سفيان الكلابي « أليست تؤذي بطعامك وقد ملع وقوح ثم تشرب عليه اللبن والماء ؟ » قال : بلى ، قال « وإلام يصير » قال : إلى ما قد علمت يا رسول الله ، قال « فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا بما يصير إليه طعام ابن آدم <sup>(١)</sup> » وقال أبي بن كعب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا ضربت مثلاً لابن آدم فانظر إلى ما يخرج من ابن آدم وإن فرحه وملحه وإلام يصير <sup>(٢)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلاً وضرب مطعم ابن آدم الدنيا مثلاً وإن فرحه وملحه <sup>(٣)</sup> » وقال الحسن : قد رأيتم طليوتة بالأناوبة والطيب ثم يرمون به حيث رأيتم وقد قال الله عز وجل ( فليظفر الإنسان إلى طعامه ) قال ابن عباس إلى ربيعه وقال رجل لابن عمر أني أريد أن أسالك وأستسعى قال فلا تستسعى وأسأل قال إذا قضى أحدنا حاجته فقام ينظر إلى ذلك منه قال نعم إن الملك يقول له انظر إلى ما حظيت به انظر إلى ماذا صار . وكان بشر بن كعب يقول انطلقوا حتى أرىكم الدنيا فيذهب بهم إلى مربة فيقول انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وحصلهم وسمتهم .

مثال آخر في نسبة الدنيا إلى الآخرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الدنيائي الآخرة إلا كتل ما يجبل أحكم أصبعه في اليم فليظفر أحكم ثم يرجع إليه <sup>(٤)</sup> »

مثال آخر للدنيا وأهلها في اشتغالهم بنعم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم العظيم بسببها : اعلم أن أهل الدنيا منهم في غفلتهم مثل قوم كبروا سفينة قاتبتهم في الجزيرة فأمرهم الملاح بالخروج إلى فضاء الحاجة وحذرم المقام وخوفهم مرور السفينة واستجبالها ، ففزعوا في نواحي الجزيرة ففنى بعضهم حاجته ويأبى إلى السفينة فصادف المسكن غالياً فأخذ أوسع الأماكن وأليناها وأوقفها لمراده ، وبعضهم توقف في الجزيرة ينظر إلى أنوارها وأزهارها العجيبة وغياضها المفضة ونفحات طيورها الطيبة والحنان المودعة التي تروى صرايل حظ من ربها أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال الحسنة المنظر العجيبة النقوش السالبة أعين الناظرين بحسن ذريعتها وعجائب صورها ، ثم تنبه لخطر فوات السفينة فرجع إليها فلم يصادف إلا مكاناً خيقاً حرجاً فاستقر فيه . وبعضهم أحسب على تلك الأصداف والأحجار وأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه بإصحابها فاستصحب منها جملة ، فلم يجد في السفينة إلا مكاناً خيقاً وزاده ماحله من الحجارة خيقاً وصار ثقبلاً عليه وروبالاً ، فقدم على أخذه ولم يقدر على رميهِ ولم يجد مكاناً لوضعه ، فحمله في السفينة على عنقه وهو مستأسف على أخذه وليس ينفعه التأسف . وبعضهم تولى النياض ونسى المركب وبعد في مفرجه ومنزعه منه حتى لم يبلغه نداء الملاح لاشتغاله بأكل تلك الثمار واستشمام تلك الآوار والفرج بين تلك الأشجار ، وهو مع ذلك غاف على نفسه من السباح وغيره من السفطات

- (١) حديث : أنه قال للضحاك بن سفيان الكلابي أليست تؤذي بطعامك وقد ملع وقوح ... الحديث . وفيه « فإن الله ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم » أخرجه أحمد للطبراني من حديثه بنحوه وفيه على بن زيد ابن جعدان مختلف فيه . (٢) حديث أبي بن كعب : إن الدنيا ضربت مثلاً لابن آدم ... الحديث . أخرجه الطبراني وابن أبي حبان بلفظ : إن مطعم ابن آدم قد ضرب الدنيا مثلاً ورواه عبد الله بن أحمد في زبائنه بلفظ « جبل » (٣) حديث « إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلاً وضرب مطعم ابن آدم الدنيا مثلاً ... الحديث » الشطر الأول منه غريب والشطر الأخير هو الذي تقدم من حديث الضحاك بن سفيان « إن ضرب ما يخرج من بني آدم مثلاً الدنيا » (٤) حديث « ما الدنيا في الآخرة إلا كتل ما يجبل أحكم أصبعه في اليم فليظفر ثم يرجع إليه » أخرجه مسلم من حديث للتوردين شداد .

والشكبات ، ولا تفك عن شوك ينشب بثيابه وغصن يجرح بدنه وشوك تدخل في رجليه وصوت هائل يفرح منه وعوسج يفرق ثيابه ويهلك عورته ويمتعه عن الانصراف لو أرادته ، قلبا بلنه نداء أهل السفينة انصرف مثلاً بما معه ولم يجد في المركب موضعاً يقي في الشط حتى مات جوعاً . وبعضهم لم يبلغه النداء وسارت السفينة ففهم من اقترسته السباح ، ومنهم من تاه فهم على وجهه حتى هلك ، ومنهم من مات في الأوحال ، ومنهم من نهشت الحيات ، فحفرها كالخيف المثنتة .

وأما من وصل إلى المركب بثقل ما أخذه من الأزهار والأحجار ، فقد استرقه وشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها وقد ضيق عليه مكانه ، فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار وكنت تلك الألوان والأحجار فظهرت رأتها فصارت مع كونها مضيقه عليه مؤذية له بتثنتها ووحشتها ، فلم يجد حيلة إلا أن ألقاها في البحر هرباً منها ، وقد أثر فيه ما أكل منها فلم ينته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بتلك الروائح فيبلغ سقيماً مدبراً . ومن رجع قريباً فاتته لاسمة الخلق فتأذى بضييق المكان مدة ، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح . ومن رجع أولاً وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالماً . فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بمحظوظهم المأجلة ونسيانهم موردتهم ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم . وما أقبح من دهم أنه يصير حافل أن تنزه أحجار الأرض وهي الذهب والفضة وهضم الثياب وهي زينة الدنيا ، وشيء من ذلك لا يصحبه عند الموت بل يصير كلاً وبالأعلى عليه وهو في الحال شاغل في الحزن والخوف عليه . وهذه حال الخلق كلهم إلا من عصمه الله عز وجل .

مثال آخر لا غرار الخلق بالدنيا وضعف إيمانهم : قال الحسن رحمه الله بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « إنما مثل ومثلكم الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ، حتى إذا لم يدروا ، ما سلكوا منها أكثر أو ما بقى ، أقعدوا الزاد وخسروا الطريق وبقوا بين ظهري المفازة ولا زاد ولا حيلة فأيقنوا بالهلكة ، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة تقطر رأسه ، فقالوا : هذا قريب عهد بربضوما جاءكم هذا إلا من قريب ، فلما انتهى إليهم قال : يا هؤلاء فقالوا : يا هذا ! قال علام أتمم ؟ فقالوا : على ما ترى ، فقال : رأيتم إن حديثكم إلى ماء رواء ورياض خضرا منتملون ؟ قالوا : لا نصيبك شيئا ، قال : عهدكم وموائيقكم بالله ، فأعطوه عهدكم وموائيقكم بالله لا يصونه شيئا قال : فأوردكم ماء رواء ورياضا خضرا فكث فيهم ماشاء الله ثم قال : يا هؤلاء ! قالوا : يا هذا ! قال : الرحيل ! قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى ماء ليس كائكم وإلى رياض ليس كرياضكم ، فقال أكثرهم : والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أننا لن نجد وما نصنع بعيش خير من هذا ؟ وقالت طائفة - وهم أقلهم - ألم تعلموا هذا الرجل عهدكم وموائيقكم بالله أن لا تصونه شيئا وقد صدقكم في أول حديثه والله ليصدقكم في آخره ؟ فراح فبين اتبعه وتخلف بقيتهم فبدرهم صدق فأصبحوا بين أسير وقتل (١) .

مثال آخر لتتم الناس بالدنيا ثم تفجهم على قراتها : اعلم أن مثل الناس في أعطوا من الدنيا مثل رجل هيا داراً وزينها وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوماً ، واحداً بعد واحد ، فدخل واحد داره فقدم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمه ويتذكر لمن يلحقه ، لا ليشمكه ويأخذه ، للجل رسمه وظن أنه قد ذهب ذلك منه فعلق به قلبه لما ظن أنه له ، قلباً استرجع منه ضيق وقصع ، ومن كان عالماً برسمه انتفع به وشكره ووده بطيب قلب

(١) حديث الحسن : بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : إنما مثل ومثلكم الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء . . . الحديث « أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا بطوله لأحمد والبرز والطبراني من حديث ابن عباس : أن رسول الله ﷺ أتاه فيا يرى الناس ملكان الحديث وفيه » قال أي أحد للسكران إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر اتها إلى مفازة » فذكر نحوه وأخبر منه وإسناده حسن .

واشراح صدر ، وكذلك من عرف سنة الله في الدنيا علم أنها دار ضيافة سبقت على المختارين لاهل المقيمين ليزدادوا منها ويتنصفا بما فيها كما ينقص للمسافرين بالعواري ، ولا يصرون إليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها فهذه أمثلة الدنيا وأقاربها وغوايتها نسأل الله تعالى العليق الخير حسن العون بكرمه وحله .

### بيان حقيقته الدنيا وماهيتها في حق العبد

أعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ما لم تعرف الدنيا المضمومة ما هي ؟ وما الذي ينبغي أن يجنب منها وما الذي لا يجنب ؟ فلا بد أن نبين الدنيا المضمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هي ؟ فنقول :  
دنياك وآخرتك عبارة عن حالين من أحوال قلبك ، فالقريب الداني منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت ، والمتراخي المتأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت ، فكل مالك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك إلا أن جميع مالك إليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمضموم بل هو ثلاثة أقسام :  
القسم الأول : ما يصحبك في الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت وهو شيثان : العسل والعمل فقط ؛ وأعني بالعلم : العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوته أرضه وسماؤه والعلم بشريعة نبيه . وأعني بالعمل العبادة الخالصة لوجه الله تعالى ، وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك أحد الأشياء عنده فيجهر التوهم والمعلم والنسكح في لذته لأنه أشهى عنده من جميع ذلك ، فقصده صار خطأ عاجلا في الدنيا . ولكننا إذا ذكرنا الدنيا المضمومة لم نمد هذا من الدنيا أصلا بل قلنا أنه من الآخرة ، وكذلك العابد قد يأنس بعبادته فيستلذها بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه ، حتى قال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل ، ولكن آخر يقول : اللهم أرزقني قوة الصلاة والركوع والسجود في القبر . فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظه العاجلة وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه من حيث الاشتقاق من الدنو ، ولكننا لسنا نغني بالدنيا المضمومة ذلك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « حب إلى من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وقرعة عيني في الصلاة »<sup>(١)</sup> .  
فبصل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا . وكذلك كل ما يدخل في الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة وهو من الدنيا ، والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع والسجود إنما يكون في الدنيا فذلك أضافها إلى الدنيا إلا لسنا في هذا الكتاب نتعرض إلا للدنيا المضمومة ، فنقول هذه ليست من الدنيا .

القسم الثاني : وهو المقابل له على الطرف الأقصى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة أصلا ، كالتلذذ بالمعاصي كلها والتعمق بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات ، والضرورات الدخلة في جملة الرفاهية والرهونات ، كالتمتع بالمتاعيل المنتظر من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث والفلان والجواري والخير والمواسي والقصور والدور ورفيع الثياب ولذات الأطعمة ، فخط العبد من هذا كله هي الدنيا المضمومة وفيما يعد قسولا أو في عمل الحاجة نظر طويل ، إذ روى عن عمر رضي الله عنه أنه استعمل أبا الدرداء على حصص فاتخذ كنيشا أثق عليه درهمين ، فكتب إليه عمر : من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عويمر : قد كان لك في بناء فارس والروم ما تكتفي به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها ، فلذا أتاك كتابي هذا فقد سيرتك إلى دمشق أنت وأهلك . فلم يزل بها حتى مات . فهذا قسولا من الدنيا فأمل فيه .

(١) حديث « حب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وقرعة عيني في الصلاة » أخرجه النسائي والحاكم من حديث أنس دون قوله « ثلاث » وتقدم في النسكح .

القسم الثالث : وهو متوسط بين الطرفين كل حفظ في العاجل معين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والتمتع الواحد الخشن ، وكل ما لا بد منه ليأتي للانسان البقاء والصحة التي بها يتوصل إلى العلم والعمل ، وهذا ليس من الدنيا كالتقسيم الأول ، لأنه معين على القسم الأول ووسيلة إليه فهما تتناولهما العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولاً للدنيا ولم يصره من أبناء الدنيا ، وإن كان باعته الحظ العاجل دون الاستعانة على التقوى التحق بالقسم الثاني وصار من جملة الدنيا . ولا يتقى مع العبد عند الموت ثلاثة صفات : صفاء القلب ، أصنى طهارته عن الأدناس ، وأنه يذكر الله تعالى ، ووجهه عز وجل . و صفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا ، والآنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى والمواظبة عليه ، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة ولا تحصل معرفة الله إلا بالدوام الفسرك وهذه الصفات الثلاث هي المنتجيات المسعدات بعد الموت .

أما طهارة القلب من الشهوات الدنيا في من المنتجيات إذ تكون جنة بين العبد وبين عذاب الله كما ورد في الأخبار وإن أعمال العبد تتأصل عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجله جاء قيام الليل يدفع عنه وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه (١) الحديث .

وأما الآنس والحب فهما من المسعدات وهما : موصلان العبد إلى لذة اللقاء والمضامنة . وهذه السعادة تحصل عقيب الموت إلى أن يدخل أوان الرؤية في الجنة ، فيصير القبر روضة من رياض الجنة ، وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ولم يكن له إلا محبوب واحد ؟ وكانت العواقي توفقه عن دوام الآنس بدوام ذكره ومطالعة جماله فارتفعت العواقي وأفلت من السجن وغل بينه وبين محبوبه فقدم عليه مسروراً سليماً من الموانع آمناً من العواقي ؟ وكيف لا يكون حب الدنيا عند الموت ممذياً ولم يكن له محبوب إلا الدنيا وقد غضب منه وحيل بينه وبينه وسدت عليه طرق الحيلة في الرجوع إليه ؟ ولذلك قيل :

ما حل من كان له واحد فحب عنه ذلك الواحد

وليس الموت عدماً إنما هو فراق لحب الدنيا وقدم على الله تعالى . فإذا سالك طريق الآخرة هو المواطن على أسباب هذا الصفات الثلاث وهي الذكر والفكر والعمل الذي يقطعه عن شهوات الدنيا وينفض إليه ملاذها ويقطعه عنها ، وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن ، وصحة البدن لا تتأثر إلا بقوت وميليس وممكن ، ومحتاج كل واحد إلى أسباب . فاقدر الذي لا بد منه من هذه الثلاثة إذا أخذ العبد من الدنيا الآخرة لم يكن من أبناء الدنيا وكانت الدنيا في حقه مزرعة الآخرة ، وإن أخذ ذلك لحظ النفس وعلى قصد التمتع صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها ، إلا أن الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يمرض صاحبه لعذاب الآخرة ويسمى ذلك حراماً ، وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلا ويعرضه لطول الحساب ويسمى ذلك حلالاً . واليه يرجع أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضاً عذاب فمن نوقش الحساب عذب (٢) إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حلالها حساب وحرامها عذاب (٣) . وقد قال أيضاً « حلالها عذاب » إلا أنه عذاب أخف من عذاب الحرام ،

(١) حديث : « مناضة أعمال العبد عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجله جاء قيام الليل يدفع عنه ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث عبد الرحمن بن سمرة بطوله وفيه خالد بن عبد الرحمن الخزرجي ضعفه البخاري وأبو حاتم ولاحد من حديث أسماء بنت أبي بكر « إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمناً أحزبه عمله الصلاة والصيام ... الحديث » وإسناده صحيح . (٢) حديث « من نوقش الحساب عذب » متفق عليه من حديث عائشة . (٣) حديث « حلالها حساب وحرامها عذاب » أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه موقوفاً على علي بن أبي طالب بإسناد منقطع بلفظ « ومرامها النار » ولم أجده مرفوعاً .

بل لو لم يكن الحساب لكان ما يغوت من الدرجات الملا في الجنة وما يرد على القلب من التصر على تهورها لحظوظ  
 حثيرة خسيمة لبقاء لها هو أيضاً عذاب ، وقس به حاله في الدنيا إذا نظرت إلى أفرانك وقد سبقوك بسعادات  
 دنيوية كيف ينقطع قلبك عليها حشرات مع علك بأنها سعادات منصرة لبقاء لها ، منقصة بكندورات لاصفادها  
 فاحالك في فوات سعادة لا يحيط الوصف بعظمها وتنقطع الدهور دون غايتها ؛ فكل من تتم في الدنيا ولو ببيع أصوات  
 من طائر أو بالنظر إلى خضرة أو شربة ماء بارد فإنه ينقص من حظه في الآخرة أضعاؤه ، وهو المني بقوله صلى الله عليه  
 وسلم لعمر رضى الله عنه « هذا من التميم الذي تسئل عنه »<sup>(١)</sup> وأشار به إلى الماء البارد . والتعرض لجواب السؤال فيه ذل  
 وخوف وخطر ومشقة وانتظار ، وكل ذلك من نقصان الحظ ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه : اعزلوا عني حسابها ،  
 حين كان به عطش فمرض عليه ماء بارد بصل فأداوه في كفه ثم امتنع عن شربه . فالدنيا قليلها وكثيرها حرامها  
 وحلالها ملعونة إلا ما أمان على تقوى الله ، فإن ذلك القدر ليس من الدنيا . وكل من كانت معرفته أقوى وأتمن  
 كان حذر من نعم الدنيا أشد ، حتى إن عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لما نام ثم رماه ، إذ تمثل له إبليس  
 وقال : رغبت في الدنيا ، وحتى إن سليمان عليه السلام في ملكه كان يعلم الناس لذائد الأطمعة وهو بأكل خبز  
 الشعير ، لجبل الملك على نفسه هذا الطريق امتنانا وشدة ، فإن الصبر عن لذائد الأطمعة مع القدرة عليها ووجودها  
 أشد . ولهذا روى أن الله تعالى زوى الدنيا عن نبيينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أياما<sup>(٢)</sup> وكان يشد الحجر على  
 بطنه من الجوع<sup>(٣)</sup> ، ولهذا سبط الله البلاد والمحن على الأنبياء والأولياء ثم الأمثل فالأمثل ، كل ذلك نظراً لهم  
 وامتثالاً عليهم ليتوفر من الآخرة حظهم كما يمنح الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه ، ويلازم أم القصد والحكمة شفقة  
 عليه وجبا له لا يغلا عليه . وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا وما هو لله فذلك ليس من الدنيا .

فإن قلت : فما الذي هو ؟ فأقول : الأشياء ثلاثة أقسام : منها ما لا يتصور أن يكون لله وهو الذي يعبر عنه  
 بالمعاصي والمحظورات وأنواع التمتع في المباحات ، وهي الدنيا المحضة للذمومة ، فهي الدنيا صورة ومعنى . ومنها  
 ما صورته لله ويمكن أن يجعل لعنه الله وهو ثلاثة : الفكر والذكر والسكف عن الشهوات فإن هذه الثلاثة إذا جرت  
 سرا ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهي لله وليست من الدنيا ، وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم  
 للتشرف به وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحة البدن  
 والاشتهار بالزهد ، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى . ومنها ما صورته لحظ النفس  
 ويمكن أن يكون معناه لله ، وذلك كالأكل والنكاح وكل ما يرتبط به بقاؤه بقاء ولده ، فإن كان القصد حظ النفس  
 فهو من الدنيا وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه وإن كانت صورته صورة الدنيا . قال صلى  
 الله عليه وسلم « من طلب الدنيا حلالا مكثرا مفاخرها لقي الله وهو عليه غضبان ومن طلبها استغنافا عن المسألة  
 وحياة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر »<sup>(٤)</sup> فافتر كيف اختلف ذلك بالقصد ، فإذا الدنيا حظ  
 نفسك العاجل الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة ويعبر عنه بالهوى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ ونهى النفس عن

(١) حديث هذا من التميم الذي تسئل عنه تقدم في الاطمعة . (٢) حديث : زوى الله الدنيا عن نبيينا ﷺ  
 فكان يطوى أياما أخرجه عمدة بن خفيف في سرف الفقراء من حديث عمر بن الخطاب قال : قلت يا رسول الله عيال لمن  
 بسط الله لهم الدنيا وزواها عنك . . . الحديث . وهو من طريق إسحاق معنا ولقرمذى وابن ماجه من حديث ابن  
 عباس : أن النبي ﷺ كان يبيت الليالي المتتابعة طلوايا وأهله . . . الحديث . قال الترمذى حسن صحيح . (٣) حديث  
 كان يشد الحجر على بطنه من الجوع . تقدم . (٤) حديث « من طلب الدنيا حلالا مكثرا مفاخرها لقي الله وهو  
 عليه غضبان . . . الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقى في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

الموى ( فإن الجنة هي المأوى ) وجماع الموى خمسة أمور : وهي ما جمعه الله تعالى في قوله تعالى ( إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ) والأعيان التي تحصل منها هذه الخمسة سبعة : يجمعها قوله تعالى ( زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المتقطرة من الذهب والفضة والحيل المسومة والأنعام والحراث ذلك منافع الحياة الدنيا ) فقد عرفت أن كل ما هو لله فليس من الدنيا ، وقد ضرورة القوت ومالا بد منه من مسكن وملبس هو لله إن قصد به وجه الله ، واستكثار منه تتم وهو لنير الله . وبين التمتع والضرورة درجة يبرع عنها بالحاجة . ولما طرقت واسطة : طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضربان الاقتصاد على حد الضرورة غير ممكن ، وطرف يراحم جانب التمتع ويقرب منه وينبغي أن يجرد منه ، وبينهما وساطة متساوية ومن حاش حول الخي يوشك أن يقع فيه .

والحرم في الحذر والتقوى والتقرب من حد الضرورة ما لم يكن اقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام ، إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حد الضرورة حتى إن أوساً القرني كان يظن أنه يمتحن للجنة فعنقه على نفسه ، فيناله بيتاً على باب دارهم فكان يأتي عليهم الستة والسنتان والثلاث لا يرون له وجهاً ، وكان يخرج أول الأذان ويأتي إلى منزله بعد العشاء الآخرة ، وكان طعامه أن يلتقط الثوى ، وكلما أصاب حفة خبأها لإفطاره وإن لم يصب ما يقوته من الحشف باع الثوى واشترى بثمنه ما يقوته ، وكان لباسه مما يلتقط من المزابل من قطع الأكسية فيضلها في الغرات ويلقي بعضها إلى بعض ثم يلبسها ، فكان ذلك لباسه وكان رجلاً من الصبيان فيرمونه ويظنون أنه يمتحن ، فيقول لهم : يا إخوتاه إن كنتم ولا بد أن ترموني بأشجار صغار فإني أخاف أن تموتوا حقى ، فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء ، فبكنا كانت سيره . ولقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره فقال ( إن لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن ، إشارة إليه رحمه الله ) (١) ولما ولي الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : أيها الناس من كان منكم من العراق فليقم ، قال : فقاموا . فقال : اجلسوا إلا من كان من أهل الكوفة ، فجلسوا ، فقال : اجلسوا إلا من كان من مراد ، فجلسوا فقال : اجلسوا إلا من كان من قرن ، فجلسوا كلهم إلا رجلاً واحداً فقال له عمر : أفرق أنت ؟ فقال : نعم ، فقال : أترى أوس بن عامر القرني ؟ فوصفه له ، فقال : نعم وماذا تسأل عنه يا أمير المؤمنين ؟ والله ما بينا أحق منه ولا أجهل منه ولا أوحش منه ولا أدنى منه ، فيسكى عمر رضي الله عنه ثم قال : ما قلت ما قلت إلا لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر » (٢) فقال هرم بن حيان : لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لي م إلا أن أطلب أوساً القرني وأسأل عنه ، حتى سقطت عليه جالساً على شاطئ الغرات نصف النهار يتوسأ ويشل ثوبه ، قال : فمررت بالعتبة التي نعتل ، فإذا رجل لحم شديد الأدمة محلق الرأس كت اللحية متغير جداً كره الوجه متيبب المنظر قال : فسلمت عليه فرد على السلام ونظر إلى ، قلت : حياك الله من رجل ومددت يدي لأصالحه فأبى أن يصالحني ، قلت : رحلك الله يا أوس وغفر لك كيف أنت رحلك الله ؟ ثم خففتي العبارة من حي إياه ورتقي عليه إذ رأيت من حاله ما رأيت حتى بكيت وبكى ، فقال : وأنت فحياك الله يا هرم بن حيان كيف أنت يا أخى ومن ذلك على ؟ قال : قلت الله ، فقال :

(١) حديث « إن لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن » أشار به إلى أوس القرني تقدم في قواعد القائد لم أجد له أصلاً . (٢) حديث عمر « يدخل الجنة مثل ربيعة ومضر » يريد أوساً وروناه في جزء ابن السكيت من حديث أبي أمامة « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمي أكثر من ربيعة ومضر » وإسناده حسن ، وليس فيه ذكر لأوس بل في آخره : فكان للشيخة يرون أن الرجل عثمان بن عفان .

لا إله إلا الله سبحانه الله (إن كان وعد ربنا لمفعولا) قال : فنجبت حين عرفني ولا والله ما رأيته قبل ذلك ولا رأيته ! قلت : من أين عرفت اسمي واسم أبي وما رأيته قبل اليوم ؟ (يأني العالم الخبير) وعرفت روعي وروحك حين كتبت نفسي نفسك ، إن الأرواح لها أنفُس كما أنس الأجساد وإن المؤمنين ليُعرف بعضهم بعضا ويتحاربون بروح الله وإن لم يلتقوا ، يتعارفون ويتكلمون وإن نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل ، قال : قلت حديثي رحلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث اسمه منك قال : إني لم أرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن لي معه صحبة بأبي وأمي رسول الله ولكن رأيت رجلا قد صحبوه وبلغني من حديثه كما بلغك لست أحب أن أفصح على نفسي هذا الباب أن أكون عددا أو مفتيا قاضيا في نفس شغل عن الناس ياهرم بن حيان ! قلت : يا أخى اقرأ على آية من القرآن اسمها منك وادع لي بدعوات وأوصني بوصية أحفظها عنك فأني أجعل في الله حيا شديدا ، قال : فقام وأخذ يدي على شاطئ الفرات ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم بكى ، ثم قال : قال رب والحق قول ربى وأصدق الحديث حديث وأصدق الكلام كلامه ، ثم قرأ (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لأعين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) حتى انتهى إلى قوله (إنه هو العزيز الرحيم) فبقي شقه ظننت أنه قد غشى عليه ثم قال : يا ابن حيان مات أبوك حيان ويوشك أن تموت فأما إلى الجنة وإما إلى نار ، ومات أبوك آدم ومات أهلك حواء ومات نوح ومات إبراهيم خليل الرحمن ومات موسى نبي الرحمن ومات داود خليفة الرحمن ومات محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم وهو رسول رب العالمين ، ومات أبو بكر خليفة المسلمين ومات عمر بن الخطاب أخى وصفى ، ثم قال : ياعمره ياعمره ، قال : فقلص رحلك الله إن عمر لم يميت ، قال : فقد نماه إلى ربى ونمى إلى نفسي ! ثم قال : أنا وأنت في الموت كأنه قد كان ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا بدعوات خفيات ، ثم قال : هذه وصيتي إياك ياهرم بن حيان كتاب الله ونهج الصالحين المؤمنين فقد نسيته إلى نفسي ونفسيك ، عليك بذكر الموت لا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت ، وأنتد فومك إذا رجعت إليهم وانصح لامة جميعا ، وإياك أن تفارق الجماعة قيد شبر فتفارق دينك وأنت لا تعلم فتدخل النار يوم القيامة ، ادخل ونفسيك ، ثم قال : اللهم إن هذا يزعم أنه يحبني فيك وزارني من أجلك فمرقني وجهي في الجنة وأدخله علي في دارك دار السلام واحفظه مادام في الدنيا حيثما كان وضم عليه ضيعة وأرضه من الدنيا باليسر وما أعطيت من الدنيا فيسره له تسهرا واجعله لما أعطيت من تمالك من الفاكيرين وأجره عن غير الجوراء ثم قال : أستودعك الله ياهرم بن حيان والسلام عليك ورحمة الله وبركاته لأراك بعد اليوم رحلك الله تطليقي فأني أكره الشهرة والوحدة أحب إلى إني كثير الهم شديد الغم مع هؤلاء الناس مادمت حيا فلا تسأل عني ولا تطليقي ، واعلم أنك متى حل بال ولزمت لم أرك ولم ترقى فاذكرني وادع لي فأني سأذكرك وادعوك إن شاء الله ، أطلق أنت ههنا حتى أطلق أنا ههنا . فحرصت أن أسمى معه ساعة فأبى على وفارقه فبكى وأبكاني وجعلت أنظر في قضاء حتى دخل بعض السلك ، ثم سألت عنه بعد ذلك فما وجدت أحدا يخبرني عنه بشئ رحمه الله وغفر له .

فكذلك كانت سيرة أبناء الآخرة المرصين عن الدنيا .

وقد عرفت بما سبق في بيان الدنيا ومن سيرة الأنبياء والأولياء أن حد الدنيا كل ما أظنك الحضراء وأقننه الغبراء إلا ما كان لله عز وجل من ذلك . وضد الدنيا الآخرة وهو كل ما أريد به الله تعالى بما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا لأجل قوة طاعة الله ذلك ليس من الدنيا . ويتبين هذا بآمال وهو أن الحاج إذا حلف أنه في طريق الحج لا يشتغل بشئ الحج بل يتجرد له ، ثم اشتغل بمحفظ الزاد وعلف الجمل وخرز الراوية وكل مالا بدلمج منه لم يحث في يمينه ولم يكن مشغولا بشئ الحج . فذلك البدن مركب النفس تقطع به مسافة العمر ، فتهد البدن بما تبقى به

قرته على سلوك الطريق بالمعلم والعمل هو من الآخرة لآمن الدنيا . نعم إذا قصد تلذذ البدن وتعمه بشئ من هذه الأسباب كان منحرفاً عن الآخرة ويعنى على قلبه القسوة . قال الطنابسى : كنت على باب بنى شية في المسجد الحرام سبعة أيام طاولا فسمعت في الليلة الثامنة مناديا وأنا بين اليقظة والنوم ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج إليه أحى الله عين قلبه . فلذا يان حقيقة الدنيا في حرك . فاعلم ذلك ترشد إن شاء الله تعالى .

بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت هم المخلوق حتى أنسىهم أنفسهم

### وخالقهم ومصدرهم ومورد

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة وللإنسان فيها حظ وله في إصلاحها شغل . فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن أحدها وليس كذلك ، أما الأعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها فهي الأرض وما عليها قال الله تعالى ﴿لنا جعلنا ما على الأرض ربة لما نبلوهم أيهم أحسن عملا﴾ فالأرض فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقر ، وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح .

ويصح ما على الأرض ثلاثة أقسام : المعادن والنبات والحيوان .

أما النبات : فيطلب الأذى للاقتيات والتداوى

وأما المعادن : فيطلبها للأواني والآلات كالنحاس والرصاص ، وللتفقد كالذهب والفضة ، ولغير ذلك من المقاصد .

وأما الحيوان فينقسم إلى الإنسان والبهائم . أما البهائم : فيطلب منها لحومها لما آكل وظهورها للركوب والزينة . وأما الإنسان : فقد يطلب الأذى أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستخرجهم كالغلمان ، أو ليمنع بهم كالجواري والنسوان ، ويطلب قلوب الناس ليلسكها بأن يفسد فيها التحظيم والإكرام وهو الذي يمر عنه بالجاه ؛ إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين . فهذه هي الأعيان التي يمر عنها بالدنيا ولد جمعها الله تعالى في قوله ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين﴾ وهذا من الإنس ﴿والفناطير المفترقة من الذهب والفضة﴾ وهذا من الجواهر والمعادن ، وفيه تنبيه على غيرها من اللآلئ والبراقيت وغيرها ﴿والخيل المسومة والأنعام﴾ وهي البهائم والحيوانات ﴿والحرث﴾ وهو النبات والزرع

فهذه هي أعيان الدنيا ؛ إلا أن لها مع العبد علاقتين : علاقة مع القلب وهو حبه لما وحظه منها وانصرف همه إليها ، حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بالدنيا . ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرياء والسعة وسو الظن والمداينة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر ، وهذه هي الدنيا الباطنة . وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرنا .

والعلاقة الثانية مع البدن ؛ وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحفظ غيره ، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها ، والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومقيلهم بالدنيا لهاتين العلاقتين : علاقة القلب بالمحب ، وعلاقة البدن بالشغل . ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الأعيان التي سميتها دنيا لم تخلق إلا لعلف الدابة التي يسير بها إلى تعالى ، وأعلى بالدابة البدن ، فإنه لا يبق إلا بطعم ومشرب وملبس ومسكن كما لا يبقى الجمل في طريق الحج إلا بلطف وماء وجلال



ومثال العبد في الدنيا في نسيانه نفسه ومقصده : مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق ولا يزال يلفظ التاعة ويصدها ويظننها ويكسوها ألوان الثياب ، ويعمل إليها أنواع الحشيش ويردها الماء بالتلج ، حتى تقوته القافلة وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة وعن بقائه في البادية فريسة السباع هو وقاته . والحاج البصير لاجله من أمر الجمل إلا القدر الذي يقوى به على المشي ، فيتمده وقلبه إلى الكعبة والحج . وإنما يلتفت إلى التاعة بقدر الضرورة . فكذلك البصير في السفر إلى الآخرة لا يشتغل بتهدئة البدن إلا بالضرورة كما لا يدخل بيت الماء إلا لضرورة ، ولا فرق بين إدخال الطعام في البطن وبين إخراجها من البطن في أن كل واحد منهما ضرورة البدن ، ومن ههنا ما يدخل بجلته فقيمت ما يخرج منها . وأكثر ما يشتغل الناس عن الله تعالى هو البطن ، فإن القوت ضروري وأمر المسكن والملبس أهون ، ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور واقتصروا عليه لم تستغرقهم أشغال الدنيا ، وإنما استغرقهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها وحظوظهم منها ، ولكنهم جهلوا وغفلوا وتاهت أشغال الدنيا عليهم وأصل بعضها ببعض وتعدت إلى غير نهاية محدودة ، فها هو لكثرة الأشغال ونسوا مقاصدها .

ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا ، وكيفية حدوث الحاجة إليها ، وكيفية غلط الناس في مقاصدها حتى تضع لك أشغال الدنيا ، كيف صرفت الحق عن الله تعالى وكيف استهم عافية أمورهم ؛ فنقول : الأشغال الدنيوية هي الحرف والصناعات والأعمال التي ترى الخلق منكبين عليها . وسبب كثرة الأشغال هو أن الإنسان مضطرب ثلاث : القوت ، والمسكن ، والملبس ، فالقوت : للغذاء والبقاء . والملبس : لدفع الحر والبرد . والمسكن : لدفع الحر والبرد ، ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمسال . ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس مصلحاً بحيث يستغنى عن صنعة الإنسان فيه .

نعم خلق الله ذلك الهائم ، فإن النبات يقضى الحيوان من غير طبع ، والحر والبرد لا يؤثر في بدنه فيستغنى عن البناء ويقنع بالصحراء . وليأسها شعورها وجلودها ، فتستغنى عن اللباس .

والإنسان ليس كذلك لحدوث الحاجة إلى خمس صناعات هي أصول الصناعات ، وأوائل الأشغال الدنيوية ، وهي الفلاحة ، والرعاية والاقتصاد ، والحياكة والبناء . أما البناء فلمسكن . والحياكة وما يكتسبها من أمر الغزل والحياطة لللباس . والفلاحة للمطعم . والرعاية للواشي والحيسل أيضاً للطعم والركب . والاقتصاد نفى به تحصيل ما خلفه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب ، فالقلاحة يحصل الثيابات والراعي يحفظ الحيوانات ويستجها . والمقتصد يحصل ما نبت وتبع بنفسه من غير صنع آدمي ، وكذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنع آدمي ، ونفنى بالاقتصاد ذلك ويدخل تحت صناعات وأشغال عدة . ثم هذه الصناعات تقتضي إلى أدوات وآلات كالحياكة والملاحة والبناء . والاقتصاد ، والآلات إنما تؤخذ من النبات وهو الأخشاب ، من المعادن كالحديد والرصاص وغيرهما ، أو من جلود الحيوانات . لحدوث الحاجة إلى ثلاث أنواع آخر من الصناعات : التجارة والحفادة ، والحرث ، وهؤلاء هم عمال الآلات . ونفنى بالتجارة ، كل عامل في الحطب كيفما كان . وبالحداد ، كل عامل في الحديد وجواهر المعادن حتى النحاس والأبرى وغيرهما . وغرضنا ذكر الأجناس فأما آحاد الحرف فكثيرة . وأما الحرث ؛ فتتضمن به كل عامل في جلود الحيوانات وأجراتها . فهذه أمهات الصناعات .

ثم إن الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره من أبناء جنسه وذلك لسببين ؛ أحدهما : حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان ، ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكر والأنثى وعشرتهما . والثاني :

التعاون على تهيئة أسباب الطعام والملبس والتمتع بالولد، فإن الاجتماع يقضى إلى الولد لاجتماعه، والواحد لا يشتغل بحفظ الولد وتهيته أسباب القوت. ثم ليس يكفي الاجتماع مع الأهل والولد في المنزل بل لا يمكنه أن يعيش كذلك ما لم يتجمع طائفة كثيرة ليتكفل كل واحد بصناعة. فإن الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده وهو يحتاج إلى آلاتها، ويحتاج الآلة إلى حداد ونجار، ويحتاج الطعام إلى طباخ وخباز؟ وكذلك كيف يتفرد بتحصيل اللبس وهو يفترق إلى حراسة القطن وآلات الحياكة والخياطة وآلات كثيرة؟ فلذلك امتنع عيش الإنسان وحده وحدثت الحاجة إلى الاجتماع. ثم لو اجتمعوا في صحراء مكشوفة لتأذوا بالحر والبرد والمطر والصوص فافترقوا إلى أبنية محكمة ومنازل يتفرد كل أهل بيت به وبما معه من آلات والأثاث والمنازل تدفع الحر والبرد والمطر وتدفع أذى الجيران من الصوصية وغيرها، ولكن المنازل قد تقصدها جماعة من الصوص خارج المنازل، فافتقر أهل المنازل للتناصر والتعاون والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل، فحدثت البلاد لهذه الضرورة.

ثم مهما اجتمع الناس في المنازل والبلاد وتعاملوا تولدت بينهم خصومات، إذ تحدث رياسة وولاية الزوج على الزوجة، وولاية للأبوين على الولد لأنه ضعيف يحتاج إلى قوام به. ومهما حصلت الولاية على عاقل أفضى إلى الخصومة بخلاف الولاية على البهائم، إذ ليس لها قوة الخاصة وإن ظلمت. فأما المرأة فتخاصم الزوج، والولد يخاصم الأبوين. هذا في المنزل.

أما أهل البلد فيتعاملون في الحاجات ويتنازعون فيها، ولو تركوا كذلك لتفانوا وهلكوا، وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة يواردون على المراعي والأراضي والمياه وهي لا تفي بأغراضهم فيتنازعون لاجتماعهم. ثم قد يجور بعضهم عن الفلاحة والصناعة يسمى أو مرض أو هرم وتعرض عوارض مختلفة ولو ترك ضائعاً هلك، ولو وكل تفقد إلى الجميع لتفادوا ولو خص واحد من غير سبب يخصه لكان لا يذعن له.

فحدث بالضرورة من هذه العوارض الخاصة بالاجتماع صناعات أخرى. فبها صناعة المساحة التي بها تعرف مقادير الأرض تمكن القسمة بينهم بالعدل. ومنها صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع الصوص عنهم. ومنها صناعة الحكم والتوصل لفصل الخصومة. ومنها الحاجة إلى الفقه وهو معرفة القانون الذي يبنى أن يضبط به الخلق، ويلزموا الوفاق على حدوده حتى لا يكثر النزاع وهو معرفة حدود الله تعالى في المعاملات وشروطها.

فهذه أمور سياسية لا بد منها ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة من العلم والتميز والمهنية، وإذا اشتغلوا بها لم يتفرغوا لصناعة أخرى ويحتاجون إلى المعاش، ويحتاج أهل البلد إليهم إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الأعداء مثلاً تطلعت الصناعات، ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت تطلعت البلاد من الحراس واستغنى الناس، فست الحاجة إلى أن يصرف إلى معاشهم وأرزاقهم الأموال الضائعة التي لإمالكها إن كانت أو تصرف الغنائم إليهم لأن كانت الدواوة مع الكفار، فإن كانوا أهل ديانة وورع تقوا بالقليل من أموال المصالح وإن أرادوا التوسع قسست الحاجة لاجتماعهم إلى أن يمدد أهل البلد بأموالهم ليمدوم بالحراسة، فتحدث الحاجة إلى الخراج.

ثم تولد بسبب الحاجة إلى الخراج الحاجة لصناعات أخرى، إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الأموال وهم المال، وإلى من يستوفى منهم بالرفق وهم الجباة والمتخرجون، وإلى من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة وهم الخزان، وإلى من يفرق عليهم بالعدل وهو الفارض المساكين. هذه الأعمال لو تولاها عدد لا يجتمعهم بأجلة اغرم النظام فتحدث منه الحاجة إلى ملك يديرهم أو أمير مطاع يسير لكل عمل شخص، ويختار لكل واحد ما يليق به ويراعى النصفة في أخذ الخراج وإعطائه، واستعمال الجند في الحرب وتوزيع أسلحتهم وتعيين جهات الحرب ونصب الأمير والقائد على كل

طائفة منهم إلى غير ذلك من صناعات الملك ، فيحدث من ذلك جد الجند الذين هم أهل السلاح وبعد الملك الذي يرأبهم بالعين الكائنة ويدبرهم الحاجة إلى الكتاب والخزان والحساب والجملة والعمال . ثم هؤلاء أيضاً يحتاجون إلى معيشة ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف فتحدث الحاجة إلى مال الفرع مع مال الأصل وهو المسمى فرع الخراج . وعند هذا يكون الناس في الصناعات ثلاثة طوائف : الفلاحون والزراعة والخزفون . والثانية : الجندية الحماة للسيوف . والثالثة : المترددون بين الطائفتين في الأخذ والعطاء . وهم العمال والجليات وأمثالهم . فانظر كيف أتدأ الأمر من حاجة القوت والملبس والسكن وإلى ماذا انتهى ! وهكذا أمور الدنيا لا يفتح منها باب إلا ويفتح بسببه أبواب أخرى . وهكذا تنتهي إلى غير حد محصور وكأنها هاوية لا نهاية للعمقها ، من وقع في هاوية منها سقط منها إلى أخرى ، وهكذا على التوالي . فنهى الحرف والصناعات إلا أنها لاتم إلا بأموال والآلات . والمال عبارة عن أعيان الأرض وما عليها ما ينفع به وأعلام الأغذية ، ثم الأمكنة التي يأوى الإنسان إليها وهي الدور ، ثم الأمكنة التي يسمى فيها التئيش كالحوانيت والأسواق والمزارع ، ثم آلات البيت وآلاته ، ثم آلات الآلات ، وقد يكون في الآلات ما هو حيوان كالكلب آلة الصيد ، والبقرة آلة الحرثة ، والفرس آلة الركوب في الحرب . ثم يحدث ذلك حاجة البيع فإن الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة . والحداد والتجار يسكنون قرية لا يمكن فيها الزراعة . فبالضرورة يحتاج الفلاح إليهما ويحتاجان إلى الفلاح ، فيحتاج أحدهما أن يبذل ماعنده للآخر حتى يأخذ منه غرضه وذلك بطريق المعاوضة ، إلا أن التجار مثلاً إذ طلب من الفلاح الغذاء بآلته ربما لا يحتاج الفلاح في ذلك الوقت إلى آله فلا يبيعه ، والفلاح إذا طلب الآلة من التجار بالطعام ربما كان عنده طعام في ذلك الوقت فلا يحتاج إليه فتعوق الأغراض ، فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة ليترصد بها صاحبها أبواب الحاجات وإلى أعيان يجمع إليها ما يحصل الفلاحون فيشترى منهم صاحب الأبيات ليترصد به أبواب الحاجات ، فظهرت لذلك الأسواق وانحازن فيحمل الفلاح الحبوب فإذا لم يصادف محتاجاً باعها بثمان رخيص من الباعة فيخزنونها في انتظار أبواب الحاجات طمعاً في الريح ، وكذلك في جميع الأمثلة والأموال . ثم يحدث لامحالة بين البلاد والقرى تردد فيتردد الناس يشتررون من القرى الأطعمة ومن البلاد الآلات ، وينقلون ذلك رخصيصون به لتعظم أمور الناس في البلاد بسببهم ، إذ كل بلد ربما لا توجد فيه كل آلة ، وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام ، فالبعض يحتاج إلى البعض فيسوح إلى النقل ، فيحدث التجار المتكفلون بالنقل وباعهم عليه حرم جمع المال لامحالة ، فيتممون طول الليل والنهار في الأسفار لغرض غيرهم ، ونصيبهم منها جمع المال الذي يأكله لا محالة غيرهم ، وإما قطع طريق وإما سلطان ظالم ، ولكن جعل الله تعالى في غفلتهم وجهان نظام البلاد ومصلحة العباد . بل جميع أمور الدنيا انطلمت بالغبطة وخسة الهمة . ولو عقل الناس وارتفعت همهم لزهوا في الدنيا ، ولو فعلوا ذلك لبطلت المعاش ، ولو بطلت لملكوا ولهلك الزهاد أيضاً .

ثم هذه الأموال التي تنقل لا يقدر الإنسان على حملها فتحتاج إلى دواب تحملها ، وصاحب المال قد لا تكون له دابة فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الإجارة ، ويصير الكراء نوعاً من الاكتساب أيضاً ، ثم تحدث بسبب البياعات الحاجة إلى التقدير فإن من يريد أن يشتري طعاماً بثوب فإن أين يدرى المقدار الذي يساويه من الطعام كم هو : والمعاملة تجري في أجناس مختلفة كما يباع ثوب بطعام وحيوان بثوب وهذه أمور لا تناسب ، فلا بد من حاكم عدل يتوسط بين المتبايعين يبدل أحدهما بالآخر فيطلب ذلك العدل من أعيان الأموال ، ثم يحتاج إلى مال يطول بقاؤه لأن الحاجة إليه تدوم . وأبقى الأموال للمادن فانتقلت النقود من الذهب والفضة والنحاس ثم صمت الحاجة إلى الضرب والنقش والتقدير فسمت الحاجة إلى دار الضرب والسيارة . وهكذا تتداعى الأشغال

والأعمال بعضها الى بعض حتى انتهت إلى مآزرها . فبه أشغال الخلق وهي معاشهم . وشئ من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلا بنوع تعلم وتعب في الابتداء .

وقى الناس من يتفل عن ذلك في الصبا فلا يشتغل به أو يمنه عنه مانع فيبقى عاجزا عن الاكتساب لحيوه من الحرف فيحتاج إلى أن يأكل ما يسمى فيه غيره ، فيحدث منه حرفتان خبيستان : الصومعة والكداية ، إذ يحسبهما أنهما يا كلان من سعى غيرهما ثم الناس يحترزون من الصومع والمكدين ويحفظون عنهم أموالهم فافتقروا إلى مصرف حقوقهم في استنباط الحيل والتدبير .

أما الصومع : فمنهم من يطلب أحوالنا ويكون في يديه شوكة وقوة فيجتمعون ويكاثرون ويقطعون الطريق كالأعراب والأكراد . وأما الضعفاء منهم فيغزفون إلى الحيل إما بالنقب أو التسلق عند انتهاء فرصة الغفلة ، وإما بأن يكون طرارا أو سلالا ، إلى غير ذلك من أنواع التلصص الحادة بحسب ما تتجه الأفكار المصروقة إلى استنباطها .

وأما المكدي فإنه إذا طلب ماسى فيه غيره وقيل له اتعب واعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة فلا يعمى شيئا ، فافتقروا إلى حيلة في استخراج الأموال وتمديد المنز لا تقسم في البطالة ، فاحتالوا التحلل بالهجر إما بالحقيقة كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليندروا بالمس فيعطون ، وإما بالتماسي والتفالج والتجانن والتفارض ، وإظهار ذلك بأنواع من الحيل مع بيان تلك حجة أصابت من غير استحقاق ، وليكون ذلك سبب الرحمة بوجاهة يتمسكون أقوالا وأفعالا يتعجب الناس منها حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها ، فيسخرها برفع اليد عن قليل من المال في حال التعجب ، ثم قد ينهم بعد زوال التعجب ولا يتفجع الندم . وذلك قد يكون بالتسخر والمحاكاة والتمهينة والأفعال المضحكة ، وقد يكون بالأشغال الثرية والكلام المشور المسجع مع حسن الصوت . والصبر الموزون أشد تأثيرا في النفس لاسيما إذا كان فيه تعصب يعلق بالمذاهب كأشعار مناقب الصحابة فضائل أهل البيت ، أو الذي يحرك داعية العشق من أهل الجماعة كصنعة الطبايعين في الأسواق ، وصنعة ما يشبه العوض وليس بعوض كبيع التمريذات . والحفش الذي يحيل بانه أنها أوعية فيندع بذلك الصبيان والجهال . وكأصحاب القرعة والقائل من المتجمعين . ويدخل في هذا الجنس الواظرون المكندون على رموس المنابر إذا لم يكن وراءهم طائل على وكان غرضهم استيالة قلوب العوام وأخذ أموالهم بأنواع الكدبة ؛ وأنواعها تزيد على ألف نوع وألفين . وكل ذلك استنبط يدين الفكر لآجل الميعة . فبه هي أشغال الخلق وأعمالهم التي أكبروا عليها . وجرهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسهم ومقصدتهم ومآلهم فتألموا وضلوا ، وسبق إلى حقوقهم الضميمة بعد أن حكتبتها زحمة الاشتغالات بالدنيا خيالات فاسدة : فاقسمت مذاهبهم واختلقت آراؤهم حل عدة أوجه :

فلطائف علم الجمل والنفقة فلم تفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم فقالوا : المقصود أن نعيش أياما في الدنيا فنبتدئ حتى نكسب القوت ، ثم نأكل حتى تقوى على الكسب : ثم نكسب حتى نأكل فيأكلون ليكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا . وهذا منهج الفلاحين والمخترين ومن ليس له تتم في الدنيا ولا قسم في الدين . فإنه يصبهارا ليأكل ليلا ليمتد نهارا . وذلك كسر السواني فهو سفر لا يتقطع إلا بالموت .

وطائفة أخرى زعموا أنهم تفتنوا الأمر وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعم في الدنيا؛ بل السعادة في أن يقضى وطره من شهوات الدنيا وهي البطن والفرج، فهؤلاء نسوا أنفسهم وصرفوا مهمهم إلى اتباع الناس وجمع لذاتة الألطمة يأكلون كما تأكل الأنعام ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة فتغلبهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر .

وطائفة غنوا أن السعادة في كثرة المال والاستغناء بكثرة الكسب، فأسهروا ليلهم وأنعموا نهارهم في الجمع، فهم يصبون في الأسفار طول الليل والنهار ويرتدون في الأعمال الشاقة ويكتسبون، ويمسحون ولا يأكلون إلا قدر الضرورة فيما وبغلا عليها أن تنقص، وهذه لذتهم وفي ذلك دأبهم وحركتهم إلى أن يدرهم الموت، فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله في الشهوات والذات؛ فيكون للجامع تعب وبأله وللأكل لذته . ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون .

وطائفة غنوا أن السعادة في حسن الاسم والعلاقات الألسنة بالثناء والمدح بالتجميل والمروءة؛ فهؤلاء يصبون في كسب المعاش ويعيقون على أنفسهم في المعظم والمشرى ويصرفون جميع ما لهم من الملابس الحسنة والنواب التنفيسة، ويخرجون أبواب الدور وما يقع عليها إحصار الناس حتى يقال إنه غنى وإنه ذو ثروة ويظنون أن ذلك هو السعادة فهتفهم في نهارهم وليلهم في تهدي موقع نظر الناس .

وطائفة أخرى غنوا أن السعادة في الجاه والكرامة بين الناس واتباع الحق بالتواضع والتوقير، فصرفوا مهمهم إلى استمراء الناس إلى الطاعة لطلب الولايات وتقلد الأعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس، وروى أنهم إذا اتعت ولايتهم واثقت لهم رعاياهم قد سعوا سعادة عظيمة، وأن ذلك غاية المطلب . وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس، فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته وعن التفكير في آخرتهم ومعادهم .

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيف وسبعين فرقة، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، وإما جرم إلى جميع ذلك حاجة المعظم والمليين والمسكن ونسوا ما تراه هذه الأمور الثلاثة والتقدير الذي يكفى منها . وانجرت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها، وتدأى بهم إلى مبالغة لم يكنهم الرق منها، فنعرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال وعرف غاية المقصود منها فلا يخفى في شغل وحرقه وعمل إلا وهو عالم بمقصوده وعالم بحظه ونصيبه منه، وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك، وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة وانصرفت همه إلى الاستعداد له، وإن تعدى به قدر الضرورة كثرت الأشغال وتدأى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية فتقتصب به المعلوم ومن تشعبت به المعلوم في أودية الدنيا فلا يزال الله في أي واد أهلكت منها . فهنا شأن المتمكين في أشغال الدنيا . وتليه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدنيا خدشهم الشيطان ولم يتركهم، وأضلهم في الإعراض أجنباً حتى انقسموا إلى طوائف:

فعلت طائفة أن الدنيا دار بلاء وعنة والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها سواء تعبد في الدنيا أو لم تعبد فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من عنة الدنيا . وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل المتمدن فهم يهجمون على النار ويتلون أنفسهم بالإحراق، ويظنون أن ذلك خلاص لهم من عنة الدنيا .

وعلمت طائفة أخرى أن القتل لا يخلص بل لا بد أولاً من إمامة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية . وأن السعادة في قطع الشهوة والغضب، ثم أقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم، حتى ملك بعضهم بشده الرياضة

وبعضهم فسد عقله وجن . وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق في العبادة . وبعضهم عجز عن قبح الصفات بالكلية فظن أن ما كلفه الشرع عاقل وأن الشرع ليس لا أصل له فوقع في الإلحاد . وظهر لبعضهم أن هذا التمسك كله لله وأن الله تعالى مستغن عن عبادة المباد لا يتقصه عصيان عاصم ولا تزيده عبادة متعبد ، فعادوا إلى الشهوات وسلكوا مسلك الإباحة وطلوا بساط الشرع والأحكام ، وزعموا أن ذلك من صفات توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة المباد .

وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى ، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل وبهد الوصول يستغنى عن الوسيلة والحيطة ، فتركوا السبيل والعبادة وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتحنوا بالتكاليف ، وإنما التكليف على عوام الخلق .

ووراء هذا مذاهب باطلة وخلاطات هائلة يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيفاً وسبعين فرقة ، وإنما الناجي منها فرقة واحدة وهي السالكة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية ولا يجمع الشهوات بالكلية . أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد . وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل . ولا يجمع كل شهوة ؛ بل يتسع العدل ولا يترك كل شيء من الدنيا ، ولا يطلب كل شيء من الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده ، فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحرق والبرد ، ومن الكسوة كذلك ، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه حتم واشتغل بالذكر والفكر طول العمر ، وبقي ملازماً لسياسة الشهوات ومراقباً لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى ، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاعتناء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فإنه عليه السلام لما قال « الناجي منها واحدة » قالوا : يا رسول الله ومن هم ؟ قال « أهل السنة والجماعة » فقيل : ومن أهل السنة والجماعة ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابي »<sup>(١)</sup> وقد كانوا على النهج القصد وعلى السبيل الواضح الذي فصلناه من قبل ، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين ، وما كانوا يترهبون ويهربون الدنيا بالكلية ، وما كان لهم في الأمور تفریط ولا إفراط ، بل كان أمرهم بين ذلك قواماً ، وذلك هو العادل والوسط بين الطرفين وهو أحب الأمور إلى الله تعالى — كما سبق ذكره في مواضع — والله اعلم .

تم كتاب ذم الدنيا والحادثة أولاً وآخرأ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

(١) حديث : افتراق الأمة وفيه « الناجي منهم واحدة » قالوا : ومن هم ؟ قال « أهل السنة والجماعة ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه « تفرق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة » فقالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابي » ولأبي داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أنس وعوف بن مالك وهي الجماعة وأسايندها جيد .

## كتاب ذم البخل وذم حب المال

وهو الكتاب السابع من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط ، وكشف الضربيد القنوط ، الذى خلق الخلق ، ووسع الرزق ، وأفاض على العالمين أصناف الأموال ، وأبلاهم فيها بتقلب الأحوال ، ورددكم فيها بين العسر واليسر ، والغنى والفقر ، والطمع والياس ، والثروة والإفلاس ، والعجز والاستطاعة ، والحرص والقناعة ، والبخل والجود ، والفرح بالموجود ، والأسف على المفقود ، والإيثار والإتقاق ، والتوسع والإملاق ، والتبذير والتقتير ، والرضا بالقليل واستعثار الكثير ، كل ذلك ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، وينظر أيهم آخر الدنيا على الآخرة بدلا ، وإيتنى عن الآخرة عدولا وحولا ، واتخذ الدنيا ذخيرة وغولا ، والصلاة على محمد الذى نسخ بملكته ملا ، وطوى بشرمته أديانا ونحلا ، وعمل آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل ربهم ذللا ، وسلم تسليلا كثيرا .

أما بعد : فإن فن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف واسعة الأرجاء والأكناف ، ولكن الأموال أعظم فنها وأطم عنها ، وأعظم فتنة فيها أنه لاغنى لأحد عنها ، ثم إذا وجدت فلا سلامة منها ، فإن فقد المال حصل منه الفقر الذى يكاد أن يكون كفرا ، وإن وجد حصل منه الطغيان الذى لا تكون طاعة أمره إلا غمرا . وبالجملة فهى لا تخطر من الفوائد والآفات ، وقواتها من المنجيات ، وآفاتنا من المهلكات ، وتميز خيرها عن شرها من المعصيات التى لا يقوى عليها إلا ذور البصائر فى الدين من العلماء الراستخين دون الترسمين المغترين . وشرح ذلك مهم على الانفراد ، فإن ما ذكرناه فى كتاب ذم الدنيا لم يكن نظرا فى المال خاصة بل فى الدنيا عامة ، إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل ، وللمال بعض أجزاء الدنيا ، وللمجاهد بعضها ، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها ، وتقضى النفيظ بحكم الغضب والحسد بعضها ، والكبر وطلب الملو بعضها . ولها أباض كثيرة . ويجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظ عاجل . ونظرنا الآن فى هذا الكتاب فى المال وحده ، إذ فيه آفات وغوائل . وللإنسان من فقده صفة الفقر ومن وجوده وصف الغنى . وهما حالتان يحصل بهما الاختيار والامتحان .

ثم لفائدة حالتان : القناعة والحرص ، وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة . والحريص حالتان : طمع فيها فى أبدى الناس ، وتشمير الحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق ، والطمع شر الحالتين .

والواجد حالتان : إمساك بحكم البخل والشح ، وإتقاق . وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة . والبنفق حالتان : تبذير واقتصاد ، والمحمود هو الاقتصاد .

وهذه أمور متشابهة وكشف النطاء عن الغموض فيها مهم . ونحن نشرح لك ذلك فى أربعة عشر فصلا إن شاء الله تعالى وهو : بيان ذم المال ، ثم مدحه ، ثم تفصيل قوائد المال وآفاته ، ثم ذم الحرص والطمع ، ثم علاج الحرص والطمع ثم فضيلة السخاء ، ثم حكايات الأسخياء ، ثم ذم البخل ، ثم ذم البخلاء ، ثم الإيثار وفضله ، ثم جد السخاء والبخل ، ثم علاج البخل ، ثم مجموع الوظائف فى المال ، ثم ذم الغنى وطلب الفقر ، إن شاء الله تعالى .

## بيان ذم المال وكرهه حبه

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَطْلُمُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ الْخَاسِرُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ تَتْلُو عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وعين خسراً عظيماً . وقال عز وجل: ﴿ مَنْ كَانَ يَرْيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ الآية . وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وقال تعالى: ﴿ اطْلُمُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ: « حب المال والشرف يبتتان التناق في القلب كما يبت الماء البقل »<sup>(١)</sup> وقال ﷺ: « ما ذبيان ضاريان أرسلتا في زريبة غنم بأكثر إفساداً فيها من حب الشرف والمال والجاه في دين الرجل المسلم »<sup>(٢)</sup> وقال ﷺ: « هلك المكثرون إلا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا وقليل ما هم »<sup>(٣)</sup> وقيل: يا رسول الله أي أمتك شر؟ قال: « الأغنياء »<sup>(٤)</sup> وقال ﷺ: « سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطياب الدنيا وألوانها ويركون فرة الخيل وألوانها وينكحون أجل النساء وألوانها ويلبسون أجل الثياب وألوانها ، لم يطلون من القليل لا تشبع وأنفس بالكثير لا تنفخ ، ما يكونون على الدنيا يندون ويروحون إليها ، اتخضوها آلهة من دون إلههم وربا دون ربهم ، إلى أمرها يتهون ولها يطمعون ، فريجة من محمد بن عبد الله لمن أدركه ذلك الزمان من عقب عظيم وخلف خلفكم أن لا يسلم عليهم ولا يهود مرضاهم ولا يتبع جنازتهم ولا يورثهم ، فمن فعل ذلك فقد أمان على هدم الإسلام »<sup>(٥)</sup> وقال ﷺ: « دعوا الدنيا لأهلها ، من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حقه وهو لا يشعر »<sup>(٦)</sup> وقال ﷺ: « يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من المال إلا ما أكلت فأفقت أو لبست فألبست أو تصدقت فأصفت »<sup>(٧)</sup> وقال رجل: يا رسول الله مالي لأحب الموت! فقال: « هل معك من مال؟ » قال: نعم يا رسول الله: قال: « قدم ما لك فإن قلب المؤمن مع ماله ، إن قدمه

## مكتاب ذم البخل وحب المال

(١) حديث « حب المال والشرف يبتتان التناق في القلب كما يبت الماء البقل » لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بلفظ « الجاه » بدل « الشرف » . (٢) حديث « ما ذبيان ضاريان أرسلتا في زريبة غنم بأكثر إفساداً لها من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم » أخرجه الترمذي والنسائي في الكبرى من حديث كعب بن مالك وقال « جاتمان » مكان « ضاريان » ولم يقل « في زريبة » وقال « الشرف » بدل « الجاه » قال الترمذي حسن صحيح والطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد « ما ذبيان ضاريان في زريبة غنم ... الحديث » وللإمام من حديث أبي هريرة « ضاريان جاتمان » وإسناد الطبراني فيهما ضعيف . (٣) حديث « هلك المكثرون إلا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث عبد الرحمن بن أبيزى بلفظ « المكثرون » ولم يقل « في عباد الله » ورواه أحمد من حديث أبي سعد بلفظ « للمكثرون » وهو متفق عليه من حديث أبي ذر بلفظ « هم الأثريون » فقال أبو ذر: من هم؟ قال: « هم المكثرون أموالاً إلا من قال هكذا ... الحديث » .

(٤) حديث: قيل يا رسول الله أي أمتك شر؟ قال: « الأغنياء » غريب لم أجده بهذا اللفظ والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث عبد الله بن جعفر « شر أمتي الذين ولعوا في النعم وغنوا به يأكلون من الطعام ألواناً وفيه أصرم بن حوشب ضعيف ورواه هناد بن السرى في الزهد له رواية عروة بن ربيع مرسلاً وللإمام من حديث أبي هريرة بسند ضعيف « إن من شر أمتي الذين غنوا بالنعم ونبتت عليه أجسامهم » . (٥) حديث « سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطياب الدنيا وألوانها وينكحون أجل النساء وألوانها ... الحديث » بطوله أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي أمامة « سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب يتشددون في الكلام أولئك شر أمتي » وسنده ضعيف ولم أجد لبقائه أصلاً .

(٦) حديث « دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حقه وهو لا يشعر » أخرجه الترمذي من حديث أنس وفيه هاء بن لتوكل ضعفه ابن حبان . (٧) حديث « يقول العبد مالي مالي ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن الشيخ وأبي هريرة وقد تقدم .



أحب أن يلقه وإن خلفه أحب أن يخلفه معه <sup>(١)</sup> وقال عليه السلام : « أخلاء ابن آدم ثلاثة : واحد يتبعه إلى قبض روحه ، والثاني إلى قبره ، والثالث إلى عمره . فالذي يتبعه إلى قبض روحه فهو ماله ، والذي يتبعه إلى قبره فهو أهله ، والذي يتبعه إلى عمره فهو عمله » .

وقال الحواريون لميلى عليه السلام : مالك تمنى على الماء ولا تقدر على ذلك ؟ قال لهم : مامنة الدينار والدرهم عندكم ؟ قالوا : حسنة ؛ قال : لكنهما والمدر عندى سواء . وكتب سلمان الفارسي إلى أبو الدرداء رضى الله عنهما : يا أخى إياك أن تجمع من الدنيا مالا ترضى شكره ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « بجاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله امض فقد أدبت حق الله ، ثم بجاء بصاحب الدنيا الذى لم يطع الله فيها وماله بين كتفيه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله ويك ألا أدبت حق الله فى ما يزال كذلك حتى يصير بالويل والنجور » .

وكل ما أوردناه فى كتاب الزهد والفقر فى ذم النقي ومدح الفقر يرجع جميعه إلى ذم المال ، فلا نطول بشكروه ، وكذا كل ما ذكرناه فى ذم الدنيا فيتناول ذم المال بحكم العموم ، لأن المال أعظم أركان الدنيا . وإنما ذكر الآن ماورد فى المال خاصة .

قال عليه السلام : « إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم وقال الناس ما خلف » <sup>(٢)</sup> وقال عليه السلام : « لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا » <sup>(٣)</sup> .

الآثار : روى أن رجلا نال من أبي الدرداء وأراموه فقال : اللهم من فعل بى سوءا فأصح جسمه وأطل عمره وأكثر ماله . فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر ؟ لأنه لا بد وأن يقضى إلى الطينان ووضع على كرم الله وجهه درهما على كفه ثم قال : أما إنك ما لم تخرج عنى لا تمنعنى . وروى أن عمر رضى الله عنه أرسل إلى زينب بنت جحش بعلاتها فقالت : ما هذا ؟ قالوا : أرسل إليك عمر بن الخطاب ، قالت : فغفرا له ، ثم سلت سترًا كان لها قطعت وجعلته سررا وقسمته فى أهل بيتها ورحمها وأيتامها ، ثم رفعت يدها وقالت اللهم لا يدركنى صلاه عمر بعد عاى هذا . فكانت أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوا به . وقال الحسن : والله ما أحرى الدرهم أحد إلا أنه الله . وقيل : إن أول ما ضرب الدينار والدرهم وهما إبليس ثم وضعا على جبهة ثم قبلها وقال : من أحبكما فهو عيسى حقا . وقال سميط بن عجلان : إن الدرهم والدينارين أزمة المنافقين بقادون بما إلى النار . وقال يحيى بن معاذ : الدرهم عقر ب فإن لم تحسن رقبته فلا تأخذه ، فإنه إن لدغك فلك سمه ، قيل : وما رقبته ؟ قال : أخذه من حله ووضعه فى حقه . وقال العلاء بن زياد : تمتثل لى الدنيا وعليها من كل ذينة فقلت : أعوذ

(١) حديث : قال رجل يا رسول الله مالى لا أحب للوت ... الحديث . لم أقف عليه . (٢) حديث « أخلاء ابن آدم ثلاثة . واحد يتبعه إلى قبض روحه ، والثاني إلى قبره ... الحديث » أخرجه أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث النعمان بن بشير بإسناد جيد نحوه ، ورواه أبو داود الطيالسى وأبو الشيخ فى كتاب الثواب والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس بإسناد جيد أيضاً وفى الكبير من حديث سمرة بن جندب وللشيخين من حديث أنس « يتبع البيت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد ... الحديث » . (٣) حديث : كتب سلمان إلى أبي الدرداء وفيه : سمعت رسول الله ﷺ يقول « بجاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه ... الحديث » قلت : ليس هو من حديث سلمان وإنما هو من حديث أبي الدرداء أنه كتب إلى سلمان ؟ كذا رواه البيهقى فى الشعب وقال بدل « الدنيا » المال وهو منقطع . (٤) حديث « إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم ... الحديث » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبي هريرة يبلغ به وقد تقدم فى آداب الصلوة . (٥) حديث « لا تتخذوا الضيعة أتجوها الدنيا » أخرجه الترمذى والحاكم صحيح إسناده من حديث ابن مسعود بلفظ « قترعوا » .

بأنه من شرك قتالت: إن شركاً بينك الله منى فابضن درهم والدينار. وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها، فمن صبر عنها صبر عن الدنيا وذلك قيل:

إني وجدت فلا تظنوا غيره أن التورع عند هذا الدرهم  
فإذا قدرت عليه ثم تركته فاعلم بأن هناك قوى المسلم

وفي ذلك قيل أيضاً

لا يترك من المر • قيس رقه أو إذا فوق عظم المر • ساق منه رقه  
أو جبين لاح فيه • أثر قد غلغله أرو الدرهم تصرف • حبه أو ورعه

ويروى عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال: يا أمير المؤمنين صنعت صنيعاً لم يستمه أحد قبلك، تركت لك ليس لهم درهم ولا دينار. وكان له ثلاثة عشر من الولد. فقال عمر: أقصدوني! فأبصره فقال: أما لو لك من أرح لهم ديناراً ولا درهما فأبلى أمتهم حقاً لم أعظم حقاً لنفسي! وإنما ولدي أحد رجلين: إما مطيع لله فافقه كاليه والله يتولى الصالحين، وإما عاص لله فلا أبالي على ما وقع. وروى أن محمد بن كعب القرظي أصاب ما لا كثيراً فقيل له: لو أدرته لولدتك من بعدك؟ قال: لا ولكني أدرته لنفسي عند ربّي وأدخر ربّي لولدي. ويروى أن رجلاً قال لأبي عبد ربّه: يا أخى لا تذهب بشر وتترك أولادك يحرقوا. فأخرج أبو عبد ربّه من ماله مائة ألف درهم. وقال يحيى بن معاذ: مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للمبدى في ماله عند موته، قبل: وما هما؟ قال: يؤخذ منه كله ويسئل عنه كله.

### بيان مدح المال والجمع بينه وبين النعم

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال خيراً في مواضع من كتابه العزيز فقال عز وجل: ﴿إن ترك خيراً﴾ الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» (١) وكل ما جاء في ثواب الصدقة والجمع فهو ثناء على المال إذ لا يمكن الوصول إليها إلا به. وقال تعالى: ﴿ويستخرجنا كنزهما رحمة من ربك﴾ وقال تعالى: ﴿ممتنا على عباده﴾ (ويعبدكم بأموال وبنين ويحمل لكم جنات ويحمل لكم أنهاراً) وقال صلى الله عليه وسلم: «كاد الفقر أن يكون كفراً» (٢) وهو ثناء على المال. ولا تقف على وجه الجمع بعد النعم والمدح إلا بأن تعرف حكمة المال ومقصوده وأفاته وغوائره، حتى يتكشف لك أنه خير من وجه وشر من وجه، وأنه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شر، فإنه ليس بخير محض ولا هو شر محض، بل هو سبب الأمرين جميعاً. وما هذا وصفه فيمدح لأعماله نارة ويذم أخرى، ولكن البصير المميز يدرك أن المحمود منه خير للمذموم، وبيانه بالاستعداد مما ذكرناه في كتاب الشكر من إبان الخيرات وتفصيل درجات النعم، والقدر المقنع فيه هو أن مقصد الأكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة التي هي النعيم الدائم والملك المقيم. والتقصّد إلى هذا أدب الصكرام والأكياس: إذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: من أكرم الناس وأكيسهم؟ فقال أكثرهم الموت ذكرًا وأشدّهم له استعداداً (٣)

(١) حديث «نعم المال الصالح للرجل الصالح» أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو ابن العاص بسند صحيح بلفظ «نعم» وقالوا «لله». (٢) حديث «كاد الفقر أن يكون كفراً» أخرجه أبو مسلم الليثي في سننه والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس وقد تقدم في كتاب ذم التضيّب. (٣) حديث: من أكرم الناس وأكيسهم؟ قال «أكثرهم الموت ذكرًا... الحديث» أخرجه من حديث ابن عمر بلفظ: أي المؤمنين أكيس؟ ورواه ابن أبي الدنيا في الموت بلفظ الصنف وإسناده جيد.

وهذه السعادة لاتال إلا بثلاث وسائل في الدنيا وهي الفضائل النفسية : كالم وحسن الخلق . والفضائل البدنية : كالصحة والسلامة . والفضائل الخارجة عن البدن : ككسب سائر الأسباب . وأعلامها النفسية ، ثم البدنية ، ثم الخارجية .

فالخارجة أحسبها والمال من جملة الخارجيات ، وأدناها الدرهم والدنانير ، فإنهما غادمان ولا خادم لهما ، ومرادان لغيرهما ولا يرادان لذاتهما ، إذ النفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادتها ، وأنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلها صفة ذاتها بالبدن تخدم النفس بواسطة الخواص والأعضاء ، والمطاعم والملابس تخدم البدن . وقد سبق أن المقصود من الطعام إبقاء البدن : ومن الماكح إبقاء النسل ، ومن البدن تكميل النفس وتركيتها بالعلم والخلق . ومن عرف هذا الترتيب قد عرف قدر المال ووجه شرفه ، وأنه من حيث هو ضرورة الطعام والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن الذي هو ضرورة كمال النفس الذي هو خير . ومن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده واستعمله تلك الغاية ملتفتاً إليها غير ناس لما قد أحسن وانتفع ، وكان ما حصل له الفرض محموداً في حقه . فإن ذلك المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح ، ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة وهي المقاصد الصادرة عن سعادة الآخرة وتسد سبيل العلم والعمل . فهو إذا محمود مذموم ، محمود بالإضافة إلى المقصد للمحمود ، ومذموم بالإضافة إلى المقصد للمذموم . فنأخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حظه وهو لا يشعر<sup>(١)</sup> كما ورد به الخبر .

ولما كانت الطباع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله وكان المال مسهلها وآلة إليها ، عظم الخطر فيها يريد على قدر الكفاية فاستعاذ الأنبياء من شره حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام « اللهم اجعل قوت آل محمد كقافا<sup>(٢)</sup> » فلم يطلب من الدنيا إلا ما يمتضض غيره وقال « اللهم احبني مسكيناً وأنتى مسكيناً واحشني في زمرة المساكين<sup>(٣)</sup> » واستعاذ إبراهيم عليه السلام فقال « واجتنبني وبني أن نعبد الأصنام » وعنى بها هذين الجهرين الذهب والفضة ، إذ رتبة النبوة أجل من أن يمشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من الحجارة ، إذ قد كفي قبل النبوة عبادتها مع الصغر ، وإنما معنى عبادتها حبهما والاغترار بهما والركون إليهما قال نبينا ﷺ « تس عبد الدينار وتس عبد الدرهم تس ولا اتمش وإذا شيك فلا اتشش<sup>(٤)</sup> » فبين أن محبهما عابد لهما ومن عبد حجراً فهو عابد صنم . بل كل من كان عبداً لغير الله فهو عابد صنم ، أي من قلعه ذلك عن الله تعالى وعن أداء حقه فهو كعابد صنم ، وهو شرك إلا أن الشرك شركان : شرك خفي لا يوجب الخلود في النار وقلنا ينفك عنه المؤمنون فإنه أغنى من ديب الخلق ، وشرك جلي يوجب الخلود في النار فهو باقة من الجميع .

### بيان تفصيل آفات المال وفوائده

أعلم أن المال مثل حبة فيها سم وترياق ، ففوائده ترياقه ، وغوائده سمومه . فن عرف غوائده وفوائده أمكنه أن يحرز من شره ويستند من خيره .

(١) حديث « من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حظه وهو لا يشعر » تقدم قبله بقسمة أحاديث وهو بقية « واحذروا الدنيا » . (٢) حديث « اللهم أجعل قوت آل محمد كقافا » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث « اللهم احبني مسكيناً وأنتى مسكيناً » أخرجه الترمذي من حديث أنس وابن ماجه والحاكم وصححه إسناده من حديث أبي سعيد وقد تقدم . (٤) حديث : « تس عبد الدينار تس عبد الدرهم ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ولم يقل « واتشش » وإنما علق آخره بلفظ « تس واتشش » ووصل ذلك ابن ماجه والحاكم .

أما الفوائد : فهي تنقسم إلى دنيوية ودينية : أما الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها فإن معرفتها مشهورة مشتركة بين أمتاف الخلق ، ولولا ذلك لم ينهالكوا على طلبها . وأما الدينية فتتخصر جميعها في ثلاثة أنواع : ( النوع الأول ) أن ينفقه على نفسه إما في عبادة أو في الاستماع على عبادة . أما في العبادة : فهو كالاستماع به على الحج والجهاد فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال ، وهما من أهميات القربات والفقير محروم من فضلها . وأما فيما يقويه على العبادة : فذلك هو الطعام والملبس والسكن والمنكح وضرورات المعيشة فإن هذه الحاجات إذا لم تيسر كان القلب مصروفاً إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين ، ومالا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة ، فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستماع على الدين من القوائد الدينية . ولا يدخل في هذا التتميم والزيادة على الحاجة فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط .

( النوع الثاني ) ما يصرفه إلى الناس ، وهو أربعة أصناف : الصدقة ، والمرومة ، ووقاية العرض ، وأجرة الاستخدام .

أما الصدقة فلا ينبغي ثوابها وإنما لتطفي غضب الرب تعالى ، وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم . وأما المرومة فتعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة وما يجري مجراها ، فإن هذه لا تسمى صدقة ، بل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج ، إلا أن هذا من القوائد الدينية إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء وبه يكتسب صفة السخاء ويتحق بزرمة الأسخياء . فلا يوصف بالجهود إلا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل المرومة والقنوة ، وهذا أيضاً مما يعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات وإطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارقتها .

وأما وقاية العرض فتعني به بذل المال لدفع هجو الثمراء وطلب السفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شرهم ، وهو أيضاً مع تمنع فائدته في العاجلة من الحظوظ الدينية . قال رسول الله ﷺ « ما وقى به المرء عرضه كتب له به صدقة (١) » وكيف لا وفيه منع المختاب من مصيبة الغيبة واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة التي تحصل في المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة .

وأما الاستخدام فهو أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتثبيت أسياها بكثيرة ، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعدر عليه سلوك سبيل الآخرة بالتفكير والذكر الذي هو أعلى مقامات السالكين ، ومن لاملال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام وطهنة وكفش البيت حتى نسخ الكتاب الذي يحتاج إليه ، وكل ما يصور أن يقوم به فيترك ويحصل به غرضك فأنت متعوب إذا اشتغلت به ، إذ عليك من العلم والعمل والذكر والفكر مالا يصور أن يقوم به غيرك لتضييع الوقت في غيره خسران .

( النوع الثالث ) مالا يصرفه إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى ونصب الجباب في الطريق وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات ؛ وهي من الخيرات المؤبدة الدرة بعد الموت المستجيبة بركة أدمية الصالحين إلى أوقات متداية ، وناهيك بها خيراً . فهذه جملة فوائد المال في الدين سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحفارة الفقر ، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق ؛ وكثرة الإخوان والاعوان والأصدقاء ، والوقار والكرامة في القلوب . فكل ذلك ما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية .

(١) حديث « ما وقى المرء عرضه به فهو صدقة » رواه أبو يعلى من حديث جابر وقد تقدم .

وأما الآفات فدينية ودنيوية أما الدينية ثلاث :

(الأول) أن تجر إلى المعاصي فإن الشهوات متفاضلة والعجز قد يحول بين المرء والمصيبة ، ومن المصيبة أن لا يحد . ومهما كان الإنسان أيساً عن نوع من المصيبة لم تتحرك دأعيته ، فإذا استقر القدره عليها انبثت دأعيته والمال نوع من القدره يحرك دأعية المعاصي وارتكاب الفجور ، فإن اقمم ما اشتهاه ملك وإن صبر وقع في شدة ، إذ الصبر مع القدره أشد ، وفترة السراء أعظم من فترة الضراء .

(الثانية) أنه يجر إلى التعمق في المباحات ، وهذا أول الفرجات ، فمن يقدر صاحب المال على أن يتناول خير الشعر ويلبس الثوب الخشن ويترك لذاته الأطعمة كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في ملكه فأحسن أحواله أن يتعمق بالدنيا ويمرن عليها نفسه ، فيصير التعمق مألوفاً عنده وعجوباً لا يصبر عنه ، ويمر به البعض منه إلى البعض ، فإذا اشتد أنه به لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال فيفتحهم الشهوات ويغرض في المراءاة والمداهنة والكذب والتفاوق وسائر الأخلاق الرديئة ، لينتظم له أمر ديناه ويتيسر له تنعمه ، فإن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ، ومن احتاج إلى الناس فلا بد وأن يتأقهم ويصفي الله في طلب رضام ، فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى وهي مباشرة الحظوظ فلا يسلم عن هذه أصلاً . ومن الحاجة إلى الخلق تنور العداوة والصداقة ، وينشأ عنه الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والتبعية وسائر المعاصي التي تنصس القلب واللسان ، ولا يخلو عن التعدى أيضاً إلى سائر الجوارح . وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه وإصلاحه .

(الثالثة) وهي التي لا ينفك عنها أحد وهو أنه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى ، وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسار ، ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام : في المال ثلاث آفات ، أن يأخذه من غير حله ، فقيل : وإن أخذه من حله ؟ فقال : يرضه في غير حقه ، فقيل : إن وضعه في حقه ؟ فقال : يشغله إصلاحه عن الله تعالى ، وهذا هو الداء العضال . فإن أصل العبادات ومنها وسرها ذكر الله والتفكير في جلالة ، وذلك يستدعي قلباً فارغاً صاحب الضمية يمسى ويصبح متفكراً في خصومة الفلاح وعماجه ، وفي خصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحشود ، وخصومة أعوان السلطان في الخراج ، وخصومة الأجراء على التقصير في المهارة ، وخصومة الفلاحين في خيانتهم وسرقتهم . وصاحب التجارة يكون متفكراً في خيانة شريكه وانفراده بالربح وتقصيره في العمل وتضييعه للبال ، وكذلك صاحب المواشي . وهكذا سائر أصناف الأموال . وأبعد ما عن كثرة الفشل : التردد المكثوز تحت الأرض ، ولا يزال الفكر متردداً فيصرف إلى عوفي كيفية حفظه وفي الخوف عما يشر عليه وفي دفع أطاع الناس عنه ، وأردية أفكار الدنيا لا نهاية لها والذي معه قوت يومه في سلامة من جميع ذلك . فهذه جملة الآفات الدنيوية سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخوف والحزن والغم والهم والتب في دفع الحساد وتجنس المصاعب في حفظ المال وكسبه ، فإن تريق المال أخذ القنوت منه وحصر الباقي إلى الخيرات وما عدا ذلك شوم وآفات . نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلفظه وكرمه إنه على ذلك قدير .

بيان ذم الحرص والطمع ، ومدح القناعة واليأس مما في أيدي الناس

اعلم أن الفقر محمود — كما أوردناه في كتاب الفقر — ولكن ينبغي أن يكون الفقير قائماً متقطعاً للطمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما في أيديهم ولا حرصاً على اكتساب المال كيف كان ، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يتقنع بقدر الضرورة من الطعام والملبس والسكن ، ويقتصر على الله قديراً وأخيه نوعاً ، ويرد الله إلى يومه أو إلى شهره ، ولا يشغل قلبه

بما بعد شهر ، فإن تفوق إلى الكثير أو طول أمله فانهز التناعة وتدنس لاعماله بالطمع وذو الحرص، وجره الحرص والطمع إلى مساوىء الأخلاق وارتكاب المنكرات الخائرة للروءاء، وقد جعل الآدى على الحرص والطمع وقلة التناعة. قال رسول الله ﷺ « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا يبتغي لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب<sup>(١)</sup> » وعن أبي واقد الليثي قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوصى إليه أئمنه بعلنا ما أوصى إليه، فحيث ذات يوم فقال « إن الله عز وجل يقول : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم واد من ذهب لأحب أن يكون له ثاب ولو كان له الثاني لأحب أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب<sup>(٢)</sup> » .

وقال أبو موسى الأشعري : نزلت سورة نحو برادة ثم رفعت وحفظ منها : إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال لثني وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب<sup>(٣)</sup> . وقال ﷺ « منومان لا يشبعان منوم العلم ومنوم المال<sup>(٤)</sup> » وقال ﷺ « يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان : الأمل وحب المال ، أو كما قال<sup>(٥)</sup> .

ولما كانت هذه جملة الأذى مضرة وغريزة مهلكة أنشأ الله تعالى ورسوله على التناعة فقال ﷺ « طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به<sup>(٦)</sup> » وقال ﷺ « ما من أحد فقير ولا غني إلا ود يوم القيامة أنه كان أوفى قوتاً في الدنيا<sup>(٧)</sup> » وقال ﷺ « ليس الثنى عن كثرة العرض إنما الثنى عن النفس<sup>(٨)</sup> » ونهى عن شدة الحرص والمبالغة في الطلب فقال « ألا أيها الناس أجمعوا في الطلب فانه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راغمة<sup>(٩)</sup> » وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال : أى عبادك أغنى ؟ قال : أنعمهم بما أصليت ، قال : فأهم أصل ؟ قال : من أنصف من نفسه . وقال ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ « إن روح القدس نفث في روعي إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب<sup>(١٠)</sup> » وقال أبو هريرة : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة إذا اشتد بك الجوع فليكن برصيف وكوز من ماء وعلى الدنيا العمار » وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وكن ورعاً ، تكن أعبد الناس وكن قنصاً تكن أشكر الناس ، وأحب الناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً<sup>(١١)</sup> »

- (١) حديث « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا يبتغي لهما ثالثاً ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس وأنس . (٢) حديث أبي واقد الليثي « إن الله عز وجل يقول : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ... الحديث » أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب بسند صحيح . (٣) حديث أبي موسى : نزلت سورة نحو برادة ثم رفعت وحفظ منها إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم لو أن لابن آدم واديين من مال ... الحديث » أخرجه مسلم مع اختلاف دون قوله « إن الله يؤيد هذا الدين » ورواه بهنود الزيادة الطبراني وفيه طي بن زيد متكمل فيه . (٤) حديث « منومان لا يشبعان ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (٥) حديث « يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس . (٦) حديث « طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به » أخرجه الترمذي وصححه والنساء في الكبرى من حديث فضالة بن عبيد وللمسلم من حديث عبد الله بن عمر « وقد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنع الله بما آتاه » . (٧) حديث « ما من أحد فقير ولا غني ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوفى قوتاً في الدنيا » أخرجه ابن ربيعة في تاريخه عن أنس وشيخ ضعيف . (٨) حديث « ليس الثنى عن كثرة العرض وإنما الثنى عن النفس » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٩) حديث « ألا أيها الناس أجمعوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له » أخرجه الحاكم من حديث جابر بنحوه وصححه إسناده ، وقد تقدم في آداب الكسب والمعاش . (١٠) حديث ابن مسعود « إن روح القدس نفث في روعي إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في التناعة والحاكم مع اختلاف وقد تقدم فيه . (١١) حديث أبي هريرة « كن ورعاً تكن أعبد الناس .. الحديث » أخرجه ابن ماجه وقد تقدم .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصاري : أن اعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله عظمي وأوجر فقال « إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غدا ، وأجمع اليأس مما في أيدي الناس » وقال عوف بن مالك الأشجعي : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم - تسعة أو ثمانية أو سبعة - فقال « ألا تبايعون رسول الله ؟ قلنا أوليس قد بايعناك يا رسول الله ؟ ثم قال « ألا تبايعون رسول الله ؟ فيسطنأ أيدينا فيأيمنه فقال قائل منا : قد بايعناك فعلى ماذا تبايعك ؟ قال « أن تبعدوا الله ولا تشرکوا به شيئا وتصلوا الخس ، وأن تسمعوا وتطيعوا » وأسر كلمة خفية « ولا تسألوا الناس شيئا » قال : فلقد كان بعض أولئك الثغر يسقط سوطه فلا يسأل أحد أن يناوله إياه .

الآثار : قال عمر رضي الله عنه : إن الطمع فقر وإن اليأس غنى وأنه امن يأس عما في أيدي الناس استغني عنهم وقيل لبعض الحكماء : ما ألتقى قال : لله تمنيك ورحاك بما يكفيك . وفي ذلك قيل :

العيش ساعات تمر وخطوب أيام تكرر  
أقع بهيفك ترحمه وأتركهواك تميشح  
قرب حشف ساهه ذهب وباقوت ودر

وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول : من قنع بهذا لم ينجح إلى أحد . وقال سفيان : خير دنياكم ما لم تنلوا به وخير ما أبلتكم به ما خرج من أيديكم وقال ابن مسعود : ما من يوم إلا وملك ينادي : يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يظنك . وقال سميط بن جعلان : إنما بطنك يا ابن آدم شبر في شبر فلم يدخلك النار ؟ وقيل لحكيم : ما مالك ؟ قال : أجد في الظاهر والقصد في الباطن والياس مما في أيدي الناس . وروى أن الله عز وجل قال : يا ابن آدم لو كانت الدنيا كمالا لم يكن لك منها إلا القوت ، وإذا أنا أعطيتك منها القوت جعلت حسابها على غورك فأنا لك بحسن . وقال ابن مسعود : إذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها طلبا يسيرا . ولا يأتي الرجل فيقول : إنك وإنك فيقطع ظهري ، فأنا يأتيه ماقيم له من الرزق أو مازق . وكتب بعض بني أمية إلى أبي حازم - يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه - فكتب إليه : قد رفعت حوائجي إلى مولاي لما أعطاني منها قبلت وما أمسك عني قمت . وقيل لبعض الحكماء : أي شيء أسر لعاقل وأيما شيء أعون على دفع الحزن ؟ فقال : أسرها إليه ما قدم من صالح العمل ، وأصونها له على دفع الحزن الرضاء بمحتوم القضاء . وقال بعض الحكماء : وجدت أكثر الناس غيا الحسود ، وأهناهم عيشا الفرح ، وأصبرهم على الأذى الحرص إذا طمع ، وأخفضم عيشا أرضهم الدنيا ، وأعطهم ندامة العالم المفرط . وفي ذلك قيل :

أرفه ببال قتي أسى على قفة إن الذي قيم الأرزاق يرزقه  
فالمرض منه مصون لا يدنه والوجه منه جديد ليس يخلقه  
لن القناعة من يحلل بساحتها لم يلق في دهره شيء يؤرقه

(١) حديث أبي أيوب « إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه وأجمع اليأس مما في أيدي الناس » أخرجه ابن ماجه ونعم في الصلاة ولما حكم نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال صحيح الإسناد .

(٢) حديث عوف بن مالك : كنا عند رسول الله ﷺ - سبعة أو ثمانية أو تسعة - فقال « ألا تبايعون ... الحديث » وفيه « ولا تسألوا الناس » أخرجه مسلم من حديثه ولم يقل : فقال قائل ، ولا قال : تسمعوا . وقال : سوط أحدكم وهي عند أبي داود وابن ماجه كما ذكرها المصنف .

وقد قيل أيضاً :

حتى متى أتاني حل وترحال      وطول سعي وإدبار وإقبال  
وفازح الدار لا أتك مغتربا      عن الأحبة لا يدرون ماحلي  
بشرق الأرض طورا ثم مغربها      لا يضطر الموت من حرص على بالي  
ولو قمت أتاني الرزق في دعة      إن القنوع الغني لا كثرة المال

وقال عمر رضي الله عنه : ألا أخبركم بما استحل من مال الله تعالى : حليان لفتائي وقبلي ، وما يسعني من الظهر لحبي وعمرق ، وفوق يدي ذلك كقوت رجل من قریش ليس بأرغمهم ولا أوضعمهم ، فوافقه ما أدرى أيحل ذلك أم لا ؟ كأنه شك في أن هذا القدر هل زيادة على الكفاية التي يجب القناعة بها ؟ وماتب أعراني أعاءه على الحرم فقال : ياخي أنت طالب ومطلوب ، طيلبك من لاتفوته وتطلب أنت ما قد كفيته ، وكأن ماغاب عنك قد كشف لك ، وما أنت فيه قد تقلت عنه ، كأنك يا أخى لم تر حرصا محروما وزاهدا مرذوقا . وفي ذلك قيل :

أراك يربك الإزاء حرصا      على الدنيا كأنك لاجتوت  
فهل لك غاية إن صرت يوما      إليها قلت حسبي قد رخصت

وقال الشعبي : حكى أن رجلا صاد ثبرة فقال : ما تريد أن تصنع بي ؟ قال : أدبحك وآكلك ، قالت : واه ما أشقى من قرم ولا أشبع من جروح ولكن أهلك ثلاث خصال هي سر لك من أكل . أما واحدة فأهلك وأنا في يدك ، وأما الثانية : فإذا صرت على الشجرة ، وأما الثالثة : فإذا صرت على الجبل ، قال : هات الأولى ، قالت : لا تلغى على ما فاتك ، غلها فلما صارت على الشجرة قال هات الثانية : قالت : لا تصدق بما لا يكون أنه يكون ، ثم طارت فصارت على الجبل فقالت : يا شقي لو ذهبتى لأخرجت من حوصلتى ديتين ذنة كل حدة عشرون مثقالا ؛ قال : فقص على شفتي وتلف وقال : هات الثالثة ، قالت : أنت نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ؟ ألم أقل لك : لا تلغى على ما فاتك ولا تصدق بما لا يكون أن يكون ، أنا لحي ودي ورشي لا يكون عشرين مثقالا فكيف يكون في حوصلتى درتان كل واحدة عشرون مثقالا ثم طارت فنهبت . وهذا مثال لفرط طمع الأدنى فانه يعميه من ذلك الحق حتى يقدم ما يكون أنه يكون . وقال ابن السكك : إن الرجاء حمل في قلبك وقيد في رجلك فأخرج الرجاء من قلبك مخرج القيد من رجلك . وقال أبو محمد اليزيدي . دخلت على الرشيد فوجدته ينظر في ورقة مكتوب فيها بالذهب ، فلما رأته تبسم ، فقلت : فائدة أصلح الله أمير المؤمنين ؟ قال نعم وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية فاستحسنتهما وقد أضفت إليهما ثالثا . وأنشدني :

إذا سد باب عنك من دون حاجة      فدعه لأخرى يفتح لك بابها  
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه      ويكفيك سوات الأمور اجتنابها  
ولأنك منذ لا لعرضك واجتنب      ركوب المعاصي يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب : ما ينهب العلوم من قلوب العلماء بعد إذ وعروها وعقلوها ؟ قال : الطمع وشره النفس وطلب الحوائج . وقال رجل للفضيل : فسر لي قول لكعب ؟ قال يطمع الرجل في الشيء فيطلبه فينهب عليه دينه . وأما الشره فنشره النفس في هذا وفي هذا حتى لا يحب أن يفوتها شيء . ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة فإذا قضاه لك خرم أتتك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له فمن حبلك للدنيا سلبت عليه



إذا مرت به وعده إذا مرض ؛ لم تسل عليه عز وجل ولم تعده ، فلم يكن لك إليه حاجة كان خيراً لك . ثم قال : هذا خير لك من مائة حديث عن فلان عن فلان . قال بعض الحكماء : من عجب أمر الإنسان أنه لو توى بدوام البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع وتوقع الزوال . وقال عبد الواحد بن زيد : مرت براهب فقلت له : من أين تأكل ؟ قال : من بيدر اللطيف الخبير ، الذي خلق الرخا يأبها بالطعين - وأوماً بيده إلى رجا أضراسه - فسبحان القدير الخبير .

### بيان علاج الحرص والطمع ، والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أدوية : الصبر والعلم والعمل ، وبمجموع ذلك خمسة أمور : الأول : وهو العمل ؛ الاقتصاد في المصيبة والرفق في الإنفاق ، فمن أراد عز القناعة فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخرج ما أمكنه ويرد نفسه إلى ما لا بد له منه ، فمن كثر خرجه واتسع إنفاقه لم يتمكن القناعة ، بل إن كان وحده فينبغي أن يمتنع شرب واحد خشن ، ويقنع بأى طعام كان ، ويقلل من الإدام ما أمكنه ، ويوطن نفسه عليه وإن كان له عيال فيرد كل واحد إلى هذا القدر ، فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد . ويمكن معه الإجمال في الطلب والاقتصاد في المصيبة وهو الأمل في القناعة ؛ ونفى به الرفق في الإنفاق وترك الحرق فيه قال رسول الله ﷺ « إن الله يحب الرفق في الأمر كله » (١) وقال ﷺ « ما حال من اقتصد » (٢) وقال ﷺ « ثلاث منجيات : خشية الله في السر والعلاية ، والقصد في النفي والفقر ، والعدل في الرضا والغضب » (٣) وروى أن رجلاً أبصر أبا الدرداء يلتقط حبا من الأرض وهو يقول : إن من فقهك رفقتك في مبيتك . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال النبي ﷺ « الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة » (٤) .

وفي الخبر « التدبير نصف المصيبة » (٥) وقال ﷺ « من اقتصد أغناه الله ومن بذر أغقره الله ومن ذكر الله عز وجل أحبه الله » (٦) وقال ﷺ « إذا أردت أمراً فليكن بالتؤدة حتى يحبل الله لك فرجاً وعرجاً » (٧) والتؤدة في الإنفاق من أم الأمور .

الثاني : أنه إذا تسر له في الحال ما يكفيه فلا يبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ، ويعتد على ذلك قصر الأمل ، والتحقق بأن الرزق الذي قدوة لا بد وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه ، فإن شدة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق ، بل ينبغي أن يكون واثقاً بوعده الله تعالى إذا قال عز وجل « وما من دابة في الأرض

(١) حديث « إن الله يحب الرفق في الأمر كله » متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم . (٢) حديث « ما حال من اقتصد » أخرجه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ « مقتصد » . (٣) حديث « ثلاث منجيات : خشية الله في السر والعلاية والقصد في النفي والفقر والعدل في الرضا والغضب » أخرجه البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف . (٤) حديث ابن عباس « الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة » أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس مع تقديم وتأخير وقال « السمات الصالح » وقال « من خمسة وعشرين » ورواه الترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس وقال « التؤدة » بدل « الهدى الصالح » وقال « من أربعة » . (٥) حديث « التدبير نصف المصيبة » رواه أبو منصور الهيثمي في مسند القردوس من حديث أنس وفيه خلل بن عيسى جهل العقيلي ووثقه ابن معين .

(٦) حديث « من اقتصد أغناه الله ... الحديث » أخرجه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله « ومن ذكر الله أحبه الله » وشيخه فيه عمران بن هارون البصري قال السهري : شيخ لا يعرف حاله أني خبر منكر أي هذا الحديث . ولأحمد وأبي حنيفة في حديث لأبي سعيد « ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله » . (٧) حديث « إذا أردت أمراً فليكن بالتؤدة حتى يحبل الله فيه فرجاً وعرجاً » رواه ابن المبارك في البر والصلوة وقد تقدم .

إلا على الله رزقها) وذلك لأن الشيطان يمدد الفقر ويأمره بالفحشاء ويقول: إن لم تحرص على الجمع والادّعاء فربما تمرض وربما تمجّر وتحتاج إلى احتال الذل في السؤال، فلا يزال طول العمر تبعه في الطلب خوفاً من التعب، ويضيق عليه في احتاله التعب تقدماً مع المغلة عن الله لئلا تمرض في باقي الحال وربما لا يكون. وفي مثله قيل:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله عتاة فقر قالذي فضل: الفقر

وقد دخل ابنه خالد على رسول الله ﷺ فقال لهما ولا تياسا من الرزق ما تهزمت رءوسكما فإن الإنسان تله أمه أحر ليس عليه فقر ثم يرزقه الله تعالى<sup>(١)</sup>، ومر رسول الله ﷺ بابن مسعود وهو حزين فقال له «لا تكثر حملك ما قدر يكن وما ترزق يأئك» وقال ﷺ «ألا أيها الناس أجمعوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى تأتبه ما كتب له من الدنيا وهي راحة»<sup>(٢)</sup> ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى في تقدير أرزاق العباد، وأن ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال في الطلب، بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله لعبد من حيث لا يحتسب أكثر قال الله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) فإذا انسد عليه باب كان ينظر الرزق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لا محالة. وقال ﷺ «أني ألهان رزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب»<sup>(٣)</sup> وقال سفيان: اتق الله كما رأيت تقيا محتاجا. أي لا يترك الله شيئا قد انقضت له، بل يلق الله في قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه. وقال المفضل الضبي: قلت لأعرابي من أين معاشك؟ قال نذر الحاج، قلت: فإذا صدروا، فبكى وقال: لو لم نمش إلا من حيث نفدى لم نمش. وقال أبو حازم رضى الله عنه: وجدت الدنيا شيتين: شيتا منها هو لي، فلي أعطه قبل وقته ولو طلبته بقوة السلاوات والأرض. وشيتا منها هو لغيري لذلك لم أله فيما معنى فلا أروجه فيما بقي، بمنح الذي لغيري متى كما بمنح الذي لي من غيري، فني أي هذين أفنى حمري؟ فهذا دواء من جهة المحركة لا بد منه لدفع تخويف الشيطان، وإبداره بالفقر.

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عو الاستغناء وما في الحرص والطمع من الذل؛ فإذا تحقق عنده ذلك انبعث رغبته إلى القناعة لأنه في الحرص لا يتخلو من تعب، وفي الطمع لا يتخلو من ذل. وليس في القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول. وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله وفيه ثواب الآخرة. وذلك لما يضاف إليه نظر الناس وفيه الوبال والمأثم. ثم يفوته عز النفس والقدرة على متابعة الحق فإن من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق ويلزمه المداينة، وذلك يهلك دينه ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن فهو ذكيل العقل ناقص الإيمان، قال ﷺ «عز المؤمن استغناؤه عن الناس»<sup>(٤)</sup> في القناعة الحريّة والعز. ولذلك قيل: استغن عن شئت تكن نظيره وأحج إلى من شئت تكن أسيره وأحسن إلى من شئت تكن أميره.

(١) حديث «لا تياسا من الرزق ما تهزمت رءوسكما... الحديث» رواه ابن ماجه من حديث: حجة وسواء ابنه خالد وقد تقدم. (٢) حديث «لا تكثر حملك ما قدر يكن وما ترزق يأئك» قاله لابن مسعود أخرجه أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وقد اختلف في صحبته ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو التافري مرسل. (٣) حديث «ألا أيها الناس أجمعوا في الطلب... الحديث» تقدم قبل هذا بثلاثة عشر حديثا. (٤) حديث «أبي الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب» أخرجه ابن جبان في الضعفاء من حديث طي يلساند رواه، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات. (٥) حديث «عز المؤمن استغناؤه عن الناس» أخرجه الطبراني في الأوسط والحاكم وصححه إسناده، وأبو الشيخ في كتاب الزواجر، وأبو نعيم في الحلية من حديث سهل بن سعد: أن جبريل قال للنبي ﷺ في أثناء حديث، وفيه زفر بن سليمان عن محمد بن عينة وكلامها مختلف فيه وجعله القاضي في مسند الشهاب من قول النبي ﷺ.

الرابع : أن يكثر تأمله في نعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والخفى من الأكراد والأعراب الأجلاف ومن لاهين لهم ولا عقل. ثم ينظر إلى أحوال الانبياء والأولياء وإلى سميت الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين ويستمع أحاديثهم ويطلع أحوالهم ؛ ويخبر عقله بين أن يكون على مشابة أراذل الناس أو على الاقتداء بمن هو أعدل أصناف الخلق عند الله ، حتى يكون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير ، فإنه إن تتم في البطن فالجار أكثر أكرامه وإن تتم في الواقع فالخزير أعلى رتبة منه ، وإن ترين في الملابس والحيل في اليهود من هو أعلى ذينة منه ، وإن قطع بالقليل ورضى به لم يساهمه في رتبة إلا الانبياء والأولياء .

الخامس : أن يفهم ما في جمع المال من الخطر - كما ذكرنا في آفات المال - وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع ، وما في غلو اليد من الأمن والغراخ ، ويتأمل ما ذكرناه في آفات المال مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة إلى تحمات عام ، فإنه إذا لم يتقنع مما يكفيه الخبز بكرة الأغنياء وأخرج من جريدة الفقراء. ويتم ذلك بأن ينظر أبدا إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه ، فإن الشيطان أبدا يصرف نظره في الدنيا إلى من فوقه فيقول : ولم تضيق على نفسك وتخاف الله وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله ؛ والناس كلهم مشغولون بالتمتع فلم تريد أن تميز عنهم ؟ قال أبو ذر : أوصاني خليلي صلوات الله عليه أن أنظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوقي (١) أي في الدنيا ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ «إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق فليتنظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل الله عليه» فهذه الأمور بقدر على اكتساب خلق القناعة، وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل ، وإن يعلم أن غاية صبره في الدنيا إياهم فلائيل تتمتع دهرأ طويلا ؛ فيكون كالريض الذي يصبر على مرارة الدواء لشدة طعمه في انتظار الشفاء .

### بيان فضيلة السخاء

أعلم أن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص ، وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطلاح المعروف والتباعد عن الشح والبخل، فإن السخاء من أخلاق الانبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة. وعنه عبر النبي ﷺ حيث قال «السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض فمن أخذ بنفس منها قلده ذلك النصف إلى الجنة» (٢) وقال جابر قال رسول الله ﷺ «قال جبريل عليه السلام : قال الله تعالى إن هذا دين ارتضيه لنفسك ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموهما ما استطعتم» (٣) وفي رواية «فأكرموه بهما ما صحبتموه» ، عن عائشة الصديقية رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ «ما جعل الله تعالى ولياً له إلا على حسن الخلق والسخاء» (٤) . وعن جابر قال : قيل يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟

(١) حديث أبي ذر : أوصاني خليلي ﷺ أن أنظر إلى ما هو دوني ولا أنظر لمن هو فوق ؛ أخرجه أحمد وابن حبان في أثناء حديث وقد تقدم (٢) حديث أبي هريرة «إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق فليتنظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل الله عليه» متفق عليه وقد تقدم . (٣) حديث «السخاء شجرة في الجنة... الحديث» أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث عائشة وابن عدى والدارقطني في المستجاد من حديث أبي هريرة وسأقي بعدوا أبو نعيم من حديث جابر وكلاهما ضعيف ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبي سعيد (٤) حديث جابر مرفوعاً حكاية من جبريل عن الله تعالى «إن هذا دين رضىته لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق» أخرجه الدارقطني في المستجاد وقد تقدم (٥) حديث عائشة «ما جعل الله ولياً له إلا على السخاء وحسن الخلق» أخرجه الدارقطني في المستجاد دون قوله «وحسن الخلق» يستدعي من طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ذكره بهنما الزائدة ابن عدى من رواية بريدة عن يوسف بن أبي السرح عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة ، ويوسف ضعيف جداً .

قال «الصبر والسباحة» وقال عبد الله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ «خلقنا يحميها الله عز وجل يوخلقنا ينضمها الله عز وجل، فأما اللذان يحميها الله تعالى فحسن الخلق والسقاء، وأما اللذان ينضمها الله فسوء الخلق والبخل، وإذا أراد الله بعبده خيراً استعمله في قضاء حوائج الناس» وروى المتقدم بن شريح عن أبيه عن جده قال قلت بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمل يدخلني الجنة قال «إن من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام» وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ «السقاء شجرة في الجنة فمن كان سخيّاً أخذ بعض منها فلم يترك ذلك النقص حتى يدخله الجنة» وقال أبو سعيد الخدري: قال النبي ﷺ «يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تمشوا في أكنافهم فإن جعلت فهم رحمتي، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإن جعلت فهم سختي» وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «تجافوا عن ذنب السخي فإن الله أخذ بيده كلما عثر» وقال ابن مسعود: قال: قال رسول الله ﷺ «الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البصر وإن الله تعالى ليباهي بمطعم الطعام الملائكة عليهم السلام» وقال ﷺ «إن الله جواد يحب الجود ويجب مكافئ الأهلين ويكره سفاسفها» وقال أنس: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا

(١) حديث جابر: أي الإيمان أفضل قال «الصبر والسباحة» أخرجه أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء بلفظ: سئل عن الإيمان. وفيه يوسف بن محمد بن النكدر ضعفه الجمهور ورواه أحمد بن حنبل حديث عائشة وعمر بن الخطاب بلفظ: ما الإيمان؟ قال «الصبر والسباحة» وفيه ثمر بن حوشب ورواه الباقون في الزهد بلفظ: أي الأعمال أفضل قال «الصبر والسباحة» وحسن الخلق» وإسناده صحيح.

(٢) حديث عبد الله بن عمرو «خلقنا يحميها الله وخلقنا ينضمها الله، فأما اللذان يحميها الله فحسن الخلق والسقاء... الحديث» أخرجه أبو منصور الديلمي دون قوله في آخره «وإذا أراد الله جديراً» وقال فيه «الشجاعة» بدل «حسن الخلق» وفيه محمد بن يونس الكديمي كذبه أبو داود وموسى بن هارون وغيرهما وفيه الخطيب، وروى الأصفهاني جميع الحديث موقوفاً على عبد الله بن عمرو، وروى الديلمي أيضاً من حديث أنس «إذا أراد الله بعبده خيراً صير حوائج الناس إليه» وفيه يحيى بن شيبة ضعفه ابن حبان (٣) حديث المتقدم بن شريح عن أبيه عن جده «إن من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام» أخرجه الطبراني بلفظ «بذل السلام وحسن الكلام» وفي رواية له «يوجب الجنة إطعام الطعام وإفشاء السلام» وفي رواية له «عليك بحسن الكلام وبذل الطعام» (٤) حديث أبي هريرة «السقاء شجرة في الجنة... الحديث» وفيه «والشج شجرة في النار الحديث» أخرجه الدارقطني في المستجد وفيه عبد العزيز بن عمران الزهري ضعيف جداً.

(٥) حديث أبي سعيد «قول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تمشوا في أكنافهم... الحديث» أخرجه ابن حبان في الضعفاء والخرائطي في مكرم الأخلاق والطبراني في الأوسط وفيه محمد بن مروان السدي الضعيف. ورواه الثعلبي في الضعفاء فجعله عبد الرحمن السدي وقال إنه مجهول، وتابعه محمد بن مروان السدي عليه عبد الملك ابن الخطاب وقد غمز ابن القطان، وتابعه عليه عبد التفاريح الحسن بن دينار قال فيه أبو حاتم «لا بأس بحديثه وتكلم فيه الجوزجاني والأزدي»، ورواه الحاكم من حديث علي وقال إنه صحيح الإسناد، وليس كما قال.

(٦) حديث ابن عباس «تجافوا عن ذنب السخي فإن الله أخذ بيده كلما عثر» أخرجه الطبراني في الأوسط والخرائطي في مكرم الأخلاق. وقال الخرائطي «أقبلوا السخي زلة» وفيه ليث بن أبي سلمة مختلف في ورواه الطبراني فيه وأبو نعم من حديث ابن مسعود نحوه بإسناد ضعيف ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من طريق الدارقطني (٧) حديث ابن مسعود «الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البصر... الحديث» لم أجده من حديث ابن مسعود ورواه ابن ماجه من حديث أنس ومن حديث ابن عباس بلفظ «الحير أسرع إلى البيت الذي يشي» وفي حديث ابن عباس «يؤكل فيمن الشفرة إلى سنام البير» ولأبي الشيخ في كتاب الثواب من حديث جابر «الرزق إلى أهل البيت الذي فيه السقاء... الحديث» وكلها ضعيفة (٨) حديث «إن الله جواد يحب الجود ويحب معالي الأمور ويكره سفاسفها» أخرجه الخرائطي في مكرم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيد الله ابن كرزوهذا مرسل والطبراني في الكبير والأوسط والحاكم والبيهقي من حديث سهل بن سعد «إن الله كريم يحب الكرم ويحب معالي الأمور» وفي الكبير والبيهقي «معالي الأخلاق... الحديث» وإسناده صحيح وتقدم آخر الحديث في أخلاق النبوة.

أعطاه ، وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلوا ، فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة <sup>(١)</sup> » وقال ابن عمر : قال صلى الله عليه وسلم « إن لله عبداً يتخضم بالنمف بالمتمف للمنافع العباد ، فمن بخل بملك المنافع على العباد قلبها الله تعالى عنه وسحوا إلى غيره <sup>(٢)</sup> » وعن الحلال قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسرى من بني النضير فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلاً ، فقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : يا رسول الله الرب واحد والدين واحد والذنب واحد فما بال هذا من بينهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « نزل على جبريل فقال : أقتل هؤلاء وأترك هذا فإن الله تعالى شكر له سخاء فيه <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إن لكل شيء ثمرة وثمرته المعروف تحجيل السراح <sup>(٤)</sup> » وعن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من عظم من طعام الجواد دواء وطعام البخل داء <sup>(٥)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « من عظم من عظمته الله عظمته عظمت مؤنة الناس عليه <sup>(٦)</sup> » فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال . وقال عيسى عليه السلام : استكثروا من شيء لا تأكله النار ، قيل : وما هو ؟ قال : المعروف . وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجنة دار الأسخياء <sup>(٧)</sup> » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار ، وإن البخل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار ، وسجمل سخي أحب إلى الله من عالم بخل ، وأدوأ الداء البخل <sup>(٨)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس بأهله ، فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله <sup>(٩)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « أن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين <sup>(١٠)</sup> » وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن

(١) حديث أنس : لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه ، فأناه رجل فسأله ، فأمر له بشاء كثير بين جبلين ... الحديث . أخرجه مسلم وقدم في أخلاق النبوة . (٢) حديث ابن عمر « إن لله عبداً يتخضم بالنمف بالمتمف للمنافع العباد ... الحديث » أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السمي وفيه لين ووثقه ابن معين برويه عن أبي عثمان عبد الله بن زيد الحمصي ضعه الأزدى . (٣) حديث الحلال : أتى النبي ﷺ بأسرى من بني النضير فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلاً ... الحديث وفيه « فإن الله شكر له سخاء فيه » لم أجده أصلاً . (٤) حديث « إن لكل شيء ثمرة وثمرته المعروف تحجيل السراح » لم أقف له على أصل . (٥) حديث نافع عن ابن عمر « طعام الجواد دواء وطعام البخل داء » أخرجه ابن عدي والدارقطني في غرائب مالك وأبو علي الصديق في عواليه وقال رجاله ثقات أئمة قال ابن القطان وإنهم لمشاهير ثقات إلا مقدم بن داود فإن أهل مصر تكلموا فيه . (٦) حديث « من عظم من عظمته الله عظمته عظمت مؤنة الناس عليه » رواه ابن عدي وابن جبان في الضعفاء من حديث معاذ بلفظ « ما عظم من عظمته الله على عبد إلا ذكره » وفيه أحمد بن مهران قال أبو حاتم مجهول والحديث باطل ورواه الحارثي في مكالم الأخلاق من حديث عمر إسماعيل منقطع ، وفيه حليس بن محمد أحد المتروكين ، ورواه الثعلبي من حديث ابن عباس قال ابن عدي يروي من وجوه كلها غير محفوظة . (٧) حديث عائشة « الجنة دار الأسخياء » أخرجه ابن عدي والدارقطني في المستجاد والحارثي قال الدارقطني لا يصح ومن طريقه رواه ابن الجوزي والوضعات . وقال الذهبي حديث منكر ما آتاه سوى جندر قلت رواه الدارقطني فيه من طريق آخر وفيه محمد بن الوليد الموقري وهو ضعيف جداً . (٨) حديث أبي هريرة « إن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة ... الحديث » أخرجه الترمذي وقال غريب ولم يذكر فيه « وأدوأ الداء البخل » ورواه بهذه الزيادة الدارقطني فيه . (٩) حديث « اصنع المعروف إلى أهله وإلى من ليس من أهله » أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلًا وقدم في آداب الميعة . (١٠) حديث « إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس ... الحديث » أخرجه الدارقطني في المستجاد وأبو بكر بن لال في مكالم الأخلاق من حديث أنس ، وفيه محمد بن عبد العزيز المبارك الدينوري أورد ابن عدي له منكراً ، وفي الميزان إنه ضعيف منكر الحديث ، ورواه الحارثي في مكالم الأخلاق من حديث أبي سعيد نحوه وفيه صالح المرعي منكر فيه .

الله عز وجل جعل للمعروف وجوها من خلقه حبيب إليهم المعروف وحبيب إليهم فما هو وجه طلاب المعروف إليهم ويسر عليهم إعطائه كما يسر النبي إلى البلية الجديدة فيحييها ويحيي بها أهلها (١) « وقال صلى الله عليه وسلم « كل معروف صدقة وكل ما أفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما ورق به الرجل عرضه فهو له صدقة وما أففق الرجل من نفقة فملى الله خلفه (٢) « وقال صلى الله عليه وسلم « كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة الهمان (٣) « وقال صلى الله عليه وسلم « كل معروف فملى إلى غنى أو فقير صدقة (٤) « وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام لا تقتل السامري فإنه سخي وقال جابر : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا ففقر لهم قيس تسع ركائب فخذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال صلى الله عليه وسلم « إن الجرد لمن شيمة أهل ذلك البيت (٥) . الآثار : قال علي كرم الله وجهه : إذا أنفقت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تنفق ، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تنفق وأنشد :

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة فليس يتقصها التبذير والسرف  
وإن تولت فأحرى أن تجود بها فالخذ منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنهما عن المروءة والتجدة والكرم فقال : أما المروءة فحفظ الرجل دينه وطرده نفسه وحسن قيامه بضيافته وحسن المنازعة والإقدام في الكرامة . وأما التجدة فالأدب عن الجار والصبر في المواطن وأما الكرم فالتيروح بالمعروف قبل السؤال والإطعام في المحل والراقة بالسائل مع بذل النائل . ورفع رجل إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما رقعة فقال حاجتك مقضية فقيل له يا ابن رسول الله لو نظرت في رقعتي ثم رددت الجواب على قدر ذلك فقال يسألني الله عز وجل عن كل مقام بين يدي حتى أقرأ رقعتي .

وقال ابن السكك عجب لمن يشتري المالك بماله ولا يشتري الأحرار بمروءة . وسئل بعض الأعراب من سيديكم فقال من أحمل شتمنا وأعطى سائلنا وأغضى عن جاهلنا وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما من وصف يذلل ماله لطلابه لم يكن سخياً وإنما السخي من يتدنى به حقوق الله تعالى في أهل طاعته ولا تنازع نفسه إلى حب الفكر له إذا كان يقينه بثواب الله تاماً . وقيل للحسن البصري : ما السخاء ؟ فقال أن تجود بمالك في الله عز وجل قيل فالحرم ؟ قال أن تمنع ما كفيبه قيل فالاإسراف ؟ قال الإففاق لحب الرياسة . وقال جعفر الصادق رقة الله عليه لئلا أعون من العفل ولا مصيبة أعظم من الجهل ولا مظاهرة كالمشاورة الأوان الله عز وجل يقول : إن جواد كريم لا يجاورني ثيم وأقوم من الكفر وأهل الكفر في النار والجود والكرم من الإيمان وأهل الإيمان في الجنة . وقال حذيفة

- (١) حديث أبي سعيد « إن الله جعل للمعروف وجوها من خلقه حبيب إليهم المعروف ... الحديث » أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية أبي هريرة السدي عنه وأبي هريرة السدي ضعيف ورواه الحاكم من حديث علي وصححه (٢) حديث « كل معروف صدقة وكل ما أففق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة ... الحديث » أخرجه ابن عدى والدارقطني في المستجاد والخراطي والبيهقي في الشعب من حديث جابر وفيه عبد الحميد بن الحسن الهلالي وثقه ابن معين وضعفه الجمهور ، والجملة الأولى منه عند البخاري من حديث جابر وعند مسلم من حديث حذيفة . (٣) حديث « كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة الهمان » أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية الحاجب بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف وقد جاء مفرقا فالجملة الأولى تقدمت قبله والجملة الثانية تقدمت في العلم من حديث أنس وغيره والجملة الثالثة رواها أبو يعلى من حديث أنس أيضاً وفيها زياد الثوري ضعيف . (٤) حديث « كل معروف فملى إلى غنى أو فقير صدقة » أخرجه الدارقطني فيه من حديث أبي سعيد وجابر والطبراني والخراطي كلاهما في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود وابن منيع من حديث ابن عمر بإسنادين ضعيفين . (٥) حديث جابر : بعث رسول الله ﷺ بعضاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا ففقر لهم تسع ركائب ... الحديث . وفيه « فقال إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت » أخرجه الدارقطني فيه من رواية أبي حمزة الحميري عن جابر ولا يعرف اسمه ولا حاله .

رضي الله عنه رب طاهر في دينه آخرى في مبعثه يدخل الجنة بسباحه . وروى أن الأحف بن قيس رأى رجلا في بئر درم فقال لمن هذا الدم فقال لي فقال أما إنه ليس لك حتى يخرج من بئرك وفي معناه قيل : أنت للمال إذا أمسكت فإذا أهنت فالمال لك

وسمى وأصل بن عطاء : الغزال ، لأنه كان يجلس إلى الغزالين ، فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاهما شيئا . وقال الأصمعي : كتب الحسن بن علي إلى الحسين بن علي رضوان الله عليهم يعتب عليه في إعطاء الشعراء فكتب إليه غير المال ما وقي به العرض . وقيل لسفيان بن عيينة : ما السخاء ؟ قال : السخاء البر بالإخوان والجود بالمال قال : وورث أبي خمسين ألف درهم فبعت بها ضررا إلى إخوانه . وقال : قد كنت أسأل الله تعالى لأخواني الجنتي صلاح فأجابني عليهم بالمال ؟ وقال الحسن : بذل المجهود في بذل الموجود متبى الجود . وقيل لبعض الحكماء : من أحب الناس إليك ؟ قال : من كثرت أياديه عندي ، قيل : فإن لم يكن ، قال : من كثرت أيادي عنده . وقال عبد العزيز بن مروان : إذا الرجل أمكنني من نفسه حتى أضاع معروفه عنده فبده عندي مثل يدي عنده . وقال الهندي لثيب بن شبة : كيف رأيت الناس في دارى ؟ فقال : يا أمه المؤمنين إن الرجل منهم ليدخل راجيا ويخرج راضيا . وتمثل متمثل عند عبد الله بن جعفر فقال :

إن الصنمية لا تكون صنمية حتى يصاب بها طريق المصنع  
فإذا اصطفت صنمية فاعمد بها لله أو لندى القراة أودع

قال عبد الله بن جعفر : إن هذين البيتين ليبتلان الناس ، ولكن أطر المعروف مطرا ، فإن أصاب الكرام كانوا له أملا وإن أصاب اللئام كنت له أملا .

### حكايات الأسخياء

عن محمد بن المنكدر عن أم درة - وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها - قالت : إن معاوية بعث إليها بمال في غراريتين ثمانين ومائة ألف درهم ، فدعت طليق فجعلت تقسمه بين الناس ، فلما أسست قالت : يا جارية ألم فطوري ، فجاءتها بطنج وزيت فقالت لها أم درة : ما استعملت قيا قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرم لما تقطر عليه ؟ فقالت : لو كنت ذكرتي لفلعت .

وعن أبان بن عثمان قال : أراد رجل أن ينادي عبيد الله بن عباس فأقى وجوه فريش فقال : يقول لكم عبيد الله تندوا عندي اليوم ، فأثوه حتى ملأوا عليه النار ، فقال : ما هذا ؟ فأخبر الخبر ، فأمر عبيد الله بشرافاكة ، وأمر قوما فلبخوا ونيزوا ، وقدمت العاكة إليهم فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائد فاكلوا حتى صدروا ، فقال عبيد الله لوكلائه : أو موجود لنا هذا كل يوم ؟ قالوا : نعم ، قال : فليبتدعنا هؤلاء في كل يوم .

وقال مصعب بن الزبير : حج معاوية فلما انصرف مر بالمدينة ، فقال الحسين بن علي لأخيه الحسن : لا تلقه ولا تسلم عليه ، فلما خرج معاوية ، قال الحسن : إن علينا ديناً فلا بد لنا من إتيائه فركب في أثره ولحقه فلمسلم عليه وأخبره بدينه ، فمروا عليه يبتغي عليه ثمانون ألف دينار وقد أعيا وتخلف عن الإبل ووقوم يسوقونه ، فقال معاوية : ما هذا ؟ فذكر له فقال : اصرفوه بما عليه إلى أبي محمد .

وعن وائد بن محمد الواقدي قال : حدثني أبي أنه رفع رقة إلى المأمون يذكر فيها كثرة الدين وقلة صبره عليه ، فوقع المأمون على ظهر رفته : إنك رجل اجتمع فيك خصلتان : السخاء والحياء ، فأما السخاء فهو الذي أطلق

ما في يدك ، وأما الحياء فهو الذي يمنعك عن ثلبنا ما أنت عليه ، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم فإن كنت قد أصبت فأزددني بسط يدك . وإن لم أكن قد أصبت لجنايتك على نفسك . وأنت حدثني وكنت على قضاء الرشيد ؛ عن محمد بن إسحق عن الزهري عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للرييرين العوام « يا زبير أعلم أن مفاتيح أرزاق البباد يازاء العرش يستألفه عز وجل إلى كل عبد بقدر ثقته ، فمن كثر كثر له ، ومن قل قل له وأنت أعلم » قال الواقدي : فوافقه لذاكرة المأمون إياي بالحديث أحب إلى من المجازة وهي مائة ألف درهم .

وسأل رجل الحسن بن علي رضي الله عنهما حاجة فقال له : يا هذا حق مؤالك إياي يعظم لدى ومعرفي بما يجب لك تكبر على ، ويدي تميز عن نيلك بما أنت أهله ، والكثير في ذات الله تعالى قليل ، وما في ملكي وفاء لشكرك ، فإن قبلت المسور ورفقت عن مؤة الاحتيال والانهلما لما أتكلفه من واجب حقا فقلت : فقال : يا ابن رسول الله أقبل وأشكر العطية ، وأعذر على المنع ، فحضر عشرين ألفا قال : فما فعلت بالخمسة دينار ؟ قال : هي عندي ، فقال : هات الفضل من الثلاثة ألف درهم ، فأحضر عشرين ألفا قال : هات من يحملها لك ، فأناه بجمالين فدفع إليه الحسن ردا لشكره الخالين ، فقال له مواليه : والله ما عندنا درهم ! فقال : أرجو أن يكون لي عند الله أجر عظيم .

واجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو حامل بالبصرة فقالوا : لنا جلد صوام قوام يشق كل واحد منا أن يكون مثله ، وقد زوج بنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عنده ما يجهزها به ، فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلهم داره وفتح صندوقا فأخرج منه ثمن بدر فقال : املوا ، فخلوا فقال ابن عباس : ما اقصافا أعطيتاه ما يشغلني من قيامه وصيامه ، ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها فليس الدنيا من القدر ما يشغل مؤثنا عن عبادته وما بنا من الكبر ما لا نخضع أولياء الله تعالى ففعل وفعلوا .

وحكى أنه لما أجب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد أميرهم فقال : والله لأعلمن الشيطان أني عدوه ؛ فقال عاصيهم إلى أن رخصت الأسفار ، ثم عزل عنهم فرحل ولتجار عليه ألف ألف درهم ، فرهنهم بها حل نسائه وقيمتها خمسمائة ألف ألف ، فلما تمرد عليه ارتجاصها كتب إليهم ببسما ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تله صلاحه .

وكان أبو طاهر بن كنه شيميا فقال له رجل : بحق علي بن أبي طالب لما وهبت لي ثغلك بموضع كذا وكذا ، فقال : قد فعلت ، وحقه لأعطيتك ما يلها ، وكان ذلك أضعاف ما طلب الرجل .

وكان أبو مرثد أحد الكرماء فلدح بعض الشعراء فقال الشاعر : والله ما عندي ما أعطيك ولكن قدمنى إلى القاضي وأدع على بشرة آلاف درهم حتى أفر لك بها ثم احبسني ، فإن أهل لا يتركوني عبوسا ، ففعل ذلك فلم يس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم وأخرج أبو مرثد من الحبس .

وكان ممن بن زائدة عامل على المرافين بالبصرة فحضر به شاعر فأقام مدة وأراد الخروج على ممن فلم يتبأ له فقال يوما لبعض خدام ممن : إذا دخل الأمير البستان ففرقني ، فلما دخل الأمير البستان أعلمه ، فكتب الشاعر بيتا على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان وكان ممن على رأس الماء فلما بصير بالخشبة أخذها وقرأها فإذا مكتوب عليها :

(١) حديث أنس « يا زبير أعلم أن مفاتيح أرزاق البباد يازاء العرش... الحديث » وفي أوله قصص المأمون أخرجه الدارقطني فيه وفي إسناده الواقدي عن محمد بن إسحاق عن الزهري بالنعنة ولا يصح .



أباجود من تاج معاً حاجتي فإلى إلى من سواك شفع  
فقال : من صاحب هذه ؟ فدعى بالرجل ، فقال له : كيف قلت ؟ فقال له : فأمر له بشرب ، فأخذها ووضع  
الأمير الخسبة تحت بساطه ، فلما كان اليوم الثاني أخرجهما من تحت البساط وقرأ أودعا بالرجل فندفع إليه مائة ألف  
درهم ، فلما أخذها الرجل تشكر وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه خرج ، فما كان في اليوم الثالث قرأ ما فيها ودعا  
بالرجل فطلب فلم يوجد فقال من : حق على أن أعطيه حتى لا يبق في بيت مالي درهم ولا دينار .

وقال أبو الحسن المدائني : خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حاجا فقامهم ألقاهم لجاعوا وعطشوا ،  
فروا بجوز في خباء لما فقالوا : هل من شراب ؟ فقالت : نعم ، فأناخوا إليها وليس لها إلا شوية في كسر الخيمة  
فقالت : احلبوها وامتنقوا لبنها ، ففعلوا ذلك ثم قالوا لها : هل من طعام ؟ قالت : لا ، إلا هذه الشاة فليذعها  
أحدكم حتى أهيئ لكم مائتا كلون ، فقام إليها أحدهم وذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاما فأكلوا وأقاموا حتى  
أبردوا ، فلما أرتحلوا قالوا لها : نحن نقر من قرش زيد هذا الوجه ، فإذا رجعتا سلين فإلى بنا فلما صانعون  
بك خيرا ، ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فأنخبرته بخير القوم والشاة فنضب الرجل وقال : ويحك تدجين شاة تقسوم  
لأصرفينهم ، ثم تقولين قر من قرش ؟ قال : ثم بعد مدة ألجأتها الحاجة إلى دخول المدينة ، فدخلها وجعل  
ينقلن البئر إليها ويبعاها ويشيطان بشته ، فمرت العجوز ببعض سكك المدينة : فلما الحسن بن علي جالس على  
باب داره ففرق العجوز وهي له منكرة ، فبعت غلامه فقدا بالعجوز وقال لها : يا أمة الله أنصرفيني ؟ قالت : لا  
قال : أنا ضيفك يوم كذا وكذا . فقالت العجوز بأني أنت وأنت هو ؟ قال : نعم . ثم أمر الحسن فاشترى لها  
من شياء الصدقة ألف شاة ، وأمر لها معها بألف دينار ، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين فقال لها الحسن :  
بك وصلك أخى ؟ قالت بألف شاة وألف دينار ، فأمر لها الحسين أيضاً بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه إلى  
عبد الله بن جعفر ، فقال لها بك وصلك الحسن والحسين ؟ قالت : بأني شاة وألف دينار ، فأمر لها عبد الله  
بأني شاة وألف دينار ، وقال لها : لو بدأت بي لأنتبها ، فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة  
وأربعة آلاف دينار .

وخرج عبد الله بن حامر بن كزير من المسجد يريد منزله وهو وحده ، فقام إليه غلام من ثقيف فمشى إلى  
جانبه فقال له عبد الله : ألك حاجة يا غلام ؟ قال : صلاحك وفلاحك رأيك تمشي وحدك فقلت أفيك بنفسى  
وأعوزها إن طار بجناحك مكروه ، فأخذ عبد الله يده ومشى معه إلى منزله ، ثم دعا بألف دينار فدفعها إلى الغلام وقال :  
استنق هذه فتمم ما أدبك أهلك .

وحكى أن قوما من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخياءهم للزيارة ، فنزلوا عند قبره وباتوا عنده وقد كانوا جاؤا  
من سفر بعيد ، فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر وهو يقول له : هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبى ؟ وكان  
السخي الميت قد خلف نجيباً معروفاً به ، ولهذا الرجل بعير سمين ، فقال له في النوم : نعم ، فباعه في النوم بعيره  
بنجيبه ، فلما وقع بينهما العقد عمد هذا الرجل إلى بعيره فنحره في النوم ، فأنقذه الرجل من نومه فلما انهم شج من  
نحر بعيره ، فقام الرجل فنحره وقسم لحمه فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ثم رحلوا وساروا ، فلما كان اليوم الثاني  
وهم في الطريق استقبلهم ركب ، فقال رجل منهم : من فلان بن فلان منك ؟ باسم ذلك الرجل . فقال : أنا ،  
فقال هل بعث من فلان بن فلان شيئا ، وذكر الميت صاحب القبر ، قال : نعم بعث من بعيرى بنجيبه في  
( ٣٢ — إحياء علوم الدين ٢ )

الثوم ، فقال : خذ هذا نجيبه ، ثم قال : هو أبى وقد رأيته في الثوم وهو يقول : إن كنت أبى فادفع نجيبى إلى فلان ابن فلان وسماه .

وقدم رجل من قريش من السفر قمر يرجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقبله الدهر وأضر به المرض . فقال : يا هذا أتنا على الدهر فقال الرجل لفلان : ما بقى ملك من التفتة فادفعه إليه ، فصب الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم ، فذهب لينفض فلم يقدر من الضعف ، فيكى فقال له الرجل ما ييكلك لملك استقلت ما أعطيتك ؟ قال : لا . ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني .

واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق بتسعين ألف درهم ، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خاله فقال لأهله : ما هؤلاء ؟ قالوا : سيكون لدارهم ، فقال : يا غلام اتهم فأعلمهم أن المال والدار لم جميعا .

وقبل يموت هرون الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله بمخمصة دينار ، فبلغ ذلك الليث بن سعد فأخذ إليه ألف دينار ، فغضب هرون وقال : أعطيت خمسمائة ونطعته ألفا وأنت من رعيى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن لي من غنى كل يوم ألف دينار ، فاستحييت أن أعطى مثله أقل من دخل يوم . وحكى أنه لم يحب عليه الزكاة مع أن دخله كل يوم ألف دينار . وحكى أن امرأة سألت الليث بن سعد رحمه الله عليه شيئا من عمل ، فأمر لها برق من عمل ، فقيل له : إنها كانت تقنع بدون هذا ! فقال : إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطى على قدر النعمة علينا . وكان الليث ابن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يصدق على ثلثمائة وستين مسكينا .

وقال الأعمش : اشتكت شاة عندى فكان خيشمة بن عبد الرحمن يهودها بالنداء والعنى ويسألنى هل استوفت علفها ؟ وكيف عبر الصبيان منذ فقدوا لبنها ! وكان يحكى لبد أجلس عليه فإذا خرج قال : خلما تحب اللد ، حتى وصل إلى في علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تحميت أن الشاة لم تبرا .

وقال عبد الملك بن مروان لأسماء بن خارجة : بلغنى عنك خصال حدثني بها ، فقال : هى من غيرى أحسن منها منى ؟ فقال : عزمت عليك إلا حدثتني بها ؟ فقال : يا أمير المؤمنين مددت رجلى بين يدي جليس لي قط ، ولا صنعت طعاما قط فدعوت عليه قرما إلا كانوا أمن على منى عليهم ، ولا نصب لي رجل وجهه قط يسألنى شيئا فاستكرت شيئا أعطيت أياه .

ودخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبد الملك ، وكان سعيد رجلا جوادا فإذا لم يجد شيئا كتب لمن سأله صكا على نفسه حتى يخرج عطاؤه ، فلما نظر إليه سليمان تمثل بهذا البيت فقال :

إني سمعت مع الصباح مناديا يا من يعين على الفتى المعوان

ثم قال : ما حاجتك ؟ قال : ديني ، قال : وكم هو ؟ قال : ثلاثون ألف دينار ، قال : لك دينك ومثله .

وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ إخوانه فقبل له : إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين ، فقال : أغزى الله ما لا يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر مناديا فتأدى من كان عليه لقيس بن سعد حتى فهو منه يرى ، قال : فاستكرت درجته بالعنى لكثرة من زار مواعده .

وعن أبي إسحق قال : صليت الضرع في مسجد الأشعث بالكوفة أطلب غريبا لي ، فلما صليت وضع بين يدي حلة ونملان ، فقلت : لست من أهل هذا المسجد ، فقالوا : إن الأشعث بن قيس الكندي قدم البارحة من مكة فأمر لكل من صلى في المسجد بحلة ونملين .

وقال الشيخ أبو سعد الحركوشي التيسابوري رحمه الله : سمعت محمد بن محمد الحافظ يقول : سمعت الشافعي الجياور بمكة يقول : كان بمصر رجل عرف بأن يجمع الفقراء شيئا ، فوالد لبعضهم مولود قال فجئت إليه وقلت له : ولد لي مولود وليس معي شيء فقام ودخل على جماعة فلم يفتح بي شيء . فجاء إلى قبر رجل وجلس عنده وقال : رحلك الله كنت تفعل وتصح ورائي دوت اليوم على جماعة فسكفتمهم دفع شيء لمولود فلم يفتح لي شيء . قال : وأخرج ديناراً وقسمه نصفين وتناولني نصفه ، وقال : هذا دين عليك إلى أن يفتح عليك شيء . قال فأخذته وانصرفت فأصلحت ما اتفق لي به قال : فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص في منامه فقال : سمعت جميع ماقلت وليس لنا إذن في الجواب ، ولكن احضر منزلي وقل لأولادي يحضروا مكان الكانون ويخرجوا قراءة فيها تحميتة دينار فأحلبها إلى هذا الرجل ، فلما كان من اللد تقدم إلى المنزل الميت وقص عليهم القصة فقالوا له : اجلس وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وجاموها فوضعوها بين يديه ، فقال : هذا مالكم وليس لرؤيائي حكم ، فقالوا : هو يتسخر ميتاً ولا يتسخر نحن أحياء ؟ فلما ألحوا عليه حل الدنانير إلى الرجل صاحب المولود وذكر له القصة ، قال : فأخذ منها دينار فسكره نصفين فأعطاه النصف الذي أقرضه وحصل النصف الآخر ، وقال : يكفيني هذا وتصدق به على الفقراء ، فقال أبو سعيد : فلا أدري أي هؤلاء أسخى ؟

وروي أن الشافعي رحمه الله لما مرض مرض موته بمصر قال : مروا فلانا يسألني ، فلما توفي بلغه خبر وفاته فحضر وقال : اتوني بتذكرته ، فأتي حسبا ففطر فيها فاذا على الشافعي سبعون ألف درهم دين ، فكتبني على نفسه وقضاه عنه ، وقال هذا غسلي إياه أي أراد به هذا . وقال أبو سعيد الراعظ الحركوشي : لما قدمت مصر طلبت منزل ذلك الرجل فنزلني عليه ؛ فرأيت جماعة من أحماده وزرهم فرأيت فيهم سبيا الخير وآثار الفضل فقلت : بلغ أثره في الخير إليهم وظهرت بركة فهم مستدلاً بقوله تعالى (وكان أبوهم صالحا) وقال الشافعي رحمه الله لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان شيء بلقي عنه : أنه كان ذات يوم أكا حمارة فخرقة فاقطع زره ، فمر على خياط فأراد أن ينزل إليه ليسوى زره فقال الخياط : والله لازلت فقام الخياط إليه فسوى زره فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير فسلها إلى الخياط واعتذر إليه من قلتها . وأخذ الشافعي رحمه الله نفسه :

يا لهف قلبي على مال أجود به على المقلين من أهل المروات  
إن اعتذارى إلى من جله يسألني ما ليس عندي لمن أحدي المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال : أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله فقال يارب بيع أهلك أربعة دنانير واعتذر إليه عنى . وقال الربيع سمعت الجدي يقول : قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خبائه في موضع خارج عن مكة ونثر ما على ثوب ، ثم أقبل على كل من دخل عليه فيقبض له قبضة ويعطيه حتى صلى الظهر ونفض الثوب وليس عليه شيء . وعن أبي ثور قال : أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال ، وكان قلما يمسك شيئا من سمائه ، فقلت له : ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك ، قال : فخرج ثم قدم علينا فأشأته عن ذلك المال ، فقال : ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها لمرتقي بأصلها وقد وقف أكثرها ، ولكني بنيت بمكة منزلا يكون لأصحابنا إذا حجوا أن ينزلوا فيه . وأخذ الشافعي رحمه الله نفسه يقول :

أرى قسبي تنوق إلى أمور يقصر دون ميلتي من مالي  
فنفسي لا تقاومني يئخل ومالي لا ييلني فقال

وقال محمد بن عباد الملقب : دخل أنى على المسأون فوصله بمائة ألف درهم فلما قام من عنده تصدق بها فأخبر بذلك المؤمنون ، فلما عاد اليه عاتبه المؤمنون في ذلك فقال : يا أمير المؤمنين منع الموجود سوء ظن بالمعبود ؛ فوصله بمائة ألف أخرى .

وقام وجهل الى سعيد بن العاص فسأه فأمر له بمائة ألف درهم فيكى ؛ فقال له سعيد : ما يبكيك . قال : أبكى على الأرض أن تأكل مثلك ؛ فأمر له بمائة ألف أخرى .

ودخل أبر تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها فوجده عليلاً فقبل منه المدحة وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه وقال : عسى أن أفرم من مرضى فأكافئه ، فأقام شهرين فوحشه طول المقام فكتب اليه يقول :

ان حراماً قبول مدحتنا وترك ما نرجي من الصدد

كما الدرهم والدنانير في البسيع حرام الا يناد يد

فلما وصل البتآن الى إبراهيم قال حاجبه : كم أقام بالباب . قال : شهرين ، قال : اعطه ثلاثين ألفاً وجئني بدواة ، فكتب اليه :

أصغلتنا فأناك عاجل برنا فلا ولو أمهلتنا لم تقبل

غذا القليل وكى كأنك لم تقبل ونكون نحن كأننا لم نقبل

وروى أنه كان لثمان على طلحة رضى الله عنهما خمسون ألف درهم ، فخرج عثمان يوماً الى المسجد فمسأله له طلحة : قد تيبأ مالك فأقبضه ، فقال : هو لك يا أبا محمد مودة لك على مروه . تك . وقالت سمندى بنت عوف : دخلت على طلحة فرايت منه قطلا قتلت له : مالك ؟ فقال : اجتمع عندي مال وقد غفني فقلت : وما يملك ادع قومك ؟ فقال : يا غلام على يقوى ، فسمعه فيهم فسألت الخادم : كم كان ؟ قال : أربع مائة ألف . وجاء أعرابي الى طلحة فسأله وتقرب اليه برحم فقال : ان هذه الرحم مأسأني بها أحد قبلك ، ان لى أرضاً قد أعطاني بها عثان ثلث مائة ألف فان شئت فأقبضها ، وان شئت بستان عثان ودفعته اليك الثمن ، فقال : الثمن ؛ فباعها من عثان ودفع اليه الثمن . وقيل بكى على كرم الله وجهه يوماً فقبل : ما يبكيك ؟ فقال : لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام ، أخاف أن يكون الله قد أهاننى .

وأتى رجل صديقاً له فذكر عليه الباب فقال : ما به بك ؟ قال : على أربع مائة درهم دين ، فوزن أربع مائة درهم وأخرجها اليه وعاد بكى ، فقالت امرأته لم أعطيتك اذ شق عليك ؟ فقال ، انما أبكى لأنى لم أنفقد حاله حتى احتاج الى ما فاتحنى ، فرحم الله من هذه صفاتهم وغفر لهم أجمعين .

### بيان ذم البخل

قال الله تعالى ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا يحبسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم يسلطونهم ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلك ، حلهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم ﴾ (١) . وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إياكم والشح »

(١) حديث « إياكم والشح ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث جابر بلفظ « واتموا الشح فإن الشح ... الحديث » ولأن داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو « إياكم والشح فإن أهلك من كان قبلك بالشح »

فانه دعا من كان قبلكم ففسكروا دعاءهم ودعاهم فاستحلوا عمارهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم<sup>(١)</sup> » وقال عليه السلام « لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيء الملكة<sup>(٢)</sup> » وفي رواية « ولا جبار » وفي رواية « ولا منان » وقال عليه السلام « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإصجاب المرء بنفسه<sup>(٣)</sup> » وقال عليه السلام « إن الله يفض ثلاثا : الشيخ الزاني ، والبخيل المنان ، والمميل الختال<sup>(٤)</sup> » وقال عليه السلام « مثل المنافق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن فسيهما إلى تراقيهما ، فأما المنافق فلا ينفق شيئا إلا سبغت أو وفرت على جله حتى تخفى بناه ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا قلصت ولومت كل حلقة مكانها حتى أخذت براقيه فهو يوسمها ولا تنس<sup>(٥)</sup> » وقال عليه السلام « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق<sup>(٦)</sup> » وقال عليه السلام « اللهم إني أعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر<sup>(٧)</sup> » وقال عليه السلام « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، وإياكم والفحش وإن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش ، وإياكم والشح فإنا أهلك من كان قبلكم الشح أمرم بالكذب فكذبوا وأمرم بالظلم فظلموا وأمرم بالبطية فقطعوا<sup>(٨)</sup> » وقال عليه السلام « شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالغ<sup>(٩)</sup> » وقتل شديد على عهد رسول الله ﷺ فيكفه باكية فقالت : واشهداه ! فقال عليه السلام « وما يدريك أنه شديد فله كان يتكلم فيما لا ينيه أو يخل بما لا ينقصه<sup>(١٠)</sup> » وقال جبير بن مطعم : بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من خيبر إذ علقت برسول الله ﷺ الأعراب يسألونه ، حتى اضطروه إلى سمرة فغطت رداه ، فوقف عليه السلام فقال « أعطوني ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان لي عدد هذه المضاه نما تقسمه بينكم ثم لا تجنوني بخيلا ولا كذبا ولا جبا<sup>(١١)</sup> » وقال عمر رضي الله عنه : قم رسول الله ﷺ فيما قلت : غير هؤلاء كان أحق به منهم ! فقال

== أمرم بالبخل فيخلوا وأمرم بالبطية فقطعوا وأمرم بالفجور ففجروا<sup>(١)</sup> » حديث « إياكم والشح فإنه دعا من كان قبلكم ففسكوا دعاءهم فاستحلوا عمارهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم » أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة بلفظ « حرمتهم » مكان « أرحامهم » وقال صحيح على شرط مسلم<sup>(٢)</sup> » حديث « لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيء الملكة » وفي رواية « ولا منان » أخرجه أحمد والترمذي وحسن من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله « ولا منان » فعني عند الترمذي وله وابن ماجه « لا يدخل الجنة سيء الملكة »<sup>(٣)</sup> » حديث « وثلاث مهلكات ... الحديث » تقدم في العلم<sup>(٤)</sup> » حديث « إن الله يفض ثلاثا : الشيخ الزاني والبخيل اللان والفقير الختال » أخرجه الترمذي والنسائي من حديث أبي ذر غير قوله « البخيل للنان » وقال فيه « الفنى الظلوم » وقد تقدم والطبراني في الأوسط من حديث علي « إن الله يفض الفنى الظلوم والشيخ الجهول والمائل الختال » وسنده ضعيف<sup>(٥)</sup> » حديث « مثل المنافق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبة من حديد ... الحديث » متفق عليهما من حديث أبي هريرة<sup>(٦)</sup> » حديث « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد قال غريب<sup>(٧)</sup> » حديث « اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن . . . الحديث » أخرجه البخاري من حديث سعد بن قيس عن أبيه عن الأكرار<sup>(٨)</sup> » حديث « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ... الحديث » أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وغيره « أمرم بالكذب فكذبوا وأمرم بالظلم فظلموا » قال عوضا عنهما « والبخل فيخلوا والفجور ففجروا » وكذا رواه أبو داود ومقتصر على ذكر الشح وقد تقدم قبله بسبعة أحاديث ولمسلم من حديث جابر « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح » فذكره بلفظ آخر ولم يذكر الفحش .

(٩) حديث « شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالغ » أخرجه أبو داود من حديث جابر بسند جيد  
(١٠) حديث « وما يدريك أنه شديد فله كان يتكلم فيما لا ينيه أو يخل بما لا ينقصه » أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف واللبق في الشعب من حديث أنس أن أمه قالت لهنك الشهادة وهو عند الترمذي : إلا أن رجلا قال له أجب بالجنة .

(١١) حديث جبير بن مطعم : « بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من حين علقت الأعراب به ... الحديث » أخرجه البخاري وتقدم في أخلاق النبوة .

لأنهم يجهلون بين أن يسألوني بالفضح أو يخطونى ولست ياخذل<sup>(١)</sup>» وقال أبو سعيد الخدري: دخل رجلان على رسول الله ﷺ فسألاه ثمن بعيرا فأعطاهما دينارين، فخرجا من عنده فلقهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأثابا وقالوا معروفا وشكرا ما صنع بهما، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره بما قالوا. فقال ﷺ: «لكن فلان أعطيت ما بين عشرة إلى مائة ولم يقل ذلك إن أحذكم ليسألني فيمطلق في مسأته متأبطا<sup>(٢)</sup> وحي نار» فقال عمر: فلم تعطهم ما هو نار؟ فقال: «يا بون إلا أن يسألوني ويأني الله لي البخل<sup>(٣)</sup>» وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الجدود من جود الله تعالى لغير جود أحد الله لكم إلا أن الله عز وجل خلق الجدود لجله في صورة رجل وجعل رأسه راسخا في أصل شجرة طوبى، وشده أغصانها بأغصان سدره المتهى، ودل بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بنفس منبأ أدخله الجنة، ألا إن السخاء من الإيمان، والإيمان في الجنة. وخلق البخل من مقتله وجعل رأسه راسخا في أصل شجرة الزقوم ودل بعض أغصانها إلى الدنيا فمن تعلق بنفس منها أدخله النار، ألا إن البخل من الكفر والكفر في النار<sup>(٤)</sup>» وقال ﷺ: «السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يبلغ الجنة إلا سخي، والبخل شجرة تنبت في النار فلا يبلغ النار إلا بحيل<sup>(٥)</sup>» وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: لو فد بني لحيان «من سيدكم يا بني لحيان؟» قالوا: سيدنا جدين قيس إلا أنه رجل فيه بخل، فقال ﷺ: «وأي داء أدوا من البخل ولكن سيدكم عمرو بن الجوح<sup>(٦)</sup>» وفي رواية أنهم قالوا: سيدنا جدين قيس، فقال: «هم تسودونه؟» قالوا: إنه أكثر مالا وأعلى ذلك لئرى منه البخل، فقال عليه السلام: «وأي داء أدوا من البخل ليس ذلك سيدكم» قالوا: فمن سيدنا يا رسول الله؟ قال سيدكم بشر بن البراء.

وقال علي رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يقض الخيل في حياته السخي عند موته<sup>(٧)</sup>» وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «و: السخي الجهول أحب إلى الله من العابد البخيل<sup>(٨)</sup>» وقال أيضا: قال رسول الله ﷺ: «الصح والإيمان لا يجتمعان في قلب عبد<sup>(٩)</sup>» وقال أيضا: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق<sup>(١٠)</sup>».

وقال ﷺ: «لا ينبغي لمؤمن أن يكون بخيلا ولا جبانا<sup>(١١)</sup>» وقال صلى الله عليه وسلم «يقول نازلكم الشحيح

(١) حديث عمر: قسم النبي ﷺ قبا... الحديث وفيه «ولست ياخذل» أخرجه مسلم.

(٢) حديث أبي سعيد: في الرجلين الذين أعطاهما رسول الله ﷺ دينارين فلقهما عمر فأثابا معروفا... الحديث. وفيه «ويأني الله لي البخل» رواه أحمد وأبو يعلى والزار بنحوه ولم يقل أحمد: إنهما سألاه ثمن بعير ورواه الزائر من رواية أبي سعيد عن عمر ورجال أسانيدهم ثقات (٣) حديث ابن عباس «الجدود من جود الله عز وجل لغير جود أحد الله تعالى» أخرجه مسلم بطوله ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجوه في مستندهم وأفضلهم على إسناد (٤) حديث «السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يبلغ في الجنة إلا سخي» الحديث... تقدم دون قوله «فلا يبلغ في الجنة» إلى آخره وذكره بهذه الزيادة صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرجوه وله في مستنده.

(٥) حديث أبي هريرة «من سيدكم يا بني لحيان؟» قالوا: سيدنا جدين قيس... الحديث» أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم بلفظ «يا بني سلمة» وقال سيدكم بشر بن البراء «وأما الرواية التي قال فيها «سيدكم عمرو بن الجوح» فرواها الطبراني في الصغير من حديث كعب بن مالك بإسناد حسن (٦) حديث علي «إن الله يقض الخيل في حياته السخي عند موته» ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجوه في مستنده ولم أجده إسنادا (٧) حديث أبي هريرة «السخي الجهول أحب إلى الله من العابد البخيل» أخرجه الترمذي بلفظ «وولجأهل سخي» وهو يقية حديث «إن السخي قريب من الله» وقد تقدم (٨) حديث أبي هريرة «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد» أخرجه النسائي وفي إسناد مختلف (٩) حديث «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقد تقدم (١٠) حديث «لا ينبغي لمؤمن أن يكون جبانا ولا بخيلا» لم أره بهذا اللفظ.

أعذر من الظالم وأى ظلم أعظم عند الله من الشح، حلف الله تعالى بموته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنة شيخ ولا بخيل (١) .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول بحمرة هذا البيت إلا غفرت لي ذنبي، فقال صلى الله عليه وسلم « وما ذنبك صفه لي ؟ » فقال : هو أعظم من أن أصفه لك . فقال « وبحبك ذنبك أعظم أم الأرضون ؟ » قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال « ذنبك أعظم أم الجبال ؟ » قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال « ذنبك أعظم أم البحار ؟ » قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال « ذنبك أعظم أم السموات ؟ » قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال « ذنبك أعظم أم العرش ؟ » قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال « ذنبك أعظم أم الله ؟ » قال : بل الله أعظم وأعلى ، قال « وبحبك صف لي ذنبك » قال : يا رسول الله إنى رجل ذو ثروة من المال وإن السائل ليأفني يسألني فكأني أستقبلني بشعلة من نار . فقال صلى الله عليه وسلم « إليك عني لا تحرقني بئارك فوالذي بعثني بالهداية والكرامة لو كنت بين الزكي والمقام ثم صليت أننى ألف عام ثم بكيت حتى تجمرى من دموعك الأنهار وتسقى بها الأشجار ثم مت وأنت تميم لا يكف الله في النار ، ويحك ! أما علمت أن البخل كفر وأن الكفر في النار ، ويحك ! أما علمت أن الله تعالى يقول ﴿ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه . . . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (٢) » .

الآثار ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما خلق الله جنة عدن قال لها ترين قريبتى ، ثم قال لها : أظهرى انهارك فأظهرت عين السليل وعين الكافور وعين التسنيم فتضجر منها في الجنان أنهار آخر وأنها العسل واللبن ثم قال لها أظهرى سرورك وحجائك وكراسيك وحليك وحلك وحرور عينك فأظهرت فظفر إليها فقال تسكلى فقالت طوبى لمن دخلني فقال الله تعالى وعزى لا أسكنك بخيلا . وقالت أم السنين أخت عمر بن عبد العزيز : أف للبخل لو كان البخل قيصاً ما لبست ولو كان طريقاً ما سلكته . وقال طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه : إنا لنجد بأموالنا ما يجهد البخلاء ليعتصروا . وقال محمد بن المنكدر : كان يقال إذا أراد الله بقوم شراً أمر عليهم شرارهم وجعل أرزاقهم بأيدي بخلاتهم . وقال علي كرم الله وجهه في خطبته : إنه سيأتى على الناس زمان عضوض بعض الموسر على مافى يده ولم يؤمر بذلك قال الله تعالى ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ وقال عبد الله بن عمرو : الشح أشد من البخل لأن الشحيح هو الذى يشح على مافى يده غيره حتى يأخذه ويشح بما فى يده فيحبسه ، والبخيل هو الذى يبخل بما فى يده . وقال الشعبي لا أدرى أهما أبعد غورا في نار جهنم البخل أو الكنبد ؟ وقيل ورد على أن شروان حكيم الهند وفيلسوف الروم فقال للهندي : تكلم ، فقال : خير الناس من أتى ستخيا وعند الغضب وقورا وفى القول متأنيا وفى الرقة متواضعا وعلى كل ذى رحم مشفقا . وقام الرومى فقال : من كان بخيلا ورث عدوه ماله ومن قل شكره لم ينل التبع وأهل الكذب مذمومون وأهل التهمة يعوتون قراء ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه . وقال الضحاك في قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا ﴾ قال : البخل . أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة في سبيل الله فهم لا يصيرون الهدى . وقال كعب : مامن صباح إلا وقد وكل به لمكان يناديان اللهم عجل لمسك تلقا

(١) حديث « يقول قائلكم الشيخ أعذر من الظالم وأى ظلم أعظم من الشح ... الحديث » وفيه « لا يدخل الجنة شيخ ولا بخيل » لم أجده بتمامه ولا ترمذى من حديث أبي بكر « لا يدخل الجنة بخيل » وقد تقدم . (٢) حديث كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول بحمرة هذا البيت إلا غفرت لي . . . الحديث « في ذم البخل وفيه قال « إليك عني لا تحرقني بئارك ... الحديث » بطوله وهو باطل لا أصل له .

وصجل لمنفق خلفا . وقال الأصمعي : سمعت أعرابيا وقد وصف رجلا فقال : لقد صغر فلان في عيني لمظم الدنيا في عينه . وكأنما يرى السائل ملك الموت إذا أتاه . وقال أبو حنيفة رحمه الله : لا أرى أن أعذل بخيلا لأن البخل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه خيفة من أن ينيب ، فن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة . وقال علي كرم الله وجهه : والله ما استقصى كرم قط حقه . وقال الله تعالى ( عرف بعثه وأعرض عن بعض ) وقال المحاذ ما بقي من الذلات الثلاث : ذم البخله ، وأكل القديد ، وسك الجرب . وقال بشر بن الحرث : البخل لا غيبة له قال النبي صلى الله عليه وسلم « إنك إذا لبخل » وملحت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : صرامة قوامه ألا أنفيا بخلا قال « فإخبرها إذا »<sup>(١)</sup> وقال بشر : النظر إلى البخل يقضى القلب ولقاء البخله كرب على قلوب المؤمنين . وقال يحيى بن معاذ : مافى القلب للأستياء إلا حب ولو كانوا لجارا . والبخله لا بغض ولو كانوا أربارا . وقال ابن المعتز : أخجل الناس بماله أجودهم بمرعته . ولقي يحيى بن زكريا عليهما السلام إبليس في صورته فقال له : يا إبليس أخبرني بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك قال : أحب الناس إلى المؤمن البخل . وأبغض الناس إلى الفاسق السخي . قال له : لم ؟ قال : لأن البخل قد كفاني عجزه والفاسق السخي أخوف أن يطعم الله عليه في سخائه فيقبله . ثم ولى وهو يقول لولا أنك يحيى لما أخبرتك .

### حكايات البخله

قيل كان بالبصرة رجل موسر بخيل ، فعداه بعض جيرانه وقدم إليه طباخة بيض فأكل منه فأكثر وجعل يشرب الماء فامتزج طعمه ونزل به الكرب والموت ، فجعل يتولى فلما جهده الأمر وصف حاله للطبيب فقال : لا بأس عليك ، قتياما أكلت ، فقال : هاه ! أقتيا طباخة بيض ؟ الموت ولا ذلك . وقيل : أقبل أعرابي بطلب رجلا ، وبين يديه تين ففطن التين بكسائه ، فجلس الأعرابي فقال له الرجل : هل تحسن من القرآن شيئا . قال : نعم ، فقرأ ( ... والريون وطور سينين ) فقال : وأين التين . قال : هو تحت كسائك . ودعا بعضهم أخاه ولم يلطمه شيئا ، فحبسه إلى مصر حتى اشتد جوعه وأخذ مثل الجنون ، فأخذ صاحب البيت العود وقال له : بخياق أى صوت تشفى أن أسممك . قال : صوت المقل . ويحك أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلا فيحب البخل ، فستل نسب له كان يعرفه عنه فقال له قائل . صف لي مائدته فقال : هي قدر في قدر ، وصحافه مثقورة من حب الحشاش ، قيل فمن يحضرها . قال : الكرام الكائون قال : فما يأكل معه أحد ؟ قال : بلى الذباب ، فقال : سوانك بدت وأنت غاص به وثوبك عرق ، قال : أنا والله ما أفقر على ابرة أعيطه بها ، ولو ملك محمد بيتا من بندگان إلى الثوبة ملؤا ابرا ، ثم جاءه جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب النبي عليه السلام يطيلون منه ابرة ويسألونه أطارهم إياها ليخيط بها قيصر يوسف الذي قدم دبر مافعل . ويقال : كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم مخلا حتى يقرم إليه ، فإذا قرم إليه أرسل غلامه فاشترى رأسا فأكله ، فقيل له : نراك لا تأكل إلا الروس في الصيف والشتاء فلم تختار ذلك ، قال : نعم الرأس أعرف سعره فآمن بخياة الغلام ولا يستطيع أن يغبني فيه ، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقتل أن يأكل منه ، أن مس عينا أو أذا أو أخذ وقتد على ذلك ، وآكل منه ألونا ، عينه لونه وأذنه لسانه لونا ، وغلصته لونا ، ودماغه لونا ، وأكفى مؤونة

(١) حديث : مدحت امرأة عند النبي ﷺ فقالوا : صوامه قوامه إلا أن فيها بخلا . . . الحديث « تقدم في آفات اللسان .



طبخه ؛ فقد اجتمعت لي فيه مرافق . وخرج يوماً يريد الخليفة المهدي فقالت له امرأة من أهله : مالي عليك إن رجعت بالجائزة ؟ فقال : إن أعطيت مائة ألف أعطيتك درهما ؛ فأعطى ستين ألفاً فأعطاهم أربعة دواق . واشترى مرة لحماً بدم فهداه صديق له فرد الجم إلى القصاب بنقصان داق ؛ وقال : أكره الإسراف . وكان للأعمش جار وكان لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول : لو دخلت فأكلت كسرة وملحاً ؛ فبقي عليه الأعمش ، فعرض عليه ذات يوم فوافق جوع الأعمش فقال : سر بنسا ، فدخل منزله فحمله إلى كسرة وملحاً ، فجاء سائل فقال له رب المنزل : يورك فيك ، فأعاد عليه المسألة فقال له : يورك فيك . فلما سأل الثالثة قال له : اذهب واقه وإلا خرجت إليك بالمصا ؛ قال : فناداه الأعمش وقال : اذهب ويحك ؛ فلاقاه ما رأيت أحداً أصدق مواعيد منه ! هو منذ مدة يدعوني على كسرة وملح فواقه ما زادني عليهما !

### بيان الإيثار وفصله

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات . فأرفع درجة السخاء : الإيثار ، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه . وإنما السخاء عبارة عن بذل ما يحتاج إليه لمحتاج أو لغير محتاج ، والبذل مع الحاجة أشد . وكان السخاوة قد انتهت إلى أن يستحو الإنسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد انتهى إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة ، فكم من بخيل يسك المال ويعرض فلا يتدوى ، وينتهي الشهوة فلا يتمتع منها إلا بالبخل بالثمن ؛ ولو وجدها مجاناً الرجلين ؟ لا كلها . فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة ؛ وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه . فافطر ما بين فإن الأخلاق صفايا ينمها الله حيث يشاء وليس بعد الإيثار درجة في السخاء . وقد أتى الله على الصحابة رضي الله عنهم به فقال : ( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنما أمرى . انتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له (١) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : ما شجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لشبعنا ولكننا كنا نؤثر على أنفسنا (٢) . ونزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً ، فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله ؛ ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأة بإطفاء السراج ؛ وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل ، حتى أكل الضيف ، فلما أصبح قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد عجب الله من صفيكم الليلة إلى ضيفكم ، ونزلت ( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) (٣) فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى ، والإيثار أعلى درجات السخاء . وكان ذلك من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سماه الله تعالى عظيماً ، فقال تعالى : ( وإنك لأملي خلق عظيم ) وقال سهل بن عبد الله التستري : قال موسى عليه السلام ، يارب أدنى بعض درجات محمد صلى الله عليه وسلم وأنت ؟ فقال : يا موسى إنك أن تخلق ذلك . ولكن أدبك منزلة من منازل جليلية عظيمة فضلتها عليك وعلى جميع خلقي ، قال : فكشف له عن ملبسك السواك فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها

(١) حديث « إنما رجل انتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له » أخرجه ابن حبان في الضعفاء وأبو الشيخ في الثواب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد تقدم . (٢) حديث عائشة : ما شجع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية ولو شئنا لشبعنا ولكننا نؤثر على أنفسنا . أخرجه البيهقي في الشعب بلفظ : ولكنه كان يؤثر على نفسه . وأول الحديث عند مسلم بلفظ : ما شجع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خير برحق مضى لسبيله ، وللشيخين : ما شجع آل محمد منذ قسم المدينة ثلاثة أيام تباعاً حتى قبض . زاد مسلم : من طعام . (٣) حديث : نزل به ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب به إلى أهله ... الحديث . في نزول قوله تعالى ( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

من الله تعالى ، فقال : يارب بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة ؟ قال : بخلق اختصاصه به من بينهم وهو الإيثار ، يا موسى لا يأتي أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلا استحييت من محاسبه ، وبوأته من جنتي حيث يشاء ، وقيل خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه ، إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرى إليه الغلام يقرص فأكله ، ثم دى إليه التافع الثالث فأكله ، وعبد الله ينظر إليه فقال : يا غلام كم فركك كل يوم ؟ قال : ما رأيت . قال : فلم آتت به هذا السكب ؟ قال : مامى بأرض كلاب ، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت أن أشبع وهو جائع . قال : فما أنت صانع اليوم ؟ قال أطوى بوى هذا فقال عبد الله بن جعفر : ألام على السخاء ! إن هذا الغلام لأسخى منى ، فاشتري الحائط والغلام وما فيه من الآلات فأعنت الغلام ووجهه منه . وقال عمر رضى الله عنه : أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : إن أخى كان أحرص منى إليه فيمت به إليه ، فلم يزل كل واحد يبعث به إلى آخر حتى تداروا بسببه أبيات ورجع إلى الأول . وبات على كرم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام : إنى أخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاختارا كلاماً للحياة وأجاباه ، فأوحى الله عز وجل إليهما أفلا كنتم مثل عبد بن أبي طالب أخيت بينه وبين نبي محمد صلى الله عليه وسلم فبات على فراشه يفد به بنفسه ويؤثره بالحياة ؟ أبطأ إلى الأرض فاحفظاه من عدوه فمكن جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجله وجبريل عليه والسلام يقول : بخ بخ من مثلك يا بن أبي طالب والله تعالى يباهى بك الملائكة ! فأنزل الله تعالى ( ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله روف بالعباد ) (١) ومن أبي الحسن الأنطاكى : أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون قساً ، وكانوا في قرية بقرى الزى . ولم أره ممدودة لم تشيع جميعهم ، فكسروا الزغافن واطفأوا السراج وجلسوا الطعام ، فلما رفع فإذا الطعام بهاله ولم يأكل أحد منه شيئاً إظهاراً لصاحبه على نفسه . وروى أن شعبة جاءه سائل وليس عنده شيء ، فنزع شعبة من سقف بيته فأعطاه ثم اعتذر إليه . وقال حذيفة العدوى : اضلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شيء من ماء وأنا أقول : إن كان به رفق سقيته ومسحت به وجهه ، فإذا أنا به قتل : أسقيك ؟ فأشار إلى أن نعم ، فإذا رجل يقول : آه ... فأشار ابن عمى إلى أنت أطلق به إليه ، لجئته فإذا هو هشام بن العاص قتل : أسقيك ؟ فسمع به آخر فقال : آه ... فأشار هشام أطلق به إليه ، لجئته فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين . وقال عباس بن دهمان : ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحرث فإنه أتاه رجل في مرضه ففكا إليه الحاجة فنزع قيضه وأعطاه إياه . واستمر ثوباً فمات فيه ، وعن بعض الصوفية قال : كنا بطرسوس فاجتمعنا جماعة وخرجنا إلى باب الجهاد ، فبينما كلب من البلد ، فلما بلغنا ظاهر الباب إذا نحن بداية ميتة فصدنا إلى موضع عال وقصدنا ، فلما نظر الكلب إلى الميتة رجع إلى البلد ثم عاد بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلباً ، فجاء إلى تلك الميتة وقعد ناحية ووقعت الكلاب في الميتة ، فزالت تأكلها وذلك الكلب قاعد ينظر إليها حتى أكلت الميتة وبقي العظم ورجعت الكلاب إلى البلد ، فقام ذلك الكلب

(١) حديث : بات على فراش رسول الله ﷺ فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل إنى أخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر ... الحديث . في نزول قوله تعالى ( ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله ) أخرجه أحمد مختصراً من حديث ابن عباس : شرى على نفسه فلبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه ... الحديث . وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل ولم أتفق لهذه الزيادة على أصل ، وفيه أبو بلج بخلاف فيه والحديث منكر .

وجاء إلى تلك الظالم فأكل مما بقي عليها قليلا ثم انصرف .  
وقد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار وأحوال الأولياء في كتاب الفقر والزهد فلا حاجة إلى الإعادة هنا وبالله  
التوفيق وعليه التوكل فيما يرضيه عز وجل .

### بيان حد السخاء والبخل وحقيقتها

لعلك تقول : قد عرف بشواهد الشرع أن البخل من المهلكات ، ولكن ما حد البخل وبماذا يصير الإنسان  
بخيلا ؟ وما من إنسان إلا وهو يرى نفسه سنيا وربما يراه غيره بخيلا ، وقد يصدر قتل من إنسان فيختلف فيه  
الناس فيقول قوم : هذا بخل ويقول آخرون ليس هذا من البخل . وما من إنسان إلا ويحد من نفسه حبا للسأل  
ولأجله يحفظ المال ويمسكه ، فإن كان يصير بإسكاف المال بخيلا فإذا لا ينفك أحد عن البخل . وإذا كان الإمساك  
مطلقا لا يوجب البخل ، ولا معنى للبخل إلا الإمساك فما البخل الذي يوجب الهلاك ؟ وما حد السخاء الذي يستحق  
به العبد صفة السخاوة وثوابها ؟ فنقول : قد قال قائلون حد البخل منع الواجب . فكل من أدى ما يجب عليه فليس  
ببخيل . وهذا غير كاف . فإن من رد اللحم مثلا إلى القصاب والخبز الخبز بقصان حبة أو نصف حبة فانه يعد  
بخيلا بالاتفاق . وكذلك من يسلم إلى عياله القدر الذي يرضه القاضى ضمما يقيم في لقمة ازدادوها عليه أو تمره  
أكلوها من ماله يعد بخيلا . ومن كان بين يديه وغيب خضر من يظن أنه يأكل معه فأخفاه عنه عد بخيلا . وقال  
قائلون : البخيل هو الذى يستصعب العطية . وهو أيضاً قاصر . فانه ان أريد به أنه يستصعب كل عطية فك من  
بخيل لا يستصعب العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها ، ويستصعب ما فوق ذلك ؟ وان أريد به أنه يستصعب بعض  
العطايا فما من جواد الا وقد يستصعب بعض العطايا ؟ وهو ما يستغرق جميع ماله أو المال العظيم . فهذا لا يوجب  
الحكم بالبخل . وكذلك تكلموا في الجود ، فقيل : الجود عطاء بلا من واسفاف من غير روية . وقيل : الجود عطاء  
من غير مسألة على رؤية التقليل . وقيل : الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن . وقيل : الجود عطاء  
على رؤية أن المال لله تعالى والمبدقة عز وجل فيعطى عبد الله مال الله على غير رؤية المقر . وقيل : من أعطى  
البعض وأبقى المال بعض فهو صاحب سخاء ، ومن بذل الأكر وأبقى لنفسه شيئا فهو صاحب جود ، ومن قامى الضرر  
وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار ، ومن لم يبذل شيئا فهو صاحب بخل .

وجملة هذه الكميات غير عينة بحقيقة البخل ، بل نقول : المال خلق لحكمة ومقصود وهو صلاحه لحاجات  
الخلق ، ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه ، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه ،  
ويمكن التصرف بالعدل ، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ، ويبذل حيث يجب البذل فالإمساك حيث يجب البذل  
بخل ، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير . وبينهما وسط وهو المحمود وينبئ أن يكون السخاء والجود عبارة عنه ؛  
إذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالسخاء ، وقد قيل له ( ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها  
كل البسط ) وقال تعالى ( والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ) فالجود وسط بين  
الإسراف والإقتار وبين البسط والتبعض ، وهو أن يقتدر بذله وإمساكه بقدر الواجب ، ولا يكفي أن  
يفعل ذلك بمجرد حاله ما لم يكن قلبه طيبا به غير متنازع له فيه . فان بذل في محل وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو  
يصار بها فهو متبعض وليس بسخي ، بل ينبئ أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له وهو صرفه  
إلى ما يجب صرفه إليه .

فإن قلت : فقد صار هذا موقوفاً على معرفة الواجب فما الذي يجب بذله ؟

فأقول : إن الواجب تسان : واجب بالشرع ، وواجب بالمروءة والعادة . والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة ، فإن منع واحداً منهما فهو بخيل ، ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبطل كالذي يمنع أداء الزكاة ومنع عياله وأهله النفقة . أو يؤذيها ولكنه يشق عليه ، فإنه بخيل بالطبع . وإنما يتسنى بالتكلف ، أو الذي يتيمم الخيـث من ماله ولا يطيب قلبه أن يعطى من أطيب ماله ، أو من وسطه ، فهذا كله بخل .

وأما واجب المروءة فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات . فإن ذلك مستقيم ، واستباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص . فمن كثر ماله استبح منه مالا يستبح من الفقير من المضايقة . ويستبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقربه ومما يملكه مالا يستبح مع الأجانب . ويستبح من الجار مالا يستبح مع البعيد . ويستبح في العناية من المضايقة مالا يستبح في المعاملة ، فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة في ضيافة أو معاملة وبما به المضايقة من طعام أو ثوب ، إذ يستبح في الأطلعة مالا يستبح في غيرها . ويستبح في شراء الكفن مثلاً أو شراء الأضحية أو شراء خبز الصدقة مالا يستبح في غيرها .

وكذلك بمن معه المضايقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولد أو أجنبي ومن منه المضايقة من صبي أو امرأة أو شيخ أو شاب أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير .

فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة . وذلك لا يمكن التنبصص على مقداره . ولعل حد البخل هو إمساك المال عن غرض . ذلك الغرض هو إهم من حفظ المال فإن عيافة الدين إهم من حفظ المال . فأنع الزكاة والنفقة بخيل . وضيافة المروءة إهم من حفظ المال . والمضايقة في الدقائق مع من لا تحسن المضايقة منه هاتك ستر المروءة لب المال فهو بخيل . ثم تبقى درجة أخرى . وهو أن يكون الرجل ممن يؤدي الواجب ويحفظ المروءة ولكن معه مال كثير قد جمعه ليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين . فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عنة على نوائب الزمان وغرض الثواب ليكون رافعا لدرجته في الآخرة . وإمساك المال عن هذا الغرض بخل عند الأكياس وليس يخل عند عوام الخلق . وذلك لأن فطر العوام مقصور على حظوظ الدنيا فيرون إمساكهم لدفع نوائب الزمان مهما . وربما يظهر عند العوام أيضا سمة البخل عليه إن كان في جواره محتاج فتمه وقال : قد أدبت الزكاة الواجبة وليس على غيرها . ويختلف استباح ذلك باختلاف مقدار ماله . وباختلاف شدة حاجة المحتاج وصلاح دينه واستحقاقه .

لن أذكر واجب الشرع وواجب المروءة إلا لثقافته فقد تراءى من البخل . نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء مالم يبدل على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات فإذا اتعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجب الشرع ولا توجه إليه الملامة في العادة فهو جواد بقدر ما تسع له نفسه من قليل أو كثير . ودرجات ذلك لا تحصر وبعض الناس أجود من بعض ، فاصطناع المعروف وراء ما توجه العادة والمروءة هو الجود . ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون عن طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء . فإن من طمع في الشكر والثناء فهو يبيع وليس بجواد . فإنه يشتري المدح بماله والمدح بدين وهو مقصود في نفسه ، والجود هو بذل الشيء من غير عوض . هذا هو الحقيقة ولا يتصور ذلك إلا من الله تعالى ، وأما الأدنى فاسم الجود عليه مجاز إذ لا يبذل الشيء إلا لغرض ، ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا

الثواب في الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود وتطهير النفس عن رذالة البخل فيسمى جواداً ، فإن كان الباعث عليه الخوف من الهباء مثلاً أو من ملامة الخلق أو ما يترقبه من قبح مثاله من التعم عليه فنكل ذلك ليس من الجود ، لأنه مضطر إليه بهذه البواعث ، وهي أعراض مسجلة له عليه فهو مضطر لاجواد ، كما روى عن بعض التلميذات أنها وقفت على حبان بن هلال وهو جالس مع أصحابه فقالت : هل فيكم من أسأله عن مسألة ؟ فقالوا لها : سئى عما شئت . وأشاروا إلى حبان بن هلال . فقالت : ما السخاء عنكم ؟ قالوا العطاء والبذل والإيثار ، قالت : هذا السخاء في الدنيا فما السخاء في الدين ؟ قالوا : أن تعبد الله سبحانه سنية بها أنفسنا غير مكرمة ، قالت : فتريدون على ذلك أجراً ؟ قالوا : نعم ، قالت : ولم ؟ قالوا : لأن الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر أمثالها ، قالت : سبحانه الله فإذا أعطيت واحدة وأخذت عشرة فبأى شيء تسخيت عليه ؟ قالوا لها فما السخاء عندك رحمك الله ؟ قالت : السخاء عندي أن تعبدوا الله متممين لتلذذين بطاعته غير كارهين لا تريدون على ذلك أجراً حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشاء . ألا تستحيون من الله أن يطلق على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيئاً بشيء ؟ إن هذا في الدنيا لقبيح ! وقالت بعض التلميذات : انمحيون أن السخاء في الدرم والدينار قطع ؟ قيل : قبيح ؟ قالت : السخاء عندي في الحج . وقال المحاسي : السخاء في الدين أن تسخو بنفسك تلتفقه عز وجل ويسخو قلبك ببذل مهيتك وإزهاق دمك لله تعالى بسخاء من غير إكراه ، ولا تريد بذلك ثواباً عاجلاً ولا آجلاً ، وإن كنت غير مستغن عن الثواب ولكن يظلب على ظنك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله ، حتى يكون مولاك هو الذي يفعل لك ما لا تحسن أن تختار لنفسك .

### بيان علاج البخل

اعلم أن البخل سببه حب المال . ولحب المال سببان : أحدهما : حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل ، فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما أنه كان لا يخلع بجاهه ؛ إذ القدر الذي يحتاج إليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب ، وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل ، فإنه يقدر بقاءه كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم . ولذلك قال عليه السلام « الولد مبخلة بمحنة مجله <sup>(١)</sup> » فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثمة بمحى الرزق قوى البخل لاعماله .

السبب الثاني : أن يحب عين المال ، فمن الناس من ماعا يكفيه لبقية عمره إذا أقصر على ما جرت به عادته بنفقته ، وفضل آلاف وهو شيخ بلا ولد ومعه أموال كثيرة ولا تسمح نفسه باخراج الزكاة ولا مداواة نفسه عند المرض بل صار يحيا للدنانير عاشقاً لما يئذ يوجدها في يده ويقدره عليها ، فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيق أو يأخذها أعداؤه ، ومع هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يصدق منها بحبة واحدة ، وهذا مرض القلب عظيم عسير العلاج لاسيما في كبار السن ، وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه . ومثال صاحبه : مثال رجل عشق شخصاً فأحب رسوله لنفسه ثم نسي محبوبه واشتغل برسوله ، فإن الدنانير رسول يبلغ إلى الحاجات فصارت محبوبة لذلك ، لأن الموصول إلى اللذيذ لذيق ، ثم قد نسي الحاجات وبصرى الذهب عنده كأنه محبوب في نفسه وهو غاية الفضلال ، بل من رأى بينه وبين الحجر فرقا فهو جاهل إلا من حيث قضاء حاجته به ، فالفاضل من قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة . فهذه أسباب حب المال . وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فتعالج حب الشهوات بالقناعة

(١) حديث « الولد مبخلة بمحنة » زاد في رواية « محزنة » ابن ماجه من حديث يعلى بن مرة دون قوله « محزنة » رواه بهذه الزيادة أبو يعلى والبرزاد من حديث أبي سعيد والحاكم من حديث الأسود بن خلف وإسناده صحيح .

باليسر والصبر ، وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران وطول تنهم في جمع المال وضياحه بعدم ، وتعالج الثقات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه ، ولم من ولد لم يرث من أبيه مالا وحاله أحسن من ورث ؟ وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو إلى شر ، وأن ولده إن كان تقيا صالحا فافقه كافيه ، وإن كان فاسقا فيستعين بماله على المصيبة وترجع مملكته إليه . ويعالج أيضا قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم .

ومن الأدوية النافعة : كثرة التأمل في أحوال البخل . وفترة الطبع ضئيل واستباحهم له ، فانه ما من بخيل إلا ويستمتع البخل من غيره ، ويستغل كل بخيل من أصحابه ، فيعلم أنه مستغل ومستغل في قلوب الناس مثل سائر البخل في قلبه .

ويعالج أيضا قلبه بأن يتفكر في مقاصد المال ، وأنه لا ذا خلق . ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه الباقي يدخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل له ثواب بخله . فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم ، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإسكاف في الدنيا والآخرة حاجت رغبته في البذل إن كان عاقلا ، فان تحركت الشهوة فينبغي أن يجيب الحاطر الأول ولا يتوقف ، فان الشيطان يمدد الفقر ويخوفه ويهدده عنه .

حكى أن أبا الحسن البوشنجي كان ذات يوم في الحلاء فدعا تلميذا له وقال : انزع عني التميمص وادفعه إلى فلان ، فقال : هلاصبرت حتى تخرج ، قال : لم آمن على نفسي أن تتغير ، وكان قد خطرت بخله ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفا كما لا يزال العشق إلا بمفارقة المشوق بالسفر عن مستقره ، حتى إذا سافر وفارق تكلفا وصبر عنه مدة تسلى عنه قلبه . فكنكك الذي يريد علاج البخل ينبئ أن يفارق المال تكلفا بأن يبذله ، بل لو رماه في الماء كان أولى به من امساكه أياه مع الحب له .

ومن لطائف الحيل فيه أن يتدح نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء ، فيبذل على قصد الرياء حتى تسمع نفسه بالبلد طمعا في حشمة الجود ، فيكون قد أزال عن نفسه خيب البخل واكتسب بها خيب الرياء ، ولكن يتحلف بعد ذلك على الرياء ويزيله بهلاجه ، ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال ، كما قد يسلى الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالمصافير وغيرها لا ليخلى واللعب ، ولكن لينفك عن الثدي إليه ، ثم ينقل عنه إلى غيره ، فكنكك هذه الصفات الخبيثة ينبئ أن يسلط بعضها على بعض كما تسلط الشهوة على الغضب وتكرس سورتها بها ، ويسلط الغضب على الشهوة وتكرس رصوتها به . إلا أن هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء ، فيبذل الآثري بالأضعف . فان كان الجاه محبوا عنده كلالا فلا فائدة فيه فانه يقلع عن علوه ويريد في أخرى مثله ، إلا أن علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرياء ، فلكك يتبين أن الرياء أغلب عليه ، فان كان البذل يشق عليه مع الرياء فينبئ أن يبذل فان ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه .

ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال إن الميت تستحيل جميع أجزائه دودا ثم يأكل بعض الدبدبان البعض ، حتى يقل عددها ثم يأكل بعضها بعضا حتى ترجع إلى اثنين قويتين عظيمتين ، ثم لا تزالان تتفانلان إلى أن تغلب إحداهما الأخرى فتأكلها وتضمن بها ، ثم لا تزال تبقى جائمة وحدها إلى أن تموت ، فكنكك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلط بعضها على بعض حتى يقمها ، ويجعل الأضعف قوتا للأثري إلى أن لا يبقى إلا واحدة ، ثم تقع الثاية بمحورها وإذا بناتها بالجاهدة وهو منع الثوت عنها . ومنع الثوت عن الصفات أن لا يعمل بمقتضاها ، فانها تقتضي لا محالة أصحالا ، وإذا خولفت خدمت الصفات وماتت . مثل البخل فانه يقتضي امساك

لئلا فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ماتت صفة البخل وصار البذل طبعاً وسقط التعب فيه ، فإن علاج البخل يعلم وعمل ؛ فاعلم رجوع إلى معرفة آفة البخل وقائمة الجود ، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف ، ولكن قد يقوى البخل بحيث يسمى ويهم فينحى تحقق المعرفة فيه ، وإذا لم يتحقق المعرفة لم تحرك الرغبة فلم يتيسر العمل فتبقى العلة مزمنة ، كل مرض الذي يمنع معرفة الدواء وإمكان استماله فإنه لاحية فيه إلا الصبر إلى الموت .

وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية في معالجة علة البخل في المريد أن ينصحهم من الاختصاص بزواياهم . وكان إذا توم في مريد فرحه بزوايته وما فيها ؛ قلّه إلى زاوية غيرها ، وقل زاوية غيره إليه وأخرجه عن جميع ما ملكه ، وإذا رأى يبتغى إلى ثوب جديد يلبسه أو سجادة يفرح بها يأمره بتسليمها إلى غيره ويلبسه ثوباً خلقاً لا يميل إليه قلبه .

فهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا . فمن لم يملك هذا السبيل أنس بالدنيا وأحبها ، فإن كان له ألف متاع كان له ألف عيوب ، ولذلك إذا سرق كل واحد منه ألت به مصيبة بقدر أحبه له ، فإذا مات نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة لأنه كان يحب الكل وقد سلب عنه ، بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقد والمهلك .

حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروز مزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير ، ففرح الملك بذلك فرحاً شديداً فقال لبعض الحكماء عنده : كيف ترى هذا ؟ قال : أراه مصيبة أو فقراً ، قال كيف ؟ قال : إن كسر كن مصيبة لأجبر لها وإن سرق صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله ، وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر ، ثم اتفق يوماً أن كسر أو سرق وعظمت مصيبة الملك عليه فقال : صدق الحكم ليته لم يحمل إلينا ، وهذا شأن جميع أسباب الدنيا عدوة لأعداء الله إذ تسوقهم إلى النار ، وعدوة لأوليائه الله إذ تمنعهم بالصبر عنها ، وعدوة الله إذ تقطع طريقه على عباده ، وعدوة نفسها فانها تأكل نفسها ، فإن المال لا يحفظ إلا بالخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال وهو بذل الدرهم والدنانير ، قالل يا كل نفسه ويضاد ذاته حتى يفنى ، ومن عرف آفة المال لم يأخذ به ولم يفرح به ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته ، ومن قنع بقدر الحاجة فلا يخل لأن ما أمسك لحاجته فليس يخل ، ولا يحتاج إليه ، فلا يشب نفسه بحفظه فيبذله ، بل هو ككلام على شط الدجلة إذ لا يخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة .

### بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله

اعلم أن المال كما وصفناه خمر من وجه وشر من وجه . ومثاله مثال حية يأخذها الراق ويستخرج منها الترياق ، ويأخذها العاقل فيقتله سبها من حيث لا يدري ولا يخطر أحد عن سم المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف : الأولى : أن يعرف مقصود المال وأنه لا إذا خلق وأنه لم يبتغى إليه حتى يكتسب ولا يحفظ إلا بقدر الحاجة ، ولا يطليه من حمة فوق ما يستحقه .

الثانية : أن يراعى جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض ، وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان ، ويجتنب الجهات المسكرومة الفادحة في المرومة كالمدايا التي فيها شوائب الرشوة . وكالسؤال الذي فيه الالة وهتك المرومة وما يجري مجراه .

الثالثة : في المقدار الذي يكتسبه فلا يستكثر منه ولا يستقل ، بل القدر الواجب ومعياره الحاجة ، والحاجة

ملبس ومسكن ومعلم ، ولكل واحد ثلاث درجات : أدنى وأوسط وأعلى . ومادام ما نلنا إلى جانب القلة ومتقربا من حد الضرورة كان حقا ويحيى من جهة المحققين ، وإن جاوز ذلك وقع في هاوية لا آخر لعمقها . وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات في كتاب الزهد .

الرابطة : أن يراعى جهة المخرج ويتصمد في الإلتصاق غير مبذر ولا مقتركا ذكرناه ، فيضع ما اكتسبه من حقه في حقه ولا يهضمه في غير حقه ، فإن الإلتصاق في الأخذ من غير حقه والوضوع في غير حقه سواء .

الخامسة : أن يصلح نية في الأخذ والترك والإلتصاق والإمساك ، فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة ، ويترك ما يترك زهدا فيه واستحقار له إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال ، ولذلك قال على رضى الله عنه : لو أن رجلا أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد ، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس بزاهد . فلتكن جميع حركاتك وسكناتك مقصورة على عبادة أو ما يمين على العبادة ، فإذا كان ذلك قصدك بهما صار ذلك عبادة في حقل . وكذلك ينبغي أن تكون نيتك في كل ما يحفظك من ليلس وإزار وفرش وآنية ، لأن كل ذلك مما يحتاج إليه في الدين ، وما فضل من الحاجة ينبغي أن يقصد به أن يتفصح بعبد من عبادة الله ولا يمتنع منه عند حاجته ، فمن فعل ذلك فهو الذي أخذ من حية المال جوهرها وترباتها وأبقى سببا فلا تضره كثرة المال ولكن لا يتأثر ذلك إلا لمن رسخ في الدين قدمه وعظم فيه علمه . والعمى إذا تشبه بالعالم في الاستكثار من المال وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة شابه السبي الذي يرى المزمع الحاذق يأخذ الحية ويصرف فيها فيخرج ترباتها فيقتدى به ، ويظن أنه أخذها مستحسنا صورتها وشكلها ومستلينا جملها ، فيأخذها اقتداء به فتفتله في الحال ، إلا أن قتيل الحية يدري أنه قتيل ، وقتيل المال قد لا يعرف . وقد شبهت الدنيا بالحية قتيل :

هي دنيا كحمة تنفت السم وإن كانت الحية لانت

وكا يستحيل أن يقبضه الأعمى بالبحر في تخفى قل الجبال وأطراف البحر والطرق المشوكه فحال أن يتشبه العاى بالعالم الكامل في تناول المال .

## بيان ثم النفي ومدح الفقر

اعلم أن الناس قد اختلفوا في تفصيل النفي الشاكر على الفقير الصابر - وقد أوردنا ذلك في كتاب الفقر والزهد وكشفنا إلى تحقيق الحق فيه - ولكننا في هذا الكتاب ندل على أن الفقر أفضل وأعلى من النفي على الجملة من غير التفات إلى تفصيل الأحوال ، وتقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحارث المحاسبي رضى الله عنه في بعض كتبه في الرد على بعض العلماء من الأغنياء ، حيث احتج بأغنياء الصحابة وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم والمحاسبي رحمه الله جبر الأمة في علم المعاملة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه . وقد قال بعد كلام له في الرد على علماء السوء : بلغنا أن عيسى ابن مريم عليه السلام قال : يا علماء السوء تصومون وتصلون وتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون ، وتدرسون ما لا تعلمون فيأسوا ما تمحكون ، توبون بالقول والأمانى وتعملون بالموى ، وما ينبغي عنكم أن تتقوا جلودكم وقلوبكم دنسة ، بحق أقول لكم لا تكونوا كلنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة ، كذلك أتم



تفرون الحكم من أفواهكم ويقي القتل في صدوركم ، يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنفعني من الدنيا شيوته ولا تنقطع منها رغبته ؟ بحق أقول لكم إن قلوبكم تبي من أعمالكم ، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم ، بحق أقول لكم أفدتكم أنفسكم فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة ، فأى الناس أخسر منكم لو تعلمون ؟ ويلكم حتام تصفون الطريق للبلبلين وتقيمون في عمل المشركين ! كأنكم تدعون أهل الدنيا ليركبوها لكم ، مهلا مهلا ! ويلكم ماذا يعني عن البيت النظم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم . كذلك لا ينبغي عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة متحلة ! يا عبيد الدنيا لا كعبيد أقبية ولا كأحرار كرام ، توكلت الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم تدفعكم عن خلفكم حتى تسلك إلى الملك الديان عراة قرادى ، فيوقفكم على سوانكم ثم يمزيك بسوء أعمالكم . ثم قال الحارث رحمه الله : إخواني قهؤلاء علماء سوء شياطين الإنس وفتنة على الناس ، رغبوا في عرض الدنيا وورعها وأثروها على الآخرة ، وأدلو الدين الدنيا فهم في العاجل عار وشين ، وفي الآخرة هم الخاسرون أو ينفو الكريم بفضلها .

وبعد : فإني رأيت المالك المؤثر للدنيا سروره عزوج بالتنفيس ، فيستفرجه أنواع المعلوم وفنون المعاصي وإلى البوار والتلف مصيره ، فرح المالك برجائه فلم يبق له دنياه ولم يسلم له دينه ( خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ) فيلما من مصيبة ما أظلمها ورزية ما أجلبا ، ألا فراقبوا الله إخواني ولا يغرنكم الشيطان وأوليأؤه من الأنسين بالحجج الداحضة عنداه ، فانهم يتكالبون على الدنيا ثم يطلبون لأفهم المماذير والحجج ، ويدعون أن أصحاب رسول الله ﷺ كانت لهم أموال فيترين المغرورون بذكر الصحابة ليعلمهم الناس على جمع المال ، ولقد دهم الشيطان وما يشعرون .

ويحك أيها المفتون إن احتجاجك بمال عبد الرحمن بن عوف مكيدة الشيطان ينطق بها على لسانك فتهلك ! لأنك متى زعمت أن أخيار الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف والزينة ففقدت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم ، ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه فقد ازدريت عمدا والمرسلين . ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهد في هذا الخير الذي رغب في أنه أنت وأصحابك من جمع المال ، ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت . ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى من تركه ، فقد زعمت أن رسول الله ﷺ لم ينصح للأمة إذ نهام عن جمع المال (١) وقد علم أن المال خير للأمة فقد غشهم بزعمك حين نهام عن جمع المال ، كذبت برب السماء على رسول الله ﷺ فلقد كان للأمة ناصحا وعليهم مشفقا وبهم رءوفا .

ومتى زعمت أن جمع المال أفضل فقد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر لعباده حين نهام عن جمع المال وقد علم أن جمع المال خير لهم ؟ أو زعمت أن الله تعالى لم يعلم أن الفضل في الجمع فلذلك نهام عنه ، وأنت علم بما في المال من الخير والفضل فلذلك رغب في الاستكثار كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك ، تعالى الله عن جهلك ! أيها المفتون : تدبر بقلك مادهاك به الشيطان حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة ! ويحك ما ينفعك الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف وقد ود عبد الرحمن بن عوف في القيامة أنه لم يؤت من الدنيا إلا قوتا ؟

(١) حديث : التهي عن جمع المال . أخرجه ابن عدى من حديث ابن مسعود « ما أوحى الله إلى أن أجمع للمال وأكون من التجارن ... الحديث » ولأبي نعيم والحطيب في التاريخ والبيهقي في الزهد من حديث الحارث بن سويد في أثناء الحديث « لا تجمعوا مالا تأكلون » وكلاما ضيف .

ولقد بلغني أنه لما توفي عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
إننا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك ! فقال كعب : سبحان الله ! وما تخافون على عبد الرحمن كسب طيباً وأففق  
طيباً وترك طيباً ! فبلغ ذلك أباً ذر ، فخرج غاضباً يريد كعباً فربعهم حتى بعير فأخذه بيده ثم انطلق يريد كعباً ،  
فقبل لكعب : إن أباً ذر يطلبك ، فخرج هارباً حتى دخل على عثمان يستغيث به وأخبره الخبر ، وأقبل أباً ذر بقص  
الأثر في طلب كعب حتى انتهى إلى دار عثمان ، فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هارباً من أبى ذر ، فقال له  
أبو ذر : هيه يا ابن اليهودية ! تزعج أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ، ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم  
ومما نحر أحد وأنا معه فقال « يا أباً ذر » فقلت : لبيك يا رسول الله فقال « ألا كثرون هم الأقلون يوم  
القيامة إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وشماله وقدامه وخلفه وقليل مأم » ثم قال « يا أباً ذر » قلت : نعم  
يا رسول الله بآي أنت وأمي ، قال « ما يسرق أن لى مثل أحد أنفق في سبيل الله أموت يوم أموت وأترك منه  
قيراطين » قلت : أر قطارين يا رسول الله ؟ قال « بل قيراطان » ثم قال « يا أباً ذر أنت تريد ألا كثروا أنا أريد  
الأقل (١) » فرسول الله يريد هذا وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف . كذبت وكذب  
من قال : فلم يرد عليه خوفاً حتى خرج .

وبلغنا أن عبد الرحمن بن عوف قدمت عليه عير (٢) ففضحت المدينة ضجة واحدة فقالت عائشة رضى الله عنها :  
ما هذا ؟ قبل عير قدمت لعبد الرحمن ؟ قالت : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك عبد الرحمن فسألها  
فقالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إني رأيت الجنة فرأيت قراء المهاجرين والمسلمين يدخلون  
سعيها ، ولم أر أحداً من الأغنياء يدخلها معهم إلا عبد الرحمن بن عوف يدخلها معهم حياً (٣) » فقال عبد الرحمن :  
إن العير وما عليها في سبيل الله ، وإن أرقاعها أحرار لعل أدخلها معهم سعيها .  
وبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن عوف « أما إنك أول من يدخل من أغنياء أمي وما كدت  
أن تدخلها إلا حياً (٤) » .

ويحك أيها المفتون ، فما احتجايك بالمال وهذا عبد الرحمن في فضله وتقواه وصنائه المعروف وبذله  
الأموال في سبيل الله مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبشراء بالجنة (٥) أيضاً يوقف في عرصات القيامة  
أهوالها بسبب مال كسبه من حلال للتعفف ولصنائع المعروف ، وأفق منه قصداً ، وأعطى في سبيل الله شهماً ،

(١) حديث أبى ذر « ألا كثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا ... الحديث » متفق عليه وقد  
تقدم دون هذه الزيادة التي في أوله من قول كعب حين مات عبد الرحمن بن عوف : كسب طيباً وترك طيباً . وإنكار  
أبى ذر عليه ؟ فلم أقف على هذه الزيادة إلا في قول الحارث بن أسد المحاسبى بلغني كما ذكره للصف ، وقد رواها أحمد  
وأبو يعلى أخضر من هذا ولفظ كعب : إذا كان قضى عنه حق الله فلا بأس به ، فرجع أبو ذر عصاه فضرب كعباً  
وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول ما أحب لو كان هذا الجيل لي ذهباً ... الحديث . وفيه ابن لهيعة . (٢) حديث  
عائشة « رأيت الجنة فرأيت قراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعيها ... الحديث » في أن عبد الرحمن بن عوف  
يدخل الجنة حياً رواه أحمد مختصراً في كون عبد الرحمن يدخل حياً دون ذكر قراء المهاجرين والمسلمين ، وفيه  
عمار بن زاذان يختلف فيه . (٣) حديث : أنه قال « أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي وما كدت  
تدخلها إلا حياً » أخرجه الزائر من حديث أنس بسند ضعيف والحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف « يا ابن  
عوف إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفا » وقال صحيح الإسناد قلت : بل ضعيف فيه خالد بن أبى مالك  
ضعفه الجمهور . (٤) حديث : بشر النبي ﷺ عبد الرحمن بن عوف بالجنة . أخرجه الترمذى والنسائي في الكبرى  
من حديثه « أبو بكر في الجنة ... الحديث » وفيه « وعبد الرحمن بن عوف في الجنة » وهو عند الأربعة من حديث  
سيد بن زيد قال البخاري والترمذي وهذا أصح .

منع من السعي إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين وصار يحجر في آثارهم حيوياً ، فما ظنك بأثنائنا الفرق في قن الدنيا ؟ وبعد : فالصيب كل المعجب بك يامفتون تترغ في تخاليط الشهوات والاحت ، وتكالب على أوساخ الناس ، وتقلب في الشهوات والزينة والمباهاة ، وتقلب في قن الدنيا ثم تحتج ببديل الرحمن وتزعم أنك إن جمعت المال فقد جمعت الصعابة كأنك أشبهت السلف وقلمهم ! ويحك إن هذا من قياس إبليس ومن قبياه لأوليائه ! وأسأف لك أحوالك وأحوال السلف ثم عرف فضائلك وفضل الصعابة . ولمرى لقد كن بعض الصعابة أموالاً أرادوها التصف والذل في سبيل الله ، فكسبوا حلالاً وأكلوا طيباً ، وأتفقوا قصداً ، وقدموا فضلاً ، ولم يمنعوا منها حقاً ، ولم يختاروها ، لكنهم جلاؤا لله بأكثرها ، وجد بعضهم مجيهاً ، وفي الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيراً ، فبأه أكذلك أنت ؟ وإله أنك لبعيد الشبه بالقرم .

وبعد : فإن أخبار الصعابة كانوا للسكنة عبيد ، ومن خوف الفقر آمنين ، وبأهق أرزاقهم واثقين ، وبمقادير الله مسرورين ، وفي البلاد راضين ، وفي الرغاء شاكرين ، وفي الضراء صابرين ، وفي السراء حامدين . وكانوا لله متواضعين ، وعن حب الملو والتكاثر ورعين . لم يتألوا من الدنيا إلا للمباح لهم ورضوا بالبلغة منها وزجوا الدنيا وصبروا على مكازرها وتجرعوا مرارتها وزهدوا في نعيمها وزهراتها ، فبأه أكذلك أنت ؟

ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزوا وقالوا : ذنت جعلت عقوبته من الله وإذا رآو الفقر مقبلاً قالوا : مرحباً بشمار الصالحين . وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شيء أصبح كشيء حزينا ، وإذا لم يكن عندهم شيء أصبح فرحاً مسروراً ، فقيل له إن الناس إذا لم يكن عندهم شيء حزوا ، وإذا كان عندهم شيء فرحوا ، وأنت لست كذلك ! قال : إني إذا أصبحت وليس عند عيالي شيء فرحت أذك أن لي يرسل الله صلى الله عليه وسلم أسوة ، وإذا كان عند عيالي شيء اغتممت أذ لم يكن لي بأل محمد أسوة . وبلغنا أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرغاء حزوا وأشفقوا وقالوا : ما لنا لدينا وما يرادها . فكأنهم على جناح خوف ، وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا : الآن نعاذها ربنا . فله أحوال السلف ونعمتهم وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا فبأه أكذلك أنت ؟ أنك لبعيد الشبه بالقرم .

وسأصف لك أحوالك أيها الفتون ضداً لأحوالهم ، وذلك أنك تظني عند النفي ، وتبطل عند الرغاء ، وتجرع عند السراء ، وتغفل عن شكر ذي النماء ، وتقطط عند الضراء ، وتستهبط عند البلاء ، ولا ترضى بالقضاء . نعم وتبغض الفقر وتأف من المسكته ، وذلك فخر المرسلين وأنت تأف من فقرهم . وأنت تدخر المال وتجمعه خوفاً من الفقر وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بعنايه ، وكفى به إثمًا ، وعصاك تجمع المال لنعيم الدنيا وزهرتها وشهوانها ولذاتها . ولقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « شرار أمتي الذين غفلوا بالنعم قربت عليهم أجسامهم »<sup>(١)</sup> وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : ليحيى يوم القيامة قوم يطولون حسنات لهم فيقال لهم « أنعمتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » وأنت في غفلة قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا فيألفها حسرة ومصيبة ! نعم وعصاك تجمع المال للتكاثر والعلو والفخر والزينة في الدنيا ، وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا للتكاثر أو للفاخر لقي الله وهو عليه غضبان ، وأنت غير مكثرت بما حل بك من غضب ربك حين أدت التكاثر والعلو

(١) حديث « شرار أمتي الذين غفلوا بالنعم ... الحديث » تقدم ذكره في أوائل كتاب ذم البخل عند الحديث الرابع منه « أسف على دنيا فاتته أقرب من النار مسيرة سنة » .

نعم وعساك المكث في الدنيا أحب إليك من الثقة إلى جوار الله فأنت تكبره لقاء الله واثقة لقاتك أكره ، رأيت في غفلة وعساك تأسف على ما فاتك من عرض الدنيا ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أسف على دنياه فاته أقرب من النار مسيرة شهر ، وقيل سنة » . وأنت تأسف على ما فاتك غير مكترث بقربك من عذاب الله . نعم ولعلك تفرج من دينك أحياناً لتوفير دينك وتفرح باقبال الدنيا عليك وترتاح لذلك سروراً بها ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أحب الدنيا وسرها ذهب خوف الآخرة من قلبه <sup>(١)</sup> » وبلغنا أن بعض أهل العلم قال إنك تحاسب على التحزن على ما فاتك من الدنيا ، وتحاسب بفرحك في الدنيا إذا قدرت عليها وأنت فرح بدينك وقد سلبت الخوف من الله تعالى ، وعساك تمنى بأمور دينك آخرتك ، وعساك ترى مصيبتك في معاصيك أهون من مصيبتك في انتقاص دينك . نعم وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذنوب ، وعساك تبذل الناس ما جمعت من الأساخ كلها للعلو والرافعة في الدنيا ، وعساك ترضى المخلوقين مساهلة لله تعالى كما تكرم وتعظم ويحك . فكان احتقار الله تعالى لك في القسيمة أهون عليك من احتقار الناس إياك ، وعساك تمنى من المخلوقين مساويك ولا تنكثرت بإطلاع الله عليك فكان القضيضة عند الله أهون عليك من القضيضة عند الناس ، فكان العبيد أعلى عندك قدراً من الله ، تعالى الله من جهلك ! فكيف تنطق عند ذوى الآلآب وهذه المثالب فيك ؟

أنت لك ! تملأون بالآقدار وتحتج بال الأبرار . هيأت هيأت ما أبعدك عن السلف الأخيار ، والله لقد بلغني أنهم كانوا فيما أحل الله لهم أزدعتكم فيما حرم عليكم ، ( الذي لا بأس به عندكم كان من الموبقات عندهم ، وكانوا لئولة الصغرة أشد استعظاماً منكم لكبرائى الماضى .

قلت أطيع من مالك وأحله مثل شهاب أموالهم . ولينك أشفقت من سيئاتك كما أشفقوا على حسناتهم أن لا تقبل . وليت صوملك على مثال افطارهم . وليت اجتهدك في العبادة على مثل قدورهم ونومهم . وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم . وقد بلغني عن بعض الصحابة أنه قال : غشمة الصديقين ما فاتهم من الدنيا ونهمتهم ما زوى عنهم منها ، فمن لم يكن كذلك فليس معهم في الدنيا ولا معهم في الآخرة ، فسيحان الله ! كم بين الفريقين من التفاوت ؟ فريق خيار الصحابة في العلو عند الله وفريق أمثالهم في السفالة ، أو يعرفوا الله الكريم بفضله .

وبعد : فأنك إن زعمت أنك تأس بالصحابة بجمع المسال لتعطف والبدل في سبيل الله فتدبر أمرك ، ويحك هل تجد من الحلال في دهرك كما وجدوا في دهرهم ؟ أو تحسب أنك عتاط في طلب الحلال كما احتاطوا ، لقد بلغني أن بعض الصحابة قال : كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن تقع في باب من الحرام ، أقطع مع نفسك في مثل هذا الاحتياط . لا ورب الحكمة ما أحسبك كذلك ! ويحك ! كن على يقين أن جمع المال ، لأعمال البر ، كرم من الشيطان ليوقعك بسبب البر في اكتساب الشبهات المعزوجة بالهت والحرام ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أجترأ على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام <sup>(٢)</sup> » أيها المقروء ، أما علمت أن خوفك من انتقام الشبهات أعلى وأفضل وأعظم لقدرك عند الله من اكتساب الشبهات ، وبلغنا في سبيل الله وسبيل البر . بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال : لأن تدع دهرهما واحد مخافة أن لا يكون حلالاً خيراً لك من أن تصدق بألف دينار من شبهة لا تدرى

(١) حديث « من أحب الدنيا وسرها ذهب خوف الآخرة من قلبه » لم أجده إلا بلافا للحارث بن أسد المحاسبي كما ذكره للصف عنه . (٢) حديث « من أجترأ على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام » متفق عليه من حديث النعمان بن بشير نحوه وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام أول الحديث .

أبطل لك أم لا ؟ فإن زعمت أنك أتى وأورع من أن تتلبس بالشبهات وإلما تجمع المال بزعمك من الحلال البذل في سبيل الله ! ويحك ! إن كنت تكاذمت بالثاني الورع فلا تعرض للحساب ، فإن خيار الصحابة عافوا المسألة ، وبلغنا أن بعض الصحابة قال : ما سرني أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأتقها في طاعة الله ولم يشغلني الكسب عن صلاح الجماعة ، قالوا : ولم ذاك رحمة الله ، قال : لأنني غني عن مقام يوم القيامة فيقول عبدي من أين اكتسبت وفي أي شيء أفقت ، فيؤلا المتقون كانوا في جنة الإسلام والحلال موجود لديهم ، تركوا المال و جملان الحساب عتاة أن لا يقوم خير المال بشيء ، وأنت بتأية الأمن والحلال في دهرك مفقود تتكالب على الأوساخ ثم تزعم أنك تجمع المال من الحلال ، ويحك ! أين الحلال تجسده ؟

وبعد : فلو كان الحلال موجوداً لديك أما تخاف أن يتغير عند النفي قلبك ، وقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه عتاة أن يفسد قلبه ! أفتطمح أن يكون قلبك أتقى من قلوب الصحابة فلا يزل عن شيء من الخلق في أمرك وأحوالك ، لئن ظننت ذلك لقد أحسنت الظن بنفسك الأمانة بالسوء ، ويحك ! إلى لك ناصح أرى لك أن تنفخ بالبلغة ولا تجمع المال لأعمال البر ولا تعرض للحساب ، فإنه بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من نوقش الحساب عذب » (١) وقال عليه السلام « يؤتى رجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأتقته في حرام فيقال اذهبوا به إلى النار ، ويؤتى رجل قد جمع مالا من حلال وأتقته في حرام فيقال اذهبوا به إلى النار ، ويؤتى رجل قد جمع مالا من حلال وأتقته في حلال فيقال اذهبوا به إلى النار ، ويؤتى رجل قد جمع مالا من حلال وأتقته في حلال فيقال له : قب لملك قصرت في طلب هذا بشيء مما فرضت عليك من صلاة لم تصلها لوقتها ، وفرطت في شيء من ركوعها وسجودها ووضوئها فيقول : لا يارب كسبت من حلال وأتقته في حلال ولم أضيع شيئاً مما فرضت علي ، فيقال : لملك اختلت في هذا المال في شيء من مركب أو ثوب باهت به فيقول : لا يارب لم أختل ولم أباه في شيء ، فيقال : لملك منعت حتى أحد أمرتك أن تعطي من ذرى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فيقول : لا يارب كسبت من حلال وأتقته في حلال ولم أضيع شيئاً مما فرضت علي ولم أختل ولم أباه ولم أضيع حتى أحد أمرتني أن أعطيه ، قال : فيجىء أولئك فيخاصمونهم فيقولون : يارب أعطيتهم وأغنيته وجعلت بين أظهرنا وأمرته أن يعطينا . فإن كل أعطاهم وماضيه من ذلك شيئاً من الفرائض ولم يحتل في شيء . فيقال : قب الآن هات شكر كل نعمة أنعمتها عليك من أكلة أو شربة أو لذة فلا يزال يسئل » (٢) ويحك فمن ذا الذي يتعرض لهذه المسألة التي كانت لهذا الرجل الذي تقلب في الحلال وقام بالمعقوق كلها وأدى القرائض بمحدودها ، حوسب هذه المحاسبة فكيف ترى يكون حال أشدنا الفرق في قن الدنيا وتعاليلها وشبانها وشهواتها وزينتها وبيحك ، لأجل هذه المسائل يخاف المتقون أن يتلبسوا بالدنيا فرفضوا بالكفاف منها وعملوا بأنواع البر من كسب المال ، فلك ويحك بهؤلاء الأخيار أسوة ، فإن أبيت ذلك وزعمت أنك بالغ من الورع والتقوى ، ولم تجمع المال إلا من حلال - بزعمك - لتصف والبذل في سبيل الله ، ولم تنفق شيئاً من الحلال إلا بحق ، ولم يتغير بسبب المال قلبك عما يجب الله ، ولم تسخط الله في شيء من مراكرك وعلائيك وبيحك فإن كنت كذلك ، ولست كذلك ، فقد ينبغي لك أن ترضى بالبلغة وتعتزل ذوى الأموال وإذا وقعوا لسؤال وتسق مع الرعيل الأول في

(١) حديث « من نوقش الحساب عذب » متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم .

(٢) حديث « يؤتى بالرجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام فيقال اذهبوا به إلى النار . . الحديث » بطوله لم أقف له على أصل .

ذمرة المصطفى ، لا حبس عليك للسألة والحساب ، فاما سلامة وإما عطب . فانه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يدخل صمالك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسةائة عام <sup>(١)</sup> » وقال عليه السلام « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيما كلون ويمتعون والآخرون جئاء على ركبهم فيقول قبلك طلبي أتم حكام الناس وملوكهم فأروني ماذا صنعتم فيما أعطيتكم <sup>(٢)</sup> »

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : ما سرني أن لي حر النعم ولا أكون في الرعي الأول مع محمد عليه السلام وحزبه . يا قوم فاستبقوا السباق مع الخفيف في ذمرة المرسلين عليهم السلام ، وكونوا وجلين من التخلف والانقطاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجل المتقين . لقد بلغني أن بعض الصحابة وهو أبو بكر رضى الله عنه عطف فاستسقى فأنى بشربة من ماء وعسل قلما ذاقه خنفته المبررة ثم بكى وأبكى ، ثم مسح الدموع عن وجهه وذهب لبئكم فمادى البكاء ، قلما أكثر البكاء قيل له : أكل هذا من أجل هذه الشربة ؟ قال : نعم ، بينا أنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه أحد في البيت غيرى ، فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول « إلك عني ! » فقلت له : فذاك أبى وأبى ما أرى بين يدك أحدا فن تخطب ؟ فقال « هذه الدنيا تقاتلوك إلى جنتها ورأسها فقالت لى : يا محمد خذنى ، فقلت : إلك عني ، فقالت : إن تنج منى يا محمد فإنه لا ينجو منى من بعدك ، فأخاف أن تكون هذه قد خلقتني تقطعني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> يا قوم فهؤلاء الأخيار بكوا ورجل أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شربة من حلال ! ويحك أنت في أنواع من النعم والشهوات من مكاسب السحت والشبهات لا تحصى الانقطاع ؟ أف لك ما أعظم وجهك ! ويحك فان تخلفت في القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حمد المصطفى لتظن إلى أحوال جوعت منها الملائكة والأنبياء ، ولئن قصرت عن السابق فليطول عليك الحاق ، ولئن أردت الكثرة لتصيرن إلى حساب صبر . ولئن لم تقنع بالقليل لتصيرن إلى الوقوف طويل وصراخ وعويل ، ولئن رضيت بأحوال المتخلفين لتفطن عن أصحاب اليمين وعن رسول رب العالمين ولتظن عن نعم المتعدين ، ولئن خالفت أحوال المتقين لتكونن من المحتسبين في أحوال يوم الدين . فتدبر ويحك ما سمعت وبعد . فان زعمت أنك في مثال خيار السلف ؛ فأنع بالقليل ، زاهد في الحلال ، بدول مالك ، مؤثر على نفسك ، لا تفضي الفقر ولا تدخر شيئا لذلك ، ميفض الكافر والنقي ، راض بالفقر والبلاء ، فرح بالقليل والمسكنة ، مسرور بالذل والضعفة ، كاره للعلو والرفعة قوى في أمرك ، لا يتغير عن الرشد قبلك ، قد سجدت نفسك في الله ، وأحكمت أمورك كلها على ما وافق رضوان الله ، ولن توقف في المسألة ، ولن يحاسب مثلك من المتقين . وإنما المال الحلال البذل في سبيل الله ، ويحك أبها المنور فتدبر الأمر وأمن النظر ! أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال وفراغ القلب للذكر والتذكر والتذكر والفكر والاعتبار . أسلم للدين وأيسر الحساب وأخف للمسألة وأمن من زبوانات القيامة وأجزل لتواب وأعلى لتدرك عند الله ضامفا . بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال : لو أن رجلا في حجره دنانير يعطيها والآخر يذكر الله لكان

(١) حديث « يدخل صمالك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسةائة عام » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد بلفظ « قراء » مكان « صمالك » ولها ولنسائي في الكبرى من حديث أبي هريرة « يدخل الفقراء الجنة ... الحديث » وسلم من حديث عبد الله بن عمر « إن قراء المهاجرين يسبقون الأغنياء إلى الجنة بأربعين خرما » .

(٢) حديث « يدخل قراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيمتعون ويأكلون ... الحديث » . لم أره أصلا .

(٣) حديث : إن بعض الصحابة عطف فاستسقى فأنى بشربة ماء وعسل ... الحديث . في دفع النبي ﷺ الدنيا عن نفسه وقوله « إلك عني ... الحديث » أخرجه البزار والحاكم من حديث زيد بن أرقم قال : كنا عند أبى بكر فدعا بشراب فأنى بماء وعسل ... الحديث . قال الحاكم صحيح الإسناد ، قلت بل ضعيف وقد خمد قبل هذا في هذا الكتاب

الذاكر أفضل . وسئل بعض أهل العلم عن الرجل يجمع المال لأعمال البر قال : تركه أبر به . وبلغنا أن بعض خيار التابعين سئل عن رجلين ؛ أحدهما : طلب الدنيا حلالاً فأصابها ؛ فوصل بها رحمه وقدم نفسه . وأما الآخر : فإنه جانيها فلم يظلمها ولم يتناولها ؛ فأيهما أفضل ؟ قال : بعيد وأقرب ما بينهما ؛ الذي جانيها أفضل كما بين مشارق الأرض ومفاريها . ويحك فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها ، ولك في العاجل إن تركت الاشتغال بالمال ، إن ذلك أروح لبدنك وأقل تمكيداً وأنعم لميشك وأرضى لبالك وأقل لعمومك ؛ فما عتوك في جمع المال وأنت بترك المال أفضل من طلب المال لأعمال البر ؟ نعم وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال في سبيل الله فأجمع لك راحة العاجل مع السلامة والفضل في الآجل .

وبعد : فلو كان في جمع المال فضل عظيم لوجب عليك في مكارم الأخلاق أن تأمى بنيتك إذ هداك الله به ، وترضى ما اختاره لنفسه من مجانبة الدنيا . ويحك ؛ تدبر ما سمعت وكن على يقين أن السعادة والفوز في مجانبة الدنيا ، فسر مع لواء المصطفى سابقاً إلى جنة المأوى . فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال « سادات المؤمنين في الجنة من إذا تغذى لم يجد عشاء ، وإذا استقرض لم يجد فرضا ، وليس له فضل كسوة إلا ما يواريه ، ولم يقدر على أن يكتسب ما يقنيه ، يمسى مع ذلك ويصبح راحياً عن ربه » فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً (١) ، ألا يا أخى متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان فإنك مطبل فيما ادعيت أنك للبر والفضل تجمعه ، لا ؛ ولكنك خوفاً من الفقر تجمعه ، ولتتم الزينة والكثرة والفقر والغلو والرياء والسمة والعظم والتسكreme تجمعه ، ثم تزعم أنك لأعمال البر تجمع المال ، ويحك ؛ اراقب الله واستحي من دعواك أيها المغرور ويحك ؛ إن كنت مفتوناً بحب المال والدنيا فتكن مقرأ أن الفضل والخير في الرضا بالبلغة ومجانبة الفضول ، نعم وكن عند جمع المال مزمياً على نفسك معترفاً بإساءتك وجللاً من الحساب ، فذلك انتهى لك وأقرب إلى الفضل من طلب الحبيب بجمع المال . إخواني اعلموا أن دهر الصعابة كان الحال فيه موجوداً وكانوا مع ذلك من أروع الناس وأزهدهم في اللباس لهم ، ونحن في دهر الحلال فيه مفقوداً ، وكيف لنا من الحلال مبلغ القوت وسر العورة . فأما جمع المال في دهرنا فأماذا لله وإياكم مث .

وبعد : فأين لنا مثل تقوى الصعابة وروعهم ومثل زهدهم واحتياطهم ؟ وأين لنا مثل خنائهم وحسن نياتهم ؟ دهينا ورب السماء بأدواء النفوس وأهوائها ، وعن قريب يكون الورود ؛ فيياسعة الخفين يوم الثنود وحزن طويل لأهل الكثرة والتخاليط ، وقد نصحت لكم إن قبلتم والتقايلون لهذا قليل . وفقنا الله وإياكم لكل خير رحمة آمين . هذا آخر كلامه وفيه كفاية في إظهار فضل الفقر على التقى ولا مزيد عليه . ويشهد ذلك جميع الأخبار التي أوردناها في كتاب ثم الدنيا ، وفي كتاب الفقر والزهدة .

ويشهد له أيضاً ماروى عن أبي أمامة الباهلي : أن ثعلبة بن حاطب قال : يا رسول الله ادع الله يرزقني مالا ، قال : يا ثعلبة قليل تودى شكره خير من كثير لا تقطيعه . قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا ، قال : يا ثعلبة أما لك في أسوة أما ترضى أن تكون مثل نبي الله تعالى ؟ أما والذي نفسى بيدي لو شئت أن تسير معى الجبال ذهباً وفضة لاسرت . قال : والذي بعثك بالحق نبياً لئن دعوت الله أن يرزقني مالا لأطعن كل ذى حق حقه ، ولأطعن ولأطعن . قال رسول الله ﷺ « اللهم ارزق ثعلبة مالا » فاتخذ غنيا تمت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة

(١) حديث « سادات المؤمنين في الجنة من إذا تغذى لم يجد عشاء ... الحديث » عزاه صاحب مسند القردوس للطبراني من رواية أبي حازم عن أبي هريرة مختصراً بلفظ « سادة القراء في الجنة ... الحديث » ولم أره في معاجم الطبراني

فتحتى عنها قنول واديا من أوديتها ، حتى جعل يصلى الظهر والعصر في الجماعة ويدع ماسواهما ، ثم تمت وكثرت فتحتى حتى ترك الجماعة إلا الجمعة ، وهى تملو كما ينمو البود حتى ترك الجمعة ، وطلق يلقى الركبان يوم الجمعة فيألمهم عن الأخبار في المدينة ، وسأل رسول الله ﷺ عنه فقال « ما هل ثعلبة بن ساطب ؟ » فقيل : يا رسول الله اتخذ غنا فضاقت عليه المدينة ؛ وأخبر بأمره كله : فقال « يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة » قال وأرسل الله تعالى ( نخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ) وأرسل الله تعالى فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله ﷺ رجلا من جينة ورجلا من بني سلم على الصدقة ، وكتب لهما كتابا بأخذ الصدقة وأمرهما أن يخرجوا فيأخذوا من المسلمين : وقال دراهم ثعلبة بن ساطب وبن فلان - رجل من بني سلم - وخذوا صدقاتهما فخرجتا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية ، انطلقا حتى قرعنا ثم تعود إلى فاطمينا نحو السلمي فسمعهما ققام إلى خيار أسنان إله فمرلها للصدقة ، ثم استلبهما بها ؛ فلما رأوها قالوا : لا يجب عليك ذلك وما نريد تأخذ هذا منك ، قال : بلى خذوها ، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا ثعلبة فسألاه الصدقة فقال : أروني كتابك ، فنظر فيه فقال : هذه أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيي فاطمينا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رأهما قال « يا ويح ثعلبة » قبل أن يكلماه ودعا السلمي فأخبراه بالذى صنع ثعلبة وبالذى صنع السلمي .

فأنزل الله تعالى في ثعلبة ( ومنهم من عاهد الله أن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلو به وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ) وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ما أنزل الله فيه . فخرج حتى أتى ثعلبة فقال : لا أم لك يا ثعلبة لقد أنزل الله فيك كذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه صدقته فقال « إن الله يمنى أن أقبل منك صدقتك » فجعل يحثر التراب على رأسه فقال رسول الله ﷺ « هذا عملك أمرتك فلم تطعني » فلما إن أن يقبل منه شيئا رجع إلى منزله .

من هذا الحديث .

فلما قبض رسول الله ﷺ جاء بها إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه ، وجاء إلى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه وتوفى ثعلبة بعد في خلافة عثمان (١) فهذا طغيان المال وشؤمه وقد عرفته ولأجل بركة الفقر وشؤم الغنى أثر رسول الله ﷺ الفقر لنفسه ولأهل بيته ، حتى روى عمران بن حصين رضي الله عنه أنه قال : كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاء فقال « يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاءها فهل لك في عبادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ؟ » فقلت : نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فقام وقت معه حتى وقت بيباب منزل فاطمة فقرع الباب وقال « السلام عليكم أدخل ؟ » فقالت : ادخل يا رسول الله قال أنا ومن معي ؟ قالت ومن معك يا رسول الله ؟ فقال عمران حصين ؟ فقالت : والذي بئسك بالحق نبيما ما على إلا عبادة ؛ فقال : أصنعى بها هكذا وهكذا وأشار بيده ، فقالت : هذا جسدى فقد واريته ، فكيف برأسى ؟ قالت يا لها ملاءة كانت عليه خلقة فقال « شدى بها على رأسك » ثم أذنت له فدخل فقال « السلام عليك يا بنتاه كيف أصبحت ؟ » قالت : أصبحت والله وجمعة وزادني وجعا على ما أبى أنى لست أقدر على طعام آكله ، فقد أجهدتى الجوع ، فبكى رسول الله ﷺ وقال « لا تمنعنى يا بنتاه فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث ، وإنى لأكرم على الله منك ولو سألت ربى لأطعننى ، ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا

(١) حديث أبي أمامة : أن ثعلبة بن حاطب قال يا رسول الله أدع الله أن يرزقنى مالا قال « يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه ... الحديث بطوله » أخرجه الطبراني بسند ضعيف .



ثم ضرب يده على منكبا وقال لها « أبشري فواءه إنك لسيدة نساء أهل الجنة » فقالت : فأين آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران ؟ فقال « آسية سيدة نساء عالمها ، ومريم سيدة نساء عالمها ، وخديجة سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، إنكن في بيوت من نصب لأذى فيها ولا صنب » ثم قال لها « أقمي بأبن عمك فواءه لقد زوجتك سيدا في الدنيا وسيدا في الآخرة <sup>(١)</sup> » فافطر الآن إلى حال فاطمة رضي الله عنها وهي بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كيف آثرت الفقر وترك المال ؟ ومن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم وما ورد من أخبارهم وآثارهم ، لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف إلى الخيرات ، إذ أقل ما فيه من أداء الحقوق والتوفى من الشبهات والصرف إلى الخيرات اشتغال الملم باصلاحه وانصرافه عن ذكر الله ، إذ لا ذكر إلا مع الفراغ ، ولا فراغ مع شغل المال .

وقد روى عن جرير عن ليث قال : سمعت رجلا عيسى ابن مريم عليه السلام يقول : أكون ملك وأحسبك ، فاطلقا فأتيا إلى شط نهر فجلسا يتحدیان ومعهما ثلاثة أرغفة ، فأكلا رغيقتين وبقى رغيقتان ، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ثم رجع فلم يجد الرغيقتين ، فقال للرجل : من أخذ الرغيقتين ؟ فقال : لا أدري ، قال : فاطلق ومعه صاحبه فرأى طيبة ومعهما خشفان لها ، قال : فعدنا أحدهما فأفناه ، فذهبنا فاشترى منه فأكل هو وذاك الرجل ، ثم قال للخفيف : قم باذن الله فقام فذهب ، فقال للرجل : أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيقتين ؟ فقال : لا أدري ، ثم أتيا إلى وادي ماء ، فأخذ عيسى بيد الرجل فشيا على الماء ، فلما جاوزا قال له : أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيقتين ؟ فقال : لا أدري ، فأتيا إلى مغارة فجلسا ، فأخذ عيسى عليه السلام يجمع ترابا وكثيا ثم قال : كن ذهباً يا ابن الله تعالى ، فصار ذهباً ، فقسمة ثلاثة أثلاث ثم قال ، تلك لي وتلك لك وتلك لمن أخذ الرغيقتين ، فقال : أنا الذي أخذت الرغيقتين ، كله لك ، وفارقه عيسى عليه السلام ، فأتيا إلى الجرجل في المغارة ومعه المال فأراد أن يأخذه منه ويقتله ، فقال : هو بيننا أثلاثاً ، فابصروا أحكم إلى القرية حتى يشعري لنا طعاماً نأكله ، قال : فبصروا أحدهم فقال الذي بعث لأى شيء أقامهم هؤلاء هذا المال ، لكنني أسع في هذا الطعام سما فاطلها وأخذ المال وحدي ، قال : ففعل ، وقال ذاك الرجلان : لأى شيء نجعل لهذا المال ، ولكن إذا رجع قتلاه واقسمنا المال بيننا ، قال : فلما رجع إليهما قتلاهوا كلا الطعام فأتا ، فبقي ذلك المال في المغارة وأولئك الثلاثة عنده قتل ، فمر بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة فقال لأصحابه : هذه فاحذروها .

وحي أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس بأيديهم شيء ما يستمتع به الناس من دنياهم قد احتضروا وقبوراً ، فإذا أصبحوا نهضوا تلك القبور وكنسوها ووصلوا عندها ورووا البقل كما ترضى إليهم ، وقد قبض لهم في ذلك ما يشي من نبات الأرض ، وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقال له : أجب ذا القرنين ، فقال : مالي إليه حاجة ، فإن كان له حاجة فليأتني ، فقال ذو القرنين : صدق فأقبل إليه ذو القرنين وقال له : أرسلت إليك لتأتي فأيت ، فما أنا قد جئت ، فقال لو كان لي إليك حاجة لأتيك ، فقال له ذو القرنين : مالي أراكم على حالة لم أراكم من الأمم عليها ، قال : وماذا ، قال : ليس لكم دنيا ولا شيء أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بها ؟ قال : إنما كرمناهما

(١) حديث عمران بن حصين : كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاء فقال « فهل لك في عبادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ... الحديث بطوله » وفيه « لقد زوجتك سيدا في الدنيا وسيدا في الآخرة » لم أجده من حديث عمران ، ولا أحمد والطبراني من حديث معقل بن يسار : وضأت التي ﷺ ذات يوم قال « هل لك في فاطمة تودها ... الحديث » وفيه « أما ترضين أن زوجتك أقدم أمي سلماً وأكرم علماً وأعظمهم حلاً » وإسناده صحيح .

لأن أحدا لم يعط منهما شيئا إلا تأقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه . فقال : ما بالك قد احترمت قبورا فإذا أصبحتم تعاهدتموها فكنتستموها واصلتم عندنا ، قالوا : أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا منعنا قبورنا من الأمل . قال وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض ، أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها ، قالوا : كرمنا أن نجعل بطوننا قبورالمسا ورأينا في نبات الأرض بلاغا وإنما يكفى ابن آدم أدق العيش من الطعام ، وأيا ما جاوز الخنك من الطعام لم نجد له طعاما كائن ما كان من الطعام ، ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذي القرنين فتناول جمجمة ، فقال يا ذا القرنين أتدري من هذا : لا ، ومن هو : قال : ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطانا على أهل الأرض فتشتم وعظم وعتا ، فلما رأى الله سبحانه ذلك منه جسمه بالموت فصار كالبحر الملقى ، وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته . ثم تناول جمجمة أخرى بالية فقال : يا ذا القرنين هل تدري من هذا ، قال : لا أدري ومن هو ، قال : هذا ملك ملكه الله بعده ، قد كان يرى ما يصنع الذي قبله بالناس من النشم والظلم والتجبر ، فتوضع وخضع لله عز وجل وأمر بالعدل في أهل مملكته ، فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله ، حتى يجزيه به في آخرته . ثم أهوى إلى جمجمة ذي القرنين فقال : وهذه الجمجمة قد كانت كذنين فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع ، فقال له ذو القرنين : هل لك في صحبتي فأخذنيك أعا ووزيرا وشريكا فأتاني الله من هذا المال ؟ قال : ما أصلح أنا وأنت في مكان ولا أن تكون جيمعا ، قال ذو القرنين : ولم ؟ قال : من أجل أن الناس كلهم لك عدو ولي صديق ، قال : ولم ؟ قال : يمدونك لما في يدك من الملك والمال والدنيا ؛ ولا أجد أحدا يهاديني لرغبي لنلك ولما عندني من الحاجة وفلة الشيء ، قال : فانصرف عنه ذو القرنين متعجبا منه ومتعظا به . فهذه الحكايات تدلك على آفات الغنى مع ما قدمناه من قبل وبالله التوفيق

ثم كتاب ذم المال والبخل بحمد الله تعالى وعونه ، ويليهِ كتاب ذم الجاه والرياء

## كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربيع الملهكات من كتاب إحياء علوم الدين  
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علام التيوب ، المطلع على سرائر القلوب ، المتجاوز عن كثير الذنوب ، العالم بما تحت العناير من خفايا النيوب ، البصير بسرائر النيات وخفايا الطويات ، الذي لا يقبل من الأعمال الا ما كل ووفى ، وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا ، فإنه المفرد بالمكوت ، فهو اخفى الاغنياء عن الشرك ، والصلاة والسلام على محمد وآله واصحابه المبرزين من الحياة والإفك ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية التي هي أخفى من ديب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء » (١) ولذلك حجر عن الوقوف على غوائلها سائرا

ص كتاب ذم الجاه والرياء

(١) حديث « إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية » أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث شداد بن أوس وقال « الشرك » بدل « الرياء » قال الحاكم صحيح الإسناد ، قلت بل ضيف وهو عند ابن المبارك في الزهد ومن طريقه عند البيهقي في الشعب بلفظ المصنف .

العلماء فضلا عن عامة العباد والأتقياء ، وهو من أواخر غوائل النفس وبراطن مكائدها . وإنما يجتلي به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجند لسوء سبيل الآخرة ، فانهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوا ونظموها عن الشهوات وصانوها عن الشهوات وحملوها بالقرع على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواضحة على الجوارح ؛ فطلبت الاستراحة إلى التظاهر وإظهار العمل والملم ؛ فوجدت مغلصا من مشقة المجاهدة إلى لغة القبول عند الخلق ونظمهم إليه بمن الوفاق والتعظيم ، فأسرعت إلى إظهار الطاعة وتوحيشت إلى اطلاع الخلق ولم تقنع بإطلاع الخلق ، وفرحت بمحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده ، وعلت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشهوات وتعمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء . وبالغوا في التثني والإطراء ، ونظروا إليه بمن التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه ورضوا في بركة دعائه ، وحرصوا على اتباع رأيه وقاعوه بالخدمة والسلام ، وأكرموا في المحافل غاية الإكرام ، وسامعوه في البيع والمعاملات ، وقمعوه في المجالس وأثروه بالمطاعم والملابس ، وتصاغفروا لمتواضعين واتقادوا له في أغراضه موقرين ، فأصابته النفس في ذلك لغة هي أعظم اللغات وشهوة هي أغلب الشهوات ، فاستقرت فيه ترك المعاصي والمفونات واستلانت خشوة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لغة اللغات وشهوة الشهوات فهو يظن أن حياته بالله وعبادته المرضية ، وأما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول النافذة القوية ويرى أنه مخلص في طاعة الله ويجنب لمحارم الله ، والنفس قد أبطلت هذه الشهوة تريتا للعباد ونصنعا للخلق وفرحا بما نالت من المنزلة والوقار ، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجود الأعمال ، وقد أثبت اسمه في جريدة المناقبين وهو يظن أنه عند الله من المقربين .

وهذه ميكنة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون ، ومهواة لا يرق منها إلا المقربون ، ولذلك قيل : آخر ما يخرج من رموس الصديقين حب الرياسة .

وإذا كان الرياء هو الداء الدفين الذي هو أعظم شبكة الشياطين ، وجب شرح القول في سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه ، ويتضح الغرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين ، الشطر الأول : في حب الجاه والشهرة ، وفيه بيان ثم الشهرة وبيان الخول ، وبيان ثم الجاه ، وبيان معنى الجاه وحقيقته ، وبيان السبب في كونه محبوبا أشد من حب المال ، وبيان أن الجاه كمال وهمي وليس بكال حقيقي ، وبيان ما يبعد من حب الجاه وما يندم وبيان السبب في حب المدح والثناء ، وكرهية الهم ، وبيان العلاج في حب الجاه ، وبيان علاج حب المدح ؛ وبيان علاج كراهة الهم ؛ وبيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم . فهي اثنا عشر فصلا منها تنبأ معنى الرياء . فلا بد من تقديمها وإزالة الخوف للصابر بلطفه وكرمه .

### بيان ثم الشهرة وانتشار الصيت

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم ، بل الم محمود الخول إلا من شهرة الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه . قال أنس رضي عنه : قال رسول الله ﷺ « حسب امرئ من الشر أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه إلا من عصمه الله »<sup>(١)</sup> وقال جابر بن عبد الله : قال رسول الله ﷺ « بحسب المرء من الشر إلا من عصمه الله من سوء أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه . إن الله

(١) حديث أنس « حسب امرئ من الشر إلا من عصمه أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه » أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف .

لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم» ولقد ذكر الحسن رحمه الله الحديث تأويلاً ، ولا بأس به ، اذ روى هذا الحديث قليل له : يا أبا سعيد ان الناس اذا أراوك أشاروا اليك بالأصابع ، فقال : انه لم يمن هذا وإنما عني به المتبتدع في دينه والفاسق في دنياه . وقال علي كرم الله وجهه : تبذل ولا تقهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتف ، وصحتم تسلم ، تسر الأبرار وتقيظ الفجار . وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله : ماصدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب السخيتاني : والله ماصدق الله عبد الاسره أن لا يشعر بمكانه . وعن خالد بن معدان : أنه كان اذا كثرت حلقته قام عفاة الشهرة وعن أبي العالبي : أنه كان اذا جلس اليه أكثر من ثلاثة قام . ورأى طلحة قوما يمشون معه نحواً من عشرة ، فقال : ذباب طمع وفراش نار . وقال سالم بن حفظة : بينا نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه اذ رآه صر قهلاً بالدرة . فقال : افطر يا أمير المؤمنين ما تصنع ؟ فقال : ان هذه ذلة للتابع وقتة للتبويج . وعن الحسن قال : خرج ابن مسعود يوماً من منزله فاقبضه ناس فالتفت اليهم فقال : علام تقيمون فوافه لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتيني منكم رجلاً . وقال الحسن : ان خفي الثمال حول الرجل قلما تلبث عليه قلوب الخفي . وخرج الحسن ذات يوم فاقبضه قوم فقال : هل لكم من حاجة ؟ والا فاقصى أن يبقى هذا من قلب المؤمن . وروى أن رجلاً صاحب ابن محيريز في سفر فلما فارقه قال : أوصني ، فقال : ان استلمعت أن تعرف ولا تعرف وتمشي ولا يمشي اليك وتسال ولا تسأل فاقبل .

وخرج أيوب في سفر فقبضه ناس كثيرون فقال : لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره لحبست المقت من الله عز وجل . وقال معمر : ماتت أيوب على طول قيمه فقال : إن الشهرة فيما مضى كانت في طوله وهي اليوم في قصيره . وقال بعضهم : كنت مع أبي ثلالة اذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال : أياكم وهذا الحمار الناقح يشير به الى طلب الشهرة . وقال الثوري : كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الرديئة اذ الألبار تمتد اليهما جميعاً . وقال رجل لبشر بن الحرث : أوصني فقال : أحمل ذكرك وطيب مطعمك . وكان حوشب يبكي ويقول : بلغ اسمي مسجد الجامع . وقال بشر : ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف الا ذهب دينه واقتضج . وقال ايضاً لا يمد سلاوة الأخيرة رجل يحب أن يعرفه الناس . رحمة الله عليهم أجمعين .

### بيان فضيلة الحول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » منهم البراء بن مالك « وقال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رب ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم اني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا

- (١) حديث جابر « بحسب امرئ من الشر ... الحديث » مثله وزاد في آخره « إن الله لا ينظر إلى صوركم ... الحديث » هو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبي هريرة رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب بسند ضيف مقتصرين على أوله ورواه مسلم مقتصرًا على الزيادة التي في آخره ، وروى الطبراني في الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ « كفي بالمرء إثمًا » ورواه ابن يونس في تاريخ الغرابة من حديث ابن عمر بلفظ « هلاك بالرجل » وفسر دينه بالبدعة ودينه بالقسق وإسنادهما ضيف . (٢) حديث « رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة « رب أشعث مدفوع بالأبواب لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » ولحاكم « رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبؤ عنه أمين الناس لو أقسم على الله لأبره » وقال صحيح الإسناد ولأبي نعيم في الحلية من حديث أنس بسند ضيف « رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك » وهو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة وقال صحيح الإسناد قلت بل ضيف . (٣) حديث ابن مسعود « رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم اني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً » أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضيف .



وماعليك أن لا تعرف وماعليك أن لا يثق عليك وماعليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند الله تعالى ، فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخول . وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت والجاه والنزلة في القلوب ، وحب الجاه هو منشأ كل فساد .

فإن قلت : فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء ؟ فكيف فاتهم فضيلة الخول ؟ فأعلم أن المذموم طلب الشهرة ، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم . نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء ، وهم كالنريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الفرق فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم فإنهم يمتلئون به فيضعف عنهم فبذلك معهم ، وأما القوى فالأولى أن يعرفه الفرق ليتعلقوا به فينجيهم ويثاب على ذلك .

### بيان ذم حب الجاه

قال الله تعالى ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ جمع بين إرادة الفساد والعلو . وبين أن الدار الآخرة للخال عن الإرادتين جميعاً . وقال عز وجل ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحيط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ وهذا أيضاً متنازل بعمومه لحب الجاه فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر ذبنة من زينتها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حب المال والجاه يبتسان التفاف في القلب كما يبتس الماء البقل <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « ما ذنبان ضاريان أرسلاني زريبة غنم بأمرع إفساداً من حب الشرف والمال في دين الرجل المسلم <sup>(٢)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم لعل كرم الله وجهه « إنما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء <sup>(٣)</sup> » فقال الله العفو والعافية بينه وكرمه .

### بيان معنى الجاه وحقيقته

أعلم أن الجاه والمال هما ركنتا الدنيا . ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تنظيمها وطاعتها ، وكما أن التقي هو الذي يملك الدوام والدانير ، أى يقدر عليهما ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وفضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس ، فكذلك ذو الجاه هو الذي يملك قلوب الناس ، أى يقدر على أن يتصرف فيها فيستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه وآربه . وكأنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات ، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات ، فكل من اعتقد القلب فيه وصفاً من أوصاف السكال اتقاده وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب وبحسب درجة ذلك السكال عنده ، وليس يشترط أن يكون الوصف كالاً في نفسه بل يكفي أن يكون كالاً عنده وفي اعتقاده ، وقد يعتقد ما ليس كالاً كالاً ، ويدعن قلبه للموصوف به اقتصاداً ضرورياً بحسب اعتقاده ، فان اتقيد القلب حال القلب . وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات قلوب وطموحها وتغليلاتها ، وكما أن حب المال يطلب ملك الأرفاء والعبيد

(١) حديث « لئال والجاه يبتسان التفاف ... الحديث » تقدم في أول هذا الباب ولم أجده .

(٢) حديث « ما ذنبان ضاريان أرسلاني زريبة غنم ... الحديث » تقدم أيضاً هناك . (٣) حديث « إنما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء » لم أره بهذا اللفظ وقد تقدم في العلم من حديث أنس « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع ... الحديث » ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس بسند ضعيف « حب الثناء من الناس يجمي ويصم » .

فطالب الجاه يطلب أن يسرق الأحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم بملك قلوبهم ، بل الرق الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم ، لأن المالك يملك العبد قهرا والعبد متأب بطبعه ، ولو خلى ورأه أنسل عن الطاعة . وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا ويبنى أن تكون له الأحرار عبيدا بالطبع والطوع ، مع القبح بالعبودية والطاعة له ، فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير . فإذا معنى الجاه : قيام الميزة في قلوب الناس ، أى اعتماد القلوب لثمتين نموت الكمال فيه ، فيقدر ما يستقدون من كاله تدعن له قلوبهم ، ويقدر إذن القلوب تكون قدرة على القلوب ويقدر قدره على القلوب يكون فرحه وسبه للجاه فهذا هو معنى الجاه وحقيقته وله ثمرات كاللحم والإطراء ، فإن المعتد للكمال لا يستكت عن ذكر ما يستقده فيبقى عليه ، وكالحدة والإعانة فانه لا يخيل يبدل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة لمثل العبد في أغراضه ، ولا يثار وترك المنازعة والتنظيم والتوقيف بالمقاومة بالسلام وتسليم الصدر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد ، فهذه آثار نصدر عن قيام الجاه في القلب . ومعنى قيام الجاه في القلب اشتغال القلوب على اعتماد صفات الكمال في الشخص إما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال في صورة أو قوفاً بدين أو شيء مما يستقده الناس كالا ، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم على القلوب فتكون سبباً لقيام الجاه والله تعالى أعلم .

### بيان سبب كون الجاه محبوا بالطبع حتى لا يخلو عنه القلب إلا بشديد المجاهدة

اعلم أن السبب الذي يقتضى كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوا هو بسببه يقتضى كون الجاه محبوا ، بل يقتضى أن يكون أحب من المال ، كما يقتضى أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساوا في المقدار ، وهو أنك تعلم أن الدرهم والدنانير لا تعرض في أعيانها إذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولا منكب ولا مجلس ، وإنما هموا الحسياء بمثابة واحدة ، ولكنهما محبوا بان لانهما وسيلة إلى جميع المحاب وذريعة إلى قضاء الشهوات ، فكذلك الجاه لأن معنى الجاه ملك القلوب ، وكما أن ملك الذهب والفضة يزيد قدرة يوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه . فكذلك ملك القلوب الأحرار والقدرة على استسخارها يزيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض . فالاشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة . وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال . وملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه .

الأول : أن التوصل بالجاه إلى المال أسير من التوصل بالمال إلى الجاه ، فالعالم أو الزاهد الذي تقرر له جهه في القلوب لرصد اكتساب المال يسره ، فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبذولة لمن اعتنق فيه الكمال ، وأما الرجل الخسيس الذي لا يتصف بصفة كمال إذا وجد كنزاً ولم يكن له جهه يحفظ ماله وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له ، فإذا الجاه آلة ووسيلة إلى المال ، فمن ملك الجاه فقد ملك المال ، ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال ، ولذلك صار الجاه أحب .

الثاني : هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق وينصب ويطلع فيه المالك والظلمة ، ويحتاج فيه إلى الحفظ والحراس والخزائن ، ويطلق إليه أخطار كثيرة ، وأما القلوب إذا ملكتك فلا تترحم لهذه الآفات فهي على التحقيق خزائن عتيقة ، لا يخطر عليها السراق ولا تتناولها أيدي النهاب والغصب ، وأنتب الأموال العترة ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ . وأما خزائن القلوب فهي مخوفة محروسة بأنفسها ، والجاه في أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها . نعم إنما تنصب القلوب بالتصريف وتبحيح الحال وتغيير الاعتماد فيصدق به من أوصاف الكمال ، وذلك هو دمه ولا يتيسر على محاولة فله .

الثالث : أن ملك القلوب يسرى ويشى ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة ، فإن القلوب إذا أذعنتم لشخص واعتقدت كاله بلم أو عمل أو غيره أنصتت الألسنة لأعماله بما فيها ، فيضف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضاً له ، ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر . لأن ذلك إذا استطار في الأنظار اقتنص القلوب ودعاها إلى الإذعان والتعظيم ، فلا يزال يسرى من واحد إلى واحد ويتزايد وليس له مردعين ، وأما المال فمن ملك منه شيئاً فهو ماله كولا يقدر على استئثائه إلا بتعب ومقاساة ، والجاه أبدأ في النماء بنفسه ولا مرد لوقعه والمال واقف ، ولهذا إذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الألسنة بالثناء استحقرت الأموال في مقابلته ، فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال . وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح .

فإن قلت : فالإشكال قائم في المال والجاه جميعاً فلا ينبغي أن يحب الإنسان المال والجاه . نعم القدر الذي يوصل به إلى حجاب الملاذ ودفع المضار معلوم ، كالاحتياج إلى اللبس والسكن والطعم أو كاليلبى بمرض أو بمقوبة إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جله ، فحبه المال والجاه معلوم ، إذ كل ما لا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب ، وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الأموال وكثرة الكنوز وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات ، حتى لو كان العبد واديان من ذهب لا يبنى لها ثالثاً ، وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقصى البلاد التي يعلم قطعاً أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها . ليعظموه أو ليعروه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه ، ومع اليأس من ذلك فإنه يلتمس به غاية الإلتذاذ وحب ذلك ثابت في الطبع ، ويكاد يظن أن ذلك جمل فانه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة ؟ فنقول : نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب . وله سببان : أحدهما : جلي تركه الكافة . والآخر : خفي وهو أعظم السببين ولكنه أدفهما وأخفاهما وأبعدهما عن أفهام الأذكياء فضلاً عن الأغبياء ، وذلك لاستمداده من عرى خفي في النفس وطبيعة مستكنة في الطبع لا يكاد يقف عليها إلا الفواصون .

فأما السبب الأول : فهو دفع ألم الخوف ، لأن الشفيق يسوء الظن مولع ، والإنسان وإن كان مكفياً في الحال فانه طويل الأمل ويحضر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما تلف فيحتاج إلى غيره ، فإذا خطر ذلك بباله حاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفرع إليه إن أصابت هذا المال جائحة ، فهو أبداً لشغفته على نفسه وجه الحياة بقدر طول الحياة ، ويقدر هجوم الحاجات ، ويقدر إمكان طرق الآفات إلى الأموال ، ويستعسر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه وهو كثرة المال . حتى إن أصيب ببطاقة من ماله استغنى بالآخر ، وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال ، فلذلك لم يكن مثله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « منومان لا يشبعان من نوم العلم ومنوم للمال <sup>(١)</sup> » ومثل هذه العلة تطرد في حبه قيام المنزل والجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده ، فانه لا يحلو عن تقدير سبب يزججه عن الوطن أو يزجج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه ، ويحتاج إلى الاستعانة بهم ، ومهما كان ذلك ممكنًا ولم يكن احتياجه اليهم مستحيلاً أحالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه في قلوبهم لما فيه من الأمن من هذا الخوف .

(١) حديث « منومان لا يشبعان ... الحديث أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف والبراز والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس بسند لين وقد تقدم .



وأما السبب الثاني وهو الأقوى : لأن الروح أمر رباني به ، وصفه الله تعالى إذ قال سبحانه ﴿ وسألوكم عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ أو معنى كونه ربانياً أنه من أسرار علوم المكشفة ولا رخصة في إظهاره إذ لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ولكنتك قبل معرفة ذلك تعلم أن القلب ميلاً إلى صفات هيمية كالأكل والوقاع ، وإلى صفات سببية كالقتل والضرب والإيذاء ، وإلى صفات شيطانية كالسكر والخميرة والإغواء ، وإلى صفات ربوية كالكبر والموالمة والتجبر وطلب الاستعلاء ؛ وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة بطول شرحها وتفصيلها ، فحولاً فيه من الأمر الرباني بحسب الربوية بالطبع ، ومعنى الربوية التوحد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال ، فصار الكمال من صفات الإلهية فصار محبوا بالطبع للإنسان ، والكمال بالتفرد بالوجود لأن المشاركة في الوجود نقص لا محالة ، فقال الشمس في أنها موجودة وحدها ، قلوا كأن شمس أخرى لكان ذلك نقصاً في حقها ، إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية ، والمتفرد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواه ، فإن ما سواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته ، بل هو قائم به ، فلم يكن موجوداً معه لأن الممية توجب المساواة في الرتبة ، والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال ، بل الكمال من لا نظير له في رتبته . وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الأفاق ليس نقصاً في الشمس بل هو من جملة كمالها ، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في الرتبة مع الاستثناء عنها ، فكذلك وجود كل مافي العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعاً ولا يكون متبعا فاذن معنى الربوية التفرد بالوجود وهو الكمال . وكل إنسان فانه بطبعه محب لأن يكون هو المتفرد بالكمال .

ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية : مامن إنسان إلا وفي باطنه ماصرح به فرصون من قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ولكنه ليس بمجد له بحال وهو كما قال ، فإن العبودية تبر على النفس ، والربوية محبوبة بالطبع وذلك لقسبة الربانية التي أوما إليها قوله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ ولكن لما عجزت النفس عن إدراك متبهي الكمال لم تسقط شهوتها للكمال ، فهي محبة للكمال ومشتهية له ومغتذ به لذاته لالغنى آخروراء الكمال ، وكل موجود فهو محب لذاته ولكمال ذاته ؛ ومفيض للهلاك الذي هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته . وإنما الكمال بعد أن يسلم التفرد بالوجود في الاستيلاء على كل الموجودات ؛ فإن أكل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فإن لم يكن منك فأن تكون مستولياً عليه ؛ فصار الاستيلاء على الكل محبوا بالطبع ؛ لأنه نوع كمال ؛ وكل موجود يعرف ذاته ويحب فانه ويحب كمال ذاته ويقتد به ، إلا أن الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه ، وعلى تغييره بحسب الإرادة وكرهه مسخر لك تردده كيف تشاء ، فأحب الإنسان أن يكون له استيلاء على كل الأشياء الموجودة معه . إلا أن الموجودات منقسمة إلى مالا يقبل التغيير في نفسه كذات الله تعالى وصفاته . وإلى ما يقبل التغيير ولكن لا يستولى عليه قدرة الخلق ، كالأملاك والكواكب وملكوت السموات وقوس الملائكة والجن والشياطين . كالجبال والبحار . وإلى ما يقبل التغيير بقدرة العبد كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان ومن جعلنا قلوب الناس . فانها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات .

فإذا اقتسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرف فيه كالأرضيات ، وإلى ما لا يقدر عليه كذات الله تعالى والملائكة والسموات ، أحب الإنسان أن يستولى على السموات بالملم والإحاطة والإطلاع على أسرارها فإن ذلك نوع استيلاء ، إذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم ، والعالم كالمستولى عليه ، فلذلك أحب أن يعرف

(١) حديث : أنه ﷺ لم يظهر سر الروح أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

الله تعالى والملائكة والأفلاك والكواكب ، وجميع عجائب السموات ، وجميع عجائب البحار والجبال وغيره ما لأن ذلك نوع استيلاء عليها والاستيلاء نوع كال وهذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها ، كن عجز عن وضع الشطرنج ، فإنه قد يشتهي أن يعرف اللعب به وأنه كيف وضع ؟ ولكن يرى صنعة عجيبة في الهندسة أو الشحنة أو جر الثقل أو غيره وهو مستشعر في نفسه بعض العجز والقصور عنه ولكنه يشتاق إلى معرفة كيفيته فهو متالم ببعض العجز متلذذ بكمال العلم إن علمه .

وأما القسم الثاني : وهو الأرضيات التي يقدر الإنسان عليها ، فإنه يجب بالطبع أن يستولى عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد وهو قهوان : أجساد وأرواح .

( أما الأجساد ) فهي الدرام والله نادر والأتمنة فيجب أن يكون قادرا عليها يفضل فيها ماشاء من الرفع والوضع والتسليم والتمنع ، فإن ذلك قدرة والقدرة كال والكال من صفات الربوبية ، والربوبية عجزه بالطبع ، فذلك أحب الأموال وإن كن لا يحتاج إليها في ملبسه ومطعمه وفي شنوات نفسه ، وكذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر والغلبة حتى يتصرف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار ، وإن لم يملك قلوبهم ، فإنها ربما لم تعتقد كاله حتى يصير محبوبا لها ويقوم القهر منزله فيها ، فإن الحشمة القهرية أيضا لذيذة ، لما فيها من القدرة .

( القسم الثاني ) نفوس الأدميين وقلوبهم وهي أنفس ما على وجه الأرض ، فهو يجب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له متصرة تحت إشارته وإرادته لما فيه من كال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية ، والقلوب إنما تسخر بالمحبو لا تحب إلا باعتقاد الكال ، فإن كل كال محبوب لأن الكال من الصفات الإلهية والصفات القلوب الإلهية كلها عجيبة بالطبع المعنى الرباني من جملة معاني الإنسان ، وهو الذي لا يليه الموت فيعده ولا تسلط عليه التراب فيما كله ، فإنه عمل الإيمان والمعرفة وهو الواصل إلى لقاء الله تعالى والساعي إليه فاخذ معنى الجاه تسخير القلوب : ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها ، والقدرة والاستيلاء كال وهو من أوصاف الربوبية . فاخذ محبوب القلب بطبعه الكال بالعلم والقدرة ، والمال والجاه من أسباب القدرة ، ولا نهاية للمعلومات ولا نهاية للمقدورات ، وما دام يبقى معلوم ، أو مقدور فالشوق لا يسكن والتقصان لا يزول . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « منومان لا يشجان » فاخذ مطلوب القلوب الكال ، والكال بالعلم والقدرة وقوات الدرجات فيه غير محصور ، فمرور كل إنسان ولذته بقدر ما يدركه من الكال ، فهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوبا ، هو أمروراء كونه محبوبا لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات فإن هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات ، بل يحب الإنسان من العلوم ما لا يصلح التوصل به إلى الأغراض ، بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات : ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع العجائب والشكولات : لأن في العلم استيلاء على المعلوم وهو نوع من الكال الذي هو من صفات الربوبية فكان محبوبا بالطبع ، إلا أن في حب كال العلم والقدرة أغاليط لا بد من يسائها إن شاء الله تعالى

### بيان الكال الحقيقي والكال الوهمي الذي لاحقيقة له

قد عرفت أنه لا كال بعد فوات التضرر بالوجود إلا في العلم والقدرة ولكن الكال الحقيقي فيه متلبس بالكال الوهمي ، وببأنه أن كال العلم له تعالى وذلك من ثلاثة أوجه : ( أحدها ) من حيث كثرة المعلومات وسعتها ، فإنه محيط

جميع المعلومات ، فذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كُن أقرب إلى الله تعالى .  
( الثاني ) من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ماهو به ، وكون المعلوم مكتوفا به كشفانا ، فإن المعلومات مكتشفة لله تعالى بأنهم أنواع الكشف على ما هي عليه ، فذلك مهما كان علم العبد أوضح وأيقن وأصدق وأوثق للعلوم في تفاصيل صفات العلوم كان أقرب إلى الله تعالى .

( الثالث ) من حيث بقاء العلم أبد الآباد بحيث لا يتغير ولا يزول ، فإن علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير ، فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغيير والاقطاع كان أقرب إلى الله تعالى .  
والمعلومات قسَم : متغيرات وأزليات .

أما المتغيرات : فتألف العلم بكون زيد في الدار ، فإنه له معلوم ، ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الدار ويبقى اعتقاد كونه في الدار كما كان فيقلب جهلا فيكون قصصانا لا كالا ، فكما اعتدت اعتقادا موافقا وتصور أن ينقلب المتعدد فيه عما اعتدته كنت يصد أن ينقلب كالك نقصا ، وبسود عليك جهلا .  
ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم ، كملك مثلا بارتفاع جبل ومساحة أرض ، وبعد البلاد وتباعد ما بيننا من الأسيال والفراسخ ، وسائر ما يذكر في المسالك والممالك ؛ وكذلك العلم بالصفات التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الأعمار والأمم والمعادات فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق تتغير من حال إلى حال ، فليس فيه كمال إلا في الحال ولا يبقى كالا في القلب .

القسم الثاني : هي المعلومات الأزلية وهو جواز المجاوزات ووجوب الراجيات واستحالة المستحيلات ، فإن هذه معلومات أزلية أبدية ، إذ لا يستحيل الواجب قط جائزا ولا الجائز محسالا ولا المحال واجبا . فكل هذه الأقسام داخلة في معرفة الله وما يجب له ، وما يستحيل في صفاته ، ويجوز في أفعاله ، فاعلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله وحكمته في ملكوت السموات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو الكمال الحقيقي الذي يقرب من يتصف به من الله تعالى . ويبقى كالا للنفس بعد الموت ، وتكون هذه المعرفة نور المعارف بعد الموت ( يسمى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أئتم لنا تورنا ) أي تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل إلى كشف مالم يتكشف في الدنيا ، كما أن من معه سراج خفي فإنه يجوز أن يصير ذلك سبيلا لزيادة الثور برأج آخر يقتبس منه ، فيكمل الثور الخفي على سبيل الاستبصار . ومن ليس معه أصل السراج فلا مطمع له في ذلك ، فمن ليس معه أصل معرفة الله لم يكن له مطمع في هذا الثور . فيبقى كنه مثله في الظلمات ليس بخارج منها بل ( كظلمات في بحر لحي . يشاهد موج من قوة موج من قوة مساحب ظلمات بعضها فوق بعض ) فإذا لاسعادة إلا في معرفة الله تعالى وأما ماعدا ذلك من المعارف فمنها ما لا فائدة له أصلا كعرفة الشعر وأنساب العرب وغيرها ، ومنها ما له منفعة في الإجابة على معرفة الله تعالى كعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار ، فإن معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن ، ومعرفة التفسير تعين على معرفة مافي القرآن من كيفية العبادات والأعمال التي تقيد تزكية النفس ، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استمداد النفس لقبول الهدايا إلى معرفة الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى ( قد أفلح من زكاهما ) وقال عز وجل ( والذين جملوا فينا لنهدينهم سبيلا ) فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى ، وإنما الكمال في معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله ، ويتطوّر فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلها من أفعاله ، فمن عرفها من حيث هي فعل الله تعالى ومن حيث ارتباطها بالقسوة والإرادة والحكمة ، فهي من تكمله معرفة الله تعالى . وهذا حكم كمال العلم ذكرناه وإن لم يكن لاتقا بأحكام الجاه والرياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال .

وأما القدرة فليس فيها كمال حقيقي للبدن، بل للبدن علم حقيقي وليس له قدرة حقيقية، وإنما القدرة الحقيقية لله وما يحدث من الأشياء غريب إرادة البدن وقدرته وحركته فهي حادثة بأحداث الله — كما قرناه في كتاب الصبر والشكر، وكتاب التوكل وفي مواضع شتى من ربيع المتجنيات — فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله إلى الله تعالى فأما كمال القدرة فلا. نعم كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال وهي وسيلة له إلى كمال العلم كسلامة أطرافه وقوة يده البطش ورجله المشي وحواسه للإدراك، فإن هذه القوى آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم.

وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه للوصول به إلى الطعام والمشرب والملبس والسكن، وذلك إلى قدر معلوم، فإن لم يستعمل الوصول به إلى معرفة جلال الله فلا خير فيه ألبتة إلا أن حيث القوة الحالية التي تقضى على القرب، ومن ظن ذلك كالأفقد جهل، فالخلق أكثرهم هالكون في غمرة هذا الجهل فانهم يظنون أن القدرة على الأجساد بغير الحشمة، وعلى أعيان الأموال بسعة النقي، وعلى تعظيم القلوب بسمة الجساء، كمال، فلما اعتقدوا ذلك أجبروه ولما أجبروه طلبوه ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه ففسدوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله تعالى ومن ملاسكته وهو العلم والحرية (أما العلم) فما ذكرناه من معرفة الله تعالى (وأما الحرية) فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر تشبهاً بالمالكة الذين لا تستغرم الشهوة ولا يستهويهم الغضب، فإن دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال الذي هو من صفات الملائكة. ومن صفات الكمال الله تعالى استحاله التنهير والتأثر عليه، فمن كان عن التنهير والتأثر بالعوارض أبعد كان إلى تعالى أقرب وبالملك أشبه ومنزله عند الله أعظم. وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة، وإنما لم نورد في أقسام الكمال لأن حقيقته ترجع إلى عدم نقصان فإن التنهير نقصان إذ هو عبارة عن عدم صفة كاتئة وهلاكها، والمهلك نقص في القدرات وفي صفات الكمال.

فاذن الكمالات ثلاثة — إن عدنا (عدم التنهير بالشهوات وعدم الاتقياد لها) كالأ ككمال العلم وكال الحرية، وأعني بعدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية — وكال القدرة للبدن طريق إلى اكتساب كمال العلم، وكال الحرية ولا طريق له إلا اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته، إذ قدرته على أعيان الأموال وعلى استسخار القلوب والأبدان تنقطع بالموت. ومعرفة وسريته لا يعتمدان بالموت بل يقيان كالأ فيه وسيلة إلى القرب من الله تعالى.

فاظهر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم اكتساب العميان فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال. وهو الكمال الذي لا يسلم وإن سلم فلا بقاء له، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذي إذا حصل كان أبدى لا انقطاع له. وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً) فالعلم والحرية هي الباقيات الصالحات التي تبقى كالأ في النفس، والمال والجاه هو الذي ينقضى على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال (إنما مثل الحياة الدنيا كآزنة من الماء فاخبط به نبات الأرض) الآية وقال تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كآية آزنة من السماء) إلى قوله (فأصبح هشياً تذروه الرياح) وكل ما تذروه ريح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا، وكل ما لا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات. فقد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمال والجاه كالأ على لا أصل له، وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصوداً فهو جاهل، وإليه أشار أبو الطيب بقوله :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله عتاة قهر فالننى قمل : الفقر  
إلا قدر البلغة منها إلى الكمال الحقيقى ، الهم اجعلنا من وقتك الخير وهديته بطفلك .

### بيان مايحيى من حب الجاه وما يلزم

مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا ، وينقطع بالموت كلال ، والدنيا مزرعة الآخرة ، فكل ماخلق في الدنيا فيمكن أن يتزود منه للآخرة ، وكما أنه لابد من أدنى مال لضرورة الطعام والمشرى والملبس ، فلا بد من أدنى جله لضرورة المعيشة مع الخلق ، والإنسان كما لا يستغنى عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذى يبتاع به الطعام ، فكنك لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه ، ورفيق يمشى ، وأستاذ يرشده ، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار ، لحبه لأن يكون له في قلب خادمه من الخلل ما يدعو إلى الخدمة ليس بخدموم ، وحبه لأن يكون له في قلب رفيقه من الخلل ما يحسن به مرافقته ومماوته ليس بخدموم ، وحبه لأن يكون له في قلب أستاذه من الخلل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والثناء به ليس بخدموم ، وحبه لأن يكون له من الخلل في قلب سلطانة يماضيه ذلك على دفع الشر عنه ليس بخدموم ، فإن الجاه وسيلة إلى الأعراض . كلال ، فلا فرق بينهما إلا أن التحقيق في هذا يقضى إلى أن لا يكون المال والجاه بأعينهما محبوبين له ، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له في داره بيت ماء . لأنه مضطر إليه لقضاء حاجته ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغنى عن بيت الماء ، فهذا على التحقيق ليس محباً لبيت الماء فكل مايراد التوصل به إلى محبوب فالمحسوب هو المقصود المتوصل إليه . وتدرك التفرقة بمثال آخر وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة ، كما يدفع بيت الماء فضلة الطعام ، ولو كفى مؤنة الشهوة لكان يجر زوجته ، كما أنه لو كفى قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به ، وقد يحب الإنسان زوجته لذاتها حب العشاق ولو كفى الشهوة لبق مستحباً لتساخا ، فهذا هو المحبون الأول ، وكنك الجاه والمال . وقد يجب كل واحد منهما على هذين الوجهين ، فهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مضموم ، وحبهما لأعينهما فبماجاوز ضرورة البدن وحاجته مضموم ، ولكنته لا يوصف صاحبه بالفسق والفساد مالم يحمله الحب على مباشرة معصية . وما يتوصل به إلى اكتساب بكنب وسداع وارتكاب محظور ومالم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة ، فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام ، وإليه يرجع معنى الزباء المحظور كما سيأتى .

فإن قلت : طلبه المنزلة والجاه في قلب أستاذه وخادمه ورفيقه وسلطانة ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان ، أو يباح إلى حد مخصوص على وجه مخصوص ؟ فأقول : يطلب ذلك على ثلاثة أوجه ، وجهان مباحان ، ووجه محظور .

أما الوجه المحظور : فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة وهو متفعل عنها ، مثل العلم والورع والنسب ، فيظهر لهم أنه علوى أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك ، فهذا حرام لأنه ككذب وتلبس إما بالقول أو بالمعاملة .

وأما أحد المباحين : فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى ( اجعلنى على خزائن الأرض إني خفيظ علم ) فإنه طلب المنزلة في قلبه بكونه خفيظاً عليها ، وكان

محتاجا إليه وكان صادقا فيه ( والثاني ) أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه ، حتى لا يلم فلا يزول منزله به ، فهذا أيضا مباح لأن حفظ السر على القبايح جائز ، ولا يجوز ترك السر وإظهار القبيح . هذا ليس فيه تلبس ، بل هو سد لطريق العلم بالآفات في العلم به ، كالذي يخفى عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يلقى إليه أنه وورع ، فإن قوله : إني وورع ، تلبس ، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب .

ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده ، فإن ذلك رياء ، وهو ملبس إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مرأ بما يفعله ، فكيف يكون غلصا ؟ فطلب الجاه بهذا لطريق حرام وكذا بكل معصية ، وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق ، وكذا لا يجوز له أن يملك مال غيره لتلبس في عوض أو غيره فلا يجوز له أن يملك قلبه بتزوير وخداع ، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال .

### بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع اليه

وبعضها النعم وتفرتها منه

أعلم أن حب المدح والثناء القلب به أربعة أسباب :

السبب الأول ، وهو الأقوى : شعور النفس بالكمال فانا نيتا أن الكمال محبوب ، وكل محبوب فادراكه لذيد فيها شمرت النفس بكمالها ارتاحت وامتزجت وتلذذت ، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها ، فإن الوصف الذي به مدح لا يخلو إما أن يكون جليا ظاهرا أو يكون مشكوكا فيه ، فإن كان جليا ظاهرا محسوسا كانت اللذة به أقل ، ولكنه لا يخلو عن لذة حشنته عليه بأنه طويل القامة أبيض اللون فإن هذا نوع كمال ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته ، فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة ، وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك فاللذة فيه أعظم كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع أو بالحسن المطلق ، فإن الإنسان ربما يكون شاكيا كافي كمال حسنه وفي كمال علمه وكمال ورعه ويكون مشتاقا إلى زوال هذا الشك بأن يصير مستقيما لكونه عديم النظر في هذه الأمور إذ تعلمن نفسه إليه ، فإذا ذكره غيره أوردت ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذاته ، وإنما تنظم اللذة بهذه الملة مهما صدر الثناء من يصير بهذه الصفات خبير بها لا يجازف في القول إلا عن تحقيق وذلك كفرح التليذ بثناء أستاذة عليه بالكماسة والذكاء وغزارة الفضل فانه في غاية اللذة ، وإن صدر من مجازف في الكلام أو لا يكون يصير بذلك الوصف ضعفت اللذة ، وهذه الملة ينقض النعم أيضا ويكرهه لأنه يشعر بنقصان نفسه والنقصان ضد الكمال المحبوب فهو محققت الشعور به مؤلم ، ولذلك يعظم الألم إذا صدر النعم من يصير موثوق به كما ذكرناه في المدح .

السبب الثاني : أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للذوق وأنه مريد له ومعتمد فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب والشعور بمحبوه لذيد ، وهذه الملة تعظم اللذة مهما صدر الثناء من تنفع قدرته وينتفع باقتناس قلبه كالملك والأكابر ، ويضعف مهما كان المادح من لا يؤبه له ولا يقدر على شيء ، فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة ، وهذه الملة أيضا يكره النعم ويثلم به القلب ، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأن الفائت به أعظم .

السبب الثالث : أن ثناء المتنى ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه ، لاسيا إذا كان ذلك من يلتفت إلى قوله ويمتد بثناءه ، وهذا مختص بثناء يقع على المأ فلا يجرم كلما كان الجع أكثر والمتنى أجدر بأن يلتفت إلى قوله كان المدح ألد والنعم أشد على النفس .

السبب الرابع : أن المدح يدل على حكمة المدح ، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على المدحوع إما عن طوع وإما عن قهر ، فإن الحسنة أيضا لذينة لما فيها من القهر والقدرة ، وهذه الذنة تحصل وإن كان المادح لا يعتقد في الباطن ما مدح به ، ولكن كونه مضطرا إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه ، فلا جرم تكون لذته بقدر تمتع المادح وقوته ، فتكون لذته ثناء القوي المتع عن التواضع بالثناء أشد .

فهذه الأسباب الأربعة قد تجمع في مدح واحد فيعظم بها الالتئاذ ، وقد تفرق فتتقصق القلة بها . أما العلة الأولى وهي استعمار الكمال فتندفع بأن يعلم المدحوع أنه غير صادق في قوله ، كما إذا مدح بأنه نسيب أو سخي أو عالم بلم أو متووع عن المحظورات وهو يعلم من نفسه ضد ذلك ، فتزول الذلة التي سببها استعمار الكمال وتبقى لذته الاستيلاء على قلبه ولسانه وبقية الذات ، فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة يطلب الذلة الثانية وهو استيلاءه على قلبه ، وتبقى لذته الاستيلاء والحسنة على اضطرار لسانه إلى التعليق بالثناء فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب بطلت الذات كلها فلم يكن فيه أصلا لذته لقوات الأسباب الثلاثة فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التئاذ النفس بالمدح ونألمها بسبب الذم . وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وحب المحمدة وخوف المذمة ، فإن مالا يبرف سببه لا يمكن معالجته ، إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض . والله الموفق بكرمه ولطفه وصلى الله على كل عبد مصطفى .

### بيان علاج حب الجاه

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور المم على مراعاة الخلق مشغولا بالتودد إليهم والمراتاة لأجلهم ولا يزال في أوقاله وأفعاله ملتفتا إلى ما يحظم منزله عندهم وذلك يذر التفائق وأصل الفساد ، ويجر ذلك لاهالة إلى التساهل في العبادات والمراتاة بها وإلى اتحام المحظورات للترصل إلى اقتناص القلوب ، ولذلك شبه رسول الله ﷺ حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذنبتين ضارين وقال عليه السلام « إنه يفتت التفائق كما يفتت الماء البقل » ، إذ التفائق هو غائلة الظاهر الباطن بالقول أو الفعل ، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر إلى التفائق معهم وإلى التظاهر بمخالفات حيدة هو حال عنها ، وذلك هو عين التفائق .

حب الجاه إذن من المهلكات ، فيجب علاجه وإزالته عن القلب فانه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال ؛ وعلاجه مركب من علم وعمل .

أما العلم : فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم ، وقد بينا أن ذلك إن صفا وسلم فأخبره الموت ، فليس هو من الباقيات الصالحات ، بل هو مجرد لك كل من على بساط الأرض من المشرق إلى المغرب فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له ، ويكون حاله كحال كمال من مات قبله من ذوى الجاه مع المتواضعين له . فهذا لا يبنى أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها ، ومن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي - كما سبق - صغر الجاه في عينه ، إلا أن ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهد ما يستحق المراجعة ويكون الموت كالحاصل عنده ، ويكون حاله كحال الحسن البصري حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز ( أما بعد : فكانك بأخبر من كتب عليه الموت قد مات ) فانظر كيف مد فطره نحو المستقبل وقدره كأننا . وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب في جوابه ( أما بعد : فكانك بالدينيا لم تكن وكأنا بالآخرة لم تزل ) هؤلاء كان تضاهمهم إلى العاقبة ، فكان عملهم لها بالقوى إذ علوا أن العاقبة للتقين ،

فاستحقروا الجاه والمال في الدنيا . وأبصار أكثر الخلق ضميعة مقصورة على العاجلة لا تمتد فوراً إلى مشاهدة العواقب ، ولذلك قال تعالى ( بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ) وقال عز وجل ( كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ) فن هذا حله فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة وهو أن يتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أبواب الجاه في الدنيا ، فإن كل ذى جاه عمود ومقصود بالإيذاء وخائف على الدوام على جاهه وعثرته من أن تتغير منزلته في القلوب ، والقلوب أشد تنهداً من القند من غليانها وهي مترددة بين الإقبال والإعراض ، فكل ما ينبغي على قلوب الخلق يضاهي ما ينبغي على أمواج البحر فانه لا ثبات له ، والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء كل ذلك غنوم عاجلة ومكدرة لذنة الجاه ، فلا ينبغي في الدنيا سرورها بخوفها فضلاً عما يفوت في الآخرة ، فهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة . وأما من تقلت بصيرته وقوى إيمانه فلا يخلص إلى الدنيا ، فهذا هو العلاج من حيث العلم .

وأما من حيث العمل : فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتقارقه لذنة القبول ويأنس بالحلول ويرد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق . وهذا هو مذهب الملازمة ، إذ اتحموا الفواحش في صورتها ليستقروا أنفسهم من أعين الناس فيسلبوا من آفة الجاه ، وهذا غير جائز لمن يقتدى به فانه يوهن الدين في قلوب المسلمين ، وأما الذي لا يقتدى به فلا يجوز أن يقدم على محذور لأجل ذلك ، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عن الناس .

كما روى أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد ، فلما علم بقربه منه استدهى طعاماً وبقلاً وأخذ يأكل بشره ويظلم القنعة ، فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف ، فقال الزاهد : الحمد لله الذي صرفك عني . ومنهم من شرب شراباً حلالاً في قدح لو نه لون آخر حتى يظن به أنه يشرب الخمر فيسقط من أعين الناس . وهذا في جوازهم نظر من حيث الفقه إلا أن أبواب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا ينبغي به الفقيه مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير ، كما فعل بعضهم ، فانه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه ، فدخل حماماً وليس ثياب غيره وخرج فوقف في الطريق حتى عرفوه فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا : إنه طرار وهجره .

وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة إلى موضع الخمول ، فإن المعتزل في بيته في البلد الذي هو به مشهور لا يتخل عن حب المنزل التي ترسخ له في القلوب بسبب موله ، فانه ربما يظن أنه ليس محباً لذلك الجاه وهو مغرور ، وإذ ما سكنت نفسه لانها قد غفرت بمقصودها ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه قدموه أو نسبوه إلى أمر غير لائق به جزعت نفسه وتألّت ، وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك وإمالة ذلك التيسر عن قلوبهم ، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتليس ولا يبالي به .

وبه يتبين بعد أنه حب للجاه والمنزلة . ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال بل هو شر منه فان فتنة الجاه أعظم ، ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس ما دام يطعم في الناس ، فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طعمه عن الناس رأساً أصبح الناس كلهم عنده كالآرائل ، فلا يبالي أكله منزلة في قلوبهم أم لم يكن ، كالا يبالي بما في قلوب الذين هم منه في أقصى المشرق لأنه لا يرام ولا يطعم فيهم ، ولا يقطع الطعم عن الناس إلا بالتقاعة ، فن قنع استغنى عن الناس وإذا استغنى لم يشغل قلبه بالناس ولم يكن لقياس منزلته في القلوب عنده وزن ، ولا يتم ترك الجاه إلا بالتقاعة وقطع الطعم . ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ثم



الجاه ومدح الخول والذل مثل قولهم : المؤمن لا يخلو من ذلة أو فاقة أو علة . وينظر في أحوال السلف وإشارتهم للذل على العز ورغبتهم في ثواب الآخرة ورضى الله عنهم أجمعين .

### بيان وجه العلاج لحب المدح وكرامة القم

اعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا بخوف ملزمة الناس وحسب مدحهم ، فصار حركتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء للمدح وخوفاً من الذم ، وذلك من المهلكات فيجب معالجته وطريقة ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم .

أما السبب الأول : فهو استعثار الكمال بسبب قول المادح فطرته فيه أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك : هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف بها أم لا ؟ فإن كنت متصفاً بها فهي إضافة تستحق بها المدح كالعلم والورع ؛ وإما صفة لا تستحق المدح كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية فإن كانت من الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب شيئاً تفروه الرياح ؛ وهنا من فقه العقل ؛ بل العاقل يقول كما قال النبي :

أشد النعم عتدي في سرور تيقن عنه صاحبه امتثالاً

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بهروض الدنيا ؛ وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها وبوجودها والمدح ليس هو سبب وجودها . وإن كانت الصفة ما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغي أن لا يفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة ؛ وهذا إنما يقتضي الفرح لأنه يقرب عند الله ذلي ؛ وخطر الخاتمة باق في الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا ؛ بل الدنيا دار أحران وضوم لا دار فرح وسرور ثم إن كنت تقرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المادح ، فإن القلة استعثار الكمال والكمال موجود من فضل الله لا من المدح والمدح تابع له فلا ينبغي أن تقرح بالمدح . والمدح لا يزيدك فضلاً وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون ؛ ومثاله مثال من يقرأ به إنسان ويقول سبحان الله ما أكثر المطر الذي في أحشائه وما أطيب الروائح التي تخرج منه ؛ إذا قضى حاجته ؛ وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاظه من الأقدار والآثار ؛ ثم يفرح بذلك فكذلك إذا أنتوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به واقطع على حياتك باطنك وغوائل سرورك وأقدار صفاتك كان ذلك من غاية الجهل . فإذا المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك التي هي من فضل الله عليك ؛ وإن كذب فينبغي أن يملك ذلك ولا تقرح به .

وأما السبب الثاني : وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكرهه شيئاً لتسخير قلب آخر ؛ فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب . وقد سبق وجه معالجته ؛ وذلك بقطع الطمع عن الناس وطلب المنزلة عند الله ، وبأن يعلم أن طلب المنزلة في قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلك عند الله ؛ فكيف تقرح به ؟

وأما السبب الثالث : وهو الخشعة التي اضطرت المادح إلى المدح ، فهو أيضاً يرجع إلى قدرة عارضة لا ثبات لها ولا تستحق الفرح ، بل ينبغي أن يملك مدح المادح وتكرمه وتخصب به . كما قل ذلك عن السلف . لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة . كما ذكرناه في كتاب آفات السان . قال بعض السلف : من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل في بطنه . وقال بعضهم : إذا قيل لك : نعم الرجل أنت . فكان أحب إليك من أن يقال لك : يئس الرجل أنت ، فأنت واقف يئس الرجل . وروى في بعض الأخبار . فإن صح فهو قاصم الظهور . أن رجلاً أتى على رجل ( ٢٧ - إحياء علوم الدين ٢ )

خيرا عند رسول الله ﷺ فقال « لو كان صاحبك حاضرا فرضي الذي قلت قلت على ذلك دخل النار » وقال مرة للمادح « ويحك قصص ظهرك لو سمعك ما أفزع إلى يوم القيامة » وقال عليه السلام « ألا لا تمدحوا وإذا رأيتم المادحين فاحشوا في وجوههم التراب » فلماذا كان الصباغة وضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وفتنته وما يدخل على القلب من السرور العظيم به ، حتى إن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شيء فقال : أنت يا أمير المؤمنين خير مني وأعلم ، فضض وقال : إني أملك بأن تركبني . وقيل لبعض الصباغة : لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله ، فضض وقال : إني لأحسبك عراقيا . وقال بعضهم : لا مدح - اللهم إن عبيدك تقرب إلى بمقتك فأشبهك على مقتي . وإنما كرهوا المدح خوفا أن يفرحوا بمدح الخلق وهم معقوتون عند الخالق ، فكان اشتغال قلوبهم بحالم عند الله ينحس إليهم مدح الخلق ، لأن الممدوح هو المقرب عند الله والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله الملقى في النار مع الأشرار فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره ، وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثناؤه عليه إذ ليس أمره بيد الخالق . ومهما علم أن الأرزاق والأجال بيد الله تعالى قل التفاهة إلى مدح الخلق وذهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهيم من أمر دينه . والله الموفق للصواب برحمته .

### بيان علاج كراهة الدم

قد سبق أن العلة في كراهة الدم هو عند العلة في حب المدح ، فعلاجه أيضا فيهم منه . والقول الوجيز فيه أن من ذلك لا يخلو من ثلاثة أحوال :

إما أن يكون قد صدق فيها قال ، وقصد به النصح والشفقة ، وإما أن يكون صادقا ولكن قصده الإيذاء والتعسف .

ولما أن يكون كاذبا : فإن كان صادقا وقصده النصح فلا ينبغي أن تذهم وتغضب عليه وتحقد بسببه ، بل ينبغي أن تتقصد منه فإن من أهدى إليك صوبك فقد أرشدك إلى الملك حتى تقيه ، فينبغي أن تفرح به وتفتخر بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها ، فأما اغتيابك بسببه وكراهتك له وذلك إياه فانه غاية الجهل ، وإن كان قصده التعسف فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى صيبك إن كنت جاهلا به ، أو ذكرك صيبك إن كنت غافلا عنه ، أو قيحه في عينك ليليمت حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته . وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استفدت منه فاشتغل بطلب السعادة فقد أتبع لك أسبابها بسبب ماسحت من المذمة . فهما قصدت الدخول على ملك وتوبك ملوث بالمذمة وأنت لا تدري ، ولو دخلت عليه كنكك لحفت أن يحز رقبته لتلويك بجلسه بالمذمة فقال قائل : أيها الملوث بالمذمة طهر نفسك ، فينبغي أن تفرح به لأن تليك بقلوب غنيمة ، وجميع مساوي الأخلاق مهلكة في الآخرة والإنسان إما يفرها من قول أعدائه فينبغي أن تقتسمه . وأما قصد العدو التثنت لجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به ؟

- (١) حديث : أن رجلا أتى على رجل خيرا فقال « لو كان صاحبك حاضرا فرضي الذي قلت ومات على ذلك دخل النار » لم أجده أصلا (٢) حديث « ويحك قطعت ظهرك ... الحديث » قاله للمادح تقدم .  
(٣) حديث « ألا لا تمدحوا وإذا رأيتم للمادحين فاحشوا في وجوههم التراب » تقدم دون قوله « ألا لا تمدحوا » .

الحالة الثالثة : أن يفترى عليك بما أنت برىء منه عند الله تعالى فينبغي أن لا تكره ذلك ولا تشغل بنبهه ، بل تفكر في ثلاثة أمور ( أحدها ) أنك إن خطوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه ، وما سره الله من عيوبك أكثر ، فاشكر الله تعالى إذ لم يطعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت برىء عنه . ( والثاني ) أن ذلك كفارات لبقية مساوئك وذنوبك فسكاته وماك يبيب أنت برىء منه وطورك من ذنوب أنت ملوث بها وكل من اعتابك قد أهدى إليك حسنة ، وكل من مدحك فقد قطع ظهرك فإياك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التي تقربك إلى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله . ( وأما الثالث ) فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بأفترائه وتعرض لمقابله الأليم ، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتنسب به الشيطان وتقول : اللهم أهلكه ، بل ينبغي أن تقول : اللهم أصلحه اللهم تب عليه اللهم أرحمه ، كما قال ﷺ « اللهم اغفر لقومي لهم أمد قومي فإنهم لا يعلمون » (١) لما أن كسروا نبيته وشجروا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد . ودعا إبراهيم بن آدم لمن شج رأسه بالمغفرة فقيل له في ذلك فقال : علمت أن ما جور بسبي وما نالني منه إلا خير فلا أرضى أن يكون هو معافياً بسبي . وما هوون عليك كرامة اللعنة قطع الطمع فإن من استغنى عنه مهما ذمك لم يظلم أثر ذلك في قلبه ، وأصل الدين القناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه ، وما دام الطمع قائماً كن حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالباً ، وكانت همتك إلى تحصيل المآلة في قلبه مصروقة ، ولا ينال ذلك إلا بهم الدين ، فلا ينبغي أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه فإن ذلك بعيد جداً .

### بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم

أعلم أن الناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذم والامدح :

الحالة الأولى : أن يضر بالمدح ويكثر للمادح وينضب من الذم ويحقد على الذام ويكافئه أو يجب مكافأته ، وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات المصيبة في هذا الباب .

الحالة الثانية : أن يمتنع في الباطن على الذام ولكن يمسك لسانه ويجوارحه عن مكافأته ويفرح بألمه ، ويرتاح للمادح ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور ، وهذا النقصان إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال .

الحالة الثالثة : وهي أول درجات الكمال أن يستوى عنده ذامه ومادحه فلا تنهه اللعنة ولا تسره المدحة . وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغروراً إن لم يمتحن نفسه بعلاماته ، وعلاماته أن لا يجد في نفسه استغفالا للذام عند طولبه الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح ، وأن لا يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام ، وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح ، وأن لا يكون موت المادح الطرى له أشد نكابة في قلبه من موت الذام ، وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام ، وأن لا تكون ذلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من ذلة الذام . فهما خف الذام على قلبه كما خف المادح واستويا من كل وجه فقد نال هذه الرتبة وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب ، وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون حيث لا يتحسرون

(١) حديث « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » قاله لما ضربه قومه . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة وقد تقدم والحديث في الصحيح أنه ﷺ قاله حكاية عن نبي من الأنبياء حين ضربه قومه .

انقسم بهذه العلامات ، وربما شعر العابد بميل قلبه إلى المادح ذن الذام ، والشیطان يحسن له ذلك ويقول : الذام قد صدى الله بمدحك ، والمادح قد أطاع الله بمدحك ، فكيف تسوى بينهما ؟ وإنما استغفلك للذام من الدين المحض وهنا محض التلبس ، فإن العابد لو تفكر علم أن في الناس من ارتكب كبائر المعاصي أكثر مما ارتكب الذام في نفسه ، ثم إنه لا يستغلهم ولا يضر عنهم ، ويعلم أن المادح الذي مدح لا يخطئ عن مدحه غيره ، ولا يحد في نفسه قرة عنه بمذمة غيره كما يجد المذمة نفسه ، والمذمة من حيث إنها معصية لا تختلف بأن يكون هو المعلوم أو غيره . فاذن العابد المفرور لنفسه يفضض ويطرد ويمتنع ، ثم إن الشيطان يحيل إليه أنه من الدين حتى يمثل على الله بهواه فيريد ذلك بعداً من الله ، ومن لم يطلع على مكاييد الشيطان وآفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضائع يفوت عليه الدنيا ويحمره في الآخرة ، وفيهم قال الله تعالى ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سبيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ .

الحالة الرابعة : وهي الصدق في العبادة ؛ أن يكره المدح ويمقت المسادح ، إذ يعلم أنه فتنة عليه فصحة الظهور مضرة له في الدين ، ويجب الذام إذ يعلم أنه مهد إليه عيب ومرشد له إلى مهمه ومهد إليه حسنة ، فقد قال عليه السلام « رأس التواضع أن تكره أن تذكر بالبر والتقوى »<sup>(١)</sup> وقد روى في بعض الأخبار ما قسم لظهور أمثاله إن صح ، إذ روى أنه عليه السلام قال « ويل للسامع وويل للقائم وويل لصاحب الصوف إلا من ... » فقيل يارسول الله إلا من تزمت نفسه عن الدنيا وأبغض المذمة واستحب المذمة<sup>(٢)</sup> وهذا شديد جداً ، وغاية أمثاله الطمع في الحالة الثانية ، وهو أن يضر الفرح والكرامة على الذام والمادح ، ولا يظهر ذلك بالقول والعمل ، فأما الحالة الثالثة وهي التسوية بين المادح والذام فلسنا نطمع فيها . ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية فإنها لا تقي بها ، لأنها لا بد وأن تتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته ، وتتأفل على إكرام الذام والتأنت عليه وقضاء حوائجه ، ولا قدر على أن نسوى بينهما في الفعل الظاهر كما لا تقدر عليه في سريرة القلب ، ومن قدر على التسوية بين المادح والذام في ظاهر الفعل فهو جدير بأن يأخذ قدوة في هذا الزمان إن وجد فإنه الكبريت الأحمر يتحدث الناس به ولا يرى ، فكيف بما بعده من المرتبتين ؟ وكل واحدة من هذه الرتب أيضاً فيها درجات . أما الدرجات في المدح فهو أن من الناس من ينجي المذمة والتناء وانتشار الصيت ، فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرآى بالعبادات ، ولا يزال بمقارفة المخطورات لاستئالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح ، وهذا من المالكين . ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات ، ولا يياشر المخطورات ، وهذا على شفا جرف هار ، فإن حدود الكلام الذي يستعمل به القلوب وحدود الأعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك أن يقع فيما لا يحل لئيل الخلد ، فهو قريب من المالكين جداً . ومنهم من لا يريد المذمة ولا يسمى لطبها ، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه ، فإذا لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكرامة فهو قريب من أن يستجره فرط السرور إلى الرتبة التي قبلها ، وأن جامد نفسه في ذلك وكلف قلبه الكرامة وبغض السرور إليه بالتفكر في آفات المدح ، فهو في خطر المجاهدة ، فتارة تكون إليه له وتارة تكون عليه . ومنهم من إذا سمع المدح لم يسر به ولم يتمم به ولم يؤثر فيه وهذا على خير ، وإن كان قد بقي عليه بقية من الإخلاص . ومنهم من يكره المدح إذا سمعوا ولكن

(١) حديث « رأس التواضع أن يكره أن يذكر بالبر والتقوى » لم أجده أصلاً . (٢) حديث « ويل للسامع وويل لصاحب الصوف ... الحديث » لم أجده هكذا وذكر صاحب القردوس من حديث أنس « ويل لمن لبس الصوف غفالف فله قوله » ولم يخرجوه وله في مسنده .

لا يثبت به إلى أن يغضب على المادح ويشكر عليه ، وأقصى درجاته أن يكره ويغضب ويظهر الغضب وهو صادق فيه لأن يظهر الغضب وقلبه يحب له ، فإن ذلك عين التفات ، لأنه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص والصديق وهو مفلس عنه ، وكذلك بالمدح من هذا تفاوت الأخوال في حق الغلام ، وأول درجاته إظهار الغضب وآخرها إظهار الفرح ولا يكون الفرح وإظهاره إلا ممن في قلبه حق وحقد على نفسه لقرعها عليه وكثرة عيوبها ومواعيدها الكاذبة وتليساتها الخبيثة فيغضبها بغض العدو ، والإنسان يفرح ممن يلم عدوه ، وهذا شخص عدوه نفسه فيفرح إذا سمع ذمها ويشكر الغلام على ذلك ويمتدح نفسه وذكاه لما وقف على عيوبها ، فيكون ذلك كالتفتي له من نفسه ويكون غنيمته عنده إذا صار بالمذمة أوضع في أعين الناس حتى لا يجل يفتنه الناس ، وإذا سيق إلى حسنة لم ينصب فيها فصاء يكون خيراً لمسيوبه التي هو عاجز عن إصاها ، ولو جاهد المرید نفسه طول عمره في هذه الحصلة الواحدة وهو أن يستوى عنده ذامه ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ منه لغيره ، وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة هذه إحداها ، ولا يقطع شيئاً منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل .

### الشرط الثاني من الكتاب : في طلب الجاه والمزلة بالمبادات

وهو الرياء : وفيه بيان ذم الرياء ، وبيان حقيقة الرياء وما يراى به ، وبيان درجات الرياء ، وبيان الرياء الحق وبيان ما يحيط بالعمل من الرياء وما لا يحيط ، وبيان دواء الرياء وعلاجه ، وبيان الرخصة في إظهار الطاعات وبيان الرخصة في كتمان الذنوب . وبيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء والآفات ، وبيان ما يصح من نفاط العبد للمبادات بسبب رغبة الخلق ، وبيان ما يجب على المرید أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبعدها . وهي عشرة أصول وبقائه التوفيق .

### بيان ذم الرياء

اعلم أن الرياء حرام والمرأى عند الله عقوبت ، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار . أما الآيات : فقوله تعالى ﴿ فويل للصلين الذين هم من صلاتهم ساهون الذين هم يراون ﴾ وقوله عز وجل ﴿ والذين يكررون الليثات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾ قال مجاهد : هم أهل الرياء . وقال تعالى ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ فمدح المتخلصين ببق كل إرادة سوى وجه الله ، والرياء منه وقال تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ <sup>(١)</sup> نزل ذلك فيمن يطلب الأجر والحد بعبادته وأعماله .

وأما الأخبار : فقد قال عليه السلام حين سأله رجل فقال : يا رسول الله فم النجاة ؟ فقال « أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس » وقال أبو هريرة في حديث الثلاثة - المقتول في سبيل الله والمصدق بماله والقارئ لكتاب الله ، كما أوردناه في كتاب الإخلاص - وإن الله عز وجل يقول لكل واحد منهم : كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ، كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ، كذبت بل أردت أن يقال فلان قاري . فأخبر عليه السلام أنهم يتأبوا

(١) حديث : نزول قوله تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية فيمن يطلب الآخرة والحد بعبادته وأعماله . أخرجه الحاكم من حديث طاوس : قال رجل إنى أقف للوقوف أبنتى وجه الله وأحب أن يرى موطنى فلم يرد عليه حتى زلت هذه الآية . هكذا في نسخة من المستدرک وله سقط منه ابن عباس أو أبو هريرة ، وللبزار من حديث معاذ بسند ضعيف « من صام رياء قد أشرك ... الحديث » وفيه : أنه عليه السلام تلا هذه الآية .

وأن رباءهم هو الذي أحبط أعمالهم<sup>(١)</sup> وقال ابن عمر رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ «من رآى رابى رأى الله به ومن سمع مع الله به<sup>(٢)</sup>» وفي حديث آخر طويل «إن الله تعالى يقول للأنبياء إن هذا لم يردى بعمله فأجملوه في سبعين<sup>(٣)</sup>» وقال ﷺ «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال «الرباء» يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: انهبوا إلى الذين كنتم ترابون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندم الجواز<sup>(٤)</sup>» وقال ﷺ «استعينوا بالله عز وجل من جب الحزن» قيل وما هو يا رسول الله؟ قال «وإدنى جهنم أعد للقرء المرائين<sup>(٥)</sup>» وقال ﷺ «يقول الله عز وجل: من عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فهو له كلف وأنا منه برىء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك<sup>(٦)</sup>» وقال عيسى المسيح ﷺ: إذا كان يوم صوم أحدكم فليمن رأسه وليحت به ويسح شفعية لئلا يرى الناس أنه صائم، وإذا أعلى يمينه فليخف عن شماله، وإذا صلى فليرخ ستر ياه فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق.

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «لا يقبل الله عز وجل عملا يقبله مثقال ذرة من رباء» وقال عمر لعاذبن جبل حين رآه يبكي: ما يبكيك؟ قال: حديث سمعت من صاحب هذا القبر يعني النبي ﷺ يقول «إن أدنى الرباء شرك<sup>(٧)</sup>» وقال ﷺ «أخوف ما أخاف عليكم الرباء والشهوة الخفية<sup>(٨)</sup>» وهى أيضا ترجع إلى خطايا الرباء ودقائقه وقال ﷺ «أن فى ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلا تصدق بيمينه فكاد ينقضها عن شماله<sup>(٩)</sup>» ولذلك ورد «أن فضل عمل السرى على عمل الجهر بسبعين ضعفا<sup>(١٠)</sup>» وقال ﷺ «إن المرائى نادى عليه يوم القيامة يا فاجر يا غدار يا مرائى ضل عملك وحبط أجرك انهب فلذ أجرك من كنت تعمل له<sup>(١١)</sup>» وقال شداد بن أوس: رأيت النبي ﷺ يبكي فقلت ما يبكيك يا رسول الله؟

(١) حديث: أبى هريرة فى الثلاثة: للقتول فى سبيل الله وللتصدق بماله والقارىء لكتابه فإن الله تعالى يقول لكل واحد منهم كذبت. رواه مسلم وسيأتى فى كتاب الإخلاص. (٢) حديث ابن عمر «من رآى رابى رأى الله به ومن سمع مع الله به» متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله، وأما حديث ابن عمر فرواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب من رواية شيخ يكنى أبى يزيد عنه بلفظ «من سمع الناس سمع الله به سامع خلقه وحقره وصغره» وفى الزهد لابن المبارك ومسنند أحمد بن منيع لأنه من حديث عبد الله بن عمر (٣) حديث «إن الله يقول للأنبياء إن هذا لم يردى بعمله فأجملوه فى سبعين» أخرجه ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه ابن أبى الدنيا فى الإخلاص وأبو الشيخ فى كتاب العظيمة من رواية حمزة بن حبيب مرمرلا ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات (٤) حديث «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر... الحديث» أخرجه أحمد والبيهقى فى الشعب من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات ورواه الطبرانى من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج. (٥) حديث «استعينوا بالله من جب الحزن» قيل وما هو؟ قال «وإدنى جهنم أعد للقرء المرائين» أخرجه الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث أبى هريرة وضعفه ابن عدى. (٦) حديث «يقول الله من عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فهو له كلف... الحديث» أخرجه مالك واللفظ له من من حديث أبى هريرة دون قوله «وأنا منه برىء» ومسلم مع تقديم وتأخير دونها أيضاً وهى عند ابن ماجه بسند صحيح. (٧) حديث «لا يقبل الله عملا فيه مقدار ذرة من رباء» لم أجده هكذا. (٨) حديث معاذ «إن أدنى الرباء شرك» أخرجه الطبرانى هكذا والحاكم بلفظ «إن البسير من الرباء شرك» وقد تحتم. (٩) حديث «أخوف ما أخاف عليكم الرباء... الحديث» تحتم فى أول هذا الكتاب. (١٠) حديث «إن فى ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلا تصدق بيمينه فكاد أن ينقضها عن شماله» متفق عليه من حديث أبى هريرة بنحوه فى حديث «سبعة يظلمهم الله فى ظله». (١١) حديث: فضيل عمل السرى على عمل الجهر بسبعين، ضعفه البيهقى فى الشعب من حديث أبى الدرداء «إن الرجل ليعمل العمل فيكتب له عمل صالح معصوم به فى السرى ينصف أجره سبعين ضعفا» قال البيهقى هذا من أفراد بقة عن شيوخه المجهولين، وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف «يفضل الذكر الحفى الذى تسمعه الحفظة سبعين درجة». (١٢) حديث «إن المرائى نادى يوم القيامة يا فاجر يا غدار يا مرائى ضل عملك وحبط أجرك... الحديث» أخرجه ابن أبى الدنيا من رواية جيلة البصري عن صحابى لم يسم وزاد «يا كافر يا خاسر» ولم يقل «يا مرائى» وإسناده ضعيف.

قال «إني تخوفت على أمتي الشرك أما أنهم لا يعبدون صنما ولا شمساً ولا قرأ ولا حيراً ولكنهم يرامون بأعمالهم»<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «لما خلق الله الأرض مادت بأهلها خلق الجبال صهيراً وأتادا للأرض ، فقالت الملائكة : ما خلق ربنا خلقاً هو أشد من الجبال ، خلق الله الحديد قطع الجبال ، ثم خلق النار فأذابت الحديد ، ثم أمر الله الماء بإطفاء النار ، وأمر الريح فكشورت الماء ، فاختلفت الملائكة فقالت : يسأل الله تعالى ، قالوا : يارب ما أشد ما خلقت من خلقك ؟ قال الله تعالى لم أخلق خلقاً هو أشد على من قلب ابن آدم حين يتصدق بصدقة يمينه فيخضعها عن شماله فهذا أشد خلقاً خلقته»<sup>(٢)</sup> وروى عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل أنه قال لماذ بن جبل : حدثني حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فبكي معاذ حتى غلظت أنه لا يسكت ثم سكت ثم قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال لي «يا معاذ» قلت لبيك بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال «إني محدثك حديثاً إن أنت حفظته ففعلك وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انتقضت حجتك عند الله يوم القيامة ، يا معاذ إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض ، ثم خلق السموات بحصل لكل سماء من السبعة ملكاً يروا بها عليها قد جعلها عظماً فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى حين أمسى ، له نور كنور الشمس ، حتى إذا صعدت به إلى السماء الدنيا زكته فمذخرته فيقول الملك الحفظة : اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه ، أنا صاحب الغيبة أمرني ربي أن لا أدمع عمل من اغتاب الناس بماوردي إلى غيري» قال «ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد تشر به فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا أمرني ربي أن لا أدمع عمله بماوردي إلى غيري إنه كان يفتخر به على الناس في مجالسهم» قال «وتصعد الحفظة بعمل العبد ينتهج نوراً من صدقة وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزون به إلى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه ، أنا ملك الكبير أمرني ربي أن لا أدمع عمله بماوردي إلى غيري إنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم» وقال «وتصعد الحفظة بعمل العبد يهرج كما يهرج الكوكب الذي له دوى من تسبيح وصلاة وحج وعمره حتى يجاوزوا به إلى السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به ظهره وبطنه ، أنا صاحب العجب أمرني ربي أن لا أدمع عمله بماوردي إلى غيري إنه كان إذا عمل عملاً أدخل العجب في عمله» قال «وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة إلى أهلها فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه أنا ملك الحسد إنه كان يحسد الناس من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلاً من العبادة يحسدهم ويقع فيهم ، أمرني ربي أن لا أدمع عمله بماوردي إلى غيري» قال «وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمره وصيام فيجاوزون بها إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لا يرحم إنساناً قط من عباد الله أصابه بلاء أو ضر أضر به بل كان يثمت به ، أنا ملك الرحمة أمرني ربي أن لا أدمع عمله بماوردي إلى غيري» قال «وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة وقفة وزكاة واجتهاد وروح لهدوى كدوى العدو حذوه كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل

(١) حديث شدد بن أوس «إني تخوفت على أمتي الشرك... الحديث» أخرجه ابن ماجه والحاكم نحوه وقد تقدم قريباً .

(٢) حديث «لما خلق الله الأرض مادت بأهلها... الحديث» وفيه «لم أخلق خلقاً هو أشد من ابن آدم يتصدق بيمينه فيخضعها عن شماله» أخرجه الترمذي من حديث أنس مع اختلاف وقال غريب .

وجه صاحبه ، اضربوا به جوارحه اقبلوا به على قلبه إلى أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به وجهه ربي أنه أراد بعمله غير الله تعالى ، إنه أراد رفعة عند الفقهاء وذكرنا عند العلماء وصيحا في المدائن ، أمرني ربي أن لا أدم عمله بماورني إلى غيري ، وكل عمل لم يكن لله خالصا فهو رياء ولا يقبل الله عمل الرائي » قال « وتصدق الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتسيمة ملائكة السموات حتى يقطعوا به الحب كلها إلى الله عز وجل فيقنن بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله » قال « فيقول الله لهم أتم الحفظة على عمل عبيدي وأنا الرقيب على نفسه إنه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري فعليه لعنة ، فتقول الملائكة لهم : عليه لعنتك ولعنتنا ، وتقول السباوات كلها : عليه لعنة الله ولعنتنا وتلثم السباوات السبع والأرض ومن فبين » قال معاذ : قلت يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ قال « اقتد بي وإن كن في عملك نقص ، يا معاذ حافظ على لسانك من الرقعة في إخوانك من حلة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم ولا ترك نفسك بنهمهم ولا ترفع نفسك عليهم ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة ولا تتكبر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خلقك ، ولا تاج رجلا وعندك آخر ، ولا تعظم على الناس فيقطع عنك خير الدنيا ، ولا تترق الناس تصرفك كلاب النار يوم القيامة في النار قال الله تعالى ( والتناشطات لفظا ) أعدي من من يا معاذ ؟ قلت : ما من بأبي أنت وأمي يا رسول الله ؟ قال « كلاب في النار تنشط اللحم والعظم » قلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله فن يطبق هذه الحاصل ومن ينحو منها ؟ قال « يا معاذ إنه ليسر على من يسره الله » قال فأريت أكثر تلاوة القرآن من معاذ الجندر بما في هذا الحديث .

وأما الآثار : فيروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رجلا يظأى رقبته فقال : يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب . ورأى أبو أمامة الباهلي رجلا في المسجد يبكي في سجوده فقال أنت أنت لو كان هذا في بيتك . وقال على كرم الله وجهه : للرائ ثلاث علامات ؛ يكسل إذا كان وحده وينشط إذا كان في الناس ويريد في العمل إذا أتى عليه وينقص إذا تم . وقال رجل لعبادة بن الصامت : أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد به وجهه لله تعالى ومحمد الناس ، قال : لا شيء لك ، فساء ثلاث مرات كل ذلك يقول : لا شيء لك ، ثم قال في الثالثة : إن الله يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ... الحديث وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال : إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمده ويؤجر . فقال له : أحب أن تمقت ؟ قال : لا ، قال : فإذا عملت لله عملا فأخلصه . وقال الضحاک : لا يقول أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك ولا يقول هذا لله وللرجم ، فإن الله تعالى لا يشريك له .

وضرب عمر رجلا بالردة ثم قال له : اقص مني ! فقال : لا بل أدمها لله ولك . فقال له عمر : ما صنعت شيئا إما أن تمصها لي فأعرف ذلك أو تمصها لله وحده . فقال : ودعها لله وحده ، فقال : فتمم إذن . وقال الحسن : لقد صحبت أفراما إن كان أحدم تعرض له الحكمة لو نطق بها لفتته ونقعت أصما به وما يمنه منها إلا عظة الشهرة وإن كان أحدم لير فقيرى الآتى في الطريق فإيمنه أن ينحيه إلا عظة الشهرة ويقال : إن المرأى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء يامرأى يا غادر يا خاسر يا فاجر اذهب بخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا . وقال الفضيل بن عياض : كانوا يرأون بما يملون ونصاروا اليوم يرأون

(١) حديث معاذ الطويل « ان الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض فجعل لكل سماء من السبعة ملكا بوابا عليها ... الحديث بطوله في صعود الحفظة بعمل العبد ورد للملائكة له من كل سماء ورد الله تعالى له بعد ذلك عزاء الصنف إلى رواية عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل عن معاذ وهو كما قال رواه في الزهد وفي إسناده كما ذكر من لم يسم ، رواه ابن الجوزى في الموضوعات .



بملا يعملون . وقال عكرمة : إن الله يعطي العبد على قته مالا يعطيه على عمله لأن الثنية لا يراهي فيها . وقال الحسن رضي الله عنه : المرائي يريد أن يثلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح ، وكيف يقولون وقد حل من ربه عمل الأبدية ؟ فلا بد لقلوب المؤمنين أن تعرفه . وقال قتادة : إذا رآي العبد يقول الله تعالى انظروا إلى عبدتي يستهزيء بي . وقال مالك بن دينار : القراء ثلاثة قراء الرحمن وقراء الدنيا وقراء الملوك ، وأن محمد بن واسع من قراء الرحمن . وقال الفضيل : من أراد أن ينظر إلى حراء فليتنظر إلى . وقال محمد بن المبارك الصوري : أظهر السمات بالليل فإنه أشرف من سمك باتهار لأن السمات باتهار المخلوقين وسمت الليل لرب العالمين . وقال أبو سليمان : التوفى عن العمل أشد من العمل . وقال ابن المبارك : إن كان الرجل ليعطى بالبيت وهو بخراسان ، فليل له وكيف ذاك ؟ قال يجب أن يذكر أنه مجاور بمكة . وقال إبراهيم بن آدم : ما صدق الله من أراد أن يشتهر .

### بيان حقيقة الرياء وما يراهي به

اعلم أن الرياء مشتقة من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع ، وإعمال الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإبراهيم خصال الخير إلا أن الجاهل والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات . واسم الرياء مخصص بحكم العادة يطلب المنزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها . فحده الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله ، فالمرأى هو العابد والمرأى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم ، والمرأى به هو الخصال التي قصد المرائي إظهارها ، والرياء هو قصده إظهار ذلك ، والمرأى به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهي بجامع ما يزين به العبد للناس وهو البدن ، والوحي ، والقول ، والعمل ، والأبواب والأشياء الخارجة . وكذلك أهل الدنيا يراءون بهذه الأسباب الخمسة إلا أن طلب الجاهل وقصده الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون الرياء بالطاعات .

( القسم الأول ) الرياء في الدين بالبدن : وذلك بإظهار التحول والصغار ليوم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة ، وليلد بالتحول على قلة الأكل وبالصغار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين ، وكذلك يرائي بتشميت الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر . وهذه الأسباب مهما ظهرت استدلت الناس بها على هذه الأمور فارتاحت النفس لمعرفتهم ، فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لتليل تلك الراحة . ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين ، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، وأن وقار الشرح هو الذي خفض من صوته وأضعف الجرح هو الذي ضعف من قوته . وعن هذا قال المسيح عليه السلام : إذا صام أحدكم فليدفع رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه . وكذلك روى عن أبي هريرة وذلك كله لما يخاف عليه من نزح الشيطان بالرياء ، ولذلك قال ابن مسعود أصبوا صياما مدهنين . فهذه مرآة أهل الدين بالبدن .

فأما أهل الدنيا فيراءون بإظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه ونظافة البدن وقوة الأعضاء وتناسها .

( الثاني ) الرياء بالميتة والوحي : أما الميتة فتشميت شعر الرأس وحقن الشارب وإطراق الرأس في المشي والهدوء في الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه وغلط الثياب وليس الصوف وتشهيرها إلى قريب من الساق وتقصير الأكام وترك تنظيف الثوب وترك غرقا ، كل ذلك يرائي به ليظهر من نفسه أنه متبع لسنة فيه ومتنفذ فيه بعبادة الأكام وترك تنظيف الثوب وترك غرقا ، كل ذلك يرائي به ليظهر من نفسه أنه متبع لسنة فيه ومتنفذ فيه بعبادة

الصالحين ، ومن ذلك لبس المرقمة والصلاة على السجادة وليس الثياب الزرق تشبه بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوف في الباطن . ومنه التمتع بالإزار فوق الهامة وإسبال العيتين ليرى به أنه قد انتهى تقشفه إلى الحد من غيار الطريق ، ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة . ومنه الدراعة والعيلسان يلبسه من هو خال عن العلم ليوم أنه من أهل العلم .

والمرادون بالرى على طبقات : فمنهم من يطلب منزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة من القصيرة النليظة ليرأى بخلها ووجعها وقصرها وتخرفها أنه غير مكترث بالدنيا ، ولو كلف أن يلبس ثوبا وسطا نظيفا عما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذئب ، وذلك لحرفه أن يقول الناس قد بدأ لمن الزهد ورجع عن تلك الطريقة ووعبى الدنيا ، وطبقة أخرى يطلبون التقبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدين من الملوك والوزراء والتجار ، ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردم القراء ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة ازدريهم أعين الملوك والأغنياء ، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا ، فذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والآكسية الرقيقة والمرقات المصبوغة والقوط الرفيعة فيلبسوها ، ولم قيمة ثوب أحد الأغنياء ولونه وهياته لون ثياب الصلحاء فيلتبسون القلوب عند القريقين ، وهؤلاء إن كلفوا لبس ثوب غثن أو وسخ لكان عندهم كالذئب خوفا من السقوط من أعين الملوك والأغنياء ، ولو كلفوا لبس الديبى والسكتان الدقيق الأبيض والمقصب المعلم - وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم - لعظم ذلك عليهم خوفا من أن يقول أهل الصلاح قد رغبوا في رى أهل الدنيا . وكل طبقة منهم رأى منزله في رى خصوص فيثقل عليه الانتقال إلى مادونه أو إلى ما فوقه وإن كان مباحا خيفة من المذمة .

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرفيعة وأنواع التوسع والتجمل في اللبس والمسكن وأثاث البيت وفره الخيول وبالثبات المصبغة والطايسة النفيسة ، وذلك ظاهر بين الناس فأينهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة ويستدع عليهم لو برزوا الناس على تلك الهيئة مالم يبالغوا في الزينة .

( الثالث ) الرياء بالقول : ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار ، لأجل الاستعمال في المحاورة وإظهاراً لفزارة العلم ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين ، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق ، وإظهار الغضب للمعصيات وإظهار الأسف على مقارنة الناس المعاصي وتضعيف الصوت في الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن ، ليدل بذلك على الخوف والحرز ، وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ واللق على من يروى الحديث ببيان خلل في لفظه ليعرف أنه بصير بالأحاديث والمبادأة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه ، والمجادلة على قصد إلحاح الخصم ليظهر للناس قوته في علم الدين . والرياء بالقول كثير وأنواعه لا تنحصر .

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والنصائح في المبارات وحفظ النحو الغريب للأغراب على أهل الفضل وإظهار التودد إلى الناس لاستئالة القلوب .

( الرابع ) الرياء بالعمل : كراءة المصلى بطول القيام ومد الظهر وطول السجود والركوع وإطراق الرأس وترك الالتفات وإظهار الهدوء والسكون وتسوية القدمين واليدين وكذلك بالصوم والغزو والحج وبالصدقة وإطعام الطعام ، وبالإختبات في المشي عند اللقاء كإرخاء الجفون وتكسيك الرأس والرقار في الكلام ، حتى إن المرأى قد يسرع في المشي إلى حاجته فإذا أطلع عليه أحسن أهل الدين رجوع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفا من

أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقت، فإن غاب الرجل عاد إلى مجلته، فإذا رآه عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يحمده الخشوع له، بل هو لإطلاح إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والمصلحاء، ومنهم من إذا سمع هذا استحياء من أن يخالف مشيته في الخلوة بحيث يرى من الناس، فيكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة حتى إذا رآه الناس لم يفترق إلى التنهيد ويظن أنه يتخلص به عن الرياء وقد تضاعف به ريأؤه، فإنه صار في خلوته أيضاً مرايياً فإنه إنما يحسن مشيته في الخلوة ليكون كذلك في الملا لا لحوف من الله وحياء منه.

وأما أهل الدنيا فرأواهم بالتبخر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطأ والأخذ بأطراف الأدليل وإدارة المعطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة.

(الخامس) المرادة بالأصحاب والزائرين والمخالطين: كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء ليقال إن فلانا قد زار فلانا، أو عابداً من العباد ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون إليه، أو ملكاً من الملوك أو عاملاً من عمال السلطان ليقال إنهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين، وكالذي يكثر ذكر الشيوخ ليرى أنه لقي شيوخاً كثيرة واستفاد منهم فيباهي بشيوخه ومباهاته ومراداته تترشح منه عند غاصته، فيقول لغيره: من لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلانا وفلانا ودرت البلاد وخطمت الشيوخ؟ وما يجري مجراه. فهذه جماع ما يرأى به المرادون وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد. ومنهم من يفتن بحسن الاعتقادات فيه فكأن من راهب أنزوى إلى دهره ستين كثيرة؟ وكأن من عابد اعتزل إلى قلة جل مدة مديدة، وإنما خباياه من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق ولو عرف أنهم نسبوه إلى جرعة في دهره أو صومعة لتفوش قلبه ولم يفتن بعلم الله براءة ساحة، بل يشتد لذلك غمه ويسمى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم، مع أنه قد قطع طمعه من أموالهم ولكنه يحب مجرد الجاه - فإنه لئذ كما ذكرناه في أسبابه - فإنه نوع قدرة وكال في الحال وإن كان سريع الروال لا يفتنه إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال، ومن المرائين من لا يفتن بقيام منزله بل يفتن مع ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد. ومنهم من يريد انتصار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة إليه. ومنهم من يريد الانتصار عند الملوك لتقبل شفافته وتجر المحاميل على يده فيقوم له بذلك جاهه عند العامة، ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولون الأوقاف وأموال يتامى وغير ذلك من الحرام، وهؤلاء شربطقات المرائين الذين يرامون بالأسباب التي ذكرناها. فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء.

فإن قلت: فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل؟ فأقول فيه تفصيل فإن الرياء هو طلب الجاه، وهو إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات، فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنه كسب قليل من المال وهو ما يحتاج إليه الإنسان عمود فتكسب من الجاه هو ما يسلم به عن الآفات أيضاً محمود، وهو الذي عليه يوسف عليه السلام حيث قال (إني حفيظ عليم) وكأن المال فيه سم قاتع ودرباق نافع فكذلك الجاه، وكأن كثير المال يلهم ويطنى وينى ذكر الله والدار الآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشد، وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال، وكأن لا تقول تملك المال الكثير حرام فلا تقول أيضاً تملك القلوب الكثيرة حرام إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز. نعم انصراف الهم إلى سمة الجاه مبدأ الشرور كأنصراف الهم إلى كثرة المال، ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها، وأما سمة الجاه من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتنام بزواله فإن زال فلا ضرر فيه، فلا جاء أوسع من جاء رسول الله ﷺ وجه الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين.

ولكن انصرف الهم إلى طلب الجاه تقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم ، قبل هذا قول : تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراعاة وهو ليس بحرام لأنه ليس رياء بالعبادة بل بال دنیا ، وقس على هذا كل يحمل الناس وتزين لهم . والدليل عليه ما روى عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ أراد أن يخرج يوما إلى الصحابة فكان ينظر في حب الماء ويسوى عمامته وشعره فقالت : أو تفعل ذلك يا رسول الله ؟ قال نعم إن الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج إليهم (١) .

نعم هذا كان من رسول الله ﷺ عبادة لأنه كان مأمورا بدعوة الخلق وترغيبهم في الاتباع واستمالة قلوبهم ، ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتباعه . فكان يجب عليه أن يظهر لهم عمارته لئلا تزده أعينهم . فان أعين عوام الخلق تمتد إلى الظواهر دون السرائر ، فكان ذلك قصد رسول الله ﷺ ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه في أعينهم خذرا من ذمهم ولو مهم واسترواحا إلى توفيرهم واحترامهم كان قد قصد أمرا مباحا ، إذ للإنسان أن يحترز من ألم اللذنة ويطلب راحة النفس بالإخوان . ومهما استثقلوه واستغفروه لم يأثم بهم .

فأذن المراءاة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة ، وقد تكون طاعة ، وقد تكون مذمومة ، وذلك بحسب الغرض المطلوب بها . ولذلك تقول : الرجل إذا أتق ما له على جماعة من الأغنياء لا في مرض العباداة والصدقة ولكن ليحقد الناس أنه سخي فهذا مرااة وليس بحرام وكذلك أمثاله .

أما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والنفرة والحج فللمرائي فيه حالتان إحداها : أن لا يكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر ، وهذا يطل عبادة لأن الأعمال بالنيات ، وهذا ليس بقصد العباداة ، ثم لا يقتصر على إحباط عبادته حتى نقول صار كما كان قبل العباداة بل يعصى بذلك ويأثم كما دلت عليه الأخبار والآيات .

والعنى فيه أمران (أحدهما) يتعلق بالعباد وهو التلبس والمكر لأنه خيل إليهم أنه غلص مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك ، والتلبس في أمر الدنيا حرام أيضا ، حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليمتدوا سخرته أثم به لما فيه من التلبس وتملك القلوب بالخداع والمكر . (والثاني) يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد عبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزئ بالله . ولذلك قال قتادة : إذا رأى العبد قال الله ملائكة انظروا إليه كيف يستهزئ .

ومثاله أن يمثل بين يدي ملك الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم وانما وقوفه للملاحظة جارية من جوارى الملك أو غلام من غلاته ، فان هذا استهزاء بالملك إذ لم يقصد التقرب إلى الملك بخدمة بل يقصد بذلك عدا من عبيده فأى استحقاق يريد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مرااة عبد ضعيف لا يملك له ضرا ولا نفعا ؟

وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله ؟ وأنه أولى بالتقرب إليه من الله إذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادة ؟ وأى استهزاء يريد على رفع العبد فوق الملوك ؟ فهذا من كبار المهلكات ولهذا

(١) حديث عائشة : أراد أن يخرج على أصحابه وكان ينظر في حب الماء ويسوى عمامته وشعره . . . الحديث أخرجه ابن عدى في الكامل وقد تقدم في الطهارة .

سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشريك الأصغر (١).

نعم بعض درجات الرياء أشد من بعض — كما سيأتي بيانه في درجات الرياء إن شاء الله تعالى — ولا يغفل عن أنه غلط أو خفيف بحسب ما به من المראה ولو لم يكن في الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله فقد قصد غير الله، ولعمري لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفرًا جليًا، إلا أن الرياء هو الكفر الحق لأن المرأى عظم في قلبه الناس، فاقضت تلك العظمة أن يسجد ويركع فكان الناس هم المخطئون بالسجود من وجه. وهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقي تعظيم الحق كل ذلك قريبًا من الشرك، إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم، فمن هذا كان شركًا خفيًا لا شركًا جليًا، وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان وأومئ عنه أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه وأجله ومصالح حاله وماله أكثر مما يملكه الله تعالى، فذلك عدل بوجهه عن الله إلههم وأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم، ولو وكله الله تعالى إلههم في الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه، فإن العباد كلهم عاجزون عن أن تقسم لا تقسم تمامًا ولا ضراً فكيف يملكون فهمهم هذا في الدنيا؟ فكيف في يوم لا يحصى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً بل تقول الأنبياء فيه قسى قسى؟ فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله ما يرتقيه بطلعه الكاذب في الدنيا من الناس. فلا ينبغي أن تفك في أن المرأى طاعة الله في سخط الله من حيث النقل والقياس جميعاً. هذا إذا لم يقصد الأجر فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعاً في صدقه أو صلاته فهو الشرك الذي يناقض الإخلاص. وقد ذكرنا حكمه في كتاب الإخلاص، ويدل على ما قلنا من الآثار قول سعيد بن المسيب وعبادة بن الصامت: إنه لا أجر له فيه أصلاً.

### بيان درجات الرياء

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض، واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه. وأركانها ثلاثة: المرأى به والمرأى لأجله ونفس قصد الرياء. الركن الأول: نفس قصد الرياء، وذلك لا يخلو إما أن يكون مجرداً دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب، وإما أن يكون مع إرادة الثواب، فإن كان كذلك فلا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العبادة فتكون الدرجات أربعة.

(الأول) وهي أغلظها أن لا يكون مراده الثواب أصلاً، كالذي يصلي بين أظهر الناس ولو اتقرد لكان لا يصل بل ربما يصلي من غير طهارة مع الناس، فهذا مجرد قصده إلى الرياء فهو المفقوت عند الله تعالى. وكذلك من يخرج الصدقة خوفاً من نمرة الناس وهو لا يقصد الثواب ولو خلا بنفسه لما أداها فهذه الدرجة العليا من الرياء.

(الثانية) أن يكون له قصد الثواب أيضاً ولكن قصداً ضعيفاً، بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله، ولا يحمله ذلك القصد على العمل، ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل، فهذا قريب مما قبله وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل لا يبنى عنه المقت والإثم.

(١) حديث: سمى الرياء الشريك الأصغر. أخرجه أحمد من حديث محمود بن ليد وقد تقدم درواه الطبراني من رواية محمود بن ليد عن رافع بن خديج فجعله في مسند رافع وتقدم قريباً ولما حكم وصحح إسناده من حديث شداد بن أوس: كنا نعد على عهد رسول الله ﷺ أن الرياء الشريك الأصغر.

(الثالثة) أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين ، بحيث لو كان كل واحد منهما خاليا عن الآخر لم يثبت على العمل فلما اجتمعا انبثقت الرغبة ، أو كان كل واحد منهما لو انقرد لاستل بمحمله على العمل ؛ فهذا قد أفسد مثل ما أصحح فزجرو أن يسلم رأسا برأس لاه ولا عليه ، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم ، وقد تكلمنا عليه في كتاب الإخلاص .

(الرابعة) أن يكون اطلاع الناس مرجحا ومقويا لشاؤه ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة ولو كان قصد الرياء وحده لما أقسم عليه فالذي فطنه والعلم عند الله أنه لا يحيط أصل الثواب ولكنه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب وأما قوله وَيَسْأَلُ عَنْ رِئَاءِ النَّاسِ يقول الله تعالى أنا أغنى الأغنياء عن الشرك « فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أوجح .

الركن الثاني : المرادى به وهو الطامحات وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات وإلى الرياء بأوصافها .

القسم الأول وهو الأغلف : الرياء بالأصول وهو على ثلاث درجات .

(الأولى) الرياء بأصل الإيمان وهذا أغلف أبواب الرياء وصاحبه عظم في النار ، وهو الذي يظهر كلتي الشهادة وباطنه مشعور بالتكذيب ولكنه برأى بظاهر الإسلام ، وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى كقوله عز وجل ( إذا جاءك المنافقون قالوا تفهد لنا فهد لنا رسول الله يعلم أنك رسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ) أى في دلائهم بقولهم على ضيائهم وقال تعالى ( ومن الناس من يبيعك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ) الآية وقال تعالى ( وإذا تقوم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الفيلظ ) وقال تعالى ( يرادون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك ) والآيات فهم كثيرة ، وكان التفاف يكثر في ابتداء الإسلام ممن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداء لفرض ، وذلك مما يقل في زماننا ، ولكن يكثر تفاف من ينزل عن الدين باطنافيجسد الجنة والنار والدار الآخرة ميلا إلى قول الملحدة ، أو يعتقد على بساط الشرح والأحكام ميلا إلى أهل الإباضة ، أو يعتقد كفرا أو بدعة وهو يظهر خلافه ، فيؤلاه من المنافقين والمرائين المخلفين في النار ، وليس وراء هذا الرياء رياء ، وسال هؤلاء أشد حالا من المجاهرين ، فلإنهم جموعا يبن كفر الباطن وتفاق الظاهر .

(الثانية) الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين ، وهذا أيضا عظيم عند الله ولكنه دون الأولى بكثير . ومثاله : أن يكون مال الرجل في يد غيره فيأمره باخراج الزكاة خوفا من ذمه ، والله يعلم منه أنه لو كان في يده لما أخرجهما ، أو يدخل وقت الصلاة وهو في جمع وعادته ترك الصلاة في الخلوة ، وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر ، وكذلك يحضر الجمعة ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها ، أو يصل رحمه أو يبر والدبه لا عن رغبة ولكن خوفا من الناس ، أو يترى أو يبيع كذلك . فهذا مرأى مع أصل الإيمان بالله يعتقد أنه لا معبود سواه ، ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل ، ولكنه يترك العبادات للسكل وينشط عند اطلاع الناس فتكون منزلة عند الخلق أحب إليه من منزله عند الخالق ، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ، ورغبته في محبتهم أشد من رغبته في ثواب الله ، وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد .

(الثالثة) أن لا يراق بالإيمان ولا بالفرائض ، ولكنه يرائي بالتواضع والسكن التي لو تركها لا يعضى ، ولكنه يكمل عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها ولإيثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب ، ثم يعمه الرياء على فعلها ، وذلك بحضور الجماعة في الصلاة وعبادة المريض واتباع الجنائز وغسل الميت ، وكالتجهد بالليل وصيام يوم عرفة وطشوراء ويوم الاثنين والخميس . فقد فضل المراتى جملة ذلك خوفاً من المذمة أو طلباً للمحبة ، ويعلم الله تعالى أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض . فهذا أيضاً عظيم ولكنه دون ما قبله ، فإن الذى قبله أثر حمد الخلق على حمد الخالق . وهذا أيضاً قد فعل ذلك واتى ذم الخلق دون ذم الخالق ، فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله ، وأما هذا فلم يفعل ذلك لأنه لم يخف عقاباً على ترك الثالثة لو تركها ، وكأنه على الشغل من الأول وعقاب نصف عقابها . فهذا هو الرياء بأصول العبادات .

القسم الثانى : الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها ، وهو أيضاً على ثلاث درجات .

(الأول) أن يرائي بفعل ما فى تركه نقصان العبادة ، كالذى غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يظول القرامة ، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتمم القعود بين السجدين ، وقد قال ابن مسعود من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عز وجل ؛ أى أنه ليس يبالي بإطلاع الله عليه في الخلوة ، فإذا اطلع عليه أدى أحسن الصلاة ، ومن جلس بين يدي إنسان مترعباً أو مشككاً فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة كان ذلك منه تقدماً لقلام على السيد واستهانة بالسيد لاحالة . وهذا حال المراتى بتحسين الصلاة في الملا دون الخلوة وكذلك الذى يتباد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرديء فإذا اطلع عليه غيره أخرجهما من الجيد خوفاً من مذمته ، وكذلك الصائم يصوم صومه عن الغيبة والرقص لأجل الخلق لا لإكالا لعبادة الصوم خوفاً من المذمة ، فهذا أيضاً من الرياء المحذور لأن فيه تقدماً للخلقين على الخالق ، ولكنه دون الرياء بأصول التعلوات .

فإن قال المراتى : إنما فعلت ذلك صيانة لأستهم عن الغيبة ، فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالنم والغيبة ، وإنما قصدت صيانتهم عن هذه المصيبة ، فيقال له : هذه مكيدة الشيطان عندك وتلبس ، وليس الأمر كذلك ، فإن ضررك من نقصان صلاتك وهى خدمة منك لمولك أعظم من ضررك بغيبة غيرك ، فلو كان باعثك الدين لكأنك شفقتك على نفسك أكثر ، وما أنت في هذا إلا كمن يهوى وصيفة إلى ملك لئلا منه فضلا وولاية يتقلها ، فيهدى إليه وهى عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف ولا يبالي به إذا كان الملك وحده . وإذا كان عنده بعض غلامه امتنع خوفاً من مذمة غلامه ، وذلك عمال بل من يراعى جانب غلام الملك يبنى أن تكون مراقبته للملك أكثر .

نعم للرأى فيه حالتان : إحداهما أن يطلب بذلك المتزلة والمحبة عند الناس وذلك حرام قطعاً ، والثانية : أن يقول ليس يحضرني الإخلاص في تحسين الركوع والسجود ، ولو خففت كانت صلاتى عنهم نافعة وآذاني الناس بذهمهم وغيبهم ، فأستفيد بتحسين الهيئة دفع مذمتهم ولا أرجو عليه ثواباً ، فهو خير من أن ترك تحسين الصلاة فيمنوت الثواب وتحصل المذمة فهذا فيه أدنى نظر . والصحيح أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص ، فإن لم تحضره الثانية فينبى أن يستمر على عادته في الخلوة ، فليس له أن يدفع الذم بالمرأاة بطاعة الله فإن ذلك استهزاء كما سبق .

(الدرجة الثانية) أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه ولكن فعله في حكم النكلة والتمتع لعبادته ، كالتطويل في الركوع والسجود ومد القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبير الأولى وتحسين الاعتدال

والزيادة في القراءة على السور المعتادة . وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت ، وكاختيار الأجود على الجيد في الزكاة وإحتاق الرقة الغالية في الكفارة . وكل ذلك ما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه .

( الثالثة ) أن يرأى زيادات غارجة عن قس التوافل أيضاً كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول وتوجهه إلى بين الإمام وما يجرى مجراه . وكل ذلك ما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ومن يجرم بالاصلا ؟ فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما برأى به وببعضه أشد من بعض . والكل مذموم .

الركن الثالث : المرائي لأجله ، فإن للمرائي مقصوداً لأعاجله ، وإنما يرأى لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأراض لأعاجله ، وله أيضاً ثلاث درجات .

( الأولى ) وهي أشدها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من معصية ، كالذي يرأى بعبادته ويظهر التقوى والورع بكثرة التوافل والامتناع عن أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالأمانة فيقول القضاء أو الأرقاف أو الوسايا أو مال الأيتام فيأخذها أو يسلم إليه الزكاة أو الصدقات فيستأثر بما قد قدر عليه منها ، أو يودع الودائع فيأخذها ويحصدها ، أو تسلم إليه الأموال التي تتفق في طريق الحج فينزل بعضها أو كلها ، أو يتوصل بها إلى استبضاع الحجيج ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي . وقد يظهر بعضهم ذى النصف وهيته الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوض والتذكير وإنما قصده التحجب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور . وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وخلق القرآن يظهرون الرغبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان ، أو يخرج إلى الحج ومقصوده الظفر بمن في الرقة من امرأة أو غلام . وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلباً إلى معصيته واتخذوها آلة ومتجراً وبضاعة لهم في فسقهم ، ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم من هو مة زرف جرمية انهم بها وهو مصر عليها ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لئفى التهمة . كالذى يجمع ودعية واتهمه الناس بها فيصدق بالمال ليقال إنه يصدق بما له نفسه فكيف يستحل مال غيره ، وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى .

( الثانية ) أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة ، كالذى يظهر الحزن والبكاء ويشغل بالوض والتذكير لينزل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء ، فيقصد إما امرأة بعينها ليشكها أو امرأة شريفة على الجملة ، وكالذى يرغب في أن يتزوج بنت عالم عابد فيظهر له العلم والعبادة ليروغب في تزويجه ابنته . فهذا رياء محذور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول ، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه .

( الثالثة ) أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح ، ولكن يظهر عبادته خوفاً من أن ينظر إليه بمن النقص ، ولا يمد من الخاصة والزهاد ويعتقد أنه من جملة العامة ، كالذى يمشى مستجلاً فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة كيلا يقال إنه من أهل الهو والسو لامن أهل الوقار ، وكذلك إن سبق إلى الضحك أو بدا منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وإظهار الحزن ، ويقول ما أعظم غفلة الأذى عن نفسه ، والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يشغل عليه ذلك ، وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لابين التوقيه ، وكالذى يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون أو يصومون الخيس واللاتين أو يصدقون فيواقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام ، ولو خلا بنفسه لكان



لا يفعل شيئاً من ذلك ، كالذي يعطش يوم عرفة أو عاشوراء أو في الأشهر الحرم فلا يشرب خوفاً من أن يسلم الناس أنه غير صائم ، فإذا غلظوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله ، أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليقظ أنه صائم وقد لا يصح بأن يصاب صائم ولكن يقول : لي عذر ، وهو جمع بين خيئين ، فإنه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء ، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائياً فيريد أن يقال إنه سائر لعبادته ، ثم إن اضطر إلى شرب لم يصب من أن يذكر نفسه فيه عذراً تصريحاً أو تمريضاً بأن يشتمل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنع من الصوم ، أو يقول اضطلت تطليبا للقلب فلان ، ثم قد لا يذكر ذلك متصلاً بشره كي لا يظن به أن يعتذر رياء ، ولكنه يصبر ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضاً ؛ مثل أن يقول : إنا فلان نجب للاخوان . شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه وقد ألح على اليوم ولم يجد بداً من تطيب قلبه . ومثل أن يقول : إن أي ضعيفة القلب شفقة على تظن أني لو صمت يوماً مرضت فلا تدعني أصوم ، فهذا وما يجري مجراه من آفات الرياء فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن . أما المخلص فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه ، فإن لم يكن له رغبة في الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يمتدح غيره ما يخالف علم الله فيكون ملبساً ، وإن كان له رغبة في الصوم فله قطع بعلم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره ، وقد يحظر له أن في إظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه وفيه مكيدة وغرور . وسيأتي شرح ذلك وشروطه .

فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين وجميعهم تحت مقت الله وغضبه ، وهو من أشد المهلكات وإن من شدة أن فيه شوائب هي أخفى من ديب التمل كما ورد في الخبر ، يزل فيه حلول العباد فضلاً عن العباد المجهلاء بأفات النفوس وغوائل القلوب والله أعلم .

### بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من ديب النمل

اعلم أن الرياء مجلي وخفي ، فالجلى هو الذي يمتع على العمل ويحمل عليه لو قصد الثواب وهو أجله ، وأخفى منه قليلاً هو ما لا يحمل على العمل بمجرد ، إلا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله كالذي يتنادى بالتهجد كل ليلة ويثقل عليه فإذا نزل عنده خفيف تنشط له وخف عليه وعلم أنه لو لا رجا الثواب لمكان لا يصلي لمجرد رياء الضيفان وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا بالتيسيل والتخفيف أيضاً ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب ، ومهما لم يؤثر في النماء إلى العمل لم يكن أن يعرف إلا بالعلامات ، وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته قرب عبد مخلص في عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتمم العمل كذلك ، ولكن إذا أطلع عليه الناس سره ذلك وأرتاح له وروح ذلك من قلبه شدة العبادة ، وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور ، ولولا انفتاح القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس ، فلقد كان الرياء مستكناً في القلب استكنان النار في الحجر فأظهر عنه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور ، ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكرامة فيصير ذلك قوتا وغذاء للفرق الخفي من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية ، فيتقاضى تقاضياً خفياً أن يتكلم سبياً يطلع عليه بالتمريض وإلقاء الكلام عرضاً وإن كان لا يدعو إلى التصريح ، وقد يخفي فلا يدعو إلى الإظهار بالتعلق تمريضاً وتصريحاً ولكن بالتمايل ، كإظهار التحول والصفاء وخفض الصوت وبس الشفتين وجفاف الريق وآثار السموع وغلبة التماس على طول التهجد ، وأخفى من ذلك أن يخفي بحيث لا يريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يمدوه بالسلام وأن يقابلوه بالباشاشة والتوقير وأن يثبثوا عليه

وأن ينشطوا في قضاء حوائجه وأن يساعوه في البيع والشراء وأن يسعوا له في المسكن ، فإن قصر فيه مقصر مثل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعادا في نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخضاها مع أنه لم يطلع عليه ، ولولم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه ، ومهما لم يكن وجود العبادة كمنها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله ولم يكن غالبا عن شوب خفى من الرياء أخفى من ديب النمل<sup>(١)</sup> وكل ذلك يشك أن أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون .

وقد روى عن علي كرم الله وجهه أنه قال : إن الله عز وجل يقول للفقراء يوم القيامة ؛ ألم يكن يرخص عليكم السعر ألم تكونوا تبتذون بالسلام ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج . وفي الحديث ولا أجر لكم قد استوفيتم أجوركم وقال عبد الله بن المبارك : روى عن وهب بن منبه أنه قال إن رجلا من السواح قال لأصحابه إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة العنيان فنخاف أن تكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من العنيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم ، إن أحدا إذا لم يحب أن يعظم لمكان دينه وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه وإن اشترى شيئا أحب أن يرخص عليه لمكان دينه ، فبلغ ذلك ملكهم فركب في مركب من الناس فإذا السهل والجبل قد امتلا بالناس ، فقال السائح ما هذا ؟ قيل هذا الملك قد أظلك ، فقال للغلام أنتي بطعام فأثامه يبقل وذيت وقلوب الشجر ، لجل يحسوا شدته وبأكل أكل عتيقا فقال الملك ابن صاحبكم ؟ فقالوا هذا ، قال كيف أنت قال كالناس . وفي حديث آخر : بخير ، فقال الملك ما عند هذا من خير ؟ فانصرف عنه ، فقال السائح أحمد الله الذي صرفك عني وأنت لي ذام . فلم يزل المخلصون عاتقين من الرياء الخفى يجتهدون لذلك في غداة الناس عن أعمالهم الصالحة بمحوصون على إخفاؤها أعظم مما يحرم الناس على إخفاء فواحشهم كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجاريهم الله في القيامة على ملا من الخلق ، إذ علوا أن الله لا يقبل في القيامة إلا الخالص وطلوا شدة حاجتهم وفاقتهم في القيامة وأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا يجرى والد عن ولده ، ويشغل الصديقون بأنفسهم فيقول كل واحد : نفسى نفسا فضلا عن غيرهم فكانوا كزوار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة فانهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغرق الخالص لعلهم أن أرباب البرادى لا يروج عندهم الزائف والتبرج ، والحاجة تقتد في البادية ولا وطن يفرج اليه ولا هم يتسك به فلا ينحى إلا الخالص من النقد ، فكذلك يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والراد الذي يزودونه له من التقوى . فاذن شوائب الرياء الخفى كثيرة لاتحصر ، ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شمية من الرياء فانه لما قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضرة البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا ، اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا ، فلو كان غلصا قائما بعلم الله لاستحضر عقلاء العباد كما استحق صبيانهم ومجانينهم ، وعلم أن العقلاء لا يقدرون له على رزق ولا زيادة ثواب وتقصان عقاب كما لا يقدر عليه البهائم والصبيان والمجانين ، فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفى ، ولكن ليس كل شوب محبطا للأجر مفسدا لعمل بل فيه تفضيل .

فان قلت : فما نرى أحدا يبتك عن السرور إذا عرفت طاعاته ؟ فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم ؟ فنقول : أولا ؛ كل سرور فليس بمذموم بل السرور منتقم إلى محمود وإلى مذموم :

فأما محمود فأربعة أقسام ( الأول ) أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله ، ولكن لما اطلع عليه

(١) حديث « في الرياء شوائب أخفى من ديب النمل » أخرجه أحمد والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري « اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من ديب النمل » ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق ووضفه هو والدارقطني .

الخالق علم أن الله أعلمهم وأظهر الجليل من أحواله ، فيستدل به على حسن صنع الله به ونظرة إليه وإلطائه به ، فإنه يستر الطاعة والمصيبة ثم الله يستر عليه المصيبة ويظهر الطاعة ، ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجليل ، فيكون فرحه بمجمل نظر الله له لأحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم وقد قال تعالى ( قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ) فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به .

( الثاني ) أن يستدل بإظهار الله الجليل وستره القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعل في الآخرة إذ قال رسول الله ﷺ « ما سر أتعلى عبد ذنبا في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة »<sup>(١)</sup> فيكون الأول فرحا باقتبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل ، وهذا التفات إلى المستقبل .

( الثالث ) أن يظن رغبة المظلمين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره ، فيكون له أجر العلانية بما أظهره وأجر السر بما قصده أولا ، ومن اقتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور ، فإن ظهور غايل الربح لذيد وموجب السرور لأحالة . ( الرابع ) أن يحمده المظلمون على طاعته فيفرح بطاعتهم في مدحهم وبهمجهم والطبع ويميل قلوبهم إلى الطاعة ، إذ من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة قيمته ويحمده أو ينميه ويهزأ به أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه ، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله . وعلامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بمحدهم غيره مثل فرحه بمحدهم إياه .

وأما المذموم وهو الخامس : فهو أن يكون فرحه بقيام منزله في قلوب الناس حتى يندحوا ويعظموه ويقوموه بقضاء حوائجه ويقابلوه بالإكرام في مصادره وموارده فهذا مكروه والله تعالى أعلم .

### بيان ما يحيط بالعمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحيط

نفقولي فيه : إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه وأراد الرياء فلا يظن إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار فهذا لا يفسد العمل ، إذ العمل قد تم على نية الإخلاص سالما عن الرياء فما يطرأ بعده فيرجو أن لا ينطعم عليه أثره ، لاسيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به ولم يمتن إظهاره وذكره ولكن اتفق ظهوره بإظهار الله . ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه . نعم لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار فتحدث به وأظهره فهذا مخوف .

وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه محبط فقد روى عن ابن مسعود أنه سمع رجلا يقول قرأت البقرة فقال ذلك حله منها . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل قال له : صمت الدهر يا رسول الله . فقال له « ما صمت ولا أفطرت »<sup>(٢)</sup> فقال بعضهم إنما قال ذلك لأنه أظهره وقيل هو إشارة إلى كرامة صوم الدهر . وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ابن مسعود استدلالا على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه التحدث به ، إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلا بثواب العمل بل الأيسر أن يقال أنه مثاب على عمله الذي مضى ومعاقب على مرأته بطاعة الله بعد الفراغ منها ،

- (١) حديث « ما سر الله على عبد ذنبا في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة  
(٢) حديث قال لرجل قال : صمت الدهر « ما صمت ولا أفطرت » أخرجه مسلم من حديث أبي قتادة : قال يا رسول الله كيف بمن يصوم الدهر ؟ قال « لا صام ولا أفطر » ولطبراني من حديث أسماء بنت زيد في أثناء حديث ، فيه : قال رجل إنني صائم ، قال بعض القوم انه لا يفطر انه يصوم كل يوم قال النبي ﷺ « لا صام ولا أفطر من صام الأبد » لم أجده بلفظ الخطاب .

مختلف ماله تغير عقده الى الرياء قبل الفراغ من الصلاة فإن ذلك قد يطل على الصلاة ويحبط العمل. وأما اذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلاً وكان قد عقد على الإخلاص ولكن ورد في أثنائها وارد الرياء ، فلا يتحلوا إيمان يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل وإما أن يكون رياء باعثاً على العمل ، فإن كان باعثاً على العمل ونتم العبادة به حبط أجره ومثاله : أن يكون في تطوع فتجدت له فتارة ، أو حضر ملك من الملوك وهو يشتهي أن ينظر إليه ، أو يذكر شيئاً نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه ، ولولا الناس لقطع الصلاة فاستمها خوفاً من مذمة الناس ، فقد حبط أجره وعليه الإعادة إن كان في فريضة وقد قال عليه السلام « العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله » أي النظر إلى غايته. وروى « أنه من رأى بعمه ساعة حبط عمله الذي كان قبله » وهذا منزل على الصلاة في هذه الصورة لأجل الصدقة ولأجل الفداء فإن كل جزء من ذلك مفرد ، فما بطأ بقصد الباقي دون الماضي ، والصوم والحج من قبيل الصلاة . وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب ، كما لو حضر جماعة في أثناء الصلاة ففرح بمضمرهم وعقد الرياء . وقصد تحصيل الصلاة لأجل نظرم وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضاً ، فهذا رياء قد أثر في العمل واهتض باعثاً على الحركات ، فإن غلب حتى اتحدت معه الإحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغموراً ، فهذا أيضاً ينبغي أن يقصد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه ، لأننا نستكتفي بالنية السابقة عند الإحرام بشرط أن لا يعرأ عليها ما ينقلب ويغيرها ، ويحتمل أن يقال لا يقصد العبادة نظراً إلى حالة العقد وإلى بقاء قصد أصل الثواب وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه .

ولقد ذهب الحرث المحاسبي رحمه الله تعالى إلى الإحباط في أمر هو أهون من هذا وقال : إذا لم يرد إلا مجرد السرور باطلاع الناس - يعني سرورا هو كعب المنزلة والجاه - قال : قد اختلف الناس في هذا ؛ فصارت فرقة إلى أنه يحبط لأنه نقض العزم الأول وركن إلى حد المخلوقين ولم يحتم عمله بالإخلاص وإنما يتم العمل بخافته ، ثم قال : ولا أضلع عليه بالحبط وإن لم يتزيد في العمل ولا آمن عليه وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس ، والأغلب على قلبي أنه يحبط إذا غم عمله بالرياء ثم قال : فإن قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى : إنهما سائلان ، فإذا كانت الأولى لم تضره الثانية .

وقد روى أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أسر العمل لأحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرقني قال : لك أجران أجر السر وأجر العلانية عليه السلام ثم تكلم على الخبر والآثر فقال : أما الحسن فإنه أراد بقوله : لا يضره ، أي لا يدع العمل ولا تصره الخطرة وهو يريد الله ، ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره ، وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه :

(أحدها) أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ وليس في الحديث أنه قبل الفراغ .

(الثاني) أنه أراد أن يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود بما ذكرناه قبل لاسرورا بسبب حب المحمدة والمنزلة ، بدليل أنه جعل له به أجرأ ، ولا ذاهب من الأمة إلى أن لسرور بالمحمدة أجرأ وغايته أن يعني عنه ، فكيف يكون للخص أجر وللرائي أجران ؟

(الثالث) أنه قال أكثر من يروى الحديث يروى بغير متصل إلى أنه يريد به أكثرهم يوقفه على أبي صالح ومنهم من يرفعه فالحكم

(١) حديث « العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله » أخرجه من حديث معاوية بن أبي سفيان بلفظ « إذا طاب أسفله طاب أعلاه ، وقد تقدم . (٢) حديث « من رأى بعمه ساعة حبط عمله الذي كان قبله » لم أجده بهذا اللفظ ولشيعتين من حديث جندب « من سمع مع الله به ، ومن رأى رآه الله به » ورواه مسلم من حديث ابن عباس . (٣) حديث : إن رجلاً قال أسر العمل لأحب أن يطلع عليه فيسرقني فقال « لك أجران ... الحديث » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود ورواه الترمذي وابن جبان من رواية ذكوان عن أبي هريرة : الرجل يعمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال « له أجر السر والعلانية » قال الترمذي غريب وقال أنه روى عن أبي صالح وهو ذكر أنه مرسل .

بالعمومات الواردة في الرياء أولى . هذا ما ذكره ولم يقتض به بل أظهر ميلا إلى الإحباط .  
والأفيس عندنا : أن هذا التقدر إذا لم يظهر أثره في العمل بل بقي العمل صادرا عن باعث الدين وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع فلا يفسد العمل لأنه لم ينضم به أصل نيته وبقيت تلك النية باعثة على العمل وحاملة على الإتمام .

وأما الأخبار التي وردت في الرياء فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق ، وأما ما ورد في الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرياء مساويا لقصد الثواب أو أغلب منه ، أما إذا كان ضعيفا بالإضافة إليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصلوة وسائر الأعمال ، ولا ينبغي أن يفسد الصلوة ، ولا يبعد أيضا أن يقال إن الذي أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله - والخاص مالا يتوهمش - فلا يكون مؤديا لواجب مع هذا الثوب والعلم عند الله فيه . وقد ذكرنا في كتاب الإخلاص كلاما أوفى مما أوردناه الآن فليرجع إليه . فهذا حكم الرياء الطاريء بعد عقد العبادة إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ .

التسم الثالث : الذي يقارن حال العقد بأن يتبدى الصلوة على قصد الرياء ، فإن استمر عليه سلم فلا خلاف في أنه يقتضى ولا يستد بصلاته وإن قدم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل إتمام فعلها بثلثة أيام (قالت فرقة) لم تتمم صلاته مع قصد الرياء فليست تأت (وقالت فرقة) تلومه إعادة الأعمال كالركوع والسجود وتفسد أعماله دون تحريمه الصلوة لأن التحريم عقد ، والرياء غاطر في قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقدا (وقالت فرقة) لا يلزم إعادة شيء بل يستغفر الله بقلبه ويتم العبادة على الإخلاص والنظر إلى عامة العبادة كالمبدأ بالإخلاص ونظم بالرياء لكان يفسد عمله .

وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطح بنجاسة حارضة فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل ، فقالوا إن الصلوة والركوع والسجود لا تكون إلا لله ولو سجد لتبهر الله لكان كافرا ، ولكن اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار إلى حالة لا يبالي بمحمد الناس ونهم فصح صلاته . ومنهيب الفريقين الآخرين غاير عن قياس الفقه جدا خصوصا من قال يلزمه إعادة الركوع والسجود دون الافتتاح ، لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالا زائدة في الصلوة تفسد الصلوة . كذلك قول من يقول لو ختم بالإخلاص صح نظر إلى الآخر فهو أيضا ضعيف ، لأن الرياء يندفع في النية وأولى الأوقات براعاة أحكام النية حال الافتتاح ، قالذي يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال : إن كان باعته مجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتنال الأمر لم ينقض افتتاحه ولم يصح ما بعده ، وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل ولما رأى الناس تحرم بالصلوة وكان يجب لو كان ثوبه نجسا أيضا كان يصلي لأجل الناس ، فهذه صلاة لانية فيها إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين ، وهما لا باعث ولا إجابة . فأما إذا كان بحيث لو لا الناس أيضا لكان يصلي إلا أنه ظهري له الرغبة في المحمدا أيضا فاجتمع الباعثان ، فهذا إما أن يكون في صدقة وقراءة وما ليس فيه تحمليل وتحريم أو في عقد صلاة ورجح ، فإن كان في صدقة فقد عصى بإجابة باعث الرياء وأطاع بإجابة باعث الثواب ( فن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ) فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعقاب بقدر قصده الفاسد ولا يحبط أحدهما الآخر . وإن كان في صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية فلا يخلو إما أن تكون فرضا أو نفلا ، فإن كانت نفلا لحكمها أيضا حكم الصدقة فقد عصى من وجه وأطاع من وجه ، إذا اجتمع في قلبه الباعثان ، ولا يمكن أن يقال صلاته فاسدة والافتداء به باطل حتى إن من صلى

الراوي وتبين من قرائن حاله أن قصده الرياء بإظهار حسن القراءة ، ولولا اجتماع الناس خلفه وخلاف البيت وحده لما صلى لا يصح الاقتداء به فإن المصير إلى هذا بعيد جداً ، بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضاً بطوعه قصص باعتبار ذلك القصد ويصح الاقتداء به ، وإن اقرن به قصد آخر وهو به غاص ، فأما إذا كان في فرض واجتمع الباعثان وكان كل واحد لا يستقل وإنما يحصل الانبعاث بمجموعهما فهذا لا يسقط الواجب عنه ، لأن الإيجاب لم ينتقض باعثاً في حقه بمجرد واستقلاله ، وإن كان كل باعث مستقلاً حتى لو لم يكن باعث الرياء لأدى الفرائض ، ولو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تلوها لأجل الرياء فهذا على النظر ، وهو محتمل جداً ، فيحتمل أن يقال إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤد الواجب الخالص ، ويحتمل أن يقال الواجب امتثال الأمر بإعطاء مستقل بنفسه وقد وجد ، فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه ، كما لو صلى في دار منصوبة فإنه وإن كان عاصياً بإيقاع الصلاة في الدار المنصوبة فإنه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه ، وتعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة . أما إذا كان الرياء في المبادرة مثلاً دون أصل الصلاة مثل من يبادر إلى الصلاة في أول الوقت لحضور جماعة ولو خلا لآخر إلى وسط الوقت ، ولولا الفرض لكان لا يتبدى صلاة لأجل الرياء فهذا بما يقطع بصحة صلاته وسقوط الفرض به لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت فهذا أبعد من التقدح في التنية ، هذا في رياء يكون باعثاً على العمل وحاملاً عليه .

وأما مجرد السرور باطلاع الناس عليه إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر في العمل فبعيد أن يفسد الصلاة . فهذا ما نراه لا نقا بقانون الفقه ، والمسألة غامضة من حيث أن الفقهاء لم يتعرضوا لها في فن الفقه ، والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها ، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الإخلاص على إضفاء العيادات بأن الخواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيما نراه والمعلم عند الله عز وجل فيه وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم .

### بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

قد عرفت مما سبق أن الرياء يحيط للأعمال وسبب للفت عند الله تعالى وأنهم كبار المهلكات ، وما هذا وصفه لجدير بالشعير من ساق الجند في إزائه ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق ، فلا شفاء إلا في شرب الأدوية المرة البشعة ، وهذه المجاهدة يضطر إليها المباد كلهم ، إذ الصبي يخلق بخلق ضعيف العقل والتمييز يمتد العين إلى الحلق كثير الطمع فهم فيرى الناس يصنع بعضهم لبعض فيقلب عليه حب التصنع بالضرورة ويرسخ ذلك في نفسه ، وإنما يشعر بكونه مهلكاً بعد كمال عقله وقد انفرس الرياء في قلبه وترسخ فيه فلا يقدر على قبه إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوة الشهوات . فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ، ولكنها تنقأ أولاً وتقف آخرها وفي علاجها مقامان (أحدهما) قلع عروقه وأصوله التي منها انضمامه (والثاني) دفع ما يخطر منه في الحال .

(المقام الأول) في قلع عروقه واستئصال أصوله : وأصله حب المنزلة والمجاهة . وإذا فضل رجيم إلى ثلاثة أصول وهي لذة المحمدة ، والفرار من ألم الندم ، والطمع فيما في أيدي الناس . ويشهد الرياء بهذه الأسباب وأنها الباعث للرائي ما روى أبو موسى : أن أعرابياً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله الرجل يقاتل حية (١) - ومعناه أنه يأف أن يقهر أو يتمم بأنه مقهور منلوب - وقال : والرجل يقاتل ليرى مكانه وهذا هو طلب لذة الجاهل القدر

(١) حديث أبي موسى : أن أعرابياً قال يا رسول الله الرجل يقاتل حية ... الحديث . متفق عليه .

في القلوب - والرجل يقاقل الذكر - وهذا هو الخد بالسان - فقال عليه السلام « من قاتل لشكون كلمة الله هي العليانفو في سبيل الله » وقال ابن مسعود : إذا التقى الصفان قوتل الملائكة فكشروا الناس على مراتبهم ؛ فلان يقاقل الذكر وفلان يقاقل تلك ، والفتاة تلك إشارة إلى الطمع في الدنيا . وقال عمر رضي الله عنه : يقولون فلان شهيد ولعله يكون قد ملاّ دفتي راحته وقتا . وقال عليه السلام « من غزا لا يني إلا عقلا فله ما نوى <sup>(١)</sup> » فهنا إشارة إلى الطمع . وقد لا يشتهي الخد ولا يطمع فيه ولكن يحذر من ألم النهم كالبتخيل بين الأسخياء وهم يصدقون بالمال الكثير فانه يصدق بالقليل كي لا يبتخل ، وهو ليس يطمع في الخد وقد سبقه غيره ، وكالجبان بين الشجعان لا يفر من الإحاف خوفا من الذم وهو لا يطمع في الخد وقد هجم غيره على صف القتال ولكن اذا أبس من الخد ذكره الذم . وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلي ركعات معدودة حتى لا يئمل بالكسل وهو لا يطمع في الخد .

وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لغة الخد ولا يقدر على الصبر على ألم النهم ، ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج اليه خيفة من أن يتم بالجهل ، ويفتق بغير علم ويدعى العلم بالحديث وهو به جاهل . كل ذلك حذرا من النهم . فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المرأتى إلى الرياء . وعلاجه ما ذكرناه في الشطر الأول من الكتاب على الجملة .

ولكننا نذكر الآن ما ينص الرياء وليس معنى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ . إما في الحال وإما في المآل . فحين علم أنه لذيق في الحال ولكنه ضار في المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه . كن يعلم أن العسل لذيق ولكن إذا بان له أن فيه سما أعرض عنه ؛ فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرة . ومهما عرف العبد مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يجرم عنه في الحال من التوقيف وفي الآخرة من اللزقة عند الله وما يتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزي الظاهر . حيث ينادى على رموس الخلائق : يا فاجر يا غادر يا مرأتى . أما استعجبت إذ اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا . وراقت قلوب العبادواستبرأت بطاعة الله . وتعجبت إلى العباد بالتبئس إلى الله . وتزينت لهم بالثبني عند الله . وتقربت إليهم بالبعد من الله وتحمدت إليهم بالتقدم عند الله . وطلبت رضام بالعرض لستط الله . أما كان أحد أهون عليك من الله ؟ فمهما تفكر العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وربما يحبط من نواب الأعمال مع أن العمل الواحد ربما كان يرجع به ميزان حسنة لو خلص . فاذنا قدس بالرياء حول إلى كفة السيئات فترجع به وجهوى إلى النار . فلو لم يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيا في معرفة ضرره وإن كان مع ذلك سائر حسنة راجحة فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة التبيين والصدقين . وقد حط عنهم بسبب الرياء ورد إلى صف النعال من مراتب الأولياء . هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهمة بسبب سلاسله قلوب الخلق . فان رضا الناس عاية لا تنوك ، فكل ما يرضى به فريق يخط به فريق ورضا بعضهم في سخط بعضهم ومن طلب رضام في سخط الله سخط الله عليهم وأستخطهم أيضا عليه ثم أى غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حدم ؟ ولا يزيد حدم رزقا ولا أجلا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة .

وأما الطمع فيما في أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالنع وال إعطاء . وأن الخلق مضطرون فيه ولا رادى إلا الله . ومن طمع في الخلق لم يحل من الذل والخيبة . وإن وصل إلى المراد لم يحل من المنة والمهانة .

(١) حديث « من غزا لا يني إلا عقلا فله ما نوى » أخرجه النسائي وقد تقدم .

فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووم قاسد قد يصيب وقد يخطئ. وإذا أصاب فلا نفي لفته بألم متبوع ذلك؟ وأما ذمهم فلم يضر منه ولا يزيد ذمهم شيئا مالم يكتبه عليه الله، ولا يجعل أجله ولا يؤخر رزقه، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة، ولا يفضله إلى الله إن كان محمودا من عند الله. ولا يزيد مقتا إن كان معقوتا عند الله فالعباد كلهم مجزأة لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا. فإذا قرئ قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فتوت رغبته وأقبل على الله قلبه، فإن العاقل لا يرغب فيما يكسر ضروره وبقل نفعه، ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه، وسيكشف الله عن سره حتى يفضله إلى الناس ويرفهم أنه مرء ومفقوت عند الله، ولو أخلص الله لكشف الله لم إخلاصه وحبه لإلهم وسخرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه، مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم كما قال شاعر من بني تميم: إن مدحى زين وإن ذمى شين! فقال له رسول الله ﷺ: «كذبت؛ ذاك الله الذي لا إله إلا هو» (١) «إذ لا ين في مدحه ولا شين إلا في ذمه، فأى خير لك في مدح الناس. وأنت عند الناس منموم من أهل النار؛ وأى شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود في ذمة المقرين؟ فمن أحضر في قلبه الآخرة ونسيها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحق ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من السكودات والمنقصات، واجتمع همه وانصرف إلى الله قلبه وتخلص من مدله الرياء ومقاسات قلوب الخلق، وانقطع من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره ويفتح بهاله من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنه باقه ووحشته من الخلق واستحقاره للعالم واستعظامه للآخرة، وسقط عمل الخلق من قلبه وأعمل عنه داعية الرياء. وتذلل له منبج الإخلاص فهذا وما قدمناه في الشطر الأول هي الأدوية العلمية القاطنة مفارس الرياء.

وأما الدواء العملي: فهو أن يسود نفسه اخفاء العبادات واغلاق الابواب دون الفرائض حتى يفتح قلبه يعلم الله أو اخلاصه على عباداته ولا تنازع النفس الطلب علم غير الله. وقد روى أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال: أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذا. فلم يرخص في اظهار هذا القدر لأن في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها. فلا دواء الرياء مثل الاخفاء. وذلك يشق في بداية المجاهدة. وإذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله وما يجده عباده من حسن التوفيق والتأييد والتقديد و (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية ومن العبد فرج الباب ومن الله فتح الباب (والله لا يضيع أجر المحسنين؛ وإن تلك حسنة بضاعتها ويؤت من لفته أجر عظيم).

(المقام الثاني) في دفع المعارض منه في أثناء العبادة وذلك لا بد من تعلمه أيضا. فإن من جاهد نفسه وقلع مفارس الرياء من قلبه بالتنازع وقطع الطمع واسقاط نفسه من أعين المخلوقين واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فالصليطان لا يتركه في أثناء العبادات، بل يعارضه بخطرات الرياء، ولا تنقطع عنه بزفاته وهوى النفس وميلها إلا ينعى بالسكينة، فلا بد وأن يتمتع لدفع ما يمرض خاطر الرياء. وخواطر الرياء ثلاثة - قد تنظر دفعة واحدة كالخاطر والواحد وقد تترادف على التدرج فالأول: العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم. ثم يتلو هيجان الرغبة

(١) حديث: قال شاعر من بني تميم إن مدحى زين وإن ذمى شين، قال «كذبت ذاك الله» أخرجه أحمد حديث الأقرع بن حابس وهو قائل «ذلك» دون قوله «كذبت» ورجاله ثقات إلا أنى لا أعرف لأبى سلمة بن عبد الرحمن سمعا من الأقرع ورواه الترمذى من حديث البراء وحسنه بلفظ قال رجل «إن حمدى».



من النفس في حدم وحصول المنزلة عندهم . ثم يلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون إليه وعقد الضمير على تحقيقه . فالأول : معرفة . والثاني : حالة تسمى الشهوة والرغبة . والثالث : فعل يسمى العزم وتصميم العقد . وإنما كمال القوة في دفع الخاطر الأول وردة قبل أن يلوه الثاني ، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك بأن قال : مالك والخلق علوا أو لم يعلوا والله عالم بحالك فأى قائمة في علم غيره ؟ فإن حاجت الرغبة إلى لذة الحد يذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرضه للقت عند الله في القيامة وخيبته في أحوال أوقافه إلى أعماله ، فكما أن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة في الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة ، إذ يتفكر في تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم ، والشهوة تدعوه إلى القبول ، والكراهة تدعوه إلى الإباء ، والنفس تطارح لاجالة أنواعها وأغلبها .

فإن لا بد في الرياء من ثلاثة أمور : المعرفة ، والكراهة ، والإباء . وقد شرع العبد في المباد على عزم الإخلاص ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان الضمير منطويا عليها ، وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحد واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبق في القلب متسع لغيره ، فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بأفات الرياء وشؤم عاقبتها إذ لم يبق موضع في القلب خال من شهوة الحد أو خوف الذم ، وهو كالذي يحدث نفسه بالحلم وذم التعصب ، ويعزم على التحمل عند جريان سبب الغضب ثم يجرى من الأسباب ما يشتد به بغضه ، فينسى سابقة عزمه ويميل غيظا يمنع من تذكر آفة التعصب ويشغل قلبه عنه ، فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتدفع نور المعرفة مثل مرارة التعصب ، وإليه أشار جابر بقوله : يا أيها رسول الله صل الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا تقر ولم نابعه على الموت فألمسناها يوم حنين<sup>(١)</sup> حتى نوصى : يا أصحاب الشجرة فرجوا . وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف فغيبت العهد السابق حتى ذكروا ، وأكثر الشهوات التي تهجم فجأة هكذا تكون ، إذ تنسى معرفة مضرتها الداخلة في عقد الإيمان . ومهما نسي المعرفة لم تظهر الكراهة فإن الكراهة ثمرة المعرفة . وقد يذكر الإنسان فيعلم أن الخاطر الذي خطر له هو خاطر الرياء الذي عرضه لسخط الله ، ولكن يستمر عليه لشدة شوقه ، فيغلب هواه وقلة ولا يقدر على ترك لذة الحال ، فيسوف بالتوبة أو يتشاغل عن التفكر في ذلك لشدة الشهوة ، فكيف من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى فعله إلا رياء الخلق وهو يعلم ذلك ، ولكنه يستمر عليه فتكون الحجة عليه أوكد ؟ إذ قيل داعي الرياء مع علمه بمفائده وكونه منموما عند الله ، ولا تنفعه معرفته إذا خلت المعرفة عن الكراهة . وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة ، وهذا أيضا لا يتفحص بكراهته إذ القرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل .

فإن لا فائدة إلا في اجتناع الثلاث : وهي المعرفة ، والكراهة ، والإباء . فالإباء ثمرة الكراهة ، والكراهة ثمرة المعرفة ، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم ، وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكر فيما عند الله وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة ، وبعض ذلك ينتج بعضا وشمره ، وأصل ذلك كفة حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خليقة ومنهج كل ذنب ، لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعم الدنيا هي التي تعذب القلب وتسليه وتحول بينه وبين التفكر في العاقبة والاستئناء بنور الكتاب والسنة وأنوار العلوم .

(١) حديث جابر : يا أيها رسول الله ﷺ تحت الشجرة على أن لا تقر ... الحديث . أخرجه مسلم مختصرا دون ذكر « يوم حنين » فرواه مسلم من حديث الباس .

فان قلت : فمن صادف نفسه كراهة الرياء وحملته الكراهة على الآباء . ولكنه مع ذلك غير آخال عن ميل الطبع إليه وحبه له ومنازحته إياه إلا أنه كاره لحبه وليله إليه وغير محب إليه ، فهل يكون في ذممة المرائين ؟ فأعلم أن الله لم يكلف العباد إلا ما تطيق وليس في طاقة العبد منع الشيطان عن نزعاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزع إليها ، وإنما غاية أن يقابل شهوته بكراهة استئثارها من معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر ، فإذا فعل ذلك فهو للغاية في أداء ما كلف به . ويلى على ذلك من الأخبار ما روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شكروا إليه وقالوا : تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخرج من السماء فنخطفنا الطير أو تهوى بنا الريح في مكان سحيق أحب إلينا من أن نتكلم بها ، فقال عليه السلام « أو قد وجدتموه » قالوا : نعم قال « ذلك صريح الإيمان » ولم يجدوا أن الوسواس والكراهة له ، ولا يمكن أن يقال راد بصريح الإيمان الوسوسة فلم يبق إلا حله على الكراهة المساوقة للوسوسة والرياء وإن كان عظيماً فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى ، فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى ، وكذلك يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس أنه قال « الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة » وقال أبو حازم : ما كان من نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلا يضرك ما هو من عبوك ، وما كان من نفسك فرضيت نفسك لنفسك فعاتبها عليه . فاذن وسوسة الشيطان ومنازحته النفس لا تضرك مهما ردت مرادها بالإباء والكراهة ، والخواطر التي هي العلوم والتذكرات والتفكيرات للأسباب المبهجة للرياء هي من الشيطان ، والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس ، والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل . إلا أن الشيطان مهنا مكيدة وهي أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء خيل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الرد والجدال حتى يستبته ثواب الإخلاص وحسنو القلب ، لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعتة انصراف عن سر المناجاة مع الله فيوجب ذلك قصصاً في منزلة عند الله .

والمختصون من الرياء في دفع خواطر الرياء على أربع مراتب :

الأولى : أن يرد على الشيطان فيكذبه ، ولا يقتصر عليه بل يشتغل ويطلب الجدل معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه ، وهو على التحقيق قصصان ، لأنه اشتغل من مناجاة الله وعن الخير الذي هو بهدده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق ، والتعريج على قتال قطاع الطريق قصصان في السلوك .

الثانية : أن يعرف أن الجدال والقتال قصصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادلته .

الثالثة : أن لا يشتغل بتكذيبه أيضاً لأن ذلك وقفة وإن قلت بل يكون قد قرر في عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان : عليه مستصحباً الكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة .

الرابعة : أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء ، فيكون قد عزم على أنه مهما نزع الشيطان زاد فيها هو فيه من الإخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظاً للشيطان ، وذلك هو الذي يغيظ الشيطان ويضعفه ويوجب يأسره وتروطه حتى لا يرجع يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له : إن فلاناً يذكرك ، فقال : والله لا أغني عن أمره . قيل ومن أمره ؟ قال : الشيطان ، اللهم اغفر له . أي لا غنيته بأن

(١) حديث : عكوى الصحابة ما يمرض في قلوبهم وقوله « ذلك صريح الإيمان » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود مختصراً : سئل النبي ﷺ عن الوسوسة فقال « ذلك محض الإيمان » والنسائي في اليوم والليلة وابن حبان في صحيحه ورواه النسائي فيه من حديث عائشة . (٢) حديث ابن عباس « الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بلفظ « كيد » .

أطلع الله فيه . ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة من أن يزيد في حسناته . وقال إبراهيم النخعي : إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم ، فلا يلمه وليحدث عند ذلك خيراً ، فإذا رآه كذلك تركه . وقال أيضاً : إذا رآك الشيطان متردداً طمع فيك ، وإذا رآك مداوماً ملك وفلاك .

وضرب الحوت المحاسي رحمه الله لهذه الأربعة مثالا أحسن فيه فقال : مثلهم كاربعة قصودا مجلسا من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفصلا وهداية ورشدا ، لخدم على ذلك ضال متبع وخاف أن يعرفوا الحق ، فتقدم إلى واحد فتمنعه وصرفه عن ذلك ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى ، فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله وهو يظن أن ذلك مصلحه له ، وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر تأخره . فلما مر الثاني عليهما واستوقفه فوقف فدفع نحو الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل ، ففرح منه الضال بقدر توقفه للفتح فيه . ومر به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله ، بل استمر على ما كان ، غلب منه رجاءه بالكلية . فمر الرابع فلم يتوقف له ، وأراد أن يبتطه فرادى في عجلته وترك الثاني في المني ، فيوشك إن عادوا وعروا عليه مرة أخرى أن يماود الجميع إلا هذا الأخير فإنه لا يماوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعماله .

فإن قلت . فلماذا كان الشيطان لا يؤمن بزغاته فهل يجب التردد له قبل حضوره الحذر منه انتظاراً لوروده ، أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له ، أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه ؟ قلنا : اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه : فذهب فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لأنهم انقطعوا إلى الله واشتغلوا بحبه فاضرم الشيطان وأيس منهم وخش عنهم - كما أيس من ضعفاء العباد في الدعوة إلى الخمر والزنا - فصارت ملاذ الدنيا عنهم - وإن كانت مباحة - كالخمر والخنزير ، فارتحلوا من حجاب الكلية فلم يبق الشيطان لهم سبيل فلا حاجة بهم إلى الحذر . وذهب فرقة من أهل الشام إلى أن التردد الحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ونقص توكله ، فمن أيقن بأن لا شريك لله في تدبيره فلا يحذر غيره ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ولا يكون إلا ما أَرَادَ الله فهو الضار والنافع ، والمارف يستحي منه أن يحذر غيره ، فالبقيين بالرحمانية يفتنيه عن الحذر . وقالت فرقة من أهل العلم : لا بد من الحذر من الشيطان ، وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية فهو وسيلة الشيطان بكاد يكون غرووا ، إذ الأنبياء عليهم السلام لم يخلصوا من وسواس الشيطان وزغاته فكيف يخلص غيرهم ؟ وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحسب الدنيا ، بل في صفات الله تعالى وأسمائه ، وفي تحسين البدع والضلال وغير ذلك . ولا ينجو أحد من الخطيئة ولذلك قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إنه ليثنى على قلبي »<sup>(١)</sup> مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير<sup>(٢)</sup> فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغاله بسلوكه صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور ، ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة التي هي دار الأمن والسرور بعد أن قال الله لهما ﴿ إن هذا عدوكم ولزووجك فلا يخرجكما من الجنة فتشقى إن لك أن لا تجوع فيها ولا تملأ ولا تملأ فيها ولا تنسى ﴾ ومع أنه لم يثقله إلا عن شجرة واحدة وأطلق له وراء ذلك ما أراد فإذا لم يأمن نبي من الأنبياء . وهو في الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان فكيف يجوز لنبيه أن يأمن في دار

(١) حديث « إنه ليثنى على قلبي » تقدم .

(٢) حديث : إن شيطانه أسلم فلا يأمر إلا بخير . تقدم أيضاً .

الدنيا وهي متبوع المحن والفنن ومعدن الملاذ والشهوات انتهى عنها ، وقال موسى عليه السلام فما أخبر عنه تعالى ﴿ هذا من عمل الشيطان ﴾ ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال تعالى ﴿ يا بني آدم لا يفتنك الشيطان كما أخرج أديكم من الجنة ﴾ وقال عز وجل ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ والقرآن من أوله إلى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدع الأمان منه ، وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغال بحب الله ، فإن من الحب له امتثال أمره وقد أمر بالحذر من العدو كما أمر بالحذر من الكفار فقال تعالى ﴿ وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ﴾ وقال تعالى ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ فإذا لزمت بأمر الله الحذر من العدو الكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى .

ولذلك قال ابن حجر: حديد تراه ولا يراك يوشك أن تغفل به ، وصديد يراك ولا تراه يوشك أن يغفل بك . فأشار إلى الشيطان فكيف وليس في الغفلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة وفي إهمال الحذر من الشيطان التعرض لنار والعقاب الآليم ؟ فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله . وبه يغلط مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قاذر في التوكل ، فإن أخذ الترض والسلاح وجمع الجنود وسفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله ﷺ فكيف يقدح في التوكل الخوف مما خوف به والحذر مما أمر بالحذر منه ؟ وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما بين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الأسباب بالكلية وقوله تعالى ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ لا يناقض امتثال التوكل ، مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع والمحي والمميت هو الله تعالى ، فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادي والضل هو الله ، ويرى الأسباب وساطع مسخرة - كما ذكرناه في التوكل .

وهذا ما اختاره الحرث المحاسبي رحمه الله وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم ، وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم يغزو علمهم ، ويظنون أن ما بهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام وهو بعيد .

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر فقال قوم . إذا حذرنا الله تعالى العدو فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب في قلوبنا من ذكره والحذر منه والترصد له ، فإنا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا . وقال قوم : إن ذلك يؤدي إلى خلو القلب عن ذكر الله واشتغالهم كله بالشيطان وذلك مراد الشيطان منا ، بل تشغل بالعبادة وبذكر الله تعالى ولا تنسى الشيطان وعداوته والحاجة إلى الحذر منه فتجمع بين الأمرين ، فإنا إن نسينا وبما عرض من حيث لا نتعقب ، وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله ، فالجواب أولى . وقال العلماء المحققون غلط الفريقان ، أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسى ذكر الله فلا ينبغي غلظه ، وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدا عن الذكر فكيف يجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا وهو متبوع ضرر العدو ؟ ثم يؤدي ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى ، فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به فيوشك أن يغفل به ولا يقوى على دفعه ، فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بامدان ذكره . وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الأولى إذا جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان ، وبقتور ما يشغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله ، وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه - إيليس وغيره - فالخلق إن يلزم البعد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته ، فإذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله ويكبح عليه بكل الهمة ولا يخطر بباله أمر الشيطان ، فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خسر الشيطان له تنبه له ،

وعند التنبه يشتغل بدفعه والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزوة الشيطان بل الرجل يتألم وهو عائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح ، فيألم نفسه الحذر ويتألم على أن يتنبه في ذلك الوقت فيتنبه في الليل مرات قبل أو أنه لما أسكن في قلبه من الحذر ، مع أنه بالتوم غافل عنه ، فاشتغاله بذكر الله تعالى قد أماتته الهوى وأحيا فيه نور العقل والعلم وأما طعنه يقوى على دفع العدو إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أماتته الهوى وأحيا فيه نور العقل والعلم وأما طعنه ظلمة البصيرة ، فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصدوا لأزموا الحذر ، ثم لم يشتغلوا بذكر الله بل بذكر الله ، ودفعوا بالذكر شر العدو ، واستضاءوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو . فثالث القلب مثل بشر أريد تطهيرها من الماء القنول ليتفجر منها الماء الصافي . فاشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القنور ، والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزح الماء القنور من جانب ولكنه ترك جاريا إليهما من جانب آخر فيطول تبعه ولا يخف البشر من الماء القنور ، والبصير هو الذي جعل لجرى الماء القنور سدا وملأها بالماء الصافي فإذا جاء الماء القنور دفعه بالسكر والسد من غير كلمة ومؤنة وزيادة نصيب .

### بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات

اعلم أن في الإصرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء ، وفي الإظهار فائدة الاقتداء . وترغيب الناس في الخير ولكن فيه أفعال رياء . قال الحسن : قد علم المسلمون أن السرا أمر المؤمنين ، ولكن في الإظهار أيضا فائدة وذلك أن النبي الله تعالى على السر والعلاية فقال ( إن تبدوا الصدقات فتنما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ) .

والإظهار قسمان ( أحدهما ) في نفس العمل ( والآخر ) بالتحدث بما عمل .

القسم الأول : إظهار نفس العمل كالصدقة في المال لترغيب الناس فيها كإبري من الأنصارى الذي جاء بالبصرة فتابع الناس بالعطية لما رأوه فقال النبي صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه <sup>(١)</sup> » ويجرى سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها ولكن الاقتداء بالصدقة على الطباع أغلب . ثم الغاوى إذا هم بالخروج فاستمد وشد الرجل قبل القوم تحريضاً على الحركة فذلك أفضل له لأن النزوف أصله من أعمال العلانية لا يمكن إسراره ، فالمبادرة إليه ليست من الإعلان بل هو تحريض مجرد ، وكذلك الرجل قد يرفع صوته في صلاة بالليل لينبه جيرانه وأهله فيفتدى به . فكل عمل لا يمكن إسراره كالصالح والجهاد والجمعة فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء ، وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤذى المتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة فالسر أفضل لأن الإظهار حرام . فإن لم يكن فيه إثناء فقد اختلف الناس في الأفضل فقال قوم : السر أفضل من العلانية وإن كان في العلانية قدوة ، وقال قوم : السر أفضل من علانية لاقدوة فيها ، أما العلانية فقدوة فأفضل من السر . ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء وخصهم بمنصب النبوة ، ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العاملين . ويدل عليه قوله عليه السلام « له أجرها وأجر من عمل بها » وقد روى في الحديث

(١) حديث « من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه » وفي أوله قصة مسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي .

«إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفاً ويضاعف عمل العلانية إذا استأن بمأمله على عمل السر سبعين ضعفاً» (١) وهذا لأوجه الخلاف فيه فإنه مهما انقلبت القلب عن شوائب الرياء وتم الإخلاص على وجه واحد في الحالين فما يقتدى به أفضل لا محالة، وإنما يخاف من ظهور الرياء، ومهما حصلت شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به، فلا خلافاً في أن السر أفضل منه.

ولكن على من يظهر العمل وظيفتان (إحداهما) أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ذلك غنا، ودرج رجل يقتدى به أهله دون جيرانه، وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق، وربما يقتدى به أهل محله، وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدى به الناس كافة. فقير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق ونحوه ولم يقتدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة، وإنما يصح الإظهار بنية القدوة بمن هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به (والثانية) أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي فيدعوه إلى الإظهار بعذر الاقتداء، وإنما شهوة التجميل بالعمل وبكونه يقتدى به، وهذا حال كل من يظهر أعماله إلا الأقوياء المتخلصين وقليل مأم. فلا ينبغي أن يتدفع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر، فإن الضعيف مثاله مثال الفريق الذي يحسن سياحة ضعيفة فتقل إلى جماعة من الترقى فرحبهم فأقبل عليهم حتى تشبوا به فهلكوا وهلك، والفرق بالما. في الدنيا ألمه ساعة وليست كان الهلاك بالرياء مثله، لا بل عذابه دائم مدة مديدة، وهذه مزلّة أقدام العبادة والعلماء فانهم يتشبهون بالأقوياء في الإظهار ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتعبط أجورهم بالرياء، والتفطن لذلك غامض، وبحكم ذلك أن يمرض على نفسه أنه لو قيل له: أخف العمل حتى يقتدى الناس بعباد آخر من أفرانك ويكون لك في السر مثل أجر الإعلان، فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به وهو المظهر للعمل فيباعته الرياء دون طلب الأجر واقتداء الناس به ورغبته في الخير، فانهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع إسراره، فما بال قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراءاتهم؟ فليحذر العبد خداع النفس فإن النفس خدوع والشيطان مترصد وحب الجاه على القلب غالب، وقلاتسل الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغي أن يبدل بالسلامة شيئاً والسلامة في الاخفاء، وفي الإظهار من الأخطار مالا يقوى عليه أمثالنا، فالجذر من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء.

القسم الثاني: أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه والخطر في هذا أشد لأن مؤنة التعلق خفيفة على اللسان، وقد تجري في الحسابة زيادة ومبالغة ولتفتن لذة في إظهار البداوى عظيمة، إلا أنه لو تفرق إليه الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة للماضية بعد الفراغ منها، فهو من هذا الوجه أهون، والحكم فيه أن من قوى قلبه وتم إخلاصه وحضر الناس في عينيه واستوى عنده مدحهم وذمهم. وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه فهو جائز، بل هو مندوب إليه إن صفت التوبة وسلت عن جميع الآفات، لأنه ترغيب في الخير، والترغيب في الخير خير، وقد قل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء. قال سعد بن معاذ:

(١) حديث «إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفاً ويضاعف عمل العلانية إذا استأن بمأمله على عمل السر سبعين ضعفاً» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي السرداء مقتصراً على الشطر الأول بنحوه وقال هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين، وقد تقدم قبل هذا بنحو وورقين وله من حديث ابن عمر «عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء» وقال تفرد به بقية عن عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة «يفضل - أو ضاعف - الذكر الخفي الذي لا يسمعه الحافظة على الذي تسمعه بسبعين ضعفاً» وقال تفرد به معاوية بن يحيى الصدفي وهو ضعيف.

ما صليت صلاة منذ أسأت فحدثت نفسي بغيرها ، ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها ، وما سمعت النبي ﷺ يقول قولاً قط إلا علمت أنه حق . وقال عمر رضي الله عنه : ما أبالي أصبحت على عصر أو يسر لآتي لأدري أيهما خير لي ؟ وقال ابن مسعود : ما أصبحت على حال فتبعت أن أكون على غيرها . وقال عثمان رضي الله عنه : ما تغيت ولا تميت ولا مسست ذكرى يميني منذ بايعت رسول الله ﷺ (١) وقال شداد بن أوس ما تكلمت بكلمة منذ أسأت حتى أذمها وأخطمها ، غير هذه ! وكان قد قال لعلاه : اثنا بالشفرة لتبعت بها حتى تترك النداء وقال أبو سفيان لأهل حين حضره الموت : لا تيكروا علي فإني ما أحدثت ذنباً منذ أسأت . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : ما نفي الله في بقضاء قط فسرني أن يكون قضى لي بغيره ، وما أصبح لي هوى إلا في مواقع قدر الله .

فهذا كله إظهار لأحوال شريفة ، وفيها غاية المראה إذا صدرت ممن يرأى بها ، وفيها غاية الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به فذلك على قصد الاقتداء جائز للأتوابع بالشروط التي ذكرناها فلا ينبغي أن يسد باب إظهار الأعمال والطباع بمجبوله على حب التشبه والاقتداء ؛ بل إظهار المرائي للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للرأي ، فكمن من غفل عن سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو وراءه عند الله ؟ وقد روي أنه كان يجاز الإنسان في سلك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت ، فصنف بعضهم كتاباً في دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه ، فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف ! فإظهار المرائي فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رباؤه . وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم (٢) كما ورد في الأخبار وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم والله تعالى أعلم .

### بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكرامه إطلاع الناس عليها وكرامة ذمهم له

اعلم أن الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية كما قال عمر رضي الله عنه لرجل : عليك بعمل العلانية ، قال : يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية ؟ قال : ما إذا طلع عليك لم تستحي منه . وقال أبو مسلم الخولاني : ما علمت علماً أبالي أن يطلع الناس عليه إلا إني أرى أهل البول والناط ، إلا أن هذه درجة عظيمة لا يتألم كل واحد . ولا يحلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره الناس عليها لاسيما ما تحتجب به الخواطر في الشهوات والآثام والله مطلع على جميع ذلك فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد ربما يظن أنه رياء محذور وليس كذلك ، بل المحذور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك ، فهذا هو ستر المرائي .

وأما الصادق الذي لا يرأى فله ستر المعاصي ويصح فصدفه ، ويصح اغتماه بإطلاع الناس عليه في ثمانية أوجه : (الاول) أن يفرح بستر الله عليه ، وإذا اقتضغ اغتم بترك الله ستره وخاف أن يترك ستره في القيامة ، إذ ورد في الخبر « أن من ستر الله عليه في الدنيا ذنباً ستره الله عليه في الآخرة (٣) » وهذا غم يشأ من قوة الإيمان .

(١) حديث عثمان قوله : ما تغيت ولا تميت ولا مسست ذكرى يميني منذ بايعت رسول الله ﷺ ... الحديث أخرجه أبو يعلى الموصلي في معجمه بإسناد ضعيف من رواية أنس عنه في أثناء حديث وإن عثمان قال : يا رسول الله ، فذكره لفظه ما يستك . قال وهو ذلك يا عثمان . (٢) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم » ما حديثان فالاول متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم والثاني رواه النسائي من حديث أنس بسند صحيح وتقدم أيضاً . (٣) حديث « إن من ستر عليه في الدنيا يستر عليه في الآخرة » تقدم قبل هذا بوفرة .

(الثاني) أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويجب سترها كما قال ﷺ « من ارتكب شيئاً من هذه القافورات فليستر بستر الله<sup>(١)</sup> » فهو وإن عصى الله بالذنوب فلم يخل قلبه من محبة ما أحبه الله . وهذا ينشأ من قوة الإيمان بمكرامة الله لظهور المعاصي ، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنوب من غيره أيضاً ويتم بسببه .

(الثالث) أن يكره ذم الناس له به من حيث إن ذلك يفضي بفساد قلبه وعقله من طاعة الله تعالى ، فإن الطبع يتأذى بالنم ويتأذى العقل ويشغل عن الطاعة ، وهذه العلة أيضاً ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن ذكر الله تعالى ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر . وهذا أيضاً من قوة الإيمان إذ صدق الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان .

(الرابع) أن يكون ستره ورغبته فيه لكرامته لئلا يظن الناس من حيث يتأذى طبعه ، فإن الذم مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن ، وحرف تألم القلب بالنم ليس محرماً ولا إنسان به حاص وإنما يصح إذا جازعت نفسه من ذم الناس ودعت إلى ما يجوز حذراً من ذمهم ، وليس يجب على الإنسان أن لا يمتن بضم الحلق ولا يتألم به . نعم كمال الصدق أن أن تزول عنه رؤيته الخلق فيستوى عنده ذمهم ومادحه لعله أن الضار والنافع هو الله وأن العباد كلهم عاجزون ؛ وذلك قليل جداً ، وأكثر الطباع تألم بالنم لما فيه من الشعور بالتقصان ، ورب تألم بالنم محمود إذا كان الذم من أهل البصيرة في الدين فأنهم شهداء الله ، وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصان في الدين فكيف لا يتم به ؟ نعم الغم المدموم هو أن يتم لقوات الحمد بالورع ، كأنه يجب أن يحمد بالورع ، ولا يجوز أن يجب أن يحمد بطاعة الله ، فيكون قد طلب بطاعة الله ثواباً من غيره ، فإن وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكرامة والرد .

وأما كرامة الذم بالمحسنة من حيث الطبع فليس بمعلوم فله الستر حذراً من ذلك ، ويتصور أن يكون العبد بحيث لا يجب الحمد ولكن يكره الذم ، وإنما مراده أن يتركه الناس حمداً وذماً ، فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصير على ألم الذم . إذ الحمد يطلب اللذة ، وعدم اللذة لا يؤلم ، وأما الذم فإنه مؤلم ، فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة في الحال ، وأما كرامة الذم على المحسنة فلا عذور فيه إلا أمر واحد وهو أن يشغله غم باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله فإن ذلك غاية التقصان في الدين ، بل ينبغي أن يكون غم باطلاع الله غممه له أكثر .

(الخامس) أن يكره الذم من حيث أن الذم قد عصى الله تعالى به وهذا من الإيمان ، وعلامة أن يكره ذمه لغيره أيضاً بهذا التوجه لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجه من جهة الطبع .

(السادس) أن يستر ذلك كيلاً يقصد بشر إذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الذم فإن الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسسته وإن كان ممن يؤمن شره ، وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب ، فله أن يستر ذلك حذراً منه .

(السابع) مجرد الحياء فإنه نوع ألم ووراء ألم الذم والقصد بالشر ، وهو خلق كريم يحدث في أول الصبا مهما اشرق عليه نور العقل فيستحي من القبايح إذا شوهت منه ، وهو وصف محمود إذ قال رسول الله ﷺ « الحياء خير كله<sup>(٢)</sup> » وقال ﷺ « الحياء شعبة من الإيمان<sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء لا يأتي إلا بخير<sup>(٤)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الحي الحليم<sup>(٥)</sup> » فالذي يفسق ولا يسأل أن يظهر فسقه

- 
- (١) حديث « من ارتكب من هذه القافورات شيئاً فليستر بستر الله » أخرجه الحاكم في المستدرک وقد تقدم .  
 (٢) حديث « الحياء خير كله » أخرجه مسلم من حديث عمران بن حصين وقد تقدم . (٣) حديث « الحياء شعبة من الإيمان » متفق عليه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم . (٤) حديث « الحياء لا يأتي إلا بخير » متفق عليه من حديث فاطمة والبراز من حديث أبي هريرة « أن الله يحب النقي الحليم للتعفف » وفيه ليث بن أبي سلمة مختلف فيه .



الناس جمع إلى الفسق والتهلك والوفاة وفقد الحياء ، فهو أشد حالا من يستر ويستحي ، إلا أن الحياء يمتزج بالرياء ومشتبه به اشتباها عظيما قل من يفتن له ، ويدعى كل مرء أنه مستحي وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس ، وذلك كذب ، بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم وتمييز عفيفه داعية الرياء وداعية الإخلاص ، ويتصور أن يخلص معه ويتصور أن يراقى معه .

وبيانه أن الرجل يطلب من صديقه قرضا وقسه لانسو يافراخ إلا أنه يستحي من رده ، وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحي ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب ، فله عند ذلك أحوال : أحدها : أن يشافه بالرد الصريح ولا يبالى فينسب إلى قلة الحياء ، وهذا فعل لأحياءه . فإن المستحي إما أن يتأمل أو يفرض .

فإن أعطى فيتصوره ثلاثة أحوال :

أحدها : أن يمزج الرياء بالحياء بأن يبيع الحياء فيقبح عنده الرد ، فيبيع خاطر الرياء ويقول : ينبغي أن تعطى حتى يثنى عليك ويحمدك ويشتر اسمك بالسخاء ، أو ينبغي أن تعطى حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل . فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء وكان المحرك الرياء هو هيجان الحياء .

الثاني : أن يمتدح عليه الرد بالحياء ويبقى في نفسه البخل فيمتدح الإعطاء فيبيع داعي الإخلاص ويقول له : إن الصدقة بواحدة والقرض بثمان عشرة فبها أجز عظم وإدخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى ، فتسخر النفس بالإعطاء لذلك ، فهذا يخلص هيج الحياء إخلاصه .

الثالث : أن لا يكون له رغبة في الثواب ولا خوف من منعه ولا حب لمحمدته ، لأنه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه فأعطاء بعض الحياء ، وهو ما يمدح قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرد ، ولوجهه من لا يستحي منه من الأجانب أو الأراذل لكان برده وإن كثر الحمد والثواب فيه ، فهذا جزو الحياء ولا يكون هذا إلا في القبايح كالبخل ومقارفة الذنوب . والمراتب التي يستحي من المباحات أيضا ، حتى إنه يرى مستحلا في الشيء يعود إلى الهدوء ، أو ضاحكا فيرجع إلى الاقتباس ، ويرغم أن ذلك حياء وهو عين الرياء . وقد قيل إن بعض الحياء ضعف وهو صحيح ، والمراد به الحياء بما ليس ببيع كالحياء من وعظ الناس وإمامة الناس في الصلاة ، وهو في الصبيان والنساء محمود في العقلاء غير محمود . وقد تشاهد مصيبة من شيخ فقتل حتى من شيبته أن تنكر عليه لأن من إجلال الله إجلال ذي الشبهة المسلم ، وهذا الحياء حسن وأحسن منه أن يستحي من الله فلا تصنع الأمر بالمعروف ، فالقوى يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس والتعصيف قد لا يقدر عليه . فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبايح والذنوب .

( الثامن ) أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجري عليه غيره ويقتدى به ، وهذه هي العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة وهو القدوة ، ويختص ذلك بالائمة أو بمن يقتدى به ، وهذه العلة ينبغي أيضا أن يخفى العاصي أيضا مصعبته من أهله وولده لأنهم يتعلمون منه .

ففي ستر الذنوب : هذه الأعداد الثمانية ، وليس في إظهار الطاعة عند إلهائها العذر الواحد ، ومهما قصد بستر المحصية أن يجبل إلى الناس أنه ورجح كان مرأيا كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة .

فإن قلت : فهل يجوز للبد أن يجب حمد الناس له بالصلاح وحجهم إياه بسببه وقد قال رجل التي صلى الله عليه

( ٤١ - أحياه علوم الدين ٢ )

وسلم : دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال : « ازهد في الدنيا بحبك الله وابتذل إليهم هذا الخطام بحبوك (١) » ؟ فتقول : حبك لحب الناس لك قد يكون مباحا وقد يكون محمدا وقد يكون مذموما . فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك ، فإنه تعالى إذا أحب عبدا حبه في قلوب عباده . والمذموم أن تحب جهنم وهدم على حبك وغرورك وصلاتك وعلى طاعة بعينها ، فإن ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله ، والمباح أن تحب أن يحبك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة الممينة ، فعليك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كذلك الأموال فلا فرق بينهما .

### بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء ودخول الآفات

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرآيا به وذلك غلط وموافقة للشيطان ، بل الحق فيها بترك من الأعمال وما لا يترك خوفا الآفات ما نذكره ، وهو أن الطاعات تنقسم إلى : مالا لذة في عينه ؛ كاصلاة والصوم والحج والغزو فيها مقاسة ومجاهدات ، وإنما تصير لذينة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس ، وحمد الناس لذينة ، وذلك عند اطلاع الناس عليه . وإلى : ما هو لذينة ، وهو أكثر مالا يقتصر على البدن ، بل يتعلق بالخلق كاخلافة والقضاء والولايات والحسبة وإمامة الصلاة والتذكير والتدريس وإتفاق المال على الحق ، وغير ذلك ما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ولاقية من اللذة .

القسم الأول : الطاعات اللازمة للبدن - التي لا تتعلق بالتغير ولا لذة في عينها - كالصوم والصلاة والحج ، غطرت الرياء فيها ثلاث ( إحداها ) ما يدخل قبل العمل فيجت على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين ، فهذا ما ينبغي أن يترك لأنه مصيبة لا طاعة فيه ، فإنه تلزع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة ، فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها : ألا تستعين من مولاك لاستعين بالعمل لأجله وتستعين بالعمل لأجل عباده ؟ حتى يتدفع باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفارة له فليشتغل بالعمل . ( الثانية ) أن يمتنع لأجل الله ولكن يمرض الرياء مع عقد القيادة وأولها ، فلا ينبغي أن يترك العمل لأنه وجد باعثا دينيا ، فليشرح في العمل وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحسين الإخلاص بالمعاملات التي ذكرناها من الزام النفس كرامة الرياء ، والإيابة عن القبول ( الثالثة ) أن يعتقد على الإخلاص ثم يطرأ الرياء ودواعيه ، فينبغي أن يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص ويرد نفسه إليه فترا حتى يتم العمل ، لأن الشيطان يدعوك أولا إلى ترك العمل ، فإذا لم تحب واشتغلت فيدعوك إلى الرياء ، فإذا لم تحب ودفعت بقي يقول لك : هذا العمل ليس بخالص وأنت مرء وتميل ضائع فأى فائدة لك في فصل لا إخلاص فيه ؟ حتى يحملك بذلك على ترك العمل ، فإذا تركته فقد حصلت غرضه . ومثال من يترك العمل خوفا أن يكون مرآيا كن سلم إليه مولاة حنطة فما زوان وقال : خالصا من الزوان وثقها منه تنقية بالغة ، فترك أصل العمل ويقول : أخاف أن اشتغلت به لم تخلص خلاصا صافيا نقياً . فترك العمل من أجله هو ترك الإخلاص مع أصل العمل ، فلا معنى له . ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفا على الناس أن يقولوا أنه مرء فيمضون الله به . فهذا من مكاييد الشيطان لأنه أولا أساء الظن بالمسلمين ، وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك ، ثم أن كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب

(١) حديث : قال رجل دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال : « ازهد في الدنيا بحبك الله ... الحديث »

أخرجه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بلفظ « وازهد في أيدي الناس » وقد تقدم.

العبادة ، وترك العمل خوفاً من قولهم إنه مرأه هو حين الرياء ، فلولاً حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم قاله ولقولهم قالوا إنه مرأه أو قالوا إنه غفلس ؟ وأى فرق بين أن يترك العمل خوفاً من أن يقال إنه مرأه ، وبين أن يحسن العمل خوفاً من أن يقال إنه غافل مقصر ؟ بل ترك العمل أشد من ذلك . فبهذه كلها مكاييد الشيطان على العباد الجهال ، ثم كيف قطع في أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لا يغلبه بل يقول له : الآن يقول الناس إنك تركت العمل ليقال إنه غفلس لا يشقى الشهرة . فيضطررك بذلك إلى أن تهرب ، فإن هربت ودخلت مرباً تحت الأرض ألقى في قلبك حلاوة معرفة لزهك وهربك منهم وتظيمهم لك بقولهم على ذلك ، فكيف تتخلص منه ؟ بل لإنجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهو أنه ضرر في الآخرة ولا تنفع فيه في الدنيا للزوم الكراهة والإيذاء قلبك وتستر مع ذلك على العمل ولا تبالي ، وإن نزع العدو نازغ الطبع فإن ذلك لا ينقطع ، وترك العمل لأجل ذلك يجر إلى البطالة وترك الخيرات . فادمت تجد باعاً دينياً على العمل فلا تترك العمل ويجعل خاطر الرياء ، وأزم قلبك الحياء من الله إذا دعيت ففكسك إلى أن تستبدل بحمد أحد المخلوقين ، وهو مطلع على قلبك ولو اطاع الخلق على قلبك وأك تريد حمد لمفتوك ، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل . فإن قال لك الشيطان : أنت مرأه ، فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء وإيأاه وخوفك منه وسعيك من الله تعالى ، وإن لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفاً ولم يبق باعث ديني بل تجرد باعث الرياء فانترك العمل عند ذلك وهو بعيد ، فنشرح في العمل لله فلا بد أن يبقى معه أصل قصد الثواب .

لإن قلت : قد نقل عن أقوام ترك العمل غفلة الشهرة . وروى أن إبراهيم النخعي دخل عليه إنسان وهو يقرأ فأطبق المصحف وترك القراءة وقال : لا يرى هذا أنا تقرأ كل ساعة . وقال إبراهيم التيمي : إذا أعجبك الكلام فاسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلم ، وقال الحسن : إن كان أحدهم لير بالأي ما ينمته من دفعه إلا كراهة الشهرة ، وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك غفلة الشهرة . وقد ورد في ذلك آثار كثيرة ؟ قلنا : هذا يعارضه ما ورد من إظهار الطاعات عن لا محصى ، وإظهار الحسن البصري هذا الكلام في معرض الوعظ أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء وإمالة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه .

وبالجملة ترك النوافل جائز والكلام في الأفضل . والأفضل إنما يقدر عليه الأنوياء . دون الضعفاء ، فالأفضل أن يتم العمل ويجتهد في الإخلاص ولا يتركه ، وأرباب الأعمال قد يمالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف ، فالإتداء ببنحي أن يكون بالأنوياء . وأما إطلاق إبراهيم النخعي المصحف فيمكن أن يكون لعله بأنه سيحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله واستنائه بعد خروجه للاشتغال بمكائله ، فرأى أن لا يراه في القراءة أبعد عن الرياء وهو الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك .

وأما ترك دفع الأذى فذلك من يخاف على نفسه آفة الشهرة وإقبال الناس عليه وشغلهم إياه عن عبادات هي أكبر من رفع خشية من الطريق ، فيكون ترك ذلك للحفاظ على عبادات هي أكبر منها لا بمجرد خوف الرياء . وأما قول التيمي : إذا أعجبك الكلام فاسكت يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالفصاحة في الحكايات وغيرها فإن ذلك يورث العجب ، وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور فهو عذول مباح إلى مباح حذراً من العجب . فأما الكلام الحق المتدب إلى قلبه يصح عليه ، على أن الآفة ما تعظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني ، وإنما كلاتنا في العبادات الخاصة بيد العبد ما لا يتحقق بالناس ولا تعظم فيه الآفات ، ثم كلام الحسن في تركهم البكاء وإمالة الأذى لخوف الشهرة وبما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ولا يدركون هذه الدقائق ،

وإنما ذكره تخويفا للناس من آفة الشهرة وزجرا من طلبها .

القسم الثاني : ما يتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والأخطار ، وأعظمها الخلقة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفقرى ثم اهتاق المال .

أما الخلقة والامارة : فبى من أفضل العبادات اذا كان ذلك مع العدل والاخلاص ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « ليوم من امام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما » (١) فأعظم بعبادة يوازى يوم منها عبادة ستين سنة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول من يدخل الجنة ثلاثة : الامام المقسط » (٢) « أحدم ، وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل » (٣) « أحدم . وقال صلى الله عليه وسلم « أقرب الناس منى مجلساً يوم القيامة امام عادل » (٤) رواه أبو سعيد الخدرى . فالامارة والخلقة من أعظم العبادات ولم يزل المتقون يتركونها ويصرون منها وجرى من تقلدها ذلك لما فيه من عظم الخطر ، اذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب النفس حب الجاه ولفة الاستيلاء ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا ، فاذا صارت الولاية محبوبة كان الوالى ساعياً فى حظ نفسه ويوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح فى جاهه وولايته وان كان حقاً ، ويقدم على ما يزيد فى مكانته وان كان باطلاً ، وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شراً من فسق ستين سنة يفهم الحديث الذى ذكرناه . ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضى الله عنه يقول : من يأخذها بما فيها ، وكيف لا وقد قال صلى الله عليه وسلم « مامن والى عشرة إلا جاء يوم القيامة مغلوله يده الى عنقه أطلقه عدله أو أوبقه جوره » (٥) رواه معقل بن يسار ، وولاه عمر ولاية فقال يا أمير المؤمنين أشر على . قال : اجلس واكتم على . وروى الحسن « أن رجلاً ولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لرسول الله : خرنى قال « اجلس » (٦) وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة اذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة فانك إن أوتيتها من غير مسألة أعتت عليها وان أوتيتها عن مسألة وكلت اليها » (٧) وقال أبو بكر رضى الله عنه لرافع بن عمر : لا تأمر

- (١) حديث « ليوم من امام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما ... الحديث » أخرجه الطبرانى والبيهقى من حديث ابن عباس وقد تقدم (٢) حديث « أول من يدخل الجنة ثلاثة : الإمام المقسط ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عياض « أهل الجنة ثلاث : ذو سلطان مقسط ... الحديث » ولم أر فيه ذكر الأولوية (٣) حديث أبى هريرة « ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل » تقدم (٤) حديث أبى سعيد الخدرى « أقرب الناس منى مجلساً يوم القيامة امام عادل » أخرجه الاسفهانى فى الترغيب والترهيب من رواية عطية العوفى وهو ضعيف عنه وفيه أيضاً إسحق بن إبراهيم الديلمى ضعيف أيضاً (٥) حديث « مامن والى عشرة إلا جاء يوم القيامة يده مغلوله إلى عنقه لا يفكها إلا عدله » أخرجه أحمد من حديث عبادة بن الصامت ورواه أحمد والبزار من رواية رجل لم يسم عن سعد بن عبادة فيها يزيد بن أبى زياد متكلم فيه ورواه أحمد والبزار وأبو يعلى والطبرانى فى الاوسط من حديث أبى هريرة ورواه البزار والطبرانى من حديث بريدة والطبرانى فى الاوسط من حديث ابن عباس وثوبان وله من حديث أبى الدرداء « مامن والى ثلاثة إلا لقي الله مغلوله بينه ... الحديث » وقد عزي للصف هذا الحديث لرواية معقل بن يسار والعرف من حديث معقل بن يسار « مامن عبد يستريحه الله رعية لم يعطها نصيحة إلا لم يرح راعه الجنة » متفق عليه (٦) حديث الحسن : أن رجلاً ولاد النبي ﷺ فقال للنبي ﷺ : خرنى قال « اجلس » أخرجه الطبرانى موصولاً من حديث عصمة هو ابن مالك وفيه الفضل بن المختار وأحاديثه منكراً بمحدث بالأباطيل قاله أبو حاتم ورواه أيضاً من حديث ابن عمر بلفظ « أزم بيتك » وفيه الثراب بن أبى الثراب ضعفه ابن معين وابن عدى وقال أبو حاتم صدوق .
- (٧) حديث عبد الرحمن بن سمرة « لا تسأل الإمارة ... الحديث » متفق عليه .

على اثنين ، ثم ولى هو الخلافة فقام بها فقال له رافع : ألم تقل لى لأتأمر على اثنين وأنت قد وليت أمر أمة محمد ﷺ ؟ فقال : بلى وأنا أقول لك ذلك فن لم يعدل بها فقبله بهة الله . يعنى لعنة الله . ولعل القليل البصيرة يرى ماورد من فضل الإمامة مع ماورد من النهى عنها متأنفا وليس كذلك ، بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء فى الدين لا يبنون أن يمتنعوا من تقلد الولايات ، وأن الضعفاء لا يبنون أن يدوروا بها فقبلوها ، وأعني بالقوى الذى لا تميله الدنيا ولا يستغره الطمع ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم وزهدوا فى الدنيا وبرموا بها وبمخالطة الحق وقبروا أنفسهم وملكوها وقبوا الشيطان فأيس منهم ، هؤلاء لا يجرهم إلا الحق ولو زهقت فهم أرواحهم ، فهم أهل نيل الفضل فى الإمامة والخلافة ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض فى الولايات ، ومن جرب نفسه فرأى صابرة على الحق كافة عن الشهوات فى غير الولايات ، ولكن خاف عليها أن تتغير إذ ذاقته لذة الولاية وأن تستحل الجاه وتستلذ نقاذ الأمر فتركه العزل ، فبداه خيفة من العزل ؛ فهذا قد اختلف العلماء فى أنه هل يازمه الحرب من تقلد الولاية ؟ فقال قائلون : لا يجب لأن هذا خوف أمر فى المستقبل وهو فى الحال لم يعد نفسه لإقوية فى ملازمة الحق وترك لذات النفس ، الصحيح أن عليه الاحتراز لأن النفس خداعة مدعية للحق واحدة بالخير ، فلو وعدت بالخير جرما لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية فكيف إذا أظهرت التردد ؟ والاحتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع ، فالعزل مؤلم وهو كما قيل العزل طلاق الرجال ، فإذا شرع لاسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المهادنة وإعمال الحق وتوى به فى قعر جهنم ، ولا يستطيع التزويج منه إلى الموت إلا أن يعزل قهرا . ولكن فيه عذاب عاجل على كل عب للولاية . ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فهو إمارة الشر ، ولذلك قال ﷺ « إنا لانولى أمرنا من سألنا » (١) فإذا فهمت اختلاف حكم القوى والضعيف علمت أن نهى أبى بكر رافعا عن الولاية ثم تقلده لما ليس بمتناقض .

وأما القضاء : فهو وإن كان دون الخلافة والإمامة فهو معناهما ، فإن كل شئ ولاية أمير . أى له أمر نافذ . والإمامة محبوبة بالطبع ، والثواب فى القضاء عظيم مع اتباع الحق ، والعقاب فيه أيضا عظيم مع المدول عن الحق وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « القضاء ثلاثة : قاضيان فى النار وقاضى الجنة » (٢) وقال عليه السلام « من استغنى فقد ذبح بنير سكين » (٣) لحكمه حكم الإمامة يبنى أن يترك الضعفاء وكل من الدنيا ولذاتها ووزن فى عينه ، وليقبله الأقوياء الذين لا يأخذهم فى الله لومة لائم . ومهما كان السلاطين ظلة ولم يقدر القاضى على القضاء إلا بمداهمتهم وإعمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل المتعلقين بهم ، إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أولم يلغيوه ، فليس له أن يتخذ القضاء ، وإن تقلده فقلبه أن يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل عندها مرخصا له فى الإهمال أصلا ، بل إذا عزل سقطت المهدة عنه ، فينبغى أن يفرح بالعزل وإن كان يقضى الله ، فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إذن يقضى لاتباع الهوى والشيطان ، فكيف يرتقب عليه ثوابا ؟ وهو مع الظلة فى الدرك الأسفل من النار .

وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد العالية - وكل ما يتسح بسببه الجاه ويعظم به

(١) حديث « إنا لانولى أمرنا من سألنا » متفق عليه من حديث أبى موسى (٢) حديث « القضاء ثلاثة ... الحديث » أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وتقدم فى العلم وإسناده صحيح (٣) حديث « من استغنى فقد ذبح بنير سكين » أخرجه أصحاب السنن من حديث أبى هريرة بلفظ « من جل قاضيا » وفى رواية « من ولى القضاء » وإسناده صحيح .

القدر : فآفته أيضا عظيمة مثل آفة الولايات ، وقد كلن الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلا وكانوا يقولون : حدثنا ، باب من أبواب الدنيا ، ومن قال : حدثنا ، فقد قال أسوأى . ودفن بشركذا وكذا فطرا من الحديث وقال : يمنعني من الحديث أى أشتى أن أحدث ، ولو اشتيت أن لأحدث الحديث . والواعظ يجد في وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكاهم وزعاجهم وإقبالهم عليه لذة لا توازيها لذة ، فإذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن كان باطلا ، ويقر عن كل كلام يستثله العوام وإن كان حقا ، ويصير مضروب المنة بالكلية إلى مباحرك قلوب العوام ويظم منزلة في قلوبهم . فلا يسمح حديثا وحكمة إلا ويكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر ، وكان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أولا ، ثم يقول : إذا أتم الله على هذه النعمة ونفعني بهذه الحكمة فأفصها ليشاركني في نفعها إخواني المسلون . فهذا أيضا مما يظم فيه الخوف والفتنة حكم الولايات ، فمن لا باعث له إلا طلب الجاه والمنزلة والاكل بالدين والتفاخر والتكاثر فيجنى أن يتركه ويخالف الموى فيه ، إلى أن ترناض نفسه وتقوى في الدين همة وبأمن على نفسه الفتنة ، فمعد ذلك يعود إليه .

فان قلت : مهما حكم بذلك على أهل العلم تطلعت العلوم واندوست وعم الجمل كافة الخلق ؟ فنقول : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب الإمارة وتوعد عليها<sup>(١)</sup> حتى قال « إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة وقدامة يوم القيامة إلا من أخذها بحقها » وقال « نعمت المرضة وبشت القاطمة »<sup>(٢)</sup> ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تطلعت لطل الدين والدنيا جميعاً وثار القتال بين الخلق وزال الأمن وخرت البلاد وتطلعت المعاش فلم نهى عنها مع ذلك ؟ وضرب عمر رضي الله عنه أبي بن كعب - رأى قوما يتبعونه - وهو في ذلك يقول : أبا سيد المسلمين ، وكان يقرأ عليه القرآن ، فنع من أن يتبعوه وقال : ذلك فتنة على المتبوع ومذلة على التابع ، وعمر كان بنفسه يخطب ويصط ولا يمتنع منه واستأن رجل عمر أن يصط الناس إذا فرغ من صلاة الصبح فنهى فقال : أتمنعني من نصح الناس ؟ فقال : أخشى أن تضغ حتى تبلغ الثريا ، إذ رأى فيه تحايل الرغبة في جاه الوض وقبول الخلق . والقضاء والخلافة ما يحتاج الناس إليه في دينهم كالوض والتدريس والفتوى ، وفي كل واحد منهما فتنة ولذة فلا فرق بينهما ، فأما قول القائل : نبيك من ذلك يؤدى إلى اندراس العلم فهو غلط ، إذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القضاء لم يؤد إلى تعطيل القضاء<sup>(٣)</sup> بل الرياسة وحما يضطر الخلق إلى طلبها ، وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تندرس ، بل لو حبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة لأفترقا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها . وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فلا تشغل قلبك بأمر الناس فإن الله لا يعيهم وانظر لنفسك ، ثم إنى أقول مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوض مثلا فليس في النهى عنه إلا متاع بعضهم ، ولا فيعلم أن كلهم لا يتمتعون ولا يتركون لذة الرياسة فإن لم يكن في البلد إلا واحد وكان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه وحسن ميمته في الظاهر وتخفيفه إلى العوام أنه إنما

- (١) حديث : النهى عن طلب الإمارة هو حديث عبد الرحمن بن سمرة « لا تسئل الإمارة » وقد تقدم قبله ثلاثة أحاديث .  
 (٢) حديث « انكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة وقدامة يوم القيامة » إلا من أخذها بحقها » أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة دون قوله « إلا من أخذها بحقها » وزاد في آخره « فنعمت المرضة وبشت القاطمة » ودن قوله « حسرة » وهى في صحيح ابن حبان (٣) حديث « نعمت للمرضة وبشت القاطمة » أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة وهو بقية الحديث الذى قبله ورواه ابن حبان بلفظ « قبست للمرضة وبشت القاطمة » (٤) حديث : النهى عن القضاء » أخرجه مسلم من حديث أبي ذر « لا تؤمرون على اثنين ولا ثلاثين مال يتيم » .

يريد الله وعظه وأنه تارك الدنيا ومعرض عنها فلا تمنع منه وتقول له اشتغل بجلد نفسك ، فإن قال : لست أقدر على نفس فتقول : اشتغل بجمادى لأننا نعلم أنه لو ترك ذلك لملك الناس كلهم إذ لا قام به غيره ، ولو واظب غرضه الجاه فهو المالك وحده ، وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده ، فتجعله فداء للقرم وتقول : لعل هذا هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم <sup>(١)</sup> » ثم الواظ هو الذي يرغب في الآخرة ويهذب في الدنيا بسلامه وظاهر سيرته . فأما ما أحدثه الوعاظ في هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة والألفاظ المسجدة المقرونة بالأشعار بما ليس فيه تعظيلا لأمر الدين وتخويف للسليين ، بل فيه الترجية والتجربة على المعاصي بليارات الشكوت ، فيجب إخلاء البلاد منهم ، فإنهم نواب السجال وغلطاء الشيطان ، وإنما كلامنا في واظب حسن الواظ بجل الطاهر يعطى في نفسه حب القبول ولا يقصد غيره ، وفيما أوردناه في كتاب العلم من العيد الوارد في حق علماء السوء مابين لاوم الخلد من قن العلم وغواؤه ولهذا قال المسيح عليه السلام : يا علماء السوء تصرمون وتصلون وتصدقون ولا تقبلون ما تأمرون ، وتدسون ما لا تعلمون قياسوه ما تحسبون ، تتوبون بالقول والامان وتعملون باهوى ، وما يفتي حكم أن تتقوا جلودكم وقلوبكم دنس ، بحق أقول لكم : لا تكونوا كالنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة ، كذلك أتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم ، يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تقضى من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته ؟ بحق أقول لكم : إن قلوبكم تبكى من أعمالكم ، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم ، بحق أقول لكم : أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم ، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة ، فأى ناس أحسن منك لو تعلمون ؟ ويلكم حتى متى تصفون الطريق للدلجين وتقيمون في محلة التجبرين ؟ كأنكم تلهون أهل الدنيا ليتركوها لكم ميلا ميلا ، ويلكم ماذا يفتي عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم كذلك لا يفتي عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة مظلمة ! يا عبيد الدنيا ، لا كميديا أقيام ولا كإرار كرام ، توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتقلعكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيركم ، ثم يدفعكم العلم من خلفكم ، ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة صراة فرادى قبوقكم على سوائكم ، ثم يجزيكم بسوء أعمالكم . وقد روى الحرث الخاصي هذا الحديث في بعض كتبه ثم قال : هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس رغوبا في مرض الدنيا ورفتها وآثروها على الآخرة وأظفروا الدين الدنيا ، فهم في العاجل عاروشين وفي الآخرة هم الخاسرون .

فإن قلت : فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد في العلم والواظ وقائب كثيرة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها <sup>(٢)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « أيا داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه <sup>(٣)</sup> » إلى غير ذلك من فضائل العلم ، فيبتنى أن يقال للعلم اشتغل بالعلم واترك مرأة الخلق كما يقال لمن خالفه الرياء في الصلاة لا تترك العمل ولكن أتمم العلم وجلد نفسك ؟ فاعلم أن فضل العلم كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة والإمارة ، ولا تقول لأحد من عباد الله أترك العلم إذ ليس في نفس العلم آفة وإنما الآفة في إظهاره بالتصلي للواظ والتدريس رواية الحديث ، ولا تقول له أيضا أترك ما دام يجد

(١) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » أخرجه النسائي وقد تقدم قريبا .

(٢) حديث « لأن يهدي الله بك رجلا ولدا خير لك من الدنيا وما فيها » متفق عليه من حديث سهل بن سعد بلفظ « خير لك من حمر النعم » وقد تقدم في العلم (٣) حديث « أيا داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه » أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بن مالك في أوله وسلم من حديث أبي هريرة « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ... الحديث » .

في نفسه باعثاً دنيئاً بمزجاً يباحث الرياء ، أما إذا لم يحرّك إلا الرياء فترك الإظهار أقبح له وأسلم . وكذلك نوافل الصلوات إذا تحرد فيها باعث الرياء وجب تركها ، أما إذا خطر له وسواس الرياء في أثناء الصلاة وهو لما كره فلا يترك الصلاة ، لأن آفة الرياء في العبادات ضئيلة ، وإنما تعظم في الولايات وفي التصدي للمناصب الكبيرة في العلم .

وبالجملة فالمراتب ثلاث :

الأولى : الولايات ؛ والآفات فيها عظيمة وقد تركها جماعة من السلف خوفاً من الآفة .

الثانية : الصوم والصلاة والحج والفرو ؛ وقد تعرض لها أقرباء السلف وضغافهم ولم يؤثروهم ترك الحروف الآفة ، وذلك لنصف الآفات الداخلة فيها والقدره على قبحها مع [تمام العمل] به بأدنى قوة .

الثالثة : وهي متوسطة بين الرتبتين ؛ هو التصدي لشعب الوعد والفتوى والرواية والتدريس ؛ والآفات فيها أقل عما في الولايات وأكثر مما في الصلاة ، فالصلاة يبنى أن لا يتركها الضعيف والقوي ولكن يدفع خاطر الرياء ، والولايات يبنى أن يتركها الضعفاء وأسادون الأقوياء ، ومناصب العلم بينهما ، ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالولاية أشبه ، وأن الخلد منه في حق الضعيف أسلم والله أعلم .

وهنا رتبة رابعة وهي : جمع المال وأخذ الثغرة على المستحقين ، فإن في الإفتاق وإظهار السخاء استجلاباً للشاء ، وفي ادخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس ، والآفات فيها أيضاً كثيرة .

ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أسك ، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به ، فقال : القاعد أفضل لما يعرفون من قلة السلامة في الدنيا ، وأن من الزهد تركها قرباً إلى الله تعالى . وقال أبو الدرداء : ما سرني أني أقت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم بخمسين ديناراً أصدق بها ، أما إنني لأحرم البيع والشراء ولكني أريد أن أكون من الذين لا تلهمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد اختلف العلماء فقال قوم : إذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منها وتصدق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل ، وقال قوم : الجلوس في دوام ذكر الله أفضل ، والأخذ والإعطاء يشغل عن الله وقد قال المسيح عليه السلام : يا طالب الدنيا ليبر بها ، تركها لها أبر ، وقال : أقل ما فيه أن يشغل [إصلاحه] عن ذكر الله وذكر الله أكبر وأفضل . وهذا فيمن سلم من الآفات ، فأما من تعرض لآفة الرياء فتركها لها أبر ، والاشتغال بالذكر لا خلاف في أنه أفضل .

وبالجملة : ما يتعلق بالخلق والنفس فيه لذة فهو مثار الآفات ، والأحب أن يعمل ويدفع الآفات ، فإن صجر فليستظر وليجتهد وليستغف قلبه ، ولين ما فيه من الخير بما فيه من الشر ، وليفعل ما يدل عليه نور العلم دون ما يميل إليه الطبع .

وبالجملة ما يجده أخف على قلبه فهو الأكثر أضر عليه ، لأن النفس لا تشتهي إلا بالشر وقلما تستلذ الخير وتميل إليه ، وإن كان لا يجده ذلك أيضاً في بعض الأحوال ، وهذه أمور لا يمكن الحكم على تقاصيلها ببنى وإثبات فهو موكل إلى اجتهد القلب لينظر فيه لذته ويدع ما يريه إلى ما لا يريه ، ثم قد يقع ما ذكرناه غرور للجاهل فيسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة وهو عين البخل . ولا خلاف في أن تفرقة المال في المباحات فضلاً عن الصدقات أفضل من إسكائه ، وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب : أن الأفضل الكسب والإفتاق ، أو التجرد لذلك ؟ وذلك لما في الكسب من الآفات ، فأما المال الحاصل من الحلال ففرقه أفضل من إسكائه بكل حال .



فإن قلت : فبأي علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص في وعظه غير مريد رياء الناس ؟ فاعلم أن لذلك علامات (أحداها) أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظا أو أغزر منه علما والناس له أشد قبولا فرح به ولم يصدده . نعم لا بأس بالخطبة وهو أن يتنى لنفسه مثل عليه . (والأخرى) أن الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل بقي كما كان عليه . فينظر إلى الخلق بعين واحدة . (والأخرى) أن لا يجب اتباع الناس له في الطريق والمشي خلفه في الأسواق . ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها .

وقد روى عن سعيد بن أبي مروان قال : كنت جالسا إلى جنب الحسن إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على بردون أصفر . فدخل المسجد على بردونه ، فجعل يلتفت في المسجد فلم ير حلقة فلم ير حلقة من حلقة الحسن فوجهه نحوها حتى بلغ قريبا منها ، ثم نثى وركه فنزل ومشي نحو الحسن ، فلما رآه الحسن متوجها إليه تماحى له عن ناحية مجلسه ، قال سعيد وتماحيت له أيضا عن ناحية مجلسي حتى صار بيني وبين الحسن فرجوا مجلس للحجاج ، لجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه والحسن يتكلم بكلام له — يتكلم به في كل يوم — فما قطع الحسن كلامه قال سعيد : فقلت في نفسي ؛ لأبكون الحسن اليوم ولا نظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد في كلامه يتقرب إليه ، أو يحمل الحسن على هيبة الحجاج أن ينقص من كلامه ؛ فتكلم الحسن كلاما واحدا نحو ما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى إلى آخر كلامه .

فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكثرت به ، رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال : صدق الشيخ وبر فليكن هذه المجالس وأشباهها فاعتنوها حلقتا فإني بلغني عن رسول الله ﷺ « أن مجالس الذكر رياض الجنة » ولولا ما حملناه من أمر الناس ما غلبتونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها ، قال : ثم أقر الحجاج فتكلم حتى صعب الحسن ومن حضر من بلاغته ، فلما فرغ طفق ققام ، لجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن — حين قام الحجاج — فقال : عباد الله المسلمين ألا تعجبون أني رجل شيخ كبير ، وأني أغزو فأكلف فرسا وبغلا ، وأكلف فسطاطا ، وأن لي ثلثة دهم من السطاء وأن لي سبع بنت من العيال ؟ فتشكا من حاله حتى رق الحسن له وأصعابه ، والحسن مكب ، فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال : ما لهم قاتلهم الله اتفعلوا عباد الله خولا ومال الله دولا وقتلوا الناس على الدينار والدرهم ، فإذا غزا عدو الله غزا في القساطيط الهابة وعلى البغال السبابة ، وإذا أغزى أعاه أغزاه طاولوا راجلا ؟ فما قر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشده ، فقام رجل من أهل الشام كان جالسا إلى الحسن فسمي به إلى الحجاج وسكن له كلامه ، فلم يلبث الحسن أن أنه رسل الحجاج فقالوا : أجب الأمير ، فقام الحسن وأشفقتنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به ، فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يبتسم — ولما رآه قاعرا فاه يضحك إنما كان يبتسم — فأقبل حتى قعد في مجلسه فعظم الأمانة وقال : إنما تجالسون بالأمانة كأنكم تفتنون أن الحياة ليست إلا في الدينار والدهر ، إن الحياة أشد الحياة أن يجالسنا الرجل فنطمئن إلى جانبهم ثم ينطلق فيسبي بنا إلى شرارة من نار ؛ إني أتيت هذا الرجل فقال : أقصر عليك من لسانك وقورك ؛ إذا غزا عدو الله غزا كذا وكذا ؛ وإذا أغزى أخاه ؛ أغزاه كذا لا أبالك ؛ تحرض علينا الناس ؟ أما إنما على ذلك لا تهم نصيبك فأقصر عليك من لسانك ، قال : فذهب الله عني . وركب الحسن حمارا يريد المنزل فينينا هو يسير إذ التفت فرأى قوما يقبضونه فوقف فقال : هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء . وإلا فارجموا فما يتقي هذا من قلب العبد . فهذه العلامات وأمثالها تدل على سريرة الباطن . ومهما رأيت العلماء يتنازعون

(١) حديث : أن مجالس الذكر رياض الجنة . تقدم في الأذكار والدعوات .

ويتحاسدون ولا يتوانسون ولا يتعاونون فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون. اللهم ارحنا بلطفك يا أرحم الراحمين .

### بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الحق وما لا يصح

اعلم أن الرجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجد ، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه ، وهو من يقوم في بيت ساعة قربة ، فإذا أتم انبث نشاطه للمواظقة حتى يزيد على ما كان يتأد ، أو يصلي مع أنه كان لا يتأد الصلاة بالليل أصلاً ، وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط في الصوم ولولا ما انبث هذا النشاط . فهذا ربما يظن أنه رياء . وأن الواجب ترك المواظقة ، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل ، لأن كل مؤمن راعب في عبادة الله تعالى وفي قيام الليل وصيام النهار ، ولكن قد تنوعه العوائق ويمنعه الاشتغال ونبيله التمكن من الشهوات أو تسويه الغفلة ؛ فربما تكون مشاهدة النير سبب زوال الغفلة ، أو تندفع العوائق والأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط ، فقد يكون الرجل في منزله فتقطع الأسباب عن التهجد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير ، أو تمكنه من الاتع بزوجه ، أو المخادعة مع أهله وأقاربه ، أو الاشتغال بأولاده أو مطالعة حساب له مع معامليه ، فإذا وقع في منزل غريب اندفع عنه هذه الشواغل التي تفر رغبته عن الخير وحصلت له أسباب باعثة على الخير ، كشاهدته إيام وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا ، فإنه ينظر إليهم فينأفهم ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله فتتحرك داعيته للدين لا للرياء ، أو ربما يفارقه النوم لاستنكاهه للموضع أو سبب آخر فيختم زوال النوم ، وفي منزله ربما ينبله النوم وربما يتضاف إليه أنه في منزله على الدوام ، والنفس لا تسمح بالتهجد دائماً وتسمح بالتهجد وقتاً قليلاً فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق ، وقد يسر عليه الصوم في منزله ومعه أطياب الأطعمة ويشق عليه الصبر عنها ، فإذا أحوذته تلك الأطعمة لم يشق عليه قنبح داعية الدين للصوم ، فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين ، فإذا سلم منها قوى الباعث . فهذا وأمثاله من الأسباب يتصور وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم ، والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول : لا تعمل فإنك تكون مرأباً إذا كنت لا تعمل في بيتك ولا ترد على صلاتك المعتادة . وقد تكون رغبته في الزيادة لأجل رؤيتهم وخوفاً من ذمهم ونسبتهم إلى الكسل ، لاسيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل ، فإن نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم فيريد أن يحفظ منزلته ، وعند ذلك قد يقول الشيطان : صل فإنك تخلص ولست تصل لأجلهم بلقة وإنما كنت لا تصل كل ليلة لكثرة العوائق وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم . وهذا أمر مشتبك إلا على ذوى البصائر ، فإذا عرف أن المحرك هو الرياء فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يتأد ولا ركة واحدة ، لأنه يصحى الله بطلب عمدة الناس بطاعة الله ؛ وإن كان انبعاثه لدفع العوائق وتحريك النبطة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق . وعلمة ذلك أن يمرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يروونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخر بالصلاة ولم لا يروونه . فإن سخنت نفسه فليصل فإن باعث الحق . وإن كان ذلك يشغل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك . فإن باعثه الرياء . وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة مالا يحضره كل يوم . ويمكن أن يكون ذلك لحب حدم . ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى . وقد يتحرك بذلك باعث الدين ويقارنه نزوح النفس إلى حب الحمد . فهما علم أن الطالب على قلبه إرادة الدين فلا

ينبغي أن يترك العمل بما يحده من حب الخلد ، بل ينبغي أن يرد ذلك على نفسه بالكرامات ويستغل بالعبادة . وكذلك قد يبكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفاً من الله تعالى لامن الرياء ، ولو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى ، ولكن بكاء الناس يؤثر في ترفيق القلب ، وقد لا يحضره البكاء فينبأ كي - نارة رياء - نارة مع الصدق - إذ يغني عن قلبه مساواة القلب حين يكون ولا تنمعه عينه فينبأ كي تكلفا ، وذلك محمود . وعلامة الصدق فيه أن يمرض على نفسه أنظر مسمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه المساواة فينبأ كي أم لا ؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فإنما خوفه من أن يقال إنه قاسى القلب ، فينبغي أن يترك التباكي .

قال لقمان عليه السلام لابنه : لا ترى الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر . وكذلك الصبيحة والتنافس والأتين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجاري الأحوال ، نارة تكون من الصدق والخوف والحزن والندم والتأسف ونارة تكون لمشاهدته حزن غيره ومساواة قلبه ، فيشكل التنفس والأتين ويحاذن وذلك محمود ، وقد تقترب به الرغبة فيه لدلائله على أنه كثير الحزن ليعرف بذلك ، فإن تجردت هذه الباعية فهي الرياء ، وإن افترقت بداعية الحزن فإن أباهما ولم يقبلها وكرهاها سلم بكائه وتباكيه ، وإن قبل ذلك وركب إليه بقلبه خطب أجره وضاع سعيه وتعرض لسلط الله تعالى به ، وقد يكون أصل الأتين عن الحزن ، ولكن يمد ويد في رفع الصوت تلك الزيادة رياء ، وهو محذور لأنها في حكم الابتداء لجرد الرياء ، فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه ، ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله ، فيدعو إلى زيادة تمزج للصوت أو رفع له أو حفظ النعمة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت خشية الله ، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء . وكذلك قد يسمع الله أن تفضع قواه من الخوف فيسقط ، ثم يستحي أن يقال له إنه سقط من غير ذوال عقل وحالة شديدة ، فيزق ويتواجد تكلفا ليرى أنه سقط لكونه مغشياً عليه ، وقد كان ابتداء السقطة عن صدق ، وقد يزول عقله فيسقط ولكن يضيح سرهما فتخرج نفسه أن يقال حاله غير ثابتة ، وإنما هي كبريت خاطف ، فيستديم الزفة والرقص ليرى دوام حاله ، وكذلك قد يفتيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سرهما فيخرج أن يقال لم تكن غشيت ضحيحة ولو كان لدام ضعفه ، فيستديم إظهار الضعف والأتين فيمكنه على غيره يرى أنه يضعف عن القيام ويتأيل في المشي ويقرع الخطا ليظهر أنه ضعيف عن سرعة المشي .

فهذه كلها مكابد الشيطان ونزغات النفس . فإذا خطرت فلما جأ أن يذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن واطلموا على ضميره لمقتوه ، وإن الله مطلع على ضميره وهو له أشد مقنا ، كما روى عن نبي النور رحمه الله أنه قام وزق ، فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف فقال : يا شيخ ! الذي يراك حين تقوم ؟ مجلس الشيخ . وكل ذلك من أعمال المنافقين .

وقد جاء في الخبر « تمنوا بالله من خشوع النفاق »<sup>(١)</sup> وإنما خشوع النفاق أن تخضع الجوارح والقلب غير غاشع ، ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه ، فإن ذلك يكون لحاطر خوف وتذكر ذنب وتنم عليه وقد يكون للبراءة . فهذه خواطر ترد على القلب متعذرة مترادفة متقاربة ، وهي مع تقاربها متشابهة ، فراق قلبك في كل ما يحظر لك وانظر ما هو ومن أين هو ؟ فإن كان لله قاصمة واحذر مع ذلك أن يكون قد خفي عليك شيء من الرياء الذي هو كديب التل ، وكن على وجل من عبادتك أي مقبولة أم لا ؟ لخوفك على الإخلاص فيها ، وأحذر أن يتجدد لك خاطر الركون إلى حدهم بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك ما يكثر جداً ،

(١) حديث « تمنوا بالله من خشوع النفاق » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي بكر الصديق وفيه الحارث ابن عبيد الأيادي ضمه أحمد وابن معين .

فإذا خطر لك تفكير في اطلاع الله عليك ومقته لك . وتذكر ما قاله أحد الثلاثة الذين حاجو أيوب عليه السلام إذ قال : يا أيوب أما علمت أن العبد فضل عنه علانيته التي كان يخادع بها عن قسمة ويجري بسريره . وقول بعضهم : أعوذ بك أن يرى الناس أذى أخشاك وأنت لي ما قلت . وكان من دعاء علي بن الحسين رضي الله عنهما : اللهم إني أعوذ بك أن تحسن في لامة العيون علانيتي وتصيب لك فيما أخلو سررتي ، حافظا على رياء الناس من نفسي ومضيعا لما أنتصطلع عليه مني ، أبدي للناس أحسن أمرى وأفضى إليك بأسوأ عمل ، تقربا إلى الناس بحسناتي وقرارا منهم إليك بسيئاتي ، فيحلل بي مقنتك ويجب علي غضبك ، أعذني من ذلك يارب العالمين . وقد قال أحد الثلاثة قرا لأيوب عليه السلام : يا أيوب ألم تعلم أن الذين حفظوا علاقيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن تسود وجوههم بهذه جهل آفات الرياء فليراقب العبد قلبه ليوقف عليها في الخبر « إن الرياء سبعين بابا »

وقد عرفت أن بعضه أغض من بعض ، حتى إن بعضه مثل ديب النمل ، وبعضه أخفى من ديب النمل ، وكيف يدرك ما هو أخفى من ديب النمل إلا بشدة التفقد والمراقبة ، وليته أدرك . بعد بذل الجهد فكيف يطمع في إدراكه من غير تفقد القلب وامتحان للنفس وتفتيش عن خدعها ؟ نسأل الله تعالى العافية عنه وكرمه وإحسانه .

### بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم قسمة قبل العمل وبعده وفيه

اعلم أن أول ما يلزم المريد قلبه في سائر أوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته ، ولا يفتنع بعلم الله إلا من لا يخاف الله ولا يرجو إلا الله ، فأما من خاف غيره وارتجاه اشتفى اطلاعه على عاصن أحواله ، فإن كان في هذه الرتبة فيلزم قلبه كرامة ذلك من جهة العقل والإيمان لما فيه من خطر التعرض للمقت ، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره ، فإن النفس عند ذلك تكاد تنحل حرجا على الإنصاف وتقول : مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الحق منك لسجدوا لك أفا في الحق من يقدر على مثله فكيف ترضى باخفاءه فيجعل الناس عليك ويشكرون قدورك ويحرمون الاقتداء بك : ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه ، ويتذكر في مقابلة عظم عمله : عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبد الآباد وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعة ثوابا من عباده ، ويعلم أن اظهاره لنهره محب إليه وسقوط عند الله وأحياء للعمل العظيم فيقول : وكيف أتبع مثل هذا العمل بحمد الحق وهم عاجزون لا يقدرون لي على رزق ولا أجل . فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغي أن يياس عنه فيقول : إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء فأما المخطئون فليس ذلك من شأنهم ، فيترك المجاهدة في الإخلاص ، لأن المخطئ الى ذلك أحوج من المتق ، لأن المتق ان فسدت نوافقه بقيت فرائضه كاملة تامة ، والمخطئ لا تغل فرائضه عن النفسان والحاجة الى الجبران بالنوافل فان لم تسلم ضار مأخوذا بالفرأض وهلك به ، فالمخطئ الى الإخلاص أحوج .

وقد روى تميم الداري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يحاسب العبد يوم القيامة فان قص فرضه قيل انظروا هل له من تطوع . فان كان له تطوع أكل به فرضه وان لم يكن له تطوع أخذ

(١) حديث « الرياء سبعون بابا » هكذا ذكر للصف هذا الحديث هنا وكأنه تصحف عليه أو على من نقله من كلامه أنه « الرياء » بالثناة وإنما هو « الريا » بالوحدة وللرسوم كتابته بالواو ، والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ « الريا سبعون حوبا أميرها أن ينكح الرجل أمه » وفي إسناده أبو معشر واسمه نجيب مختلف فيه وروى ابن ماجه الحديث في أبواب التجارات وقد روى الزائر حديث ابن مسعود بلفظ الرياء « وضع وسبعون بابا » وذكر ابن ماجه الحديث في أبواب التجارات وقد روى الزائر حديث ابن مسعود بلفظ الرياء « وضع وسبعون بابا » والشرك مثل ذلك » وهذه الزيادة قد يستدل بها على أنه « الرياء » بالثناة لا لقترانه مع الشرك والله أعلم .

بطريقة فآلئى فى النار (١) ، فبأن المخطط يوم القيامة وفرحته ناص عليه ذنوب كثيرة فاجتهاده فى جبر الفرائض وتكفير السيئات ولا يمكن ذلك إلا بطول النوافل ، وأما المتقى فجهده فى زيارة الدرجات فان حبط تطوعه بقى من حسناته ما يرجع على السيئات فيدخل الجنة .

فاذا ينبغي أن يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه لصح نوافله ، ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهر ولا يتحدث به ، وإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلا من عمله خافا أنه ربما داخله من الربا . حتى ما لم يقف عليه ، فيكون شاكا فى قبوله ورده مجوزا أن يكون الله قد أحصى عليه من نية الخفية ما قد ورد عمله بسببها ، ويكون هذا الشك والخوف فى دوام عمله وبعده إلا فى ابتداء العقد ، بل ينبغي أن يكون متيقنا فى الابتداء أنه مخلص ما يريد بعمله إلا الله حتى يصح عمله ، فاذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أجعلت عمله من رياء . أعجب أوله ، ولكن يكون رجاءه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بالاخلاص وشك فى أنه هل أفسده رياء ؟ فيكون رجاء القبول أغلب ، وبذلك تعظم لذته فى المناجات والطاعات .

فالاخلاص : يقين ، والربا : شك وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الربا . إن كان قد سبق وهو غافل عنه . والذي يقترب إلى الله بالسعى فى حوائج الناس وإفادة العلم يذنب أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلبه من قضا حاجته فقط ، ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعله فقط ، دون شكر ومكافأة وحسن ثناء من المتعلم والمتعلم عليه ، فان ذلك يحبط الأجر . فهما توقع من المتعلم مساعدته شغل وخدمته ، أو مراقبة فى المشى فى الطريق ليستكثر باستتباعه ، أو ترددانه فى حاجة فتأخذ أجره فلا ثواب له غيره .

نعم إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعله ليكون له مثل أجره ، ولكن خدمه التلبذ بنفسه قبل خدمته ، فرجوا أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا يقطعه ولا يردمه ، ولا يستعبده متعلقه . ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا ، حتى إن بعضهم وقع فى بئر فجاء قوم فأدوا حبلا ليرفعوه فحلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثا ، خيفة أن يحبط أجره . وقال شقيق البلخي : أهديت لسفيان الثوري ثوبا فردم على ، فقلت له : يا أبا عبد الله لست أنا ممن يسمع الحديث حتى تردم على قال : صلبت ذلك ولكن أخوك يسمع مني الحديث فأخاف أن ينين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره . وجاء رجل إلى سفيان يبدو أو يبدون وكان أبوه صديقا لسفيان وكان سفيان يأتيه كثيرا . فقال له : يا أبا عبد الله فى نفسك من أبى شيء ؟ قال : يرحم الله أباك . كان وكان وأبى عليه فقال : يا أبا عبد الله قد عرفت كيف صار هذا المال لى . فأحب أن تأخذ هذه تسعين بها على عيالك (قال) قبل سفيان ذلك (قال) فلما خرج قال لولده : يا مبارك ألقه فردم على . فرجع فقال : أحب أن تأخذ مائة . فلم يزل يتردد عليه . وكأنه كانت أسرته مع أبيه فى الله تعالى فكره أن يأخذ ذلك . قال ولده : فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت : ويلك أى شيء قلبك هذا ؟ حجارة ؟ عدائى ليس لك عيال ؟ أم أترحم لى ؟ أم أترحم لى ؟ أم أترحم لى ؟ أم أترحم لى ؟ فأكثرت عليه فقال لى : يا مبارك تأكلها أنت ههنا مريتا وسأل عنها أنا .

فاذن يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله فى اعتناء الناس به فقط . ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه وتبذل الميزة عند المعلم وعند الحق . وربما يظن أن له أن يراى بطاعته لينال عند المعلم رتبة . فيعلم منه . وهو خطأ لأن إرادته بطاعة غير الله خسران فى الحال . والعلم وربما يفيد وربما

(١) حديث تميم الدارى : فى إكمال فريضة الصلاة بالتطوع أخرجه أبو داود وابن ماجه وتقدم فى الصلاة .

لا يفيد ؟ فكيف ينصرف في الحالة عملا تقدا على توهم علم ! وذلك غير جائز . بل ينبغي أن يتعلم الله ويعبد الله ويحسب العلم لله ، لا ليكون له في قلبه منزلة ، إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة ، فإن العباد أمروا أن لا يعبدوا إلا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره . وكذلك من يحسب أن يؤبه لا ينبغي أن يحسبهما لطلب المنزلة عندهما إلا من حيث إن رضا الله عنه في رضا الوالدين ، ولا يجوز أن يراى بطاعته ليتال بها منزلة عند الوالدين ، فإن ذلك معصية في الحال وسيكشف الله عن ربايته وتعمق منزله من قلوب الوالدين أيضا . وأما الزاهد المعتزل عن الناس فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعبده ، ولا ينظر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم حله ، فإن ذلك يفرس الرياء في صدوره حتى يتيسر عليه العبادات في خلوته به . وإنما سكوته لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لحله وهو لا يدري أنه المخفف للعمل عليه .

قال إبراهيم بن آدم رحمه الله : تعلمت المعرفة من راهب يقال له سيمان دخلت عليه في صومعته فقلت : يا سيمان منذ كم أنت في صومعتك ؟ قال : منذ سبعين سنة . قلت : فما طعامك ؟ قال يا حنيني وما دعاك إلى هذا ؟ قلت : أحببت أن أعم . قال : في كل ليلة حمصة . قلت : فما الذي يبيع من قلبك حتى تكفيك الحمصة ؟ قال : ترى الدبر الذي بمذاذك ؟ قلت : نعم . قال : إنهم يأوون في كل سنة يوما واحدا فيزبون صومعتي ويعطون حو لها ويعطوني . فكلما تناقلت نفس عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة . فأنا أحتمل جهد سنة لمر ساعة فأحتمل يا حنيني جهد ساعة لمر الأبد ، فوفر في قلبي المعرفة . فقال : حسبك أو أريدك ؟ قلت : بلى . قال : انزل عن الصومعة . فنزلت فأدلى لي ركة فيها شرون حمصة فقال لي : أدخل الدبر فقد رأوا ما أدليت إليك فلما دخلت الدبر اجتمع على التصاري فقالوا : يا حنيني ما الذي أدلى إليك الشيخ ؟ قلت : من قوته . قالوا فما تصنع به ونحن أحق به ؟ ثم قالوا : سامع ! قلت : عشرون دينارا ، فأعطوني عشرون دينارا فرجست إلى الشيخ فقال : يا حنيني ما الذي صنعت ؟ قلت : بهته منهم ، قال : بكم ؟ قلت : بعشرين دينارا ، قال : أخطأت ! لو سامتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك ، هذا عز من لا تعرفه فانتظر كيف يكون عز من تبعه ؟ يا حنيني أقبل على ربك ودع النعاب والجيئة .

والمقصود أن استشعار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثا في الخلوة وقد لا يشعر العبد به ، فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة ، فلو تغيروا عن اعتقادهم له لم يجرع ولم يضق به ذرعا إلا كرامة ضمنية ، أن وجعها في قلبه فيردحها في الحال بقله وإيمانه ، فانه لو كان في عبادة وأطلع الناس كلهم عليه لم يردده ذلك خشوعا ولم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه ، فان دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ولكن إذا قدر على رده بكرامة العقل والإيمان ويأمر إلى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه فيرجى له أن لا ينجيب سعيه ، إلا أن يريد عند مشاهدتهم في الخشوع والانتباه كي لا ينسبطوا إليه ، فذلك لا بأس به ولكن فيه ضرور ، إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية اظهار الخشوع وتتمل بطلب الانتباه فيطالها في دعواها قصد أو يأكل كثيرا فتسمع نفسه بذلك ؟ فإذا لم تسمح وبسحت بالعبادة فينبغي أن يكون مرادها المنزلة عندهم ، ولا ينحو من ذلك إلا من يقرر في قلبه أنه ليس في الوجود أحد سوى الله ، فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمل ، فلا يلتفت قلبه إلى الخلق الاخطرات ضمنية لا يشق عليه ازالها فانها تكن كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق .

ومن علامة الصنق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما غني والآخر فقير فلا يجد عند اقبال الغني زيادة عزه

في نفسه ، لا كرامة إلا إذا كان في الغنى زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرما له بذلك الوصف لا بالغنى ، فمن كان استرواحه الى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مرأه أو مطاع ، وإلا فالنظر الى الفقراء يزيد في الرغبة الى الآخر وتوجب الى القلب المسكنة ، والنظر الى الأغنياء بخلافه ، فكيف استروح بالنظر الى الغنى أكثر مما يستروح الى الفقير ؟ وقد حكى أنه لم ير الأغنياء في مجلس أقل منهم فيه في مجلس سفيان الثوري ، كان مجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء في مجلسه . نعم لك زيادة إكرام الغنى اذا كان أقرب اليك أو كان بينك وبينه حتى وصدة سابقة ، ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تقدم الغنى عليه في إكرام وتوقير ألبتة ، فإن الفقير أكرم على الله من الغنى ، فإيتارك له لا يكون إلا طعما في غناه ورياء له ، ثم إذا سويت بينهما في المجاسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغنى أكثر مما تظهره للفقير ، وإنما ذلك رياء خفى أو طمع خفى ، كما قال ابن السكك لجارية له مالى إذا أتيت بتعداد فمت لي الحكمة ؟ قالت : الطمع يشهد لسانك وقد صدقت ! فان اللسان يتلقى عند الغنى بما لا يتلقى به عند الفقير ، وكذلك يحضر من الخشوع عنده مالا يحضر عند الفقير ، وما كيد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر ولا ينحصر منها إلا أن تخرج ما سوى الله من قلبك ، وتجرد بالشفقة على نفسك بقية عرك ولا ترضى لها بالثار بسبب شهوات متخفة في أيام متقاربة ، وتكون في الدنيا كلك من ملوك الدنيا قد أمكنت الشهوات وساعدته اللذات ، ولكن في بذه سقم وهو يخاف الملاك على نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات ، وعلم أنه لو احتسب ومجاهد شهوته طاش ودام ملكه ، فلما عرف ذلك جالس الأطباء وحارف الصداقة وعود نفسه شرب الأدوية المرة وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات وصبر على مفارقتها ، فبذه كل يوم يزداد نحو لائقه أكله ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصانا لشدة احتجائه ، فهما نازعتا نفسه الى شهوة تفكر في توالى الأوجاع والآلام عليه وأداه ذلك الى الموت المفرق بينه وبين مملكته الموجب لثبانة الأعداء به ، ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيد منه من الشفاء الذى هو سبب تمتع بملكه ونعيمه في عيش خفى . وبدن صحيح وقلب رضى وأمر نافذ ، فيخفف عليه مهاجرة اللذات ومصاربة المكروهات . فكذلك المؤمن المريد للملك الآخرة احتسب عن كل ملك له في آخرته وهى لذات الدنيا وزهرتها فاجترى منها بالقليل ، واختار التحول والذبول والوحشة والحزن والخوف ، وترك الموانسة بالخلق خوفا من أن يحمل عليه غضب من الله فبهلك ، ورجاه أن ينجو من عذابه ، غف ذلك كله عليه عند شدة يقينه وإيمانه بماقية أمره وبما أعد له من النعيم المقيم في رضوان الله أبد الأباد ، ثم علم أن الله كريم رحيم لم يزل لعباده المريدين لمرضاة عرفا بهم رؤفا وعليهم عطوفا ولو شاء لأغنامهم عن التعب ، ولكن أراد أن يلوهم ويعرف صدق إرادتهم حكمة منه وعدلا ، ثم إذا تحمل التعب في بدايته أقبل الله عليه بالموتة والتيسير وحل عنه الأعباء وسهل عليه الصبر ، وحبب اليه الطاعة وورقه فيها من لذة المناجاة ما يلبسه عن سائر اللذات ويقويه على أمانة الشهوات ويتولى سياسته وتقويته وأمد بمموته ، فان الكريم لا يضيغ سعى الراجى ولا يخيب أمل المحب وهو الذى يقول « من تقرب الى شبرا تقربت الى ذراعا » ويقول تعالى « لقد طال شوق الأبرار الى لقائى وإن الى لقائهم أشد شوقا » فيظهر العبد في البداية جده وصدقه وإخلاصه فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بمجوده وكرمه ورافته ورحمته .

ثم كتاب ذم الجاه والرياء والخذقة وحده

## كتاب ذم الكبير والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق البارئ المصور العزيز الجبار المتكبر العلي الذي لا يضعه عن مجده واضع، الجبار الذي كل جبار له ذليل خاضع، وكل متكبر في جناب عزه مسكين متواضع، فهو القهار الذي لا يدفعه عن مراده دافع، الغني الذي ليس له شريك ولا منازع، القادر الذي يهرأبصار الخلائق جلالة وجهه، وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه، وحصر السن الأنبياء وصفه وثناؤه، وارتفع عن حد قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه، فأعترف بالعجز عن وصف كنهه جلالة ملائكته وأنبيائه، وكبر ظهور الأكرسة عزه وعلاؤه، وقصر أيدي القياصرة عظمتهم وكبريائه، فالعظمة إزاره والكبرياء ردائه، ومن نازعه فهما قسمه بقاء الموت فأعجزه دواؤه، وجل جلالة وتقدمت أسماءه، والصلاة على محمد النبي أنزل عليه النور المنتشر حياته، حتى أشرف بنوره أكتاف العالم وأرجائه وعلى آله وأصحابه الذين هم أحياء الله وأوليائه، وخيرته وأصفياؤه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فهما قصمت<sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه<sup>(٢)</sup> » والكبر والعجب داءان مهلكان ، والكبر والعجب سقيان مريضان ، وم عند الله عقوقان فيضيان . وإذا كان التقصد في هذا الريع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب فإنهما من قبائح المرديات . ونحن نستقصي يانها من الكتاب في شطرين : شطر في الكبير ، وشرط في العجب .

### بيان ذم الكبير

قد ذم الله الكبير في مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى ( سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض ينهر الحق ) وقال عز وجل ( كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ) وقال تعالى ( واستفتحوا وعاب كل جبار عنيد ) وقال تعالى ( إنه لا يحب المتكبرين ) وقال تعالى ( لقد استكبروا في أنفسهم وعتواكروا كبيرا ) وقال تعالى ( إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ) وذم الكبير في القرآن كثير وقد

### كتاب ذم الكبير والعجب

(١) حديث « قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فهما قصمت » أخرجه الحاكم في المستدرك دون ذكر « العظمة » وقال صحيح على شرط مسلم وتقدم في العلم ، وسيأتي بعد حديثين بلفظ آخر (٢) حديث « ثلاث مهلكات... الحديث » أخرجه البزار والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث أنس بن مالك وسند صحيح وتقدم فيه أيضا



قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » ، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان<sup>(١)</sup> » وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى الكبرياء . ودانى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقته في جهنم ولا أبالي<sup>(٢)</sup> » وعن أبي سلة ابن عبد الرحمن قال : التقي عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمرو على الصفا فتواقفا ، فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمرو يبكى ، فقالوا ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال : هذا - يبنى عبد الله بن عمرو - زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكله في النار على وجهه<sup>(٣)</sup> » وقال ﷺ « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب<sup>(٤)</sup> » وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما للطير والإنس والجن والبهائم : أخرجوا ، فخرجوا في ماتي ألف من الإنس ومائة ألف من الجن ، فرفع حتى سمع رجل الملائكة بالسبيح في السموات . ثم خفض حتى مست أفئدة البحر ، فسمع صوتا لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لحسفت به أبدا ما رفعت . وقال ﷺ « يخرج من النار عتق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد وبكل من دعا إلها آخر وبالمصورين<sup>(٥)</sup> » وقال ﷺ « لا يدخل الجنة مجيل ولا جبار ولا ميسر الملكة<sup>(٦)</sup> » وقال ﷺ « تحتاج الجنة والنار فقالت النار : أوثرت بالتكبرين والتجبرين ، وقالت الجنة : مار ولا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقائمهم وعجزهم ؟ فقال الله للجنة : إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال النار : إنما أنت عذابي أطعب بك من أشاء ولكل واحد منكما ملوما<sup>(٧)</sup> » وقال ﷺ « بشس البعدي تجير واعتدى ونسى الجبار الأعلى ، بشس البعدي تجير واعتلى ونسى المتعال بشس البعدي غفل وسها ونسى المقابر والبلد بشس عبد عتا وبني ونسى المبدأ والمتهى<sup>(٨)</sup> » وعن ثابت أنه قال : بلأننا أنه قيل يارسول الله ما أعظم كبر فلان ا فقال « أليس بعده الموت<sup>(٩)</sup> » وقال عبد الله بن عمرو : إن رسول الله ﷺ قال « إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال : إني أمرتكم بآيتين وأنا أكرمكم بالثالثة ما كان الشرك والكبر ، وأمرتكم بآلة إلا الله فإن السموات والأرضين وما فيهن لو وضعت في كفة الميزان وضعت لآله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرفع منهما ، ولو أن السموات والأرضين وما فيهن كانتا حلقة فوضعت لآله إلا الله عليها لقصمتها ،

(١) حديث « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال حبة من إيمان » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث أبي هريرة « يقول الله تعالى الكبرياء ودانى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقته في جهنم » أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه والقفطه ، وقال أبو داود « قد خفي النار » وقال مسلم « عذبت » وقال « رداه » و « إزاره » بالنسبة وزاد مع أبي هريرة أبا سعيد أيضا

(٣) حديث عبد الله بن عمرو « من كان في قلبه مثقال حبة من كبر كبه الله في النار على وجهه » أخرجه أحمد والبيهقي في في شعب الإيمان من طريقه بإسناد صحيح .

(٤) حديث « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين ... الحديث » أخرجه الترمذي وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله « من العذاب » (٥) حديث « يخرج من النار عتق له أذنان ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح غريب (٦) حديث « لا يدخل الجنة جبار ولا مجيل ولا سيء الملكة » مر في أسباب الكسب والمماش وللرؤف « حنان » مكان « جبار » (٧) حديث « تحتاج الجنة والنار فقالت النار : أوثرت بالتكبرين والتجبرين ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٨) حديث « بشس البعدي تجير واعتدى ونسى الجبار الأعلى » أخرجه الترمذي من حديث أسماء بنت عميس بزيادة فيه مع تقديم وتأخير وقال غريب وليس إسناده قوى ورواه الحاكم في المستدرك وصححه ورواه البيهقي في الشعب من حديث ثعلب بن عمار وضعفه (٩) حديث ثابت : بلأننا أنه قيل يارسول الله ما أعظم كبر فلان ؟ قال « أليس بعده الموت » أخرجه البيهقي في الشعب هكذا سلا بلفظ « تجير » ( ٤٣ - إحياء علوم الدين ٢ )

وأمر كما بسبحان الله محمد فأنها صلاة كل شيء وبها رزق كل شيء. (١) قال المسيح عليه السلام : طوبى لمن عليه الله كتابه ثم لم يمت جباراً . وقال عليه السلام : أهل النار كل جفطرى جواظ مستكبر جماع مناع ، وأهل الجنة الضمفاء المفلون (٢) وقال عليه السلام : وإن أجبركم لنا وأقربكم منا في الآخرة أحسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم أخلاقاً وأبغضكم منا الثراون المتشدقون المتفهبون » قالوا : يا رسول الله قد علمنا الثراون والمتشدقون فما المتفهبون ؟ قال « المستكبرون » وقال عليه السلام : يحشر المستكبرون يوم القيامة في مثل صور النذر تطوّم الناس ، ذوا في مثل صور الرجال يملوهم كل شيء من الصنار ، ثم يسافون إلى سجن في جهنم يقول له بولس يملوهم نار الأنيار يسقون من طين الخيال عصارة أهل النار (٣) وقال أبو هريرة : قال النبي ﷺ « يحشر الجبارون والمستكبرون يوم القيامة في صور النذر تطوّم الناس لخوانهم على الله تعالى (٤) » وعن محمد بن واسع قال : دخلت على بلال بن بردة فقلت له يا بلال إن أباك حدثني عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال « إن في جهنم وادياً يقال له صعب حتى على الله أن يسكنه كل جبار ، فإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه » (٥) وقال عليه السلام : « إن في النار قصراً يجعل فيه المستكبرون ويطبق عليهم » (٦) وقال عليه السلام : « اللهم إني أعوذ بك من نقمة الكبرياء » (٧) وقال « من فارق روحه جسده وهو يرى من ثلاث دخل الجنة : السكبر والدين والغلول » (٨) .

الآثار : قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لا يحقرن أحد أحدًا من المسلمين ، فإن صغير المسلمين عند الله كبير . وقال وهب : لما خلق الله الجنة عند نظر إليها فقال أنت حرام على كل متكبر . وكان الأخنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره ، لجاء يوماً ومصعب ماد وجهه فلم يقبضها ، وقد الأخنف فرحه بعض الوجه فرأى أثر ذلك في وجهه فقال : صعباً لابن آدم يتكبر وقد خرج من عبري البول مرتين . وقال الحسن : العجب من ابن آدم ، ينسل الخمر بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يمارض جبار السموات . وقد قيل في ( ) وفي أنفسكم

- (١) حديث عبد الله بن عمرو « إن نوحاً لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال : إني آمركما بأثنين ونهاك عن اثنين ، أنهما كانا عن الشرك والكبر ... الحديث » أخرجه أحمد والبخاري في كتاب الأدب والحاكم بزيادة في شأنه قال صحيح الإسناد
- (٢) حديث « أهل النار كل جفطرى جواظ مستكبر جماع مناع » وهذه الزيادة عندهما من حديث حارثة بن وهب الخزازي « ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر » (٣) حديث « إن أجبركم لنا وأقربكم منا في الآخرة أحسنكم أخلاقاً ... » الحديث أخرجه أحمد من حديث أبي ثعلبة الخفقي بلفظه « إلى » و« من » وفيه انقطاع ومكحول لم يسمع من أبي ثعلبة وقد تقدم في رياضة النفس أول الحديث (٤) حديث « يحشر المستكبرون يوم القيامة ذوا في مثل صور الرجال ... الحديث » أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال حسن غريب .
- (٥) حديث أبي هريرة « يحشر الجبارون والمستكبرون يوم القيامة في صور النذر ... الحديث » أخرجه البزار هكذا عن حصرا دون قوله « الجبارون » وإسناده حسن (٦) حديث أبي موسى « إن في جهنم وادياً يقال له صعب حتى على الله أن يسكنه كل جبار » أخرجه أبو يعلى والطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد ، قلت فيه أزهري بن سنان ضعفه ابن حبان وأوردته في الضعفاء هذا الحديث (٧) حديث « إن في النار قصراً يجعل فيه للمستكبرون ويطبق عليهم » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أنس وقال « توابيت » مكان « قصرا » وقال « فيقفل » مكان « يطبق » وفيه بيان بن أبي عياش هوشع ، (٨) حديث « اللهم إني أعوذ بك من نقمة الكبرياء » لم أره بهذا اللفظ ، وروى أبو داود وابن ماجه من حديث جابر بن مطعم عن النبي ﷺ في أثناء حديث « أعوذ بالله من الشيطان من نخوته وهزمه » قال : نقمة الشر ونقمة الكبر وهزمه اللوة ، ولأصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري نحوه ، تكلم فيه أبو داود وقال الترمذي هو أشهر حديث في هذا الباب . (٩) حديث « فارق روحه جسده وهو يرى من ثلاثة دخل الجنة : السكبر والدين والغلول » أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ثوبان وذكر الصنف لهذا الحديث هنا موافق للمشهور في الرواية أنه السكبر (بالموحدة والراء) لكن ذكر ابن الجوزي في جامع المسانيد عن الدارقطني قال إنما هو الكثر (بالتون والراء) وكذلك أيضاً ذكر ابن مردويه الحديث في تفسير (والدين يكثرزون الذهب والنقمة) .

أفلا تبصرون) هو سبيل الغائط والبول . وقد قال محمد بن الحسين بن علي : ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو أكثر . وسئل سليمان عن السبحة التي لا تنفع معها حسنة فقال : الكبر وقال الثباني بن بشير - علي المنبر - إن الشيطان مصالي وغرورا ، وإن من مصالي الشيطان وغروره البطر بأنعم الله والفخر بإعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع الهوى في غير ذات الله . نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه .

### بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشى وجر الثياب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينظر الله إلى رجل يمر إزاره بطرا<sup>(١)</sup> » وقال عليه السلام « بينا رجل يتبختر في برده إذ أعجبهت نفسه ففسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة<sup>(٢)</sup> » وقال عليه السلام « من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة » وقال زيد بن أسلم : دخلت على ابن عمر فر به عبد الله بن واقد وعليه ثوب جديد فسمعت يقول : أي بني ارفع إزارك فإن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء<sup>(٣)</sup> » وروى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليه وقال « يقول الله تعالى : ابن آدم أتجزئي وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين يردين والأرض منك وتيد جمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق ! وأني أوان الصدقة<sup>(٤)</sup> » وقال عليه السلام « وإذا مشيت أمي المطيأة وخدمتهم فارس والروم سلط الله بعضهم على بعض<sup>(٥)</sup> » قال ابن الأعرابي : هي مشية فيها اختيال : وقال عليه السلام « من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان<sup>(٦)</sup> » .

الآثار : عن أبي بكر الهذلي قال : بينا نحن مع الحسن إذ مر علينا ابن الأعمى يريد المقصورة وعليه جباب خر ، قد نعقد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قبائره وهو يمشي يتبختر ، إذ نظر إليه الحسن فظرة فقال : أف .. أف .. شاخ بأفقه ثاني عطفه مصر خده ينظر في عطفه ، أي حقيق أنت تنظر في عطفك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدى حتى الله منها ، والله أن يمشي أحد طيبت بتخليج تخليج الجنون في كل عضو من أعضائه لله نعمة . والشيطان به لفنة ! فسمع ابن الأعمى فرجع مبتدئ إليه فقال : لا تعتذر إلى ربك ، أما سمعت قول الله تعالى « ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً » ؟ ومر بالحسن شاب عليه برقة له حسنة فدعا فقال له : ابن آدم معجب بشبابه بحبك الله ، كان التبر قد وارى بدنك وكأنك قد لاقيت عمك ، ويمك ! داو قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم . وروى أن عمرا بن عبد العزيز

- (١) حديث « لا ينظر الله إلى من جر إزاره بطرا » متفق عليه من حديث أبي هريرة .
- (٢) حديث « بينا رجل يتبختر في برده قد أعجبهت نفسه ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .
- (٣) حديث ابن عمر « لا ينظر الله إلى من جراز إزاره خيلاء » رواه مسلم مقتصرًا على الرفوع دون ذكر مرور عبده ابن واقد على ابن عمر وهو رواية لسم أن المار رجل من بني ليث غير مسمى (٤) حديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال « يقول الله : ابن آدم أتجزئي وقد خلقتك من مثل هذه .. الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه إسناده من حديث بشر بن جعاش (٥) حديث « وإذا مشيت أمي المطيأة .. الحديث » أخرجه الترمذي وابن جبان في صحيحه من حديث ابن عمر : اللطيطاء (بضم الليم وفتح الطاءن للهمتين بينهما مشاة من تحت) مضرا ولم يستعمل مكبرا (٦) حديث « من تعظم في نفسه واختال في مشيه لقي الله وهو عليه غضبان » أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر .

حج قبل أن يستخلف ؛ فنظر إليه ملاوس وهو يختال في مشيته فتمرد جنبه بأصبعه ثم قال : ليست هذه مشية من في بطنه خراء ؟ فقال عمر كالمعتد : يا عم لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلتها . ورأى محمد بن واسع ولده يختال فقامه وقال : اتدري من أنت ؟ أما أمك فأشترتها بما تبيع درهم وأما أبوك فلا أكثر اتقي للمسلمين مثله ! ورأى ابن عمر رجلا يجر إزاره فقال : إن للشيطان إخوانا - كرهما مرتين أو ثلاثا - وروى أن مطرف بن عبد الله بن الصخير رأى المهلب وهو يتبختر في جبة خمر ، فقال : يا عبد الله هذه مشية يرضها الله ورسوله ، فقال له المهلب : أما تعرفني ؟ فقال : بلى أعرحك أولئك نقطة مذرة وأحرك جيفة قنبرة وأنت بين ذلك تعمل العنبرة ! فضى المهلب وترك مشيته تلك . وقال بجاهد في قوله تعالى ( ثم ذهب إلى أهله بمطى ) أى يتبختر . وإذا قد ذكرنا ثم الكبر والاختيال فلندكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم .

### بيان فضيلة التواضع

قال رسول الله ﷺ « ما زاد الله عبدا بغوا إلا عزا ، وما تواضع أحد لإرفه الله » وقال ﷺ « وأمن أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة يمكنه بها فإن هو رفع نفسه جحدما ثم قال اللهم ضعه وإن وضع نفسه قال اللهم أرفهه » وقال ﷺ « طوبى لمن تواضع في غير مسكنه وأقن مالا جمعه في غير معصية ورحم أهل الدار والمسكنة وغافل أهل الفقه والحكمة » وعن أبي سلمة المديني عن أبيه عن جده قال كان رسول الله ﷺ عندنا بقباء وكان سائما فأتيته عند إفاطه بقدر من لبن وجعلنا فيه شيئا من عسل فلما رضعه وذاقه وجد حلاوة العسل فقال « ما هذا ؟ قلنا يا رسول الله جعلنا فيه شيئا من عسل فروضه وقال « أما لا إلى آخره ومن تواضع لله رضعه ومن أقصد أغناه الله ومن بذر أقره الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله » وروى أن النبي ﷺ كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمانة يتكره منها فأذن له فلما دخل أجلسه رسول الله ﷺ على فخذه ثم قال له « اطعم » فكان رجلان قريش انماز منه وتكره فقامت ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها » وقال صلى الله عليه وسلم « خيرني بين أمرين : أن أكون عبداً رسولاً أو ملكاً نبياً لم أدر أيهما اختار وكان صفى من الملائكة جبريل فرفعت رأسى إليه فقال : تواضع لربك فقلت عبداً رسولاً » وأوصى الله

(١) حديث « ما زاد الله عبدا بغوا إلا عزا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٢) حديث « وأمن أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة يمكنه بها ... الحديث » أخرجه القلي في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة والبيهقي أيضاً من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف . (٣) حديث « طوبى لمن تواضع في غير مسكنه ... الحديث » أخرجه البغوي وابن قانع والطبراني من حديث ركب المصري والبراز من حديث أنس وقد تقدم بضعة في العلم وبضعة في آفات اللسان (٤) حديث أبي سلمة المديني عن أبيه عن جده قال : كان ﷺ عندنا بقباء وكان سائما ... الحديث وفيه « من تواضع رضعه الله ... الحديث » رواه البراز من رواية طلحة بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جده فذكر نحوه دون قوله « ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله » ولم يقل « بقاء » وقال الذهبي في اللباز إنّه خبر متكرر وقد تقدم ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة قالت « أتى رسول الله ﷺ بقدر فيه لبن وعسل ... الحديث » وفيه « أما إني لأزعم أنه حرام ... الحديث » وفيه « من أكثر ذكر اللوت أحبه الله » وروى الرقوع منه أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد دون قوله « ومن بذر أقره الله » وذكر فيه قوله « ومن أكثر ذكر الله أحبه الله » وتقدم في ذم الدنيا . (٥) حديث السائل الذي كان به زمانة منكراً وأنه ﷺ أجلسه على فخذه ثم قال « اطعم » الحديث لم أجده أصلاً وللوجود حديث أكله مع مجنون رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث جابر وقال الترمذي غريب (٦) حديث « خيرني بين أمرين عبداً رسولاً وملكاً نبياً ... الحديث » أخرجه أبو يعلى من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن عباس وكلا الحديثين ضعيف .

تمالى إلى موسى عليه السلام : إنا أقبل صلاة من تواضع لعظمى ولم يتعظم على خلقى وأزعم قلبه خوفاً وقطع نهاره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجل ، وقال عليه السلام : « الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين التقي » وقال المسيح عليه السلام : طوبى للتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة طوبى للصالحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرتون الفردوس يوم القيامة طوبى للطهارة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة وقال بعضهم : بلغنى أن النبي صلى الله عليه وآله قال « إنا هدئ الله عبداً للإسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له وورثه مع ذلك تواضعاً مع صفوة الله » وقال عليه السلام : « أربع لا يعطيهم الله إلا من أحب : الصمت وهو أول العبادة والتوكل على الله والتواضع والإهدى في الدنيا » وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وآله « إذا تواضع العبد ورفعه الله إلى السماء السابعة » وقال عليه السلام : « والتواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرحكم الله » ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يطعم فجاء رجل أسود به جذرى قد قشر لجمل لا يجلس إلى أحد الا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وآله إلى جنبه . وقال عليه السلام : « انه ليحببني أن يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه » وقال عليه السلام : « لا أرى عليكم حلاوة العبادة » قالوا : وما حلاوة العبادة ؟ قال « التواضع » وقال عليه السلام : « إذا رأيتم التواضعين من أمق فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فكبروا عليهم فإن ذلك مثله لهم وصغار » .

الآثار : قال عمر رضي الله عنه : ان العبد اذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال أتمش رفعتك الله وإذا تكبر وعلنا طوره رصعه الله في الأرض وقال أخا خضاك الله ، فهو في نفسه كبير وفي عين الناس صغير حتى انه لا حقر عندهم من الخنزير . وقال جرير بن عبد الله : انتهيت مرة إلى شجرة تمحها رجل قائم قد استظل بطلع له وقد جاوزت الشمس التلح فسيو به عليه ، ثم ان الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي ، فذكرت له ما صنعت فقال لي : يا جرير تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه يوم القيامة يا جرير أندى ماطلة النار يوم القيامة ؟ قلت : لا ، قال : انه ظلم الناس بعضهم بعضاً في الدنيا . وقالت عائشة رضي عنها : انكم لتتغفلون عن أفضل العبادات ؛ التواضع .

(١) حديث « الكرم التقوى ، والشرف للتواضع ، واليقين التقي » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين مرسلًا وأسنده الحاكم أوله من رواية الحسن عن سمرة . وقال صحيح الاسناد . (٢) حديث « إذا هدئ الله عبداً للإسلام وحسن صورته ... الحديث » أخرجه الطبراني موقوفاً على ابن مسعودى يختلف فيه .

(٣) حديث « أربع لا يعطيهم الله إلا من يحب : الصمت وهو أول العبادة ، والتوكل على الله والتواضع ، والإهدى في الدنيا » أخرجه الطبراني والحاكم من حديث أنس « أربع لا يصبن إلا بسبب الصمت وهو أول العبادات والتواضع ذكر الله وقله الشيء » قال الحاكم صحيح الاسناد قلت فيه العوام بن جورية قال ابن حبان يروى للوضعات ثم روى له هذا الحديث

(٤) حديث ابن عباس « إذا تواضع العبد رفع رأسه إلى السماء السابعة » أخرجه البيهقي في الشعب نحو موفيز معة بن صالح ضفه الجمهور (٥) حديث « إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة ... الحديث » أخرجه الترغيب والترهيب من حديث أنس وفيه بشر بن الحسن وهو ضعيف جداً ورواه ابن عدى من حديث ابن عمرو وفي الحسن بن عبد الرحمن الاحتياض وخارجه بن مصعب وكلامه ضعيف (٦) حديث : كان يطعم فجاء رجل أسود به جذرى فجعل لا يجلس إلى أحد الا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وآله إلى جنبه . لم أجده هكذا وللمروفي أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث جابر كما تقدم (٧) حديث « إنه ليحببني أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه » غريب

(٨) حديث « مالى لا أرى عليكم حلاوة العبادة » قالوا : وما حلاوة العبادة ؟ قال « التواضع » غريب أيضاً (٩) حديث « إذا رأيتم التواضعين من أمق فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فكبروا عليهم فإن ذلك لهم مثله وصغار » غريب أيضاً .

وقال يوسف بن أسباط : يحزى قليل الروح من كثير العمل ويحزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد . وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ما هو ؟ فقال : أن تخضع الحق وتنفذ له ولو سمعته من صبي قبله ولو سمعته من أجهل الناس قبله . وقال ابن المبارك : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلم أنه ليس لك بدنياك عليه فضل ، وأن ترفع نفسك عن مو فوقك في الدنيا حتى تعلم أنه ليس له بدنياه عليك فضل .

وقال قتادة : من أعطى مالا أو جالا أو ثيابا أو علما ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالأيام القيامة . وقيل أوصى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : إذا نعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكافة أعظمها عليك . وقال كعب : ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فسكرها الله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع بها درجة في الآخرة ، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقا من النار يذهب به إن شاء الله أو يتجاوز عنه .

وقيل لعبد الملك بن مروان : أى الرجال أفضل ؟ قال : من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصرة عن قوة. ودخل ابن السكك على هرون فقال : يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك ، فقال : ما أحسن ماقلت ، فقال : يا أمير المؤمنين إن أرا الله جمالا في خلقته وموضعا في حسبه وبسط له في ذلك يده فنف في جماله وواسى من ماله وتواضع في حسبه كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله ، فدعا هرون بدواة وقرطاس وكتبه بيده .

وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول : مسكين مع مساكين . وقال بعضهم : كما تنكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدون فكذلك فاكركه أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة .

وروى أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن : أعبدون ما التواضع ؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلما إلا رأيت له عليك فضلا . وقال مجاهد : إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام شجنت الجبال وتطاوت وتواضع الجودي فرمى الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه . وقال أبو سليمان إن الله عز وجل اطلع على قلوب الأعمىين فلم يجد قلبا أشد تواضعا من قلب موسى عليه السلام فخصه من ينهم بالسكلام .

وقال يونس بن حبيب وقد انصرف من عرافات : لم أشك في الرحمة لولا أني كنت معهم إلى أخشي أنهم حرموا بسبي . ويقال : أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه ، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه . وقال زياد التمرى : الزاهد ينير تواضع كالشجرة التي لا تثمر . وقال مالك بن دينار : لو أن مناديا ينادى بباب المسجد ليخرج شرك رجلا والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلا بفضل قوة أو سعى قال : فلما بلغ ابن المبارك قوله قال : بهذا صار مالك مالكا . وقال الفضيل : من أحب الرياسة لم يفلح أبدا .

وقال موسى بن القاسم : كانت عندنا ذرة قوريج حراء فخبعت إلى محمد بن مقاتل فقلت : يا أبا عبد الله أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا ، فبكي ثم قال : ليتني لم أكن سبب هلاككم ، قال : فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال : إن الله عز وجل رفع عنك بدعاء محمد بن مقاتل .

وجاء رجل إلى الشبلي رحمه الله فقال له : ما أنت ؟ وكان هذا دأبه وعادته ، فقال : أنا التمتعة التي تحت الباء ، فقال له الشبلي : أباد الله شاهدك أن تجلس لنفسك موضعا . وقال الشبلي في بعض كلامه : ذل عطل ذل اليهود . ويقال من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب . وعن أبي الفتح بن شخرف قال : رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام فقلت له : يا أبا الحسن حظي ، فقال لي : ما أحسن التواضع بالأغنياء . في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله وأحسن من ثيب الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله عز وجل ، وقال أبو سليمان : لا يتواضع العبد حتى يعرف

نفسه . وقال أبو يزيد : مادام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر ، فقيل له : فمتى يكون متواضعا ؟ قال : إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا ، وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته بنفسه . وقال أبو سليمان : لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كأضعاف عند قبي ماقدموا عليه . وقال عروة بن الورد : التواضع أحد مضايده الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبا إلا التواضع . وقال يحيى بن خالد البرمكي : الشرف إذا تنسك تواضع . والسفة إذا تنسك تعاظم . وقال يحيى بن معاذ : التكبر على ذرى التكبر في عليك بالله تواضع ، ويقال : التواضع في الخلق كلهم حسن ، وفي الأغنياء أحسن ، والتكبر في الخلق كلهم قبيح ، وفي الفقراء أفح . ويقال : لا عز إلا لمن تذل له عز وجل ، ولا رفة إلا لمن تواضع لله عز وجل ، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل ، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل . وقال أبو علي الجوزاني : النفس مسجونة بالسكبر والحرص والحسد ، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والتصيحة والقناعة ، وإذا أراد الله تعالى به خيرا لطف به في ذلك ، فإذا هاجمت في نفسه نار السكبر أدركها التواضع مع نصرة الله تعالى ، وإذا هاجمت نار الحسد في نفسه أدركتها التصيحة مع توفيق الله عز وجل ، وإذا هاجمت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عز وجل . وعن الجنيد رحمه الله أنه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه لولا أنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم »<sup>(١)</sup> ما تكلمت عليهم . وقال الجنيد أيضا : التواضع عند أجل التوحيد تكبر ؛ ولعل مراده أن التواضع يثبت نفسه ثم يضمها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضمها أو يرفضها . وعن عمران بن شيبة قال : كنت بمكة بين الصفا والمروة فأريت راكبا بثلة وبين يديه غلمان وإذا هم يحفون الناس ، قال : ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكشفت على الجسر ، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال : جلست أنظر إليه وأنا مله فقال لي : مالك تنظر لي ؟ فقلت له : شئت بك رجل رأيته بمكة ، ووصفت له السفة ، فقال له : أنا ذلك الرجل ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : إني ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعتني الله حيث يترفع الناس . وقال المنيرة : كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبه الأمد . وكان يقول : إن زمانا صرت فيه فقيه الكوفة زمان سوء . وكان عطاء السلي إذا سمع صوت الزعد قام وقعد وأخذ يبطه كأنه امرأة ماخض ، وقال : حسنا من أجل يسبيكم ، لو مات عطاء لاستراح الناس . وكان بشر الحافي يقول : سلوا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم . ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال : أعطاك الله ما ترجوه ، فقال : إن الرجل يكون بعد المرفة فأين المرفة ؟ وتفاخرت فريش عند سليمان الفارسي رضي الله عنه يوما فقال سليمان : لكى خلقت من طفلة قدوة ثم أعود حبيبة منته ثم آق المران فان قلل فانا كريم وإن خف فانا كرم . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : وجدنا الكرم في التقوى ، والنفي في اليقين ، والشرف في التواضع . نسأل الله الكريم حسن التوفيق .

### بيان حقيقة الكبر وأفعه

أعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر : فالباطن هو خلق النفس ، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح . واسم الكبر بالخلق الباطن أحق ، وأما الأعمال فاتها ثمرات لذلك الخلق . وخلق الكبر موجب للأعمال ولذلك إذا

(١) حديث « يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة « إذا اتخذ الناس دولا ... الحديث » وفيه « كان زعيم القوم أرذلهم ... الحديث » وقال غريب ولهم حديث طي بن أبي طالب « إذا ضلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاد » فذكر منها « وكان زعيم القوم أرذلهم » ولأبي نعيم في الحليتين حديث حذيفة « من اقتراب الساعة اثنان وسبعون خصلة » فذكرها منها وفيها فرج بن فضالة ضيف .

ظهر على الجوارح يقال تكبر، وإذا لم يظهر يقال في نفسه كبر. فالأصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق التكبر عليه فإن التكبر يستلحق تكبرا عليه وتكبرا به، وبه ينفصل الكبر عن العجب - كما سيأتي - فإن العجب لا يستلحق غير المعجب بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجبا، ولا يتصور أن يكون متكبرا إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبرا، ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه، ولا يكفي أن يستعثر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر، لأن هذه الرؤية تبقى الكبر، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه، فيحصل في قلبه اعتداد وهوة وفرح وركون إلى ما اعتضده وعز في نفسه بسبب ذلك فلك العزة والمهابة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر. ولذلك قال النبي ﷺ «أعوذ بك من فتنة الكبرياء» (١) وكذلك قال عمر: أخشى أن تنفخ حتى تبلغ الثريا، الذي استأذنه أن يخطب بعد صلاة الصبح. فكان الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين - وهو الاستعظام - كبر واتفخ وتمرد.

فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاستقادات، وتسمى أيضا عزة وتعظا، ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى (إن في صدورهم الاكبر مام يبالغون) قال: عظمة لم يبلغوها، ففسر الكبر بذلك العظمة.

ثم هذه العزة تقتضي أعمالا في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبرا فإنه مهما عظم عند مقدرة بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وازدراه وأصاه عن نفسه وأبهده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته، ورأى أن حقه أن يقوم ماثلا بين يديه إن اشتد كبره فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامهم ولم يجلسه أهلا للقيام بين يديه ولا غدمه عنقه، فإن كان دون ذلك فيأثق من مساواته وتقدم عليه في مضائق الطرق وارتفع عليه في المحافل واثطر أن يدها بالسلام واستبعد قصصه في قضاء حوائجه وتعيب منه، وإن حاج أو ناظر أقب أن يرد عليه وإن وعظ استنكف من القول، وإن وعظ عث في التصح، وإن ود عليه شيء من قوله غضب وإن علم لم يرقق بالمسلمين واستنكف واتهمز وأتمن عليهم واستخسهم، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الخمر استحقالا لهم واستحقارا. والأعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة. فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلبا يفتك منه العباد والزهاد والمبلاء فضلا عن عوام الخلق، وكيف لا تعظم آفته وقد قال النبي ﷺ «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر» (٢) وإنما صار حجبا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين الأخلاق المؤمن كلها؛ وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة.

والكبر وعزة النفس يفتك تلك الأبواب كلها، لأنه لا يقدر على أن يحب للؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر أن يدمع على الصديق وفيه العز، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على التصح الطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول التصح وفيه العز. ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتياهم وفيه العز. ولا معنى للتطويل لما من خلق

(١) ذرة حديث «أعوذ بك من فتنة الكبرياء» تقدم فيه. (٢) حديث «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال من كبر» تقدم فيه.



ذم إلا وصاحب المز والتكبر مضطر إليه ليحفظ به عزه ، وما من خلق عمود إلا وهو طاهر عنه خوفاً من أن يفوته عزه ، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من . والأخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لأحاطة . وشر أنواع التكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والاعتقاد له . وفيه وردت الآيات التي فيها ذم التكبر والتكبرين قال الله تعالى ( والملائكة باسطوا أيديهم ) للإغولة ( وكنتم من آياته تستكبرون ) ثم قال ( ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فليس ينسى التكبرين ) ثم أخبر أن أشد أهل النار عذاباً أشد منهم عذاباً على الله تعالى فقال ( ثم لنذعن من كل شعبة أبهم أشد على الرحمن عتياً ) وقال تعالى ( فالذين لا يؤمنون بالأخرة قلوبهم مسكرة وهم مستكبرون ) وقال عز وجل ( يقول الذين استضعفوا الذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ) وقال تعالى ( إن الذين يستبذرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ) وقال تعالى ( سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ) قيل في التفسير : سأدفع عنهم القرآن عن قلوبهم ، وفي بعض التفسيرات سأحجب قلوبهم عن الملكوت . وقال ابن جرير : سأصرفهم عن أن يفكروا فيها ويعتبروا بها . ولذلك قال المسيح عليه السلام : إن الزرع يبت في السهل ولا يثبت على الصفا ، كذلك الحكمة تعمل في قلب التواضع ولا تعمل في قلب التكبر ، ألا ترون أن من شئخ برأس إلى السقف شجة ، ومن طامأ ظله وأكنه . فهذا مثل ضربته للتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة ، ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجود الحق في خلتكبر والكشف عن حقيقته وقال « من سفه الحق وغصص الناس (١) » .

### بيان التكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات التكبر فيه

اعلم أن التكبر عليه هو الله تعالى أودسه أو سائر خلقه ، وقد خلق الإنسان ظليوماً جعولاً ، فتارة يتكبر على الخلق وتارة يتكبر على الخالق ، فإذا للتكبر باعتبار التكبر عليه ثلاثة أقسام :

الأول : التكبر على الله ، وذلك هو الخشن أنواع التكبر ، ولأما ثلث له إلا الجهل الضن والطغيان مثل ما كان من عمرو فإنه كان يحدث نفسه بأن يقاقل رب السماء . وكما يمكن عن جماعة من الجهلة . بل ما يمكن عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره ، فإنه لتكبره قال : أنا ربكم الأعلى ، إذا استكف أن يكون عبداً لله ، ولذلك قال تعالى ( إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ) وقال تعالى ( لن يستكشف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرون ) الآية وقال تعالى ( وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ) .

القسم الثاني : التكبر على الرسل من حيث تعز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس ؛ وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيقي في ظلة الجهل بكبره ، فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه عتق فيه ، وتارة يمتنع مع المرفق ولكن لا طواعية نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل ، كما حكى الله عن قومهم ( أنؤمن لبشرين مثلنا ) وقولهم ( إن آتينا إلا بشر مثنا . ولئن أعلمتم بشرا مثلكم إنكم لئذا لحضرون وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً . وقالوا لولا أنزل عليه

(١) حديث « الكبر من منه الحق وغصص الناس » أخرجه من حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال « بطرالحق وغصط الناس » ورواه الترمذي قال « من بطرالحق وغصص الناس » وقال حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عتبة ابن عامر بلفظ المصنف ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي ربحانة هكذا .

ملك) وقال فرعون فيما أخبر عنه (أوجاء معه الملائكة مقرنين) وقال الله تعالى ﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ﴾ فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعا . قال وهب قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك ، قال : حتى أشاور هامان ، فشاور هامان فقال هامان : بينما أنت رب تعبد إذ صرت عبدا تعبد فاستكشف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام . وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ قال قتادة : عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي ، طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي ﷺ إذ قالوا غلام يتيم كيف يشاء الله إلينا ؟ فقال تعالى ﴿ أقم تقسمون رحمة ربك ﴾ وقال الله تعالى ﴿ ليقولوا أمولاء من الله عظيم من ينشأ ﴾ أى استحقاراً لهم واستحقاداً لتقدمهم . وقالت قريش لرسول الله ﷺ : كيف تجلس إليك وعندك هؤلاء ؟ وأشاروا إلى فقراء المسلمين ، فزددوم بأعينهم فقرهم ، وتكبروا عن مجالستهم فأزل الله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ إلى قوله ﴿ ما عليك من حسابهم ﴾ وقال تعالى ﴿ واسبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ (١) ثم أخبر الله تعالى عن تسجيهم حين دخلوا جهنم إذ لم يروا الذين ازدوم فقالوا ﴿ ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ﴾ قيل يننون عمدا وبلاا وصحبوا المقصد رضى الله عنهم . ثم كان منهم من منعه التكبر عن الشكر والمعرفة فعمل كونه ﷺ عفا . ومنهم من عرف ومنعه التكبر عن الاعتراف قال الله تعالى مغبرا عنهم ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ وقال ﴿ وجعلوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ وهذا التكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وإن كان دونه ، ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله .

انقسم الثالث : التكبر على العباد ؛ وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحققر غيره ، فتأني نفسه عن الانقياد لهم وتدعوهم إلى الترفع عليهم فيزدريهم ويستعظمهم ويألف من مساواتهم ، وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضا عظيم من وجهين ، أحدهما : أن التكبر والغرور والمظنة والعلالة لا يليق إلا بالملك القادر ، فأما العبد المملوك الضعيف المأجور الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بحاله التكبر ؟ فمعها تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بهلاله ، ومثاله : أن لا يأخذ الغلام قفسوا لملك فيضمها على رأسه ويجلس على سريره ؛ فما أعظم استحقاقه لمقت وما أعظم تهديه للخرى والنكال ؛ وما أشد استجراؤه على مولاه وما أقبح ما تعاطاه ؛ وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى ﴿ العظيمة إذ ارى والكبرياء رداق فمن نازعتني فيها قصته ﴾ أى أنه خاص صفى ولا يليق إلا به ، والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي . وإذا كان التكبر على عباده لا يليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه ، إذ الذى يترذل خراس غلمان الملك ويستخفهم ويرفع عليهم ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره ، وإن لم يبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه ، فالحق كلهم عباده الله والعظمة والكبرياء عليهم . فمن تكبر على عباده من عباده الله فقط نازع الله في حقه . نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة تمرد وفرعون . ما هو الفرق بين منازعة الملك في استغفار بعض عييده واستخفافهم وبين منازعة في أصل الملك .

(١) حديث « قالت قريش لرسول الله ﷺ : كيف تجلس إليك وعندك هؤلاء ... الحديث » في نزول قوله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص إلا أنه قال « فقال للشركون » وقال ابن ماجه « قالت قريش » .

الوجه الثاني : الذي تعظم به وذية الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى وأوامره ، لأن التكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتسمر لجده ، ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون ظن أسرار الدين ثم إنهم يتباحثون تجاهد المتكبرين . ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أتى الآخر من قبوله ، وتسمر لجده وأحال لدفعه بما يقدر عليه من التليس وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين ، إذ وصفهم الله تعالى فقال ( وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ) فكل من يناظر للغبلة والإفهام لا يفتخر الحق إلا ظفر به فقد شاركهم في هذا الحق ، وكذلك يحمل ذلك على الألفة من قبول الوعد كما قال تعالى ( وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ) وروى عن عمر رضي الله عنه أنه قرأ ما فقال ( إنا لله وإنا إليه راجعون ) قام رجل يأمر بالمعروف يقتل ، فقام آخر فقام : يقتلون الذين بأمرهم بالفسط من الناس ، قتل المشكبة الذي خالفه والذي أمره كبر . وقال ابن مسعود : كفى بالرجل إثما إذا قيل له اتق الله قال : عليك نعمك ! وقال صلى الله عليه وسلم لرجل « كل يمينك » قال : لا أستطيع ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا استطعت ، فما منه إلا كبره ، قال : فارقها بعد ذلك (١) أي احطت يده ، فإذا تكبره على الحق عظيم لأنه سيدعو إلى الكبر على أمره ، وإنما ضرب إيليس مثلا لهذا ، وما حكا من أحواله إلا ليعبر به ، فإنه قال : أناخير منه ، وهذا الكبر بالنسب لأنه قال : أناخير منه خلقتي من نار وخلقته من طين ، فحمله ذلك على أن يتمتع من السجود الذي أمره الله تعالى به ، وكان ميذوه الكبر على آدم والحسد له لجره ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى ، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الأباد . فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة ، ولذلك شرح رسول الله ﷺ الكبر بهاتين الآيتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال يا رسول الله إني امرؤ قد حبيب إلى من الجال ما ترى أقم الكبر هو ؟ فقال ﷺ « لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس » (٢) وفي حديث آخر « من سفه الحق » (٣) وقوله « وغمص الناس » أي أزدراهم واستخفهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه . وهذا الآفة الأولى « وسفه الحق » هو رده وهي الآفة الثانية ، فكل من رأى أنهخير من أبيه واحقر أخاه وأزدراه ونظر إليه بعين الاستسناد ، أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فهاينته بين الحق ، ومن أتى من أن يخضعه تعالى ويتواضع له بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله .

### بيان ما به التكبر

اعلم أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه ، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال . وجماع ذلك يرجع إلى كالدني أو دنوي ، فالدني هو العلم والعمل ، والدنوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأصار . فهذه سبعة أسباب .

الأول : العلم ، وما أسرع الكبر إلى العلماء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « آفة العلم الخيلاء » (١) فلا يلبث

(١) حديث : قال لرجل « كل يمينك » قال : لا أستطيع قال « لا استطعت » الحديث أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع . (٢) حديث : قول ثابت بن قيس بن شماس إني امرؤ قد حبيب إلى من الجال ما ترى ... الحديث « وفيه » الكبر من بطر الحق وغمص الناس » أخرجه مسلم والترمذي وقد قدم قبله بعديين (٣) حديث « الكبر من سفه الحق وغمص الناس » تقدم معه (٤) حديث « آفة العلم الخيلاء » قلت : هكذا ذكره المصنف والمعروف « آفة الجال الخيلاء » هكذا رواه القاضي في مسند الشهاب من حديث علي بن مسعود . وروى عنه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس « آفة الجال الخيلاء » وفيه الحسن بن الحيد الكوفي لا يدري من هو حدث عن أبيه حديثه عن غيره قاله صاحب اللباز

العلم أن يمتزج بجزء العلم يستفعر في نفسه جمال العلم وكأله ويستعظم نفسه ويستحق الناس وينظر اليهم نظره الى الهائم ويستجملهم ويتوقع أن يمدوه بالسلام ، فإن بداه واحد منهم بالسلام أو رد عليه بيشر أو قام له أو أعجاب له دعوة رأى ذلك صنعة عنده ويذا عليه يلزمه شكرها ، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم مالا يستحقون من مثله . وأنه ينبغي أن يرقوا له ويخضعوه شكرا له على صنيعه . بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرم ويبرونه فلا يبروم ويمودونه فلا يمودم ويستخفون من حاله منهم ويستسخرونه في حوائجه . فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو أمراؤه وكان تعليمه العلم صنعة منه اليهم ومعروف لبيهم واستحقاق حق عليهم . هذا فيما يتعلق بالدنيا . أما في أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم . فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم . وهذا بأن يسمى جاهلا أول من أن يسمى عالما ؛ بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة الحق على العلماء وعظم خطر المفارقة — كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم — وهذا العلم يزيد خوفا وتواضعا وتخفعا ؛ ويتقضى أن يرى كل الناس خيرا منه لعظم حجة الله عليهم بالعلم . وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم . ولهذا قال أبو الفداء : من ازداد علما ازداد وجها وهو كما قال .

فإن قلت : فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا وأما ؟

فاعلم أن لذلك سببين :

( أحدهما ) أن يكون اشتغاله بما يسمى علما وليس علما حقيقيا . وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه . خطر أمره في لقاء الله والحجاب منه . وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب والقتل والشر والنحو وفنون الخصومات وطرق المجادلات ، فإذا تمرد الإنسان لما حتى امتلا منها امتلا بها كبرا ونفاقا . وهذه بأن تسمى صناعات أول من أن تسمى علوما . بل العلم هو معرفة المعبودية والربوبية وطريق العبادة . وهذه تورث التواضع غالبا .

(السبب الثاني) أن يخوض العبد في العلم وهو غيب الخلة رضى النفس سوى الأخلاق . فانه لم يشغل أولا بتهديب نفسه وتركيز قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه بقي غيب الجهر . فإذا خاض في العلم — أى علم كان — صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا فلم يطلب ثمره ولم يظهر في الخير أثره . وقدر خرب وهب لهذا مثلا فقال : العلم كالنبت ينزل عن السماء حلوا صافيا تشربه الأشجار بعرونها فتحو له على قدر طموها فيزداد المرمرارة والحلو حلوة ، فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحو له على قدر ممها وأهواتها ، فيزيد التكبر كبرا والتواضع تواضعا ، وهذا لأن من كانت همة الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبرا ، وإذا كان الرجل خافيا من جهله فازداد علما أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفا وإشفاقا ودلا وتواضعا ، فاعلم من اعظم ما يتكبر به ، ولذلك قال تعالى لنبيه عليه السلام ﴿ واحضض جناحك لمن انعمك من المؤمنين ﴾ وقال عز وجل ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لا تقتضوا من حواك ﴾ ووصف أولياء مقال (ألقه على المؤمنين أجرة على الكافرين) وكذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه العباس رضى الله عنه « يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون : قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن اعلم منا » ثم انفتحت إلى أصحابه وقال « أولئك يتكبروا بالآمة أولئك هم

وقود النار<sup>(١)</sup> ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يني عليكم مجهلكم . ولذلك استأذن تميم الداري عمر رضي الله عنه في القصص فأبى أن يأذن له وقال : إنه الذبح ، واستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم فقال : إني أخاف أن تنتفض حتى تبلغ الثريا . وصلى حذيفة يقوم قلبا سلم من صلاته قال : لتنسن إماما غيري أو لتسن وحدنا فأبى رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني . فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة ؟ فما أحر على بسط الأرض علما يستحق أن يقال له عالم ثم إنه لا يحركه عن العلم وخياله ، فإن وجد ذلك فهو صديق زمام ، فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فعلا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله ؛ لو عرفنا ذلك ولو في أقصى الصين لسعينا إليه رجلا أن تشملنا بركته ونسرى إلينا سيرته وبجيته ، وهيات أفأني أسمع آخر الزمان بمنهم ؟ فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول قد أقرضوا في القرن الأول ومن يليهم ، بل يمر في زماننا عالم يتخلج في نفسه الأسف والحزن على قرات هذه الحصلة ، فذلك أيضا إما معدوم ولما عزيز . ولولا بشاره رسول الله ﷺ بقوله « سيأتي على الناس زمان من تمسك فيه بشر ما تم عليه نجا »<sup>(٢)</sup> لكان جدرا بنا أن نقنعهم واليأاذ بالله تعالى ورطة اليأس والقنوط مع ماغن عليه من سوء أفعالنا ، يوم لنا أيضا بالتمسك بشر ما كانوا عليه ، ولتينا تمسكنا بشر عشرة . فقلنا الله تعالى أن باملنا بما هو أهله ويستر علينا قبائح أفعالنا كما يقتضيه كرمه وقضه .

الثاني : العمل والعبادة ؛ وليس يغفل عن رذيلة العز والكبر واستئالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويرشح الكبر منهم في الدين والدنيا .

( أما في الدنيا ) فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أول منهم زيارة غيرهم ، ويتوفون قيام الناس بقضاء حاجتهم وتوهمهم والتوسع لهم في المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ - إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء - وكانهم يرون عبادتهم مئة على الخلق .

( وأما في الدين ) فهو أن يرى الناس ما الكين ويرى نفسه ناجيا وهو المالك تحقيقا - مهما رأى ذلك - قال ﷺ « إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم »<sup>(٣)</sup> وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر يخلق الله مفر باقه آمن من مكره غير خائف من سطوته ، وكيف لا يخاف ؟ وكيف شرأ احتقاره لغيره . قال ﷺ « كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم »<sup>(٤)</sup> وكمن الفرق بينه وبين من يحبه ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له مالا يرجوه لنفسه ، فالخلق مدركون النجاة بتظيمهم إياه لله ، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالذنوب وهو يشمت إلى الله بالنزوه والتباعد منهم ، كأنه مترفع عن مجالستهم ، فا أجدرهم إذا أحبوه لصالحه أن ينقلهم الله إلى درجات في العمل ، وما أجدره إذ أزدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإيمان ! كما روى أن رجلا في بني إسرائيل كان يقال له خليف بني إسرائيل - لكثرة فساده - مر رجل آخر يقال له : عابد بني إسرائيل ، وكان على رأس العابد إقامة قتله ، فلما اس الخليف به فقال الخليف في نفسه : أنا خليف بني إسرائيل وهذا عابد بني إسرائيل ، فلو جلست إليه

(١) حديث الباس « يكون قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فنقرأ أنا... الحديث » أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (٢) حديث « سيأتي على الناس زمان من تمسك بشر ما تم عليه نجا » أخرجه أحمد من رواية رجل عن أبي ذر .

(٣) حديث « إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم » أخرجه مسلم حديث أبي هريرة .

(٤) حديث « كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم من حديث أبي هريرة بلفظ « امرؤ من الشر » .

لعل الله يرحني ! اجلس اليه فقال العابد : أنا عابد بني اسرائيل وهذا خليع بني اسرائيل فكيف يجلس الي ؟ فأقف منه وقاله : قم عني ! فأوحى اقلل لي ذلك الزمان : مرهما فليستا ثفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد . وفي رواية أخرى : فتحوكت التمامة إلى رأس الخليع .

وهذا يفرق أن الله تعالى إنما يريد من العبد قلوبهم ، فالجاهل الماعى إذا تواضع هيبة لله وذل خوفاً منه فقد أطاع الله بقلبه ، فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب . وكذلك روى أن رجلاً في بني اسرائيل أتى عابداً من بني اسرائيل فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال : ارفع فوائقه لا يفرق الله له (١) فأوحى اليه أيها المتأني بل أنت لا يفرق الله لك وكذلك قال الحسن : وحي أن صاحب الصوف أشد كبراً من صاحب المطر الخنزير ؛ أي أن صاحب الخنزير يذل لصاحب الصوف ويرى الفضل له وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه وهذه الآية أيضاً قلما ينفك عنها كثير من العباد ، وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يفرق الله له ، ولا ينفك في أنه صار بمقوتاً عند الله ، ولو أتى مسلماً آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده ، وهو جهل وجمع بين التكبر والمعجب واعتار باقه وقد انتهى الحق والعبادة ببعضهم إلى أن يتحدثوا ويقول : سترون ما يجري عليه . وإذا أصيب بتكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله والانتقام له منه ، مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله ، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم فنفهم من قتلهم ومنهم من ضربهم ، ثم إن الله أهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا ، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة ، ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقم له بما لا ينقسم لأنبيائه به ، ولمسه في مقت الله بأعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة الملتزمين .

(وأما الأكياس من العباد) فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كان تهب ريح أو تقع ساعة : ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بيبى ولو مات عطاء لتخلصوا . وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات : كنت أروى الرحمة بجميعهم لولا كوني فيهم . فانظر الى الفرق بين الرجلين هذا يتقى الله ظاهراً وباطناً ؛ وهو وجل على نفسه مرد بعمله وسعيه ، وذلك ربما يضمر من الرياء والكبر والحمد والقل ما هو ضحك الشيطان به ، ثم أنه يمتن على الله بعمله . ومن اعتقد جزماً أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بعمله جميع عمله ، فإن الجهل الخش الماعى وأعظم شيء يبعد العبد عن الله ، وحكمة لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ولذلك روى أن رجلاً ذكر بخير لثني ﷺ فأقبل ذات يوم فقالوا : يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك ، فقال « إنى أرى في وجهه سفة من الشيطان » فسلم ووقف على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ « أسألك باقه حدثتك نفسك أن ليس في القوم أفضل منك » قال : اللهم نعم (٢) فرأى رسول الله ﷺ بنور النبوة ما استكن في قلبه سمعه في وجهه . وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد الا من عصمه الله .

لكن العلماء والعباد في آفة التكبر على ثلاث درجات :

(الدرجة الأولى) أن يكون التكبر مستتراً في قلبه يرى نفسه خيراً من غيره ، الا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل

(١) حديث «الرجل من بني اسرائيل الذي وطئ على رقبته عابداً من بني اسرائيل وهو ساجد فقال : ارفع فوائقه لا يفرق الله لك الحديث» أخرجه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة في قصة العابد الذي قال للماعى « والله لا يفرق الله لك أبداً » وهو ينبر هذه السياق وإسناده حسن (٢) حديث : أن رجلاً ذكر بخير لثني ﷺ فأقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك قال « إنى أرى في وجهه سمعة من الشيطان » الحديث أخرجه أحمد والبخاري والدارقطني من حديث انس

فمن يرى غيره خيراً من نفسه ، وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية .

( الثانية ) أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس والتقدم على الأقران وإظهار الإنكار على من يقصر في حقه ، وأدنى ذلك في العالم أن يصبر خدع الناس كأنه مريض عنهم ، وفي العابد أن يبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزّه عن الناس مستغنى لهم أو غضبان عليهم وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ولا في الوجه حتى يبس ولا في الخد حتى يصبر ولا في الرقبة حتى تطأطأ ولا في الذيل حتى يضم ، إنما الورع في القلوب ، قال رسول الله ﷺ « والتقوى ههنا » وأشار إلى صدره (١) فقد كان رسول الله ﷺ : أكرم الخلق وأتقاهم وكان أواسمهم خلفاً وأكثرهم بشراً وتيسياً وانيساطاً (٢) ولذلك قال الحرث بن جزء الويسدي صاحب رسول الله ﷺ : يبعثني من القراء كل طليق مضحك ، فأما الذي تلقاه ببشر وبلغاك بعيوس بمن عليك بطله ، فلا أكثر الله في المسلمين مثله . ولا كان الله سبحانه تعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه ﷺ ( واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ) وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم فأحوطهم أضعف حالاً من هو في ( الرتبة الثانية ) وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعو إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكايات الأحوال والمقامات والتشعر لغلبة الغيرة في العلم والعمل .

أما العابد فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد ومن هو وما عمله ومن أين زهده ؟ فيطول اللسان فهم بالتقصص ، ثم يثني على نفسه ويقول : إن لم أفطر منذ كذا وكذا ولا أنام الليل وأتمم القرآن في كل يوم ، وفلان يتامس سرا ولا يكثر القراءة ، وما يجري مجراه ، يدعي الكرامة لنفسه . وأما مباهاة فهو أكثر وقوع مع قوم يصلون بالليل قاموا صلى أكثر مما كان يصلي ، وإن كانوا يصبرون على الجوع فيكلف نفسه الصبر لينالهم ويظهر لفرقه وعجزهم ، وكذلك يشتد في العبادة خوفاً من أن يقال غيره أعبدته أو أقوى منه في دين الله .

وأما العالم فإنه يتفاخر ويقول : أنا متفنن في العلوم ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلانا وفلانا . ومن أنت وما فعلك ومن لقيت ؟ وما الذي سمعت من الحديث ؟ كل ذلك ليصغره ويظم نفسه وأما مباهاة : فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يظلب ولا يظلب ولا يسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يجمل بها في المحافل ، كلناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيل الألفاظ ، وحفظ العلوم الثرية ليغرب بها على الأقران ويعظم عليهم ، ويحفظ الأحاديث الفاظها وأسانيداً حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله وتقصان أقرانه ، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه ويسوه إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه .

فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يشمرها التمرؤ بالعلم والعمل ، وأن من ينظر عن جميع ذلك أو بعضه ؟ فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله ﷺ « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » (٣) كيف يستعظم نفسه ويكبر على غيره ورسول الله ﷺ يقول إنه من أهل النار ؟ وإنما العظيم من خلا عن هذا ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظيم وتكبر . والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له : إن لك عندنا قدراً مالم تر لنفسك قدراً فإن رأيت لها قدراً فلا قدر لك عندنا . ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب ، ومن علمه لومه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدراً فهذا هو التكبر بالعلم والعمل .

(١) حديث « التقوى ههنا » وأشار إلى صدره . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٢) حديث « كان أكرم الخلق وأتقاهم ... الحديث » تقدم في كتاب أخلاق النبوة . (٣) حديث « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » تقدم

الثالث : التكبر بالحسب والنسب ، فالتقى له نسب شريف يستحق من ليس م ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملا وعلا ، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ويألف من مخالطتهم وبجالتهم ، ثم يحل اللسان التفاخر به فيقول لغيره : يا بنطي ويا مئدي ويا أرمني من أنت ومن أيوك . فأتا فلان ابن فلان ، وأين لك أن يكلمني أو ينظر الي ، ومع مثل تكلم . وما يجري مجراه . وذلك عرق ذوق في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان صالحا وماثلا ، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال ، فإن غلبه غضب أطفأ ذلك بنور بصيرته وترشح منه كما روى عن أبي ذر أنه قال : قالوا لرجل عند النبي ﷺ فقلت له : يا ابن السوداء . فقال النبي ﷺ « يا أباذر طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل » (١) فقال أبو ذر رحمه الله : فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدي . فانظر كيف نهى رسول الله ﷺ أنه رأى لنفسه فضلا بكونه ابن بيضاء وأن ذلك خطأ وجهل ! وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخص قدم من تكبر عليه إذ عرف أن العز لا يعممه إلا الذل . ومن ذلك ما روى أن رجلين تفاخرا عند النبي ﷺ فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك . فقال النبي ﷺ « انظر رجلا عند موسى عليه السلام قتال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل للذي افتخر بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم » (٢) وقال رسول الله ﷺ « ليدعن قوم الفخر بأبائهم وقد صاروا لحما في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجملان التي تنرف بأناها القدر » (٣) .

الرابع : التفاخر بالمال وذلك أكثر ما يجري بين النساء ويبدو ذلك إلى التقصص والتلبغيبية وذكر عيوب الناس ومن ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت بيدي هكذا أي أنها قصيرة فقال النبي ﷺ « قد اغتبتها » (١) وهذا مشوه خفاء الكبر لأنها لو كانت أيضا قصيرة لما ذكرتها بالقصر ، فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت للمرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت .

الخامس : الكبر بالمال ؛ وذلك يجري بين الملوك في خزانهم وبين التجار في بضائهم وبين الدماقين في أراضهم وبين المتجملين في لباسهم وخبولهم ومراكبهم ، فيستحقرون التقى الفقير ويتكبر عليه ويقول له : أنت مكذوب مسكين وأنا لو أردت لأشريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ، ومن أنت ؟ وما مملوك وأنت بيتي يساوي أكثر من جميع مالك ؟ وأنا أفق في اليوم مالا تأكله في سنة . وكل ذلك لاستعظام التقى واستحقاره للفقير ، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآلة التقى ، والبه الإشارة بقوله تعالى ( فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وعر تقرا ) حتى أجابه فقال ( إن ترى أنا أقل منك مالا وولدا فمسي ربي أن يؤتيني خيرا من جنتك ويرسل عليا حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤنا غورا فلا تستطيع له طلبا ) وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد ،

(١) حديث أبي ذر : قالوا لرجل عند النبي ﷺ فقلت له يا ابن السوداء ... الحديث « أخرجه ابن المبارك في البر الوصلة مع اختلاف ولا أحد من حديث أن النبي ﷺ قاله « انظر فإنك لست بخير من أحر ولا أسود إلا أن فضله يتقوى » (٢) حديث « أن رجلين تفاخرا عند النبي ﷺ فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أب لك ... الحديث . أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد السند من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه أحمد موقوفا على معاذ بقصة موسى فقط (٣) حديث « ليدعن قوم الفخر بأبائهم وقد صاروا لحما في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجملان ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن حبان من حديث أبي هريرة (٤) حديث عائشة : دخلت امرأة على النبي ﷺ فقلت بيدي هكذا ، أي أنها قصيرة ... الحديث . ختم في آتت اللسان .



ثم بين الله عاقبة أمره بقوله ( ياليتي لم أشرك بربى أحداً ) ومن ذلك تكبر قرون إذ قال تعالى إخباراً عن تكبره ( نخرج على قومه في ذبته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لندو حظ عظيم ) .

السادس : التكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف .

السابع : التكبر بالاتباع والأنصار والتلازمة والغلمان والعشيرة والأقارب والبنين ، ويجرى ذلك بين الملوك في المسكارة بالجنود ، وبين العلماء في المسكارة بالمستفيدين .

وبالجملة فكل ما هو تعمة وأمكن أن يعتد كالا وإن لم يكن في نفسه كالا أمكن أن يتكبر به ، حتى إن الخنثى ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة الخنثين ، لأنه يرى ذلك كالا فيفتخر به وإن لم يكن فعله لا نكالا ، وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالسوان والغلمان ويتكبر به لظنه أن ذلك كال وإن كان عثلاً فيه . فهذه جماع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض ، فيتكبر من يدل بشئ منه على من لا يدل به ، أو على من يدل بما هو دونه في اعتقاده . وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى ، كالعلم الذي يتكبر به على من هو أعلم منه لظنه أنه هو الأعم والحسن اعتقاده في نفسه . فسال الله العون بطفه ورحمته إنه على كل شيء قدير .

### بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيبة له

اعلم أن التكبر خلق باطن . وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة وثيقية ، وبغني أن تسمى تكبرا . ويخص اسم التكبر بالباطن الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير ، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالتكبر - كما سيأتي معناه - فإنه إذا أعجب بنفسه وبعلوه بعمله أو بشئ من أسباب استعظم نفسه وتكبر .

وأما التكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة : سبب في التكبر وسبب في التكبر عليه وسبب فيما يتعلق بغيرهما .

أما السبب الذي في التكبر فهو : العجب ، والذي يتعلق بالتكبر عليه هو الحقد ، والحسد . والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء ، فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة : العجب ، والحقد ، والحسد ، والرياء . (أما العجب) فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن والتكبر الباطن ثمرة التكبر الظاهر في الأفعال والأقوال والأحوال (وأما الحقد) فإنه يعمل على التكبر من غير عجب كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه ، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقداً ورسخ في قلبه بغضه ، فهو لذلك لا تلاوعه نفسه أن تواضع له وإن كان عنده مستحقاً للتواضع ، فكم من ردل لا تلاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له ؟ وبمصلحة ذلك على رد الحق إذا جام من جهة وعلى الآفة من قبول نصحه وعلى أن يمتد في التقدم عليه ، وإن علم أنه لا يستحق ذلك ، وعلى أن لا يستحله وإن ظله ، فلا يعتذر إليه وإن جنى عليه ، ولا يسأله عما هو جاهل به .

( وأما الحسد ) فإنه أيضا يوجب البغض المحسود وإن لم يكن جهة لئذاء وسبب يقتضي الغضب والخصم والحقد ، ويدعو الحسد أيضا إلى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم ، فكم من جاهل يشاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يتخذ من واحد من أهل بلده أو أقارب حسدا وبغيا عليه ؟ فهو يمرضه وتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل عليه ، ولكن الحسد يمسح على أن يماحه بأخلاق المتكبرين ، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه .

( وإما الرياء ) فهو أيضا يدعو إلى أخلاق المتكبرين ، حتى أن الرجل لينظر من يعلم أنه أفضل منه وليس يثبه

وبيته معرفة ولا محاسبة ولا حقد ، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه ، فيسكون باعث على التكبر عليه الرياء المجرد ، ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه . وأما الذي يتكبر بالعجب أو الحسد أو الحقد فإنه يتكبر أيضا عند الخلوة به مهما لم يكن مهما ثالث ، وكذلك قد يتنسى إلى نسيب شريف كاذبا وهو يعلم أنه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب ويرفع عليه في المجالس ويتقدم عليه في الطريق ولا يرضى بمساواة في الكرامة والتوقير وهو عالم باطن بأنه لا يستحق ذلك ، ولا كبر في باطنه لعرفته بأنه كاذب في دعوى النسب ، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين ، وكان اسم المتكبر إنما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر من العجب والنظر إلى التغير بين الاحتقار ، وهو إن سمي متكبرا فلاجل التشبه بأفعال الكبير . نسأل حسن التوفيق واه تعالى أعلم .

### بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل ، كصغر في وجهه ونظرة شذرا وإطرافه رأسه وجلسه متربعا أو متكثرا . وفي أنوفه حتى في صوته ونفثه وصيغته في الإيراد ، ويظهر في مشيته وتبخره وقيامه وجلسه وحركاته وسكناته ، وفي تعاطيه لأفعاله وفي سائر تقلباته في أحواله وأنوفه وأعماله . فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض .

فإنما التكبر بأن يجب قيام الناس له أو بين يديه . وقد قال على كرم الله وجهه : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فليقلل إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام . وقال أنس لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كرامته لذلك (١) .

ومنها أن لا يمشي الا ومعه غيره بمعنى خلفه . قال أبو الدرداء : لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مشى خلفه وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من صبيته ، اذا كان لا يمشي عنهم في صورة ظاهرة . ومشى قوم خلف الحسن البصري فتمهم وقال : ما بقي هذا من قلب العبد ، وكان رسول الله ﷺ في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غارم (٢) ؛ إما تمنع غيره أو لينت عن نفسه وسواوس الشيطان بالكبر والهجب كأخرج الثوب الجديد في الصلاة وأبدله بالخليج لاحد هذين المعنيين (٣) .

ومنها أن لا يور غير غيره وان كان يحصل من ذيارته غير لغيره في الدين وهو ضد التواضع . روى أن سفيان الثوري قدم الرملة فبحث إليه ابن آدم : أن تعال لحدثنا ، لجاء سفيان فقيل له : يا أبا إسحق تبحث إليه بمثل هذا ؟ فقال أردت أن أنظر كيف تواضع ؟

ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه الا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافة . قال ابن وهب : جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد فس غلني خلفه فقصت قصي عنه فأخذ ثيابي فجرتني إلى نفسه وقال لي : لم تفعلوني في

(١) حديث أنس : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له . الحديث تقدم في آداب الصلوة وفي أخلاق النبوة (٢) حديث : كان في بعض الأوقات يمشي مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم أخرجه منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا : أنه خرج يمشي إلى البقيع فتمه أصحابه فوقف فأمرهم أن يتقدموا ومشى خلفهم فقل عن ذلك قال « إني سمعت خلقا فقالوا فأنشقت أن يقع في نفسي شيء من الكبر » وهو منكر فيه جماعة ضعفاء . (٣) حديث : إخراج الثوب الجديد في الصلاة وإبداله بالخليج . قلت : المعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق ، أو نزع الحمية وليس الأنجانية ، وكلاهما تهم الصلاة .

ما تعلمون بالجسارة وإن لا أعرف رجلا مثكم شرا مني ؟ وقال أنس : كانت الوليدة من ولادة المدينة تأخذ بيد رسول الله ﷺ فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث تشاء (١) .

ومنها أن يتوفى من جملة المرضى والمعلولين ويتحاشى منهم وهو التكبر : دخل رجل - وعليه جدري قد تشر - على رسول الله ﷺ وعنده ناس من أصحابه يأكلون ، فجلس إلى أحد إلا قام من جنبه ، فأجلسه النبي ﷺ إلى جنبه (٢) وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لا يجلس عن طعامه مجذوما ولا أيرس ولا مبتلى إلا أقدم على ما تقدمه .

ومنها أن لا يتعاطى بيده شئاً من بيته ، والتواضع خلافه : روى أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكد السراج ظلماً ، فقال الضيف : أقوم إلى الصباح فأصلحه ؟ فقال : ليس من كرم الرجل أن يستنعم ضيفه ، قال : أفأنبه للفلان ؟ فقال : هي أول نومة نامها ، فقام وأخذ البطة وملا المصباح زيتاً فقال الضيف : قت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : نذبت وأنا تأمر ورجعت وأنا تأمر ما نقص مني شيء ، وغير الناس من كان عند الله متواضعاً .

ومنها أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته ، وهو خلاف عادة التواضعين ، كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك (٣) وقال على كرم الله وجهه : لا ينقص الرجل الكامل من كاله ما حمل من شيء إلى عياله . وكان أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير يحمل سطلا له من خبث إلى الحمام . وقال ثابت بن أبي مالك : رأيت بأهيرة أقبيل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان ، فقال : أوسع الطريق الأمير يا ابن أبي مالك ؟ وعن الأصمعي بن نباته قال : كأتى أنظر إلى عمر رضى الله عنه معلقاً لحماً في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة ، يدور في الأسواق حتى دخل رحله . وقال بعضهم : رأيت علياً رضى الله عنه قد اشترى لحماً بدم خمله في ملحسته ، فقلت له : أحمل تنك يا أمير المؤمنين فقال : لا ، أبو العيال أحق أن يحمل .

ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع وقد قال رسول الله ﷺ « البذاعة من الإيمان » (٤) فقال هرون : سألت سمناً عن البذاعة فقال : هو الدون من اللباس . وقال زيد بن وهب : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى السوق ويده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من آدم وعوث على كرم الله وجهه في إزار مرفوع فقال : يقتدى به المؤمن وينشع له القلب . وقال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء في القلب . وقال طاوس : إنى لأغسل ثوبي هذين فأنكر قلبي ماداماً تقين . وروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تفتى له الحلة بألف دينار فيقول : ما أجودها لولا خشونة فيها ، فلما استخلف كان يشتري له الثوب بخمسة دراهم فيقول : ما أجودها لولا لينه ؟ فيقول له : أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إن لي ثياباً خروقة وإنها لم تلق من الدنيا طيقة إلا تآقت إلى الطيقة التي فوقها ، حتى إذا ذآقت الخلالة وهي أرفع الطباقي تآقت إلى ما عند الله عز وجل . وقال سعيد بن سويد : صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست ؟ فنكس

(١) حديث أنس : كانت الوليدة من ولادة المدينة تأخذ بيد رسول الله ﷺ الحديث تقدم في آداب العبادة  
(٢) حديث الرجل الذي به جدري وإجلاله إلى جنبه تقدم قريباً . (٣) حديث حملة متاعه إلى بيته . أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة في شرائه للراويل وحمله وتقدم . (٤) حديث « البذاعة من الإيمان » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أمامة بن ثعلبة وقد تقدم .

رأسه ملياً ثم رفع رأسه فقال : إن أفضل القصد عند الجملة وإن أفضل المعفو عند القدرة . وقال عليه السلام : « من ترك ذنبه الله ووضع ثياباً باسطة تواضعاً لله وابتغاء لمرضاته كان حقاً على الله أن يدخر له عبقري الجنة <sup>(١)</sup> » .

فإن قلت : فقد قال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء القلب . وقد سئل نبينا عليه السلام عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر فقال : « لا ولكن من سفه الحق وعصم الناس <sup>(٢)</sup> » فكيف طريق الجمع بينهما ؟ فاعلم أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال ، وهو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ وهو الذي عرفه رسول الله ﷺ من حال ثابت بن قيس إذ قال : إني امرؤ حبيب إلى ماترى <sup>(٣)</sup> ، فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا يتكبر على غيره ، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر ، وقد يكون ذلك من الكبر كأن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع . وعلامة المتكبر أن يطلب التجميل إذا رآه الناس ولا يبالي إذا انقرد بنفسه كيف كان . وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوة وحتى في سنود داره ، فذلك ليس من التكبر . فإذا اتسمت الأحوال نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال على أن قوله : خيلاء القلب ؛ يعني قد تورث خيلاء في القلب ، وقول نبينا ﷺ « إنه ليس من الكبر » يعني أن الكبر لا يوجب . ويجوز أن لا يوجب الكبر ثم يكون هو مورثاً للكبر . وبالجملة فالأحوال تختلف في مثل هذا والمحجوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجملة ولا بالدعاة . وقد قال عليه السلام : « كلوا واشربوا والبسوا وتصددوا في غير صرف ولا غية <sup>(٤)</sup> » . و « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده <sup>(٥)</sup> » وقال بكر بن عبد الله المزني : البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية ، وإتما خاطب بهذا قوما يطلبون التكبر بثياب أهل السلاح . وقد قال عيسى عليه السلام : ما لكم تأتون وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذناب الضوازي ؟ البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية .

ومنا أن تواضع بالاحتياط إذا سب وأوشى وأخذ حقه ، فذلك هو الأصل . وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتياط الأئمة في كتاب القضب والحسد ، وبالجملة فجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيه فينبغي أن يقتدى به . ومنه ينبغي أن يعلم . وقد قال أبو سلمة : قلت لأبي سعيد الخدري ما ترى فيما أحدث الناس من المجلس والشرب والمركب والمعلم ؟ قال : يا ابن أخي كل لله واشرب لله والبس لله ، وكل شيء من ذلك دخله ذهب أو مهاباة أو رياء أو سمعة فهو محسبة وسرف ، وعالج في يتك من الخدمة ما كان بها ليرسل الله صلى الله عليه وسلم في بيته ، كان يعلق التواضع ويقل الجهر ويقم البيت ويحلب الشاة ويخضف النمل ويرقع الثوب ويأكل كل مع خادمه ويطن عنه إذا أعيى ، ويشترى الشيء من السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه يده أو يجعله في طرف ثوبه ، ويتقلب إلى أهله يصافح الغني والفقير والكبير والصغير . ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة ، ليست له حلة لدخله وحلة لخروجه ، لا يستحي من أن يجيب إذا دعى وإن كان أشمت أغبر ، ولا يحقر مادي إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل ، لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء ، حين المؤنة

(١) حديث « من ترك ذنبه وتواضع ثياباً حسنات تواضعاً لله ... الحديث » أخرجه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس « من ترك ذنبه لله ... الحديث » وفي إسناده نظر (٢) حديث : سئل عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر ؟ فقال « لا » الحديث تقدم غير مرة (٣) حديث : إن ثابت بن قيس قال للنبي ﷺ : إني امرؤ حبيب إلى الجمال ... الحديث . هو الذي قبله سمي فيه السائل وقد تقدم (٤) حديث « كلوا واشربوا والبسوا وتصددوا في غير إسراف ولا غية » أخرجه النسائي وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٥) حديث « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » أخرجه الترمذي وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أيضاً وقد جعلهما للصنف حديثاً واحداً .

لبن الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه يسام غير ضحك مزون غير عبوس شديد في غير عنف متواضع في غير مذلة جواد من غير سرف رسيم لكل ذي قربى ومسلم، رفيق القلب دائم الإطراق لم يشتم قط من شيخ ولا يمد يده من طمع، قال أبو سلمة فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثتني بما قال أبو سعيد في زهد رسول الله ﷺ فقالت: ما أخطأ منه حرفاً ولقد قصر إذا ما أخبرك أن رسول الله ﷺ لم يتنمل قط شبعاً ولم يبتك إلى أحدش كوى وإن كانت العائفة لأحب إليه من اليسار والغنى، وإن كان ليطال جاتماً يلتوى ليلته حتى يصبح قائماً يمتنه ذلك عن صيام يومه ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتيه بكثرة الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لقلع، وربما بكسيت رحمة له بما أوتي من الجوع فأصبح بطنه يبدى وأقول: قس لك الفناء لو تليت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمتلك من الجوع؟ فيقول: يا عائشة إخواني من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فاضوا على حالهم وقدموا على ربههم فأكرم ما بهم وأجزل ثوابهم فأجندني أستحي أن ترفيت في معيشتي أن يقصر في درهم فأصبر أيا ما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظي غداً في الآخرة وما من شيء أحب إلى من الحقوق يا خرواني وأخلاقاً قالت عائشة رضي الله عنها: فو الله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل (١).

فما نقل من أحواله ﷺ يجمع جملة أخلاق المتواضعين، فمن طلب التواضع فليقتد به ومن رأى نفسه فوق عمله ﷺ ولم يرض لنفسه بما رضى هو به فما أشد جهله! لقد كان أعظم خلق الله منصباً في الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به. ولذلك قال عمر رضي الله عنه: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نطلب العز في غيره، لما عوتب في بذائه هيئته عند دخوله الشام.

وقال أبو الدرداء: اعلم أن شعباد يقال لهم الأبدال خلف من الأنبياء هم أو تاد الأرض. فلما اقتضت النبوة أبداً الله مكانهم قوماً من أمة محمد ﷺ لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع وحسن التنية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنسبة لهم ابتناء مرضاة الله بصير من غير تزين وتواضع في غير ملقوهم قوم اصطفاهم الله واستخلفهم لنفسهم أربعون صديقاً أو ثلاثون رجلاً طوبى لهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من خلفه، وأعلم يا أخى أنهم لا يلعبون شياً ولا يؤذون ولا يحقرونه ولا يتناولون عليه ولا يصعدون أحداً ولا يحرصون على الدنيا، هم أطيب الناس خيراً وألينهم عريكة وأستأمنهم نفساً، علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة، ليسوا اليوم في خشية وغدا في غفلة ولكن مداومين على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربههم لا تدرى الرياح العواصف ولا الخيل المجرة، قلوبهم تصعد ارتياحاً إلى الله واشتياقاً إليه وقدماً في استباق الخيرات (أو تلك حزب الله إلا أن حزب الله هم المفلحون).

قال الراوى: فقلت يا أبا الدرداء ما سمعت بصفة أشد على من تلك الصفة وكيف لي أن أبلغها؟ فقال: ما ينك وبين أن تكون في أوسمها إلا أن تكون تبغض الدنيا، فإنك إذا أبغضت الدنيا أبغضت على حب الآخرة، ويقتدر حبك للآخرة تزهد في الدنيا ويقتدر ذلك تبصر ما ينفعك، وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتف به بالعصمة.

واعلم يا ابن أخى أن ذلك في كتاب الله تعالى المنزل (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) قال يحيى بن كثير: فنظرنا

(١) حديث أبي سعيد الخدري وعائشة: قال الخدري لأبي سلمة عالج في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله ﷺ يبالغ في بيته كان يبالغ التواضع... الحديث. فيه: قال أبو سلمة فدخلت على عائشة فحدثتني بذلك عن أبي سعيد فقالت: ما أخطأ ولقد قصر ما أخبرك أنه لم يتنمل قط شبعاً... الحديث بطوله لم أقف له على إسناد.

## بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له

أعلم أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه ، وإدراكه فرض عين ولا يزول بمجرد التقي بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القائمة له . وفي معالجته مقامان ( أحدهما ) استئصال أصله من سنخه وقلع شجره من مغرسها في القلب ( الثاني ) دفع المعارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتشكّر الإنسان على غيره .

( المقام الأول ) في استئصال أصله ؛ وعلاجه على وعمل ، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما :

أما العلى : فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى ويكفيه ذلك في إزالة الكبر ، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أدنى من كل ذليل وأقل من كل قليل ، وأنه لا يليق به إلا التواضع والدالة والمهاة ، وإذا عرف ربه علم أنه لا يليق العظمة والكبرياء إلا بالله ، أما معرفته ربه وعظمته ومجده فاقول فيه بطول وهو منتهى علم المكاشفة ، وأما معرفته نفسه فهو أيضا بطول ولكننا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة ، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتح بصيرة فوجد قال تعالى ( قتل الإنسان ما كفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسهره ثم أماته فأجبره ثم إذا شاء أنشره ) فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه ، فليحظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية .

أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئا مذكورا وقد كان في حين العدم دهورا بل لم يكن لعدمه أول وأي شيء أخس وأقل من الحر والدم ؟ وقد كان في التقدم . ثم خلقه الله من أدنى الأشياء ، ثم من أقرضا إذ قد خلقه من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة ، ثم جمعه عظما ، ثم كسا العظم لحما ، فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان مذكورا ، فما صار شيئا مذكورا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعمت ؛ إذ لم يخلق في ابتدائه كاملا بل خلقه مجادا ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا يتعلق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم . فبدأ بحوته قبل حياته وبضعفه قبل قوته وبجهله قبل علمه وببهاه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وبكبه قبل خلقه وبضلائه قبل هداه وبفقره قبل غناه وبجزوه قبل قدرته . فهذا معنى قوله ( من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ) ومعنى قوله ( هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ) إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ( كذلك خلقه أولا ثم آمن عليه فقال ( ثم السبيل يسهره ) وهذه إشارة إلى ما تيسر له في مسدة حياته إلى الموت . وكذلك قال ( من نطفة أمشاج نبتليه لجلتناه سميعا بصيرا إنا هدينا السبيل إما شاكرًا وإما كفورا ) ومعناه أنه أحياه بعد أن كان مجادا ميتا ترابا أولا ونطفة ثانيا ، واسمعه بعد أن كان أصم ، وبصره بعد ما كان قاصد البصر ، وقواه بعد الضعف ، وعلمه بعد الجهل ، وخلق له الأعضاء بما فيها من السجائب والآيات بعد التفقد لحسا ، واغناه بعد الفقر ، واشبعه بعد الجوع ، وكساه بعد العري ، وهداه بعد الضلال . فانظر كيف فطره وصوره وإلى السبيل كيف يسهره وإلى طغيان الإنسان ما اكفره وإلى جهل الإنسان كيف أظهره ؟ فقال ( أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا اتم بشر تفتشرون ) فانظر إلى نعمة الله عليه كيف قله من تلك الدالة والقلة والخسة والتفاداة إلى هذه الرقة والكرامة فصار موجودا بعد العدم وحيا بعد الموت وناطقا بعد البكم وبصيرا بعد العمى وقويا بعد الضعف وعالما بعد الجهل ومهديا بعد

الضلال وقادرا بعد السجود وغنيا بعد الفقر ؟ فكان في ذاته لاشيء وأى شيء أحسن من لاشيء ؟ وأى قلة أقل من العدم المحض ؟ ثم صار باق شيئا . وإنما خلقه من القرب الدليل الذى يوطأ بالأقدام والطفلة القذرة بعد العدم المحض أيضا ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه ، وإنما أكل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمتة وجلاله وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا . ولذلك أمتن عليه فقال ﴿ ألم نعلم له عينين ولسانا وشفتين وعدنيان التجدين ﴾ وعرف خسته أولا فقال ﴿ ألم يك نطفة من منى منى ثم كان علقة ﴾ ثم ذكر مته عليه فقال ﴿ خلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ ليوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أولا بالاختراع .

فن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فن أين له البطر والكبرياء والفتور والخيلاء وهو على التحقيق أخس الأشخاص وأضعف الضعفاء ؟ ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته ضجع بأفقه وتعظم ، وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله . نعم لو أكله وغوض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يعطى وينسى المبدأ والمنتهى ، ولكنه سلب عليه في عوام وجوده الأمراض المائة والأقسام العظيمة والآفات المختلفة والطباع المتضادة ، من المرة والبغيم والريح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض ، شاء أم أبى رضى أم سخط ، فيجوع كرها ويعطش كرها ويمرض كرها ويموت كرها ، لا يملك لنفسه قمعولا خيرا ولا غيرا ولا شرا يريد أن يعلم الشيء فيجعله ، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ، ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا يغفل عنه ، ويريد أن يصرف قلبه إلى ما بهمه فيجول في أودية الوسوس والأفكار بالاضطرار فلا يملك قلبه ولا نفسه قمع ، ويشتهي الشيء وربما يكون ماله فيه ، ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه ، يستلذ الأطعمة وتلذذ وتزديه ، ويستشبع الأدوية وهي تنفذه ونحييه ، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمه ويصره وتضلع أعضائه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه ، فهو مضطر ذليل أن ترك بقى وإن اختطف فى ، عبد ملوك لا يقدر على شيء من نفسه ولا شيء من غيره ، فأى شيء أظلمته لو عرف نفسه ؟ وأى يليق الكبر به لولا جهله ؟ فهذا أوسط أحواله فليأمله .

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى ﴿ ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ﴾ ومعناه أنه يسلب روحه وسمه ويصره وعله وقدرته وحسه وإدراكه وحركته ، فيعود جادا كما كان أول مرة ، لا يبق إلا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة ، ثم يوضع في التراب فيصير جيفة منقطة قدرة كما كان في الأول لطفة مدرة ، ثم تلى أعضاؤه وتفتت أجزاؤه وتنتثر عظامه ويصره رماقانا ، ويأكل البدو أجزائه فيبتدىء بحديقته فيقلعها ويخذيها فيقطعها ، ويسائر أجزائه فيصير روثا في أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستفترقه كل إنسان ويهرب منه لفدة الاتان ، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير ترابا يعمل منه الكيزان ويعمل منه البنيان ، فيصير مفقودا بعدما كان موجودا . وصار كأن لم يكن بالأس حصيدا كما كان في أول أمره أمدا مديدا ، وليته بقى كذلك فأحسنه لو ترك ترابا ، لا بل يحببه بعد طول البلى ليقامى شديد البلاء ، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسما مشقة ممزقة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكسرة وشمس منكسفة وأحوال مظلة وملائكة غلاظ شداد وجنم تفرز وجهته ينظر إليها المجرم فيتنحصر ، ويرى صحائف مشفوعة فيقال له ﴿ اقرأ كتابك ﴾ فيقول : وما هو ؟ فيقال : كان قد وكل بك في حياتك التى كنت تفرح بها وتكبر بتعظيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك في ذلك فأتلفذ المتلفذون بمثل حب الله وطلب مرضاته . اللهم اجعلنا من عبي المحبين لك يارب العالمين فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضى به . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ما كنت تنطق به أو تعله من قليل وكثير وتقر وتطمير وأكل وشرب وقيام وقعود ، قد نسبت ذلك وأحصاه الله عليك فلم إلى الحساب واستعد للجواب أو تفاق إلى دار العذاب ، فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويباعد ما فيها من مخازبه ، فإذا شاهده قال ( يا ربنا ما لهذا الكتاب لا ينادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ) فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى ( ثم إذا شاء أنشره ) فالن هذا حاله والتكبر والتعظم ؟ بل ماله والفرح في لحظة واحدة فضلا عن البطر والأشر ؟ فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلبا أو غزيرا ليصير مع البهائم ترابا ولا يكون إنسانا يسمع خطابا أو يلقى عذابا ، وإن كان عند الله مستحقا للتأثير أشرف منه وأطيب منه وأرفع إذ أوله التراب وآخره التراب وهو يمزج عن الحساب والعذاب ، والكذب والخنزير لا يهرب منه الخلق . ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب في النار لصمقوا من وحشة خلقته وقبح صورته ، ولو وجدوا ريحه لماثوا من نفته ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يبقى منه في بحار الدنيا لصارت أنثى من الجيفة ، فن هذا حاله في العاقبة . إلا أن يعرف الله عنه وهو على شك من العفو - كيف يفرح ويعطى وكيف يتكبر ويهجر وكيف يرى نفسه شيئا حتى يعتقد أنه فضلا ؟ وأى عبد لم يذنب ذنبا استحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ويمحى الكسر عنه ، والرجاء منه ذلك لكبره وحسن الظن به ولا قوة إلا بالله . أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجهنمته ضرب ألف سوط خيس إلى السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملا من الخلق وليس يدرى أبقى عنه أم لا ؟ كيف يكون ذلك في السجن أقرى أنه يتكبر على من في السجن ؟ وما من عبد مذنبا إلا والله الدنيا سجنه وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدرى كيف يكون آخره ؟ فيسكنه ذلك حرنا وخوفا وإشفاقا ومهابة ودلا . فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر .

وأما العلاج العملي فهو التواضع لله بالفعل وللسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق التواضعين ، كما وصفناه وحكيته من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله ﷺ حتى إنه « كان يأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد » وقيل لسلطان لم لا تلبس ثوبا جديدا ؟ فقال : إنما أنا عبد فإذا أغضت يوما لبست جديدا أشار بإلى المتى في الآخرة . ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل ، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعا ، وقيل الصلاة عماد الدين ، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عمادا ، ومن جملة ما فيها من التواضع بالثول قائما وبالركوع والسجود ، وقد كانت العرب قديما يأفون من الانحناء ، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا يحنى لأخذه ، وينقطع شرك نعله فلا يتكسر رأسه لإصلاحه ، حتى قال حكيم بن حزام : بايتم النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا آخر إلا قائما قبايه النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، ثم فقه وكل إيمانه بعد ذلك ؟ فلما كان السجود عندهم هو منتهى النكوصة أمروا به لتتكسر بذلك خيلادهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم . وبه امر سائر الخلق ، فإن الركوع والسجود والمثل قائما هو الذي يقتضيه التواضع ، فكذلك من عرف نفسه فليست كل ما يفتاضه الكبر من الأفعال فليواظب على تقيضه حتى يصير التواضع خلقا ، فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالملم والعمل جميعا ، وذلك لحفاء العلاقة بين القلوب والجوارح وسر

(١) حديث : كان يأكل على الأرض ويقول « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد » تقدم في آداب العيشة .

(٢) حديث حكيم بن حزام : بايتم رسول الله ﷺ على أن لا آخر إلا قائما . الحديث رواه أحمد مقتصر على هذا وفيه إرسال حتى .



الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت والقلب من عالم الملكوت (المقام الثاني) فيما يمرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة ، وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل ، فأما ما عداه عما يفنى بالموت فكمال وهمي فمن هذا يصير على العالم أن لا يتكبر ؛ ولكننا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة .

الأول : النسب فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بجمرة أمرين (أحدهما) أن هذا جهل من حيث إنه تموز بكمال غيره ، ولذلك قيل :

لئن غرت بأباه ذوى شرف لقد صدقت ولكن بكس ما ولدوا

فالتكبر بالنسب إن كان خسيسا في صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره ؟ بل لو كان الذي ينسب إليه حيا لكان له أن يقول : الفضل لي ، ومن أنت وإنما أنت دودة خلقت من بول ؛ أفترى أن الدودة التي خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التي من بول فرس ؟ هيأت بل هما متساويان والشرف للأنسان لا للدودة . (الثاني) أن يعرف نسبة الحقيقي ، فيعرف أباه وجهه فإن أباه التقريب طفلة فقدرت وجهه البعيد تراب ذليل وقد عرفه الله تعالى نسبة فقال (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسبه من سلاله من ماء مهين) فمن أصله التراب المهيمن الذي يباس بالافتقار ثم غمر طينه حتى صار حما مستوتا كيف يتكبر . وأحسن الأشياء ما إليه انتسابه إذ يقال بأذل من التراب وبأفقر من الحماة وبأفقر من المضنة .

فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول : اقتخر بالتقريب دون البعيد ، فالتطفة والمضنة أقرب إليه من الأب فليحقر نفسه بذلك ، ثم إن كان ذلك يوجب رغبة لى به فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعة . وإذا لم يكن له رفعة فمن أين جدت الرفعة لو أنه . فإذا أصله من التراب وفصله من التطفة فلا أصل له ولا فصل . وهذه غاية حصة النسب فالأصل يوطأ بالأقدام والفصل تفصل منه الأيدان . فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف التواء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بقي هاشم وقد أخبره بذلك والهاء لم يزل فيه نخوة الشرف ، فبينما هو كذلك إذا أخبره عدول لا يشك في قولهم إنه ابن هندی حجام يتعاطى القاذورات ، وكشفوا له وجه التلبس عليه فلم يبق له شك في صدقهم ، أفترى أن ذلك يبقى شيئا من كبره ؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم فهو من استعمار الخوى لحسنه في شغل عن أن يتكبر على غيره . فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله وعلم أنه من التطفة والمضنة والتراب ، إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نمل التراب أو يتعاطى النمل بالحجارة أو غيرها لكان يعلم به حصة نفسه لمعاسة أعضائه أبيه للتراب والمم ، فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والمم والأشياء القذرة التي يتنزه عنها هو في نفسه .

السبب الثاني : التكبر بالجمال ، ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم . ومهما نظر إلى باطنه رأى من التبايع ما يكد عليه تمرزه بالجمال فإنه وكل الأقدار في جميع أجزائه : الرجيم في أمعائه والبول في مثانه والخطأ في أفقه والبراق في فيه والوسخ في أذنيه والمم في عروقه والصديد تحت بشرته والسنان تحت إبطه ، ينسل القاطع يده كل يوم دفعة أو دفتين ، ويتردد كل يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لو رآه يمينه لاستنفذته فضلا عن أن يسه أو يشمه ، كل ذلك ليصرف فكارته وذه هذا في حال توسطه .

وفي أول أمره خلق من الأقدار الشنيعة الصور ، من التطفة ودم الحيض . وأخرج من مجرى الأقدار إذ خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول ثم من الرحم مبيض دم الحيض ثم خرج من مجرى القدر . قال أنس رحمه الله : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يخطبنا فيقدر إلينا أنفسنا ويقول : خرج أحكم من مجرى البول مرتين .

وكذلك قال طاروس لعمى بن عبد العزيز : ماهذه مشية من في بطنه خراة ؟ إذ رآه يتبختر ، وكان ذلك قبل خلافة وهذا أوله ووسطه .

ولو ترك نفسه في حياته يوما لم يتمهها بالتعظيم والتسل ثارت منه الأتان والأفان ، وصار أثن وأقلر من الثواب المهمة التي لا تمهد نفسها قط ، فإذا نظر أنه خلق من أقدار وأسكن في أقدار ، وسميت فيصير جيفة أقدر من سائر الأقدار لم يفخر بجماله الذي هو كنزها . الذنم وكلون الأذمار في البواشي ، فبينا هو كذلك إذ صار شيئا تذروه الرياح ، كيف ولو كان جماله بافيا وعن هذه القبايح غالبا لكن يجب أن لا يتكبر به على التيسع ، إذ لم يكن قبح التيسع إليه فينتفيه ولا كان جمال الجليل إليه حتى يحمده عليه ، كيف ولا يباه به بل هو في كل حين يتصور أن يزول بمرض أو جلدوى أو قرحة أو سبب من الأسباب فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب ، فمرة هذه الأمور تخرج من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها .

السبب الثالث : التكبر بالقوة والأيدى ، ويعتبه من ذلك أن يعلم ماسلط عليه من العلل والأمراض ، وأنه لو توجع عرق واحدا في يده لصار أعجز من كل عاجز واذل من كل ذليل ، وأنه لو سلبه الذباب شيئا لم يستغفده منه وإن بقه لو دخلت في أنفه أو نملة دخلت في أذنه لقتله ، وإن شوكة دخلت في وجهه لأعجزته ، وإن حمى يوم تحمل من قوته مالا يتجبر في مدة . فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذباة فلا ينبغي أن يفخر بقوته ، ثم إن قوى الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل وإى اختصار في صفة يسبقك فيها البهائم .

السبب الرابع والخامس : الغنى وكثرة المال ، وفي معناه كثرة الاتباع والانتصار والتكبر بولاية السلاطين والتمسك من جهتهم ، وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم . وهذا أقيع أنواع التكبر ، فإن التكبر بما له كأنه متكبر بفرسه وداره ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلا ، والتكبر بتمسك السلطان وولايته لا بصفته في نفسه بنى أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر ، فإن تغير عليه كل اذل الخلق ، وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل ، كيف والتكبر بالغنى لو تأمل لرأى في اليهود من يريد عليه في الغنى والثروة والجمال ، فأف لشرف يسبقك به اليهودى ! وأف لشرف بأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلا مفلسا ! فهذه أسباب ليست في ذاته ، وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونسكال ، فالتفاخر به غاية الجهل ، وكل ما ليس إليك فليس لك ، وشئ من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه إن أباه لك وإن استرجعه زال عنك ، وما أنت إلا عبد ملوك لا تقدر على شئ . ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره .

ومثاله : أن يفخر النافل بقوته وجماله وماله وحرته واستقلاله وسعة منازله وكثرة خيوله وغلبانه ، إذ نشهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان وإن أبويه كانوا يملكون له فسلم ذلك وحكم به الحاكم ، فجاء مالكة فأخذه واخذ جميع ما في يده ، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكبل به لتفريطه في أمواله وتقصيره في طلب مالكة ليعرف أن له مالكا ، ثم نظر العبد قرأى نفسه محبوسا في منزل قد احذقت به الحيات والعقارب والحوام وهو في كل حال على وجل من كل واحدة منها ، وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقا في الخلاص أئنه ، اقترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوته وكاله أم يذل نفسه ويضع ، وهذا حال كل عاقل بصير فانه

يرى نفسه كذلك فلا يملك رقبته وبدنه وأعضائه وماله ، وهو مع ذلك بين آفات وشبهات وأمراض وأسقام هي كالغفارب والحيات مخاف منها الهلاك . فمن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدرته إذ يعلم أنه لاقدرة له ولاقوة . فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجية وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل ، فإنهما كالآل في النفس جديران بأن يفرح بهما ، ولكن التكبر أيضا نوع من الجهل خفي كما سندكره .

السبب السادس : التكبر بالعلم ، وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء وأبعدنا عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جليل ، وذلك لأن قدر العلم عظم عند الناس ، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما ، بل لاقدرة لها أصلا إلا إذا كن معها علم وعمل . ولذلك قال كعب الأحبار : إن العلم طيننا فاكعتينيان المال . وكذلك قال عمرو بن لوط : العلم إذا دل دل بزلته عالم . فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجهل لكثرة ما تلقى الشرع بفنائيل العلم . وإن يقدر العالم على دفع التكبر إلا بمرقة أربعين : ( أحدهما ) أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم أكده ، وأنه يحتمل من الجهل مالا يحتمل غيره من العالم ، فإن من حصى الله تعالى عن معرفة وعلم جنائيه أخش ، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم ولذلك قال عليه السلام « يؤتى بالعلم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أتابه فينبور بها كما يندور الحمار بالراحا فيطيف به أهل النار فيقولون مالك ؟ فيقول : كنت أمر بالخير ولا أتبه وأنسى من الشر وأتبه » (١) وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عز وجل ( مثل الذين حلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ) أراد به اليهود .

وقال في بلم بن باعوراء ( وائل عليهم نيا الذي آتيناها آياتنا فأنسلخ منها ) حتى بلغ ( لئله كئل الكلب إن تحمل عليه يلهث ) قال ابن عباس رضي الله عنهما : ألقى بلم كتابا فأخذ إلى شوات الأرض أى سكن حبه إليها فمته بالكلب ( إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ) أى سواء آتبه الحكمة أو لم أوت له لايدع شبهته ، ويكنى العالم هذا الخطر فأى عالم لم يتبع شبهته وأى عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتبه ، فمهما خطر العالم عظم قدره بالإضافة إلى الجهل فليست في الخطر العظيم الذي هو بصدده ، فإن خطره أعظم من خطره غيره كما أن قدره أعظم من قدر غيره ، فهذا بذلك . وهو كذلك الخطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أخذ وقهر انتهى أن يكون قد كان فقيرا ، فكمن عالم يشتفى في الآخرة سلامة الجهال والعياذ بالله منه . فهذا الخطر يمنع من التكبر ، فإنه إن كان من أهل النار فالخزير أفضل منه ، فكيف يتكبر من هذا حاله . فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة ورضوان الله عليهم وقد كان بعضهم يقول : يا ليتنى لم تلقى أى ا وأخذ الآخر نية من الأرض ويقول : يا ليتنى كنت هذه التينة ! ويقول الآخر : ليتنى كنت طيرا أوكل ! ويقول الآخر : ليتنى لم أكل شيئا مذكورا أكل ذلك خوفا من خطر العاقبة ، فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من الطير ومن التراب ومهما أطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره ، ورأى نفسه كأنه شر الخلق .

ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمر فرشح فيها ، فترك بعضها وأدخل التقصان في بعضها وشك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا ؟ فأخبره مخبر أن سيده أرسل إليه رسولا يخبره من كل ما هو فيه عريا فانا ذليلا وبقية على بابي في الحر والشمس زمانا طويلا ، حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به الجهد أمر برفع حسابه

(١) حديث « يؤتى بالعلم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أتابه .. الحديث » متفق عليه من حديث أسامة بن زيد بلفظ « يؤتى بالرجل » وقسم في العلم

وقتل عن جميع أعماله قليلها وكثيرها ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة ، وقد علم أن سيده فعل بطوائف من صبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لا يدري من أى الفريقين يكون ؟ فإذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وذلل وجل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق ، بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعاته عند نزول المذاب ، فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أواخر ربه بمنايات على جوارحه وبذنوب في باطنه من الرياء والحدق والحسد والعجب والتفاق وغيره ، وعلم بما هو بصلده من الخطر العظيم فارتد كبره لا محالة .

( الأمر الثاني ) أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بأهله عز وجل وحده ، وأنه إذا تكبر صار معقوتا عند الله بغيضا ، وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له إن لك عندى قدرا مالم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندى ، فلا بد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه . وهذا يزيل التكبر عن قلبه وإن كان يستغنى أنه لا ذنب له مثلا أو يتصور ذلك . وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام إذ طلبوا أن من نازع الله تعالى في رداء الكبرياء قصمه ، وقد أمزم الله يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله علمهم ، فهذا أيضا ما يمشي على التواضع لإعلاءه .

فإن قلت : فكيف يتواضع الفاسق المتظاهر بالفسق والابتدع ، وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم ما به ، وكيف يجهل فضل العلم والمعبادة عند الله تعالى ، وكيف يخفيه أن يضطر بياله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر . فأعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الحاجة ، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه ، إذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر ، والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة ، والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك ، فكيف من مسلم نظر إلى عمر رضى الله عنه قبل إسلامه فاستخره وازدراه لحكفه وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين إلا أبا بكر وحده فالمراتب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة ، وجميع الفضائل في الدنيا تتراد للعاقبة . فإذا من حق العبد أن لا يتكبر على أحد . بل نظر إلى جاهل قال : هذا صبي الله يجهل وأنا عصيته بلم فهو أصغر منى . وإن نظر إلى عالم قال : هذا قد علم مالم أعلم فكيف أكون مثله ! وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنا قال : هذا قد أطاع الله قبلى فكيف أكون مثله ! وإن نظر إلى صغير قال : انى عصيته الله قبله فكيف أكون مثله ! وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال : ما يدري لعله يحتم به بالإسلام ويحتم لي بما هو عليه الآن ، فليس دوام الهداية إلى ، كما لم يكن ابتداءها إلى ؟

فبملاحظة الحاجة يقدر على أن ينفي الكبر عن نفسه ، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرىب من الله ، لا فيما يظهر في الدنيا مما لا يباقي له ، ولعمري هذا الخطر مشترك بين التكبر والتكبر عليه ! ولكن حتى على كل واحد أن يكون مصروف المنة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته ، لا أن يشتغل بخوف غيره ، فإن الشفيق بسوء الظن مولع ، وشفقة كل إنسان على نفسه . فإذا جبر جماعة في جناية ووعدوا بأن تضرب رقابهم لم يترغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر ، إذ شغل كل واحد نفسه عن الالتفات إلى هم غيره ، حتى كان كل واحد هو وحده في مصيبته وخطره .

فإن قلت : فكيف أبغض المبتدع في الله وأبغض الفاسق وقد أمرت بغيضهما ، ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض ؟ فأعلم أن هذا أمر مشتبه يلبس على أكثر الخلق ، إذ يمتزج غشيبته في انكار البدعة والفسق

يكبر النفس والإدلال بالعلم والورع ، فكبر من عابد جليل وعالم مغرور إذا رأى فاسقا جلس بجنبه أذبحه من عنده وتزده عنه بكبر باطن في نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله ؛ كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليمه ؛ وذلك لأن الكبر على الطبع ظاهر كونه شرأ والخبر منه ممكن ، والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب فهو خير ، فإن الغضب ان أظنا يتكبر على من غضب عليه والمتكبر يغضب ، وأحدهما يشر الآخر ويرجيه ، وهما بمنزلة من متلبسان لا يميز بينهما إلا الموقنون .

والذي يخلطك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور : ( أحدها ) التفاتك إلى ماسبق من ذنوبك وخطاياك ليضرب عند ذلك قدرك في عينك . ( والثاني ) أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح بين حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك ، فله المنة فيه لا لك ، فرى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك ، وإذا لم تعجب لم تتكبر . ( والثالث ) ملاحظة إيهام عاقبتك ، وعاقبته أنه ربما يختم لك بالسوء ويحتم له بالحق ، حتى يشفق الخوف من التكبر عليه .

فإن قلت : فكيف أغضب مع هذه الأحوال ؟ فأقول : تغضب لمولانا وسيدك ، إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك ، وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا ، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة ، وأمرتك ذلك بمثل تعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول : إذا كان لك غلام وولد هو قرعة عينه ، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه ، وأمره أن يضربه مهما أساء أديه واشتغل بما لا يليق به ، ويغضب عليه . فإن كان الغلام عيا مطيعا لمولاه فلا يجد بدا أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب ، وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به ، ولأنه يريد التقرب بامتنال أمره إليه ، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه ، فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه ، بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه ، لأن الولد أعز لا عالة من الغلام . فاذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع ؛ فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق وتظن أنه ربما كان قد مرما في الآخرة عند الله أعظم ، لما سبق له من الحسن في الأزل ، ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل وأنت غافل عنه . ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر بمولانا إذ جرى ما يكره مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة . فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فينضم إليه الخوف والتواضع ، وأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة ، وذلك غاية الغرور . فهنا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه وبجانبه بحكم الأمر .

السبب السابع : التكبر بالورع والعبادة ، وذلك أيضا قلة عظيمة على العباد ، وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أن من يقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كنهيا كان ، لما عرفه من فضيلة العلم ، وقد قال تعالى ﴿ هل يستوي الذين يعملون والذين لا يعملون ﴾ وقال ﷺ « فضل العالم على العابد كفضل علي أدب رجل من أصحابي<sup>(١)</sup> » إلى غير ذلك ماورد في فضل العلم .

(١) حديث « فضل العالم على العابد كفضل علي أدب رجل من أصحابي » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقدم في العلم .

فان قال العابد : ذلك لعامل بعله وهذا عالم فاجر ، فيقال له : أما عرفت أن الحسنات ينعمن السيئات ، وكما أن العلم يمكن أن يكون بحجة على العالم فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه ، وكل واحد منهما يمكن وقد وددت الأخبار بما يشهد لذلك ، وإذا كان هذا الأمر غائبا عنه لم يحرم له أن يحضر عالما بل يجب عليه التواضع له .

فان قلت : فان صح هذا فينبغي أن يكون العالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله عليه السلام « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » . فاعلم أن ذلك كان ممكنا لو علم العالم عاقبة أمره ، وغاية الأمر مشوك فيها ، فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم وقد مته به ، وإذا كان ممكنا كان على نفسه عاقبا ، فإذا كان كل واحد من العابد والعالم عاقبا على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره ، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء ، وذلك بمنحه من التكبر بكل حال .

فهذا حال العابد مع العالم ، فأما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه إلى مستودين وإلى مكشوفين ، فينبغي أن لا يتكبر على المستور فله أقل منه ذنوبا وأكثر منه عبادة وأشد منه حبا لله . وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تريد عليه ذنوبك في طول عمرك . فلا ينبغي أن تتكبر عليه ، ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنبا ، لأن عدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة . نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كالو رايت منه القتل والشرب والزنا ، ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل وأعتاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى وتخفيل الخطأ في ذلك كل ذلك شديد عند الله ، فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله بمقوتنا ، وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتعظيم ما أمنت عال عنه ، وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته ، فيكتشف النطاء يوم القيامة فتراه فوق قفصك بدرجات ، فهذا ممكن والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريبا عندك إن كنت مشفقا على نفسك ، فلا تتفكر فيما هو ممكن لنفرك بل فيما هو مخوف في حقك ، فانه لا لزوم وازرة وذو أخرى ، وعذاب غيرك لا يخفف شيئا من عذابك ، فإذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك .

وقد قال وهب بن منبه : ماتم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال ، قد تسعة حتى يبلغ العاشر فقال : العاشرة : وما العاشرة ؟ بهاساد يجمدونها علا ذكره ، أن يرى الناس كلهم خيرا منه . ولما الناس عنده فرقان : فرقة هي أفضل منه وارتفاع ، وفرقة هي شر منه وادنى . فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه ، إن رأى من هو خير منه سره ذلك وتعتنى أن يلحق به ، وإن رأى من هو شر منه قال : لعل هذا ينجو واهلك أنا فلا تراه إلا عاقبا من العاقبة ويقول : لعل يرهنا باطن فذلك خير له ، ولا أدري لعل فيه خلقا كر بما بينه وبين الله فيرحمه ويثوب عليه ويحتم له بأحسن الأعمال ، ويرى ظاهر فذلك شر له . فلا يأمن فيها أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطها ، ثم قال فيثبت كل عقله وساد اهل زمانه . فهذا كلامه . وبالجملة فن جواز أن يكون عند الله شقيا وقد سبق الفناء في الأزل بشقوته فإله سبيل إلى أن يتكبر بجمال من الأحوال .

نعم إذا غاب عليه الخوف رأى كل أحد خيرا من نفسه وذلك هو الفضيحة ، كما روى أن عابدا آرى إلى جبل قليل في النوم : أنت فلانا الإسكاف فسله أن يصر لك ، نأناه وسأله عن عملة فأخبره أنه يصوم النهار ، ويكتسب

فيستحق ببعضه ويطعم عياله ببعضه ، فرجع وهو يقول : إن هذا الحسن ، ولكن ليس هذا كالترغ لطاعة الله .  
فأتى في النوم ثانيا ف قيل له : أنت فلانا الإسكافقتل له : ما هذا الصغار الذي يوجهك ؟ فأنا فأسأله فقال له : ما رأيت  
أحدا من الناس لا وقيل : أنه سينجو وأهلك أنا ، فقال العابد : بهذه .

والذي يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى ﴿ يَتُوبُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجْهَ أَنَّهُمْ إِلَىٰ بِهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ أي  
أنهم يؤتوون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنْ كُنَّا قَبِيلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ وقد وصف الله تعالى للملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم  
على المبادات على السجود بالإشفاق فقال تعالى غيرا عنهم ﴿ يَسْجُدُونَ لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا يَفْتُرُونَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَةِ  
مُشْفِقُونَ ﴾ فبقي زال الإشفاق والحذر ما سبق به القضاء في الأزل — ويتكشف عند خاتمة الأجل — غلب الأمن  
من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك . فالكبر دليل الأمن والأمان مهلك . والتواضع دليل الخوف  
وهو مسدد ، فإذا ما يغسه العابد باضمار الكبر واحترار الخلق والنظر إليهم بمن الاستصغار أكثر ما يصلحه  
بظواهر الأعمال . فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير ، إلا أن النفس بعد هذه المرة قد تضر  
التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهي كاذبة ، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبيعتها ونسيت وعلمها ، فمن هذا  
لا ينبغي أن يكتفى في المداواة بمجرد المرة بل ينبغي أن تكمل بالعمل وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان  
الكبر من النفس .

وبياحه أن يجتمع النفس بخمس امتحانات هي أدلة على استخراج مافي الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة .

الامتحان الأول : أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه ، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل  
عليه قبوله والاعتقاد له والاعتراف به والفكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق ، فذلك يدل على أنه فيه كبرا  
دفيئا فليتن الله فيه ويشغل بهلاجه . أما من حيث العلم فيأن يذكر نفسه غفلة وخطر عاقبه وأن الكبر لا يليق  
إلا بالله تعالى . وأما العمل فيأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ، ويقر  
على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول : ما أحسن ما فعلت له وقد كنت غافلا عنه فجزاك الله خيرا كما  
نهتني له فالحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها . فإذا واطب على ذلك مرات متوالية صار  
ذلك له طبيعا ، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله : ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر ، فإن  
كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ويثقل عليه في الملا فليس فيه كبر وإنما فيه رياء ، فليعالج الرياء بما ذكرناه من  
قطع الطمع عن الناس ، ويذكر القلب بأن منعمته في كاله في ذاته وعند الله لا عند الخلق ، إلى غير ذلك من أدوية  
الرياء : وإن ثقل عليه في الخلوة والملاجميما ، ففيه الكبر والرياء جميعا ، ولا ينفعه الخلاص من أحد ما لم يتخلص  
من الثاني : فليعالج كلا الداءين فانهما جميعا مهلكان .

الامتحان الثاني : أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس في  
الصدور تحته ، فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر ، فليواطب عليه تكلفا حتى يسقط عنه ثقله فبذلك يرايه الكبر .  
وهنا الشيطان مكيدة وهو أن يجلس في صف النعال أو يجلس بينه وبين الأقران بعض الأزدال فيطن أن ذلك تواضع  
وهو عين الكبر ، فإن ذلك يخفف على نفوس المتكبرين إذ يذوهمون أنهم تركوا مكانتهم بالاستحقاق والفضل ، فيكون  
قد تكبر ، وتكبر باظهار التواضع أيضا ، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بينهم ولا ينحط عنهم إلى وصف  
النعال ، فذلك هو الذي يخرج خبيث الكبر من الباطن .

الامتحان الثالث : أن يجب دعوة الفقير ويرى إلى السوق في حاجة الرقاء والأقارب ، فإن نقل ذلك عليه فهو كبر ، فإن هذه الأفعال من مكالم الأخلق والثواب عليها جزيل ، فتغور النفس عنها ليس إلا لتحت في الباطن فليشتغل بإزالة بالمواظبة عليه مع تدكر جميع مآذركه من المعارف التي تزيل ذاء الكبر .

الامتحان الرابع : أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورقائه من السوق إلى البيت ، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء ، فإن كان يشغل ذلك عليه مع خلق الطريق فهو كبر ، وإن كان لا يشغل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء ، وكل ذلك من أمراض القلب وعلة المهلكة له إن لم تتدارك ، وقد إهمل الناس طلب القلوب واشتغلوا بطلب الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا عالة ، والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها إذ قال تعالى ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ وروى عن عبد الله بن سلام أنه حل حزمة حطب فقيل له : يا أبا يوسف قد كان في غلمانك وبذلك ما يكفيك ، قال : أجل ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك ؟ فلم يقنع منها بما أعطيه من الزم على ترك الآفة حتى جربها أم صادقة أم كاذبة ؟ وفي الخبر « من حل الفاكة أو الشيء فقد برىء من الكبر » (١) .

الامتحان الخامس : أن يلبس ثياباً بذلة ، فإن تغور النفس عن ذلك في الملاء رياء وفي الخلوة كبر . وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه له مسح بلبسه بالليل ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برىء من الكبر » (٢) وقال عليه الصلاة والسلام « إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف وأعقل البعير وألق أصابعي وأجيب دعوة المملوك ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » (٣) . وروى أن أبا موسى الأشعري قيل له إن أتواما يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم ، فلبس عبادة فصل في ثيابها بالناس . وهذه مواضع يجمع فيها الرياء والكبر فأيخص بالثياب هو الرياء ، وما يكون في الخلوة فهو الكبر ، فأعرف فإن من لا يعرف الشر لا يقضيه ، ومن لا يدرك المرض لا يدأويه .

### بيان غاية الرياضة في خلق التواضع

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة : طرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبرا ، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسا ومذلة ، والوسط يسمى تواضعا . والمعمود أن تواضع في غير مذلة ومن غير تخاس ، فإن كلا طرفي الأمور ذميم وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها . فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع ، أي وضع شيئا من قدره الذي يستحقه . والعالم إذا دخل عليه إسكاف قتمى له من جملته وأجلسه فيه ثم تقدم وسوى له ثمة وغدا إلى باب الدار خلقه فقد تخاس وتذلل ، وهذا أيضا غير محمود بل الم محمود عند الله المدل ، وهو أن يعطى كل ذي حق حقه ، فينبغي أن تواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته ، فأما تواضعه للسوق فبالقيام والبشر في الكلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك ، وأن لا يرى نفسه خيرا منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يستغفره ولا يستصغره وهو لا يعرف غائفة

(١) حديث « من حمل الشيء والفاكة قد برىء من الكبر » أخرجه البيهقي في الشعبين حديث أبي أمامة وموضفه بلفظ « من حمل بضاعته » . (٢) حديث « من اعتقل البعير وليس الصوف قد برىء من الكبر » أخرجه البيهقي في الشعبين حديث أبي هريرة زيادة فيعوفي إسناده القاسم اليعمرى ضعيف جدا . (٣) حديث « إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف ... الحديث » تقدم بضه ولم أجد بقيته .



أمره . فإذن سبيله في اكتساب التواضع ان يتواضع للأقران ولن دونهم حتى يخضع عليه التواضع المحمود في عمارات العادات ليزول به الكبر عنه ، فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع ، وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع ، بل الخلق ما يصد عنه الفعل بسيرة من غير قتل ومن غير روية ، فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التملك والتخاصس قد خرج الى طرف التقصان ، فليرفع نفسه إذ ليس المؤمن أن تذل نفسه الى أن يسود الى الوسط الذي هو الصراط المستقيم ، وذلك غاى في هذا الخلق وفي سائر الأخلق . والميل عن الوسط الى طرف التقصان وهو التملك أهون من الميل الى طرف الزيادة بالكبر ، كما أن الميل الى طرف التذير في المال أحد الناس من الميل الى طرف البخل ، فنهاية التذير ونهاية البخل مذمومان واحدهما الخش وكذلك نهاية الكبر ونهاية التفتن والتذلل مذمومان وأحدهما أقيح من الآخر . والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والعادة ، ولتقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع .

الشرط الثاني : من الكتاب في العجب : وفيه بيان ذم العجب وآفاته ، وبيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما ، وبيان علاج العجب على الجملة وبيان أقسام مآه العجب وتفصيل علاجه .

### بيان ذم العجب وآفاته

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ . قال الله تعالى (ويوم حين إذا أعجبكم كثرتم فلم تكن عنكم شيئا) ذكر ذلك في معرض الإنكار وقال عز وجل (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وهذا أيضا يرجع الى العجب بالعمل . وقد يعجب الإنسان بعمله مخطئ فيه كما يعجب بعمله موصل فيه . وقال ﷺ ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه<sup>(١)</sup> وقال لابي ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الآية فقال : «إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأى برأيه فليكن تسكك<sup>(٢)</sup>» . وقال ابن مسعود : الهلاك في اثنين القنوط والعجب . وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشعر والقنوط لا يسعى ولا يطلب ، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى . فالوجود لا يطلب ، والحال لا يطلب ، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له ومستحقة له واعتقاد القنوط ، فمن هنا جمع بينهما . وقد قال الله تعالى : (فلا تزكوا أنفسكم) قال ابن جرير : معناه إذا عملت غيرا فلا تزل عملك . وقال زيد بن أسلم : لا تبروها ؛ أي لا تعتدوا أنها بارة وهو معنى العجب .

ووفي طلحة رسول الله ﷺ يوم أحد بنفسه فأكب عليه حتى أصيبت كفه ، فكأنه أعجب فعله العظيم إذ فداه بروحه حتى جرح ففرض ذلك عمر فيه فقال : ما زال يعرف في طلحة تأو منذ أصيبت أصبح مع رسول الله ﷺ<sup>(٣)</sup> والتأو هو العجب . في اللغة - إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلما ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس : أين أنت من طلحة؟ قال : ذلك رجل فيه غفوة . فإذا كن لا يتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص الضعفاء من

(١) حديث «ثلاث مهلكات... الحديث» تقدم غمرة (٢) حديث أبي ثعلبة «إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأى برأيه فليكن تسكك» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنوا ابن ماجه وقد تقدم .

(٣) حديث وفي طلحة رسول الله ﷺ بنفسوا كب عليه حتى أصيبت كفه» أخرجه البخاري من رواية قيس بن أبي حازم قال : رأيت يد طلحة شلاء وفيها النبي ﷺ .

لم يأخذوا حذرم؟ وقال مطرف: لأن آيت نائما وأصبح نادما أحب إلى من أن آيت قائما وأصبح ممجبا. وقال عليه السلام: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجيب» (١). فجعل العجب أكبر الذنوب. وكان بشر بن منصور من الذين إذا رموا ذكر الله تعالى والدار الآخرة لمواظبه على العبادة، فأطال الصلاة يوما ورجل خلفه ينظر فظن له بشر، فلما انصرف عن صلاؤه قال له: لا يسجنتك ما رأيت مني؟ فان إبليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ثم صار إلى ما صار إليه. وقيل لما ترضى الله عنها: متى يكون الرجل مسيئا؟ قالت: إذا ظن أنه عسن، وقال تعالى: (لا تبطئوا صفاتكم بالبنى والآئى) والمن نتيجة استعظام الصدقة، واستعظام العمل هو العجب. فظهر بهذا أن العجب مذموم جدا.

### بيان آفة العجب

اعلم أن آفات العجب كثيرة فان العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه — كما ذكرناه — فينزل من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تحصى هنا مع العباد: وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدتها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها، وما يذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه بل يظن أنه يفر له. وأما العبادات والأعمال فانه يستعظمها ويحبسها ويمن على الله بقله، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتسكين منها، ثم إذا صعب بها عصى عن آفاتها. ومن لم يفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضاعفا، فان الأعمال الظاهرة إذا لم تكن عالصة نقية عن الشوائب فلها تنفع، وإنما يتفقد من يغلب عليه الاشفاق والخوف دون العجب، والمعجب يفر نفسه وبرأيه ويؤمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بكل وإن له عند الله منه وحقا بأعماله التي هي نعمة من نعمة وعطية من عطايه، ويخرج العجب إلى أن يثني على نفسه ويمجدها ويكبرها وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه، وربما يصيب بالراى الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره، ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصيح ناصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستحجال ويصر على خطئه، فإن كان رأيه في أمر ديني فيحقق فيه، وإن كان في أمر دنيي لاسيا فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به، ولو أنهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماه الذين وواظب على مدارسة العلم وتابع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله إلى الحق. فهذا وأمثاله من آفات العجب فذلك كان من المهلكات، ومن أعظم آفاته أن يفر في السعي لظنه أنه قد قار وأنه قد استغنى وهو المهلك الصريح الذي لاشبهه فيه. نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته.

### بيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا عظمة، والعالم بكل تقه في علم وعمل ومال وغيره حالتان (إحداهما) أن يكون خائفا على ذواله ومشفقا على تكذره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب (والأخرى) أن لا يكون خائفا من ذواله لكن يكون فرحا به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه لامن حيث إضافة إلى نفسه

(١) حديث «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجيب» أخرجه البزار وابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أنس وفيه سلام بن أبي الصبياء قال البخاري منكرو الحديث. وقال أحمد حسن الحديث ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف جدا.

وهذا أيضا ليس بمعجب (وله حالة ثالثة) هي العجب وهي أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحا به مطمئنا إليه ، ويكون فرحه بمن حيث إنه كال نعمة وخير ووقية لا من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه ، فيكون فرحه به من حيث إنه صفته ومنسوب إليه بأنه له لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه ، فهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلها عتزال العجب بذلك عن نفسه . فإذا العجب هو استظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى النعم ، فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا وأنه منه يمكن حتى يتوقع بهدله كرامة في الدنيا ، واستبعد أن يجرى عليه مكروه استبعادا يزيد على استبعاده ما يجرى على الفاسق متى هذا إدلالا بالعمل ، فكانه يرى لنفسه على الله دالة ، وكذلك قد يعطى غيره شيئا فيستظنه ومن عليه فيكون معجبا ، فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تحفظه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه .

وقال قتادة في قوله تعالى ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ أي لا تمل بمملك وفي الخبر « إن صلاة للمل لا ترفع فوق رأسه ، ولأن تضحك وأنت محترق بذلك خير من أن تكي وأنت بمملك<sup>(١)</sup> » والإدلال وراء العجب ، فلا مدلل إلا وهو معجب ورب معجب لا يدل ، إذ العجب يحصل بالاستظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه ، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء ، فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردعا يباطنه وتعجب منه كان مدلا بمسله ، لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك . فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدمات التكبر وأسبابه عوالة تعالى أعلم .

### بيان علاج العجب على الجملة

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بعينه . وعلة العجب الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط ، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والقرى وسياة الخلق وإصلاحهم ، فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والفسب وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه .

نفقول : الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب إنما يعجب به من حيث إنه فيه فهو محلة ومجرأ أو من حيث إنه منه وبسببه وبقدرة وقوة ، فإن كان يعجب به من حيث أنه فيه وهو محله ومجرأ يجرى فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل ، لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل ، فكيف يعجب بما ليس إليه ؟ وإن كان يعجب به من حيث أنه منه وإليه وباختياره حصل وبقدرة تم ، فينبغي أن يتأسل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أن كانت له ؟ فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدل بها فينبغي أن يكون إعجابه بحدود الله وكرمه وفضله ، إذ أناس عليه ما لا يستحق وآثره به على غيره من غير ما بقية ووسيلة فهما برز الملك لعلناه ونظر الهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجمال ولا لخدمة ، فينبغي أن يعجب المتعم عليه من فضل الملك وحكمه وإثارة من غير استحقاق وإعجابه بنفسه من أن وما سببه ؟ ولا ينبغي أن يعجب نفسه . نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول : الملك حكيم مدلل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا للجب ، فلولا أنه قطن في صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الإيثارة بالخلعة ولما آثرني بها ، فيقال : وتلك الصفة أيضا هي من خلقه الملك وعطية التي خصصك بها من غيرك ، من غير وسيلة ، أو هي عطية غيره . فإن كانت من عطية الملك أيضا لم يكن أن تعجب بها ، بل كان كما لو أعطاك فرسا

(١) حديث « إن صلاة للمل لا ترفع فوق رأسه ... الحديث » لم أجد له أصلا .

فلم تعجب به ، فأعطاك غلاما فصرت تعجب به وتقول : إنما أعطاني غلاما لأنى صاحب فرس فأما غيرى فلا فرس له ، فيقال : وهو الذى أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معا أو يعطيك أحدهما بعد الآخر ، فإذا كان الشكل منه فينبى أن يعجبك جهوده وفضله لا نفسك . وأما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة ، وهذا يتصور فى حق الملوك ولا يتصور فى حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة ، فإنك إن أعجبت بمبادئك قلت : وقتنى العبادة لمبى له ، فيقال : ومن خلق الحب فى قلبك ؟ فتقول : هو ، فيقال : طالب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتداءك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فيكون الإعجاب بجهوده إذا نسم بوجودك وجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك فإذا لامعنى لعجب المابد بعبادته وعجب العالم بعبده وعجب الجليل بجماله وعجب الغنى ببنائه لأن كل ذلك من فضل الله وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده ، والمحل أيضاً من فضله وجوده

فإن قلت : لا يمكن أن أجعل أعمالى وأنا أنا عملتها فإنى أنتظر عليها ثوابا ، ولولا أنها على لما انتظرت ثوابا فإن كانت الأعمال غلوة فعلى سبيل الاختراع فإن أبى الثواب ؟ وإن كانت الأعمال منى وبقدرك فكيف لأعجب بها ؟ فأعلم أن جوابك من وجهين ( أحدهما ) هو صريح الحق ( والآخر ) فيه مساعده .

أما صريح الحق : فهو أنك وقد تركت وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه ، فلما عملت إذ عملت وما صليت إذ صليت ( وما دميت إذ دميت ولكن الله رى ) فهذا هو الحق الذى انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من إبطار العين ، بل خلقك وخلق أعضائك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة ، وخلق لك النفس والعلم وخلق لك الإرادة ، ولو أردت أن تتق شيئا من هذا عن نفسك لم تقدر عليه ، ثم خلق الحركات فى أعضائك مستبداً باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه فى الاختراع ، إلا أنه خلقه على ترتيب لم يخلق الحركة ما لم يخلق فى العضو قوة وفى القلب إرادة ، ولم يخلق إرادة ما لم يخلق علما بالمراد ، ولم يخلق علما ما لم يخلق القلب الذى هو محل العلم ، فتدرجه فى الخلق شيئا بعد شيء هو الذى غيبل لك أنك أوجدت عملك وقد غلظت . وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله وسيأتى تقريره فى كتاب الفكر فإنه أليق به فأرجع إليه .

ولن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثانى : الذى فيه مساعده ما : وهو أن نحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك ؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لملكه فإن كان العمل على القدرة فالقدرة مفتاح وهذا المفتاح بيد الله ، وبهما لم يملك المفتاح فلا يمكنك العمل ، فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهى بيد الله لا حالة .

أراعتلو رأيت خزائن الدنيا موحدة فى قلعة حصينة ومفتاحها بيد عازن ، ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يتمكن أن تنظر إلى دينار مائها ، ولو أعطاك المفتاح لأخذته من قريب بأن يمسك يدك إليه فأخذه فقط ، فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها فددت يدك وأخذتها كن إعجابك بأعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مد اليد وأخذها ؟ فلا تخف فى أنك ترى ذلك نعمة من الخازن لأن المنة فى تحريك اليد بأخذ المال قريبة ، وإنما الشأن كله فى تسليم المفاتيح . فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة وحركت الدواعى والبراعت وحرف عندك الموانع والصوائف ، حتى لم يبق صارف إلا دفع ولا باعث إلا وكل بك فالعمل من عليك وتحريك البراعت وحرف العوائق وتيسر الأسباب كلها من الله ليس شيء منها إليك ، فمن العجائب أن تعجب بنفسك

ولا تعجب من إليه الأمر كله ، ولا تعجب بحجوده وفضله وكرمه في إثارة إياك على الفساد من عباده إذ سلب دواعي الفساد على الفساد وصرفها عنك ، وسلب أقدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ، ومكنك من أسباب الشهوات والذات وزواها عنك ، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك ، حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر ! فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جرمية سابقة من الفاسق العاصي ، بل أنك وقدمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصي وأشتاده بعده ، فما أعجب إعجابك بنفسك إذ عرفت ذلك ! فأذن لا تصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلا إلى مخالفتها فكانه الذي انحدرك إلى الفعل إن كنت فاعلا تحقيقا لله الشكر والمنة لا لك به ، وسياق في كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ما تستبين به أنه لا فاعل إلا الله ولا خالق سواه !

والعجب من يعجب — إذا رزقه الله عقلا وأقره — ممن أقاض عليه المال من غير علم فيقول : كيف منعتني قوت يومي وأنا المائل القاضل وأقاض على هذا نعم الدنيا وهو المائل الجاهل ؟ حتى يكاد يرى هذا ظنا ، ولا يدري الخور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعا لكان ذلك بالنظم أشبه بظاهر الحال ، إذ يقول الجاهل الفقير : ياربنا جمعت بين العقل والنفي وحرمتني منهما فلا جمعتهما لي أو هلازمتني أحدهما ؟ وإلى هذا أشار على رضى الله عنه حيث قيل له : ما بال العقلاء قراء ! فقال : إن عقل الرجل محسوب عليه من رزقه .

والعجب أن المائل الفقير بما يرى الجاهل النفي أحسن حالا من نفسه ، ولو قيل له : هل تؤثر جهله وغناه عوضا عن عقلك وتترك لامتنع عنه ! فأذن ذلك يدل على أن نعمة الله عليك أكبر ؟ فلم يعجب من ذلك ؟

والمرأة الحسنة الفقيرة ترى الخلق والجمال على النعمة القبيحة فتعجب وتقول : كيف يجرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصم مثل ذلك القبح ؟ ولا تدري المفرورة أن الجمال محسوب عليها من رزقها وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع النفي لأثرت الجمال ؟ فأذن نعمة الله عليها أكبر .

وقول الحكيم الفقير المائل بقلبه : يارب لم حرمتني الدنيا وأعطيتها الجاهل ؟ كقول من أعطاه الملك فرسا فيقول : أيها الملك لم لا تعطيني الغلام وأنا صاحب فرس ! فيقول : كنت لا تعجب من هذا لو لم أعطك الفرس ! فبأنى ما أعطيتك فرسا أصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجة تطالب بها نعمة أخرى ؟ فهذه أوامهم لا تلحق الجاهل عنها . ومنشأ جميع ذلك الجهل ، ويزال ذلك بالعلم الحق بأن العبد ورحله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتداء بها قبل الاستحقاق ، وهذا ينفي العجب والإدلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من ذوال النعمة .

ومن عرف هذا لم يحسور أن يعجب بعلوه وعمله إذ يعلم أن ذلك من الله تعالى . ولذلك قال داود عليه السلام : يارب ما أتاني ليلة إلا وإنسان من آل داود صائم — وفي رواية ما ترساعة من ليل أو نهار إلا وعائد من آل داود يسبك إماميصل وإمام يصوم وإمام يدرك — فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ومن أين لهم ذلك ! إن ذلك لم يكن إلا بي ولولا عني إياك ما قربت وسألك إلى نفسك ، قال ابن عباس : إنما أصاب داود ما أصاب من الذنب يصحبه بعمله إذ أضافه إلى آل داود مدلا به حتى وكل إلى نفسه ، فأذنب ذنبا أورثه الحزن والتدم . وقال داود : يارب إن بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسماعيل ويعقوب ، فقال : إن بني إسماعيل فصبوا ، فقال : يارب أو أنا إن إسماعيل صبرت ، فأدب بالعمل قبل وقته فقال الله تعالى : فاقبل أخيرهم بأي شيء . أتيتهم ولا في أي شهر ولا في أي يوم ، وأنا غيرك في سنك هذه وشهرك هذا أتيتك غدا بامرأة فاحذر نفسك ، فوقع فيما وقع فيه . وكذلك لا تنكح أصحاب رسول الله ﷺ يوم خيبر على نفوسهم وكثرتهم

ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا لا تغلب اليوم من قلة (١) وكلموا إلى أنفسهم فقال تعالى ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيركم فلم تفتح عنهم شيئا فغلب عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ . روى ابن عيينة أن أيوب عليه السلام قال : إلهي إنك ابتليتني بهذا البلاد وماورد على أمر إلا أثرت هواك على هواي ، فتوتى من غمامة بعشرة آلاف صوت : يا أيوب أنى لك ذلك ، أى من أين لك ذلك ؟ قال : فأخذ رمادا ووضع على رأسه وقال : منك يا رب منك يا رب ، فرجع من نسيانه إلى ضيقة ذلك إلى الله تعالى . ولهذا قال الله تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ماذا كنتم من أحد أبدا ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس « ما منكم من أحد ينجي عمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته » (٢) ولقد كان أصحابه من بعده يمتنون أن يكونوا ترابا وتبتنا وطيرا مع صفاء أعمالهم وقلوبهم ، فكيف يكون لدى بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه ؟ فاذن هذا هو العلاج القامع لمادة السحب من القلب . ومما غلب ذلك على القلب شغل الخوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها ، بل هو ينظر إلى الكفار والفاسق وقد سلخوا نعمة الإيمان والطاعة بفير ذنب أذنبوه من قبل ، فيغاف من ذلك فيقول : إن من لا يبالي أن يصرم من غير جناية ويعطى من غير وسيلة لا يبالي أن يعود ويسترجع ما ذهب ، فكأن من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بسوء وهذا لا يبق معه صعب حال ، والله تعالى اعلم .

### بيان أقسام ما به السحب وتقصيل علاجه

اعلم أن السحب بالأسباب التي بها يشكر - كما ذكرناه - وقد يعجب بالاشكر به كسحب بالراى الخطأ الذي يزين له بحمله فإما بالسحب ثمانية أقسام :

( الأول ) أن يعجب بيده في جماله وحيثه وصحته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته ، وبالجلة تفصيل خلقته ، فيلجس إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو بهرعة الزوال في كل حال ، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال وهو التفكير في اقتدار باطنه وفي أول أمره وفي آخره ، وفي الوجه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب وانتفتحت في القيور حتى استقدرتها الطلياح .

( الثاني ) البطش والقوة كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فما أخبر الله عنهم ﴿ من أشد منا قوة ﴾ وكان كل جوج على قوته واصعب بها فاقطع جبلا ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام ، فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بفتر مهدد ضئيف المتفارع حتى صادت في عنقه ، وقد يتكلم المؤمن أيضا على قوته كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال : لأطوفن اللبلة على مائة امرأة ولم يقل : أن شاء الله تعالى ، فخرهما إرادته من الله (٣) وكذلك قول داود عليه السلام : إن ابتليتني صيرت ، وكان إعجابا منه بالقوة ، فلما ابتلى بالمرأة لم يصبر . ويورث السحب نالقة الهجوم في الحروب وإلقاء النفس في التهلكة والمباذرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء ، وعلاجه ما ذكرناه ، وهو أن يعلم أن حتى يوم تضعف قوته ، وأنه إذا أصعب بها وبما سلها الله تعالى بأذى آفة يسلطها عليه .

(١) حديث : قولهم يوم حنين لا تغلب اليوم من قلة . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسلان .  
وجلا قال يوم حنين لن تغلب اليوم من قلة فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأمر الله عز وجل (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيركم) ولابن مردويه في تفسيره من حديث أنس : لا اتقوا يوم حنين أعجبكم كثيرتم فقالوا : اليوم قتال ؟ ففروا . فيه القرح فضالة منهجه الجمهور (٢) حديث « ما منكم من أحد ينجي عمله ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٣) حديث : « قال سليمان : لأطوفن اللبلة بمائة امرأة ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

( الثالث ) العجب بالقل والكياسة والتفطن لمقاتل الأمور من مصالح الدين والدنيا ، وثمرته الاستعداد بالرأى وترك اللدونة واستجبال الناس المختلفين له ورأيه ، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إصراراً عنهم بالاستغناء بالرأى والعقل واستحقاراً لهم وإهانة ، وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل ، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه يوسوس ويحين بحيث يضطك منه ! فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره ، وليستصر عقله وعلمه ، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلاً وإن اتسع علمه ، وأن ما جله مما عرفه الناس أكثر ما عرفه ، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى . وأن يتهم عقله وينظر إلى الحق كيف يسجيرون بعقولهم ويضطك الناس منهم . فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري . فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله ، فيبغى أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه . ومن أعدائه لا من أصدقائه ، فإن من يداعته يثني عليه فيزيد حجباً وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ولا يظن للجهل نفسه فيزداد به عجباً .

( الرابع ) العجب بالنسب الشريف كمعجب الهاشمية ، حتى يظن بعضهم أنه ينحدر بشرف نسبه ونجاة آباءه وأنه مغفور له ، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد ، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعاله وأخلاقه وظن أنه ملحق بهم فقد جهل ، وإن اقتدى بآباءه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والإذراء على النفس واستعظام الخلق ومذمة النفس ، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والحاصل الحميدة لا بالنسب ، فليتشرف بما شرفوا به ، وقد ساورهم في النسب وشاركم في القتال من لم يؤمن بالله واليوم الآخر ، وكانوا عند الله شراً من الكلاب وأخس من الخنازير ، ولذلك قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ۖ أَيُّ لَا تَقَارَفُوا فِي أَنْسَابِكُمْ لَاجْتِنَاعِكُمْ فِي أَصْلٍ وَاحِدٍ ۚ ثُمَّ ذَكَرَ قَائِمَةَ النَّسَبِ قَالِ ( وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعْرِفُوا ) ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ الشَّرَفَ بِالْقُوَى لَا بِالنَّسَبِ قَالِ ( إِنْ أَكْرَمَكُمْ عَنْدَ اللَّهِ اتِّخَاكُمْ ) وَلَمْ يَقْسِلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَكْرَمِ النَّاسِ مِنْ أَكْبَسِ النَّاسِ . لم يقل : من ينشئ إلى نسي ولكن قال « أكرمهم أكثرهم الموت ذكر أو أاشدمه استعداداً » ﴿ وَإِنَّمَا تَزُلْ مِنْهُ الْآيَةُ حِينَ أَخَذَ بِلَالٍ يَوْمَ الْفَتْحِ عَلَى الْكُفَّةِ : قَالِ الْحُرْتُ بْنُ عَمَامٍ وَسَيْلُ بْنُ حَمْرٍ وَغَالَهُ بِنَ اسِيدٍ : هَذَا الْعَبْدُ الْأَسْوَدُ يُؤَدِّي عَلَى الْكُفَّةِ ! قَالِ تَعَالَى ( إِنْ أَكْرَمَكُمْ عَنْدَ اللَّهِ اتِّخَاكُمْ ) وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ ( إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عِيبَ الْجَاهِلِيَّةِ ) أَيْ كِبْرَهَا - كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ مِنْ تَرَابٍ ﴿ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ ( يَا مُعْتَرِفِي شَرِّهِ لَا تَأْتِيَ النَّاسَ بِالْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَأْتُونَ بِالْأَنْبِيَاءِ تَحْمِلُونَهَا عَلَى رِقَابِكُمْ تَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ فَأَقُولُ هَكَذَا - أَيْ أَعْرِضْ عَنْكُمْ - ﴿ فَيَبِينُ أَنَّهُمْ أَنْ مَالُوا إِلَى الدُّنْيَا لَمْ يَنْفَعَهُمْ نَسَبُ قُرَيْشٍ .

ولما نزل قوله تعالى ﴿ وَاقْدِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ناداهم بطنا بعد بطن ، حتى قال « يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أعمالاً تقسكاً فإني لا اغني عنكما من الله شيئاً » ﴿ فمن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آباءه التواضع اقتدى بهم في التقوى

- 
- (١) حديث : لما قيل له من أكرم الناس من أكيس الناس ؟ قال « أكرمهم للموت ذكرًا ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر دون قوله « وأكرم الناس » وهو بهذه الزيادة عند ابن أبي الدنيا في ذكر الموت آخر السكتاب . (٢) حديث « إن الله قد أذهب عنكم عيب الجاهلية ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة ورواه الترمذي أيضاً من حديث ابن عمر وقال غريب . (٣) حديث « يا معشر قريش لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالأنبياء تحملونها على رقابكم . الحديث » أخرجه الطبراني من حديث عمران بن حصين إلا أنه قال : يا معشر بني هاشم وسنده ضيف . (٤) حديث « نزل قوله تعالى ( وأندر عشيرتك الأقربين ) ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال « يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عائشة .

والتواضع ، وإلا كان طاعنا في نسب نفسه - بلسان حاله - مهما اتى اليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والحرف والاشفاق.

فإن قلت : فقد قال ﷺ بعد قوله لقاطمة وصفيّة «إني لا أغني عنكما من الله شيئا إلا أن لكم رحمة سأبهاها يلاها» (١) وقال ﷺ «أترجو سلم شفاعتي ولا ترجوها بنوعيد المطلب» (٢) فذلك يدل على أنه سيخص قرايته بالشفاعة ؟ فأعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعته رسول الله ﷺ ، والنسب أيضا جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يتق الله أن ينضب عليه ، فانه إن ينضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعته ، لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب الموت فلا يؤذن في الشفاعه له ، وإلى ما يعنى عنه بسبب الشفاعه ، كالذنوب عند ملوك الدنيا فإن كل ذى مكاة عند الملك لا يقدر على الشفاعه فيما اشتد عليه غضب الملك ، فمن الذنوب ما لا تنجى منه الشفاعه وعنه المباره بقوله تعالى ( ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ) وبقوله ( من ذا الذى يشفع عنده إلا بأذنه ) وبقوله ( ولا تنفع الشفاعه عنده إلا لمن أذن له ) وبقوله ( فما تنفعهم شفاعة الشافعين ) وإذا انقسمت الذنوب إلى ما يشفع فيه وجب الخوف والإشفاق لا محالة ، ولو كان ذنب تقبل فيه الشفاعه لما أمر قريشا بالطاعة ولما نهى رسول الله ﷺ قاطمة رضي الله عنها عن المعصية ، ولكان يأذن لها في اتباع الصورات لتكمل لذاتها في الدنيا ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذاتها في الآخرة .

فالأهمك في الذنوب وترك التقوى اتكالا على رجاء الشفاعه يضاهى انهماك المريض في شوائه اعتيادا على طبيب حاذق قريب مشفق من أب أو أخ أو غيره ، وذلك جهل لأن سعى الطبيب وحمته وحذقه تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها ، فلا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتيادا على مجرد الطب ، بل للطبيب أثر على الجملة ولحسن في الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج . فهكذا ينبغي أن تقيم عنايه الشفعاء من الأتقياء والصلحاء للأقارب والأجانب ، فانه كذلك فعلا ، وذلك لا يزيل الخوف والحذر ، وكيف يزيل وخير الحقن بعد رسول الله ﷺ أصحابه وقد كانوا يمتنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال قوام وحسن أعمالهم ولم يشكوا عليه ولم يفارق الخوف والتخويع قلوبهم ؟ فكيف يصعب بنفسه ويشكل على الشفاعه من ليس له مثل محبتهم وسابقتهم .

(الخامس) العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم . وهذا غاية الجهل ، وعلاجه أن يشكر في غنايهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله وأنهم المقوتون عند الله تعالى ، ولو نظر إلى صورهم في النار وأثامهم وأقدارهم لاستنكف منهم وتبرا من الانتساب اليهم ، ولأنكر على من نسب اليهم استغذارا واستعظارا لهم ، ولو انكشف له ظلم في القيامة وقد تعلق التخصي بهم والملائكة أخذن بنواصيرهم ويجرونهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم المباد تبرا إلى أقمتهم ، ولكان انتسابه إلى الكلب والتنزيير أحباله من الانتساب اليهم ، حتى أولاد الظلمة ان عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ويستغفروا لأبائهم أن كانوا مسلمين ! فأما العجب بنسب فحول محض .

(١) حديث : قوله بعد قوله للتقدم قاطمة وصفيّة « ألا إن لكما رحما سأبها يلاها » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ « غير أن لكم رحما سأبها يلاها » (٢) حديث « أترجو سلم شفاعتي ولا ترجوها بنوعيد المطلب » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عبد الله بن جعفر وفيه أصيرم بن حوشب عن إسحاق بن واصل وكلامه ضيق جدا .



(والسادس) العجب بكثرة العدد من الأولاد والحكم والقدان والعفة والأطرب والأصاير والأبناج كما قال الكفار ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً ﴾ وكما قال المؤمنون يوم حنين : لا قلب اليوم من قلة ، وعلاجه ما ذكرناه في السكر وهو أن يتسكى في ضعفه وضعفهم وأن كلهم عبيد عجزه لا يملكون لأنقسم ضرا ولا قسما . ( كمن فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ) ثم كيف يجب بهم وأنهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلا ميتا وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حم ولا شقيق ، فيسلوه إلى الليل والحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنه شيئا وهو في أحوج أوقاته إليهم ، وكذلك يهربون منه يوم القيامة ( يوم يفار المرء من أخيه وأمه وأبيوس صاحبه وبنيه ) الآية . فأى خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك ؟ وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وحل الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى . فكيف تنكل على من لا ينفعك ، وتنتسى نعم من يملك تفعلك وضرك وموتك وحياتك .

( السابع ) العجب بالمال كما قال تعالى إنيبارا عن صاحب الجنتين إذ قال ﴿ أنا أكثر منك مالا وأمر نورا ﴾ ورأى رسول الله ﷺ رجلا غنيا جلس بجانبه فقير فأتبعه عنه وجمع ثيابه فقال عليه السلام « أخشيت أن يعثر إليك فقره » وذلك العجب فالنبي وعلاجه أن يتسكى في آفات المال وكثرة حقوقه وعظم غراله ، وينظر إلى فضيلة الفقراء ويستعينهم إلى الجنة في القيامة ، وإلى أن المال غدا ورائع ولا أصل له ، وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال وإلى قوله ﷺ « بينا رجل يتبخر في حلة قد أصبحت تقسه إذ أمر الله الأرض فأخذته فهو يتجمل فيها إلى يوم القيامة » أشار به إلى حقوبة إصجاب به نفسه . وقال أبو ذر : كنت مع رسول الله ﷺ فدخل المسجد فقال لي « يا أبا ذر ارفع رأسك » فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب جياذم قال « ارفع رأسك » فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلقة فقال لي « يا أبا ذر هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا » وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال بين حقارة الأغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالى ، فكيف يصور من المؤمن أن يعجب بثروته بل لا يحظر المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه ، ومن لا يفضل ذلك فصيره إلى الخزي والبوار فكيف يجب بماله .

(الثاني) العجب بالرأى الخطأ . قال الله تعالى ﴿ أفن زين له سوء عمله فرآه حسنا ﴾ وقال تعالى ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ : أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة ( وبذلك هلكت الأمم السالفة إذ افرقت فرقا لكل معجب برأيه ) وكل حزب بما لديهم فرحون ) وجميع أهل البدع والضلال إنما أصرروا عليها لعجبهم بآرائهم والعجب بالبدعة هو استحسن ما يسوق إليه الهوى والفتوة مع ظن كونه حقا وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه تركه ولا يعالج اللداء الذي لا يعرف والمجهل داء لا يعرف فحصر مداواته جذا . لأن العارف يقتدر على أن يبين للجاهل جهله ويذهلته إلا إذا كان معجبا

- (١) حديث: رأى النبي ﷺ رجلا غنيا جلس بجانبه فقير فأتبعه عنه... الحديث. رواه أحمد في الزهد. (٢) حديث « بينا رجل في حلة قد أصبحت تقسه ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .
- (٣) حديث أبي ذر : كنت مع النبي ﷺ فدخل المسجد فقال لي « يا أبا ذر ارفع رأسك » فرفعت رأسي ... الحديث . وفيه « هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا » أخرجه ابن جبان في صححة .
- (٤) حديث « أنه يغلب على آخر هذه الأمة الإعجاب بالرأى » هو حديث أبي ثعلبة التميمي « فإذا رأيت شحاطعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأى برأيه قليلك بخاسة نفسك » وهو عند أبي داود والترمذي .

برأيه وجهه فإنه لا يبنى إلى الماروف ويتهمة ، فقد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطالب الحرب عما هو سبب سعادته في اعتقاده ؟ وإنما علاجه على الجلة أن يكون متبها لرأيه أبدا لا يترى به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة . وإن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الخلط فيها بقرينة تامة وعقل ناقب وجد وتشعر في الطلب وممارسة الكتاب والسنة وبمجانسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم ، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الخلط في بعض الأمور ، والصواب لمن يفرغ لاستغراق عمره في العلم أن لا يغوص في المذاهب ولا يبنى إليها ولا يسمعها ، ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه ( ليس كمثل شيء ) وهو السميع البصير ) وأن رسوله صادق فيما أخبر به ويتبع سنة السلف ، ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتفتير وسؤال عن تفصيل ، بل يقول آمنا وصدقنا ويشغل بالتهوى واجتناب المأصي وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال ، فإن غاض في المذاهب والبدع والتعصب في العقائد ملك من حيث لا يشعر . هذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم ، فأما الذي عزم على التجرد للعلم فأول مهم معرفة الدليل وشروطه وذلك ما يطول الأمر فيه ، والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكثر المطالب شديد لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى وهو عز وجل الوجود جدا ففسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونموذ به من الاختار بجيالات الجهال .

تم كتاب ذم الكبر والعجب والحدقة وحسن الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

## كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربيع الملهكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بيده مقاليد الأمور ، ويقوده مفاتيح الخيرات والشور ، خرج أوليائه من الظلمات إلى النور ، ومورد أعدائه ورطبات الغرور ، والصلاة على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه الذين لم تفرم الحياة الدنيا ولم يفرم بالله الغرور ، صلاة نوال على ممر النور ومكر الساعات والشهور .

أما بعد : فمفتاح السعادة التيقظ والنفطة ، ومنبع الشقاوة الغرور والنفلة ، فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة ، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ، ولا تقمة أعظم من الكفر والمصيبة ، ولا داعي إليهما سوى عي القلب بظلمة الجهالة ، فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم ( كشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور ) والمترون قلوبهم ( كظلمات في بحر لجي يشاء موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ) فالأكياس هم الذين هم الذين أرادوا أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام والهدى ، والمترون هم الذين أرادوا أن يضلهم فحصل صدورهم ضيقا حرا كما أنما يصعد في السماء . وللغرور هو الذي لم تنتفع بصيرته ليكون بهاديا نفسه كفيلا وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان

دليلاً (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) وإذ اعرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنع المهلكات فلا بد من شرح مداخلة وبجارية وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ، ليحذره المرید بعد معرفته فيتحية ، فالوقوف من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد فأخذ منها حذره وبني على الحزم والبصيرة أمره .

ونحن نشرح أجناس مجادى الغرور وأصناف المختبرين من القضاة والعلماء والصلحين الذين اغتروا بمباحي الأمور ، الجلية ظواهرها القبيحة مرآتها ، ونشير إلى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها ، فإن ذلك كان أكثر مما يحصى ولكن يمكن التنبية على أمثلة تقى عن الاستقصاء ، وفرق المختبرين كثيرة ، ولكن نجملهم بأربعة أصناف (الصف الأول) من العلماء (الصف الثاني) من العباد (الصف الثالث) من المتصوفة (الصف الرابع) من أرباب الأموال . والمختبر من كل صف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة ، فثم من رأى المنكر معروفاً كالذي يتخذ المسجد ويخرجها من المال الحرام ، ومنهم من لم يميز بين ما يسمي فيه نفسه وبين ما يسمي فيه قه تعالى كالأعظ الذي غرضه القبول والجاه ، ومنهم من يترك الآم ويشغل بغيره ، ومنهم من يترك الفرض ويشغل بالنافلة ، ومنهم من يترك الباب ويشغل بالقشر ، كالذي يكون همه في الصلاة مقصوراً على تصحيح خارج الحروف إلى غير ذلك من مداخل لا تنضج إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة . ولنبدأ أولاً بذكر غرور العلماء ولكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحده .

### بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثله

اعلم أن قوله تعالى ( فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور ) وقوله تعالى ( ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وخرنكم الأمانى ) الآية . كلف في ذم الغرور . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حبذا يوم الأكياس وظهرهم كيف يشنون سهر الحق واجتادهم ولتقال فذة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المختبرين »<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله »<sup>(٢)</sup> وكل ما ورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور ، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل ، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به ، والغرور هو جهل إلا أن كل جهل ليس بغرور ، بل يستدعى الغرور : مغروراً فيه خصوصاً ومغروراً به وهو الذي يفره . فهما كمن الجهول المعتقد شيئاً يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل شبه وغيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلاً سوى الجهل الحاصل به غروراً . فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخذعته من الشيطان . فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور ، وأكث الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم غطون فيه ، فأكثر الناس إنهم مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم ، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض ، وأظهرها وأشدها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق فنورد لها أمثلة لحقيقة الغرور .

### كتاب ذم الغرور

(١) حديث «حبذا يوم الأكياس وظهرهم ... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين قول أبي الدرداء بنحوه وفيه انقطاع وفي بعض الروايات : أبي الورد ، موضع أبي الدرداء ولم أجدهم مرفوعاً (٢) حديث «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ... الحديث» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث شدد بن أوس .

(المثال الأول) غرور الكفار ، فهم من غره الحياة الدنيا ومنهم من غره بالله الغرور ، أما الذين غرتهم الحياة الدنيا ، فهم الذين قالوا : التقد خير من النسبة والدنيا تعد والآخرة نسيئة فهي إذن خير فلا بد من إثباتها وقالوا : اليقين خير من الشك ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فلا ترك اليقين بالشك . وهذه أقبيسة فاسدة تشبه قياس إبليس حيث قال ( أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ) وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى ( أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعصرون ) وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان وإما بالبرهان ، أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله ( ما عندكم بنفسه وما عند الله بأن ) وفي قوله عز وجل ( وما عند الله خير ) وقوله ( والآخرة خير وأبقى ) وقوله ( وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ) وقوله ( فلا تنزعكم الحياة الدنيا ) وقد أخبر رسول الله ﷺ بذلك طوائف من الكفار قتلوه وصدقوه وأثنوا به ولم يطالبوه بالبرهان (١) ، ومنهم من قال : نشدك الله أبشركم بقدر سؤالا فكان يقول ( نعم ) فيصدق (٢) وهذا إيمان العامة وهو يخرج من الغرور ، وينزل هذا منزلة تصديق العبي واله في أن حضور المكتب خير من حضور الملعب مع أنه لا يدري وجه كونه خيرا . وأما المعرفة بالبيان والبرهان فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذي نظمه في قلبه الشيطان ، فإن كل مرور فغروره سبب ، وذلك السبب هو دليل وكل دليل فهو نوح قياس يقع في النفس وبووت السكون إليه وإن كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء . فالقياس الذي نظمه الشيطان فيه أعلان ( أحدهما ) أن الدنيا تعد والآخرة نسيئة وهذا صحيح ( والآخرة ) قوله : إن التقدير خير من النسبة . وهذا محل التليس فليس الأمر كذلك ، بل إن كان الثقل مثل النسبة في المقدار والمقصود فهو خير وإن كان أقل منها فالنسيئة خير ، فإن الكافر المغرور يبدل في تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة ولا يقول التقدير خير من النسيئة فلا تركه ، وإذا حذر الطبيب الفواكه ولذا أذا الأطعمة ترك ذلك في الحال خوفا من ألم المرض في المستقبل ؛ فقد ترك التقدير ورضى بالنسيئة . والتجار كلهم يركبون البحار ويتمون في الأسفار نقدا لأجل الراحة والرج نسيئة ، فإن كان عشرة في ثانی الحال خيرا من واحد في الحال فأنسب لله الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة ، فإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة وليس هو عشر عشر من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة ، فكأنه ترك واحد ليأخذ ألف ألف بل ليأخذها مالا نهاية لهولا حدود نظر من حيث النوع رأى لذات الدنيا مكسدة مشوبة بأنواع المنعمات ولذات الآخرة صافية غير مكسدة ، فإذن قد غلط في قوله : التقدير خير من النسبة . فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور أطلق وأريد به خاص ، فقتل به المغرور عن خصوص معناه فإن من قال : التقدير خير من النسبة ، أراد به خيرا من نسيئة هي مثله وإن لم يصرح به .

وعند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر وهو : أن اليقين خير من الشك إذا والآخرة شك وهذا . القياس أكثر فسادا من الأول لأن كلا أصليه باطل ، إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله ، وإلا فاناجر في تبعه على يقين

- (١) حديث : تصدق بعض الكفار بما أخبر به رسول الله ﷺ وإيمانهم من غير مطابقة بالبرهان هو مشهور في السنن ، من ذلك قصة إسلام الأنصار ويستمع وهي عند أحمد بن حديث جابر وفيه : حتى بشنا الله إليه من ثرب فأويناها وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤم ، ويقره القرآن فيقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه ... الحديث وهي عند أحمد بإسناد جيد .
- (٢) حديث : قول من قاله نشدك الله أبشركم بقدر سؤالا فيقول ( نعم ) فيصدق . متفق عليه من حديث أنس في قصة ضبان ابن ثعلبة وقوله لئن لم يبعني الله ﷻ لكانت لك أمة منكم قال ( اللهم نعم ) وفي آخره : فقال الرجل أنت بما جئت به ولطبراني من حديث ابن عباس في قصة ضبان قال : نشدك به أهواؤك بما أنتا كتبك وانتارسلك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن نوح اللات والغزى قال ( نعم ) الحديث .

وفي ربحه على شك ، والمتفقه في اجتياحه على يقين وفي إدراكه رتبة العلم على شك ، والصياد في تروفي المقتص على يقين وفي التفكر بالصيد على شك . وكذا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك اليقين بالهك ، ولكن التاجر يقول : إن لم أتحرك بقيت جائعا وعظم ضروري ، وإن أتحركت كان تبني قليلا ويحجب كثيرا ؛ وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه وهو من الصفاء على شك ومن مرارة الدواء على يقين ، ولكن يقول : ضرر مرارة الدواء قليل بالإضافة إلى ما أخافه من المرض والموت . فكذلك من شك في الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول : أيام الصبر قلائل وهو منتهى العمر بالإضافة إلى ما يقابل من أسر الآخرة ، فإن كان ما قبل فيه كذبا ، فما يفوتني إلا النسم أيام حياتي وقد كنت في العدم من الأزل إلى الآن لأستعم ، فأحسب أني بقيت في العدم . وإن كان ما قبل صدقا ، فأبقى في النار أبد الآباد وهذا لا يطلق ، ولهذا قال علي كرم الله وجهه لبعض المحدثين : إن كان ما قلصنا فقد تخلصنا ، وإن كان ما قلصنا فقد تخلصنا وهلكنا . وما قال هذا عن شك منه في الآخرة ولكن كلم المحدثين قدر عقولهم . له أنه وإن لم يكن متيقنا فهو مفرور .

وأما الأمل الثاني من كلامه : وهو أن الآخرة شك ، فهو أيضا خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين وليقينه مدركان :

أحدهما : الإيمان والتصديق تقليداً للأنبياء والعلماء ، وذلك أيضا يزيل الفرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ، ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواءه ، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه الثابت الغلظي فانه تعلمت نفس المريض إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالإبراهيم الطبية ، بل يثق بقولهم ويعمل به ولو بقي سواي أو متوه يكدبهم في ذلك وهو يعلم بالثرات وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه صدقا وأقرب منه فضلا وأعلم ، بل علم له بالحب ، فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله . ولا يفتقر في عليهم بسببه ، ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان متوها مفرورا ، فكذلك من نظر إلى المقربين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها . ويجدم خير خلق الله وأعلام رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل ، وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وانبيهم عليه الحق على أصنافهم ، وشذ منهم أحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت قوسهم إلى التبع ، فظم عليهم ترك الشهوات وعليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار فيصعدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء ، فكما أن قول الصبي وقول السواي لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء فكذلك قول الذي الذي استرقته الشهوات لا يشكك في صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء وهذا القدر من الإيمان كاف لجللة الحق وهو يقين جازم يستحق على العمل للاحقة والفرور يزول به .

وأما المدرك الثاني لمعرفة الآخرة فهو الوحي للأنبياء والإلهام للأولياء ، ولا تظن أن معرفة التي عليه وسلم لأمر الآخرة ولأمور الدين تقليد لجبريل عليه السلام بالسجادة منه ، كما أن معرفتك تقليد لنبي صلى الله عليه وسلم حتى تكون معرفتك مثل معرفته ، وإنما يختلف المقلد فقط ومبهاة ؛ فإن التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح والأنبياء عارفون ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هي عليها فتشاهدوا بالباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر ، فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد . وذلك بأن يكشف لهم من حقيقة الروح وإنه من أمر الله تعالى وليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الذي يقابل النبي ؛ لأن ذلك الأمر كلام الروح ليس بكلام ، وليس المراد بالأمر الشأن حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط لأن ذلك عام في جميع المخلوقات

بل العالم طلائع : علم الأمر وعالم الخلق ، وفيه الخلق والأمر ، فالأجسام ذوات الكمية والمقادير من طالع الخلق إذ الخلق عبارة عن التقدير في وضع المكان ، وكل موجود منزوع الكمية والمقدار فانه من عالم الأمر . وشرح ذلك سر الروح ، ولا رخصة في ذكره لاستعزاض أكثر الخلق بسماعه كسر القدر الذي منع من إغفائه . فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه ، وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر رباني بطبعه وفطرته ، وأنه في العالم الجسماني غريب وأن هبوطه إليه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته وذلك العارض الغريب ورد عليه آدم صلى الله عليه وسلم وصبر عنه بالمصيبة وهي التي حطته من الجنة التي هي ألبق به بمقتضى ذاته فانها في جوار الرب تصالي ، وأنه أمر رباني وحقيقته إلى جوار الرب تعالى في طبعي ذاتي ، لأن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فينسى عند ذلك نفسه وربه . ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه إذ قيل له ( ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ) أي الخارجون عن مقتضى طبعهم ومطابقة استحقاقهم يقال : فسقت الرطبة عن كامها ؛ إذا خرجت من معدنها الفطري . وهذه إشارة إلى أسرارهم واستغنائهم العارفين ويشتم من سمع ألقاظها الناصرون فانها تضر بهم كما تضر براح الورد بالجلجل ، وتبر أعينهم الضعيفة كما تبر الشمس أبصار الخفافيش . وافتتاح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يسمى معرفه وولاية ، ويسمى صاحبها وليا وطاوعا ، وهي مبادئ مقامات الأنبياء . وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء .

ولنرجع إلى الغرض المطلوب ، فالمتصور أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك يدفع إما بيقين تقليدي ، وإما بصيرة ومشاهدة من جهة الباطن ، والمؤمنين بأستقامتهم وبقائهم إذا ضيعوا أوامر الله تعالى وهجروا الأعمال الصالحة ولا بسوا الشهوات والمعاصي فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، نعم أكرم أخف لأن أصل الإيمان يصمم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار ولو بعد حين ، ولكنهم أيضا من الغرورين فانهم اعترفوا بأن الآخرة غير من الدنيا ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها ، وعجزوا الإيمان لا يكتفي للفرد قال تعالى ﴿ وإنى لنفكر لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ وقال تعالى ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ ثم قال النبي ﷺ « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » (١) وقال تعالى ﴿ والصبر أن الإنسان في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ فوجد المغفرة في جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعا لا بالإيمان وحده ، فهو لا أيضا مغرورون أعني المخطئين إلى الدنيا الفرحين بها المترفين بتسليمها المحيين لها الكارهين للوث خيفة فوات لذات الدنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده . فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا .

ولنذكر الغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والمعاصين . فأما غرور الكفار بالله : فمثاله قول بعضهم في انقسامهم وبأستقامتهم : أنه لو كان الله من معاد فمن أحق به من غيرنا ونحن أوفر حظا فيه واسعد حالا ، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتنازعين إذ قال ﴿ وما أظن الساعة تأتيه ولا نرى الساعة تاتية ولا نرى لأجدين خيرا منها ﴾ متقبلا ، وجملة أمرهما كما نقل في التفسير : أن الكافر منهما بنى قصرا بألف دينار واشترى بستانا بألف دينار وخدما بألف دينار وتزوج امرأة على ألف دينار ، وفي ذلك كله يحظه المؤمن ويقول : اشتريت قصرا يفتى ويخرّب الا اشتريت قصرا في الجنة لا يفتى ، واشتريت بستانا يخرّب ويقتل الا اشتريت بستانا في الجنة لا يفتى وخدما لا يفتنون ولا يموتون وزوجة من الحور العين لا تموت ، وفي كل ذلك برد عليه الكافر ويقول : ما هناك شيء وما

(١) حديث « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم

قيل من ذلك فهو أكاذيب ! وإن كان فليكون لي في الجنة خير من هذا . وكذلك وصف الله تعالى قول العاص  
ابن وائل إذ يقول ﴿ لاوتين مالا وولدا ﴾ فقال الله تعالى ردا عليه ﴿ أطلع النيب أم اتخذ عند الرحمن عبدا ﴾

وروى عن خباب بن الأرت أنه قال : كان لي على العاص بن وائل دين جئت أقتضاه فلم يقض لي فقلت : إن  
أخذته في الآخرة ؛ فقال لي : إذا صرت إلى الآخرة فإن لي هناك مالا وولدا أفضيك منه . فأرسل الله تعالى قوله  
( أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال لاوتين مالا وولدا )<sup>(١)</sup> وقال الله تعالى ( ولئن أخذناه وحة منا من بعد ضراء  
مسته ليقلن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلي ربي إن لي عنده الحسنى ) وهذا كله من الغرور بالله .

وسيه قياس من أقيسة إبليس نموذ بالله منه ، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون  
عليها نعمة الآخرة ، وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى ( ويقولون  
في أنفسهم لولا يبدئنا الله بما نقول ) فقال تعالى جوابا لقولهم ( حسبهم جهنم يصلونها فبئس المرصرون ) ومرة ينظرون  
إلى المؤمنين ؛ وهم فقراء شعث عير فيزدرونهم ويستحقرونها ، فيقولون ( أهؤلاء من الله عليهم من بيننا )  
ويقولون ( لو كنا خيرا ما سبقونا إليه ) وترتيب القياس الذي نظمه في قولهم أنهم يقولون : قد أحسن الله إلينا  
بشيم الدنيا ، وكل محسن فهو محب فانه يحسن أيضا في المستقبل كما قال الشاعر :

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي

وإنما يقيس المستقبل على الماضي بواسطة الكرامة والمحبة إذ يقول : لولا أني كرم عند الله ومحبوب لما أحسن  
إلي والتليس تحت ظنه أن كل محسن محب ، لا بل تحت ظنه أن إنعامه عليه في الدنيا إحسان ، فقد اغتر بالله إذ ظن  
أنه كريم عنده بدليل لا يدل على الكرامة بل عند ذوى البصائر يدل على الحوان . ومثاله : أن يكون الرجل عبدان  
صغيران يفيض أحدهما وجب الآخر ، فالذي يحبه يمنه من القرب ويلزمه المكتب ومحبه فيه ليعمله الأدب ، ويمنه  
من الفواكه وملأه الأطعمة التي تضره ، ويسقيه الأدوية التي تنفعه . والذي يفضيه بهمه ليمش كيف يريد فيلصق  
ولا يدخل المكتب وبأكل كل ما يشتهي ، فيظن هذا العبد الممهل أنه عند سيده محبوب كريم لأنه مكث من شهوراته  
ولذاته وساعده على جميع أغراضه فلم يمنه ولم يحجر عليه ، وذلك محض الغرور ، وهكذا نعم الدنيا ولذاتها فإنها  
مهلكات ومبطلات من الله ، فان الله يحصى عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحصى أحكم مريضة من الطعام والشراب  
وهو يحبه<sup>(٢)</sup> هكذا وود في الخير عن سيد البشر .

وكان أبواب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا : ذنب جعلت عقوبتي ورأوا ذلك علامة الموت  
والإهمال ، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا : مرحبا بشعار الصالحين . والغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة  
من الله ، وإذا صرفت عنه ظن أنها هوان ، كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال ( فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه  
ونعمه فيقول ربني أكرم من وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربني أمان ) فأجاب الله عن ذلك ( كلا )  
أي ليس كما قال إنما هو ابتلاء نموذ بالله من شر البلاء ونسأل الله التثبيت ، فبين أن ذلك غرور ، قال الحسن كنهما  
جمعا بقوله ( كلا ) يقول ليس هذا بأكرام ولا هذا بهوان . ولكن الكريم من أكرمه بطاعته غنيا كان أو  
فقيرا ، والمهان من أهنته بمصطفى غنيا كان أو فقيرا .

(١) حديث : خباب بن الأرت ، كالأل ن لي على العاص بن وائل دين جئت أقتضاه... الحديث . في نزول قوله تعالى ( أفرايت  
الذي كفر بآياتنا ) الآية أخرجه البخاري ومسلم (٢) حديث « إن الله يحصى عبده من الدنيا وهو يحبه ... الحديث » أخرجه  
الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من حديث قتادة بن النعمان

وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والحوان (أما بالبصرة أو بالتقليد) فبأن يعرف وجه الالتفات إلى شهود الدنيا مبعدا عن الله ووجه كون التباعد عنها مقربا إلى الله تعالى ويدرك ذلك الإلهام في منازل العارفين والأولياء ، وشرحه من جملة علوم المكاشفة ولا يليق بعلم العامة (وأما معرفة بطريق التقليد والتصديق) فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ويصدق رسوله وقد قال الله تعالى (أيحسبون أن ما نمدم به من مال وبئس ناسارح لهم في الخيرات بل لا يعرفون) وقال تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وقال تعالى (فتحتنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم ميالون) وفي تفسير قوله تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) أنهم كلما أخذوا دنيا أخذناهم بنعمة ليزيد غرورهم وقال تعالى (إنما نمل لهم ليزدادوا) وإنما (وقال تعالى) ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) إلى غير ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، فمن آمن به تخلص من هذا الغرور فإن منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته . فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يفتن بأمثال هذه الخيالات الفاسدة ، وينظر إلى فرعون وهامان وقارون وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا ، فقال تعالى (هل تحس منهم من أحد) الآية وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراج فقال (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) وقال تعالى (ومكروا مكرا ومكروا مكرا ولم لا يعرفون) وقال عز وجل (ومكروا ومكر الله خير مماكرين) وقال تعالى (إنهم يَكِيدُونَ كيدا وأكيد كيدا فعمل الكافرون أمهلهم وريداه) .

فكما لا يجوز لعبد الجهل أن يستدل بأعمال السيد إياه وتمسكته من النعم على حب السيد بل ينبغي أن يحلوا أن يكون ذلك مكرأ منه وكيدا مع أن السيد لم يحزنه مكر نفسه . فبأن يجب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره واستدراجه أولى فاذن من آمن مكر الله فهو متمر ، ومنشأ هذا الغرور أنه استدلل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك للنعم ، واحتمل أن يكون ذلك دليل الحوان ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى ، فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه وهو التصديق بدلائله على الكرامة وهذا هو الغرور .

(المثال الثاني) غرور العصاة من المؤمنين بقولهم : إن الله كريم وإننا نرجو صفوه ، وانكلمهم على ذلك وإعمالهم الأعمال وتحسين ذلك بتسمية تنهمم واغترابهم رجاء ، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين وإن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عظيم ، وأبن معاصي العباد في بحار رحمته وإننا موحدون ومؤمنون ؟ فترجوه بوسيلة الإيمان وربما كان مستند رجائهم التصكك بسلالاح الآباء وطلو رتبهم ، كاعتزاز العلوية بنسبهم وغفلة سيرة آباؤهم في الخوف والتقوى والورع ، وظنهم أنهم أكرم على الله من آباؤهم إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا عاققين ، وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون . وذلك نهاية الاعتزاز بالله تعالى . فقياس الشيطان للعلوية . أن من أحب إنسانا أحب أولاده وإن الله قد أحب آباؤكم فيحبكم فلا تحتاجون إلى الطاعة ، وينسى للمرور أن نوحا عليه السلام أراد أن يستعجب ولده معه في السفينة فلم يرد فكان من المترفين فقال (رب إن ابني من أهلي) فقال تعالى (يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) وأن إبراهيم عليه السلام استغفر لآبيه فلم ينفعه . وأن نبيينا صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى استأذن ربه في أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار ، فجلس بيني على قبر أمه لرفقه لها بسبب القرابة حتى أيقنى من حوله (١) فهذا أيضا اغترار بالله تعالى وهذا لأن الله

(١) حديث : أنه ﷺ استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار . الحديث مسلم من حديث أبي هريرة .



تعالى يحب المطيع ويغض العاصي ، فكأنه لا يغض الأب المطيع بغضه الولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه للأب المطيع ، ولو كان الحب يسرى من الأب إلى الولد لأوشك أن يسرى البغض أيضاً بل الحق أن لا تور وازدرة وزر أخرى . ومن ظن أنه يتجو بقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ويروي بثرب أبيه ، ويصرعاً لما يتمل أبيه ويصل إلى الكعبة ويراهما بمشي أبيه . فالتجوى فرض عين فلا يجوز فيه والد عن ولده شيئاً وكذا العكس ، وعند الله جزاء التقوى ( يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ) إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يستد غضب الله عليه فيأذن في الشفاعة له - كما سبق في كتاب الكبير والعجب .

فإن قلت : فأين الخلط في قول العصاة والنجار إن الله كريم وإننا نرجو رحمة ومغفرته . وقد قال أنا عند ظن مبدئ في غليظ في خير ، فأما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب ؛ فاعلم أن الشيطان لا يفرى الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن ، ولولا حسن ظاهره لما اتخذت به القلوب ، ولكن النبي ﷺ كشف عن ذلك فقال : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والجاهل من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله <sup>(١)</sup> .

وهذا هو النبي على الله تعالى غير الشيطان اسمه قبيح : وجاء ، حتى خدع به الجهال . وقد شرح الله الرجا فقال ( إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاءوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ) يعني أن الرجا بهم أليق وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال قال الله تعالى ( جزاء بما كانوا يعملون ) وقال تعالى ( وإنما تولون أجوركم يوم القيامة ) أخرى أن من استوجر على إصلاح أو أن وشرط له أجرة عليها وكان الشارط كرمياً يني بالوعد مهما وعد ولا يخلف بل يريد ، لجاء الأجير وكسر الآواني وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الأجر ويوم أن المستاجر كريم ، أفيراه العقلاء في انتظاره تمنياً مفروفاً أو راجياً ؟ وهذا الفصل بالفرق بين الرجا والغرة . قبل الحسن : قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل . فقال : هيات هيات ! تلك أمانتهم يرجعون فيها ، من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه . وقال مسلم بن يسار : لقد سمعت البارحة حتى سقطت ثلثتاي ! فقال له رجل : إنا نلجوا الله ! فقال مسلم : هيات ؟ من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه . وكأن الذي يرجو في الدنيا ولد أو هو بعد لم يشك أو نكح أو جامع ولم يجمع أو جامع ولم يزل ! فهو مثوه فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحاً أو عمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور . فكأن أنه إذا نكح ووطئ وانزل يني متردداً في الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس ، فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقي متودداً بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يقبل مثوه أن لا يلوم عليه وأن ينجح له بالسوء ، ويرجو من الله تعالى أن يشبه بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد ، ويمرر قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل إلى المعاصي فهو كيس ، ومن عدا هؤلاء فهم الملوذون بالله ( وسوف يعلمون حين يروون العذاب من أصل سيلا - ولعلن نأه بعد حين ) وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم ( ربنا ابصرنا وسحقنا فأرجعنا لعمل صالحة إنا موقنون ) أي علمنا أنه كما لا يولد إلا بوقاع ونكاح ولا ينبذ عرج إلا بمراة وبث بندر ، فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح فأرجعنا لنعمل صالحاً فقد علمنا الآن صدقك في قولك ( وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى - كلما أتى فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير ) أي ألم نسمعكم الله في عبادة الله ( نوفي

(١) حديث : الكيس من دان نفسه فهم قريبا .

كل قس ما كسبت ) وإن ( كل نفس بما كسبت ورحمة ) فما الذي غررك بالله بعد أن سمعتم وعقلتم ؟ ( قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبيهم فسحقا لأصحاب السعير ) .

فإن قلت : فأين مظنة الرجاء وموضع الخشود ؟ فأعلم أنه محذور في موضعين :

أحدهما : في حق المعاصي الممنهكة إذا خطلت له التوبة فقال له الشيطان : وأق تعيل توبتك فيقطعك من رحمة الله تعالى فيجب عند هذا أن يقطع التوبت بالرجاء ويتذكر ( إن الله يغفر الذنوب جميعاً ) وإن الله كريم يقبل التوبة عن عباده وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب قال الله تعالى ( قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ) إنه هو الغفور الرحيم وأنبؤوا إلى ربكم ) أمرهم بالإجابة وقال تعالى ( وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاتم أهدى ) فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهوراج ، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور ، كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق خطره أن يسمى إل الجمعة فقال له الشيطان : إنك لا تذكر الجمعة فأقم على موضعك فكذب الشيطان ورمى به وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهوراج ، وإن استمر على التجارة وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت أو لأجل غيره أولسبب من الأسباب التي لا يبرها فهو مغرور .

الثاني : أن تقرر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجى نفسه نعم الله تعالى وما وعد به الصالحين ، حتى ينيب من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى ( قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم عاشقون ) إلى قوله ( أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ) فالرجاء الأول : يطمع القنوط المانع من التوبة ، والرجاء الثاني : يطمع القنوط المانع من النشاط والقتصر ، فكل توقع حيث على توبة أو على تشمر في العبادة فهورجاء ، وكل رجاء أوجب فتوراً في العبادة وركونا إلى البطالة فهو غرة ، كما إذا خطل أن له يترك الذنب ويستغل بالعمل فيقول له الشيطان : مالك ولا يناء نفسك وتذهبها ولك رب كريم غفور رحيم ؟ فيفتتر بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرة ، وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول : إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، وإنه مع أنه كريم خلد الكفار في النار أبد الآباد ، مع أنه لم يضره كفرهم ، بل سلب المذاب والنعيم والأمراض والملل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا وهو قادر على إلزائها ، فمن هذه سكة في عباده وقد خوفني عقابه فكيف لا أخافه وكيف أغتر به ؟ .

فالخوف والرجاء قائمان وساقطان يشان الناس على العمل ، فإلا يمت على العمل فهو تمن وغرور . ورجاء كافة الخلق هو سبب قنوطهم وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إعراضهم عن الله تعالى وإهمالهم السعي الآخرة ، فذلك غرور فقد أخبر صلى الله عليه وسلم وذكر أن المروسي يقلب على قلب آخر هذه الأمة (١) وقد كان ما وعد به صلى الله عليه وسلم فقد كان الناس في الأصمار الأول يواظبون على العبادات ويؤتون ما أتوا وقلوبهم ووجهة أنهم إلى ربهم راجعون ، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار في طاعة الله يبالغون في التقوى والحذر من الشهوات والشهوات ويكون على أنفسهم في الخلوات وأما الآن فترى الخلق آمنين سرورين مطمئنين غير عاكفين مع إكبابهم على المعاصي وانهاهم في الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى ، زاعمين أنهم واقفون بكرم الله تعالى وفضله ، راجعون

(١) حديث « إن الغرور يقلب على آخر هذه الأمة » تقدم في آخر ذم الكبر والعجب وهو حديث أبي ثعلبة في :

عجباب كل ذي رأي بآيه .

لعفوه ومغفرته ، كأنهم يذبحون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابه والسلف الصالحون . فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالمهربى فسلام إذن كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم ؟ وقد ذكرناه تحقيق هذه الأمور فى كتاب الخوف والرجاء . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه معقل بن يسار « بأتى على الناس زمان يخلق فيه القرآن فى قلوب الرجال كما يخلق الثياب على الأبدان أمرهم كله يكون طمعاً لا خوف معه ، إن أحسن أحدكم قال : يتقبل منى ، وإن أساء قال : ينفر لى (١) » فأنبأ أنهم يصنعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتجويعات القرآن وما فيه . وبمثله أخبر عن الثمارى إذ قال تعالى ( تخفف من بعدم خلف ورتوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ) ومعناه أنهم : ورتوا الكتاب أى هم علماء ، يأخذون عرض هذا الأدنى : أى شهوراتهم من الدنيا حراماً كلن أو حلالاً . وقد قال تعالى ( ولن غاف مقام ربه جنتان - ذلك لمن غاف مقامى وخاف وعيد ) والقرآن من أوله إلى آخره تحذير ونفوف ، لا يفكر فيه متفكر إلا ويطول حوته ويعظم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه . وترى الناس يهونونه هذا ، يفرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفيتها ورفعها ونصبها وكأنهم يقرمون شعرا من أشعار العرب لا يهمهم الالتفات إلى معانيه والعمل بما فيه ، وهل فى العالم غرور يزيد على هذا ؟

فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور ، ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاصى إلا أن معاصيهم أكثر ، وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أنهم تفرج كفة حسناتهم مع أن مافى كفة السيئات أكثر ، وهذا غاية الجهل فى الواحد يصدق بدوام معدومة من الحلال والحرام يكون ما يتناول من أموال المسلمين والشهوات أضماؤه ، ولعل ما تصدق به من أموال المسلمين ، وهو يتكل عليه ويظن أن أكل ألف درهم حرام يقاومه التصديق بشرق من الحرام والحلال ، وما هو إلا كن وضع عشرة دراهم فى كفتيرى وفى الكفة الأخرى ألفاً وأراد أن يرفع الكفة الثمينة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله .

نعم ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه لأنه لا يحاسب نفسه ولا يفقد معاصيه ، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها كالذى يستغفر الله بلسانه أو يسبح الله فى اليوم مائة مرة ثم يفتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويحكم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد ، ويكون نظره إلى عدد سيئاته أنه استغفر الله مائة مرة وغفل عن هدياته طول نهاره الذى لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة ، وقد كتبه الكرام الكاتبون وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال ( ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ) فهذا أبداً يتأمل فضائل التسبيحات والتبيلات ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المتأبين والكذابين والتمائين والمتافقين ، يظهرون من الكلام مالا يضرهون إلى غير ذلك من آفات اللسان . وذلك بعض الغرور . ولعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجره النسخ لا يكتبونه من هدياته الذى زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته ، وما نطق به فى قراته كان يصدح ويحجب ويوازه بتسبيحاته ، حتى لا يفضل عليه أجره نسخه .

فيا عجباً لمن يحاسب نفسه ويمتاط خوفاً على قيراطيفوته فى الأجره على النسخ ولا يمتاط خوفاً من فوت القردوس الأجل ونعيمه ! ما هذا إلا مصيبة عظيمة لمن تهاكفها ! لقد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنا من الكفرة المجاهدين وإن صدقنا به كنا من الحقى للغرورين ! فما هذه الأعمال من يصدق بما جاء به القرآن ، وأن نيراً إلى الله أن نكون

(١) حديث : معقل بن يسار « بأتى على الناس زمان يخلق فيه القرآن فى قلوب الرجال الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مستند القردوس من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة ولم أره من حديث معقل .

من أهل الكفر أن فسحان من صدقا من التثنية واليقين من هذا البيان ، وما أجدر من بقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والنور على القلوب أن يخشى ويثق ولا ينتزبه انكالا على أباطيل المني وتماطيل الشيطان والهمى ، وانه أعلم .

### بيان أصناف المتفرين وأقسام فرق ككل صنف وهم أربعة أصناف

الصنف الأول : أهل العلم والمتفرين منهم فرق .

(قرة) أحكوا العلوم الشرعية والعقلية وتمسكوا بها واشتغلوا بها وأهلوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات ، واغثروا بعلمهم وغثوا أنهم عند الله بمكن وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا ينبغي الله مثلهم ، بل يقبل في الخلق شفاعتهم ، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون ، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علان علم معاملة . وعلم مكشفة ؛ وهو العلم بالله وصفاته ، المسمى بالمعادة : علم المعرفة فأما العلم بالمعاملة : كمرقة الحلال والحرام ، وعرقة أخلاق النفس المنسومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها ، فهي علوم لا تراد إلا للعمل ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة ، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل . فمثال هذا : كمرض به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يفرها إلا حذاق الأطباء ، فيسعى في طلب الطبيب بعد أن هاجر من وطنه حتى يثر على طبيب حاذق قبله الدواء . وفصل له الأخلاط وأنواعها ومقادير ومعادنها التي منها ينجب ، وعلة كيفية دق واحد منها وكيفية خلطه وصحته ، فتعلم ذلك وكتب منه نسخة حسنة بمحض حسن ورجع إلى بيته وهو يكرها ويحبها المرضى ولم يشتغل بشرها واستعملها ، أقرى أن ذلك يغني عنه من مرضه شيئا ؟ هيات هيات ! لو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفي جميعهم وكره كل ليلة ألف مرة لم ينه ذلك من مرضه شيئا ، إلا أن يزن الذهب ويشتري الدواء ويخلطه كما تعلم ويشره ويصير على مرارته ، ويكون شره في وقته وبعد تقديم الاحتيا . وجميع شروطه ، وإذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه فكيف إذا لم يشره أصلا ؟ فهما ظن أن ذلك يكفي ويشفيه فقد ظهر غروره . وهكذا الفقهاء الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها وأحكم علم المعاصي ولم يمتنعها وأحكم علم الأخلاق المنسومة وما ذكر نفسه منها وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها مغرور ، وإذا قال تعالى ﴿ قد أفصح من ذكها ﴾ ولم يقل قد أفصح من تعلم كيفية تركيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس ، وعند هذا يقول الشيطان : لا يترك هذا المثال فإن العلم بالدواء لا يزيل المرض ، وإنما يطلبه القرب من الله وثوابه والعلم يجلب الثواب ، ويتلو عليه الأخبار الواردة في فضل العلم . فإن كان المسكين معتمدا مغرورا وافق ذلك مراده وهواه فاطمان إليه وأعمل العمل ، وإن كان كيبا فيقول للشيطان : أنذركوني فضائل العلم وتنسبني ماورد في العالم للفاجر الذي لا يعمل بعلمه كقوله تعالى ﴿ فمثل كمثل الكلب ﴾ وكقول تعالى ﴿ مثل الذين حملوا التوراة لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ فأى خزي أعظم من التمثيل بالكلب والحمار ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ازداد علما ولم يزد هدى ولم يزد من الله إلا بعدا <sup>(١)</sup> » وقال أيضا « يلقى العالم في النار فتندق أفتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار في الرسى <sup>(٢)</sup> » وقوله عليه الصلاة والسلام « شر الناس العلماء السوء <sup>(٣)</sup> » وقول أبي الدرداء : ويل الذي لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمو ويل الذي يعلم ولا يعمل سبع مرات ؛ أى أن العلم حجة عليه إذ يقال له : ماذا عملت فيما علمت وكيف قضيت شكر الله ؟

(١) حديث « من ازداد علما ولم يزد هدى ... الحديث » تقدم في العلم (٢) حديث « يلقى العالم في النار فتندلق أفتابه ... الحديث » تقدم غير مره (٣) حديث « شر الناس علماء السوء » تقدم في العلم

وقال عليه السلام « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه »<sup>(١)</sup> وهذا وأمثاله مما أورده في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى ، إلا أن هذا فيما لا يوافق سوى العالم الفاجر ، وما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل البصير إليه ، فإنه إن نظر بالصيرة فثاله مذكراته ، وإن نظر بعين الإيمان فثالته أخبره بفضيلة العلم هو الذي أخبره بدم العلماء السوء وأن عالمهم عند الله أشد من حال الجهال . فيمد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور .

وأما الذي يدعى علوم المكاشفة : كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يعمل العمل وينضج أمر الله وحجوده فترويه أشد ، ومثاله مثال من أراد خدمة ملك فعرف الملك وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته وجلسه ولم يعرف ما يحب وما يكره وما يغضب عليه وما يرضى به ، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو للآس بجمع ما ينضب به وعليه . وعاقل عن جميع ما يحبه من ذى هيئة وكلام وحركة وسكون ، فورد على الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به متلطخاً بجميع ما يكرهه الملك ، عاطلاً عن جميع ما يحبه ، متوسلاً إليه بمعرفة له ولنفسه واسمه وبلده وصورته وشكله وعادته في سياسة غلبته ومعاملة رعيته . فهذا مغرور جدا إذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفة فقط ومعرفة ما يكرهه ويحب لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قرب به والاختصاص به ، بل تصديره في التقوى واتباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الاسمى دون المعاني ، إذ لو عرف الله حق معرفته لحبسه واتقاه . فلا يصور أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه . وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : خفي كما تخاف السبع الضاري . نعم من يعرف من الأسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه وكأنه ما عرف الأسد . فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالي ، ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أمهك مثله آلافاً مؤلفة وأبدع عليهم العذاب أبد الآباد لم يؤثر ذلك فيه أثراً ولم تأخذه عليه رقة ولا اعتراط عليه جرح . ولذلك قال الله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وفاقحة الزبور « رأس الحكمة خشية الله » وقال ابن مسعود : كنى بخصية الله علماً وكنى بالاعتزاز بالله جهلاً . واستنقى الحسن بن مسالة فأجاب فقيل له : إن فقهاءنا يقولون ذلك ، فقال : وهل يدركهم حقيقة فقط؟ الفقيه القائم ليله العالم تبارك الزاهد في الدنيا . وقال مرة : الفقيه لا يدارى ولا يمارى بشئ حركة الله . فإن قلت منه حمد الله وإن ردت عليه حمد الله . فاذن الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه وهو العالم ﴿ ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ﴾ وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين .

(ورقة أخرى) أحكوا العلم والعمل فوطبوا على العلامات الظاهرة وزكوا المعاصي ، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليحوا عنها الصفات المضمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء وزيادة السوء للآقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاد والعباد ، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحرز عنها ولا يفتن إلى قوله عليه السلام « أدنى الرياء شرك »<sup>(٢)</sup> وإلى قوله عليه السلام لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر »<sup>(٣)</sup> وإلى قوله عليه الصلاة والسلام « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »<sup>(٤)</sup> وإلى قوله عليه الصلاة والسلام « حب الشرف والمال يبتنان التفاف كما يبتن الماء البقل »<sup>(٥)</sup> إلى

(١) حديث « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه » تقدم فيه .

(٢) حديث « أدنى الرياء شرك » تقدم في ذم الجاه والرياء .

(٣) حديث « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » تقدم غير مرة .

(٤) حديث « الحسد يأكل الحسنات ... الحديث » تقدم في العلم وغيره .

(٥) حديث « حب الشرف والمال يبتنان التفاف في القلب ... الحديث » تقدم .

غير ذلك من الأخبار التي أوردناها في جميع ربيع المهلكات في الأخلاق المذمومة . ف هؤلاء زينوا ظواهرهم وأهلوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (١) . فتمهدوا الأعمال وامتهدوا القلوب — وانقلب هو الأصل — اذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم . ومثال هؤلاء كثر الحش ظاهرهما جص وباطنها تن ، أو كفتور الموق ظاهرهما مزين وباطنها جيفة ، أو كيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه فاستثار ظاهره وباطنه مظلم ، أو كرجل قصد الملك ضيافته إلى داره فحصر باب داره وترك الزايل في صدر داره ، ولا يخفى أن ذلك غرور ، بل أقرب مثال . إليه رجل ذرع ذرعا فبيت ونبت معه حشيش يفسده ، فأمر بتغية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله ، فأخذ يجر رءوسه وأطرافه فلا تزال تقوى أصوله فتتهب ، لأن مفارص المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب ، فمن لا يطهر القلب منها لاقم له الطاعات الظاهرة لإلحاح الآفات الكثيرة . بل هو كريض ظهر به الجرب وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء ، فالطلاء يزيل ماعل ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه ، فتنفع بالطلاء وترك الدواء ، وبقي يتناول ما يزيد في المادة ، فلا يزال يطل الظاهر والجرب دائم به يتجر من المادة التي في الباطن .

(وفرة أخرى) علوا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع ، الا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم متفكرون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يتلبسهم بذلك ، وإنما يبتلى به العوام دون من بلغ مباهج في العلم ، فأمام فأعظم عند الله من أن يتلبسهم ، ثم اذا ظهر عليهم غايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف قالوا : ما هذا كبر وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام آف المخالفين من المبتدعين ، وإلى لو لبست اللون من الثياب وجلس في الدون من المجالس لسمت في أعداء الدين وفرحوا بذلك ، وكان ذلك على الإسلام . ونسى المغرور أن عدوه الذي حذره منه مولاة هو الشيطان ، وأنه يفرح بما يفسده ويختر به ، ونسى أن النبي صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين وبماذا أوجع الكافرين ؟ ونسى ما روى عن الصحابة من التواضع والتبذل والفتاعة بالفقر والمسكنة ، حتى عوب عمر رضي الله عنه في بذاعة ذبه عند قدومه إلى الشام فقال : إنا قوم أحرنا الله بالإسلام فلا نطلب العز في غيره . ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والديبقي والإبريسم - المحرم والخيل والمراكب ويضع أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين ، وكذلك مهما أطلق اللسان بالحدس في أقرانه أو قمين رد عليه شيئا من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حد ولكن قال : إنما هذا غضب للحق ودد على المبطل في صدوائه وظله ، ولم يظن بنفسه الحدس ، حتى يعتداته لوطن في غيره من أهل العلم أو متع غيره من رياسة وروحم فيهما كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله ؟ أم لا ينضب مهما ملن في عالم آخر ومنع ؟ بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لأقرانه من غيب باطنه ، وهكذا يراق بأعماله وعلومه واذا خطر له خاطر الرياء قال : هيات ! إنما غرضي من اظهار العلم والعمل اقتداء الخلق في ليهتدوا إلى دين الله تعالى فيخلصوا من عقاب الله تعالى ، ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائه به ، فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم — على يد من كان — كن له عبيد مرضى يريد معالجتهم فانه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر ، وربما يذكر هذا فلا يجليه الشيطان أيضاً ويقول : إنما ذلك لأنهم اذا احتوا على كان الأجر لي والثواب لي فأنا فرسى بثواب الله لا بقبول الخلق قولي ! هذا ما يظنه

بنفسه والله مطلع من خبيره على أنه لو أخبره نبي بأن ثوابه في الخول وإخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار ، وحيس مع ذلك في سجن وقيد بالسلاسل لاحتال في هدم السجن وحل السلاسل حتى يرجع إلى موضعه الذي به تظهر رياسته من تدريس أو وعظ أو غيره ، وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ويثني عليه ويتواضع له ، وإذا خطر له أن التواضع للسلطين العظيمة حرام قال له الشيطان : مهات ! إنما ذلك عند الطمع في ما لهم فأما أنت فمضرك قبول عند ذلك السلطان فصار يشغفه في كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين فقل ذلك عليه ، ولو قدر على أن يفتح حاله عند السلطان بالعلم فيه والكذب عليه لفضل . وكذلك قد يفتنى غرور بعضهم إلى أن يأخذ من ما لهم وإذا خطر له أنه حرام قال له الشيطان : هذا مال لأمالك له وهو لمصالح المسلمين وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين ! ألا يعلم لك أن تأخذ قدر حاجتك ؟ .

فينتد هذا التفتيس في ثلاثة أمور (أحدها) في أنه مال لأمالك له فإنه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد ، والذين أخذ منهم أحياء وأولادهم وورثتهم أحياء ، وغاية الأمر وقوع الخطف في أموالهم ، ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وغالطها فلا خلاف في أنه مال حرام ، ولا يقال هو مال لأمالك له ، ويجب أن يقسم بين العشرة ويورد إلى كل واحد عشرة ، وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر (الثاني والثالث) في قوله لك من مصالح المسلمين وبك قوام الدين ؟ ولعل الدين قد دبتهم واستحلوا أموال السلطين وورثوا في طلب الدنيا والإقبال على الرياسة والإعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورخصوها وأقبلوا على الله فعملوا التحقيق دجال الدين وقوام مذهب الشياطين لا إمام الدين . إذ الإمام : هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله كالأنبياء عليهم السلام والصحابة وعلماء السلف .

والدجال : هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الله والإقبال على الدنيا . فعمل موت هذا أفتع للمسلمين من حياته وهو يزعم أنه قوام الدين . ومثله كما قال المسيح عليه السلام العالم السوء : إنه كصخرة وقعت في فم الراعي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع . وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعمار المتأخرة خارجة عن المحصر وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير .

(وفرة أخرى) أجكوا العلم وظهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظواهر المعاصي ، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو ، وجاهدوا أنفسهم في الثبوت منها وقصروا من القلوب مناهتا الجلية القوية ، ولكنهم بعد مفرورون ؛ إذ بقيت في ذوايا القلب من خفايا ما يكاد الشيطان وخبايا خداع النفس مادي وغمض مدركة فلم يفتنوا لها وأملوها ، وإنما مثاله من يرد تنقية الزرع من الحشيش ، فدار عليه وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه ، إلا أنه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض وظن أن الكل قد ظهر وبرز ، وكان قد ثبت من أصول الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فأصلها وهو يظن أنه قد اقتلعها ، فإذا هو بها في غفلة وقد تبقت وقوت وأصلت أصول الزرع من حيث لا يدري . فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك وينذل عن المرافقة للخفايا وتفقد اللطائف فتراه يسر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها ، وهو يرى أن باعته الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته . ولعل باعته الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الأطراف ، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق ، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء ، والمدح بالورع والورع والعلم ، والتقديم له في المهمات وإثارة في الأغراض ، والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد ، والتعجب بتحرك الرووس إلى كلامه والبكاء عليه والتعجب منه ، والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفيدين ، والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من سائر الآقران والأشكال

لجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد ، والتمكن به من إطلاق لسان الطمن في الكفاية المقبلين على الدنيا ، لا عن تفجع بمصيبة الدين ولكن عن إدلال بالتمييز واعتداد بالتخصيص .

ولعل هذا المسكين المغرور حياته في الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة وعز واقتياد وتوقير وحسن ثناء ، فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله فساه يتشوش عليه قلبه وتخلط أورداه ووظائفه . وعساه يمتد بكل حيلة لنفسه ، وربما يحتاج إلى أن يكذب في تغطية عيبه .

وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع وإن كان ذلك قد اعتقد فيه فوق قدره ، ويؤثر قلبه عن عرف حد فضله وورعه وإن كان ذلك على وفق حاله وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثر لتقدمه في الفضل والورع ، وإنما ذلك لأنه أطوع له وأتبع لمراده وأكثر ثناء عليه وأشد إصفاء إليه وأحرص على خدمته .

ولعلمهم يستفيدون منه ويرغبون في العلم وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه ، ويرى أن ذلك مكفر للتوبة ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه .

وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إثارة الخول والذلة وإخفاء العلم لم يرغب فيه لفقدته في العزلة ولا خفاء لذة القبول وعزة الرئاسة ، ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان من دهم من بنى آدم أنه يعلمه امتنع مني فيجعله وقع في حبالتي .

وعساه يصنف ويعتد فيه ظانا أنه يجمع علم الله ليتفجع به استعارة اسمه بحسن التصنيف ، فلو ادعى مدح تصنيفه ومحاكاة اسمه ونسبه إلى قسمه ثقل عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه ، ولله في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه إماماً صريحاً بالصدارة العلوية المريضة وإما ضمنياً بالطعن في غيره ، ليستبين من علمه في غيره ، أنه أفضل من طمن فيه وأعظم منه علماً ولقد كان في غنية عن الطمن فيه .

ولله يحكى من الكلام المزيف ما يزيد تزييفه فيميزه إلى قائله وما يستحسنه فله لا يميزه إليه ليطن أنه من كلامه : فينبذه بعينه كالسارق له أو يغيره أدنى تغيير كالذي يسرق قيصافيتخله قباء حتى لا يعرف أنه مسروق ، ولله يجتهد في تزيين الفاظه وتسميته وتصحين فظمه كيلا ينسب إلى الزكاة ويرى أن غرضه ترويع الحكمة وتحسينها وتزيينها ليكون أقرب إلى قبح الناس .

وعساه نافلا عما روى أن بعض الحكماء وضع ثلثمائة مصحف في الحكمة فأوحى الله إلى نبي زمانه قل له قد ملأت الأرض قفاقاً وإلى أقلبل من ففاقك شيئاً ، ولعل جماعة من هذا الصنف المترين إذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامة من عيوب القلب وخفاياه فلو اختلفوا وأتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه نظر كل واحد إلى كثرة من يتبعه وأنه أكثر تبعاً أو غيره . فيفرح إن كان أتباعه أكثر وإن علم أن غيره أحق بكثرة الأتباع منه ، ثم إذا تفرقوا واشتغلوا بالإفادة تغايروا وتحاسدوا ولعل من يختلف إلى واحصتهم إذا انقطع عنه الخيرة ثقل على قلبه ووجد في نفسه نفرة منه فبعد ذلك لا يهتز باطنه لإكرامه ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر من قبل ولا يحرص على الثناء عليه كما أنى مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة ولعل التميز منه إلى فئة أخرى كان اتفح له في دينه لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة وسلامته عنها في تلك الفئة ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه ، ولعل واحدا منهم إذا تحركت فيمبايدى الحسد لم يقدر إظهاره فيتمتع بالطمن في دينه وفي ورعه ليحمل غضبه على ذلك ، ويقول إنما غضبت لدين الله لا لنفسى . ومهما



ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرج له وإن أتى عليه ربما ساء وكرهه ، وربما قطب وجهه إذا ذكرت عيوبه - يظهر أنه كاره لتبعية المسلمين - وسر قلبه راض به ويريد له ، والله مطلع عليه في ذلك - وهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يظنن له إلا الأكياس ولا يتزعه عنه إلا الأقوياء ، ولا مظنم فيه لأشئنا من الضعفاء ، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرص على إصلاحه ، فإذا أراد الله بهد خيرا بصره بعيوب نفسه ، ومن سره حسنته وساءت سيئته فهو مرجو الحال ، وأمره أقرب من الغرور المركب لنفسه الممتن على الله بعمله وعليه الثقلان أن من خيار خلقه ، فتعوذ بالله من التفة والافتقار ومن المعرة بخفايا العيوب مع الإجمال . هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكن قصروا في العلم بالعلم .

ولنذكر الآن غرور الذين تقوا من العلوم بما لم يعمهم وتركوا المهم وهم به مخترون إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم وإما لاعتصامهم عليه . فهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد ، وخصصوا اسم الفقه بها وسموه الفقه وعلم المذاهب ، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يفتقدوا الجوارح ولم يفرسوا اللسان عن الغيبة ولا اللحن عن الحرام ولا الرجل عن المشي إلى السلاطين وكذا سائر الجوارح ولم يفرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات . هؤلاء مغرورون من وجهين (أحدهما) من حيث العمل (والآخر) من حيث العلم .

أما العمل : فقد ذكرنا وجه الغرور فيه وأن مثالمهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بشكره وتعليمه لا بل مثالمهم مثال من به علة البواسير والبرص وهو مشرف على الهلاك ويحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة ويكرر ذلك ليلا ونهاراً مع طه بانه رجل لا يحمض ولا يستحاض ، ولكن يقول : ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتساؤني عن ذلك ، وذلك غاية الغرور . فكذلك المنفعة المسكين قد يسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة ، وربما يحتفظه الموت قبل الثوبة والثلاثي فيلحق الله وهو عليه مضيقان . فنرك ذلك كله واشتغل بعلم السلم والإجارة والطهار واللعان والجراحات والديات والنعاوى والبيئات وكتاب الحيض وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره لنفسه ، وإذا احتاج غيره كإني المغنين كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والرياسة والمال ، وقد دعاهم الشيطان وما يشر ، إذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه وليس يدري أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين محسنة . هذا لو كانت نيته صحيحة كما قالوا قد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى ، فانه وإن قصدوا الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه فهذا غروره من حيث العمل .

وأما غروره من حيث العلم : بحيث اقتصر على علم الفتاوى وظن أنه علم الدين وترك علم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وربما ظن في المحدثين وقال : إنهم نقله أخبار وحمل أسفار لا يفتقون ، وترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بأدراك جلاله وعظمته وهو العلم الذي يورث الخوف والمحبة والخشوع ويحصل على التقوى ، قراء آتينا من الله مغترا به متكلدا على أنه لا بد وأن يحرمه فانه قوام دينه وأنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتسلل الحلال والحرام .

فقد ترك العلوم التي هي أم وهو غافل مغرور ، وسبب غروره ما سمع في الشرح من نظم الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته الخفية والمرجوة ليستشعر القلب الحرف ويلزم التقوى ، إذ قال تعالى ﴿ قلوا لا قدر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم ، فإن مقصود هذا العلم : حفظ الأموال بشروط المعاملات وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات ، والمال في طريق آفة البدن مركب . وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب التي هي من الصفات المذمومة فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى ، وإذا مات ملوثاً بتلك الصفات كان محجوراً عن ( ٥٠ - إحياء علوم الدين ٢ )

الله . فمثله في الاختصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم غرر الراوية والخف ، ولا شك في أنه لو لم يكن لشغل الحج ، ولكن المختصر عليه ليس من الحج في شيء ولا ببسيلة - وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم - ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافات ولم يمه إلا تعلم طريق المجادة والإلزام وإخام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة ، فهو طول الليل والنهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب والتفتد لميوب الأقران والتلفظ لأنواع التسييبات المؤذية ، وهؤلاء هم سباع الإنس طبعهم الإيذاء ومعهم السفة ، ولا يقتصرون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران ، فكل علم لا يحتاجون إليه في المباهاة كعلم القلب وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة فانهم يستحقرونه ويسمونه التزويق وكلام الوعاط ، وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العريضة التي تجري بين المتصارعين في الجدل . وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم في علم الفتاوى لكن زادوا إذا اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضا ، بل جميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف ، وأما أنه الأحكام فيشتمل عليها علم للذهب وهو كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وفيهم معانيهما وأما حيل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعمدية فإنا أبعد لإظهار الغلبة والإخام وإقامه سوق الجدل بها فغرور هؤلاء أشد كثيرا وأقبح من غرور من قبلهم .

(فرقة أخرى) اشتغلوا بعلم الكلام والمجادة في الأهواء والود على المخالفين وتلبيح مناقضاتهم ، واستكشروا من معرفة المقالات المختلفة واشتغلوا بعلم الطرق في مناظرة أولئك والحامهم ، وافتروا في ذلك فرقا كثيرة واعتقدوا أنه لا يكون لمبدع عمل إلا بايمان ولا يصح إيمان إلا بأن تعلم جدلهم وماسمونه أنه عقادهم ، وغلثوا أنه لا أحد أعراف بالله وبصفاته منهم ، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ولم يتعلم عليهم ، ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها .

ثم هم فرقان : حذقة وعقبة ؛ فالضاللة هي التي تدعو إلى غيرة السنة ، والمحققة هي التي تدعو إلى السنة والغرور شامل للجميع . أما الضاللة : فلثنا عن ضلالنا وغلثنا بنفسها النجاة ، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضا ، وإنما أنت من حيث أنها لم تهتم رأيها ولم تحكم أولا شروط الأدلة ومنابها ، فرأى أحدهم الشبهة دليلا والدليل شبهة . وأما الفرقة المحقة : فإنا اغترارنا من حيث أنها غلثت بالجدل أنه أم الأمور وأفضل القربات في دين الله وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه مالم يفحص ويبحث ، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس يؤمن أو ليس كامل الإيمان ولا مقرب عند الله .

فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها في تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهديات المبتدعة ومناقضاتهم ، وأهلوا أقصم قلوبهم حتى سميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الفاضحة والباطنة ، وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل ، ولكنه لا يلائمه بالغلبة والإخام ولذة الرئاسة وعز الاتباع إلى اللب عن دين الله تعالى سميت بصيرة فلم يلفث إلى القرآن الأول ، فإن التي صلى الله عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق وإنهم قد أذكروا كثيرا من أمل البدع والهوى فما جعلوا أعمارهم ودينهم فرضا للخصومات والمجادلات وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم ، بل لم يشكوا فيه إلا من حيث رأوا حاجة وتوسموا تخايل يقول قد كروا بقدر الحاجة ما يدل الضلال على ضلاله ، وإذا رأوا مصرا على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه في الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر ، بل قالوا إن الحق هو الدعوة إلى السنة ومن السنة ترك الجدل في الدعوة إلى السنة . إذ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال « ما ضل قوم قط بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » (١) ، وخرج رسول الله ﷺ يوما على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون فغضب عليهم حتى كأنه فقي . في وجهه حب

(١) حديث « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » تقدم في العلم وفي آفات اللسان .

الزمان (٢) - حرة من الغضب - فقال : « لهذا يتم بهذا أمرتم أن تضرعوا كتاب الله بعضه انظروا إلى ما أمرتم به فاعملوا وما نهيتهم عنه فاجتنبوا قد ذكرهم عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال. ثم إنهم أروا رسول الله ﷺ وقد يثب إلى كافة أهل الملل فلم يقعد معهم في مجلس عبادة لإلزام وإلغام وتحقيق حجة ودفع سؤال وإيراد إلزام ، فاجادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ولم يزد في المجادلة عليه لأن ذلك يشوش القلوب ويستخرج منها الإشكالات واللبس ثم لا يقدر على عوامان قلوبهم ، وما كان يميز عن مجادلتهم بالتبسيات ودقائق الأقسام وأن يعلم أصحابه كيفية الجدال والإلزام .

ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يفتروا بهذا وقالوا لو نجح أهل الأرض وهلكنا لم نتغنى بنجاتهم ولو نجحوا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم ، وليس علينا في المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل الملل ، وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم فإلنا نضيع العمر ولا نضربه إلى ما يتغنى في يوم قرأنا وفاقنا ؟ ولم نحض فإلنا لأننا على أنفسنا الخطأ في تفاصيله ؟ ثم نرى أن المتدبر ليس يترك بدعة بمجداهل يريده التصب والحسومة تشددا في بدعته ، فاشتغالي بمخاصمة نفسي ومجادلتها ومجادلتها لترك الدنيا الآخرة أولى ، هذا لو كنت لم أنه عن الجدال والحسومة فكيف وقد نهيت عنه ، وكيف أدعو إلى السنة بترك السنة ؟ فالأولى أتقند نفسي وأنظر من صفاتها ما يبعثه الله تعالى وما يحبه لأتزه عما يبعثه وأتمسك بما يحبه .

( و فرقة أخرى ) اشتغلوا بالعز والهد واليقين والإخلاص والصدق ونظامه ، وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات وهم منفسكون عنها عند الله إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين ، وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يمججون بأنفسهم غاية الإصجاب ويظنون أنهم ما تبحروا في علم الحجة إلا وهم يحبون الله ، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون ، وما وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون ؛ ولولا أنه مقرب عند الله لما عرف معنى القرب والبعد وعلم السلوك إلى الله وكيفية قطع المنازل في طريق الله ؛ فالمسكين بهذه الظنون يرى أنهن الخائفين وهو آمن من الله تعالى . ويرى أنهن الراجين وهو من المقربين للمعنيين ، ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساعطين ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من المتسكين على العز والجاه والمال والأسباب ، ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين ، بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص في الوصف ، ويصف الرياء ويذكر كرمه ويراثي بذكره ليمتد فيه أنه لولا أنه غلط لما اعتدى إلى دقائق الرياء ، ويصف الزهد في الدنيا لحد حرسه على الدنيا وقوة رغبته فيها فهو يظهر الدعاء إلى الله وهو منه فار ومخوف بالله تعالى وهو منه آمن . ويذكر بالله تعالى وهو له ناس ، ويقرب إلى الله وهو منه متباعد ، ويبحث على الإخلاص وهو غير غلط . ويدل الصفات المذمومة وهو بها متصف ، ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصا - لو منع عن مجلسه الذي يدعو الناس فيه إلى الله لاضاقت عليه الأرض بما رحبت - ويعزم أن غرضه إصلاح الخلق ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه وصلحوا على يديه لمات غما وحسدا ، ولو أتى أحد من الترددتين إليه على بعض أقرانه لكان أيضا خلق الله إليه .

فهؤلاء أعظم الناس غرة وأبدم عن التنبه والرجوع إلى السداد ، لأن المرغب في الأخلاق المحمودة والمنفر عن المذمومة هو العلم بفرائضها وفوائدها ، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به . فبعد ذلك عماذا بالصالح وكيف سبيل تخفيفه ؛ وإنما الخوف ما يطره على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف . نعم إن ظن نفسه أنه موصوف بهذه الصفات المحمودة يمكن أن يدل على طريق الامتحان والتجربة ، وهو أن

يدعى مثلاً حب الله في الذي تركه من عاب نفسه لأجله ؟ ويدعى الخوف في الذي امتنع منه بالخوف . ويدعى الزهد في الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى : ويدعى الانس بالله فتمى طابته الخلوۃ ؛ ومتى استوحش من مشاهد الخلق لا بل يرى قلبه يتنلى بالخلاوة إذا أحق به المريدون وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى فهل رأيت محبا يستوحش من محبه به ويستروح منه إلى غيره ؟ فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ويطلبونها بالحقيقة ولا يمتحنون منها بالتزويج بل بموتهم من الله غليظ والمترون يمتحنون بأنفسهم القنوتون وإذا كشف النطاء عنهم في الآخرة ينقضون بل يطرحون في النار فتدق أقابهم فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرسى كما ورد به الخبر لأنهم يأمرون بالخير ولا يأتونه ويهتدون عن الشر ويأتونه ولو لم يقع الضرر لمولاهم من حيث إنهم يصادفون في قلوبهم شيئا خفيفا من أصول هذه المعاني وهو حب الله والخوف منه والرضا بفضله ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية في هذه المعاني فظنوا أنهم ماقدروا على وصف ذلك وما رزقهم الله علمه وما تقع الناس بكلامهم فيها إلا لانصافهم بها وذهب عليهم أن القول للسلام والكلام المعركة وجريان اللسان والمعركة العلم وأن كل ذلك غير الانصاف بالصفة فلم يفارق آحاد المسلمين في الانصاف بصفة الحب والخوف بل في القدرة على الوصف ، بل ربما زاد أمته وقل خوفه وظهر إلى الخلق مثله وضمف في قلبه حب الله تعالى ؛ وإنما مثاله مثال مريض يصف المرض ويصف دواؤه بفصاحته ويصف الصحة والشفاء ، وغيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة والشفاء وأسبابه ودرجاته وأصنافه ، فهو لا يفادتهم في صفة المرض والانصاف به وإنما يفارقه في الوصف والعلم بالطلب ، فظنه عند علمه بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجهل ، فكذلك العلم بالخوف والحب والتوكل والازهد وسائر هذه الصفات غير الانصاف بمقتضاها ومن اتبس عليه وصف الحقائق بالانصاف بالحقائق فهو مغرور . فهذه حالة الوعاظ الذين لا يعيب في كلامهم بل مناج وخطب مناج وعظ القرآن والأخبار وعظ الحسن البصري وأمثاله رحمة الله عليهم .

( و فرقة أخرى ) منهم عدلوا عن المناجح الواجب في الوعظ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة إلا عصمة الله ، على التدور في بعض أطراف البلاد إن كان ولست نعرفه ، فاشتغلوا بالطعامات والبطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلبا للأغراب . وطائفة شغلوا بجليارات التكسب وتسجيع الألفاظ وتلفيقها فأكثر منهم بالأسجاع والاستفهاد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن تكسب في مجالستهم الزعقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة ، هؤلاء شياطين الإنس ضلوا عن سواء السبيل ، فإن الأولين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصحروا كلامهم وخطبهم . وأما هؤلاء فإنهم يصدون عن سبيل الله ويمكرون الخلق إلى التوربقة بلقظ الرجا فيزيدهم كلامهم جرأة على المعاصي ورغبة في الدنيا ولا سببا إذا كان الواضع متزينا بالثياب والخيل والمرأب فإنه تشهد ميتة من فرقه إلى قومه بشدة حرصه على الدنيا فيا يفسد هذا المغرور أكثر مما يصلح بل لا يصلح أصلا ويضل خلقا كثيرا ولا يخفى وجه كونه مغرورا .

( و فرقة أخرى ) منهم فنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا فهم يحفظون الكلمات على وجهها ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها فيحفظون ذلك على التناثر ، وبعضهم في المحارب ، وبعضهم في الأسواق مع الجلساء وكل منهم يظن أنه إذا تميز بهذا القدر من السوق والجندي ، إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دوتهم فقد أفلح ونال الفرض ، وصار مغفورا لمؤمن صواب القمن غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الإلزام ، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه . وغرور من قبلهم .

( و فرقة أخرى ) استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث أعنى في سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الأسانيد الغريبة العالية فهمة أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول : أنا أدري عن فلان ولقد رأيت فلانا ومعنى من الإسناد ما ليس مع غيره . وغرور من وجوه : منها أنهم كحمة الأسفار فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنة فلهذه قاصر وليس معهم إلا النقل ويظنون أن ذلك يكفيهم ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها لا يعلمونها وقد

يفهمون بعضها أيضا ولا يعلمون به . ومنها أنهم يتركون العمل الذي هو فرض عين وهو معرفة علاج القلب ويستغلون بتكثير الأسانيد وطلب المال منها ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك ومنها وهو الذي أكب عليه أهل الزمان أنهم أيضا لا يقيمون شرط السماع فإن السماع بمجرد وإن لم يكن له فائدة ولكنه مهم في نفسه للوصول إلا إثبات الحديث إذ التفهم بعد الإثبات والعمل بعد التفهم ، فالأول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ثم تركوا حقيقة السماع ، فترى الصبي يحضر في مجلس الشيخ والحديث يقرأ والشيخ ينام والصبي يلعب ، ثم يكتب أمم الصبي في السماع فإذا كبر تصدى لبسم الله والبالغ الذي يحضر ربما يغفل ولا يسمع ولا يضي ولا يضبط وربما يشتغل بحديث أو نسخ ، والشيخ الذي يقرأ عليه لو صحف وغير ما يقرأ عليه لم يشعر به ولم يعرفه ، وكل ذلك جهل وغرور . إذ الأصل في الحديث أن يسمعه من رسول الله ﷺ فيحفظه كما سمعه ، وبروه كما حفظه ، فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ عن السماع . فإن صحوت عن سماعه من رسول الله ﷺ سمعته من الصحابة أو التابعين وصار سماعك عن الراوي كسماع من سمع من رسول الله ﷺ ، وهو أن تصني للسمع تحفظ ، ونزوي كما سمعت بحيث لا تنهر منه حرفا ولو غير غيرك منه حرفا أو أخطأ عليك خطأ .

والحفظك طريقان (أحدهما) أن تحفظ بالقلب وتستدبره بالذكر والتكرار كما تحفظ ما جرى على سماعك في مجاري الأحوال . (والثاني) أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظ حتى لا تصل إليه يد من يغيره ، ويكون حفظك للكتاب معك وفي خزانك ، فإنه لو امتدت إليه يد غيرك ربما غيره ، فإذا لم تحفظه لم تدبر بتغييره فيكون محفوظا بقلبك أو بكتابك فيكون كتابك مذكرا لما سمعته وتأمين فيه من التغيير والتحريف .

فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سماعك صوت غفل وفارقت المجلس ، ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ وجوزت أن يكون ما فيه مغيرا أو يفارق حرف منه للنسخة التي سمعتها لم يجر لك أن تقول : سمعت هذا الكتاب فانك لا تدري لذلك لم تسمع ما فيه بل سمعت شيئا يخالف ما فيه ولو في كلمة . فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك ؟ وقد قال الله تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ وقول الشيخو كلهم في هذا الزمان إنما سمعنا ما في هذا الكتاب إذا لم يوجد الشرط الذي ذكرناه فهو كذب صريح . وأقل شروط السماع أن يجرى الجميع على السمع مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير ولو جاز أن يكتب سماع الصبي والناقل والثائم والذي يفسخ لجاز أن يكتب سماع الجنون والصبي في المهد ، ثم إذا بلغ الصبي وأفاق الجنون يسمع عليه ولا خلاف في عدم جوازه ، ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين في البطن فإن كان لا يكتب سماع الصبي في المهد لأنه لا يقيم ولا يحفظ ، فالصبي الذي لا يلعب والناقل المشغول بالنسخ عن السماع ليس بينهم ولا يحفظ . وإن استجرا جامل فقال : يكتب سماع الصبي في المهد فليكتب سماع الجنين في البطن فإن فرق بينهما بأن الجنين لا يسمع الصوت وهذا يسمع الصوت فما ينفع هذا وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت ، فليقتصر إذا صار شيئا على أن يقول : سمعت بدمبلوني أن في صباى حضرت مجلسا يروى فيه حديث كان يقرع سمعى صوتا لآدرى ما هو ؟ فلا خلاف في أن الرواية كذلك لا تصح وماراد عليه فهو كذب صريح ، ولو جاز إثبات سماع التركي الذي لا يقيم العربية لأنه يسمع صوتا غفلا لجاز إثبات سماع صبي في المهد ذلك غاية الجهل . ومن أين يأخذ هذا ؟ وهل السماع مستند إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأدأها كما سمعها »<sup>(١)</sup> وكيف يؤذى كاسمع من

(١) « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها ... الحديث » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث زيد بن ثابت والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود وقال الترمذي حديث حسن صحيح وابن ماجه قط من حديث جبير ابن مطعم وأنس .

لا ندرى ما سمح بهذا الحش أنواع الفروع . وقديلي بهذا أهل الزمان ولو اختلط أهل الزمان بمجدوا شيوعا إلا الذين سمعوا في الصبا على هذا الوجه مع القلة ، إلا أن المحدثين في ذلك جاءوا قبولا ، غلب المساكين أن يشترطوا ذلك فيقل من يجمع لذلك في حلقهم فينقص جامهم ، وتقل أيضا أحاديثهم التي قد سمعوا بهذا الشرط بل ربما عدوها ذلك وانقصوا فاصطلحوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرح سمع دعة وإن كان لا يدرى ما يجرى ؟ وصحة السماع لا تعرف من قول المحدثين لأنه ليس من علمهم بل من علم علماء الأصول بالفقه وما ذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه فهذا ضرور هؤلاء ، ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضا مفرودين في اقتصارهم على النقل وفي إفتاء أعمارهم في جمع الروايات والأسانيد وإعراضهم عن مهمات الدين ومعرفة معاني الأخبار ، بل الذي يقصده من الحديث سلوك طريق الأخيرة ربما يكفيه الحديث الواحد عمره ، كما روى عن بعض الشيوخ أنه حضر مجلس السماع فكان أول حديث روى قوله عليه السلام ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه <sup>(١)</sup> ، وقام وقال : يكفيني هذا حتى أغرق منه ثم أسمع غيره فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يعدون الفروع .

(وفرة أخرى) اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة ، إذ قوام الدين بالكتاب والسنة ، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو فأفني هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وفي صناعة الشعر وفي غريب اللغة ، ومثلهم من يفتي جميع العمر في تعلم النظم وتصحيح الحروف وتحسينها ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة فلا بد من تعلمها وتصحيحها ، ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان والباقي زيادة على الكفاية ، وكذلك الأديب لو عقل لعرف أن لغة العرب كلغة الترك والمضجع عمره في معرفة لغة العرب كالضبع له في معرفة لغة الترك والمهند ، وإنما فارقها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها ، فيسكني من اللغة علم الفريين في الأحاديث والكتاب ، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب فأما التعق في له درجات لا تنتهي فهو فتول مستثنى عنه ، ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها هذا أيضا مفرور ، بل مثاله مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو مفرور ، إذ المقصود من الحروف المعاني وإنما الحروف ظروف وأدوات ، ومن احتاج إلى أن يشرب السكتيين ليزول ما به من الصفراء وضيق أوقاته في تحسين القندح الذي يشرب فيه السكتيين فهو من الجهال المفرودين ، فكذلك ضرور أهل النحو واللغة والأدب والقراءات والتتقيق في مخارج الحروف مهما تعمقوا فيها وتجردوا لها وخرجوا عليها - أكثر ما يحتاج إليه في تعلم العلوم التي هي فرض عين - فالبال الأنصبي هو العمل والذي فوته هو معرفة العمل ، وهو كالنشر للعمل وكالبالإضافة إلى ما فوته هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية ، وهو قشر بطريق الإضافة إلى المعرفة وللبالإضافة إلى ما فوته ، وما فوته هو العلم باللغة والنحو ، وفوق ذلك وهو النشر الأعلى العلم بمخارج الحروف ، والقانونون هذه الدرجات كلهم مفرون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يخرج عليها إلا بقدر حاجته ، فتجاوز إلى ما وراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه ورجى عمره في حمل النفس عليه وتصحيح الأعمال وتصفيها عن الشوائب والآفات . فهذا هو المقصود المندوم من جملة الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل إليه وقصورا له ومنازل بالإضافة إليه ، وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد . وهذه العلوم لما كانت متعفة بعلم الشرع اغتر بها أربابها . فأما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع فلا يعتد أصحابها أنهم

(١) حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وهو عند مالك من رواية علي بن الحسين مرسل وقد تقدم .

ينالون المغفرة بها من حيث إنها علوم فكان القروء بها أقل من القروء بعلوم الشرع ، لأن العلوم الشرعية مشتركة في أنها محمودة كما يشارك القشر البلب في كونه محمودا ولكن المحمود منه ليعنه هو المنتهى . والثاني محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى فن اتخذ القشر مقصودا وعرج عليه فقد أغتر به .

(وفرة أخرى) عظم غرورهم في فن الفقه فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه في مجلس القضاء فوحشوا الحيل في دفع الحقوق وأساءوا وأويل الأفاظ المبهمة واغتروا بالظواهر وأخطأوا فيها . وهذا من قبيل الخطأ في الفتوى والقروء فيه والخطأ في الفتاوى ما يكثر . ولكن هذا نوع عم الكفاة إلا أن الأكياس منهم ففشر إلى أمثلة : فن ذلك قوام بأن المرأة متى أبرأت من الصداق برى الزوج بينه وبين الله تعالى ، وذلك خطأ بل الزوج قد يسوء إلى الزوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق فتضطر إلى طلب الخلاص بقبري الزوج لتخلص منه فهو إبراء لأعلى طيبة نفس وقد قال تعالى ( فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا ) وطيبة النفس غير طيبة القلب ، يريد الإنسان بقلبه مالا طيب به نفسه فإنه يريد الحجابة بقلبه ولكن تسكرها نفسه ، وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها ، بالإبراء لأعن ضرورة تقابلها حتى إذا رددت بين ضررين اختارت أهونها فهذه مصادرة على التحقيق الباطن . نعم القاضى في الدنيا لا يعلم على القلوب والأغراض ، فينظر إلى الإبراء الظاهر وأنها لم تتركه بسبب ظاهر والإكراه الباطن ليس بطبع الخلق عليه ، ولكن مهما تصدى القاضى الأكبر في صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوبا ولا مفيدا في تحصيل الإبراء ، ولذلك لا يحمل أن يؤخذ مال إنسان إلا بطلب نفس منه ، فلو طلب من الإنسان مالا على ملائ من الناس فاستحيامن الناس أن لا يعطيه ولكن يرد أن يكون سؤاله في غلوة حتى لا يعطيه ولكن خاف ألم مذمة الناس وخاف ألم تسليم المال ، وردد نفسه بينهما فاختار أهون الألين وهو ألم التسليم فسلمه ، فلافرق بين هذا وبين المصادرة إذ معنى المصادرة إيلام البدن بالصوت حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال فيختار أهون الألين ، والسؤال مظنة الحياة والرياء ضرب لقلب بالسوط ، ولافرق بين الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر ، وإنما حاكم الدنيا هو الذى يحكم بالملك بظاهر قوله وهيب لأنه لا يمكنه الوقوف على مافى القلب ، وكذلك من يعطى اتقاء لشر لسانه أو لشر سمائه فهو حرام عليه ، وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام . ألا ترى ما جاء في قصة داود عليه السلام حيث قال - بعد أن غفر له - يارب كيف لي بخصمى ؟ فأمر الاستحلال منه وكان ميتا فأمر بئذائه في صخرة البيت المقدس ، فتأذى : يا أوربا ، فأجابه : لييك يابني الله أخرجتنى من الجنة فإذا تريد ؟ فقال . إني أسأت إليك في أمر فيه لي ، قال : قد فعلت ذلك يابني الله ، فانصرف وقد ركن إلى ذلك فقال له جبريل عليه السلام : هل ذكرت له ما فعلت ؟ قال : لا ، قال : فارجع فين له ، فرجع فناداه فقال : لييك يابني الله ، فقال : إني أذنت إليك ذنبا ، قال : ألم أهبك لك ؟ قال : ألا تسألني ماذا الذنب ؟ قال : ما هو يابني الله قال : كذا وكذا ، وذكر شأن المرأة فاقطع الجواب ، فقال يا أوربا ألا تنجيتنى ؟ قال : يابني الله ما هكذا يفعل الأنبياء حتى أقف معك بين يدي الله ، فاستقبل داود البكاء والصرخ من الرأس حتى وعده الله أن يستوجه منه في الآخرة . فكذا ينهك أن الهبة من غير طيبة قلب لا تفيد . وأن طيبة القلب لا تحصل إلا بالمرعة ، فكذلك طيبة القلب لا تكون في الإبراء والهبة وغيرهما إلا إذا دخل الإنسان واختياره ، حتى تجبعت البواص من ذات نفسه لا أن تضطر بوائعه إلى الحركة بالحيل والإلزام . ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته وإتياه مالا لإسقاط الزكاة ، فالفقيه يقول : سقطت الزكاة ، فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساعي سقطت عنه فقد صدق فإن مطمع نظرم ظاهر الملك وقد زال ، وإن ظن أنه يسلم في القيامة ويكون كن لم يملك المال ، أو كن باع حاجته إلى المبيع لأعلى هذا المقصد . فأعظم جهله بفتح الدين وسر الزكاة ، فإن سر الزكاة تظهر القلب عن رذيلة البخل فإن البخل مهلك قال **عنه** « ثلاث مهلكات شح مطاع <sup>(١)</sup> » وإنما صار شحه مطاعا بما فعله وقيله لم يكن مطاعا ، فقد تم هلاكه بما ظن أن فيه خلاصه فإن الله مطلع على قلبه وجهه المال وحرصه عليه .

وأنه بلغ من حرصه على المال أن استعبط الحيل حتى يسد على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور، ومن ذلك إباحة الله قال المصالح الفقيه وغيره بقدر الحاجة، والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأمانى والنفسول والشهوات وبين الحاجات، بل كل ما لا تم رعوته إلا به يرونه حاجة وهو محض الغرور، بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها في العبادة وسلوك طريق الآخرة، فكل ما تناوله العبد للاستمتاع به على الدين والعبادة فهو حاجته وما عدا ذلك فهو فضوله وشهوته، ولو تعبنا نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا ملأنا فيه مجلدات والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تصرف الأجناس دون الاستيعاب فإن ذلك بطول.

الصنف الثاني: أبواب العبادة والعمل والمغرورون منهم فرق كثيرة فمهم من غروره في الصلاة. ومنهم من غروره في تلاوة القرآن. ومنهم في الحج. ومنهم في الزهد وكذلك كل مشغول ينتج من متابع العمل فليس غاليا عن غرور إلا الأكياس وقليل مام.

(فهم فرقة) أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفنائل والتوافل وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العلوان والسرف، كالذى تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضى الماء المحكوم بطلانه في قوى الشرع، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في التجاسة، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض، ولو اقلب هذا الاحتياط من المساء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة، إذ توسأ عمر رضى الله عنه بماء في جرة نصرانية مع ظهور احتمال التجاسة وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال خائفة من الوقوع في الحرام. ثم من هؤلاء من يخرج إلى الاسراف في صب الماء وذلك منتهى عنه<sup>(١)</sup>، وقد بطول الأمر حتى يضعب الصلاة ويغريها عن وقتها، وإن لم يخرجها أيضا عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت، وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه في الماء. وإن لم يسرف فهو مغرور بتضييعه العمر الذى هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه، إلا أن الشيطان يسد الخلق عن الله بطريق سنى، ولا يفكر على صد العباد إلا بما يخيل اليهم أنه عبادة فيعبدون من الله بمثل ذلك.

(وفرقة أخرى) غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل يشوش عليه حتى تقوته الجماعة وتخرج الصلاة عن الوقت، وإن تم تكبيره فيكون في قلبه بعد تردد في صحة نيته، وقد يوسوسون في التكبير حتى قد ينفرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه، يفعلون ذلك أول الصلاة ثم ينفلون في جميع الصلاة يحضرون قلوبهم، ويغترون بذلك ويظنون أنهم إذا أتبعوا أنفسهم في تصحيح النية في أول الصلاة وتبينوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم.

(وفرقة أخرى) تغلب عليهم الوسوسة في اخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها فلا يزال يحنط في التشديدات والفرق بين الصاد والظا، وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته، لاهمه غيره ولا يتفكر فيما سواه ذاهلا عن معنى القرآن والامتناع به وصرف الفهم إلى أسرارهم. وهذا من أقمع أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم في الكلام.

ومثال هؤلاء هو مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان وأمر أن يؤدبها على وجهها، فأخذ يؤدى الرسالة ويتأق في مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس فما أحرأ بأن تقام عليه السياسة ويرد إلى دار الجانين ويحكم عليه بفقد العقل.

(وفرقة أخرى) اغترروا بقراءة القرآن فيهنونه هذا وربما يجتمونه في اليوم والليل مرة، ولأن أحدهم جرى به قلبه يتردد في أودية الأمانى إذ لا يتفكر في معاني القرآن لينزجر بزواجره وينتظ بمواعظه ويقف عند أوامره

(١) حديث: التبي عن الإسراف في الوضوء. أخرجه الترمذى وسننه وابن ماجه من حديث ابن كعب بن إبان الوضوء شيطانا يقال له الوهان... الحديث «تهدم في عجائب القلب».



ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه الى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة - فهو مغرور يظن أن المقصود من ازالة القرآن المهمة به مع التفتة عنه .

ومثاله : مثال عبد كتب إليه مولاة ومالكه كتابا وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي ، فلم يصرف عنايته الى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاة ، الا انه يكرر الكتاب بصوته وتنفته كل يوم مائة مرة فهو مستحق العقوبة ، ومهما ظن ذلك هو المراد منه فهو مغرور . نعم تلاوة وإنما تراد لكيلا ينسى بعد لحفظه وحفظه يراد لمناه ومناه يراد للعمل به والاتضاع بمعانيه ، وقد يكون له صوت طليب فهو يقرؤه . ويلتذ به ويكثر باستدائه ويظن أن لذلك لذة ومنجاة الله تعالى وسماح كلامه وإنما هي لذته في صوته ، ولو ردد الحاشية يشعر او كلام آخر لانه به ذلك الالتئاذ ، فهو مغرور اذ لم يتفقد قلبه فيعرفه أن لادته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته .

( وقرعة أخرى ) اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون السنن من النبية وخواطرهم عن الرياء ويظنونهم عن الحرام عند الإفطار والسنن من الهذيان بأنواع الفصول طول النهار ، وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيعمل الفرائض ويطلب النقل ثم لا يقوم بمحفوظك غاية التورود .

( وقرعة أخرى ) اغتروا بالحب ليخرجون الى الحج من غير خروج من المظالم وقضاء الديون واسترخاء الوالدين وطلب الزاد الحلال ، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ويضيعون في الطريق الصلاة والبرائض ويمسجون عن طهارة الثوب والبدن ويترسون لمسك الغلبة حتى يؤخذ منهم ، ولا يلبثون في الطريق من الزفت والحصام ، وربما جمع بعضهم الحرام وأهقه على الرقضاء في الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء فيمضي الله تعالى في كسب الحرام أولا وفي اتفائه بالرياء ثانيا فلا هو اخذه من حله ولا هو وضعه في حقه ، ثم يحضر البيت بقلب ملوث راذائل الأخلاق وذميص الصفات لم يقدم تطهيره على حضوره وهو يبع ذلك يظن انه على خير من ربه فهو مغرور .

( وقرعة أخرى ) اخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه ، وإذا أمرهم بالخير عتف وطلب الرياسة والعزة وإذا بشر مثكرا ورد عليه غضب وقال : أنا المحتسب فيسكيف تنسكرك ؟ وقد يجمع الناس إلى مسجده ومن تأخر عنه اغفل القول عليه وإنما غرضه الرياء والرياسة ، ولو قام بشهد المسجد غيره لمجرد عليه ، بل منهم من يؤذن ويظن انه يؤذن لله ولوجاه غيره وأذن وقت غيبته قامت عليه التقيامة وقال : لم آخذ حتى وذوحت على مرتبتي ، وكذلك يتفاد إمامة مسجد ويظن انه على خير وإنما غرضه أن يقال إنه إمام مسجد فلو تقدم غيره وإن كان أروع وأعلم منه تقل عليه .

( وقرعة أخرى ) جلوسا بمكة أو المدينة واغترابوا بمكة ولم يراقبوا ظهورهم ولم يطهروا عاهرم وباطنهم قلوبهم معلقة بيلادهم ملتفتة إلى قول من يعرفه أن فلانا مجاور بذلك ، وتراه يتحنى ويقول : قد جاورت بمكة كذا كذا سنة ، وإذا سمع أن ذلك قبيح ترك صريح التحدى وأحب أن يعرفه الناس بذلك ثم إنه قد مجاور ويمدح طمعه إلى أوساخ أموال الناس وإذا جمع من ذلك شيئا شبع به وأمسك لم تسمع نفسه بلقمة تصدق بها على فقير فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع ومجلة من المملكات كان ضنا بمحزل لوترك المجاورة ، ولأن حب المصحة وأن يقال إنه من المجاورين الزمة المجاورة مع التضعف بهذه الرذائل فهو أيضا مغرور ، وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا وفيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتهم واعتمد عليها فهو مغرور ، ولا يعرف شرح ذلك إلا من جملة كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف مداخل التورود في الصلاة من كتاب الصلاة ، وفي الحج من كتاب الحج ، والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التي رتبناها فيها ، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى جامع ماسبق في الكتب .

( وقرعة أخرى ) ذهبت في المال وقامت من اللباس والطعام بالدون ومن السكن بالمساجد وظنت أنها

أدركت رتبة الزهاد ، وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه إما بانعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد ، فقد ترك أهون الأمورين وبأب أعظم المهلكين ، فإن الجاه أعظم من المال ولو ترك الجاه وأخذ المسألة كان إلى السلامة أقرب فهذا مغرور إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ، ولم يدرك أن منتهى لذاتها الرياسة وأن الراغب فيها لا بد وأن يكون منافقاً وحسوداً ومتكبراً ومرائياً ومتصفاً بجميع خيائت الأخلاق . نعم وقد يترك الرياسة ويؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور إذ يتناول بذلك على الأغنياء ويغضن معهم الكلام وينظر إليهم بعين الاستحقار ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ويسجب بصله ويتصف بجملة من خيائات القلوب وهو لا يدري ، وربما يعطى المال فلا يأخذ خيفة من أن يقال بطل زهده ، ولو قيل له إنه حلال غشقه في الظاهر وردة في الخفية لم تسمح به نفسه خوفاً من ذم الناس فهو راغب في حمد الناس وهو من ألد أبواب الدنيا ، يرى نفسه أنه زاهد في الدنيا وهو مغرور ومع ذلك فرحاً لا يخلو من توقيف الأغنياء وتقديهم على الفقراء والميل إلى المريدين له والمشتين عليه والنفرة عن الماتنين إلى غيرهم من الزهاد ، وكل ذلك خدعة يغرور من الشيطان فعوذ بالله منه . وفي العبادة من يشدد على نفسه في أعمال الجوارح حتى ربما يصلي في اليوم والليل مثلاً ألف ركعة ويحتم القرآن وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلبين تنفقه وتظهره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات فلا يدري أن ذلك مهلك ، وإن علم ذلك فلا يفلن بنفسه ذلك ، وإن ظن بنفسه ذلك توم أنه مغرور له لعله الظاهر وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب ، وإن توم فيظن أن العبادات الظاهرة ترجع بها كفة حسنته وهباته وفرة من ذي تقوى وخلق واحد من اخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملاً بالمجوارح ، ثم لا يخلو هذا المغرور - مع سوء خلقه مع الناس وخشوعته وتوقه باطنه عن الرياء وحجب الشياء ، فإذا قيل له أنت من أتاد الأرض وأولياء الله وأحبابه فرج المغرور بذلك وصدق به وزاده ذلك غرورا ، وظن أن تركية الناس دليل على كونه مرضياً عند الله ولا يدري أن ذلك لجهل الناس بخيائت باطنه .

(وفرة أخرى) حرصت على النوافل ولم أعظم اعتدائها بالفرائض ، ترى أحدهم يفرح بصلاته والضحى وبعصاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجد الفرصة لذة ولا يستعصر حصة على المبادرة بها في أول الوقت ، وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه « ما تقرب للتقرب إلى مبتلى أداء ما اقترضت عليهم »<sup>(١)</sup> وترك الترتيب بين الخبرات من جملة الضرور بل قد يتعين على الإنسان فرضان : أحدهما يفوت والآخر لا يفوت ، أو فضلان أحدهما يضيئ وقته والآخر يتسع وقته . فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغروراً . وتطائر ذلك أكثر من أن تحصى ، فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض ، كتقديم الفرائض كلها على النوافل ، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية ، بتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قاربه غيره ، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على مادونه ، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت ، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الولد إذ سئل رسول الله ﷺ فيقول له : من أبر ؟ يارسول الله ، قال « أمك » قال : ثم من ؟ قال « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أبك » قال : ثم من ؟ قال : « أدناك فأدناك »<sup>(٢)</sup> فبني أن يبدأ في الصلة بالأقرب ، فإن استويا فبالأجور ، فإن استويا فبالأقرب . وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج فرحاً بما يجع وهو مغرور بل يبنى أن يقدم حقهما على الحج ، وهذا من تقديم فرض أم على فرض هو دونه . وكذلك إذا كان على العبد ميعاد ودخل وقت الجمعة فالجمعة تفوت بالوفاء بالوعد معصية وإن كان هو طاعة في نفسه . وكذلك قد تصيب ثوبه التجاسة فيظن القول على أبويه وأهله بسبب ذلك فالتجاسة محنورة وإذا وهما محنور ، والحذر من الإيذاء أم من الحذر من التجاسة . وأمثلة تقابل

(١) حديث « ما تقرب للتقرب إلى مبتلى أداء ما اقترضت عليهم » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ « ما تقرب إلى عبدي » . (٢) حديث : من أبر ؟ قال « أمك » ... الحديث أخرجه الترمذي والحاكم وصححه من حديث زيد بن حكيم عن أبيه عن جده وقد تقدم في آداب الصحبة .

المحوررات والطاعات لا تنحصر . ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور . وهذا غرور في غاية الغموض لأن الغرور فيه طاعة إلا أنه لا يظن لصيرورة الطاعة مصيبة حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها . ومن جملة الاشتغال بالمذهب والخلاف من النقص في حق من يقي عليه شغل من الطاعات والمعاصي الظاهرة والباطنة المتصلة بالجوارح والمتعلقة بالقلب لأن مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره في سوائه . فقرة ما يحتاج هو إليه في قلبه أولى بالأول أحب إلى الرأفة والرحمة ولذا المجاهدة وقهر الأفران والتقدم عليهم بمعنى عليه حتى يفتربه مع نفسه ويظن أنهم مشغول بهم دينه .

الصنف الثالث : المتصوفة وما أغلب الغرور عليهم والمفترون منهم فرق كثيرة .

( فقرة منهم ) وهم منصوبة أهل الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزى والمهية والمنطق ، فسادوا الصادقين من الصوفية في زيمهم وهيتهم وفي ألقاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم ، وفي أحوالهم الظاهرة في الساج والرقص والطواف والصلاة والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالتفكير وفي نفس الصعداء وفي خفض الصوت في الحديث إلى غير ذلك من النماثل والمهيات ، فلما تكفوا هذه الأمور وتصوروا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتصوروا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب ، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية ، وكل ذلك من أرائل منازل الصوف ، ولو فرغوا عن جميعها لما جلا لهم أن يهدوا أنفسهم في الصوفية ؟ كيف ولم يحرموا قط حولا ولم يسوموا أنفسهم شيئا منها ؟ بل يتكالبون على الحرام والفجاء وأموال السلاطين ويثاقفون في الرغيف والفلس والحببة ويتحاسدون على التقدير والتعظيم ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما عافاه في شيء من غرضه . وهؤلاء غرورهم ظاهر ومثالهم مثال امرأة عجوز سمعت أن الصبيان والأبطال من المقاتلين نجت أسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أنفاس المملوك ، فثقت نفسها إلى أن يقطع لها مملوكه فليست درعا ووضعته على رأسها مففرا وتعلت من درج الأبطال أيمانها وتعدت إيراد تلك الآيات بنهايتهم حتى تسرت عليها ، وتعلت كيفية تبخرهم في الميدان وكيف تحريكهم الأيدي وتلقفت جميع شأئهم في الزى والمنطق والحركات والسكنات ، ثم توجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الصبيان فلما وصلت إلى المعسكر أنفلتت إلى ديوان العرض وأمر بأن تجرد عن المغفر والدروع وينظر ما تحته وتمتنح بالمبارزة مع بعض الصبيان ليصرف عنها في الشجاعة ، فلما جردت عن المغفر والدروع فإذا هي عجوز ضعيفة زمنة لا تطيق حمل الدرع والمغفر فقبلها أجمت للاستزاء بالملك والاستخفاف بأهل حضرته والتلبس عليهم غفوها فألقوها قدام القليل لسخنها فألقيت إلى القليل فسكها يكون حال المدعين للتصوف في القيامة إذا كشف عنهم النطاء وعرضوا على القاضي الأكبر الذي لا ينظر إلى الزى والمزق بل إلى سر القلب .

( وقرة أخرى ) زادت على هؤلاء في الغرور إذ شغل عليها الاعتناء بهم في بذاعة الثياب والرضا بالذنوب ، فأرادت أن تظاهر بالصوف ولم تجد بدا من التزين بزيمهم فتركوا الحرير والإبريسم وطلبوا المرقعات النفيسة والنفوس الرقيقة والسجادات المصنوعة ولبسوا من الثياب وهو أرفع قيمة من الحرير والإبريسم ، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوف بمجرد لون الثوب وكونه مرقعا ، ونسى أنهم إنما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة لإزالة الوسخ ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم محرقة فكانوا يرقونها ولا يلبسون الجديد . فأما تقطيع النفوس الرقيقة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها فمن أين يشبه ما اعتاده ؟ هؤلاء أظهر حماة من كافة المغرورين ، فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب وإنذية الأملعة ويطلبون رغد العيش ويأكلون أموال السلاطين ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلا عن الباطنة وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير وشرو هؤلاء بما يتعدى إلى الحق إذ هناك من يقتدى بهم ، ومن لا يقتدى بهم تفسد عقيدته في أهل الصوف كافة ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه فيطول اللسان في الصادقين منهم ، وكل ذلك من شؤم المتزين وشروهم .

( و فرقة أخرى ) ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاورة المقامات والأحوال والملازمة في عين الشهود الوصول إلى القرب ، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأساسي والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ العلامات كليات فهو يرددها ويظن أن ذلك أصل من علم الأولين والآخرين ، فهو ينتظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بين الإزداء فضلا عن العوام ، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حيا كتبه ويلزمهم أياما معدودة ويتلف منهم تلك الكلمات المزيقة فيرددها كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الأسرار ، ويستحق بذلك جميع العباد العلماء فيقول في العباد إنهم أجراء متعبون ، ويقول في العلماء إنهم بالحدث عن الله محبسون ، ويدعي لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقرين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحق المجاهلين لم يحكم قط حبا ولم يهين خلقا ولم يرتب عملا ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوى وتلقف الهديان وحفظه .

( و فرقة أخرى ) وقعت في الإباحة وطلوا بساط الشرع ورفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عمل قلم أصعب نفس ؟ وبعضهم يقول : قد كف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك حال فقد كفوا ما لا يمكن ، وإنما ينتزعه من لم يحرب ، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك حال ولا يعلم إلا الحق أن الناس لم يكفوا قلع الشهوة والنضب من أصلها بل إما كفوا قلع مادتها بحيث يتفاد كل واحد منها حكم العقل والشرع . وبعضهم يقول : الأعمال بالجوارح لا وزن لها . وإنما تنظر إلى القلوب وقلوبنا والنفوس بحب الله وواصله للمعرفة الله وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا ما كفة في المحصرة الروحية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ، ويرضون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية وإن الشهوات لا تصدم عن طريق الله قوتهم فيها . ويرفون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا كانت تصدم من طريق الله خطيئة واحدة ، حتى كانوا يكون عليها وينوحون سنين متوالية ، وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبهين بالصوفية لأقصى ، وكل ذلك بناء على أغاليل ووساوس يخدمهم الشيطان بالاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ومن غير اقتداء بشيخ متفنن في الدين والعلم صالح للاقتداء به وإحصاء أصنافهم يطول .

( و فرقة أخرى ) جلوزت حد هؤلاء واجتنبت الأعمال وطلقت الحلال واشغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وأقناعتها . فمنهم من يدعي الوجد والحب لله تعالى ويرغم أنه والله باقوله قد تخيل في اقتضالات هي بدعة أو كفر فيدعي حب الله قبل معرفته ، ثم إنه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله عز وجل وعن إثارة هوى نفسه على أمر الله وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ، ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى ، وليس بدري أن كل ذلك يتناقض الحب وبعضهم ربما يميل إلى القناعة والتوكل فيخوض البوادي من غير زاد ليصبح دعوى التوكل ، وليس بدري أن ذلك بدعة لم تنتقل عن الساف والمصاحبة وقد كانوا أعرف بالتوكل منه ، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالزواج وترك الزاد بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لأعلى الزاد ، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب وائق به وما من مقام من المقامات المتنجيات إلا وفيه غرور وقد اغتر به قوم وقد ذكرنا مداخل الآفات في ربيع المتجيات من الكتاب فلا يمكن إعادتها .

( و فرقة أخرى ) ضيقت على نفسها في أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخاص وأهملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذت تعمق في غير ذلك ، وليس بدري المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبده يطلب الحلال فقط ولا يرضى بإسائر الأعمال دون طلب الحلال ، بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمأص . فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفي ويغنيه فهو مغرور .

( و فرقة أخرى ) ادعوا حسن الخلق والتواضع والسباحة قصدوا لخدمة الصوفية لجمعوا قوما وتكفلوا بخدمةهم واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال ، وإنما غرضهم التكبر ، وهم يظهرون الخدمة والتواضع وغرضهم الارتقاء

وم يظهرون أن غرضهم الإرقاق وغرضهم الاستباح ، وم يظهرون أن غرضهم الخدمة والنبذة ثم إنهم يجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لشكر آتياهم وينشر بالخدمة اسمهم ، وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم ، وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوقيين يزعم أن غرضه البر والإتقان ، وباعت جميعهم الرياء والسمعة ، وآية ذلك إهمالهم بجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهرا وباطنا ورضاهم بأخذ الحرام والإففاقته . ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج لإرادة الخير كمن يعمر مساجد الله يعلينها بالعذرة يزعم أن قصده العبادة .

(ورقة أخرى) اشتغلوا بالجماعة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها فاحتفظوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرقة ، فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام في آفاتنا ، فيقولون هذا في النفس عيب والغفلة عن كونه غيبا عيب ، والافتات إلى كونه عيبا عيب ، ويشغفون فيه بكلمات سلسلة تضعف الأوقات في تلفيقها ومن جعل طول عمره في التنفيس عن عيوب وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتنفيس عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يفنيه .

(ورقة أخرى) جاوزوا هذه الرتبة وابتدوا سلوك الطريق وانفتح لهم أبواب المعرفة ، فكلا القسمين مبادئ المعرفة رائعة متجسبا منها وفرحوا بها وأعجبهم غرائبها فتصبت قلوبهم بالافتات إليها والتفكير فيها ، وفي كيفية انفتاح بابها عليهم وإنسدادها على غيرهم ، وكل ذلك غرور لأن عجائب طريق الله ليس لها نية ، فلورق ومع كل أصعبه وتقيد بها قصرت خطاه وحرم الوصول إلى المقصد وكان مثاله مثال من قصد ملكا فرأى على باب مبدئه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثله ، فوقف ينظر إليها ويتمحب حتى فات الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك .

(ورقة أخرى) جاوزوا هؤلاء ولم يلقوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار في الطريق ولا إلى ما تيسر لهم من العطايا الجليلة ولم يهربوا على الفرص بها والافتات إليها جادين في السهر حتى قاربوا فوصلوا إلى حد القربة إلى الله تعالى ، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله فوقوا وغلطوا فإن الله تعالى سبعم حجابا من نور لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل . وإليه الإشارة بقول إبراهيم عليه السلام إذ قال الله تعالى إخبار عنه ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ﴾ وليس المعنى به هذه الأجسام المضئية فإنه كان يراها في الصغر ويعلم أنها ليست آلهة وهي كثيرة وليست واحدا ، والجهال يقولون أن الكوكب ليس بإله فتل إبراهيم عليه السلام لا يضره الكوكب الذي لا يضر السوادية . ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التي هي من حجب الله عن وجل وهي على طريق السالكين ، ولا يتصور الوصول إلى الله تعالى إلا بالوصول إلى هذه الحجب وهي حجب من نور بعضها أكبر من بعض وأضمر التيرات الكوكب فاستعبر له لفظا وأعظمها الشمس وبينها رتبة الصغر . فلعل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات حيث قال تعالى ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ يصل إلى نور بعد نور ويختل إلى في أول ما كان يلقاه أنه قد وصل ، ثم كان يكشف له أن وراءه أمر أثيرق إليه ويقول : قد وصلت فيكشف له ما وراءه حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذي لا وصول إلا بعده ، فقال ﴿ هذا أكبر ﴾ فلما ظهر له أنه مع عظمه غدير خال عن الهوى في حضيض التنفيس والاصططاع عن ذروة الكمال قال لا أحب إلا الذين إن وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ﴾ وسلك هذه الطريق قد يتفر في الوقوف على بعض هذه الحجب وقد يشر بالحجاب الأول ، وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه فإنه أيضا أمر رباني وهو نور من أنوار الله تعالى ، أعنى سر القلب الذي تتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى إنه ليسع بجملة العالم ومحيط به وتتجلى فيه صورة الكل ، وعند ذلك يشرق نوره إشراقا عظيما إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو أول الأمر محبوب بمشكاه هي كالسائر له فإذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله الفائق ما بهشته ، وربما يسبق لسانه في هذه النعمة فيقول : أنا الحق فإن لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ووقف عليه وهلك ، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ولم يصل بمدلى

التمر فضلا عن العسل فهو مغرور وهذا على الالتباس ، إذ المتجلى يلبس بالمتجلى فيه كما يلبس لون ما يترامى في المرأة بالمرأة فيظن أنه لون المرأة ، وكما يلبس ما في الوجاج بالوجاج كما قيل :

رق الوجاج ورق الحمر قفعاها قفعا كل الأمر  
فكأنما غمر ولا قفح وكأنما قفح ولا غمر

وهذه العين نظر التصارى إلى السليح قرأوا إشراف نور الله قد تَلَّاهُ فيه فغلطوا فيه كن يرى كوكبا في مرآة أو في ماء فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء فيمد يده إليه ليأخذه وهو مغرور ، وأتوا في التفرور في طريق السلوك إلى الله تعالى لاخصي في مجلدات ولا تستقصي إلا بعد شرح جميع علوم المكاشفة ، وذلك بما لا رخصة في ذكره ، ولعل القدر الذي ذكرناه أيضا كان الأولى تركه إذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلى أن يسمعه من غيره ، والذي لم يسلكه لا يتفهم بجماله بل ربما يستعجب به إذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمح مالا يفهم ، ولكن فيه فائدة وهو إخراجهم من التفرور الذي هو فيه بل ربما يصدق بأن الأمر أعظم مما يظنه وما يتخيله بنعمته الخضر وغياله القاصر وجدله المزعج ويصدق أيضا بما يحكى له من المكاشفات التي أخبر عنها أولياء الله ، ومن عظم غروره وبما أصغر مكذبا الآن كما يكذب بما سمعه من قبل .

الصف الرابع : أرباب الأموال ؛ والمغترون منهم فرق : ( فقرة منهم ) يحرصون على بناء المساجد والرباطات والقنابر وما يظهر للناس كافة ويكتبون أسامهم بالأجر عليها ليتخذوا ذكراهم ويبنى بعد الموت الزم ، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك . وقد اغتروا فيه من وجهين :

أحدهما : أنهم يبنون من أموال اكتسبوها من العظم والنهب والرشا والمجاهات المحظورة ، فهم قد تعرضوا لخطأ الله في كسبها وتعرضوا لسلطة في إغنائها وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها ، فأذن قد عصوا الله يسكنها فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله وردعا إلى ملاكها إما بأعيانها وإما يرد بدلها عند السجور ، فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردعا إلى الورقة فإن لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أم المصالح ، وربما يكون الأمر التفرقة على المساكين ، وهم لا يفعلون ذلك خيفة من أن يظهر ذلك فينبون الأبنية بالأجر وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء وحرصهم على بقائها لبقاء أسماهم المكتوبة فيها لبقاء الخير .

والوجه الثاني : أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه لحق عليه ذلك ولم تسبح به نفسه ، والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب ، ولولا أنه يريد به وجه الله لما اقتصر إلى ذلك .

( و فقرة أخرى ) ربما اكتسبت المال من الحلال وانفقت على المساجد وهي أيضا مغرورة من وجهين :

أحدهما : الرياء وطلب الثناء فانه ربما يكون في جواره أو بلده قراء وصرف المال لإيمهم أم وأفضل وأولى من الصرف إلى بناء المسجد وزينتها وإنما يغف عليهم الصرف إلى المساجد فيظن ذلك بين الناس .

والثاني : أنه يصرف إلى زخرفة المسجودتين بالنقوش التي هو منهي عنها وشاغلة قلوب المصلين وعطفة أصارهم (١) والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب ، وذلك يفسد قلوب المصلين ويحبط ثوابهم بذلك ، وبال ذلك كله يرجع إليه وهو مع ذلك يفتخر به وروى أنه من الخيرات وبعد ذلك وسيلة إلى الله تعالى ، وهو مع ذلك قد تعرض لخطأ الله تعالى وهو يظن أنه مطلع له وممثل لأمره وقد شوش عباد الله بما زخرفه من المسجد وبما شوقهم به إلى زخارف الدنيا ، فيشتتون مثل ذلك في بيوتهم ويشتغلون بطلبه وبال ذلك كله في رقبته ، إذ المسجدين واضع ولحضور القلب مع الله تعالى : قال مالك بن دينار : أتى رجلان مسجدا فوقف أحدهما على الباب وقال : مثل لا يدخل بيت

(١) حديث : التي عن زخرفة المساجد وتزينها بالنقوش . أخرجه البخاري عن قول عمر بن الخطاب : أكن الناس ولا تغمر ولا تصفر

الله ، فكنته الملكان عند الله صديقا . فكننا يبنى أن تنظم المساجد هو أن يرى ثلوث المسجد بدخوله فيه بنفسه جنازة حل المسجد لا أن يرى ثلوث المسجد بالحرام أو زخرف الدنيا مئة على الله تعالى . وقال الحارثيون للسمع عليه السلام : انظر إلى هذا المسجد ما أحسنه فقال : أمتى أمتى أقول لكم لا يترك أقمن هذا المسجد حجرا قائما على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله ، أن الله لا يعيب بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تتجيبكم شيئا ، وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة بها يمسر الله الأرض وبها يخرب اذ كانت على غير ذلك وقال أبو الدرداء : قال رسول الله ﷺ « إذا زخرتم مساجدكم وحلبتم مصاحفكم فالدمار عليكم » وقال الحسن « وإن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل عليه السلام فقال له : ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء ولا ترخرفه ولا تنقصه » فرور هذا من حيث أنه رأى المنكر واتكل عليه .

( و فرقة أخرى ) يتفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة ، ومن الفقراء من عادته الفكر والإفشاء للمعروف ويكوهون التصديق في السر ، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جنازة عليهم وكفرانا ، وربما يحرمون على إلتحاق المال في الحج فيمحبون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا جيرانهم جياجا ولذلك قال ابن مسعود : في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب ، يكون عليهم السفر ويضطل لهم في الرزق ويحبسون محرومين مساوين ، يهوى بأحدم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه . وقال أنوصر التبار إن رجلا جاء يودع بشر بن الحرث وقال : قد عومت على الحج فأمري بشي ؟ فقال له : كم أعدت للنفقة فقال : أني درهم : قال بشر ، فأنى شيء تبني بسجك ؟ ثمنا أو اشتياقا إلى البيت أو ابتناء مرضاة الله ؟ قال : ابتناء مرضاة الله ، قال : فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتتفق أني درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أفعل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : اذهب فأعطي عشرة أنفس : مدين يقضى دينه ، وفتح يرم شعثه ، ومعمل يبنى عياله ، ومرجى يتم فخره ، وإن قرى قلبك تطعما واحدا فافعل فإن إدخالك السرور على قلب المسلم وإزالة البهتان وكشف الضر وإزالة الضيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام ، قم فأخرجنا كما أمرناك ولا فقل لنا ما في قلبك ؟ فقال : يا أبا نصر سرفى أقوى في قلبي ، فقيم بسر رحه الله وأقبل عليه وقال له : المال إذا جمع من وسخ التجارات والشهات اقتضت النفس أن تقضى به وطرا فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله حل نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين .

( و فرقة أخرى ) من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة ، كهيام النهار وقيام الليل وختم القرآن ، وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج إلى قمع باخراج المال ، فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ، ومثاله مثال من دخل في نوبة حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكتنجين ليسكن به الصغراء ، ومن قتله الحية متى يحتاج إلى السكتنجين ؟ ولذلك قيل لبشر : إن فلانا التقي كثير الصوم والصلاة فقال : المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره وإنما حلل هذا اطعام الطعام للبياع والإلتحاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويع نفسه ومن صلاته لنفسه من جمه الدنيا ومنه للفقراء .

( و فرقة أخرى ) غلبهم البخل فلا تسمح قوسهم إلا بإداء الزكاة فقط ، ثم انهم يخرجون من المال الحديث الرضى الذى يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويردد في حاجتهم ، ومن يحتاجون إليه في المستقبل للاستسخر في خدمة أو من لهم فيه على الجلة غرض ، أو يسلمون ذلك إلى من يبعثه واحد من الأكابر معدن يستظهر بحممه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته . وكل ذلك مفسدتا للية ومخبطات للعمل وصاحبه مغرور ، وظن أنه مطيع

(١) حديث « إذا زخرتم مساجدكم وحلبتم مصاحفكم فالدمار عليكم » أخرجه ابن البارك في الزهد وأبو بكر ابن أبي داود في كتاب الصحاح موقوفا على أبي الدرداء (٢) حديث الحسن مرسل : لما أراد أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل فقال ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء ولا ترخرفه ولا تنقصه . لم أجده .

له تعالى وهو فاجر إذ طلب بعبادة الله عرضا من غيره، فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الأموال أيضا لا يحصى وإنما ذكرنا هذا القدر لتنبيه على أجناس الغرور.

(وفرة أخرى) من عوام الخلق وأدياب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يفهمهم ويفقههم واغفوا ذلك عادة، ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل وبدون الاتعاظ أجرا، وهم مغرورون لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا في الخير فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه، والرغبة محمودة ذنبا تهت على العمل فإن ضعفه عن العمل فلا خير فيها، وما يراه لغيره فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك التفرغ فلا قيمة له، وربما يشتري بما يسمعه من الواظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء وربما يتخذ ورقة كربة المساء فيبكي ولا عزم ورعا يسمع كلاما غرورا فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول: يا سلام سلم أو نعوذ بالله أو سبحان الله ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور. وإنما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يمرى أو الجامع الذي يحضر عنده من يصف له الأطعمة القليلة الشبيهة ثم ينصرف وذلك لا يفي عنه من مرضه وجوعه شيئا. فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يفي من الله شيئا. فكل وعظ لم يغير منك صفة تنهيا يغير أفعالك حتى تقبل على الله تعالى أقبالا قويا أو ضيفا وتعرض عن الدنيا فذلك الوعظ زائد حجة عليك، فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا.

فإن قلت: فاذكره من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه، وهذا يوجب اليأس إذ لا يتقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات؟ فأقول: الإنسان إذا قرت همه في شيء أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستصرع الطريق، وإذا صح منه الهوى اعتدى إلى الحيل واستنيط بديق النظر خفايا الطريق الوصول إلى الغرض، حتى إن الإنسان إذا أراد أن يستنيط الطير المحلق في جو السماء مع بعده منه استنطه وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه، وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه وإذا أراد أن يقتصر الوحوش المعلقة في البراري والصحارى اقتصها وإذا أراد أن يستنيط السباع والفيلة وعظم الحيوانات استنخرها. وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعي ويصبت بها أكلها واستخرج الديارق من أجوافها. وإذا أراد أن يتخذ الرياح اللون المنقش من ورق البوت اتخذها، وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وهرضا استخرج بديق الحسنة ذلك وهو مستقر على الأرض. وكل ذلك باستنيط الحيل وإعداد الآلات، فسخر الفرس للركوب والكباب الصيد وسخر البازي لاقتناص الطيور وهما الشبكية لاصطياد السمك، إلى غير ذلك من دقائق حيل الأدنى. كل ذلك لأن همه أمر دنياه وذلك معين له على دنياه، فلو أهمه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد وهو تقويم قلبه فحصر عن تقويم قلبه وتغافل، وقال هذا حال ومن الذي يقدر عليه؟ وليس ذلك بمحال لو أصبح ومعه هذا المهم الواحد بل هو كما يقال: لو صح منك الهوى أرشدت للحيل. فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبهم بإحسان، فلا يعجز عنه أيضا من صدقت إرادته وقويت همه، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنيط حيل الدنيا ونظم أساليبها.

فإن قلت: قد قربت الأمر فيه مع أنك أكثر في ذكر مداخل الغرور فم ينجو الغرور؟ فأعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور: بالعقل والعلم والمعرفة. فهذه ثلاثة أمور لا بد منها. أما العقل: فأعني به النظرة القرينية والثور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء فالقطة والكيس فطرة، والخن والبلادة فطرة والبلبل لا يقدر على التحفظ عن الغرور، فصفا العقل وذكا الفهم لا بد منه في أصل الفطرة، فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان فاكسأ به غير ممكن، نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السماعات كلها العقل والكياسة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده أشنأنا» (١) إن الرجلين ليستوى علمهما وبرهما وضومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالنذرة في جنب أحد، وما قسم الله خلقه حظا هو أفضل من العقل واليقين، وعن أبي بردة أنه قيل: يا رسول الله رأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويصوم ويصوم ويصدق

(١) حديث «تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده... الحديث» أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية طاوس مرسلا وفي أوله قصة وإسناده نحوه من حديث أبي حميد وهو ضعيف أيضا



ويزور في سبيل الله ويعود المريض ويشيع الجنائز ويمين الضيف ولا يعلم منزله عند الله يوم القيامة فقال رسول الله ﷺ « إنما يحزى على قدر عقله »<sup>(١)</sup> وقال أنس : أتى على رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا غيرا فقال رسول الله ﷺ « كيف عقله ؟ » قالوا : يا رسول الله نقول من عبادة وفعله وخلقه فقال « كيف عقله فإن الآمن يصيب بحكمة أعظم من فيجور الفاجر . وإنما يقرب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم »<sup>(٢)</sup> وقال أبو الدرداء : كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل من عقله فإذا قالوا حسن قال « أوجوه » وإن قالوا غير ذلك قال « لن يبلغ »<sup>(٣)</sup> وذكر له شدة عبادة رجل فقال « كيف عقله » قالوا : ليس بشئ . قال « لن يبلغ صاحبكم حيث تظنون » فالذكاء صحيح وغيره العقل نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة فإن قامت بيلادة وحماة فلا تترك لها .

الثاني : للمعرفة ؛ وأعنى بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور : يعرف نفسه ، ويعرف ربه ويعرف الدنيا ، ويعرف الآخرة . فيعرف نفسه بالعبودية والذل ويكون غريبا في هذا العالم وأجنبيا من هذه السموات البهيمية ، وإنما الموافق له طبعا هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه فقط ، فلا تصور أن يعرف هذا عالم يعرف نفسه ولم يعرف ربه فليست على هذا بما ذكرناه في كتاب المحبة وفي كتاب شرح عجايب القلب وكتاب التفكير وكتاب الفكر ، إذ فيها إشارات إلى وصف النفس وإلى وصف جلال الله ، ويحصل به التنبيه على الجملة وكال المعرفة ورأه ، فإن هذا من علوم المكشوفة ، ولم نطلب في هذا الكتاب إلا في علوم العامة . وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما ذكرنا في كتاب ثم الدنيا وكتاب ذكر الموت ليتبين له لانسبة للدنيا إلى الآخرة ، فإذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ناز من قلبه بمعرفة الله حب الله ، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها ويصير أم أموره ما يوصله إلى الله تعالى وينفعه في الآخرة ، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها ، فإن أكل مثلا أو اشتغل بقضاء الحاجة كل قصده من الاستماعة على سلوك طريق الآخرة . وصحت نيته وان دفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأفاضل والزور إلى الدنيا والجاه والمال فإن ذلك هو المفسد للنية . وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهو نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور .

فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفة باقة وبثقه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى المعنى الثالث وهو العلم : أعنى العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله ، والعلم بما يقربه من الله وما يبعد عنه ، والعلم بأقوال الطريق وعقباته وغوائله ( وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف من ريع العبادات شروطها وقواعد وأقائنها فيفتحها ، ومن ريع العادات أسرار للمعيش وما هو مضطر إليه فيأخذ بأدب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ، ومن ريع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله فإن المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه ، ويعرف من ريع المنهيات الصفات المحمودة التي لا بد وأن توضع خلفا عن المذمومة

(١) حديث أبي الدرداء « أرايت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ... الحديث » وفيه « إنما يحزى على قدر عقله »

أخرجه الخطيب في التاريخ وفي أسماء من روى مالك من حديث ابن عمر وضعفه ولم أره من حديث أبي الدرداء .

(٢) حديث أنس : أتى على رجل عند النبي ﷺ فقال « كيف عقله » ... الحديث » أخرجه داود بن المغيرة في

كتاب العقل وهو ضعيف وقد عني في العلم (٣) حديث أبي الدرداء : كان إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله ...

الحديث . أخرجه الترمذي الحكيم في التواتر وابن عدي ومن طريقه البيهقي في الشعب وضعفه .

بعد عوفا) فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الخدر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور وأصل ذلك كله أن يذهب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصحب به النية ، ولا يحصل ذلك إلا بالمرة التي ذكرناها .

فإن قلت : فإذا فعل جميع ذلك فما الذي يخاف عليه ؟ فأقول يخاف عليه أن يفتنه الشيطان ويدعوه إلى نصح الخلق ونشر العلم ودعوة الناس إلى ماعرفه من دين الله ، فإن المرید المخلص إذا فرغ من تذهيب نفسه وأخلاقه ورأى القلب حتى صفا من جميع المكدرات واستوى على الصراط المستقيم وصغرت الدنيا في عينه فترسها ، واتقطع طعمه عن الخلق فلم يلتصق إليهم ، ولم يبق إلا هم واحد وهو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق إلى لقاءه ، وقد عجز الشيطان عن إغوائه إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا طعمه في أيمن جهة الدين ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله والشفعة على دينهم والتصحب لهم والدعاء إلى الله ، فينظر العبد برحمة إلى العبد فيرأهم حيارى في أمرهم سكارى في دينهم صامعيا قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وفقدوا الطيب وأشرفوا على العطب ، فقلب على قلبه الرحمة لهم وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهيمهم وبين لهم ضلالهم وشردهم إلى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة ، فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق له ، وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتصرف لشدة ضربه أن الألم فوجد له دواء عفو صفوا من غير ثمن ولا تعب ولا مرارة في تناوله فاستعمله فبرى وصح فطاب ثوبه بالليل بعد طول سهره وهذا بالثبات بعد شدة القلق وطاب عينه بعد نهاية الكدر وأصاب لذة العافية بعد طول السقام ، ثم نظر إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك الملة بعينها وقد طال سهرهم واشتد قلقهم وارتفع إلى السماء أنيهم فتذكر أن دواءهم هو الذي يعرفه ويقدر على شفائهم بأسهل ما يكون وفي أرجى زمان ، فأخذته الرحمة والراقة ولم يجد قسمة من نفسه في التباخي عن الاشتغال بملامهم فكذلك العبد المخلص بعد أن اعتنى إلى الطريق وشق من أمراض القلوب شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم وأعضل دأؤهم وقرب هلاكهم وإشفاقهم ، وسهل عليه دأؤهم فأتبعته من ذات نفسه عزم جازم في الاشتغال بتصحيحهم وحرصه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالا للفتنة ، فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالا للفتنة فدعاه إلى الرياضة دعاء خفيا أخفى من ديب النمل لا يشعر به المرید ، فلم يزل ذلك الديب في قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين لخلق تحسين الألفاظ والتفات الحركات والتصنع في الزي والمهيئة ، فأقبل الناس إليه يعظمونه ويجلونه ويوقروه وتوهم يزيد على توهيم الملوك إذ رأوه شافيا لأدوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع فصار أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم ، فأثروه بأبدانهم وأموالهم وصاروا له خولا كالعبيد الخدم يخدمونه وقدموه في المحافل وحكوه على الملوك والسلاطين ، فمعد ذلك انتشر الطمع وارتاحت النفس وذاعت لذة يالها من لذة أصابت من الدنيا شهوة يستحقق معها كل شهوة ، فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها .

فمعد ذلك وجد الشيطان فرصة وامتد إلى قلبه بدفعه يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة . وأما ردة انتشار الطبع وركون النفس إلى الشيطان أنه لو أخطأ فرد عليه بين يدي الخلق غضب ، فإذا أنكر على نفسه ما وجدته من الغضب بادر الشيطان شغل إليه أن ذلك غضبه لأنه إذا لم يحسن اعتقاد المریدين فيه انقطعوا عن طريق الله فوقع في الغرور ، فربما أخرجه ذلك إلى الوقية فيمن رده عليه فوقع في التنية المحظورة بعد تركه الحلال المسح ، ووقع في الكبر الذي هو تمرد عن قبول الحق والشكر عليه بعد أن كان يحذر من طوارق الخطرات ، وكذلك إذا سبق الضحك أو قر من بعض الأرواد جرعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله فأتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء ،

وربما زاد في الأعمال والأوراد لأجل ذلك والشیطان يخيل إليه إنك إنما تفعل ذلك كيلا يفتخر رأيهم عن طريق الله فيتكون الطريق بركة ، وإنما ذلك خدمة وغرور بل هو جرح من النفس خيفة قوت الرئاسة ، ولذلك لا يجمع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه ، بل ربما يجب ذلك ويستثنى به ، ولو ظهر من أقرانه من مالئ القلوب إلى قبوله وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه شق ذلك عليه ولو لا أن النفس قد استشرت واستلكت الرئاسة لكان ينتم ذلك ، إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقعوا في بئر وتغطى رأس البئر بحجر كبير فمضوا عن الرق من البئر بسبه ، فرق قلبه لإخوانه لجاء ليرفع الحجر من رأس البئر فشق عليه فجاهد من أمائه على ذلك حتى تيسر عليه أو كفاه ذلك ونجاه نفسه ، فيعظم بذلك فرحه لامحالة إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر ، فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسلمين من النار فإذا ظهر من أمائه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه ، أرايت لو اهتموا جميعهم من أنفسهم أكل بنبي أنه يثقل ذلك عليه إن كان غرضه هدايتهم ؟ فإذا اهتموا بغيره لم يثقل عليه ؟ ومما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كآثر القلوب وفواحش الجوارح وأهلكه فتمود بالله من زيف القلوب بمد الهدى ومن اعوجاج النفس بمد الاستواء .

فإن قلت : فتي يصح له أن يشتغل بتصح الناس ؟ فأقول إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى وكان يودلو وجد من عينه ، أو لو اهتموا بأنفسهم واقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم ، فاستوى عنده حمدهم وفضيهم فلم يبال بذهابهم إذا كان الله يحمدهم ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقرن به حمد الله تعالى ونظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البهائم . أما إلى السادات : فمن حيث أنه لا يتكبر عليهم ويرى كلهم خيرا منه لجله بالخاصة . وأما إلى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب التزلف في قلوبهم فإنه لا يبال كيف تراه البهائم فلا يترين لها ولا يصنع ؛ بل راعى الماشية إنما غرضه رعاية الماشية ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه ، فإلم ير سائر الناس كالماشية التي لا يلتفت إلى نظرها ولا يبال بها لاسلم من الاشتغال باصلاحهم . نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه باصلاحهم فيكون كالسراج يضيئ لغيره ويحترق في نفسه .

فإن قلت : فلو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة خلعت الدنيا من الوعظ وغربت القلوب ؟ فأقول قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة <sup>(١)</sup> » ولو لم يحب الناس الدنيا لملك العالم وطلعت المايش وهلكت القلوب والأبدان جميعا ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم علم أن حب الدنيا مهلك وأن ذكر كونه مهلكا لا يزعج الحب من قلوب الأكثرين لا الأقلين الذين لا تغرب الدنيا بتركهم ، فلم يترك النصيح وذكر ما في حب الدنيا من الخطر ولم يترك ذكره خوفا من أن يترك نفسه بالشهوات المملكة التي سلطها الله على عباده ليسوقهم بها إلى جهنم تصديقا لقوله تعالى ﴿ ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ فكذلك لا تزال أسنة الوعاظ مطلقة لحب الرئاسة ولا يدعونها بقول من يقول : إن الوعظ لحب الرئاسة حرام ، كما لا بدع الحلق الشرب والزنا والسرقة والرياء والظلم وسائر المعاصي يقول الله تعالى ورسوله إن ذلك حرام ، فأنظر لنفسك وكن فارغ القلب من حديث الناس ، فإن الله تعالى يصلح خلقا كثيرا بأفساد شخص واحد واشتغاض ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ وإن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاختلق لهم ،

(١) حديث « حب الدنيا رأس كل خطيئة » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسل وقد تقدم في كتاب فم الدنيا .

فإنما يخشى أن يفسد طريق الاتعاط ، فأما أن تغرس السنة الوعظ ووراهم باعث الرياسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك أبداً .

فإن قلت : فإن علم المريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك التصح أو نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه فإلّا الذي يخاف عليه وما الذي يقي بين يديه من الأخطار وحائل الاغترار؟ فأعلم أنه يقي عليه أعظمه وهو أن الشيطان يقول له : قد أصحرتني وأفكت مني بكائنك وكال عقلك وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت عليك فما أصبرك ! وما أعظم عند الله قدرك وعملك إذ قواك على تهمري ومكنتك من التفتن بلجميع مداخل غروري فيصني إليه وصدقه ويسجب بنفسه في فراه من الغرور كله ، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الأكبر ، فالعجب أعظم من كل ذنب ولذلك قال الشيطان : يا ابن آدم إذا ظننت أنك بملك تخاصمت مني فبجلك قد وقعت في حبال .

فإن قلت : إنه لو لم يسجب بنفسه إذ علم أن ذلك من الله تعالى لآمنه وإن مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله تعالى ومعوته ، ومن عرف ضعف نفسه وصبره عن أقل القليل فاذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى فإلّا الذي عليه بعد نفي السجب ؟ فأقول : يخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكروه حتى يظن أنه يقي على هذه الوثيرة في المستقبل ولا يخاف من الفترة والانتقال ، فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط دون أن يقارنه الخوف من مكروه ، ومن آمن مكروه الله فهو خاسر جداً ، بل سبيله أن يكون مشاهداً جملة من ذلك من فضل الله ثم خائفاً على نفسه أن يكون قد سعت عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات إلى هو وهو غافل عنه ، ويكون خائفاً أن يسلب حاله في كل طرفة عين غير آمن من مكروه الله وغافل عن خطر الخاتمة . وهذا خطر لا يحصى عنه وخوف لا نجاة منه إلا بعد مجاوزة الشرائط ، ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزح وكان قد بقي له نفس فقال : أفلت مني يا فلان ؟ فقال : لا ، بعد . ولذلك قيل : الناس كلهم هلكت إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكت إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكت إلا المخلصون والمخلصون كلهم على خطر عظيم . فاذن المغرور هالك والمخلص الناز من الغرور على خطر فذلك لا يفارق الخوف والحذر لقلب أولياء الله أبداً .

فلنسال الله العون والتوفيق وحسن الخاتمة ، فإن الأمور بخواتيمها .

ثم كتاب ذم الغرور . وبه تم ربيع المهلكات ، ويلوه في أول ربيع المنجيات « كتاب التوبة » والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده وهو حبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ثم الجزء الثالث من كتاب إحياء علوم الدين  
وبه الجزء الرابع وأوله : « كتاب التوبة »

# فهرست

## الجزء الثالث من كتاب إحياء علوم الدين

صفحة	مصحف
٢	كتاب شرح مجائب القلب
٣	وهو الكتاب الأول من ربيع المہلکات
٥	بیان معنی النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسماء
٦	بیان جنود القلب
٧	بیان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة
١٠	بیان خاصية قلب الإنسان
١٣	بیان جامع أوصاف القلب وأمثلة
١٦	بیان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة
١٨	بیان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والأخرية
٢٠	بیان الفرق بين الإلهام والطريق والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق وطريق النظر
٢٢	بیان الفرق بين المقامين مثال محسوس
٢٦	بیان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد
٣٢	بیان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها
٤١	بیان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب
٤٣	بیان ما يؤخذ به العبد من وساوس القلوب ومها وخوافها وقصودها وما يعنى عنه ولا يؤخذ به
٤٨	بیان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالسكينة عند الذكر أم لا
٤٨	كتاب رياضة النفس
٥٥	بیان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في الخير والسيئات
٥٦	وتهديب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب وهو الكتاب الثاني من ربيع المہلکات
٥٩	بیان فضيلة حسن الخلق وعلامة سوء الخلق
٥٢	بیان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق
٥٦	بیان قبول الأخلاق للتغير بطريق الرياضة
٥٨	بیان السبب الذي به يتأهل حسن الخلق على الجملة
٦٠	بیان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق
٦٢	بیان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة
٦٤	بیان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه
٦٥	بیان شواهد الثقل من أدب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات
٦٩	بیان علامات حسن الخلق
٧٢	بیان الطريق في رياضة الصبيان في أول نفوسهم ووجه تأديبهم وتصحيح أخلاقهم
٧٤	بیان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدين وتدرج المريد في سلوك سبيل الرياضة

صفحة

كتاب كسر الشهوتين

وهو الكتاب الثالث من ربيع المهلكات

- ٧٩ بيان فضيلة المجموع ودم الشبح  
٨٠ بيان فوائد المجموع وآفات الشبح  
٨٤ بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن  
٨٩ بيان اختلاف حكم المجموع وفضيله واختلاف  
٩٦ أحوال الناس فيه  
٩٨ بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل  
الشهوات وقال العلماء  
٩٩ القول في شهوة الفرج  
١٠١ بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله  
١٠٤ بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين

كتاب آفات اللسان

وهو الكتاب الرابع من ربيع المهلكات

- ١٠٨ بيان عظم خطر اللسان وفضيلة الصمت  
١١٢ الآلة الأولى من آفات اللسان الكلام فيما  
لا يعينك  
١١٤ الآلة الثانية فضول الكلام  
١١٥ الآلة الثالثة الخوض في الباطل  
١١٦ الآلة الرابعة المراء والجدال  
١١٩ الآلة الخامسة الخصومة  
١٢٠ الآلة السادسة الضمر في الكلام بالتصدق  
وتكلف السجع والقصاحة الخ  
١٢١ الآلة السابعة القهش والسب وبذاءة اللسان  
١٢٣ الآلة الثامنة اللعن  
١٢٦ الآلة التاسعة القناء والشعر  
١٢٧ الآلة العاشرة المزاج  
١٣١ الآلة الحادية عشرة السخرية والاستهزاء  
الآلة الثانية عشرة إفساء السر  
١٣٢ الآلة الثالثة عشرة الوعد الكاذب  
٣٣٠ الآلة الرابعة عشرة البكك في القول والعين

صفحة

- ١٣٧ بيان ما يخص فيه من الكذب  
١٣٩ بيان الحذر من الكذب بالمأربض  
١٤١ الآلة الخامسة عشرة الغيبة  
١٤٣ بيان معنى الغيبة وحدودها  
١٤٤ بيان أن الغيبة لا تقصر على اللسان  
١٤٦ بيان الأسباب الباعثة على الغيبة  
١٤٨ بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة  
١٥٠ بيان تحريم الغيبة بالقلب  
١٥٢ بيان الأعداء المرغصة في الغيبة  
١٥٣ بيان كفارة الغيبة  
١٥٤ الآلة السادسة عشرة الغيبة  
١٥٦ بيان حد التهمة وما يحصى ردحا  
١٥٨ الآلة السابعة عشرة كلام ذي اللسانين  
١٥٩ الآلة الثامنة عشرة المدح  
١٦١ بيان ما على الممدوح  
١٦١ الآلة التاسعة عشرة الغفلة عن دقائق  
الحق في لغو الكلام  
١٦٢ الآلة العشرون سؤال العوام عن صفات الله  
تعالى وعن كلامه وعن الحروف الخ  
١٦٤ كتاب ذم الغضب والحقد والحسد  
وهو الكتاب الخامس من ربيع المهلكات  
١٦٤ بيان ذم الغضب  
١٦٦ بيان حقيقة الغضب  
١٦٩ بيان أن الغضب هل يمكن إزالته أصله  
بالرياضة أم لا  
١٧٢ بيان الأسباب المبيجة للغضب  
١٧٣ بيان علاج الغضب بعد هيجانه  
٢٧٥ بيان فضيلة كظم الغيظ  
١٧٦ بيان فضيلة الحلم  
١٧٩ بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتنفى  
به من الكلام  
١٨١ القول في معنى الحقد وتناجه وفضيلة العفو  
والرقى

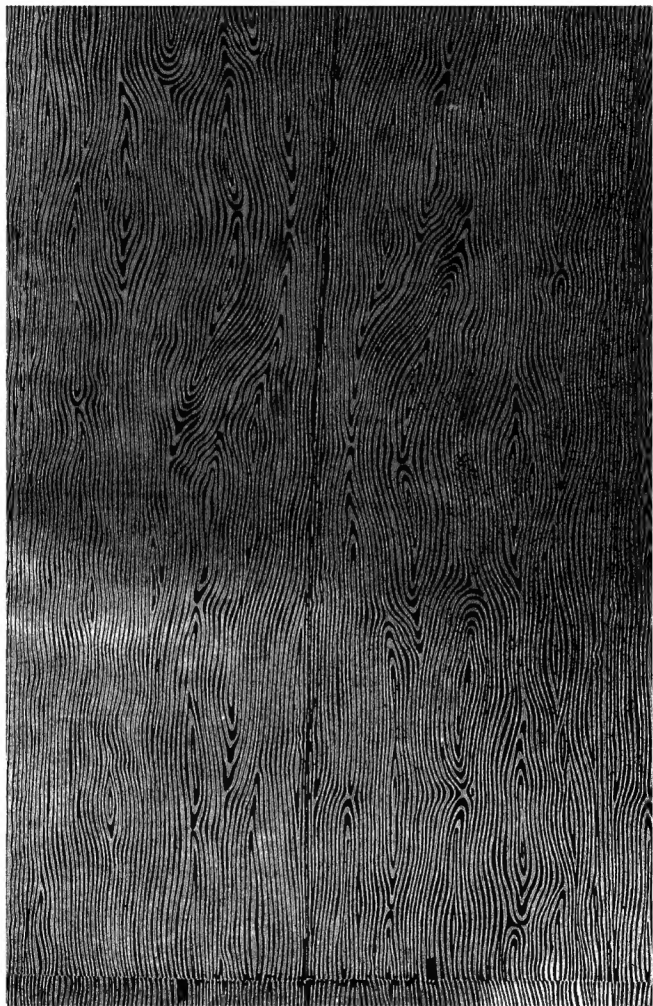
صفحة	
٢٤١	بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذي يكتب به صفة القناعة .
٢٤٣	بيان فضيلة السخاء .
٢٤٧	حكايات الأسخياء .
٢٥٢	بيان ذم البخيل .
٢٥٦	حكايات البخلاء .
٢٥٧	بيان الإيثار وفضله .
٢٥٩	بيان حد السخاء والبخل وحقيقتها .
٢٦١	بيان علاج البخل .
٢٦٢	بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله .
٢٦٤	بيان ذم الغنى ومدح الفقر .
٢٧٤	كتاب ذم الجاه والرياء .
	وهو الكتاب الثامن من ربيع المهلكات وفيه شطران
٢٧٤	القطر الأول في حب الجاه والشهرة فيه .
	بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخول الخ
	بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت
٢٧٦	بيان فضيلة الخول
٢٧٨	بيان ذم حب الجاه
٢٧٨	بيان معنى الجاه وحقيقته
٢٧٩	بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة
٢٨٢	بيان الكمال الحقيقي والكمال الومى الذى لاحقيقه له
٢٨٥	بيان ما يبعد من حب الجاه وما ينم
٢٨٦	بيان السبب في حب المدح والتناء وارتياح النفس به وميل الطبع اليه وبضها للنم وقرتها منه
٢٨٧	بيان علاج حب الجاه
٢٨٩	بيان وجه علاج لحب المدح وكرامة النم
٢٩٠	بيان علاج كرامة النم
٢٩١	بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والنم

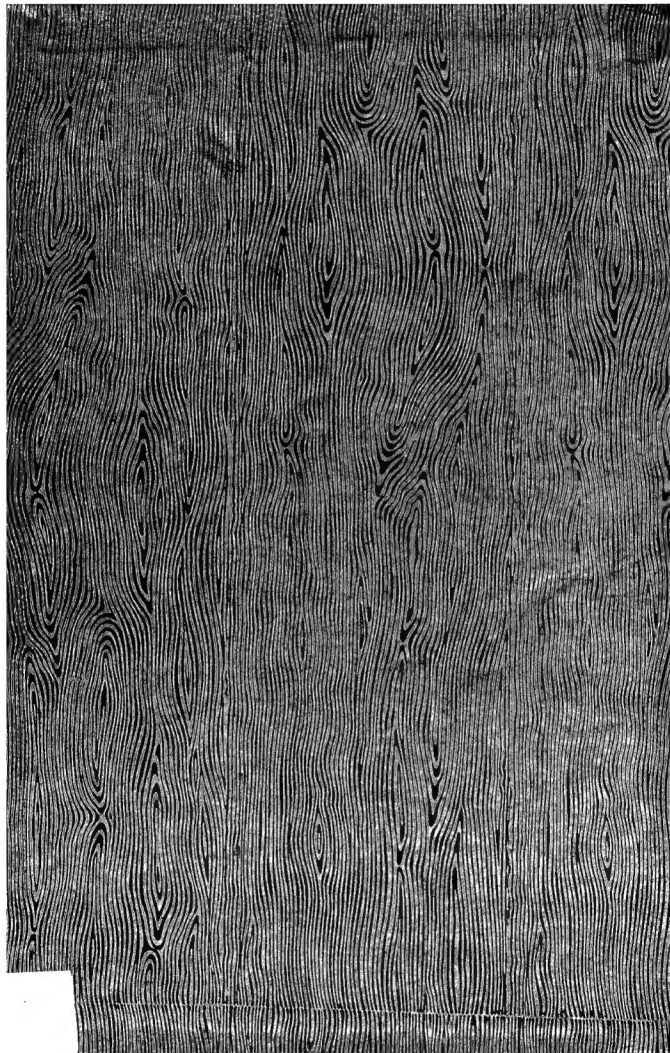
صفحة	
١٨٢	فضيلة العفو والإحسان
١٨٤	فضيلة الرقى
١٨٦	التول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته
	بيان ذم الحسد
١٨٩	بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه
١٩٢	بيان أسباب الحسد والمنافسة
١٩٤	بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والأخوة وبين العم والأقارب وتأكده وقلته في غيرهم وضعفه
١٩٦	بيان الدواء الذى ينفي مرض الحسد عن القلب
١٩٩	بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب
٢٠٢	كتاب ذم الدنيا
	وهو الكتاب السادس من ربيع المهلكات
٢٠٢	بيان ذم الدنيا
٣١١	بيان المواظ في ذم الدنيا وصفتها
٢١٤	بيان صفة الدنيا بالأمثلة
٢١٩	بيان حقيقة الدنيا وما هيته في حق العبد
٢٢٤	بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت همم الخلق حتى أنسهم أنفسهم وغالغهم ومصدرهم ومورد
٢٣١	كتاب ذم البخل وذم حب المال
	وهو الكتاب السابع من ربيع المهلكات
٢٣٢	بيان ذم المال وكرامة حبه
٢٣٤	بيان مدح المال والنجس بينه وبين النعم .
٢٣٥	بيان تفصيل آفات المال وفوائده
٢٣٧	بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة والياس بما في أيدي الناس

٣٣٦	بيان ذم الكبر والعجب	٢٩٣	الفصل الثاني من الكتاب في طلب الجاه
٣٣٩	بيان الاختيال واطهار آثار الكبر في		والمثناة بالعبادات وهو الرياء وفيه بيان ذم
	التي وجر الثياب		الرياء إلى آخره
٣٤٠	بيان فضيلة التواضع	٢٩٣	بيان ذم الرياء
٣٤٣	بيان حقيقة الكبر وآله	٢٩٧	بيان حقيقة الرياء وما يراى به
٣٥٤	بيان التكبر عليه ودجاجة وأقسامه وثمرات	٣٠١	بيان درجات الرياء
	التكبر	٣٠٥	بيان الرياء الحق الذي هو أخفى من ديب التمل
٣٤٧	بيان ما به التكبر	٣٠٧	بيان ما يحبط العمل من الرياء الحق والجل
٣٥٣	بيان الجوارح على التكبر وأسبابه المبيجة له		وما لا يحبط
٣٥٤	بيان أخلاق التواضعين وبما يصح ما يظهر فيه	٣١٠	بيان ذم الرياء وطريق معالجة القاب فيه
	أثر التواضع والتكبر	٣١٧	بيان الرخصة في قصد اظهار الطاعات
٣٥٨	بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب	٣١٩	بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة
	التواضع له		اطلاح الناس عليها وكراهة ذمهم لها
٣٦٨	بيان غاية الرياضة في خلق التواضع	٣٢٢	بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء ودخول
٣٦٩	بيان ذم العجب وآفاته		الآفات
٣٧٠	بيان آفة العجب	٣٣٠	بيان ما يصح من نشاط العبد العبادة بسبب
٣٧١	بيان علاج العجب على الجملة		رؤية الحق وما لا يصح
٣٧٤	بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه	٣٣٢	بيان ما ينبغي للريد أن يلزم نفسه قبل العمل
٣٧٨	كتاب ذم التورور		وبنده وفيه
٣٧٩	بيان ذم التورور وحقيقته وأشئلته	٣٣٦	كتاب ذم الكبر والعجب
٣٨٨	بيان أصناف المفترين وأقسام فرق كل صنف		









Bibliotheca Alexandrina



0382744